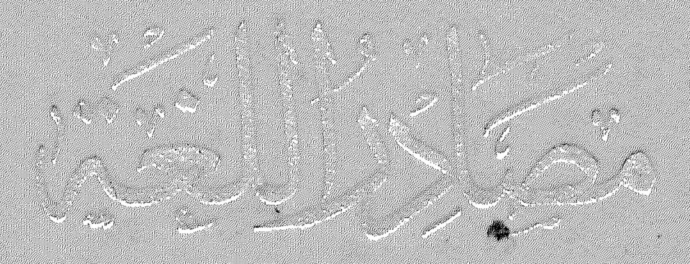
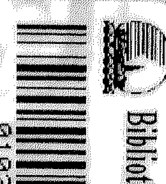
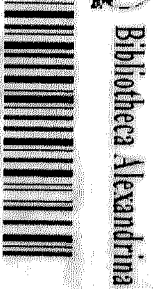
الدكتور عبد الحميد الشلقاني














مصادر اللغة

الطبعة الأولى

1977

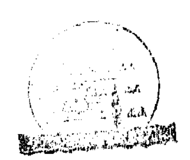
الطبعة الثانية

1391 و. ر — 1982 م

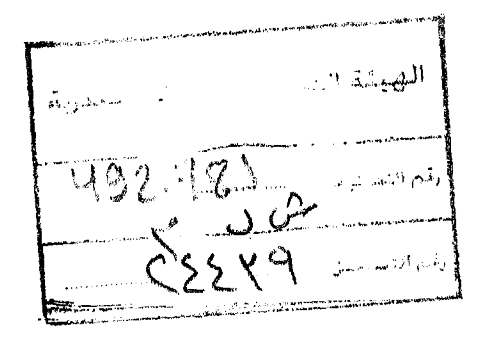


المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الدكتور عبد الحميد الشلقاني



مصادر اللغة



منشورات
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

تسألني أن أهديها الكتاب ،

كأنها تجد فيه حبّي ، ولم تدرِ أنها

في السواد من حبّة القلب .

إلى ابنتي

المؤلف



تصـــديـــر

يتعين علينا ، ونحن نقدم تأليفا عن مصادر اللغة ، أن نشير الى قضية تناولها العلماء القدامى عن أصل اللغة ، هل هى توقيف والهام أم اصطلاح ووضع ؟

وأغلب الظن أن الذين قالوا بتوقيفية اللغة هم أصحاب الرأى بأزلية القرآن ، وأنه غير مخلوق ، فوجب ليستقيم رأيهم هذا ، وليكونوا منطقيين مع أنفسهم ، أن يقولوا أن اللغة توقيف ، والهام ، ووحى •

كان أحمد بن فارس يقول بالتوقيف ، جاء ذلك فى كتاب الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، واستدل على ذلك بقول الله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) ثم يقول « والدليل على صحة ما نذهب اليه اجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج لو اصطلحنا على لغه اليوم ولا فرق » ونفى الاصطلاح الى زمانه وقال : « وخلة أخرى أنه لم يبلغنا أن قوما من العرب فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شىء من الاشياء مصطلحين عليه فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم » •

هذا كلام ابن فارس ، ولم يأت فيه بحجة بالغة ، ولا رأى مقنع ونحن نعلم أنه في كل وقت يجمع الناس على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، وهل الترادف الذي عرف فى العربية الا من اختلاف ألسنة القبائل ، وهل اختلاف الألسنة الا دليل التواضع والاصطلاح وليس من المعقول أن يصدر الترادف من ناطق واحد ، كل ما هنالك أن الدائرة التي أحاط بها بصر ابن فارس كانت من التحديد بحيث لم ير فيها وضعا ولا اصطلاحا •

وعقد ابن جنى في كتاب الخصائص حديثا مطولا تتلخص محصلته فى تأويل الآية الكريمة (وعلم آدم الاسماء كلها) أن الله أقدر آدم على أن واضع عليها وان بقى مشدودا بسبب لطف العربية وجمالها الى الميل نحو التوقيف ، كأنه يقف بين الرأيين وذلك حيث يقول (واعلم فيما بعد أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغوّل على فكرى • وذلك أننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ••••• فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه ، وأنها وحى) •

ولابن جنى ، هذا العالم اللغوى الفيلسوف الفذ مكانة أوقفتنى مبهوتا اتدبر هذا الذى يقوله ، وأراجع معه حجته ، ولم يطل وقوفى حتى وجدته قد مال عن رأيه هذا ، وعبر عن هذا التردد بقوله :

(••• ثم أقول في ضد هذا : كما وقع لاصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ــ وان بعد مداه عنا ــ من كان ألطف منا أذهانا ، وأسرع خواطر ، وأجرأ جنانا فأقف بين تين الخلتين حسيرا) •

ولم يلبث أن وجد التفسير بعد أن مـازج بـين التوقيف والوضـع بقوله : (ان الله أقدر آدم) وفى هذه الجملة وحدها ـ في رأيى ـ تفسير القضية ـ ولعله يعنى أن ناحية التوقيف هى ما تميز به الانسان من قـدرة على التلفظ بعد فهمه للدلالة ، فالدلالة تواضع ، أما التلفظ فهى الميزة غير الغريزية التى زاد بها الانسان عن سائر المخلوقات ، فالانسان على اختلاف أجناسه وألوانه هو المخلوق الـذى استطاع أن يـدرك العلاقـات بـين الموجودات ، وأن ترتبط عنده اللغة بالفكر ، وفى هذا كان ارسطو دقيقـا عندما عرف الانسان بأنه الحيوان الناطق وشرح الناطق بأنه المفكر •

والصوت من أبرز العلاقات الموجودة بين الكائنات ، حتى بدا لبعض العلماء ومنهم ابن جنى أن بعض الالفاظ مستمد من أصواتها فى الطبيعـة كدوى الريح ، وخرير الماء ، ومعنى هـذا أن الذين اصطلحوا على اللغة ، قد أدخلوا فى اعتبارهم الجرس الصوتى وان لم يجعلوا منه قاعدة عامة • وتأكدت بذلك قاعدة الوضع وليس التوقيف •

ويرى « سابير » أن الالفاظ هى مجرد صوتيات يميز بهـا الانسان تجاربه الحسية أو المعنوية ، ويختزنها لتكون مؤونته مـن المعرفـة ومـن وسائل الحصول على معارف أخرى ، ويتم التفاهم بواسطتها حـين تطرق آذاننا بمجرد سماعها مشيرة الى نتيجة من نتائج التجربة المعروفـة لـدى القائل والسامع لانهما اصطلحا على أن يعطياها تلك الدلالة ، ولكى يتـم هذا الارتباط بين الاسم ومسماه يجب أن تتكرر التجربة المؤدية الى هذه المعرفـة مرارا •

وعلى هذا الاساس فليس فى اللغة شىء توقيفى الا هـذه القـدرة التى أودعها الله في ملكات الآدميين وميز الانسان بها عن الكائنات الاخرى

ـ أما التبجيل الذى لف العربية بهالة من القداسة فمرده الى هذه الآثار الشامخة من الدين والفكر والادب التى سجلت بهذه اللغة .

والفارق بين العربية وبين اللغات الاخرى هو هذه الديمومة التى صاحبت العربية منذ نزل بها القرآن الكريم ، ونحن نعلم أن اللغات بصفة عامة كالكائن الحى تولد مع الاحياء وتنسو بنسوهم ، وتتعرض لعوامل التأثير والتأثر باللغات الاخرى ، الا أن العربية قد وضعت فى سياج متين يسمح بخلودها ، ويسمح باستعدادها لتقبل المزيد دون أن يسمح بفقدان حرف واحد ورد فى القرآن الكريم . وعبر عن ذلك المستشرق ارنست رينان بقوله « ولست أدرى اذا كنا نستطيع أن نجد مثلا آخر للهجة شقت طريقها فى العالم دون أن تمر بمرحلة بدائية ومراحل وسطى ودون تعثر » .

وعلل يوهان فك لخلود العربية بقوله « ان لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم أيا كانت لغته الاصلية جزءا لا ينفصل من حقيقة الاسلام »

والقرآن الكريم هو الدافع الاول لرواية اللغة ، وابتعاث ماضيها . وبقائها حية ، والقرآن أكثر المصادر طمأنينة وتوثيقا للعناية الفائقة التى صاحبت نزوله ، فقد تفرغ نفر من الصحابة رضوان الله عليهم يتلقونه من النبي صلى الله عليه وسلم حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا . ولا اثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم منه شك ولا وهم ، ثم تناوله القراء بالعناية على النحو الذي سنفصله بعد ـ ثم جمع ودون مع بقاء روايته محاطة بالعناية الشديدة .

ومن خلال الشروح ـ وضع اللغويون أيديهم على كلمات أدركها القدم ، وكلمات عرفت لقبائل بعينها ، وعبارات تجرى على ألسنة العرب

لا يدركها تقعيد النحاة على النحو الذى ورد فى كتاب المجـاز لأبى عبيدة معمر بن المثنى وهو يعنى بالمجاز بيان الاساليب التى يستعملها القرآن فى التعبير عن أغراضه . كما أشار اللغويون الـى مواقع الذوق اللغوى فـى القرآن حين يكنى عن الشىء بلفظ أرفع وأكثر تأدبا فـى مثل ما ورد فى قوله تعالى (ولكن لا تواعدوهن سرا) وقوله (أوجاء أحـد منكم مـن الغائط) الى غير ذلك من الاساليب التى نفصلها فى البحث .

ولهذا جعلنا القرآن الكريم على رأس مصادر العربية . ونحن نعلـم أنه يأتى فى مرحلة تالية زمنيا لبعض المصادر الاخرى ، فهو أهمهـا وليس أقدمها ــ ذلك لأن العرب وان اختلفوا فيه ككتاب دين ، فلقد اتفقوا على عربيته المعجزة ، ولخلوص عربيته كان الفخر الرازى يقول متعجبـا : اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى .

والباب الثانى (رواية الحديث) وصلته بمصادر العربية لا يأتى فى المرتبة الثانية بعد القرآن ، ولا يأتى كذلك فى المرتبة الثانيـة تاريخيـا . ذلك أن كثرة من اللغويين لا يعتمدون على الحديث فى مجـال الروايـه اللغوية للآفات الثلاث التى صاحبت روايته من الناحية اللغوية وهى الرواية بالمعنى ، والتصحيف ، والوضع . فكان سفيان الثورى يصرح بأنه يروى الحديث بالمعنى ، وقد أبيح ذلك لمصلحة تحصيل الحكم منه .

وتشابهت الكلمات المصحفة حتى غمت على رجال اللغـة أنفسهم ــ وذكر ابن منظور مثل هذا الاختلاف وهو يروى الحـديث (اتقوا عـلى أولادكم قسحة العشاء) قاله أبو عمرو بن العلاء بالفاء ، وقالـه عيسى بـن عمر الثقفى بالقاف . ويتعدد هذا فى الحروف المتماثلة في الخط المختلفـة فى النقط .

أما الوضع فكان وسيلة الفرق حين توزعت أهواء المسلمين السياسية والمذهبية واشتهرت بيئة العراق بذلك ، واذا ذهب الخوارج مثلا في سبيل تأييد مذهبهم الى وضع الحديث ، فان الذين ناوأوا الخوارج قد لجأوا الى نفس الوسيلة . يقول المبرد : كان المهلب ربما صنع الحديث يشد به من أمر رجال الدولة ، ويضعف من أمر الخوارج ، فكان حيّ من الازد يقال لهم الندب اذا رأوا المهلب رائحا اليهم قالوا : راح المهلب يكذب .

ومن العلماء من وضع الحديث ترغيبا في الدين ، وجره حسن المقصد الى تبرير الوضع وكأنه يضع الحديث حسبة . واستفاضت هذه الآفة على ألسنة رجال حسن مقصدهم لكونهم لا يعانون صناعة أهل الحديث . من وجوب التثبت والتحرج ، فنشطت على الاثر حركة تنقية الحديث . فأخرج الحافظ الحسين بن ابراهيم الجوزقاني كتاب (الاباطيل) وكتب أبو الفرج بن الجوزي كتابا في الاحاديث الموضوعة ، أسماه « كتاب القصاص والمذكرين » أشار فيه الى جناية القصاص في وضع الحديث كما ألف كتاب « الموضوعات » وفيه فصول عن القصاص وأكاذيبهم ، وكذلك حمل شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية حملة شعواء على القصاص الذين روجوا بضاعتهم بالاحاديث ، وله في هذا كتاب « أحاديث القصاص » وللسيوطي عدة مؤلفات في تنقية الحديث والاشارة الى الموضوع منها .

ولكن لم تمض هذه الآفات من غير فائدة، فقد وردت بعض الاحاديث ملحونة نتيجة لشوب الرواية — وبديهي أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمى العرب حديثا — فكان بعض الرواة وأصحاب المعرفة بالعربية يقيمون اعراب الحديث ، ويصلحون ما فيه من لحن — بدأ ذلك النضر بن شميل . وكان الاوزاعي يوصي باصلاح الحديث ويقول : اعربوا الحديث فان القوم كانوا عربا ، وكان الشعبي يصرح بتغيير شكل الحديث ليستقيم اعرابه .

ولكن الامر فى الحديث كمصدر من مصادر العربية لم يترك جملة ، فقد تناوله أصحاب المعاجم ، واحتجوا به ومن غير أصحاب المعاجم احتج به أبو زكريا الفراء ، وابن قتيبة وآخرون • كما أثرت العربية من خلال الشروح والتفاسير التى تناولت الحديث ــ ذلك أن رجال الحديث كانوا يدركون أنهم يروون أثرا عربيا له خطره ، فكانوا يذهبون الى علماء اللغة فى سبيل التعرف على غريبه ، وكتب فى غريب الحديث جل علماء اللغة الى أن جاء أبو عبيد القاسم بن سلام ، فوضع كتابا جامعا رغب فيه علماء اللغة والحديث والفقه جميعا، ثم حذا حذوه أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، وكتب الزمخشرى كتاب الفائق فى غريب الحديث ، وأفاد من هذه الكتب ابن الاثير الجزرى حين وضع كتاب « النهاية فى غريب الحديث والاثر » ، وجاءت بعض الاحاديث على لهجات القبائل كحديثه صلوات الله وسلامه عليه ، الى رؤساء اليمن وغيرهم، فاشتملت على كلمات عرف بها الشراح كابدال النون من العين فى أعطوا حيث يقولون (أنطوا) وابدال لام التعريف ميما كما جاء فى الحديث (ليس من امبر امصيام فى امسفر) •••

والحديث لا يحتل المركز الثانى من مصادر العربية . ولكن تداعى الخواطر أمام القرابة الواشجة بين القرآن والحديث ، ومجىء التعاليم مجملة فى الكتاب وقيام السنة بتفصيلها تسائلك عن دور الحديث بين المصادر ؛ وتفرض عليك بيان الوجه فى هذا الترابط .ولهذا وحده أفردنا له الباب الثانى •

وكان الشعر أغزر المصادر ، وأوسع الاوعية التى أمدت العربية بالمدد الواسع وهو أقدمها أيضا ؛ واذا كان الذين أرخوا للشعر الجاهلى لا يستطيعون الغوص وراءه الى أكثر من قرن ونصف قبل الاسلام فانهم لم ينفوا قيامه قبل ذلك بكثير •

والكثرة الكاثرة يضعون الشعر فى المرتبة الاولى من مصادر العربية، ولا يغير من أهميته وسعته أن وضعناه فى الباب الثالث للاعتبارات التى نوهنا عنها ، تناولنا الشعر فى الجاهلية بشىء من الايجاز لأنه صريح العروبة ، والذين حاولوا افتراض الشك فيه كمنهج من مناهج الدراسة تلقوا من الرد على هذا المنهج ما أشبع الموضوع بحثا .

ولم نكتف بمثل هذا الايجاز فى الفترة الاسلامية حين تطالعنا النصوص بقضية ضخمة تستند الى خبر منسوب لعمر بن الخطاب يقول فيه (لقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) ثم تجد تعقيبا لمحمد بن سلام الجمحى على هذا الخبر يقول فيه (فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته) تمهلنا فى قبول هذا التعليق ، ونحن نتصور وفرة الشعر بسبب الدواعى الى قوله : معارضة للدعوة ، أو تأييدا لها ، وهجرة الى مواطن أكثر أمنا ، وحربا تدور بين العرب والعرب ،ورثاء للقتلى ، ووفودا تأتى مستكشفة أمر هذا الدين ، الى غير ذلك .

وكان الراشدون يعنون بالشعر . وفى مقدمتهم عمر رضوان الله عليه ، لم تلههم الخلافة وأعباء الفتوح عن الخوض فيه ، واذا كان هذا الشعر يرتبط بالدعوة على وجه من الوجوه ، فان المنازع الى قول الشعر فى الجاهلية قد عاشت فى البادية لم تتأثر بالدعوة فى كثير . فالاعشى الذى أعد قصيدته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهمّ بالخروج اليه ليعلن اسلامه ، كان مجيئه استمرارا لمسلكه فى الجاهلية حين كان يتجر بالشعر ، وللحطيئة من الاخبار ما يدل على أعرابية جافية ، ثم كانت عودة الى العصبية الجاهلية حين قامت الدعوة الاموية ـ بالاضافة الى ذيوع شعر الغزل فى الحجاز وقيام الهجاء بالعراق ، والمديح بالشام ، والهراش

بين الفرق المختلفة شيعة وخوارج ومرجئة وشعوبية ••• على النحو الـــذى فصلناه فى البحث •

كان لا بد لنا أن نتوقف أمام تفسير محمد بـــن سلام الجمحى للخبر الذى نسب الى عمر بن الخطاب ، وكان لا بد من فضل بيان عن الشعر فى هذه الفترة وهو جل بضاعة الرواة فى سبيل بحثها عن اللغة ومصادقها حتى بدا لنا أننا أطلنا الحديث عن الشعر وكأننا نعالج قضية أدبية ، وترددنا فى الابقاء على هذه السعة ، أو الاكتفاء بالاشارة اليها فى الهوامش ، فلمـــا حاولنا الاقتضاب خشن البحث ، وصعب تناوله فيسرناه بقليل من الاطناب نستريح اليه من جفاف البحث البحث الى ترويه الرواية المفصلة •

وجاء علماء اللغة ــ وأصبحت الرواية اللغوية علما تعد له الاصول ، ويشترط فيه الاركان ، كان علينا أن نبين نشأة هذا العلم ، واتجاه علمائـــه فى البصرة بادىء الامر ، ثم فى الكوفة على أثرها ، قبل أن يأخـــذ سبيله الى بغداد والامصار الاخرى فحين دعت الدواعى الـــى جمـــع العربيـــة ، وتدوينها ، نشطت لذلك بادىء الامـــر مدرستان الاولـــى فـــى البصرة ، والثانية فى الكوفة ، وعماد المدرستين التسليم بما نطق به العربى الخالص العروبة ــ والاصل الوحيد المدون ، والمتفق عليه هو القرآن الكريم ، وهو أصل لا يجمع كل ألفاظ العربية ، فذهب كل فريق يلتمس اللغة مـــن أفواه خلص الاعراب ، ولهم فى ذلك رحلات الى قلب الجزيرة استمعوا فيها الى كل ما صادفهم من غير تمييز ما دام قـــد تحقق شرط البـــداوة أو خلوص العروبة فنقلوا عن رجال ، ونساء ، واماء ، وصبية ، ومجانين •

وأراد بعضهم أن يستوثق الى ما نقل فدون الى جـــانب الكلمة بعض العبارات التى تشير الى موطنها أو قبيلتها ، كأن يقول : سمعت كـــذا مـــن

صبية يرتجزون ، أو رأيت امرأة تسأل بمنى ، أو سمعت سروية مستجدية بمكة تقول كذا وكذا . وذهب بعضهم يتبع الكلمة بشاهد من الشعر أو الرجز يقوم حفظه مقام تدوينه ، أو تدون الكلمة والشاهد زيادة في التوثيق ، وقد ينسب الشعر أو الرجز لقائله ، وقد يترك غير منسوب الى أن يأتى الشراح بعد ذلك فيكملون هذا النقص، ولكن هل يصلح هذا العمل بصورته هذه ليكون أصلا من أصول اللغة ؟ وما الرأى فيما أسفر عنه هذا الجمع من شواذ يصعب دركها تحت شعار نادوا به وهو أن كل ما يقوله العربى أصل من أصول اللغة ؟

لقد كان أوائل اللغويين من الغلو بحيث كانوا يمتدحون العالم يحفظ الكثير من غامض اللغة أو غريبها ، كان الزبيدى يصف يحيى بن يعمر بأنه (كان فصيحا عالما بالغريب) ، وكان الغريب بغية الاصمعى من المربد ، وألف فيه كتابا باسم غريب الحديث والكلام الوحشى ، وعنوا بالنوادر أيضا على أنها الفرائد لا تجرى مجرى المطرد المقيس دائما .

ولكن العقلية البشرية ما لبثت أن ظهرت ممازة عن الدراسات التي نشأت وعاشت فى العراق ، كانت الدراسات اللغوية فى البصرة تختلف اختلافا واضحا عنها فى الكوفة ، فلقد تهيأت الاسباب للثقافة اليونانية أن تأخذ مكانها فى اقليم ميسان قبل أن تبنى فيه مدينة البصرة ، وأتيح للجنس اليونانى أن يعيش هناك ، وتكونت بها جاليات تعمل فى البحرية التجارية ، وكانت هذه الجالية تدين بالمسيحية ، ويصطنع رؤساؤها الجدل تبشيرا بهذا الدين أو دفاعا عنه ، وكثير من الكتب التى ظهرت فى البصرة تشير الى سبق علمى ذهب كثير من العلماء فى تعليله الى أنه أثر من أثر الثقافات التى انتقلت الى البصرة من هندية وهلينية، وتأثرت بها العقلية البصرية ، ككتاب العين المنسوب للخليل ، وكتاب سيبويه فى النحو ، ومجاز القرآن لأبى

عبيدة ، ولقد قام حول هذا الكتاب الاخير اختلاف كبير لأنه آثر الناحيـــة العقلية على الناحية النقلية •

وجد البصريون أن الاحاطة بكل شيء أمر لا يمكن دركه ، فكـــان أبو عمرو بن العلاء يجمع اللغة تحت كليات مطردة ، حتـــى سأله سائـــل : أخبرني عما وضعت مما سميته عربية أيدخل فيه الكلام كله ؟

فقال : لا •

فقال : فما تصنع فيها خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟

قال : أعمل على الاكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات •

ولكن الكوفيين لم يروا هذا الرأى ، وجوزوا القياس على كـــل مـــا سمع من العرب • ولكن لا يجب أن نحمل العقل البشرى فوق طبيعتـــه ، ولا ننتظر حتى من اولئك الذين كانت تسعفهم سليقتهم بأسباب الاستظهار أن يحفظوا العربية كلها ، ولا أن يجمعوا الـــى السنتهم ألسنـــة القبائـــل الاخرى وان تعملوا لذلك أشد التعمل •

لقد بدأ جمع اللغة فى البصرة ، فحاول الرواة وضع مجاميـــع لكـــل موضوع ، وحاول الخليل بن أحمد جمع المستعمل من اللغة كلها فى كتاب، ولم يأت كلام الرواة جميعا متفقا كوقع الحافر عـــلى الحافـــر ، فاستعان أكثرهم بشواهد من كلام العرب ، لم تأت هـــى الاخـــرى فـــوق مستوى الشبهات ، فقد تغير لسان زيد بن كثوة بالرغم من اتخاذ منزله بين الباديـــة والحاضرة ، وكذلك اتهم الفقعسى ، ولان لسان أبى خيرة ، وكان رؤبـــة يزخرف الكلام ليونس بن حبيب الى غير ذلـــك • فاختلفت معايير التوثيق عند العلماء الرواة •

كان أبو عمرو لا يرى الشعر الا للجاهليين ، ولا يحتج بشعر اسلامى وان أعجب بجرير والفرزدق ، وكان الاصمعى يوثق الشاعر ويحتج به ، ولا يراه كذلك فى خصوصية أخرى ، بل لم يكن الشعر الجاهلى متقبلا عنده بصفته المطلقة فلقد عاب عدى بن زيد ، وأبا دؤاد الايادى لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، وكان ابن أحمر الباهلى شاعرا جاهليا أدرك الاسلام ، وكان يعيش فى أفصح بقعة من الارض — يذبل والقعاقع — ولكنه أتى بألفاظ غريبة لم تعرف عند غيره • وحار فيها اللغويون فلم يستطيعوا العزوف عنها ، ولا الاسراف فى تناولها — وبسبب نشأته الخالصة العروبة كان ابن جنى يعلل لتوثيقها بقوله « ربما أخذها عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك فى سماع ذلك منه ، واما أن يكون شيئا ارتجله ابن أحمر فان الاعرابى اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله • »

ومثل هذا تجده عند أمية بن أبى الصلت حين كان يأتى فى شعره بألفاظ لا تعرفها العرب ، فلا يستطيعون دفعها لأنه كان أشعر ثقيف — ووقفوا أمامها بين الاعجاب والحيرة فكان الكميت يقول : أمية أشعر الناس قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال • وقال الحجاج : ذهب قوم يعرفون شعر أمية • وبسبب الغيبيات التى بدت فى شعر أمية كان ابن قتيبة يقول : علماؤنا لا يحتجون بشىء من شعره لهذه العلة •

وفى العصر الاسلامى نجم من الشعراء الفصحاء أمثال بشار ، وأبى نواس أما الاول فكان يملك حسا دقيقا يدرك به خصائص الشعر الجاهلى ، وكانت جلة الرواة تعظمه ، ولكن تأخر أيامه كانت سببا فى توقف بعض الرواة عن الاحتجاج بشعره ، فكان الاصمعى يقول : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم أما أبو نواس فقد تسلح بالرواية الغزيرة ، وهو يحكى بعض ذلك فيقول : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة

من العرب منهم الخنساء ، وليلى ، فما ظنك بالرجال » وشهد لـه الجاحظ فقال : ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مـع حلاوة ، ومجانبة للاستكراه ، ولكن يبدو أن ما أشيع عليه من المجون كان سببا فى عزوف رواة اللغة عن شعره •

والشعر ــ وهو أوسع مصادر اللغة قد دخلـه الريب ــ بسبب مسلك بعض قائليه أنفسهم ــ حين أحسوا بأن هناك من ينتظرهم ليأخذ شعرهم ــ قالوا عن الكميت والطرماح أنهما كانا يسألان رؤبة وأباه عن الغريب ، ثـم يرى هذا الغريب بعد فى أشعارهما فى غير مواضعه ، وقد يرتاب فيه أيضا حين تسمع هذا الخبر عن رؤبة وأبيه فتتساءل لماذا تعمـد هذان الرجـلان استعمال الغريب والمباهاة به الا أن تكون اللغة قد داخلتها الصنعة ، فكان من صناعها أمثال العجاج ، ورؤبة وأمثال الطرمـاح والكميت حـين بـدأ الجميع يحرصون على الغريب •

والشعر من وجه آخر ، ليس أمثل المصادر ، فقد يضطر الشاعر الـى استعمال كلمة مكان كلمة فتأتى كطلب الوزن والقافية لا كطلب الدلالة التى يرجوها الشاعر ، فقد يستعمل العسل بدل الذوب وهما يختلفان •

والشعر أوسع الابواب لدخول التصحيف فى اللغة ، والمجـال هنـا أضيق من أن نعدد الامثلة ، وبحسبك هذا المثال ، فالبكرة النخيس هـى بكرة من خشب قد اتسع ثقبها من الاستعمال ، فوضعوا فى ثقب البكـرة خشبية ، وظل الجوهرى صاحب الصحاح يتردد فيها أهى بحاء مهملـة أم بخاء معجمة الى أن سمع صحتها من أعرابى تميمى فضرب على شعر يخالف قول الاعرابى ، وقد يأتى التصحيف بمعنى أجمل ، ولكن هـذا الوجه قد يفيد النقد ولكنه يدخل الشوب الى اللغة •

وبسبب الوزن والقافية رخص للشاعر بما لا يجوز فى عموم اللغة ، ومن ثم فلا يجوز ضبط اللغة أو قياسها علـى شعر شيب بضرورة ، وبعض هذه الضرورات وصف بالقبح كقول علباء بن أرقم مبدلا التاء من السين :

يـا قبـح اللـه بنـى السعلات
عمرو بـن يربوع شرار النـات
غـير اعفـاء ولا أكيـات

الى غير ذلك من زيادة فى بنية الكلمة أو نقصان فيهـا ، أو خروج علـى مألوف جموع التكسير ــ ونتيجة لذلك ارتابوا فـى كثير مـن شواهـد الشعر ، ومن حقهم أن يرتابوا بعد أن رأوا بعضه مصنوعا ليؤدى غـرض الاحتجاج به ، رأوا شاهدا لحذف الفاء فى جواب الامـر ، فلمـا عرضوه على الاصمعى صححه ، فلما سئل فى ذلك وعن الرواية الاولى قال : (ان النحويين صنعوها) والمبرد ونحن نعلم أنه مـن شوامـخ العربيـة يختلق شاهدا من الشعر فى مجلس عيسى بن ماهان ، فلمـا افتضـح أمـره قال لعيسى : (أنفت أن أرد عليك من العراق ، وذكرى ما قـد شاع فأول مـا تسألنى عنه لا أعرفه) ولهذا تستطيع القول أن الشعر أوسع أوعية اللغـة وليس أوثقها .

وحديث الاعراب مصدر من أنقى المصادر العربيـة ــ ان سلم مـن شوب الرواية ــ فحرص طلاب العربية فى البصرة علـى أسماع الأعراب ، وملاحظة مخارج الحروف ، وتعلقوا بمن نزل منهم البصرة الى أن قلت ثقة الطلاب فيهم بطول مكثهم فى الحضر ، وتعين عليهم أن يطوفوا فى البادية ليأخذوا عن أهلها .

كانت عادة قديمة ، أن يلتحق الصبيـان ببعض القبائـل الفصيحـة

لينشأوا على ألسنتها ، كان محمد بن ادريس الشافعي يلـزم هذيلا فكانت الفصحى من مناقب الشافعي ، وكان الامويون يرسلون بأبنائهم الى البادية ليفصحوا ، وندم عبد الملك أن استثنى الوليد من هذه القاعدة فقال : أضر بالوليد حبنا له فلم نرسله للبادية .

طوف طلا ب العربية في البادية ، وسمعوا من القبائل القريبة فى البحرين ونجد ، وما لبثوا أن أوغلوا فى الحجاز ، رأوا وسمعوا من الشيوخ والنساء والولدان جدا وهزلا ، عرفوا أطعمتهم ، وألوانها ، وأسماءها — رأوا نبت البلاد غب الغيث اذا حنت عليهم الطبيعة ، واذا حزبتهم فى الشظف والاعسار سمعوا أنسابهم الى آجال بعيدة واستقرت المثالب فى أذهان الشعوبيين من الرواة فضايقوا بها العرب مشافهة أول الامر ، وتدوينا من بعد ذلك وتداخل كل ذلك فى رواية اللغة .

عادوا بعلم غزير ، وبات رجل كأبى عمرو بن العلاء يضع نتيجة هدا السعى فى ايجاز شديد بعد أن أحرق كتبه فقال : أفصح الشعراء لسانا وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث : الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن فأولها هذيل وهى التى تلى السهل من تهامة ، ثم بجيلة ، والسراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد — أزد شنوءة وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الازد — وحدد أبو زيد القبائل التى اختارها فقال : « لست أقول قالت العرب الا اذا سمعته من هؤلاء : بكر بن هوازن ، وبنى كلاب وبنى هلال أو من عالية السافلة (نجد) أو سافلة العالية (المدينة) »

وللامثال دور فى مصادر العربية ، والعرب لا يعولون كثيرا على الكتابة ولذلك فهم فى حاجة الى المؤثرات المقنعة فى مجال المشافهة والالقاء

ـ والامثال ابلغها تأثيرا فهى كما يحكى أبو هلال « من أجل الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسير مئونتها على المتكلم مع كبير عنايتها وجسيم عائدتها ، ومن عجائبها أنها مع ايجازها تعمل عمل الاطناب ، ولها روعة اذا برزت فى أثناء الخطاب ، والحفظ موكل بما راع من اللفظ وندر من المعنى • لذلك تناولنا الامثال بالقدر الذى تحتله فى مصادر اللغة •

ولدينا مصدر اقتحم على العربية دارها ، ودار فى فلكها ، ونطق به أوائلهم ، جاء منه فى القرآن الكريم ألفاظ اختلف فى أمرها الرواة ، فقالوا عربية ، وقالوا دخيلة ومعربة ، ومنهم من توسط بين القولين فقال عربية بتعريبها القديم دخيلة بغربتها الاقدم ، فلما رحبت أرض العربية دخل الديوان فى هذه السعة ومعه رجال يزاوجون بين اللغات ، ومن الطبيعى أن يدخل من هذا الباب ألفاظ تتصل بالمكاييل والموازين والمساحة والزراعة والتجارة مما لم يكن للعرب به عهد • ومع حركة الترجمة التى بلغت ذروتها فى الدولة العباسية دخل الى العربية ألفاظ على هيئتها فى لغاتها الاصلية أو قيست على العربية ولبست ثوبها ، دار جزء من ذلك فى مسامع الناس ، وبعضه دار على السنة المشتغلين بالطب والفلسفة وغير ذلك ولهم فيها معاجم يعودون اليها ويديرون أبحاثهم على أضوائها •

كان من الممكن أن ينتهى كتاب (مصادر اللغة) بانتهاء الباب الرابع، ولكن الفصحى سواء ما جاء منها فى التنزيل الكريم ، أو فى مجامع الكلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو فى الشعر هذا الرافد الضخم ، أو كلام الاعراب والمتعربين انما انتهت جميعا الى حصيلة كما تتجمع الروافد لتصبح نهرا كبيرا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان هذا النهر الضخم هو المعاجم التى أخذت وجهين فى وقت واحد: هذه المجاميع أو الكراسات التى جمعها الرواة بحسب الموضوعات فى خلق الانسان ، أو الوحوش أو النبات ، أو فى كتب الصفات التى جعلت هــذه الرسائل كتيبات فى كتاب كبير كما ظهر فى كتاب الصفات للنضر بن شميل، أو الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام ، أو كتاب الالفـاظ لابــن السكيت ، أو مبادىء اللغة للاسكافى وبلغت سعتها عنـد ابن سيده فـى كتاب المخصص •

والوجه الآخر هذه المعاجم التى حاولت احصاء العربية كما ظهرت فى كتاب العين للخليل ، والجمهرة لابن دريـد ، والبـارع للقالى ، والتهذيب للأزهرى ، والصحاح للجوهرى ، والقاموس للفيروزبادى ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدى ، فكـان مـن تمام البحث أن نعرف بهذه الحصيلة التى كانت ثمرة الجهود لجمع اللغـة •

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه فجر الاربعاء الحادى عشر مـن شعبان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة الشريفة ــ الثامن والعشرين من اغسطس سنة أربع وسبعين وتسعمائة وألف •



الباب الأول

القرآن الكريم



الفصل الأول

لماذا وضعنا القرآن أول مصادر الرواية

قد تقف كما وقفنا ، وتتساءل كما تساءلنا هل القرآن سبب من أسباب الرواية اللغوية ، أو مصدر من مصادرها ؟ واذا كان سببا ومصدرا ولا يمنع أحدهما الآخر فلماذا وضعناه على رأس المصادر وهو يأتى تاريخيا بعد مصادر اخرى •

لقد تحدثنا فى كتابنا (رواية اللغة) عن دواعى الرواية وكان على رأس هذه الدواعى ، تأويل القرآن الكريم ، ذلك ان القرآن كتاب المسلمين المقدس جاء بأصول هذا الدين ، وبيّن مبادئه ، وآدابه ، ونهض علماء المسلمين يستنبطون منه القواعد التى تنظم علاقات المجتمع ، والرسوم الدينية ، فوجدوا أنفسهم أمام اصول عامة عرضها القرآن فجعلوا يفسرونها من وجهة نظرهم ، واستفاضت نواحى التفسير وكان فيصل ما اختلفوا فيه هو مفردات العربية وتراكيبها وأساليبها على النحو الذى جاءت به على السنة العرب • وهو بهذا الوجه سبب من اسباب رواية اللغة •

وحين أصبحت الرواية اللغوية علما يستهدف التعرف على صحيح

العربية كما يستهدف جمعها اعتمدت على ما استطاعوا جمعه من الآثـار ، واطمأنوا الى الشعر الجاهلي وما صـدر من الشعر الاسلامى ، والآثـار الادبية واللسانية الاخرى التى صدرت عن اعراب خلصت لهم هذه الصفة الى نهاية القرن الثانى الهجرى . وهم فـى مجال هـذا التوثيـق وضعوا القرآن الكريم فى الذروة من مصادرهم على انـه ارفـع صـور الكلام العربى . واذا كان الاستشهاد بالسماع قد انتهى بنهاية القرن الثانـى ، او هكذا اتفق اكثرهم فان القرآن الكريـم سيظل الى مـا لا نهايـة يسمع ويستشهد به على انه سيد الشواهد ولذلـك شاعت العبـارة (القـرآن قاموس من لا قاموس له) بل انه الاثر الادبى الوحيد الذى بقيت روايتـه الى الآن ، محاطا بالعناية التى تتمثلها فيما تمنحه مشيخة القراء مـن اجازة قراءتـه .

الامتحان العظيم

لم يتعرض المجادلون فـى القرآن الكريم وقت نزولـه الـى شىء يتصل بعربيته ، وهم ان اختلفوا فيه ككتاب دين فلقـد اجتمعوا مغلوبين امام اعجازه ، نزل على قوم يتصفون بالالسنة الحداد واللدد فى الخصـام ــ وتحداهم عز وجل ان يأتوا بسورة من مثله ــ فارهفوا له السمع وودوا لو استطاعوا مغالبته ثم استسلموا ضعافا يحاولون وصفه فلا يجدونه مـن فنونهم فما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانـة وهـو العربـى اللفظ والاسلوب . وبقيت الفاظه كما يقول الراغب الاصفهانى (لب كلام العرب، وزبدته وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء فى احكامهـم وحكمهم ، واليها مفزع الحذاق والبلغاء فى نظمهم ونثرهم) (1)

ونحن لا نضعه على رأس المصادر بسبب من قداسته ، ولا نستفتح به

(1) المفردات فى غريب القرآن ص 6 ط الحلبى .

الكتاب تبركا ــ ولكنه كان فى الحقيقة الى جانب هذا ــ قد اجتاز امتحانا عظيما امام خصومه من الاعراب ، وليس من التطويل ان أضع أمامك صورا من هذه الخصومة • كما اطمأن قلبى وأنا أضعه فى صدر الكتاب وعلى رأس المصادر لرواية العربية •

لقد وصل الى شغاف قلوبهم فاستشعروا ضعفهم أمام اسلوبه المعجز وفواصله العذبة ، وبيانه الساحر ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وتناهوا عن سماعه ، وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ــ وكتب السيرة مليئة بما يمثل مظاهر تأثير القرآن عليهم ــ واليك بعض هذه الصور :

اجتمع الوليد بن المغيرة الى نفر من قريش وكان ذا سن فيهم فقال لهم : يا معشر قريش : ان العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا •

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم رأيا نقل به •

قال : بل أنتم فقولوا أسمع •

قالوا : نقول كاهن •

قال : لا والله ما هو بكاهن • لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه •

قالوا : فنقول مجنون •

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته •

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعـــر .

قالوا : فنقول ساحر .

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم وعقدهم .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس .. ؟

قال : ان لقوله لحلاوة وان أصله لعذق وان فرعه لجناه (ويقال لغدق) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل (1)

وهذا ابو الوليد عتبة بن ربيعة ـــ وكان سيدا فى قومه ـــ يعرض على قريش ان يقوم الى محمد صلى الله عليه وسلم فى محاولـــة لصرفه عـــن غايته فقام اليه قائلا : يا ابن أخى : انك منا حيث قـــد علمت مـــن السطـــة (المنزلة الرفيعة) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وانك قد اتيت قومـــك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به احلامهم ، وعبت به آلهتهم .... الى آخر ما اعده من حديث ـــ حتى اذا فرغ عتبة قرأ النبى صلى الله عليه وسلم آيات من سورة فصلت فلما سمعها انصت لهـــا والقى يديـــه خلف ظهره فى هيئة المستسلم ، وقام عتبة الى اصحابه بوجه غير الوجـــه الذى ذهب به . قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى انى سمعت قـــولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه (2) .

---

(1) السيرة لابن هشام 1 : 283
العذق = الكثير العشب ومن رواه غدق فمعناه كثير الماء

(2) السيرة 1 : 313

وهم اذا اجتمعوا حزموا أمرهم علـى الا يسمعوا للقرآن ، حتى اذا تفرقوا نازعتهم انفسهم الى سماعه فكانوا يتسللون خفيـة ، فاذا انكشفوا تلاوموا واقسموا الا يعودوا ــ ذكروا ان ابا سفيان بن حرب ، وابا جهل ابن هشام ، والاخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسـا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلـع الفجر تفرقوا • فجمعهم الطريق ، فتلاومـوا ، وقـال بعضهم لبعض : لا تعودوا . فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا • حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون. حتى اذا طلع الفجر تفرقوا وتلاوموا ، وهكذا فـي اليوم الثالث حتى اذا جمعهم الطريق للمرة الثالثة قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهـد الا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا (1) •

ويصل الامر بالطفيل الدوسي بعـد ان استمـع لتحريض قـريش وايهامهم اياه بأنه قادم على رجل قوله كالسحر يفرق بين الرجل واهلهـ ان يحشو اذنه قطنا حتى لا يسمع كلام النبي ، ثم لا يستريح الى مـا فعـل ويعود الى نفسه فينازعها قائلا : واثكل أمي ــ والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع مـن هـذا الرجل ما يقول ؟ حتى اذا سمع القرآن شهد الشهادة الحق واسلم (2) •

وكان عمر بن الخطاب من اقوى رجال قريش حتى تمنى النبي صلى الله عليه وسلم ان يسلم فما هو الا ان يسمع آيات مـن سورة طـه حتى

---

(1) السيرة 1 : 337

(2) السيرة 1 : 408

يذهب الى النبى فى مجلسه ويعلن اسلامه (1) وفى رواية اخـــرى يقول : فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الاسلام (2)

هذه بعض الاخبار التى تصور وقـــع القرآن فـــى نفوس العـــرب ومظاهر تأثيره عليهم ، وحرىٌّ بنا بعد هذا الامتحان العظيم ان نضع القرآن الكريم ـــ الاثر العربى الخالص ـــ على رأس مصادر الروايـــة ، وللرازى كلمة فى هذا السياق يقول فيهـــا :

(اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول فجواز اثباتها بالقرآن العظيـــم اولى ، وكثيرا ما نرى النحويين متحيرين فـــى تقرير الالفاظ الواردة فـــى القرآن فاذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وانا شديـــد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول عـــلى وفقها دليلا على صحتها فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان اولى) (3) .

مدى خلوص عربية القرآن

موضوع التأثير والتأثر أمر معروف بين اللغات المختلفة التى ترتبـــط بعلاقات تسمح به ـــ والجزيرة العربية كانت ترتبط بالبلاد التى تحيط بهـــا بسبب الجوار والتجارة فلا غرابة ان تتأثر العربية باللغة الآرامية والحبشية، والفارسية . فاللغة الآرامية على اختلاف لهجاتها كانت سائدة فى كل بلاد فلسطين ، وسوريا ، وبين النهرين ، وفى بعض العراق . واللغـــة الفارسية

---

(1) السيرة 1 : 367

(2) السيرة 1 : 369

(3) تفسير الفخر الرازى 3 : 193

كانت مجاورة للآرامية والعربية فى العراق ، وكان نفوذها قويا فى جزيرة العرب وجنوبها • واللغة الحبشية ومعها اللغة العربية الجنوبية المقاربة جدا للحبشية كانت تجاور العربية الشمالية فى جزيرة العرب نفسها (1)

ولقد ساعدت التجارة على التأثير والتأثر بين هذه اللغات ، فتجار مكة كانوا يتجرون مع الآراميين فى دمشق ، ومع الفرس فى الحيرة والمدائن ومع سبأ وحمير فى اليمن — ولقد استطاعت بعض الكلمات اليونانية أو الرومية ان تنفذ الى العربية عن طريق الآرامية ، فاليونانية كانت لغة الادارة فى الدولة التى بسطت سلطانها على الشام وشمال غرب الجزيرة — ولقد تناول الاستاذ برجستراسر هذه القضية فى كتابه (التطور النحوى للغة العربية) وأشار الى بعض الكلمات التى تأثرت بها العربية من اللغات الاخرى — فمن الفارسية اصطلاحات الادارة كالديوان ، والرزق ، والمرزبان ، والدهقان ، والفرسخ ، والتاج — ومنها الفاظ دينية كالدين والجناح ، والمجوس ، والنيروز ، — ومنها أسماء الاشياء الخاصة بالعجم او المجلوبة من عندهم كالصنج، والصولجان ، والفيل ، والجاموس، والمسك . وأسماء أنواع النسائج كالديباج ، والاستبرق ، والابريسم ، والطيلسان، والقمط . ومنها غير ذلك كالسراج والخندق (2) ومن الحبشية عربت الكلمات التى تعود الى اشياء تتصل بالدين فمن ذلك الحواريون ، ونافق ، ومنافقون ، وفطر ، ومنبر ، ومحراب ، ومصحف وبرهان (3) وكلمة فطر لم تؤد معنى الخلق فى العربية قبل مجيئها فى القرآن الكريم وهى فى الحبشية مألوفة فى معنى الخلق ، وربما لم يعرفها ابن عباس لهذا السبب فقال : ما كنت أدرى ما فاطر السموات والارض حتى أتانى أعرابيان

---

(1) التطور النحوى للغة العربية 142 ط مصر سنة 1929

(2) المصدر السابق 143 , 144

(3) المصدر السابق 146

يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى أنا ابتدأت حفرها (1) •

ومن الكلمات التى دخلت من الآرامية النباتات التـى لا تنبت فـى جزيرة العرب كالرمان ، والزيت ــ ومنها الخمر ، والكبريت ، والمرجـان ، والبلور ، والسم ــ ومنها من أجـزاء البيت والآلات البـاب ، والقفـل ، والزجاج ، والكيس والسكين (2) والسيف ، والخاتم ــ ومنها مـا يتعلق بادارة الممالك كالسلطان ، والامة ، والعالم ، والمدينة ، والسوق ، والقسط ــ ومنها السبيل والساعة ومنها أكثر ما يرجـع الـى الكتابـة والقـراءة والتدريس بناء على كون العرب أخذوا الخط نفسه مـن الاقوام الآراميين ومن ذلك كتب ، وكتاب ، وقرأ ، والنقطة ، والصورة، والتفسير ، والتلميذ ــ ومنها كثير من الالفاظ الدينية كرحمن ، وقيوم ، وسكينة ، وفرقـان ، وملاك ، وصلى ، وصام ، وتاب ، وزكا ، وزكاة ، وكفر ، وعبد ، وصلب ، وصليب ، وزنديق ، ورجز ، ودجال ••• (3)

وبعض الكلمات التى دخلت العربية من الآرامية جاءت منقولة مـن لغة اخرى فمن ذلك الزنديق فان العرب أخذوا هـذه الكلمة مـن العجم الذين أخذوا من الآراميين •• ويرجح برجستراسر ان كلمة قدوس أصلها آرامى ولكنها نقلت عن الحبشية لكثرة بناء فعول عندهم (4) •

---

(1) لسان العرب مادة ف ط ر

(2) يبدو ان السكين لم تكن معروفة عند الازد ــ ويروى ان ابـا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبى صلى الله عليه وسلم وقـد وقعت منه السكين فقال له (ناولنى السكين) فالتفت ابو هريـرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذه اللفظة فكرر لـه القول ثانيـة وثالثة وهو يفعل كذلك ثم قال : المدية تريد ؟ واشار اليها فقيل له نعم فقال او تسمى عندكم سكينا ؟ ثم قال : والله لم اكـن سمعتها الا يومئذ ــ وذكر اللسان شيئا مثل هذا فى مادة س ك ن

(3) التطور النحوى 149 (4) المصدر السابق 153

ولقد تناول ابن عباس ـــ وهو من قدامى المفسرين ـــ بيان بعض هذه الكلمات فقال : ان (ناشئة الليل) بلسان الحبشة اذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ . وسئل عن قوله (فرت من قسورة) قال : هو بالعربية الاسد ..... وبالحبشية قسورة الى غير ذلك (1) وبدأ علماء اللغة يختلفون فى مدى خلوص عربية القرآن .

عرض ابو عبيد القاسم بن سلام لهذه القضية واشار الى اختلاف الناس فيها فذكر انه روى عن ابن عباس . ومجاهد . وابن جبير . وعكرمة وعطاء وغيرهم من اهل العلم انهم قالوا فى أحرف كثيرة أنها بلغت العجم منها قوله طه . واليم . والطور . والربانيون فيقال انها بالسريانية ـــ والصراط . والقسطاس . والفردوس يقال انها بالرومية ـــ ومشكاة . وكفلين يقال انها بالحبشية ـــ وهيت لك يقال انها بالحورانية ـــ قال : فهذا قول أهل العلم من الفقهاء (2)

وأشار الى فريق آخر يرى ان القرآن ليس فيه من كلام العجم شىء يتأولون قوله جل ثناؤه (انا جعلناه قرآنا عربيا) . وقوله (بلسان عربى مبين) قال أبو عبيد : والصواب من ذلك عندى ـــ والله أعلم ـــ مذهب فيه تصديق القولين جميعا وذلك ان هذه الحروف واصولها عجمية كما قال الفقهاء الا انها سقطت الى العرب فاعربتها بألسنتها وحولتها عن الفاظ العجم الى الفاظها فصارت عربية . ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال انها عربية فهو صادق . ومن قال عجمية فهو صادق (3) .

وعقد ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى فصلا فى كتابه فى التفسير

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 14 (2) المزهر 1 : 268

(3) الصاحبى 29

(عن الاحرف التى اتفقت فيها الفاظ العرب والفاظ غيرها من بعض أجناس الامم) فذكر أمثلة أسندها الى الفقهاء مما يدل على ان فى القرآن من غير لسان العرب ، ولكنه لا يرى ان اللفظ منقول من لغة اخرى ويقارب بين رأيه هذا وقول الفقهاء بأن بعضهم يقول : (حرف كذا بلسان العجم معناه كذا) (1) ثم يرتب على قول هذا البعض من العلماء أنه (لا يستنكر ان يكون من الكلام ما يتفق فيه الفاظ جميع أجناس الامم المختلفة الالسن بمعنى واحد فكيف بجنسين منها ؟ كما قد وجدنا كثير منه فيما قد علمناه من الالسن المختلفة .... مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى ، ونعل ذلك كذلك فى سائر الالسن التى نجهل منطقها ولا نعرف كلامها ...) (2) وهو لذلك لا يرى ان احد الجنسين اولى من الآخر بنسبة الاصل اليه الا بخبر يوجب العلم ويزيل الشك ويقطع العذر صحته — والصواب عند الطبرى (ان يسمى اللفظ عربيا أعجميا أو حبشيا عربيا اذا كانت الامتان له مستعملتين — فى بيانها ومنطقها — استعمال سائر منطقها وبيانها) (3) .

ومحاولة الطبرى الالتزام بأن اللفظ عربى كما هو فارسى او حبشى عن طريق الاتفاق فمردود عليها بأن اللغات — كل اللغات — تقبل التأثير كما تؤثر فى غيرها اذا هيئت لها عوامل الاحتكاك ، والعربية نفسها قد أثرت تأثيرا واضحا فى فترة من الفترات بعد الاسلام فى الفارسية ، والاسبانية والتركية ، اما انها تأثرت باللغات المجاورة فيؤكده ان الكلمات الدخلية لم يكن لها وجود فى بيئته العربية ومجالها الجغرافى على النحو الذى فصلناه — والرأى عندى أنه لا يغير من عربية الكلمة أن تكون منقولة فى الاصل

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 15
(2) المصدر السابق 1 : 15
(3) المصدر السابق 1 : 16

عن لغة اخرى ثم عربت واخذت شكل العربية فقبلت خصائصها وخضعت لاشتقاقاتها كما لا يطعن فى عربية القرآن ان استعمل بعض هذه الكلمات وقد استعملتها العرب وظهرت دلالتها فى آثارهم (1) .

العناية بالقرآن منذ أوحى به

القرآن الكريم كمصدر لغوى موثق لايدانيه مصدر آخر من مصادر اللغة فقد تلقاه صاحب الرسالة صلوات اللـه وسلامه عليـه علـى شغف وانتظار يتابع جبريل فى عجلة وتلهف حتى طمأنه الله عز وجـل فى الآيـة الكريمة (لا تحرك به لسانك لتعجل به انا علينا جمعـه وقرآنـه) وكان يستدنى الكاتبين فيأمرهم بتدوينه فكتبوه على عسب النخـل ، والقتب ، والرقوق وغير ذلك كما أوصى بقصر التدوين عليه فقال : (لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن ومن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه) (2) وحفز الصحابة الى تعلم القرآن وتعليمه فقال صلى الله عليه وسلم (خيركم مـن قرأ القرآن واقرأه) و (أشراف أمتى حملة القـرآن وأصحـاب الليـل) وجعل ذلك أفضل العبادات وأقرب السبل الى الله تعالى .

عنى كثير من الصحابة به . تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم حرفا حرفا لم يهملوا منه حركة ، ولا سكونا ، ولا اثباتا ، ولا حذفا ولا دخـل عليهم منه شك ولا وهم ، وكان منهم من حفظه كله، ومنهم من حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه كل ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم (3) كما

---

(1) اقرا راى ابى عبيدة وغيره وما كتبناه فى هذا السياق فـى فصل المعرب والدخيل .

(2) المصاحف لابى بكر السجستانى 4

(3) النشر 1 : 6

حفظ كل قطعة منه جماعة يبلغون حد التواتر (1) ثم تفرغ للعنايـة بكلام الله نفر تسموا بالقراء .

القراء

روى ابو نعيم فى كتابه حلية الاولياء عن مالك بن أنس أنـه (كان بالمدينة سبعون رجلا من الانصار. كانوا اذا جنهم الليل آووا الى معلم لهم بالمدينة يبيتون يدرسون القرآن (2) .

لا يكاد التاريخ يمدنا بالكثير عـن هؤلاء القراء نفترض لهـم دورا خطيرا لا يقف عند حد استظهار القرآن كما يتبادر الى الذهن وانما كانـوا يرمون الى جانب ذلك الى فقهه ، وفهم دقائقه ، واعداد أنفسهم للدعوة به وتعليم مبادئه ــ لا يكاد التاريخ يمدنا بالكثير عـن هؤلاء القـراء قبـل حادثتى الرجيع وبئر معونة فى السنة الرابعة من الهجرة فقد روى عن قتادة انه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحـد رهط مـن عضل والقارة (وهما من الهون بن خزيمة بن مدركة) فقالوا : يا رسول الله ان فينا اسلاما وخيرا فابعث معنا نفرا من أصحابـك يفقهونـنا فـى الديـن ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الاسلام فبعث رسول اللـه صلى اللـه وسلم معهم نفرا ستة من أصحابه ..... حتى اذا كانوا على الرجيـع ــ وهو ماء لهذيل بناحية من الحجاز ــ غدروا بهم (3) ووقـع مثـل هـذا الحادث عند بئر معونة وقالوا فيه : قدم أبو براء بن عامـر بن مالـك بن جعفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـة ، فعرض رسول اللـه

---

(1) المصاحف لابى بكر السجستانى 4

(2) حلية الاولياء 1: 123

(3) تاريخ الطبرى 2 : 538

صلى الله عليه وسلم ــ ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الاسلام وقال: يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انى أخشى عليهم أهل نجد) فقال ابو براء : أنا لهم جار فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا فى رواية ، وأربعين فى رواية اخرى فغدروا بهم (1) •

واذن فان وجود هذه الطبقة فى عهد الرسول مما يشير الى العنايه البالغة بالقرآن الكريم ، والاطمئنان الى سلامة روايته التى بلغت حدا لا نستطيع ان نضع فى موازنته مصدرا آخر من مصادر الرواية اللغوية اذ كانت مهمة القراء لا تقف عند مجرد الحفظ والاستظهار بل تتجاوز الى فقهه وفهم دقائقه فتلك كانت وظيفة القراء ان يقرئوا الناس ويفقهوهم به حين كان الرسول يبعثهم الى الجهات المختلفة فى الجزيرة من اجل هذه الغاية •

جمع القرآن

كان القراء ايضا قوام حرب اليمامة ، فلما استحر القتل فيهم فزع ابو بكر الى عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت فقال لهما (اقعدوا (2) على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه) (3)

(1) السيرة لابن هشام 3 : 184 وانظر ايضا الطبقات الكبرى لابن سعد وطبقات القراء ، والحلية لابى نعيم .

(2) اقعدوا جمع وهما اثنان وكانت بعض اساليب العرب تجيز ذلك انظر مجاز القرآن لابى عبيدة .

(3) المصاحف 6

ومن حديث لزيد بن ثابت نلمح كبر هذه المهمة وخوفه منها وتقديسه لها يقول (أرسل الى ابو بكر مقتل اهل اليمامة وكان عنده عمر) فقال : ان هذا اتانى فقال ان القتل قد استحر بالقراء وانى اخشى ان يستحر القتل بالقراء فى سائر المواطن فيذهب القرآن وقد رأيت ان تجمعوه • فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدره ، ورأيت فيه الذى رأى فقال ابو بكر : انك شاب (او رجل) عاقل وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاتتهمك فاكتبه • قال فالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان باثقل على منه ـ فقلت لهما : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ابو بكر وعمر : هو والله خير فلم يزل ابو بكر وعمر يراجعاننى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدرهما ورأيت فيه الذى رأيا فتتبعت القرآن انسخه من الصحف والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى فقدت آية كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها (لقد جاءكم رسول من انفسكم ••••• الآية) فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأثبتها فى سورتها (1)

والى جانب هذه الرواية روايات اخرى تتحدث عن جمع القرآن ولكنها لا تكاد تخطىء دور زيد بن ثابت الا الى زميله كاتب الوحى ايام الرسول (أُبَىّ بن كعب) •

من ذلك ما يرويه ابو العالية انهم جمعوا القرآن فى مصحف فى خلافة ابى بكر فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أُبىّ بن كعب فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم

---

(1) المصدر السابق 6 و7

لا يفقهون) ظنوا ان هذا آخر ما انزل من القرآن فقال ابى : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنى بعدهن آيتين (لقـــد جاءكـــم رسول مـــن انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهـــو رب العرش العظيم) قال فهذا آخر ما انزل من القرآن (1) •

وفى رواية ثالثة عن سالم وخارجة ان ابا بكر الصديق كان قد جمع القرآن فى قراطيس وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر فـــى ذلك فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل (1) •

ومن خلال هذه الاخبار نستشعر الرغبة فى سؤال انفسنا هـــل كان زيد وأُبىّ ــ وهما من كبار كتبة الوحى لا يحفظان القرآن كله حتى ذهبا يسألان عن هذه وتلك مـــن آيات القرآن ؟ اما أبى فلقد كان مـــن أصحاب المصاحف ذكر ذلك الربيع بن أنس عن أبى العالية عـــن أبىّ فقـــال : انهم جمعوا القرآن من مصحف أبىّ ••• (2) وقـــد وصف السجستانى هـــذا المصحف وأفرد له فى كتابه (3) أما زيد فيقول فيه البغوى فى كتابه شرح السنة (ان زيد بن ثابت شهد العرضة الاخيرة التى بين فيها ما نسخ وما بقى وكتبها له ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقرأها عليه وكان يقرىء الناس بهـــا حتى مات) (4) ولكن الامر كان اخطر من ان يقول كـــل بعلمه وان يكتفى فى ذلك بما سمع وحفظ وكتب فلم يكن من كتاب الوحى زيد وأبى وحدهما وان كانا فى الذروة منهم ، وحجم الموقف وجلاله يحتاج الـــى كـــل توثيق ومساندة والاستعانة بما حصل فى صدور الآخرين الى جانب ما حصلوا فى

---

(1) المصـــاحف 9

(2) المصـــاحف 30

(3) المصاحف 53 وانظر ايضا تاريخ القرآن للزنجانى 50

(4) تاريخ القرآن للزنجانى 17 — 18

صدورهم حين يراد جمع القرآن فى طمانينة وأناة اشار الــى ذلك الاستاذ الخضرى فى كتابه تاريخ التشريع الاسلامى فقال : وكان زيد بن ثابت من حفاظ القرآن وكتبة الوحى ، ومع ذلك لم يكتف بحفظه وكتبه بل استعان بصدور الحفاظ وصحف الكتاب وما كان مكتوبا فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واتم جمعه على ملأ من المهاجرين والانصار (١) •

وعلى هذا فلا يطعن فى تثبت زيــد وحفظه ان يسأل الناس ويستعين فى مهمته الكبرى هذه بآرائهم ، الم يقل : لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل على منه ، خشية ما يعانى من التأثم والتحرج !

جمع القرآن ايام عثمان

كان لاجازة قراءة القرآن على مشهور السنة القبائل وجهه حين كان مرد ذلك الى الفطرة على الوجه الذى شرحه الشراح حول الحديث المشهور (انزل القرآن على سبعة احرف •••) فلما تجاوز رحاب الجزيرة اختلفــوا فيه وهم لا يرجعون فى امر هذا الاختلاف الى فطرة فطروا عليها ولا سليقة تمدهم بها طباعهم وانما قرأ الكوفيون عن عبد الله بن مسعود والبصريون عن ابى موسى الاشعرى ، والشاميون عــن أبــى بن كعب والمقداد بــن الاسود ، ولما جمعهم الجهاد صار كل منهم يظن انه اصح من صاحبه ولاحظ حذيفة بن اليمان اختلافهم وكان يغازى فى ارمينية واذربيجان ففزع الــى عثمان فقال له : يا امير المؤمنين ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا فى الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى فقام عثمان فخطب الناس ونهاهم ان يسندوا قراءتهم الى القراء ثم قال : (فاعزم على كل رجل منكم مــا كان معه مــن كتاب الله شىء لما جاء به) •

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامى للخضرى 97

وكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثره . ثم دخل عثمان فدعاهم رجلا رجلا فناشدهم : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من اكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت . قال : فأي الناس اعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال عثمان : فليمل سعيد وليكتب زيد فكتب زيد . وكتب مصاحف فرقها في الناس (1) وقيل : جمع اثنى عشر رجلا من قريش والانصار فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت (2) .

والاخبار على اختلافها تكاد تجمع على ان زيد بن ثابت كان في مقدمة المنتدبين لهذه المهمة الكبرى ومعه سعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير . وتدخل عثمان بأمره ورأيه حتى لا تنشق الرأي وتتفرق الكلمة فقال : ما اختلفتم انتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف بعث عثمان الى كل افق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا وامر بسوى ذلك في صحيفة او مصحف ان يحرق (3) .

وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا اذا تدارءوا في شيء اخروه . قال محمد : فقلت لكثير — وكان فيهم فيمن يكتب : هل تدرون لم كانوا يؤخرونه ؟ قال : لا . قال محمد : فظننت ظنا انما كانوا يؤخرونها لينظروا احدثهم بالعرضة الاخيرة فيكتبونها على قوله — واتم زيد بن ثابت ورفاقه مهمتهم لم يختلفوا الا في كلمة التابوت فرفعوا امرهم الى عثمان فقال اكتبوه (التابوت) فانه بلسان قريش وكان زيد يقول (التابوه) .

---

(1) المصاحف 24

(2) المصاحف 25

(3) المصاحف 19

ومع هذا الذي تراه من حرص رجال الدولة وتمثيل العناصر الم
لكتابة القرآن وجمعه فلقد كان من علماء المسلمين من يرقب هـذا الع
ويرى فيه رأيه حتى اذا اطمأن الى اتجاه عثمان اعلن انـه كان احق ب
الجمع من زيد بن ثابت لا رغبة فى شهرة ، ولا استجابة لهوى ، ولا ح
لمعارضة ولكن احساسا بأنه اكثر معرفة بالاسلام وبكتابـه المقدس ا
لواء هذه المعارضة الصاحبى الجليل ومعلم اهل الكوفة عبد الله بن مس
ويكفيك تعريفا به شهادة النبى صلى الله عليه وسلم اذ يقول : (مـن
ان يقرأ القرآن رطبا كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد) (1) وي
رأى عمر فى عبد الله بن مسعود من خبر يحكيه الاعمش بسنده قال :

(جاء رجل الى عمر فقال : يا امير المؤمنين جئتك من الكوفة وتر
بها رجلا يملي المصاحف عن ظهر قلبه ـ قال : فغضب عمر وانتفخ حتى
ان يملأ ما بين شعبتي الرجل قال : من هو ويحك ...؟ قال : هو عبد
ابن مسعود قال : فما زال يطفا ويتسرى عنه الغضب حتى عاد الى حالته
كان عليها ثم قال : ويحك والله ما اعلم بقـى مـن الناس احد هـو
بذلك منه) (2) .

وجاء اهل الكوفة يوما الى عمر فأجازهم وفضل اهل الشام عليهم
الجائزة فقالوا : يا امير المؤمنين تفضل اهل الشام علينا ؟ فقال : يـا اه
الكوفة اجزعتم ان فضلت اهل الشام عليكم لبعد شقتهم وقد آثرتكم
ام عبد (3) وقال فيه حذيفة: ما اعلم احدا اقرب سمتا ولا هديا ودلا برس
الله صلى الله عليه وسلم من ابن ام عبد (4) .

---

(1) المصاحف 137 وحلية الاولياء 1 : 124
(2) المصاحف 137 وحلية الاولياء 1 : 124.
(3) اعلام الموقعين 1 : 13
(4) طبقات القراء 1 : 459

اما دفاع ابن مسعود وبيان احقيته فى مهمة جمع القرآن فيتضح من خلال كلمات عرفن عنه اذ يقول : لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الارض من مسلم غيرنا ... كنا نتعلم من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات فما نتعلم العشر التى بعدهن حتى نتعلم ما انزل الله فى هذه العشر من العمل ـ والله الذي لا اله غيره لو اعلم احدا اعلم بكتاب الله منى تبلغنيه الابل لرحلت اليه .

فلما بلغه انتداب زيد بن ثابت اخذه الغضب وقال فى هيئة المستغرب: قرأت القرآن من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد صبى ، افأترك ما اخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... على قراءة من يأمرنى اقرأ ...؟ (1) .

ثم خطب الناس وقال : يا معشر المسلمين اعزل عن نسخ المصاحف وتولاها رجل والله لقد اسلمت وانه لفى صلب ابيه كافرا ـ

وما لبث ان هدأت ثورة ابن مسعود ورضى بما عمله عثمان ، وكان واضحا فى كثير من الاحيان ان القضية التى اثارها ابن مسعود تنحصر فى تقديم زيد بن ثابت بينما ابن مسعود من السابقين فى الاسلام ومن الذين اكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ـ ثم انتهى الامر على جمع الكلمة : ومات عثمان وليس هناك ادنى اختلاف حول جمع القرآن وقال شعبة عمن سمع سويد بن عقلة يقول : سمعت عليا يقول : رحم الله عثمان لو وليته لفعلت ما فعل فى المصاحف (2) ويبدو ان اختيار زيد كان يعود الى انه حضر العرضة الاخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) المصاحف 15 و 16

(2) المصاحف 23

رواية القرآن

نالت رواية القرآن الكريم عناية المشتغلين بـه ، وظلت روايته ا
آجال متتابعة ظاهرة المعالم ، بينة الاثـر يمكن تتبعها متواترة حتـى يـ
سندها بالنبى صلى الله عليه وسلم ــ ففى حياته صلوات الله عليـه
القرآن جمع من الصحابة كان منهم من يحفظ الجزء والاجزاء ، ومنهم
حفظه كله وحفظ كل قطعة منه جماعة يبلغون حد التواتر (1) ثم تجرد
للقراءة واشتدت عنايتهم بها وتتلمذ لهم كثير من الطالبين وتعددت القر
واتفقوا بادىء الامر على سبعة منهم هم :

ابو عمر بن العلاء ، ويعقوب بن اسحق الحضرمى بالبصرة ــ و
ابن حبيب ، وعاصم بن ابى النجود بالكوفة ــ وعبد الله بن عامر اليحـ
بالشام ــ وعبد الله بن كثير بمكة ــ ونافع بن ابى نعيم بالمدينة وفى
القرن الثالث حذف منهم يعقوب واثبت مكانه الكسائى (2) والذين يعر
بالقراء العشر يضيفون الى هؤلاء يعقوب الحضرمى ، وأبـا جعفر يزيد
القعقاع ، وأبا محمد خلف بن هشام .

ثم عرفت القراءات الاربع لمحمـد بـن محيصن المكـى ، والاعـ
الكوفى والحسن البصرى ، ويحيى اليزيـدى ــ والمشهـور ان السبـ
متواترات ، والثلاث آحاد ، والاربع شواذ ــ ونحن نعرف بالقـراء العـ
وراويين لكل منهم بايجاز ، وهذا اقصى ما يحتمله البحث لان الذى ير
بعد ذلك عن الراوى يسمونه طريقا ، فيقولون مثلا : هـذه قراءة نافع
رواية قالون ، من طريق ابى نشيط ولقـد تعددت الطـرق حتـى جاو
الحصر .

---

(1) البرهان فى علوم القرآن للزركشى 11 و 541

(2) النشر 1 : 37 وانظر مقدمة ابراز المعانى لابى شامة

نافع بن عبد الرحمن 70 — 169

اخذ عن ابى ميمونة مولى ام سلمة ، وأجمع الناس عليه بعد التابعين، وانتهت اليه رئاسة الاقراء بالمدينة ، واخذ عنه مباشرة ورش (1) وقالون (2)

ابن كثير 45 — 120

هو ابو سعيد عبد الله بن كثير . لقى بعض الصحابة وتراس الاقراء بمكة — حمل قراءته البزى (3) وقنبل (4)

ابو عمر بن العلاء

هو شيخ الرواة . واستاذ جيله زبان بن العلاء بن عمار التميمى المازنى ولد بمكة وبدأ فى طلب العلم صغيرا وقرأ القرآن بمكة والمدينة والكوفة

---

(1) هو عثمان بن سعيد القبطى المصرى . ولد سنة عشر ومائة بمصر ورحل الى نافع فعرض عليه القرآن عده ختمات فى سنة خمس وخمسين ومائة ولما عاد الى مصر اتخذ له مقرا سمى مقرا ورش انتهت اليه رئاسة الاقراء بمصر فى زمانه وتوفى سنة سبع وسبعين ومائة ترجمة رقم 2090 طبقات القراء .

(2) هو عيسى بن مينا الزرقى قارىء المدينة ونحويها . يقال انه ربيب نافع وقد اختص به كثيرا . سئل كم قرات على نافع قال : ما لا احصيه كثرة الا انى جالسته بعد الفراغ عشرين سنة ترجمة رقم 2509 طبقات القراء .

(3) هو ابو الحسن احمد بن محمد بن عبد الله : اسلم على يد السائب ابن ابى السائب المخزومى ، وجلس للاقراء بمكة ومات بها سنة 250.

(4) هو محمد بن عبد الرحمن بن خالد المخزومى بالولاء — كان اماما متقنا انتهت اليه مشيخة الاقراء بالحجاز فى عصره . ورحل اليه الناس من الاقطار ، وولى الشرطة بمكة وكان لا يليها الا اهل العلم والفضل — ولد سنة مائة وخمس وتسعين ، وتوفى بمكة سنة مائتين واحدى وتسعين .

والبصرة وسمع من شيوخ هذه البلاد انس بن مالك ، والحسن البص
وسعيد بن جبير وعكرمة مولى بن عباس ، ومجاهد ، وحميد بن
الاعرج ، وابا العالية رفيع بن مهران الرياحى ، وعاصم بن ابى النـ
والحضرمى ، وعبد الله بن كثير المكى ، وعطاء بن ابى رباح ، ويحـ
يعمر وغيرهم .

جمع الى قراءة القرآن معرفة واسعة باللغة والادب والنحو وقا
يونس : لو كان احد ينبغى ان يؤخذ بقوله فى كل شىء كان ينبغـ
يؤخذ بقول ابى عمرو بن العلاء — نظر فى القرآن على ضوء ما
وجمع من العربية ولهجاتها وبدت له بسبب ذلك وجوه من القراءات
لقد حفظت فى علم القراءات اشياء لو كتبت ما قدر الاعمش (1) على
ولولا ان ليس لى ان اقرأ الا بما قرئت لقرأت كذا وكذا كذا وكذا و
حروفا ولقد دق حسه اللغوى فخبر اللهجات وميز بين قبيلة عاربة
اعرب فقال : (افصح الشعراء لسانا واعذبهم اهل السروات وهن ثـ
الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن فاولها هذيل وهى التى تلى السـ
تهامة ثم بجيلة السراة الوسطى ولقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ثم
الازد — ازد شنوءة — وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بـ
الازدى .) وابو عمرو يربط بين اللغة والدين ربطا شديدا حتى ر
اكثر من تزندق بالعراق كان لجهلهم بالعربية . وكانت رواية العربـ
ابى عمرو شيئا يستعين به القراء والمحدثون فاذا بابى عمرو يطلبها

(1) هو سليمان بن مهران الاسدى بالولاء — تابعى مشهور اصله مـ
الرى ، نشأ وتوفى بالكوفة ، كان عالما بالقرآن والحديث والـ
يروى نحو 1300 حديث — قال الذهبى : كان رأسا فى العلم
والعمل الصالح — وقال السخاوى : لم ير السلاطين والملوك
مجلس احقر منهم في مجلس الاعمش مع شدة حاجته وفقره

واتجه بها اتجاها منهجيا ــ يقول شعبة : كنت اختلف الى ابن ابـــى عقرب فأسأله انا عن الفقه ؛ ويسأله ابو عمرو عن العربية فيقوم وأنا لا احفظ حرفا مما سأل عنه ولا يحفظ حرفا مما سألت عنه ــ وكان فـــى طلبه للغة يمثـــل العقلية النقلية ، اكثر تسليما للعرب لا يرى الشعر الا للقدامى ولا يحتج الا بهم يقول الاصمعي : جلست الى ابى عمرو عشر حجج مـــا سمعته يحتـــج ببيت اسلامي . واذ يعجب بشعر جرير والفرزدق وامثالهما فانه كان يعـــده مولدا بالاضافة الـــى اشعـــار الجاهليين والمخضرمـــين (1) روى قراءتـــه الدوري (2) والسوسي (3) عن اليزيدي عنه .

ابن عامر الدمشقي

هو أبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد بـــن تميم اليحصبى ، تابعى لقى واثلة بن الاشقع . والنعمان بن بشير ويقول يحيى بن الحارث الذماري انه قرأ على عثمان رضي الله عنه ــ كان امـــام المسلمين بالجامع الامـــوى بدمشق فى أيام عمر بن عبد العزيز وقبله وبعده وكان يأتم بـــه وهـــو امير وجمع له بين الامامة والقضاء ومشيخة الاقـــراء بدمشق ؛ ولا زال اهـــل

---

(1) الاصابة 1 : 542 وخزانة الادب 1 : 531 ومعجم الادبـــاء 11 : 156 ترجمة رقم 1283 طبقات القراء .

(2) هو ابن عمرو حفص بن عمرو بن عبد العزيز البغدادى الضرير امـــام القراءة وشيخ الناس فى زمانه ــ اول من جمع القراءات ، رحـــل فى طلبها وقرأ بسائر الحروف السبعة ، وبالشواذ وسمع من ذالك شيئا كثيرا توفي في شوال سنة ســـت واربعين ومائتين ت 1159 طبقات القراء و 60 تاريخ القرآن .

(3) هو ابو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله الرقى اخـــذ القراءة عرضا وسماعا عن ابى محمد اليزيدى وهو من اجـــل اصحابه وذكـــر الاهوازى انه قرأ على حفص عن عاصم ت 1446 طبقات القراء و 60 تاريخ القرآن .

الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا الى قرب الخمسمائة ــ وراوياه عن اصحابه هما هشام (1) وابن ذكوان (2) .

عاصم بن أبي النجود

من التابعين ، شيخ الاقراء بالكوفة واحــد القراء السبعة ، جمع بين الفصاحة والاتقان والتجويد وحسن الصوت ، روى عن ابى رمثة التميمى والحارث بن حسان البكرى وكانت لهما صحبــة روى قراءتــه شعبة (3) وحفص (4) وتوفى سنة سبع وعشرين ومائة .

---

(1) هو ابو عمار ــ او ابو الوليد بن نصير السلمى اخذ قراءة ابن عامر عرضا عن ايوب بن تميم ، وعراك بن خالد المرى عن يحيى بن الحارث الذمارى ، عن ابن عامر وكان عالم اهــل دمشق وخطيبهم ومفتيهم ومقريهم ومحدثهم ، ارتحل اليه الناس فى طلب القراءة والحديث منهم ابو عبيد القاسم بن سلام ولــــد سنة ثلاث وخمسين ومائــة وتوفى سنـــة خمس واربعين ومائتين ت 3787 ط القــــراء و 61 تاريخ القرآن .

(2) هو ابو عمرو عبد الله احمد بن بشير الدمشقى اخذ قراءة ابن عامر عن ايوب بن تميم عن يحيى بــــن الحارث الذمارى ، انتهت اليــه مشيخة الاقراء بعد ايوب بن تميم ولد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وتوفى سنة اثنتين ومائتين تاريخ القرآن 61

(3) هو ابو بكر بن عياش بن سالم الاسدى الكوفى ، عرض القرآن على عاصم ثلاث مرات وعلى عطاء السايب وأسلم المقرى ، وعمر دهرا الا انه قطع الاقراء قبل موته بمدة ، ولد سنة خمس وتسعين ، وتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائة ت رقم 1321 ط القراء .

(4) هو ابو عمرو حفص بن سليمان بن المغيرة البــــزاز ، تعلم القرآن خمسا خمسا كما يتعلمه الصبى من المعلم ، وكان ربيب عاصم ابن زوجته ــ نزل بغداد فأقرأ بقراءة عاصم ، وجاور بمكة فأقرأ بها ، قال يحيى بن معين : الرواية الصحيحة التى رويت من رواية عاصم رواية حفص ــ ولد سنة تسعين وتوفى سنة ثمانين ومائة ت رقــم 1158 طبقات القراء .

أبو عمارة حمزة بن حبيب

كان امام الناس بالقراءة بالكوفة بعد عاصم والاعمش ، وكان حمزة قارئا مجودا حافظا للحديث عارفا بالفرائض والعربية ورعا زاهدا ، وكان شيخه الاعمش اذا رآه يقول : هذا حبر القرآن ، ويقول حمزة : ما قرأت حرفا من كتاب الله الا بأثر ، ولد سنة ثمانين وتوفي سنة ست وخمسين ومائة روى قراءته خلف (1) وخلاد (2) .

علي بن حمزة الكسائي

هو ابو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله ... مولى بني اسد من ائمة الكوفة في القراءات والنحو واللغة . قرأ القرآن على حمزة بن حبيب الزيات كما اخذ عن محمد بن ابي ليلى ، وعيسى بن عمر الهمداني ـ واخذ اللغة عن الخليل ويونس في البصرة ، والنحو عن معاذ الهراء في الكوفة ، وعيسى بن عمر في البصرة ، قال ابو بكر الانباري اجتمعت في الكسائي امور : كان اعلم الناس بالنحو واوحدهم في الغريب وكان اوحد الناس في القرآن فكانوا يكتبون عنه .... فيجمعهم ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من اوله الى آخره وهم يسمعون ويضبطون حتى المبادىء والمقاطع .

---

(1) ابو محمد خلف بن هشام البزار (بالراء) الاسدي البغدادي ، احد القراء العشرة واحد القراء عن سليم عن حمزة . حفظ القرآن وهو ابن عشر وبدا في الطلب وهو ابن ثلاث عشرة ، وكان ثقة كبيرا زاهدا عالما وله معرفة بالنحو مات سنة تسع وعشرين ومائتين ترجمة 1235 طبقات القراء .

(2) هو ابو عيسى خلاد بن خالد الشيباني الكوفي ، امام في القراءة ثقة عارف ، محقق ، استاذ ـ اخذ القراءة عرضا عن سليم وهو من اضبط اصحابه واجلهم وروى القراءة عن حسين بن علي الجعفي عن ابي بكر ، وعن ابي بكر نفسه عن عاصم وتوفي سنة عشرين ومائتين ت 1238 ط القراء .

روى قراءته ابو الحارث ؛ (1) والدورى (2)

أبوجعفر يزيد بن القعقاع المخزومي

تابعى جليل اخذ القراءة عن الصحابة وانتهت اليـه رياسة الاقـراء بالمدينة فسمى القارىء ، قال أبو الزناد لم يكن بالمدينة أقرأ للسنة من أبى جعفر ، يقال انه قرأ على زيد بن ثابت ، قال الذهبى : ولم يصح ـ وقـرأ على عبد الله بن عياش ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عباس وقـرأ عليه نافع ابن أبى نعيم توفى سنة ثلاثين ومائة على اشهر الاقوال روى قراءته عيسى الحذاء (3) وابن جماز (4)

يعقوب الحضرمي

هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبد الله بن ابـى اسحق الحضرمى امام اهل البصرة ومقرئها ـ اخذ القراءة عرضا عن سلام الطويل ، ومهدى ابن ميمون ، وابى الاشهب العطاردى وآخرين ـ روى عن سلام حرف ابى عمرو بالادغام ، وسمع الحروف من الكسائى ومحمد بن زريق الكوفى عن

---

(1) هو الليث بن خالد البغدادى ، عرض على الكسائى وهو مـن جلـة اصحابه وروى الحروف عن حمزة بن القاسم الاحول وعن اليزيدى وروى عنه عرضا وسماعا سلمة بن عاصم صاحب الفراء ومحمد بن يحيى الكسائى الصغير ، والفضل بن شاذان ، ويعقوب بن احمـد التركمانى توفى سنة اربعين ومائتين .

(2) سبق التعريف به فى رواة ابى عمرو .

(3) هو ابو الحارث عيسى بن وردان المدنى محقق ضابط عرض عـلى ابى جعفر وشيبة ثم عرض على نافع وعرض عليـه اسماعيل بـن جعفر ، وقالون ، ومحمد بن عمر الواقدى توفى فـى حدود سنة ستين ومائة ت رقم 2510 طبقات القراء .

(4) هو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز الزهرى ، عرض على ابى جعفر وشيبة ، ثم عرض على نافع ، واقرأ بحرف أبى جعفر ونافع، توفى بعد السبعين ومائة ت رقم 315 طبقات القراء .

عاصم ، وسمع عن حمزة حروفا، يقول أبو حاتم السجستانى : كان يعقوب أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف فى القرآن وعلله ومذاهب النحو ــ مات سنة خمسين ومائتين (1) وروى قراءته رويس (2) وروح بن عبد المؤمن (3)

خلف

وقد سبق ان عرفنا به كراو على طريقة حمزة ــ وروى عن خلف اسحق بن ابرهيم (4) وادريس بن عبد الكريم (5)

---

(1) طيبة النشر 11 وت رقم 3891 طبقات القراء .

(2) هو ابو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى اخذ القراءة عرضا عن يعقوب الحضرمى وهو من احذق اصحابه سئل ابو حاتم السجستانى عن رويس هل قرا على يعقوب ؟ قال : نعم قرا معنا وختم عليه ختمات وعلى روايته اعوّل ــ وروى عنه القراءة عرضا محمد بن هارون التمار ، وابو عبد الله الزبير بن احمد الشافعى ــ توفى بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين ت رقم 3389 طبقات القراء .

(3) هو ابو الحسن روح بن عبد المؤمن بن عبده الهذلى ؛ بصرى نحوى من اوثق اصحاب يعقوب روى الحروف عن احمد بن موسى ومعاذ ابن معاذ وابنه عبيد الله ، ومحبوب كلهم عن ابى عمرو . توفى سنة اربع او خمس وثلاثين ومائتين ت 1273 طبقات القراء .

(4) اسحق بن ابرهيم بن عثمان المروزى البغدادى وراق خلف وراوى اختياره عنه قرا على الوليد بن مسلم وتوفى سنة ست وثمانين ومائتين ت.رقم 723 ط القراء .

(5) ادريس بن عبد الكريم الحداد البغدادى قرأ على خلف بن هشام روايته وروى القراءة عنه سماعا ابن مجاهد ، وعرضا محمد بن احمد بن شنبوذ وابن مقسم وموسى بن عبد الله الخاقانى ومحمد ابن اسحق البخارى وآخرون . سئل عنه الدارقطنى فقال : ثقة وفوق الثقة بدرجة. توفى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ت رقم 717 طبقات القراء .

هذا تعريف موجز باصحاب القراءات العشر وراويين لكل منهم ، ولا يعنى هذا التعريف حصرا بكل القراء فهم اكثر من هذا ، واذا ذكرنا راويين مثلا لابى عمرو بن العلاء فقد اشتهر عنه سبعة عشر راويا هم : اليزيدى ، وشجاع ، وعبد الوارث ، والعباس بن فضل ، وسعيد بن أوس ، وهارون الأعور ، والخفاف ، وعبيد بن عقيل ، وحسين الجعفى ، ويونس بن حبيب، واللؤلؤى ، ومحبوب ، وخارجة ، والبهنسى ، وعصمة ، والاصمعى ، وابو جعفر الرؤاسى •

واشتهر ممن روى عن اليزيدي الدورى ، والسوسى ، وابو حمدان، ومحمد بن احمد بن جبير ، واوقية ابو الفتح ، وابو خلاد ، وجعفر بن حمدان سجادة ، وابن سعدان ، واحمد بن محمد اليزيدى ، وابو الحارث ابن خالد •

ولقد كان فى زمان السبعة من ائمة الاسلام الناقلين للقراءات عالم لا يحصون (1)

واذا تفرع عن الرواة اصحاب الطرق تشعب بنا الحصر ، واطمأن قلبك لهذا السياج المتين من السند الموثق الذي لا يدانيه سند لنص أدبى آخر يمكن ان تستند منه العربية أصولها وروايتها الصحيحة •

---

(1) النشر 1 : 42

الفصل الثاني

العربية من خلال الشروح والقراءات

هل كان كل العرب يفهمون القرآن ويعلمون معانيه؟

يقول ابن خلدون في الفصل الذى عقده فـى (المقدمة) عـن علوم القرآن فى التفسير والقراءات : (وامـا التفسير فاعلم ان القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى اسلوب بلاغاتهم فكانوا كلهم يفهمونـه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه ، وكان ينزل جملا جمـلا وآيات آيات لبيـان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ، ومنها مـا هـو فى العقائد الايمانية ، ومنها ما هو فى احكام الجوارح ، ومنها ما يتقدم ، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له ــ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نـزول الآيات ومقتضى الحال منقولا عنه) . (1)

وهذا الخبر يتضمن قضيتين :

(1) مقدمة ابن خلدون 214 ط مصر سنة 1274 هـ

اولاهما ــ ان العرب الذين نزل القرآن فيهم كانــوا جميعا يفهمونه بمفرداته وتراكيبه اى من ناحية عبارته واسلوبه .

والثانية ــ ان القرآن كان ينزل متضمنا احكاما دينية يأتى بها مجملة فى كثير من الاحيان فكان النبى يفصلها ويبين مجملها الى غير ذلك مما كان لا بد فيه من بيان الرسول ، فالرسول هو المفسر الاول للقرآن على هــذا الوجــه .

فاما ما ذهب اليه ابن خلدون فى المسألة الاولى من ان العرب كانــوا يفهمون القرآن عند نزوله فيبدو انه يريد فهمهم لمجموعه لا لجميعه ؛ واذن فليس يطعن فى الحكم بفهمهم له ان تشذ عــن مداركهم او مدارك بعضهم بعض الالفاظ او العبارات ؛ واللغة اوسع من ان يحيط بهــا محيط او يلم امرؤ بكل مفرداتها مهما بلغ من سعة المعرفة ولا ريب اذن فــى ان العــرب ــ حتى اوسعهم ادراكا ــ لم يكونوا يملكون الاحاطة التامــة بكل الفاظ القرآن او تبين كل اساليبه على وجه دقيق معين ، فها هــو ذا ابــو بكــر الصديق وهو من افصح قريش يسأل عن قوله تعالى (وكان الله على كل شىء مقيتا) فيقول : اى سماء تظلنى واى ارض تقلنى ان قلت فــى كتاب الله ما لم اعلم (1) .

ولقد ذهب صاحب كتاب (مقدمة المبانى) الــى القول بان ابــا بكر رضى الله عنه عظم فى صدره القرآن وجل قدره عــن ان يتكلم فيــه لغير موضع الحاجة التى لا بد منها ، ولم يأمن أنه ان أبدل بهــذه اللفظة لفظة اخرى لعلها لا تقع موقع الأولى فى ابلاغ الوصف .

وقال الزركشى مثل هذا القول فى مناسبة مشابهة فى كتابه (البرهان) عندما سئل ابو بكر عن كلمة (الأب) فى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) فقال

---

(1) مقدمتان فى علوم القرآن . مقدمة كتاب المبانى ، ومقدمة ابن عطية نشرهما آرثر جفرى ص 183 طبعة السنة المحمدية سنة 1954

قوله السابق — وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال : الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم قال : لعمرك يابن الخطاب ان هذا لهو التكلف . قال الزركشي (وما ذاك بجهل منهما لمعنى (الأب) وانما يحتمل — والله أعلم — أن الأب من الألفاظ المشتركة في لغتهما ، أو في لغات ، فخشيا ان فسراه بمعنى من معانيه أن يكون المراد غيره . ولهذا اختلف المفسرون في معنى الأب على سبعة أقوال) . (1).

وأضاف الزركشي وجهين آخرين لتفسير موقف عمر أحدهما أن يكون خفي عليه معناه ، والثاني تخويف غيره من التعرض للتفسير بما لم يعلم .

ومع ما رأيت ، فاننا لا زلنا على رأينا أن العربية أوسع من أن يحيط بها محيط . يدلك على هذا موقف لعمر ايضا حين التبس عليه معنى (الحرج) فقال : ابغوا اليَّ أعرابيا ، واجعلوه من بني كنانة — مدلجيا فاتى براع من بني مدلج فقال : ما الحرجة فيكم ؟ فقال : الشجرة التي لا تصل اليها راعية ولا وحشية . فقال عمر : فكذلك قلب الكافر لا تصل اليه المعرفة والرغبة في الاسلام كما لا تصل الراعية الى الموضع الذي التف فيه الشجر . (2)

وسأل عمر مرة أخرى عن قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا ، التخوف التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم شاعرنا أبو كبير يصف ناقته فيقول :

تخوف الرحل منها تامكا قردا
كما تخوَّف عود النبعة السفن (3)

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي 295
(2) مقدمتان في علوم القرآن 187
(3) تفسير البيضاوي الآية 46 من سورة النحل

ولابن عباس ـ ولا يشك أحد فى صدق عربيته وهو الذي كان يوصف بالبحر ، وترجمان القرآن ، مواقف متعددة فى هذا السياق نذكرها فى أماكنها من هذا البحث .

ولم يخلص هذا الأمر فى مجموعه وجميعه الا للنبى صلى الله عليه وسلم بتوفيق من الله تعالى ليكون له مكان الصدارة ، وليحمل لواء التوجيه لقومه وهم لدد ذوى ألسنة حداد . لقد كانت معرفته بالعربية تتجاوز القرشية التى نشأ فيها ولغة بنى سعد التى استرضع فيها وفوق ما جمع أولو الخبرة من الأسفار والتجارة ، لقد أوتى علما بلهجات القبائل مع فصاحة فيها ، وعلم غريبها فاستمع الى الوفود على اختلاف ألسنتها وفهم منهم حديثهم ، وأجابهم ، وكتب لهم على طريقتهم حتى استلفت ذلك نظر على بن ابى طالب فقال له يا رسول الله : نحن بنوا اب واحد ونراك تكلم الوفود بما لم نفهم أكثره . (1)

ولقد اوتى النبى صلى الله عليه وسلم حسن التأويل وصدرت عنه أنماط كانت بمثابة توجيه للصحابة والقائمين بالأمر من بعده أن يحذوا حذوها يقول البراء بن عازب : جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى عملا يدخلنى الله به الجنة . قال (لئن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة ، اعتق النسمة ، وفك الرقبة) قال : أو ليسا واحدا ؟ قال : (لا . عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها) . (2)

ولا يكاد صلوات الله عليه وسلامه يلحق بالرفيق الأعلى حتى تشتد الحاجة الى معرفة التفسير والتأويل، ويلجأ الناس بادىء الأمر الى الصحابة، ثم الى الشعر ولهجات القبائل يستعينونها فهم ما غمض من القرآن .

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه 2 : 31 وما بعدها

(2) مقدمة المبانى 190.

في مجالس التفسير

التفسير بالمأثور

بدأ التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم يلتمس عند الصحابة المقربين كعلى بن ابى طالب ، وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل، وسالم بن معقل ، وزيد بن ثابت كما كان يلتمس عند القراء اذ كان هؤلاء جميعا أعمق للقرآن فهما وأكثر نفوذا فى دقائقه واحاطة بايماءاته واشاراته فكان على رضى الله عنه يقول (لو أردت أن أملى وقر بعير على الفاتحة لفعلت) (1) وقال : (والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين انزلت ان ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا سئولا) (2) وقال فى خطبة له (.. سلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية الا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل نزلت أم فى جبل ..) (3)

وكان ابن مسعود يقول (لقد تلقيت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة أحكمتها ...) (4) وذكر ابو عمرو الدانى فى كتاب البيان له باسناده عن عثمان ، وابن مسعود ، وأبى ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل . (5)

وعلى أيدى هؤلاء وأمثالهم بدأ تفسير القرآن يجتاز الجزيرة العربية منذ أخذت الفتوحات الاسلامية تضرب سلطانها خارج بلاد العرب ، فكان أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى حين أرسل واليا على البصرة من قبل عمر بن الخطاب يتخذ مجلسه فى مسجدها ويقول لأهلها (ان أمير المؤمنين عمر بعثنى اليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم وأنظف لكم طرقكم) . (6)

---

(1) البرهان فى علوم القرآن 8
(2) حلية الاولياء 1 : 68
(3) تفسير القرطبى 1 : 35
(4) حلية الاولياء 1 : 125
(5) تفسير القرطبى 1 : 39
(6) حلية الاولياء 1 : 257

واتخذ أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي مجلسه في مسجد الكوفة وكان كما يقول علي بن أبي طالب قد (قرأ القرآن ثم وقف عنده وكفى به) (1) وقال مسلم : (والله لا أعلم أحدا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بكتاب الله من هذا وأشار الى ابن مسعود) (2) وكان أبو الدرداء عويمر بن مالك يتخذ مجلسه في جامع دمشق ومن اقواله المأثورة (انك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها) وقال : (ان مما أخشى عليكم زلة العالم وجدال منافق بالقرآن ، والقرآن حق وعلى القرآن منار كمنار الطريق) • (3)

واتخذ معاذ بن جبل مجلسه في حمص ، وكان عمر يشير الى علم معاذ بقوله (لو أدركت معاذ بن جبل ثم وليته ثم قدمت على ربي عز وجل فقال لي : من وليت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم قلت : سمعت نبيك وعبدك صلى الله عليه وسلم يقول « معاذ بن جبل بين يدي العلماء طائفة يوم القيامة » • (4)

وكان ابو عبد الله حذيفة بن اليمان يؤدي هذا الدور في المدائن •

وقد اتخذوا من القرآن وبيانه وسيلة الى التعريف بحقيقة الاسلام وسببا الى شحذ العاطفة الدينية كما كان هؤلاء القراء يقومون بالافتاء ، واطلق عليهم : أهل الفتوى — يقول ابن خلدون : ان الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته مما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم • (5)

(1) حلية الاولياء 1 : 129
(2) غاية النهاية في طبقات القراء 1 : 459 ت 1914
(3) حلية الاولياء 1 : 211 و 213 و 219
(4) حلية الاولياء 1 : 229
(5) مقدمة ابن خلدون 422 ط بولاق سنة 1320

ملكن ادراكنا لوجوه التفسير عندهم يشوبه النقص الشديد . وبقي لنا الكثير من التفسير اللغوي الذي بدأ به ابن عباس .

التفسير اللغوي

ابن عباس

لا نكاد نرى قبل ابن عباس من يتجه اتجاها منهجيا الى التفسير . وكانت نشأته وتكوينه العقلي يمدانه بمقوماته ويعيناته عليه ، فقد ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وعاش على مقربة من الرسول صلى الله عليه وسلم طفلا وصبيا . واتجه الى دراسة هذه الثورة الدينية التي حمل لواءها ابن عمه محمد صلى الله عليه وسلم وذهب ينمي علمه بها من السنة الصحابة فروى عن عمر وعلي ومعاذ بن جبل وأبي ذر (1) وعبد الله بن عمر (2) وكان يقول لعكرمة مولاه (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير) (3) ويقول ابو رافع ان ابن عباس كان يأتيه فيسأل ما صنع النبي يوم كذا ومعه كاتب يكتب له .

واشهر من تأثر بهم من الصحابة أبو خارجة زيد بن ثابت الانصاري وكان أعلمهم بالقرآن . وامام أهل المدينة بالفتوى وفصل الخصومات ، ومن كتبة الوحي ونسخة المصاحف ـ أعجب ابن عباس بأستاذه ولازمه وخاصة بعد أن عاد من البصرة عقب موت علي سنة أربعين من الهجرة وكان يجله ويحترمه حتى كان يأخذ بركابه اذا ركب (4) وظلت صلته به

---

(1) اسد الغابة 3 : 194 ط جمعية المعارف سنة 1286 هـ

(2) اسد الغابة 3 : 239

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد 7 : 367 ط دار صادر

(4) الطبقات الكبرى 7 : 360

الى أن مات سنة خمس واربعين فتطلع الناس الى ابن عباس أن يكون خلفا لزيد فقال ابو هريرة اليوم مات حبر هذه الأمة وعسى اللـه أن يجعل في ابن عباس خلفا له •

هذا وجه من علم ابن عباس فى دراسته لملابسات هـذا الدين ومـا أدركه من النبى صلى الله عليه وسلم وما أثر عنه ووجده عند صحابته وهو يتصل بالتفسير بالمأثور •

أما الوجه الثاني فهو احاطته بالآثار الادبية المتمثلة فى الشعر وروايته فقد شب على ثروة ضخمة منه فيما كان يتردد فى المدينة من أصداء الشعر الذى قيل بعد حرب بعاث بين الأوس والخزرج ، ومـا قيـل علـى ألسنة المسلمين والمشركين على السواء بعد ذلك ، فكانت بيئـة المدينة تمـده بما يشبع هذه النفس المشبوبة المتطلعة الى الأدب ، يعينه علـى ذلك حافظـة واعية يشير اليها أبو الفرج فيما رواه عن عمر بن أبى ربيعة فقال :

(بينا ابن عباس فى المسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق ، وناس من الخوارج يسألونه ـــ اذ أقبل عمر بن أبـى ربيعة فـى ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فأقبل عليه ابن عباس فقال : أنشدنا فأنشده :

أمن آل نعـم أنت غـاد فمبكـر
غـداة غـــد أم رائـح فمهجـر

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع بن الازرق فقال : اللـه يابن عباس !! انا نضرب اليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك عـن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت
فيخـزى وأمـــا بالعشى فيخسر

فقال : ليس هكذا قال •

قال : فكيف قال ؟

فقال : قـال :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال : ما أراك الا وقد حفظت البيت •

قال : أجل وان شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك اياها •

قال : فاني أشاء •

فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ـ وفى رواية اخرى ان ابن عباس أنشدها من أولها الى آخرها ثم أنشدها من آخرها الى أولها مقلوبة ، وما سمعها قط الا تلك المرة صفحا) • (1)

وعبر ابن عباس عن هذه الحافظة بقوله : ما سمعت شيئا قط الا رويته وانى لأسمع صوت النائحة فأسد أذنى كراهة أن أحفظ ما تقول • (2)

ولم تكن البيئة وحدها ، ولا الحافظة الواعية وحدها وانما كان يجمع الى ذلك حساً عربياً ، وذوقا أدبيا أشار الى ذلك أبو الفرج ايضا ، فقد أنشد عمر بن أبى ربيعة قوله :

تشط غدا دار جيراننا

وسكت • فقال ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال له عمر : كذلك قلت أصلحك الله ، أفسمعته ؟

(1) الاغانى 1 : 72 و 73 ط دار الكتب
(2) الاغانى 1 : 73 ط دار الكتب

قال : لا ، ولكن كذلك ينبغى .

فهل كان لهذه الصفات يستنشده عمر بن الخطاب الشعر ؟ أم انه كان يجمع الى رواية الشعر ، وهذه الحافظة ، وهذا الحس الادبى وجهـا مـن حسن الالقاء أيضا ؟ (1)

ولم يقتصر ابن عباس فى تحصيله للادب على الشعر وحـده ، وانما كان يحرص على الجمال اللغوى أينما وجده . سمع حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى وهو يقول : (يا بنى . انـى قـد أمجدتكم فـى أمهاتكم وأحسنت فى مهنة أموالكم ، وانى ما جلست فى ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه والناكح مغترس فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين) قال ابن عباس : يا غلام ، اكتب لنا هذا الحديث . (2)

وحاج عمرو بن العاص عند معاوية فى آية فقال عمرو (تغرب فى عين حامية) وقال ابن عباس (حمئة) فلما خرج اذا رجل مـن الأزد قال لـه : بلغنى ما بينكما ، ولو كنت عندك أفدتك بأبيات قالها تبع :

فرأى مغـار الشمس عنـد غروبها
فـى عين ذى خلب وثأط حرمـد

وجاء صاحب مقدمة المبانى بهذه القضية فى رواية أخرى وفيها يسأل ابن عباس كعبا ما الخلب ؟ قال :الطين ـ قال : وما الثأط ؟ قال : الحمئـة

---

(1) يحكى ابن عباس فيقول : خرجت مع عمر فى اول غزوة غزاها فقال لى ذات ليلة : يابن عباس انشدنى لشاعر الشعراء ـ قلت : ومـن هو يا امير المؤمنين ؟ قال ابن ابى سلمى ...... فانشدته حتى برق الفجر . فقال : حسبك ، الآن اقرأ القرآن . الاغانى 10 : 291 ط دار الكتب

(2) البيان والتبيين 2 : 67 للجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون

قال : وما الحرمد ؟ قال الأسود فدعا رجلا ــ او غلامــا فقال : اكتب مــا يقول هذا • (1)

وبهذا القلب العقول واللسان السؤول (2) استطاع ابن عباس أن يجد في الآثار الأدبية ، وفي لهجات القبائل ، وفي طريقة العرب في القول مــا يعينه على تفسير القرآن تفسيرا لغويا ، وكانت الأخبار التي رويت عن ابن عباس تشير الى ابتداعه لهذا الوجه من التفسير ــ اى التفسير اللغوى ــ وتحرج الناس وشكوكهم فيما ذهب اليه ، يدلك على هذا ما يرويه حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر بن محمد عــن أبيه قال (بينا عبد اللــه بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الازرق لنجدة بن عويمر : قم بنا الى هــذا الذى يجترىء عــلى تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه فقالا : انا نريد أن نسألك عــن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب فان الله انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال ابن عباس : سلانــى عما بــدا لكما • فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى (عن اليمين وعــن الشمال عزين) •

قال : العزون : حلق الرفاق •

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليــه حتــــى
يكونوا حــول منبــره عزينــا

(1) الفائق فى غريب الحديث 1 : 297 ط دار احياء الكتب العربية سنة 1364 هـ 1945 م

(2) قيل لعبد الله بن عباس : انى لك هذا العلم ؟ فقال : قلب عقــــول ولسان سؤول • البيــان والتبيين 1 : 84 للجاحظ بتحقيــق عبد السلام هارون

ثم استمر يسأله على هذا الوجه مسائل عديدة ، والخبر بتمامه فـــى كتاب الاتقان • (1)

ومن الذين كانوا يتحرجون مـــن تفسير القرآن ويتهيبون موقفـا كموقف ابن عباس ــ عبد الله بن عمر اذ جاءه رجل فسأله عن قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) فقـال له : اذهب الى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال أخبرنى ــ فذهب الى ابن عباس فسأله ، فقال : كانت السموات رتقاء لا تمطـر ، والأرض رتقـاء لا تنبت ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات ، فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال : لقـد أوتى ابن عباس علما صدقا هكذا • لقد كنت أقول : ما تعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن • الآن قد أوتى علمه •

ومن هذا ترى أن نافع بن الأزرق وصاحبه نجـدة بن عويمر يذهبان الى ابن عباس وهما يستغربان موقفـه ولا يقتنعان الا أن يأتيهما بمصادق تفسيره من كلام العرب ، كما ترى ابن عمر يصف ابن عباس بالجرأة علـى تفسير القرآن ثم يعجب بعد ذلك أن وفق فيه •

كتاب التفسير المنسوب الى ابن عباس

أول من ينسب له كتاب فى تفسير القرآن هـو ابن عباس وقد أشار ابن النديم فى تسمية الكتب المصنفة فى تفسير القرآن الكريم الى كتاب له فى التفسير رواية مجاهد عنه فى طرق ثلاث •

---

(1) الاتقان فى علوم القرآن 1 : 120 ط الحلبى سنة 1370 هـ 1951 م

الاول : طريق حميد بن قيس عن مجاهد .

الثاني : طريق ورقاء عن ابى نجيح عن مجاهد .

الثالث : طريق عيسى بن ميمون عن ابى نجيح عن مجاهد . (1)

ولم يبق لنا من هذه الرواية شيء الا ما نثر منها في بطون الكتب التى تناولت تفسير القرآن ـ وهناك رواية ثانية لتفسير ابن عباس وهى رواية السدى عن ابى مالك وثالثة هى رواية السدى عن ابى صالح ، ولكنا لا ندرى ان كانتا او كانت احداهما قد جمعت فى كتاب أم لا كما حدث فى الرواية التى ذكرها ابن النديم ـ أما الرواية التى بقيت الى اليوم فهى رواية الكلبى عن ابى صالح وقد جمعها الفيروزبادى المتوفى سنة 816 هـ فى كتاب باسم (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) (2) وهى تنتظم القرآن كله .

ولكن الباحث لا يستطيع قبول نسبة هذا الكتاب لابن عباس لأسباب عديدة منها :

ـ تطالعك فى صفحاته الأولى غيبيات لا تتفق والوضوح الذى عرف عن وجهة ابن عباس فى التفسير . كأن يقول فى تفسير (بسم الله) الباء بهاء الله ، وبهجته ، وبلاؤه ، وبركته ، وابتداء اسمه بارىء ـ والسين سناؤه ، وسموه اى ارتفاعه ، وابتداء اسمه سميع ـ الميم ملكه ، ومجده ومنته على عباده الذين كانوا يرون فى الكواكب آلهة او مستقر آلهه وبقيت بعد ذلك فى مسلك الباطنيين الذين رأوا للحروف قوى مختلفة ترمز للالهة أو لقوى الآلهة .

---

(1) الفهرست لابن النديم ط الرحمانية ص 50

(2) ط الحلبى سنة 1378 هـ ـ 1959 م

ـ تجد الكتاب يفسر كل لفظة من ألفاظ القرآن ولو كانت ظاهرة بينة بنفسها لا حاجة الى تفسيرها ، والناس فى هذا العهد المبكر لا يزالون على درجة كبيرة من فطرتهم اللغوية وفى غير حاجة الى تفسير كل المفردات ومنها السهل المعروف .

ـ تجد بعض التفسير مشوبا بنزعة فارسية كأن يقول فى تفسير قوله تعالى : (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) أن يعيش ألف نيروز ومهرجان وفى قوله (ولقد علموا لمن اشتراه) لمن اختار السحر والنيرنجات .

ـ جاء بعض التفسير مخالفا لروح العربية وذوقها كالذى جاء فى قوله تعالى (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) اذ يقول : وكان حجرا أعطاه الله اياه ، عليه اثنا عشر ثديا كثدى المرأة ، يخرج من كل ثدى نهر اذا ضرب عصاه عليه .

وهو يفسر اللعن بالمسخ فى قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) ثم يقول بدعاء داود فصاروا قردة وبدعاء عيسى بن مريم صاروا خنازير .

الى غير ذلك مما جاء مخالفا لطريقة ابن عباس اذا وضعناه فى مقارنة مع ما نسب اليه من تفسير لقوله تعالى (وثيابك فطهر) وقوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) بل اننا نذهب الى الشك فى كثير مما وجدناه منسوبا الى ابن عباس فى كتب التفسير ومنها تفسير الطبرى .

وهناك عوامل زيفت هذه النسبة منها الملابسات التى داخلت علم التفسير فيما بعد حين مرّ فى أدوار كان هم المفسر فيها أن يروج عند العامة فيزخرف ما يحكى بنسبته الى أعلام الصحابة كعلى وابن عباس ، فضلا عن التيارات السياسية والمذهبية التى اتخذت من هذه النسبة سلاحا من أسلحتها التى تدافع بها ، وبذلك جاء كثير من الروايات المنسوبة الى ابن

عباس مضطربا فاسدا كما نجد كثيرا من المفسرين لا يتحرجون عـن نقـد الكثير منها وتضعيفه والحمل عليه وهم يعلمون ان رواتـه ضعاف لا تصح روايتهم • والواقع أن كثيرا ممن يؤخذ عنهم تاريخ ابن عباس كالضحاك ، ومقاتل ، وعكرمة ، والسدى ، والكلبى لم يكونوا فى الرواية من الثقة فى نظر رجال الحديث ونقدة الرواة •

وكما ورد الينا من التفاسير التى نسبت لابن عباس ما لا يتفق وطريقة تكوينه العقلى ، ورد الينا كذلك ما يشابه منهجه الـذى ينحصر فى نقطتين بارزتين : دراسته لظروف الدعوة الاسلامية ، واعتماده عـلى الآثار الادبية فيما يعرض له من وجوه التفسير • ومن هـذا الوجه الاخير أصاب العربية ثراء جَمّ نتيجة لروايتها فى سياق التفسير يستمده من طرق ثلاث :

الشعر

وقد ذكرنا انه كان يروى منه قدرا كبيرا ، يمده بمدد واسع فى تفسير ألفاظ القرآن وتراكيبه وكان يقول فى هـذا : اذا سألتمونى عـن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فان الشعر ديوان العرب • وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشىء مـن القرآن فيقول فيه كذا وكذا أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا • وسأله رجل عن قول الله عز وجل (وثيابك فطهر) قال : لا تلبس ثيابك على غدر وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فانـى بحمد الله لا ثـوب غادر
لبست ولا مـن سوءة أتقنع (1)

التعرف على لهجات القبائل

كان يقف عند بعض الألفاظ التى جاءت على غير لهجة قومه الـى أن يصيبها عند ألسنة أهلها فمن ذلك قوله : ما كنت أدرى ما (فاطر السموات

---

(1) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى 1 : 24 و 25

والارض) حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئـر فقـال أحدهما : أنـا فطرتها (1) اى بدأت حفرها ، وجاء رجل من هذيل فقال له ابن عباس : مـا فعل فلان ؟ قال : مات وترك اربعة من الولد وثلاثة مـن الوراء فقال ابـن عباس : (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) قال : ولد الولد (2) .

ومن الفاظ هذيل ايضا كلمة (التخوف) جاءت فـى قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) فكان ابن عباس يقف فيها أيضا الـى أن جاءه هذلى يشكو اليه أخاه قائلا :

تخوفنـى مالـى أخ لـى ظالم
فلا تخذلنى اليوم يا خير من بقى

فقال ابن عباس : تخوفك تنقصك ؟ قال : نعم . قال : الله أكبر (أو يأخذهم على تخوف) أى تنقص من خيارهم (3) .

وعن قتادة عن ابن عباس قال : ما كنت ادرى مـا قوله (ربنا افتـح بيننا وبين قومنا بالحق) حتى سمعت قول بنت ذى يـزن (تعال أفاتحك) تريد أخاصمك ، وقال الزركشى يعنى أقاضيك (4) .

وبقى بعد هذا كلمات يصرح ابن عباس بأنـه لا يعرفها ، اخرج ابـن جريج عن سعيد بن جبير انه سئل عن قوله تعالى (وحنانا من لدنا) فقال : سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لا والله ما أدرى ما حنانا ، وأخرج الفريابى بسنده عـن ابـن

---

(1) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى 1 : 113
(2) البرهان فى علوم القرآن 293
(3) الامالى للقالى 2 : 112 والمزهر 2 : 311
(4) الاتقان 1 : 113 والبرهان 293

عباس قال : كل القرآن أعلمه الا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأواه ، والرقيم وأخرج عن طريق مجاهد عن ابن عباس قال : ما ادرى مـا الغسلين ولكنى اظنه الزقوم (1) وربما انتهى ابن عباس الى هـذا التحديد واستطاع حصر ما لا يعرف من الكلمات بعد ان تعرف علـى الكلمات التـى كان يتوقف عندها ويسأل عنها رجال القبائل او يفيد من المناسبات التى تمده بمعانيها •

ولم تكن همته قاصرة على ما جاء منها فى القرآن الكريم بـل تجاوز ذلك الى ما جاء به الاستطراد ، وسبق أن رأيناه يسأل كعبا عـن (الخلب) و (الثأط) و (الحرمد) •

تعرفه على الألفاظ القديمة

ومن وجه آخر كان ابن عباس يستحيى ما يبدو أنه قديم من اللغة أو جاء على لسان قبيلة بعينها نرى ذلك فـى تفسيره لقوله تعالـى (••• مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) فقد روى عن نافع ابن أبى نعيم ان عبد الله بن عباس سئل عن قولـه تعالى (وفومها) قال : الحنطة ، اما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول :

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا
ورد المدينة عـن زراعة فـوم (2)

وزاد فى رواية أخرى الفوم : الحنطة بلسان بنى هاشم • وفى رواية ثالثة الحنطة والخبز (2) •

ثم عنى القراء بتفسير القرآن تفسيرا لغويا حتى كان جل الرواة مـن القراء وكان القرآن الكريم وتفسيره عـلى هذا الوجه اللغوى عـلى رأس الدواعى لرواية العربية •

---

(1) الاتقان 1 : 113 والبرهان 293

(2) تفسير الطبرى 1 : 311 ط الحلبى سنة 1954

الرواة وشروح القرآن

عقد ابن النديم فى كتاب الفهرست فى الفن الثالث من المقالة الأولى حديثا ضمنه أسماء الكتب المصنفة فى علوم القرآن : تفسيره ، ومعانيه ، وغريبه ولغاته (1) ولقد كان علماء اللغة فى البصرة كما فى غيرها من البيئات العلمية علماء بالقرآن قبل كل شىء اذ كان هو الاصل الاول فيما يمارسون من علوم اللغة . فكان يحيى بن يعمر احد قراء البصرة وكان عبد الله بن ابى اسحق الحضرمى قارئا ، وكان ابو عمرو بن العلاء شيخ علماء اللغة فى عصره من كبار علماء القرآن وهو احد القراء السبعة .

ومن اقدم من كتب فى التفسير من اللغويين أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى ، ذكر له ابن النديم كتابا فى معانى القرآن وقال ياقوت انهما كتابان « معانى القرآن الكبير » و « معانى القرآن الصغير » ولم يصل الينا شىء منهما . ومن قدامى اللغويين أيضا أبو فيد مؤرج بن عمر السدوسى وقد ذكر له ياقوت كتابا فى غريب القرآن ، ومن كبار اللغويين وأوائلهم أبو عبيدة معمر بن المثنى ذكر له ابن النديم كتابا فى (مجاز القرآن) و (معانى القرآن) و (اعراب القرآن) ولعل هذه تسميات لكتاب واحد هو (مجاز القرآن) الذى بأيدينا الآن .

مجاز القرآن لابي عبيدة

كتاب المجاز صورة كاشفة عن عقلية صاحبه ، فلم يكن أبو عبيدة عربيا يعتمد على فطرته متأثرا بلسان قبيلة من القبائل ، ولا متخصصا فى النحو

---

(1) الفهرست 50 الى 53 ط الرحمانية .

مشدودا الى قواعده وقوانينه ، ولا سلفيا يلتزم بآثار السلف يقف عند المأثور لا يتعداه كما هو الحال عند كثير من الرواة ولكنه رجل من الموالى ينتسب الى تيم قريش أو تيم بن مرة . أقبل على التحصيل بنهم شديد وبرز في الشعر والغريب والأخبار والأنساب وكان كما يقول يزيد بن مرة (ما يفتش عن علم من العلوم الا كان من يفتشه عنه يظن أنه لا يحسن غيره ولا يقوم بشيء أجود من قيامه به) (1) وذكره الجاحظ فقال (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعى أعلم بجميع العلوم منه) (2) وربما كان تفوقه هذا يرجع الى شعوبيته ومحاولته تحقيق المجد الادبى واللحاق بالعرب ولقد ترك لنا مؤلفات عديدة تكشف عن هذا الوجه من التحصيل من بينها كتاب مجاز القرآن .

وهو يعنى بالمجاز بيان الأساليب التى يستعملها القرآن فى التعبير عن أعراضه ، وكانت بعض هذه الأساليب لا تتفق اتفاقا دقيقا مع بعض القواعد التى تعتمد على النظر العقلى المنطقى وان كانت تتفق مع أسلوب العربية الذى ينبغى البيان عنه ، وتتبع شواهده من الآثار الادبية الصحيحة . ذلك أن جزءا كبيرا من اللغة يجرى عليه القياس والاطراد فاخضعه النحاة للتقنين، وبقى من وراء ذلك جزء لا يقبل هذا النظر الرياضى والشكل القياسى فجاء أبو عبيدة يرد الشبه التى تعرض للقرآن عند من ينظرون الى اللغة على أنها شيء يجرى على مقاييس منطقية أو عقلية .

وهو يحكى فى أسباب وضعه لهذا الكتاب فيقول : (أرسل الى الفضل بن الربيع الى البصرة فى الخروج اليه سنة ثمان وثمانين ومائة

(1) معجم الادباء 19 : 155

(2) البيان والتبيين 1 : 347 ط ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1367 هـ 1948 م

فقدمت الى بغداد واستأذنت عليه فأذن لى ... ثم دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة فأجلسه الى جانبى وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا علامة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا وقال لى : انى كنت اليك مشتاقا وقد سألت عن مسألة افتأذن لى أن أعرفك اياها ؟ فقلت هات . قال : قال الله عز وجل (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كانياب اغوال

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان امر الغول يهولهم اوعدوا به فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم ان اضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز) (1) .

واذا كان الاصل الذى بنى ابو عبيدة عليه كتابه هو رد الشبه الواردة على القرآن الى أسلوب العرب فانه لم يقتصر فى كتابه على مواضع الشبه وحدها بل أخذ يفسر القرآن معنيا بالنص على الأساليب العربية وتنويع معانيه على مقتضى هذه الأساليب . وكذلك لم يقتصر على الأساليب التى لم تطرد مع قوانين النحاة بل جمع فى كتابه بعض هذه وتلك . فمن المجاز الذى أشار اليه النحاة على قلة ، قوله :

ـ ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا) فهذا مختصر فيه ضمير مجازه (وانطلق الملأ منهم) ثم

---

(1) معجم الادباء 19 : 158 — 159

اختصر الى فعلهم وأضمر فيه : وتواصوا ان امشوا • او : تنادوا ان امشوا، أو نحو ذلك •

ــ ومن مجاز ما حذف وفيه مضمر (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) فهذا محذوف مجازه : واسأل أهل القرية ومن فى العير •

ــ ومن مجاز ما كف عن خبره استغناء عنــه وفيــه ضمير (حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتهــا ســلام عليكم طبتم فادخلوهــا خالدين) ثم كف عن خبره •

الى غير ذلك • (1)

اما هذا النوع الذى لم يتفق اتفاقا دقيقا مــع قوانين النحاة والــذى يجرى على أساليب العرب وطريقتهم فى القول فقد تتبع شواهده فــى مثل هذا الخبر الذى تناوله فى مجلس الفضل بن الربيع ، وفى مثل تأويله لقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقــال : مجــازه : غير المغضوب عليهم والضالين • و (لا) من حروف الزوائد لتتميم الكــلام والمعنــى القاؤها وتمثل بقول العجاج :

فــى بئــر لا حــور سرى ومــا شعر

أى فى بئر حور أى هلكه ، واستدل على ذلك أيضا بقول ابى النجم :

فمــا الــوم البيض الا تسخــرا
لمــا رأيــن الشمــط القفنــدرا

اى فما الوم البيض أن يسخرن ، وكذلك تمثل ببيت الأحوص :

ويلحيننى فــى اللهو ألا أحبــه
وللهــو داع دائب غــير غافــل

(1) مجاز القرآن انظر 1 : 8 وما بعدها

والمعنى : ويلهيننى فى اللهو أن أحبه (1) •

وكذلك أشار الى زيادة (ما) فى قوله تعالى (لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة) وتتبع شاهده فى قول النابغة الذبيانى :

قالت ألا ليت مـا هذا الحمام لنا
الـى حمامتنا ونصفه فقـد (2)

وعرض للاية الكريمة (لكن الراسخون فـى العلم منهم والمؤمنـون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله) اذ كانت لا تتفق قواعد النحاة مـع هذه الآيـة فبين ابو عبيدة أنها تتفق مع أساليب العرب وقال : العرب تخرج مـن الرفـع الـى النصب اذا كثر الكلام ثم تعود بعد الى الرفع وتمثل بقول خرنق :

لا يبعدن قومـى الذيـن هـم
سـم العـداة وآفـة الجـزر
النازلـين بكـل معتـرك
والطيبون معاقـد الأزر (3)

وناقش أبو عبيدة الاستفهام التقريرى قبـل أن يصبح قضية يبحثهـا البلاغيون حين ذكر منها ما جاء فى القرآن الكريم فـى مثل تناوله لقولـه تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيهـا) فقال : جاءت عـلى لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها وقد قال تبارك وتعالى (انـى جاعل فـى الارض

---

(1) مجاز القرآن 1 : 25
(2) مجاز القرآن 1 : 34
(3) مجاز القرآن 1 : 142

خليفة) ولكن معناها اى انك ستفعل ، وتمثل بقول جرير لعبد الملك بن مروان :

الستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

وقال : وتقول وانت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ؟ ليس باستفهام ولكن تقرير (1) .

ولم يقف جهد أبى عبيدة عند تفسير الغريب وتتبع شواهده فى الأساليب العربية وما جاء منها فى القرآن بل كان يستطرد أحيانا الى شرح التفسير بما يحقق للرواية سعتها فمن ذلك قوله حول الآية الكريمة (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) أى لا يتأثل مالا ، واستطرد قائلا : التأثل : اتخاذ أصل مال ، والأثلة الاضل . قال الأعشى :

الست منتهيا عن نحت أثلتنا
ولست ضائرها ما أطت الابل

مجد مؤثل : قديم له أصل (2) .

وفى قوله تعالى (واللاتى يأتين الفاحشة) قال : واحدها التى ، وبعض العرب يقول اللواتى ، وبعضهم يقول : اللاتى وذكر قول الأخطل :

من اللواتى اذا لانت عريكتها
يبقى لها بعده آل ومجلود

ثم استطرد الى تفسير كلمات من شعر الأخطل فقال : آلها : شخصها، ومجلودها جلدها (3) ووصل به الاستطراد الى تفسير اسم شاعر تفسيرا

(1) مجاز القرآن 1 : 35 — 36
(2) المصدر السابق 1 : 117
(3) نفس المصدر 1 : 119

لغويا وذلك في سياق شرحه لقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) حيث تمثل بقول ابن الرعلاء على وحدة المعنى في (ميته) خففت ام ثقلت ثم عاد فقال : (واسم ابن الرعلاء كوتى . والكؤتى والكوتى يهمز ولا يهمز . والكوتى من الخيل والحمير القصار . قال : فلا ادرى أيكون فى الناس أم لا ، قال : ولا ادرى الرعلاء أبوه او أمه) . (1)

ولقد أحدث تأليف هذا الكتاب ضجة فى البيئآت العلمية فى البصرة والكوفة على السواء . ففى البصرة كان يتزعم الحملة على ابى عبيدة أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ويتهمه بأنه يفسر القرآن برأيه وسئل ابو حاتم السجستانى عن الكتاب فقال : ما يحل لأحد ان يكتبه وما كان شىء أشد علىّ من أن أقرأه قبل اليوم ولقد كان أن أضرب بالسياط أهون علىّ من أن أقرأه لأنه فسر القرآن على غير ما ينبغى (2) .

وقال أبو عمر الجرمى : أتيت أبا عبيدة بشىء منه فقلت له : عمن أخذت هذا يا أبا عبيدة فان هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء ؟ فقال لى : هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم .

ويبدو من حديث لأبى حاتم أنه نازعته نفسه لهذا الكتاب فراح يتأمله ويناقش فيه أحمد بن المعدل ويصف ابن المعدل بأنه كان يفهم كتاب أبى عبيدة (2) ثم وصل به الأمر الى روايته وروى عنه أبو سعيد السكرى (3) .

واكبر الظن أن الاختلاف حول هذا الكتاب فى البصرة كان مظهرا من مظاهر الخصومة بين النزعة العقلية والنزعة النقلية ــ وكان فى البصرة

---

(1) مجاز القرآن I : 148 — 149
(2) طبقات الزبيدى 194
(3) فهرس ابن خير 60

من يعطى عنايته لهذا الكتاب ويؤلف على منواله ، فقــد وضع ابو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش كتابه في معانى القرآن على غرار كتاب المجــاز حتى لقد قال ابو حاتم فى وصف كتاب الأخفش (أخذ كتاب أبى عبيدة فى القرآن فأسقط منه شيئا وزاد شيئا وأبدل منه شيئا) • (1)

أما فى الكوفة فمن الطبيعى ان تدفع العصبية واختلاف المنزع علماءها الى الانكار على أبى عبيدة والتشنيع به فقال الفراء (لــو حمل الىّ أبــو عبيدة لضربته عشرين فى كتاب المجاز) (2) • وعلى كل حال لم يلبث علماء الكوفة ان تأثروا بهذا الكتاب عن طريق الأخفش الذى التقى بالكسائى فى بغداد وقال أبو الحسن فى هذه المناسبة :

(وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى فصليت خلفه الغداة فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والاحمر وابن سعدان سلمت وسألته عــن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأته فــى جميعها ••• فلما فرغت قال لى : بالله أما أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة ؟ قلت : نعم فقام الىّ وعانقنى وأجلسنى الى جانبه ثم قال : لــى أولاد أحب أن يتأدبوا بــك ويتخرجوا عليك ••• فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألنى أن أؤلف له كتابا فى معانى القرآن فألفته فجعله امامه وعمل عليه كتابا فى المعانى) (3) ولكن لم يصل الينا كتاب الكسائى حتى نفتش عن أثر أبى عبيدة أو أثر الأخفش فيه • أما الذى وصل الينا من آثار الكوفة فهو كتاب معانى القرآن للفراء •

---

(1) طبقات الزبيدى 74 — 75
(2) معجم الادباء 19 : 159
(3) المصدر السابق 11 : 227

معاني القرآن للفراء

ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء من رؤساء الكوفيين ، ومـــن أشهـــر اصحاب الكسائي واعلم الكوفيين بالنحو من بعده ، وكان ابو زكريا قريب الصلة بالبصرة وبالبصريين ، ذكر ياقوت انه تلمذ ليونس بن حبيب فاستكثر منه (1) واشار ثعلب الى هذه الصلة فقال فى مجلسه يوما « مـــات الفـــراء وتحت رأسه كتاب سيبويه » وكان كما يقول ثعلب يتفلسف فى تصانيفـــه حتى يسلك فى الفاظه كلام الفلاسفة (2) فنزعته اذن نزعة عقليـــة ادنى مـــا تكون الى النزعة البصرية •

وضع الفراء كتاب (معانى القرآن) فى بغداد قبيل وفاتـــه بزمن قليل بعد أن صار من رجال القصر فى بطانة المأمون بين سنة ٢٠٤ وهى سنة قدوم المأمون العراق وسنة ٢٠٧ وهى سنة وفاة الفراء وقد أورد ياقوت عن ابـــى بريدة الوضاحى نصا عن هذا الكتاب وعن ظروف وضعه بعد ان فرغ مـــن كتاب الحدود الذى اعده للخليفة المأمون فقال (••• وبعـــد أن فرغ مـــن ذلك « أى من كتاب الحدود » خرج الى الناس وابتدأ يملى كتاب المعانى، وكان وراقية سلمة بن عاصم ، وابو نصر بن الجهم ـ قال أبـــو بريـــدة : فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء كتاب المعانى فلم نضبط عددهم، ولما فرغ من املائه خزنه الوراقون عـــن الناس ليتكسبوا بـــه وقالوا : لا نخرجه لأحد الا لمن أراد أن ننسخه له على أن يكون عن كل خمسة أوراق درهم ـ فشكا الناس الى الفراء فدعا الوراقين وكلمهم فـــى ذلـــك وقال : قاربوا الناس تنفعوا وتنتفعوا فأبوا عليه ، فقال : سأريكم ، وقال للناس :

---

(1) معجم الادباء 20 : 10

(2) وفيات الاعيان 5 : 228

انى أريد أن أملى كتاب معان أتم شرحا وأبسط قولا من الذى أمليت قبلا وجلس يملى فأملى فى الحمد مائة ورقة فجاء الوراقون اليه وقالوا : نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشرة اوراق بدرهم) • (1)

ولكن السمرى وهو أحد رواة الكتاب يروى خبرا آخر ـ ولعله اكثر دقة من سابقه ، وأشار الى أنه بدأ باملاء الكتاب قبل أن يحضر المأمون من خراسان الى بغداد فقال فى صدر كتاب المعانى (هذا كتاب فيه معانى القرآن أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء يرحمه الله عن حفظه من غير نسخة فى مجالسه أول النهار من أيام الثلاثوات والجمع فى شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين وفى شهور سنة ثلاث وشهور من سنة أربع ومائتين) •

ويحكى ابن النديم فى سبب وضعه لهذا الكتاب أن عمر بن بكير كان منقطعا الى الحسن بن سهل فكتب الى الفراء ان الامير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ، فان رأيت ان تجمع لى أصولا او تجعل فى ذلك كتابا ارجع اليه فعلت • (2)

ودواعى وضع هذا الكتاب كما ترى تتشابه مع دواعى وضع كتاب المجاز لأبى عبيدة حين سأله ابراهيم بن اسماعيل وهو من كتاب الفضل بن الربيع عن الوجه فى قوله تعالى (طلعها كأنها رؤوس الشياطين) مما يدل على ضعف السليقة حين بسطت العربية سلطانها خارج الجزيرة العربية ، واذا بدت هذه الظاهرة عند رجلين من الكتاب فهى فى عامة الناس أعم وأظهر مما يفسر تزاحم الطالبين على حلقة الفراء ، ومسلك الوراقين فى اختزان الكتاب للتكسب به •

(1) معجم الادباء 20 : 12 — 13

(2) الفهرست لابن النديم 99 ط الرحمانية

روى كتاب الفراء من طريقين ، الرواية الاولى لمحمد بن الجهم السمرى كتابة عن الفراء وهى النسخة التى بأيدينا حدد فى صدرها تاريخ الاملاء — اما الرواية الثانية فهى لسلمة بن عاصم الذى كان يجىء بعد ان ينفض الناس من مجلس الاملاء فيأخذ كتابة بعضهم ويعرضها على الفراء وهى نسخة نالت تقدير العلماء فكان محمد بن القاسم بن محمد الانبارى يقول (كتاب سلمة أجود الكتب) (1) وهى نسخة مفقودة على ما أعلم •

لم يلتزم الفراء تفسير آيات القرآن كلها ، وانما كان يتناول ما اشكل منها ولذلك يطلق على الكتاب اسم آخر غير الاسم الذى ظهر به وهو (تفسير مشكل اعراب القرآن ومعانيه) •

تلمح فى الكتاب الى جانب التفسير المعجمى لبعض الالفاظ دقة عجيبة فى فهم الاسلوب العربى وادراكا لما بين الاساليب والعبارات فى الفروق كما تضمن اعراب القرآن طريقة أداء البدو للقراءة والوجه فى هذا الاداء فمن ذلك كلامه فى (الحمد) حيث يقول :

اجتمع القراء على رفع (الحمد) واما أهل البدو فمنهم من يقول (الحمدَ لله) بفتح الدال ، ومنهم من يقول (الحمدِ لله) بكسر الدال ، ومنهم من يقول (الحمدُ لُله) فيرفع الدال واللام — فأما من نصب فانه يقول (الحمد) ليس باسم انما هو مصدر يجوز لقائله أن يقول : أحمد الله فاذا صلح مكان المصدر فعل أو يفعل جاز فيه النصب من ذلك قول الله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) يصلح مكانها فى مثله من الكلام أن يقول : فاضربوا الرقاب • ومن ذلك قوله (معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) يصلح أن نقول فى مثله من الكلام : نعوذ بالله، ومنه قول العرب : سقيا لك ، ورعيا لك يجوز مكانه : سقاك الله ، ورعاك الله •

---

(1) طبقات الزبيدى 150

واما من خفض الدال من (الحمد) فانه قال : هذه كلمة كثرت علـى ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد فثقل عليهم أن يجتمع فى اسم واحد من كلامهم ضمة بعدهاكسرة أو كسرة بعدها ضمة ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان فى الاسم الواحد مثل (ابل) فكسروا الدال ليكون على المثال من اسمائهم •

وأما الذين رفعوا اللام فانهم أرادوا المثال الاكثر من أسماء العرب الذى يجتمع فيه الضمتان مثل (الحلم) و (العقب) (1) •

وهنا تتضح صفة الفراء كرجل روايــة ، يروى قراءات القـراء ويبين الوجه فيها كما يروى أيضا طريقة اداء أهل البدو •

الاستطراد الى شرح الأساليب العربية

وربما اتخذ الفراء الآية سببا للاستطراد وذكر الاساليب العربية التى يجوز قولها فى المناسبة وتخريج بعض القراءات على هذه الاساليب • ففى قوله تعالى (واذا غدوت من اهلك تبوىء المؤمنين مقاعد القتال) يقرؤها عبد الله (تبوىء للمؤمنين) فيقول الفراء : « والعرب تفعل ذلك فيقولون ردفك ، وردف لك ــ قال الكسائى : سمعت بعض العـرب يقول : نقدت لها مائة يريدون نقدتها مائة لامرأة تزوجها ، وانشدنى الكسائى :

استغفر الله ذنبا لست محصيه   رب العباد اليه الوجه والعمل

والكلام باللام كما قال تبارك وتعالى (واستغفرى لذنبك) أو (فاستغفروا لذنوبهم) وأنشدنى :

استغفر الله من جدى ومن لعبى   وزرى وكل امرىء لا بد متزر

(1) معانى القرآن للفراء 1 : 3 و 4

يريد لوزرى (1) وفى قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) يقول الفراء :

« الكلام العربى هكذا بالباء ، وربما طرحت العرب الباء فقالوا . اعتصمت بك ، واعتصمتك . قال بعضهم :

اذا انت جازيت الاخاء بمثله   وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا

فألقى الباء وهو كقولك : تعلقت زيدا ، وتعلقت بزيد وانشد بعضهم :

تعلقت هندا ناشئا ذات مئزر   وانت وقد قارفت لم تدر ما الحلم (2)

وفى قوله تعالى (واللاتى يأتين الفاحشة) قرأها عبد الله (واللاتى يأتين بالفاحشة) قال الفراء « والعرب تقول : أتيت أمرا عظيما ، وأتيت بأمر عظيم ، وتكلمت كلاما قبيحا ، وبكلام قبيح وقال فى مريم (لقد جئت شيئا فريا) و(جئتم شيئا ادا) ــ ولو كانت فيه الباء لكان صوابا » (3) والعبارة الاخيرة تشير الى عناية الفراء بالاساليب العربية ولو لم يرد بها قراءة .

وفى تعاقب (4) الحروف يقول فى (وما تدخرون) هى تفتعلون من ذخرت وتقرأ (وما تدخرون) خفيفة على تفعلون ، وبعض العرب يقول تدخرون فيجعل الدال والذال يعتقبان فى تفتعلون من ذخرت ، وظلمت ، تقول : مظلم ومطلم ، ومذكر ومدكر ــ وسمعت بعض بنى اسد يقول : قد أتغر وهذه اللغة كثيرة فيهم خاصة وغيرهم قد اثغر . (5)

---

(1) معانى القرآن 1 : 233

(2) معانى القرآن 1 : 228

(3) معانى القرآن 1 : 258

(4) التعاقب والاعتقاب بمعنى واحد . اللسان ع ق ب

(5) معانى القرآن 1 : 215

ولما كانت هذه القضية ناشئة عن تاء الافتعال فقد أفرد لتاء الافتعـــال حديثا يقول فيه (فاما الذين يقولون : يدخر ويدكر ومدكر فانهم وجـــدوا التاء اذا سكنت واستقبلتها ذال دخلت التاء فى الذال فصارت ذالا فكرهوا أن تصير التاء ذالا فلا يعرف الافتعال من ذلك فنظروا الى حرف يكون عدلا بينهما فى المقاربة فجعلوه مكان التاء ومكان الذال •

وأما الذين غلبوا الذال فامضوا القياس ولم يلتفتوا الـــى أنـــه حرف واحد فادغموا تاء الافتعال عند الذال والتاء والطاء • (1)

ويقول : (ولا تنكرن اختيارهم الحرف بين الحرفين فقـــد قالـــوا : ازدجر ومعناها : ازتجر فجعلوا الدال عدلا بين التـــاء والزاى ، ولقد قال بعضهم : مزجر فغلب الزاى كما غلب التـــاء ـــ وسمعت بعض بنى عقيـــل يقول : عليك بأبوال الظباء فاصعطها فانها شفاء للطحل فغلب الصاد عـــلى التاء ـــ وتاء الافتعال تصير مع الصاد والضاد طاء كذلك الفصيح من الكلام كما قال الله عز وجل (فمن اضطر فى مخمصة) ومعناها افتعل من الضرر • وقال الله تبارك وتعالى (وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها) فجعلوا التاء طاء فى الافتعال • (2)

وعرض الفراء لظاهرة الابدال فى كلام العرب حين تناول قوله تعالى : (وفومها وعدسها وبصلها) معللا لقراءة عبد اللـــه اذ قرأهـــا (وثومهـــا) بالثاء • قال الفراء (فان الفوم فيما ذكر لغة قديمة وهـــى الحنطـــة والخبز

---

(1) معانى القرآن 1 : 216

(2) نفس المصدر والصفحة

جميعا قد ذكرا ، قال بعضهم : سمعنا العرب من اهل هذه اللغة يقولون . فوموا لنا بالتشديد لا غير يريدون اختبزوا ، وهي في قراءة عبد الله وثومها ـ بالثاء ـ فكأنه اشبه المعنيين بالصواب لانه مع ما يشاكله من العدس والبصل وشبهه ويقول :

(والعرب تبدل الفاء بالثاء فيقولون : جدث وجدف ، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر ـ والاثاثي والاثافي ـ وسمعت كثيرا من بني اسد يسمي المغافير المغاثير) (1) •

والفراء لا يريد ان يقطع بأن ثومها التي قرأ بها عبد الله هي ابدال من فومها التي ذهب اليها اكثر القراء وذلك لاختلاف المعنى اذا اريد بها الثوم غير الفوم بمعنى الخبز والحنطة فهي عنده أشبه المعنيين بالصواب للمشاكلة مع العدس والبصل ـ والوجه الآخر ان تكون الثوم مبدلة من الفوم فهذا ثاني المعنيين كما تدل على ذلك عبارته : (فكأنه اشبه المعنيين) وقد تحدث بعد ذلك صراحة عن ظاهرة الابدال فيما جاء في بقية العبارة •

ومن الفوائد اللغوية التي اتخذ فيها الفاظ القرآن سببا للكلام ما ذكره في سياق عرضه لقوله تعالى (في بروج مشيدة) يقول: يشدد ما كان من جمع مثل قولك : مررت بثياب مصبّغة ، واكبش مذبّحة فجاء التشديد لان الفعل متفرق في جمع فاذا افردت الواحد من ذلك فان كان الفعل يتردد في الواحد ويكثر جاز فيه التشديد والتخفيف مثل قولك : مررت برجل مشجج ، وبثوب ممزق جاز التشديد لان الفعل قد تردد فيه وكثر • وتقول : مررت بكبش مذبوح ولا تقل مذبح لا يتردد كتردد التمزق •

---

(1) معاني القرآن 1 : 41

وقوله (بئر معطلة وقصر مشيد) يجوز فيه التشديد لان التشييد بناء فهو يتطاول ويتردد • (1)

وفي قضية التضاد

كان اللغويون يذكرون لفظ (الرجاء) في الاضداد يأتي بمعنى الامل كما يأتي بمعنى الخوف ذكر ذلك ابو سعيد عبد الملك الاصمعي في كتابه (٢) وقال ابو حاتم : الرجاء يكون طمعا ويكون خوفا وفي القرآن في معنى الطمع (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وفي قوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك) وقوله (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) كما تمثل بقول كعب بن زهير :

ارجو وآمل ان تدنو مودتها وما أخال لدينا منك تنويل

اراد الطمع • (3)

ثم قال : والرجاء في القرآن في معنى الخوف كثير قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه) وقال (الذين لا يرجون لقاءنا) وقوله (وارجوا اليوم الآخر) • (4)

ولكن الفراء اشترط الجحد (النفي) لمجيء الرجاء بمعنى الخوف فقال : قال بعض المفسرين : معنى ترجون تخافون ، ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء الا ومعه جحد فاذا كان كذلك كان الخوف على جهة الرجاء

---

(1) معاني القرآن 1 : 277
(2) كتاب الاضداد للاصمعي 23
(3) كتاب الاضداد لابي حاتم 80
(4) كتاب الاضداد لابي حاتم 80 و 81

والخوف • وكان الرجاء كذلك كقوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون ايام الله) هذه للذين لا يخافون ايام الله وكذلك قوله (ما لكم لا ترجون لله وقارا) لا تخافون لله عظمة وهى لغة حجازية وقال الراجز :

لا ترتجى حين تلاقى الذائدا   اسبعة لاقت معا أم واحدا

وقال الهذلى :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها فى بيت نوب عوامل

وقال : ولا يجوز رجوتك وأنت تريد خفتك ، ولا خفتك وانت تريد رجوتك (1) وناقش ابو بكر محمد بن القاسم بن بشار الانبارى هذه القضية وقال : (كلام العرب فى الرجاء على ما ذكر الفراء) • (2)

ومن اختلاف لهجات الاحياء

يقول حول الآية (الله لا اله الا هو الحى القيوم) الحى القيوم قراءة العامة اى عامة القراء ــ ، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود القيام ــ وقال : وصورة القيوم الفيعول ــ والقيام الفيعال وهما جميعا مدح واهل الحجاز أكثر شىء قولا الفيعال من ذوات الثلاثة فيقولون للصواغ الصياغ • (3)

وقرئت (يبشرك) بالتخفيف والتشديد فقرأها اصحاب عبد الله فى خمسة مواضع بالتخفيف ــ فى آل عمران حرفان ــ وفى بنى اسرائيل ــ

---

(1) معانى القرآن للفراء 1 : 286

(2) الاضداد فى اللغة للانبارى 10

(3) معانى القرآن 1 : 109

وفى الكهف ــ وفى مريم والتخفيف والتشديد صواب كما يحكى الفــراء ويقول : وكان المشدد على بشارات البشراء ، وكان التخفيف مــن وجهــة الافراح والسرور وهذا شيء كان المشيخــة يقولونــه ، وانشدنــى بعض العــرب :

بشرت عيالى اذ رأيت صحيفــة اتتك من الحجاج، يتلى كتابهــا

وقال بعضهم ابشرت ولعلها لغة حجازية ، وسمعت سفيان بن عيينة (1) يذكرها يبشر ــ وبشرت لغة سمعتها من عكل ، ورواها الكسائى عن غيرهم وقال ابو ثروان بشرنى بوجه حسن ، وانشدنى الكسائى :

واذا رأيت الباهشين الى العــلا غبــرا اكفهــم بقــاع ممحــل
فأعنهم وابشر بمــا بشروا بــه واذا هم نزلوا بضنــك فانزل

وسائر القرآن يشدد فى قول اصحاب عبد الله وغيرهم (2)

ومن الذوق اللغوي

الكناية عن الشيء بلفظ ارفع ذوقا واكثر تأدبا . اوضح الفراء ذلــك فى سياق تفسيره لقوله تعالى (ولكن لا تواعدوهن سرا) فقال : لا يصفن أحدكم نفسه فى عدتها بالرغبة فى النكاح والاكثار منه ، وروى بسنده عن ابن عباس انه قال (السر) فى هذا الموضع النكــاح وانشــد بيت امرىء القيس :

الا زعمت بسباسة اليوم اننــى كبرت والا يشهد الســر أمثالى

ومما يراه الفراء مع هذا السياق قوله تعالى (أو جاء احد منكم مــن الغائط) كناية عن قضاء الحاجــة (3) .

---

(1) ولد بالكوفة ونقله ابوه الى مكة وعده ابن سعد فى الطبقة الخامسة من اهل مكة

(2) معانى القرآن 1 : 212

(3) معانى القرآن 1 : 153

افتراض المشابهة :

ولم يجد الفراء فى بعض القراءات وجها من العربية على جهة القطـع فادارها على بعض أساليب العربية على سبيـل افتراض المشابهة فمن ذلـك قوله فى قراءة بعضهم (وعبد الطاغوت) بضم الباء فقال فان تكن فيه لغـة مثل حَذِر وحَذُر وعَجِل وعَجُل فهو وجه ـ والا فانه اراد ـ والله اعلـم ـ قول الشاعـر :

ابنـى لبينـى ان امكـم امـة وان اباكـم عَبُـد

وهذا فى الشعر يجوز لضرورة القوافى فاما فى القراءة فـلا (1) .

التسليم بما قالت العرب

وهو اذ يعتمد احيانا على قواعد النحاة ، والحس اللغوى فانـه كان كبقية الكوفيين يسلم بما قالت العرب ولو جاء خارجا عما ذكره النحاة ، من ذلك ما أورده حول قوله تعالى فى سورة يونس (قل لو شاء الله ما تلوتـه عليكم ولا ادراكم به) قال : وقد ذكر عن الحسن انه قال (ولا ادرأتكـم به) فان يكن فيها لغة سوى دريت وأدريت فلعل الحسن ذهب اليها ـ واما ان تصلح من دريت أو أدريت فلا لأن الياء والواو اذا انفتح ما قبلها وسكنتا صحتا ولم تنقلبا الى الف مثل قضيت ودعوت ـ ولعل الحسن ذهب الـى طبيعته وفصاحته فهمزها لانها تضارع درات الحد وشبهه ـ وربمـا غلطت العرب فى الحرف اذا ضارعه آخر مـن الهمز فيهمزون غير المهموز سمعت امرأة من طىء تقول : رثأت زوجى بأبيات . ويقولون : لبـأت بالحـج ، وحلأت السويق فيغلطون لأن حلات قد يقال فى دفع العطاش من الابـل ، ولبأت ذهب الى اللبأ الذى يؤكل ، ورثأت زوجى ذهبت الـى رثيئة اللبن وذلك اذا حلبت الحليب على الرائب (2) .

---

(1) معانى القرآن 1 : 314 — 315

(2) معانى القرآن 1 : 459

وهكذا يتخذ من خطأ العرب فى همز ما لا يهمز مخرجا لقراءة الحسن رادا ذلك الى طبيعته وفصاحته ـ والفراء يسلم بما جاء عن العرب ويخرج عليه قراءة الحسن ومن الطبيعى انه لا يخرج على شيء يرفضه .

وفى هذا العرض تتضح صفة الفراء يروى قراءات القراء ، ويروى طريقة اداء اهل البدو ثم ينتقل الى الناحية النحوية فيأخذ فى توجيه صوز الاداء المختلفة ويتتبع النظائر فى القرآن ، وفى المأثور من كلام العرب ولو خالف هذا المأثور قواعد النحاة .

تأويل مشكل القرآن

رأينا فى الكتابين السابقين : مجاز القرآن ، ومعانى القرآن رجلين من الكتاب يستعينان أبا عبيدة والفراء فهم ما غمض من الآيات ، ولكننا فى هذا الكتاب (تأويل مشكل القرآن) أمام لون آخر من الناس اعترضوا كتاب الله بالطعن ، ولغوا فيه وهجروا وابتغوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) .

وابن قتيبة ـ كمعظم العلماء ـ يدرك العلاقة بين فهم القرآن ومعرفة العربية فيقول (وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها فى الاساليب) فجاء كتابه كتاب لغة فى اكثر صفحاته . وكان عليه قبل ان يأخذ فى تفنيد حجج الملاحدة ان يكشف عن اسرار العربية والوجوه التى غمت على أكثرهم ثم يأخذ فى توجيه معانى القرآن على الوجه الذى تعنيه العرب وطريقتهم فى القول ... ثم عقد بابين احدهما لأصول الكلمات والآخر لحروف المعانى ونحن نبسط هذا الايجاز. فمن أساليب العرب :

ـ انهم قد يفرقون بحركة البناء فـي الحرف الواحـد بـين المعنيين فيقولون : رجل لـُعـْنـَة (بسكون العين) اذا كان يلعنه الناس فان كان هـو الذى يلعن الناس قالوا : رجل لـُعـَنـَة (بفتح العين) والامر على هذا القياس في قولهم رجل سُبّة وسُبَبَة ، وهُزْأة وهُزَأة ، وسُخْرَة وسُخَرَة ، وضُحْكَة وضُحَكَة ، وخُدْعَة وخُدَعَة (1) .

ـ وقد يفرقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرف فـي الكلمة حتـى يكون تقارب ما بين اللفظين كتقارب ما بين المعنيين كقولهم للماء الملح الذى لا يُشرب الا عند الضرورة شروب ، ولما كان دونه مما قـد يتجوز بـه شريب ... وكقولهم للقبض بأطراف الاصابع قبص وبالكف قبض وللاكل بأطراف الأسنان قضم وبالفم خضم ... (2) .

ـ وقد يكتنف الشيء معان فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشيء كقولهم من البطن :

للخميص مُبَطَّن .

وللعظيم البطن اذا كان خلقه بَطين .

فاذا كان من كثرة الاكل قيل مِبْطان .

وللمنهوم بَطِنْ .

ولعليل البطن مَبْطون .

ويقولون : وَجَدْتُ الضالة ، ووجدت فى الغضب ، ووجدت فـى الحزن ، ووجدت فى الاستغناء ثـم يجعلون الاسم فى الضالـة وجـودا

---

(1) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة 12 ط دار احياء الكتب العربية 1373 هـ 1954 م

(2) تأويل مشكل القرآن 12 و 13

ووِجْدانا ، وفى الحزن َوجْدا ، وفى الغضب مَوجِدة ، وفى الاستغناء ُوجْـــدا (1) .

ـــ ومن الكلام العربى واحد يراد به جمع ، جاء ذلك فى قوله تعالى (يخرجكم طفلا) كما جاء فى قول الشاعر :

هـــم المولى وان جنفوا علينـــا   وا ِنـــا مـــن لقائهم لـــزور (2)

ـــ ومنه ان يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما وهو لهما كقوله تعالى (واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها) وكقول الشاعر :

نحن بما عندنـــا وانت بما عنـــ   ـــدك راض والرأى مختلف (3)

ـــ او ان تأمر الواحد ، والاثنين ، والثلاثة فمـــا فوق امـــرك الاثنين فتقول : افعلا كقوله تعالى (القيا فى جهنم كل كفار عنيد) وكقول الشاعر:

فقلت لصاحبـــى لا تحبسانـــا   بنزع اصوله ، واجتز شيحا (4)

ـــ وكذلك يقدمون الحرف فى الكلمة وسبيله التاخير ، ويؤخـــرون الحرف وسبيله التقديم فيقولون : جذب وجبذ ، وبئـــر عميقـــة ومعيقة ، وأحجمت من الامر وأجحمت .. (5)

ـــ ووقع اكثر المجاز فى الاستعارة ، فالعرب تستعير الكلمة فتضعهـــا مكان الكلمة للمجاورة او المشاكلة وجاء ابن قتيبة بعديد من امثلة الاستعارة وما تعوده العرب منها ـــ ومن الاستعارة فى كتاب الله قوله عز وجل (يوم يكشف عن ساق) قال ابن قتيبة : « اى عن شدة من الامر كذلك قال قتادة ، وقال ابراهيم : عن امر عظيم ، واصل هذا ان الرجل اذا وقع فى امر عظيم

(1) تأويل مشكل القرآن 13

(2) تأويل مشكل القرآن 219

(3) تأويل مشكل القرآن 222

(4) تأويل مشكل القرآن 224 ، لان نزع الشيح اسهل من جذور الحطب

(5) تاويل مشكل القرآن 234

يحتاج الى معاناته والجد فيه شمر عـــن ساقه فاستعيرت الساق فى موضع الشدة ، وقال دريد بن الصمة

كميش الازار خارج نصف ساقه   صبور على الجلاء طلاع امجد

وكقول الهذلى :

وكنت اذا جارى دعـــا لمضوفـــة
أشمرّ حتى ينصف الساق مئزرى » (1)

ــ والمقلوب مـــن اساليب العرب ومنه أن يوصف الشـــىء بضد صفته للتطير والتفؤل كقولهم للّديغ سليم تطيرا من السقم ، وللعطشان ناهل اى سينهل يعنون : يروى ، وللفلاة مفازة أى منجاة وهى مهلكةً ــ وللمبالغة فى الوصف ، كقولهم للشمس : جونة لشدة ضوئها ، وللغراب أعور لحدة بصره • وللاستهزاء ، كقولهم للحبشى أبو البيضاء ، وللابيض ابو الجونــ ومن هذا قول قوم شعيب (انـــك لأنت الحليم الرشيد) كما تقول للرجل تستجهله : يا عاقل ، وتستخفه : يا حليم • (2)

ومن المقلوب ما ياتى فى العبارة كقولهم : كـــان الزناء فريضة الرجم أى كان الرجم فريضة الزنا (3))

ــ ومن اسلوبهم (التضاد) فيسمى المتضادان باسم واحد فيقال للصبح صريم وللليل صريم• قال الله سبحانه (فأصبحت كالصريم) أى سوداء كالليل لأن الليل ينصرم عـــن النهار ، والنهار ينصرم عن الليل ــ وللظلمة سدفة ، وللضوء سدفة وأصل السدفة السترة فكان الظلام اذا اقبل ستر للضـــوء ، والضوء اذا اقبل ستر للظلام (4))

---

(1) تأويل مشكل القرآن 104
(2) تأويل مشكل القرآن 142
(3) تأويل مشكل القرآن 233
(4) تأويل مشكل القرآن 143

ولليقين ظن ، وللشك ظن لان فى الظن طرفا من اليقين ، قال الله عز وجل (قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله) اى يستيقنون ، وكذلك (انى ظننت أنى ملاق حسابيه) و (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) و (ان ظنا ان يقيما حدود الله) هذا كله فى معنى اليقين ، وتمثل ابن قتيبة ببيت دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بالفى مدجّج سراتهم فى الفارسى المسرد

أى تيقنوا باتيانهم اليكم • (1)

وتاتى (وراء) بالمعنيين خلف وقدام يقول ابن قتيبة : « فكل ما غاب عن عينيك فهو وراء كان قدامك او خلفك » • قال الله عز وجل (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى امامهم ، وقال (من ورائهم جهنم) أى أمامهم (2)

ـ ومن أسلوب العرب فى الاختصار حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وجعل الفعل له ما جاء فى القرآن الكريم من هذا الأسلوب قوله تعالى (واسأل القرية التى كنا فيها) أى واسأل أهل القرية ، وقوله فى سورة البقرة (وأُشربوا فى قلوبهم العجل) أي حبه و (الحج اشهر معلومات) أى وقت الحج •••• (3) •

ومن الاختصار الاضمار لغير مذكور كقوله جل وعز (حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس ولم يذكرها قبل ذلك • وقوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة) يريد على الارض • ومن هذا الاسلوب قول حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعنى النفس (4) •

---

(1) تاويل مشكل القرآن 144

(2) تاويل مشكل القرآن 145

(3) تاويل مشكل القرآن 162 و 163

(4) تاويل مشكل القرآن 174 و 175

ومن الاختصار أن يأتى الكلام مبينا على أن له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به كقوله سبحانه (ولو أن قرآنا سُيرت بـه الجبال أو قُطّعت به الارض أو كُلّم به الموتى بل لله الامر جميعـا) أراد لكان هذا القرآن فحذف . وكذلك قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤوف رحيم) اراد لعذبكم فحذف ، ومن كلام العرب فى هـذا قول الشاعر :

فأقسم لو شىء أتانا رسوله   سواك ، ولكن لم نجد لك مدفعا

أى لرددنـاه (1) .

ومنه أن تحذف (لا) من الكلام والمعنى اثباتها كقوله سبحانه (تالله تفتؤ تذكر يوسف) اى لا تزال تذكر يوسف . ومنه قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) أى لئلا تضلوا . و (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) أى لئلا تزولا ..... ومن هذا قول امرىء القيس :

فقلت يمين اللـه أبرح قاعـدا   ولو ضربوا رأسى لديك وأوصالى

وقول الآخـر :

فـلا وابى دهماء زالت عزيـزة   على قومها ما فتل الزند قادح (2)

ـ ومن أسلوبهم أيضا زيادة اللفظ اشباعا للمعنى أو توكيدا له كقوله تعالى : (فيها فاكهة ونخل ورمان) والنخل والرمان من الفاكهة فهذا اشباع للمعنى ومنه قول ذى الرمـة :

لميـاء فى شفتيها حـوة لعس   وفى اللثات وفـى انيابها شنب

واللعس هو حـوة ، واللعس يستحسن فى الشفاه

وأما الزيادة فى التوكيد كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى

---

(1) تأويل مشكل القرآن 165 و 166

(2) تأويل مشكل القرآن 174

قلوبهم) لان الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلانا ، وانما كان ذلك كتابا أو اشارة على لسان غيره فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم وكذلك قوله تعالى (يكتبون الكتاب بأيديهم) لان الرجل قد يكتب بالمجاز وغيره الكاتب عنه ، وقال تعالى (فراغ عليهم ضربا باليمين) لان فى اليمين القوة وشدة البطش وقال الشماخ فى مثل هذا :

اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين (1)

وقد تزاد (لا) فى الكلام والمعنى طرحها لا باء فى الكلام او جحد كقول الله عز وجل (ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك) اى ما منعك أن تسجد ، وعرض ابن قتيبة لحروف الزيادة فذكر منها : الباء ، واللام ، والكاف ، وعلى ، وعن ، وان الثقيلة ، واذ ، وما ، وواو النسق ومثل لكل هذا . (2)

حجج الملاحدة

اتبع الملاحدة ظاهر القول فاشاروا الى اختلاف القراءات واحتجوا بقول الله عز وجل (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فأجابهم ابن قتيبة ان القرآن نزل على لهجات العرب ليقرأ كل عربى بلغته وما جرت عليه عادته فالهذلى يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) ، والأسدى يقرأ (تِسوَدّ وجوه) بكسر التاء و (الم اعهد اليكم) بكسر الهمزة فى اعهد ، والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز ... ... ولو ان كل فريق من هؤلاء امر ان يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا لاشتد ذلك عليه . (3)

(1) تأويل مشكل القرآن 186 و 187 و 188
(2) تأويل مشكل القرآن 194 وما بعدها
(3) تأويل مشكل القرآن 30

فلما عادوا الى حديث نسب الى عائشة ، وآخر نسب الى عثمان يشيران الى وجود اللحن فى القرآن فى مثل قوله تعالى فى سورة طه (ان هذان لساحران) وفى سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) وفى سورة النساء (لكن الراسخون فى العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) أحالهم ابن قتيبة الى لغات العرب وأساليبهم بالاضافة الى آراء النحاة فمن ذلك لغة بلحارث بن كعب حيث يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه وركبت علاه وانشدوا :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته الى هابى التراب عقيم

وقالوا :

أى قلوص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها (1)

فكانوا يقلبون الياء الساكنة ألفا اذا انفتح ما قبلها .

وفى قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) قال : رفع الصابئون لانه رد على موضع (ان الذين آمنوا) وموضعه رفع ومن أساليب العرب فى هذا قول ضابىء البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيار" بها لغريب (2)

وفى نصب المقيمين اسند الى ابى عبيدة قوله : هو نصب على تطاول الكلام بالنسق ومن أساليب العرب فى هذا قول الخرنق بنت هفان :

لا يبعدن قومى الذين هم سم العداة وآفة الجُزْرِ
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأُزْرِ (2)

وفى باب التناقض والاختلاف رد ابن قتيبة على ما ذكر الطاعنون من حجج نكتفى منها بما يتصل باللغة كقولهم : ما معنى قوله (كمثل غيث

(1) تأويل مشكل القرآن 36
(2) تأويل مشكل القرآن 38

أعجب الكفار نباته) ولم خص الكفار دون المؤمنين ؟ فقال ابن قتيبة انما يريد بالكفار هنا الزراع وأحدهم كافر ، وانما سمى كافرا لأنه اذا ألقى البذر فى الارض كفره أى غطاه ، وكل شىء غطيته فقد كفرته .... ومنه قول الشاعر :

يعلو طريقه متنها متواترا   فى ليلة كفر النجومَ غمامُها

اى غطاها . (1)

وقالوا فى قوله تعالى للسماء والارض (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) لم يقل الله ، ولم يقولا وكيف يخاطب معدوما ؟ فتمثل ابن قتيبة بقول الشاعر يتحدث عن ناقته :

تقول اذا درأت لها وضينى   أهذا دينه أبدا ودينى

أكلُّ الدّهر حل وارتحال   اما يبقى علىّ ولا يقينى ؟

وهى لم تقل شيئا من هذا ولكنه رآها فى حال من الجهد والكلال فقضى عليها بأنها لو كانت من تقول لقالت مثل الذى ذكر .... (2) الى غير ذلك من أساليب المجاز .

تأويل المشكل

اشكل الامر التبس ... وحرف مشكل مشتبه ملتبس كما يقول صاحب اللسان . ولقد تناول ابن قتيبة هذا المشكل فيما عرض له من تفنيد حجج الطاعنين ، ثم أفرد بابا لسور من القرآن اختار بعض آياتها دون تنظيم معين ، وربما تكلم فى آيات من سورة واحدة فى اماكن مختلفة ولم يستوف الكلام الا فى سورة الجن وعلل لذلك بقوله (فى هذه السورة اشكال وغموض بما وقع فيها من تكرار (ان) واختلاف القراء فى نصبها وكسرها واشتباه ما فيها من قول الله تعالى وقول الجن فاحتجنا لتأويل السورة كلها) .

(1) تأويل مشكل القرآن 54

(2) تأويل مشكل القرآن 78 — 79

واتجه ابن قتيبة اتجاهات مختلفة فى علاج هـذا المشكل فهو فـى أحيان كثيرة يعنى بالامثال ــ والتمثل شائع فى العربية جاء منه فى القرآن كثير ولعله عنى بهذا الضرب لبيان الوجه فى المثل حتـى لا يشتبه تأويله ــ ومن الامثال ما غمضت عبارته فكان دور ابن قتيبة أن يأخذ بيد القارىء أو السامع حتى يجلى غامضها سواء كان ذلـك فـى تركيب العبارة أو شرح المفردات ــ جاء فى سورة الرعد قوله تعالى (انزل مـن السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغـاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال) .
يقول ابن قتيبة : هذا مثل ضربه الله للحـق والباطل ويقول : الباطل وان ظهر على الحق وعلاه فان الله سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله، ومثل ذلك مطر جود أسال الأودية بقدرها : الكبير على قدره والصغير على قدره . (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى عاليا على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق ، ومن جواهر الأرض التـى تدخـل الكير ويوقـد عليها يعنى الذهب والفضة للحلية ، والشبه والحديد للآلة حيث يعلوها مثل زبد المـاء (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى يلقيه المـاء عنـه فيتعلق بأصول الشجـر وبجنبات الوادى ، وكذلك خبث الفلز يقذفه الكير فهذا مثل الباطل (وأما ما) الماء الذى (ينفع الناس) وينبت المرعى (فيمكث فى الارض) وكذلك الصفو من الفلز يبقى خالصا لا شوب فيه فهو مثـل الحق (1) وقـد اتبع هذا الوجه فيما جاء من أمثال فى سورة النور (2) والروم (3) والنحل (4) .

---

(1) تأويل مشكل القرآن 251
(2) الآيات 35 ــ 40 ص 252 من كتاب تأويل مشكل القرآن
(3) الآية 27 و28 ص 297
(4) الآية 92 ص 301

وقد يكون للفظ خاصية لغوية فيبينها ويزيل بذلك غموض المعنى • جاء في سورة الاعراف قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) فقال : فكل شيء يلهث فانما يلهث من اعياء أو عطش أو علة خلا الكلب فانه يلهث في حال الدلال ، وحال الراحة وحال الصحة والمرض وحال الري والعطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال : ان وعظته فهو ضال وان لم تعظه فهو ضال كالكلب ان طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله أيضا لهث (1) •

وقد يشير في سبيل تحديد المعنى الى مختلف أقوال الفقهاء ثم يشير أيضا الى ما يتخيره منها • من ذلك ما جاء في سورة النحل في قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) فقال : هذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولمن عُبِدَ دونه (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) فهذا مثل من جعل آلها دونه أو معه لانه عاجز مُدَبَّر مملوك لا يقدر على نفع ولا ضر • ثم قال (ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) فهذا مثله جل وعز لانه الواسع الجواد القادر الرازق عباده جهرا من حيث يعلمون وسرا من حيث لا يعلمون •

وقال بعض المفسرين : هو مثل للمؤمن والكافر ، فالعبد هو الكافر والمرزوق هو المؤمن • ثم قال ابن قتيبة : والتفسير الأول أعجب اليَّ وعلل ذلك بأن المثل توسط كلامين هما لله تعالى ، أما الاول فقوله (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولا يستطيعون) (2) فهذا لله ومن عُبِدَ من دونه • واما الآخر فقوله بعد

(1) تاويل مشكل القرآن 286

(2) سورة النحل آية 73 ص 299 تاويل مشكل القرآن

انقضاء المثل (الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون) •

وابن قتيبة يربط بين هذا التفسير وبين نظير مشابه له فى قوله تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) أى أخرس (لا يقدر علــى شىء وهو كل على مولاه) اى عيال وثقل على قرابته ووليه (اينما يوجهه لا يأت بخير) فهذا مثل آلهتهم ••• ثم قال : (هل يستوى هــو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) فجعل هذا المثل لنفسه •

وهكذا يلجأ ابن قتيبة فى سياق تأويل الامثال الــى الفهم والــذوق اللغوى وربط الدلالات بنظائرها من القرآن نفسه •

وفى غير ما عرض له من الامثال عرض لآيات اخرى فتتبع فى تأويلها أصل الكلمة اللغوى وما تطور اليه هذا الاصل من دلالة • من هذا ما جاء فى تأويل قوله تعالى من سورة (ص) (أم عندهم خزائن رحمــة ربــك العزيز الوهاب ام لهم ملك السموات والارض فليرتقوا فى الأسباب جند" ما هنالك مهزوم من الأحزاب) (1) يقول ابن قتيبة : أصل الهــزم الكسر ، ومنه قيل للنقرة فى الأرض هزمــة اى كسرة وهزمت الجيش اى كسرتهم ؛ وتهزمت القربة اى انكسرت (2)

وفى سورة (القصص) (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الــى معاد) قال : معاد الرجل : بلده لانه يتصرف فى البلاد ويضرب فى الارض ثم يعود الى بلده ، يقال رد فلان الى معاده اى رد الى بلده (3) •

وفى سورة (الزخرف) اشكلت الآية (قل ان كان للرحمن ولــد فأنا

---

(1) الآيات 9 — 11 ص 273 تأويل مشكل القرآن

(2) تأويل مشكل القرآن 273 (3) تأويل مشكل القرآن 329

أول العابدين) للاختلاف فى معنى عبد • اذ تأتى فى العربية على وجهين فالذين يفسرون عبد بمعنى وحّد يقولون : ان الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله عليه السلام : قل للمشركين (ان كان للرحمن ولد) اى عندكم فى ادعائكم (فانا أول العابدين) أى الموحدين • والذين فسروا عبد بمعنى أنِفَ وغضب يقولون : العابدون هنا الغضاب الآنفون • (1)

والذى اختاره ابن قتيبة من مشكل الآيات قدر ضئيل بالاضافة الى آيات القرآن وربما حصر المشكل من وجهة نظره هو فى هذا القدر وأعان الطالب بكتب أخرى (2) كتفسير غريب القرآن فقد يحتوى المشكل على غريب اللفظ وقد لا يكون كذلكحين يأتى اشكاله من ناحية الأسلوب الذى غمض على بعض أهل عصره فتتبع نظائره فى أساليب العرب ثم جعل للغريب كتابا ذكره فى كتاب (تأويل مشكل القرآن) فقال (وافردت للغريب كتابا لكى لا يطول هذا الكتاب وليكون مقصورا على معناه خفيفا على من قرأه) (3) ويبدو انه تناول الكتابين فى وقت واحد فاشار هنا الى كتاب الغريب كما اشار فى كتاب الغريب الى كتاب المشكل فقال فى مقدمته (••• ثم نبتدىء فى تفسير غريب القرآن دون تأويل مشكله اذ كنا قد افردنا للمشكل كتابا جامعا كافيا بحمد الله) •

أصول الكلمات

قد تقصر الظلال وتطول وتتشكل باشكال مختلفة دون أن يخفى ذلك رباطها بالاصل ، وفى العربية كلمات اتسعت مدلولاتها وبقيت واشجة القرابة بالاصل فاختار ابن قتيبة عدة أصول أدار عليها الدلالات القريبة

---

(1) تأويل مشكل القرآن 289

(2) له كتاب اعراب القرآن ، وكتاب القراءات وكتاب معانى القرآن

(3) تأويل مشكل القرآن 25

وتمثل لاكثرها بآيات من القرآن الكريم ونحن نكتفى بأحد هذه الاصول للتعريف بهذا الوجه من التأليف • فيقول فى (قضى) :

« اصل قضى . حتّم كقول الله عز وجل (فليمسك التى قضى عليها الموت) اى حتّمه عليها ، ثم يصير الحتم بمعان كقوله (وقضى ربك ألاّ تعبدوا الا أياه) أى امرنا لانه لما أمر حتّم بالأمر وكقوله (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) أى أعلمناهم لانه لما خبرهم أنهم سيفسدون فى الأرض حتّم بوقوع الخبر ، وقوله (فقضاهن سبع سموات) أى صنعهن ، وقوله (فاقض ما أنت قاض) أى فاصنع ما أنت صانع ، ومثله قوله (فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى) أى اعملوا ما أنتم عاملون ولا تنظرون • قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنع السوابغ تبع

أى صنعهما داود وتبع • وقال الآخر فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها
بوائج فى أكمامها لم تفتق

أى عملت أعمالا — لان كل من عمل عملا وفرغ منه فقد حتمه وقطعه قيل للحاكم قاض لانه يقطع على الناس الامور ويحتم ، وقيل قضى قضاؤك أى فرغ امرك ، وقالوا للميت قد قضى أى فرغ — وهذه كلها فروع ترجع الى أصل واحد • » (1)

---

(1) تأويل مشكل القرآن 342 — 343 والبوائج جمع بائجة وهى الداهية

وبعد • ترى ما الفارق بين هذا الذى سماه ابن قتيبة الأصل والفروع وبين الحقيقة والمجاز ، فالحقيقة ان تستعمل الكلمة فيما وضعت له عند اهل الاصطلاح الذى وقع به التخاطب ، والمجاز هو الاتساع فى استعمال الكلمة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح التخاطب • ومن هنا يخرج تأليف ابن قتيبة عن هذا النسق ، وانما يلجأ الى الاتساع فى التأويل عن طريق الصيرورة أى كان اللفظ بمعنى كذا ثم صار كذا كالذى نلحظه فى كلمة (الامة) حيث يقول : ان اصلها (الصنف من الناس والجماعة) كقوله عز وجل (كان الناس أمة واحدة) ••• ثم تصير الامة : الحين ، كقوله عز وجل (وادكر بعد امة) ••• ثم تصير الأمة الامام والربانى كقوله تعالى (ان ابرهيم كان امة قانتا لله حنيفا) أى اماما يقتدى به الناس لانه ومن اتبعه أمة، فسمى امة لانه سبب الاجتماع ، وقد يجوز أن يكون سمى امة لانه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله فى امة ومن هذا يقال : فلان أمّة وحده أى هو يقوم مقام امة ••• (1)

وهذا ـ فيما أرى ـ وجه من التأويل (2) قريب من المجاز الذى يعنيه ابو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه (مجاز القرآن) يعنى تأويله ومعناه وتفسيره اى ما يجوز أن تفسر به هذه الكلمة او تلك لا المجاز المقابل للحقيقة والذى شقق فيه الكلام فيما بعد عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه دلائل الاعجاز ، واسرار البلاغة •

اما الفروع الشديدة الصلة بالاصل فهى فروع الاشتقاق اللفظى وقد ذكرها ابن قتيبة فى هذا الباب ومنه : اللَّسَن « بتشديد اللام المفتوحة ، وفتح السين » ، واللَّسْن « بتشديد اللام المفتوحة وتسكين السين » ،

---

(1) تأويل مشكل القرآن 345

(2) انظر قول اللغويين فى مادة ا مم فى اللسان وغيره

واللِّسْن « بتشديد اللام المكسورة وتسكين السين » كله من اللسان فاللَّسَنْ جودة اللسان ، واللَّسْن : العذل واللوم ، واللِّسْن : اللغة يقال لكل قوم لسن • (1)

وعرض فى هذا الباب ايضا للمشترك فقال :

الضرب ــ باليد كقوله تعالى (فضرب الرقاب) وقوله (واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) •

والضرب ــ المسير قال تعالى (اذا ضربتم فى سبيل الله) وقال تعالى : (وآخرون يضربون فى الارض)

والضرب ــ التبيين والوصف • قال تعالى (ضرب الله مثلا) وقال (فلا تضربوا لله الامثال) اى لا تصفوه بصفات غيره ولا تشبهوه به • (2)

حروف المعانى

وأفرد ابن قتيبة فى كتاب المشكل بابا فسر فيه حروف المعانى ، وأشباه الحروف التى لا تنصرف ، أشار الى اكثرها فى القرآن الكريم وتتبع شواهدها فى أقوال العرب ورجع الى آراء اللغويين السابقين فيها من امثال الخليل (3) وابى عمرو ، وابى عبيدة (4) ، والاصمعى (5) وسيبويه (6) والكسائى (7) وابن الاعرابى (8) والفراء (9) وغيرهم •

---

(1) تأويل مشكل القرآن 370 (2) تأويل مشكل القرآن 379

(3) تأويل مشكل القرآن 401 و 405 و 406 و 421

(4) المصدر السابق 406 (5) المصدر السابق 424

(6) المصدر السابق 403 و 405 (7) المصدر السابق 401

(8) المصدر السابق 404 (9) المصدر السابق 406 و 420 و 421

وكان يشير أحيانا الى لهجات القبائل كقوله فـي (لمَّـا) « تكـون بمعنى (لم) فى قوله (بل لما يذوقوا عذاب) اى بل لم يـذوقوا عـذاب ، وتكون بمعنى (الا) قال تعالى (وان كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا) اى الا متاع الحياة الدنيا ، (ان كل نفس لمَّا عليها حافظ) اى الا عليها حـافظ وهى لغة هذيل مع انْ الخفيفة التى تكون بمعنى (ما) » ـ ومن قرأ (لما) بالتخفيف جعل (ما) صلة واراد : ان كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ، وان كل نفس لعليها حافظ . (1)

وفى هلم ـ أشار الى طريقة الحجازيين والنجديـين فيهـا ـ فأهـل الحجاز لا يثنونها ولا يجمعونها ـ وأهل نجد يجعلونها من هلممت فيثنون ويجمعون ويؤنثون . (2)

تبادل حروف الصفات

ولحروف الصفات معانى شائعة جاءت فى جمهرة الكـلام ، وبـدت كأنها غريبة حين جاءت فى غير استعمالها الشائع وجـاء بها القرآن الكريم على وجهيها . فكان ابن قتيبة ـ اما لبيان طريقة القول ـ او لسد الطريق أمام الطاعنين يشير الى هذه الحروف فى القرآن ويتتبع شواهدها فـى كلام العرب . من ذلك :

مجىء (فى) بمعنى (على) فى قوله تعالى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل قال الشاعر :

وهم صلبوا العبدىَّ فى جذع نخلة
فلا عطست شيبان الا بأجدعا (3)

---

(1) المصدر السابق 413
(2) المصدر السابق 421
(3) المصدر السابق 426

ومجيء (الباء) مكان (عن) فى قوله تعالى (فاسأل به خبيرا) أى عنه . قال علقمة بن عبدة :

فان تسألونى بالنساء فاننى
بصير بأدواء النساء طبيب

اى عن النساء (1) وجمع من ذلك قدرا جعله فى آخر الكتاب .

وهكذا جاء كتاب تأويل مشكل القرآن كتاب لغة فى مجموعه وان اتخذ المحاجة سببا اليه .

الطبرى وكتابه (جامع البيان عن تأويل آى القرآن)

كتاب أبى جعفر من أوسع الكتب التى تناولت تفسير القرآن الكريم، فلم يكتف ككثير من المفسرين واللغويين ببيان مشكله وانما فسر القرآن كله . والسعة التى نلحظها فى كتاب (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) ليست كلها خالصة للتأويل كما انها ليست كلها خالصة للدراسات العربية وانما تعود فى جزء كبير منها الى الأسانيد العديدة التى عنى بها الطبرى وخاصة فى سياق التفسير بالمأثور .

ولقد تسلح الطبرى لمهمته فى التفسير اللعوى بدراسة وافية فى الشعر والنثر واللغة والنحو ــ ونالت الدراسة اللغوية جزءا كبيرا من عناية الطبرى جاء بعضها كمقالات قدم بها لكتابه ، واكثرها فى نطاق التفسير . وتضمنت هذه المقالات قضايا « البيان عما فى آى القرآن من المعانى التى من قبلها

(1) تأويل مشكل القرآن 427

يدخل اللبس على من لم يعان رياضة العلوم العربية ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية » • (1)

فتكلم عن اعجاز القرآن وفضل المعنى الذى باين به سائر الكلام ــ والقول فى البيان عن الأحرف التى اتفقت فيها الفاظ العرب والفاظ غيرها من بعض أجناس الامم ــ ثم عقد مقالا مطولا عن اللغة التى نزل بها القرآن تناول فيه مختلف الآراء حول حديث النبى صلى الله عليه وسلم (أنزل القرآن على سبعة أحرف •••) وفى مقال آخر تكلم عن الوجوه التى من قبلها يوصل الى معرفة تأويل القرآن عرض فيه لقوله تعالى فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب ، وأُخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكّر الا أولوا الألباب) فقال :

(ان مما أنزل من القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا يوصل الى علم تأويله الا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم • وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره وواجبه ، وندبه، وارشاده ، وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ومبالغ فرائضه ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض وما اشبه ذلك من احكام آيه التى لم يدرك علمها الا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لاحد القول فيه الا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له تأويله بنص منه عليه ، او بدلالة قد نصبها ، دالة أمته على تأويله •

وان منه ما لا يعلم تأويله الا الله الواحد القهار وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة واوقات آتية كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ،

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 7 ط دار المعارف (تراث الاسلام)

وتزول عيسى بن مريم وما أشبه ذلك فان تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها ولا يعرف أحد من تأويلها الا الخبر باشراطها لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه •••

وان منه ما يعلم تأويله كل ذى علم باللسان الذى نزل به القرآن وذلك اقامة اعرابه ، ومعرفة المسميات باسمائها اللازمة غير المشترك فيها والموصوفات بصفاتها الخاصة دون سواها •••) (1)

وتلمح فيما تناوله الطبرى من التفسير انه :

- يفسر القرآن كله
- يعنى بالمأثور ويأتى بأسانيده
- يعنى بالتفسير اللغوى ويتتبع شواهده من كلام العرب

وقد يجتمع فى مادة واحدة تفسير بالمأثور ، وتفسير لغوى ، وقد يوثق هذا بذاك كما يناقش سابقيه فى هذه المادة • فمن ذلك كلامه فى قوله تعالى (الرحمن الرحيم) حين افترض من يسأله : اذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة فما وجه تكرير ذلك وأحدهما مؤد عن معنى الآخر ؟ - واذا كان لكل كلمة منهما معنى فما المعنى الذى انفردت به كل واحدة منهما ؟ قال الطبرى :

أما من جهة العربية

فلا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب أن قول القائل : (الرحمن) عن ابنية الاسماء من « فَعِل - يَفعَل » اشد عدولا من قوله « الرحيم » ولا خلاف مع ذلك بينهم ان كل اسم له اصل فى « فَعِل - يَفعَل » -

(1) تفسير الطبرى 1 : 73 — 75

ثم كان عن أصله من « فَعِل ـ يَفعَل » أشد عدولا ـ أن الموصوف بـه مفضل على الموصوف بالاسم المبنى على أصله من « فعل ـ يفعـل » اذا كانت التسمية به مدحا او ذما . فهذا ما فى قول القائـل (الرحمن) مـن زيادة المعنى على قوله (الرحيم) فى اللغة .

وأما من جهة الأثر والخبر :

ففيه بين أهل التأويل اختلاف ـ ثم نقل عن السرى بن يحيى التميمى بسنده عن العرزمى قولـه : « الرحمن » ـ بجميع الخلـق « الـرحيم » بالمؤمنين .

كما نقل بسنده عن ابى سعيد الخدرى قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان عيسى ابن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا ـ والرحيم رحيم الآخرة .

وقال الطبرى : فهذان الخبران قد انبآ عن فرق ما بين تسمية الله جـل ثناؤه باسمه الذى هو « رحمن » ـ وتسميتـه باسمـه الـذى هـو « رحيم » واختلاف معنى الكلمتين ـ وان اختلفتا فى معنى ذلك الفرق فدل أحدهما على أن ذلك فى الدنيا ودل الآخر على أنه فى الآخرة ..

مناقشة اللغويين القدامى :

وبعد أن ناقش الأقوال المأثورة وذكر أسانيدها قال : (وقـد زعم أيضا بعض من ضعفت معرفته بتأويل أهل التأويل ، وقلت روايتـه لأقوال السلف من أهل التفسير أن « الرحمن » مجازه : ذو الرحمة ـ و «الرحيم» مجازه : الراحم ثم قال : قد يقدرون اللفظين من لفظ والمعنى واحد وذلك لاتساع الكلام عندهم . قال : وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا : ندمان ونديم ثم استشهد ببيت برج بن مسهر الطائى :

وندمان ، يزيـد الكاس طيبـا
سقيت وقـد تغورت النجـوم

واستشهد بأبيات نظائره فى « النديم » و « الندمان » ففـرق بين معنى « الرحمن » و « الرحيم » فى التأويل لقولـه : الرحمن : ذو الرحمة والرحيم : الراحم ، وان كان قد ترك بيان تأويل معنيهما على صحته ثم مثل ذلك باللفظين يأتيان بمعنى واحد مع اختلاف الالفاظ ..) (1)

والطبرى يعنى أبا عبيدة معمر بن المثنى فلقد جاء ذلك فى كتابه مجاز القرآن (2) . والرأى عندى ان الحملة التى أثارها الطبرى على أبى عبيدة لا محل لها ــ ووصفه له بضعف المعرفة بتأويل أهل التأويل ، وقلة روايته ، امر ينفيه صفته العلمية التى أشاد بها أكثر الرواة ، ومؤلفاته العديدة فـى اللغة ومنها كتاب المجاز . والفرق بين الطبرى فى كتابه (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) وأبى عبيدة فى كتابه (مجاز القرآن) هو الوجه الذى اختاره كل منهما فى التأليف ــ فالطبرى يفسـر القرآن كلـه ، ويحـاول استقصاء الجانب اللغوى ، واسانيد التفسير بالمأثور ومنهج أبـى عبيـدة محصور فى سبب وضعه لكتاب المجاز حيث عنى ببيـان المشكـل وتتبع شواهده فى اساليب العرب على النحو الذى بيناه فى تعريفنا بكتاب المجاز ففرق بين معنى الرحمن والرحيم فى التأويل لقوله : الرحمن : ذو الرحمة ، والرحيم : الراحم وتمثل بشاهدين لكل من الندمان والنديم كدليـل علـى استعمال العرب للصيغتين فعلان وفعيل دون التعرض للفرق الدقيق بينهما .

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 126 — 132
(2) مجاز القرآن 1 : 21 ط الخانجى سنة 1954

وعرض لقوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فناقش زيادة (الا) فى رأى أبى عبيدة كما جاء فى كتاب المجاز ، كما ناقش الفراء فيما أورده فى كتاب (معانى القرآن) وانتصر للفراء . (1)

وفسر قوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا) ثم أخذ فى مناقشة صيغة يفاعل مؤكدا ضرورة حدوثها من فاعلين — ثم عرض بابى عبيدة على تنقص وان لم يصرح باسمه فقال : « قال بعض المنسوبين الى العلم بلغات العرب أن ذلك حرف جاء بهذه الصورة — اعنى يخادع — بصورة يفاعل وهو بمعنى يفعل ... نظير قولهم : قاتلك الله بمعنى قتلك الله (2) » والفرق بين الرجلين ايضا أن أبا عبيدة يعنى بالأسلوب كما جاء عن العرب متهديا بالذوق اللغوى ، وأن الطبرى يحاول رد الشاذ عن القياس الى الكليات التى قاسها النحاة وان تأول لها وجها فيقول : (وليس القول فى ذلك عندى كالذى قال. بل ذلك من التفاعل الذى لا يكون الا من اثنين.. وذلك : ان المنافق يخادع الله جل ثناؤه بكذبه بلسانه ... والله تبارك اسمه خادعه بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاة نفسه فى آجل معاده ...)

واكثر المناقشات اللغوية دارت حول آراء الفراء الكوفى وأبى عبيدة البصرى وان لم يصرح باسميهما مكتفيا بعبارة : ويزعم بعض نحويى الكوفة ، او — بزعم بعض البصريين — والمعروف ان لكل من الرجلين كتابا فى هذا السياق أولهما كتاب المجاز لابى عبيدة والثانى كتاب معانى القرآن للفراء وقد عرفنا بالكتابين .

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 189 وما بعدها

(2) انظر تفسير الطبرى 1 : 274 ، وكتاب المجاز 1 : 31

وقد اتجهت عناية الطبرى الى الدراسات اللغوية فى سياق التأويل فكان :

يعنى المفردات

فيفسرها ويتتبع شواهد هذا التفسير فى كلام العرب كما يشير الى معان اخرى يحتملها اللفظ ، فقد فسر كلمة الرب فى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) وبعد أن استوفى وجوه التأويل عقب بقوله (وقد ينصرف أيضا معنى الرب فى وجوه غيرذلك) (1) ــ وقد يستطرد الى شرح الشاهد نفسه فيفسر مفرداته ويشير الى وجوهه اللغوية ــ فسر قوله تعالى (لا ريب فيه) بأنه لا شك فيه وتمثل لذلك بقول ساعدة بن جؤية الهذلى :

فقالوا تركنا القوم قد حصروا به

فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

وقال : « ويروى حَصَروا وحَصِروا ، والفتح اكثر والكسر جائز ••• أن قد كان ثم لحيم يعنى قتيلا • يقال قد لحم اذا قتل » • (2)

ومن الكلمات ما اتخذت مدلولا فى العصر الاسلامى لا يتفق اتفاقا تاما مع المدلول اللغوى ، من ذلك كلمة الصلاة فهى فى كلام العرب : الدعاء، بين ذلك أبو جعفر وتمثل بقول الأعشى وهو يصف الخمر :

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها

وان ذبحت صلى عليها وزمزما

يعنى بذلك : دعا لها ثم قال : « وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة لأن

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 142

(2) تفسير الطبرى 1 : 229

المصلى متعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجات تَعَرّضَ الداعى بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤله » (1) ـ وأصل الزكاة نماء المال وتثميره ومن ذلك قيل زكا الزرع اذا كثر ما أخرج الله منه ، وزكت النفقة اذا كثرت ، فاصبحت الكلمة تعنى فى العصر الاسلامى اداء الصدقة المفروضة .

والفسق: فى أصله اللغوى هو الخروج عن الشىء ، يقال منه: فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها ، ومن ذلك سميت الفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها فاستدل بذلك على أن المنافق والكافر فاسقان لخروجهما عن طاعة ربهما ، ذكر ذلك أبو جعفر فى تأويل قوله تعالى (وما يضل به الا الفاسقين) ـ وقال جل ذكره فى صفة ابليس (الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) يعنى خرج عن طاعته واتباع امره . (2)

وبالأساليب

التى نكتفى منها ببعض الأمثلة ، من ذلك القلب المعنوى وقد جاء ذلك فى قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) فيكون المعنى للمنعوق به ، والكلام خارج على الناعق كما قال نابغة بنى ذبيان :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتى
على وعل فى ذى المطارة عاقلِ

والمعنى : حتى ما تزيد مخافة الوعل على مخافتى ـ وكما قال الآخر :

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 242 و 243
(2) تفسير الطبرى 1 : 409

كانت فريضـــة مـــا تقول كمـــا
كـــان الزنـــاء فريضـــة الرجـــم

وكقولك : اعرض الحوض على الناقة وانمـــا تعرض الناقـــة عـــلى الحوض (1) ومن أساليبهم مجيء (أو) بمعنى الواو فالشائـــع أن (أو) تدخل في الكلام على وجه الشك من المخبر فيما أخبر عنـــه ، ولكن مجيئها في قوله تعالى (أو كصيب من السماء) يخالف هذا الاستعمال ، وغير جائز في الله جل ثناؤه أن يضاف اليه الشك في شيء ـ قال الطبرى : ان كانت ـ أى أو ـ في بعض الكلام تأتي بمعنى الشك فانها تأتي دالة على مثـــل ما تدل عليه الواو اما بسابق من الكلام قبلها ، واما بما يأتي بعدها وتمثل بشعر لثوبة بن الحمير ، وشعر لجرير ـ ولشاعر آخر يقول :

فلـــو كان البكاء يـــرد شيئـــا
بكيت عـــلى بجـــير او عفـــاق

عـــلى المرأين اذ مضيـــا جميعـــا
لشأنهمـــا بحـــزن واشتيـــاق

فقد دل بقوله : على المرأين اذ مضيا جميعا ان بكاءه الـــذى اراد ان يبكيه لم يرد ان يقصد به احدهما دون الآخر بـــل اراد ان يبكيهما جميعـــا

---

(1) تفسير الطبرى 3 ، 311 و 312 و 4 : 287 ومجاز القرآن 1 : 63 وفيه (هذا القميص لا يقطعنى) و (ادخلت القنسوة فـــى راسى) وفى القرآن (ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة) .

فكذلك ذلك فى قول الله جل ثناؤه (او كصيب من السماء) • (1)

ومن اساليب العرب انهم لا يمنعون مجىء الاعمام بمعنى الآباء ــ وجاء مثل هذا فى قوله تعالى (اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله ابائك ابرهيم واسماعيل واسحق) وكان اسماعيل عما ليعقوب ، ولهذا الأسلوب دخل اسماعيل فيمن ترجم به عن الآباء (2) وفيها قال ابو عبيدة : والعرب تجعل العم والخال أبا (3) •

وبالخصائص اللغوية

فيتناول المشترك اللفظى فى تأويله قوله تعالى : (ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) جمع أبو جعفر من معانى الاستواء فى كلام العرب :

ــ انتهاء شباب الرجل وقوته ، فيقال اذا صار كذلك : قد استوى الرجل •

ــ استقامة ما كان فيه اود من الامور والاسباب ، يقال منه : استوى لفلان امره اذا استقام بعد أود •

ــ الاقبال على الشىء ، يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الاحسان اليه •

ــ الاحتياز والاستيلاء كقولهم استوى فلان على المملكة بمعنى احتوى عليها وحازها •

ــ العلو والارتفاع كقول القائل : استوى فلان على سريره يعنى به علوه عليه (4) كما تناول مثل هذا المشترك فى اماكن كثيرة (5) •

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 336
(2) تفسير الطبرى 3 : 99
(3) مجاز القرآن 1 : 57
(4) تفسير الطبرى 1 : 430
(5) تفسير الطبرى 1 : 321 و 322

والابدال • فقد تناوله في أعقاب تأويله لقوله تعالى (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) فذكر ان قراءة عبد الله بن مسعود (ثومها) بالثاء وقال : فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في عاثور شر وعافور شر وكقولهم للأثافي أثاثي • وللمغافير مغاثير وما اشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء • واقتبس اكثر ما جاء في هذه المناسبة من كتاب الفراء (1) والاضداد ـ فقال بعد تأويل قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) ان العرب قد تسمى اليقين ظنا والشك ظنا نظير تسميتهم الظلمة : سدفة والضياء سدفة ـ والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الاسماء التى تسمى الشيء وضده ، وتتبع شواهد الظن بمعنى اليقين في شعر دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج

سراتهم في الفارسى المسرد

يعنى ذلك : تيقنوا الفى مدجج تأتيكم ، وقول عميرة بن طارق :

بأن تغتزوا قومى واقعد فيكم

واجعل منى الظن غيبا مرجما

يعنى : وأجعل منى اليقين غيبا مرجما ، كما استشهد بآية اخرى تأولوا الظن فيها بمعنى اليقين وهى قوله (ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها) • (2)

---

(1) تفسير الطبرى 2 : 130 ومعانى القرآن 1 : 41

(2) تفسير الطبرى 2 : 18 و 19

وباللغات غير الشائعة

من ذلك زوج وزوجة لامرأة الرجل ــ والزوجة بالهاء اكثر فى كلام العرب منها بغير الهاء ، وقيــل ان الزوج لغــة لازد شنوءة (1) والاصمعى يراها بغير الهاء دوما فقال : زوج لا غير واحتج بقول اللــه عــز وجــل (اسكن انت وزوجك الجنة) • (2)

الى غير ذلك من المباحث اللغوية التى استفاضت فى كتاب الطبرى •

القراءات واللهجات

من حديث عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم بــن خزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ــ وفى رواية ــ عــلى حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره فــى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت : مــن أقرأك هــذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : اقرأنيها رسول الله صلى اللــه عليــه وسلم • فقلت : كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يــا رسول الله انى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير مــا أقرأتنيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أرسله) ، اقرأ ــ فقرأ القراءة التــى سمعتــه يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هكذا أنزلت) ثم قال لــى : (اقرأ) فقرأت فقال (هكذا أنزلت ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحــرف فاقرأوا ما تيسر منــه) •

---

(1) تفسير الطبرى 1 : 514

(2) اللسان مادة زوج ، وزعم الكسائى عن القاسم بن معن انه سمع من ازد شنوءة بغير الهاء

والذي عليه اكثر الشراح ان الحديث يعنى لغات القبائل ولهجاتهم حتى يستطيع كل عربى أن يقرأه على لحن قومه ، كما ان الشراح أيضا لا يرون فى كلمة (سبعة) تحديدا لمنطوق العدد بل كان الرجلان من قبيلة واحدة يقرآن على اختلاف لهجتيهما كما فهمنا من قصة عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم وكلاهما قرشى ، ويشير القرآن الكريم الى هذه الرخصة فى قوله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر) .

ومن الكتب التى أشارت الى هذه اللهجات (كتاب اللغات فى القرآن)أخبر به اسماعيل بن عمرو المقرىء عن عبد الله بن الحسين بن حسنون باسناده الى ابن عباس (1) كما عقد السيوطى فصلا فى كتاب الاتقان ذكر فيه ما وقع فى القرآن بغير لغة الحجازيين الى غير ذلك مما جاء فى كتب القراءات والشروح .

والمصاحف التى كتبت فى عهد عثمان تسمح بالمختار من القراءات اذ كانت مجردة من النقط والشكل فشرطوا للقراءة الصحيحة موافقتها للعربية ولو بوجه ، وموافقتها احد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصحة السند . ووضعوا القراء السبعة انفسهم تحت هذا الضابط فقال أبو شامة رحمه الله فى كتاب المرشد الوجيز (.. فلا ينبغى ان يغتر بكل قراءة تعزى الى واحد من هؤلاء السبعة ويطلق عليها الصحة ، وان هكذا أنزلت الا اذا دخلت فى ذلك الضابط .... فان الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا عمن تنسب اليه فان القراءات المنسوبة الى كل قارىء من السبعة وغيرهم مقسمة الى المجمع عليه والشاذ غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة

(1) حققه صلاح الدين المنجد وطبع فى مطبعة الرسالة سنة 1365 هـ — 1946 م

الصحيح المجتمع عليه فى قراءاتهم تَرْكَن النفس الى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم) (1) .

وبقى من وراء هـذا الجهد المتأنى فى قراءات القرآن الكريم مـا لا يوجد فى غيره من الآثار المعول عليها فى مصادر الرواية اللغوية ، كالاظهار، والادغام ، والتفخيم ، والترقيق ، والامالة ، والاشباع ، والمد ، والقصـر ، والتخفيف ، والتشديد ، والهمز ، والتسهيل الى غير ذلك .

واصلاح المنطق وبيان مخارج الحروف عصب مـن أعصاب اللغـة وصلب من أصلابها لا أحسب اللغة جمعت او فلسفت الا معتمدة عليـه . قد يجد الرواة فى مأثور الكلام مترادفا ، ومشتركا ، ومتضادا ، ومبدلا ، ومقلوبا فيجولون فيه ــ متفقين أو مختلفين ــ الا أن يجدوا له شبيها مـن القرآن الكريم يهديهم اليه صوت القارىء مشيرا الى لهجته التى قرىء بها فيرون فيه القول الفصل واداء معبرا عن ماضى العربيـة الصحيحة ، ونحن نفصل القول فى القراءات وشواذها من وجهتنا اللغويـة .

القراءات

تناولت القراءات بالاضافة الى الدراسات اللغوية التى سبق بيانها فى كتب التفسير والمعانى ــ طرق الاداء الصوتى ــ واصبح من اليسير للذى يسمع القرآن مرتلا على وجوه القراءات أن يقول : هذه رواية الحجازيين ؛ او هذه قراءة التميميين ، أو هذه الآية قرئت باداء الاعاجـم الذيـن لـم

---

(1) النشر 1 : 10

يستطيعوا التخلص من طباعهم فى اداء لغتهم الأصلية (1) .

والامالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على السنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ــ فالفتح لغة أهل الحجاز ، والامالة لغة عامة أهل نجد من تميم واسد وقيس (2) .

وليس الفتح والامالة مستحدثات أتت بها القراءات وانما كانت لغات تأصلت من قبل ، ويقولون فيها ان الاصل هو الفتح ، ولما كان الأداء الصوتى ينحو دائما الى الأسهل فان الامالة كانت تدرجا من الفتح لأن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالامالة ، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع فلهذا أمال من أمال ، وأما من فتح فانه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل (3) .

ومن الأداء المعبر عند العرب ما أشارت به القراءات من المد فى مثل قوله تعالى (لا اله الا الله) (لا اله الا هو)(لا اله الا انت)وهو مد يسمى مد المبالغة او التعظم ــ قال ابن مهران فى كتاب المدات له « انما سمي مد المبالغة لانه طلب للمبالغة فى نفى الهيبة سوى الله سبحانه ــ

---

(1) يقول ابن الجزرى فى كتاب النشر ضمن ما كتبه عن الفتح والامالة (... والفتح هو فتح القارىء لفيه بلفظ الحرف وهو فيما بعده الف اظهر ، ويقال له ايضا التفخيم وربما قيل له النصب ، وينقسم الى فتح شديد وفتح متوسط ، فالشديد هو نهاية فتح الشخص فمه بذلك الحرف ، ولا يجوز فى القرآن بل هو معدوم فى لغة العرب وانما يوجد فى لفظ عجم الفرس ولا سيما اهل خراسان ، وهو اليوم فى أهل ما وراء النهر ايضا . ولما جرت طباعهم عليه فى لغتهم استعملوه فى اللغة العربية وجروا عليه فى القراءة ووافقهم على ذلك غيرهم وانتقل ذلك عنهم حتى فشا فى اكثر البلاد وهو ممنوع منه فى القراءة ... وهذا هو التفخيم المحض) النشر 2 : 29

(2) النشر 2 : 29 والاتقان 1 : 91

(3) النشر 2 : 35

وهذا معروف عند العرب لانها تمد عند الدعاء وعند الاستغاثة وعند المبالغة » (1) .

الهمز

وقد احتل الهمز مكانا بارزا فى الدراسات اللغوية منذ بدأت الرواية ـ فقد عمل كتاب فى الهمز مما أملاه ابن أبى اسحق (2) . وتناظر فى الهمز ابن ابى اسحق ، وابو عمرو بن العلاء حين جمع بينهما بلال بن أبى بردة ـ ثم كتب فيه كل من قطرب ، والاصمعى ، وابو زيد .

وكانت القراءات من عوامل الانتباه الى الهمز اذ كانت من الفوارق الواضحة بين لهجة الحجاز ولهجة تميم ، فكانت هذيل واهل مكة والمدينة والحجاز بصفة عامة لا ينبرون وأشار الى ذلك ابن الجزرى فقال (.. ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا تنوع العرب فى تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، والادغام وغير ذلك وكانت قريش واهل الحجاز اكثرهم له تخفيفا ، ولذلك اكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح وكنافع من رواية ورش وغيره وكأبى جعفر من اكثر رواياته ولا سيما رواية العمرى عن اصحابه عنه فانه لم يكد يحقق همزة وصلا ، وكابن محيصن قارىء اهل مكة مع ابن كثير وبعده ، وكأبى عمرو فان مادة قراءته عن اهل الحجاز ، وكذلك عاصم من رواية الأعشى عن أبى بكر من حيث أن روايته ترجع الى ابن مسعود) (3) .

وعلى طريقة الحجازيين قرأ ابن كثير (انها لحدى الكبر) وقرأ سالم ابن عبد الله بن عمر (فمن تعجل فى يومين فلثم عليه) وقراءة الجماعة (فلا اثم عليه) الا انه حذف الهمزة البتة فالتقت الف (لا) وثاء (الاثم) ساكنين فحذف الألف من اللفظ لالتقاء الساكنين (4) .

---

(1) النشر 1 : 344 — 345

(2) المزهر 2 : 398

(3) النشر 1 : 428 — 429

(4) المحتسب 1 : 120

وكثير من القراءات الشاذة كانت منجذبة الى لهجات مختلفة ، حكى المبرد بسنده عن ابى زيد سعيد بن أوس أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جأنّ) قال أبو زيد فظننت قد لحن الى أن سمعت العرب تقول : شأبّة ، ومأدّة ، ودأبّة وعليه قول كثير :

اذا ما العوالى بالعبيط احمأرّت (1)

وقال عباس : سألت ابا عمرو عن الشِّجرة (بكسر الشين) فى قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) فكرهها وقال : يقرأ بها برابر مكة وسودانها ـ وقال هارون الأعور عن بعض العرب تقول : الشجرة وقال ابن ابى اسحق انها لغة بنى سليم (2) .

وفى هذا المجال وجد ابن جنى السياق مواتيا ففرق بين الأصل والبدل فى كلمة الشيرة وهى الشجرة فروى عن أبى الفضل الرياشى قوله : (كنا عند أبى زيد وعندنا أعرابى فقلت له : انه يقول (الشيرة) فسأله فقالها . فقلت له : سله عن تصغيرها ، فسأله . فقال : (شييرة) وأنشد الأصمعى لبعض الرجاز :

تحسبه بين الاكام شيرة

قال ابن جنى : اذا كانت الياء فاشية فى هذا الحرف كما ترى فيجب ان تجعل أصلا يساوق الجيم ولا تجعل بدلا من الجيم لأمرين :

احدهما : ثبات الياء فى تصغيرها فى قولهم : شييرة ولو كانت بدلا من الجيم لكانوا خلقاء اذا حقروا الاسم ان يردوها الى الجيم ليدلوا على الأصل .

---

(1) المحتسب : 1 : 47 وانظر اللسان ج ن ن وفيه قول كثير :
وانت ابن ليلى خير قومك مشهدا اذا ما احمارت بالعبيط العوامل
(2) المحتسب 1 : 74

والآخر : ان شين شجرة مفتوحة ، وشين شيرة مكسورة ، والبدل لا تغير فيه الحركات انما يوقع حرف موضع حرف (1) و (2)

وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم ، وابو الطفيل ، وعبد الله بن ابى اسحق ، وعاصم الجحدرى ، وعيسى بن عمر الثقفى (هدَىّ) فى قوله تعالى من سورة البقرة (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قال ابو الفتح : هذه لغة فاشية فى هذيل وغيرهم أن يقلبوا الألف من آخر المقصور اذا اضيف الى ياء المتكلم ياء • (3)

وقرأ علقمة ، ويحيى بن وثاب ، والاعمش (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) بكسر الراء وهى لغة لبنى ضبة • (4)

وقرأ محمد بن السميفع فى سورة آل عمران (ان يمسسكم قَرَح) بفتح القاف والراء فقال ابو الفتح : ظاهر هذا الامر ان يكون فيه لغتان : قرْح بسكون الراء ، وقرَح بفتح الراء كالحلْب والحلَب ، والطرْد والطرَد ، والشل والشلَل • ومع ان بعض العلماء يميل الى التعليل بفتح ما قبل الحاء لانها من حروف الحلق الا أن أبا الفتح يرجح فى النهاية ان القرَح (بفتح الراء) لغة • (5)

وفى سورة الكهف (فكان ابواه مؤمنين) وقرئت (فكان ابواه مؤمنان) (6) وفى سورة طه (ان هذان لساحران) قرأها ابو عمرو

---

(1) المحتسب 1 : 74
(2) اللسان ش ج ر
(3) المحتسب 1 : 76
(4) اتحاف فضلاء البشر 1 : 266 ، البحر المحيط 5 : 323
(5) المحتسب 1 : 166 و 167
(6) البحر المحيط 6 : 272

بتشديد النون فى (ان) وهذين بياء ساكنة ــ وقرأ غير ابى عمرو بتشديد النون فى (ان) وهذان بالالف فقال الزجاج بسنده عن ابى عبيد عن ابى الخطاب انها لغة كنانة يجعلون الف الاثنين فى الرفع ، والنصب ، والخفض على لفظ واحد فيقولون : اتانى الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .... وكذلك روى اهل الكوفة انها لغة بنى الحارث بن كعب ــ وقال ابو عبيد : كان الكسائى يحكى هذه اللغة عن بنى الحارث ابن كعب ، وخيثم ، وزبيد ، وأهل تلك الناحية .... وقال ابو جعفر النحاس : هذا الوجه من أحسن ما حملت عليه الآية اذ كانت هذه اللغة معروفة قد حكاها من يرتضى علمه وصدقه وأمانته منهم أبو زيد الانصارى ــ وقال غيره : هى لغة بنى العنبر ، وبنى الهجيم ، ومراد ، وعذرة ــ وبعضهم يفر من الياء مطلقا فى التثنية والاسماء الستة وعليها قول الراجز :

اى قلوص راكب تراها
طاروا علاهن فطر علاها
ان أباها ، وأبا أباها
قد بلغا فى المجد غايتاها (1)

ومن ازد السراة من يسكن الهاء المضمرة اذا وصلها فيقول : مررت بهْ أمس ، فخرج أبو الفتح قراءة ابن عباس (ونادى نوح ابنهْ) بجزم الهاء على هذه اللغة . (2)

التميمية والحجازية

وكثير من القراءات جاءت على لهجة تميم فكان ابو الفتح يشير الى هذه اللهجة او يقارن بينها وبين لهجة الحجازيين . فمن ذلك :

---

(1) ابراز المعانى 397 ط الحلبى سنة 1349 هـ
(2) المحتسب 1 : 323

كانت تميم تكسر أول المضارع اذا كان ثانى ماضيه مكسورا نحـو : علمت : تِعلم (بكسر التاء) وانا اعلم (بكسر الهمزة) وهى تِعلم (بكسر التاء) وتقل الكسرة فى الياء استثقالا للكسرة فيها ــ وكذلك مـا فى اول ماضيه همزة وصل مكسورة نحو (يوم تِسود وجوه وتِبيض وجـوه) وعلى ذلك قراءة من قرأ (فتِمسكم النار) بكسر التاء • (1)

والصنوان ــ بالضم لتميم وقيس ، وبالكسر لاهل الحجاز • (2)

وقرأ نفر من القراء (رُبيون) بضـم الراء فعزاها ابو الفتـح للغـة تميم (3) وكان ابو الفتح يرى لغة الحجازيين أمثل من غيرها ــ جاء ذلـك فى اكثر من مناسبة فى كتاب المحتسب فقد قرأ الحجازيون فـى سـورة البقرة : يعلّمُهم ، ويلعنُهم (الآيـة 129 و 159) ــ وقرأهـا التميميون مخففة بتسكين الميم والنون فقال ابو الفتح : اما التثقيل فلا سؤال عنه ولا فيه ــ لأنه استيفاء واجب الاعراب ــ لكن من حذف فعنه السؤال ، وعلته توالى الحركات مع الضمات فيثقل ذلـك عليهم فيخففون باسكان حركـة الاعراب ، وعليه قراءة ابى عمرو (فتوبوا الى بارئْكم) فيمن رواه بسكون الهمزة • (4)

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابو رجاء ، والجحدرى ، وسهيل بن شعيب (نُشْرا) فى سورة الاعراف بضم النون وجـزم الشين ، وهـو تخفيف (نشرا) فى قراءة العامة وهى لغة الحجازيين • قال ابو الفتـح : والتثقيل افصح لانه لغة الحجازيين ، والتخفيف فى نحو ذلك لتميم (5) فيقولون فى كلمة : كلْمة بتسكين اللام ، وفى كبد : كبْد بتسكين الباء ، وخرّج ابو

---

(1) المحتسب 1 : 330
(2) المحتسب 1 : 351
(3) المحتسب 1 : 173
(4) المحتسب 1 : 109
(5) المحتسب 1 : 255

الفتح قراءة الحسن وابى رجاء ، ومجاهد (فنظْرة الــى ميسرة) بتسكين الظاء على هذا الوجه بينما قراءة الجماعة بكسر الظاء • (1)

وقرأ الحسن ، وابراهيم ، ويحيى بن وثاب (وانتم حرْم) باسكــان الراء وهى تميمة ايضا • (2)

وأكثر ما جاء التخفيف فى المكسور والمضموم ــ أما ما جاء من ذلك فى المفتوح فشاذ لايقاس عليه لأن المفتوح لا يخفف ، ولذلك رفض ابــن جنى ان يكون (مرْض) بسكون الراء فى قوله تعالى (فى قلوبهم مرض) مخففا عن مَرَض • (3)

ومع ما رأيت من شيوع التخفيف عند التيميميين فانه لم يكن صفــة دائمة عندهم ، ولا التثقيل صفة دائمة عنــد الحجاز انهــم يخففون خمس عشْرة لا يحركون الشين ، وتميم تثقل وتكسر الشين (4) وأهــل الحجاز يخففون الهدى يجعلويه كالرمــى ، وتميم يشددونه يقولــون : الهــدىّ كالعشى والشقى • (5)

فلسفة ابن جنى في بعض القراءات الشاذة

اول من كتب فى تبيين وجوه القراءات الشاذة هو ابو الفتح عثمــان ابن جنى وكان استاذ ابو على الفارسى قد وضع كتاب الحجة فى الاحتجاج للقراءات السبع ، وهم بوضع كتاب آخر فــى الاحتجاج للقراءات الشاذة فلم يتيسر له ما اراد •

---

(1) المحتسب 1 : 143 (2) المحتسب 1 : 205
(3) المحتسب 1 : 53 (4) المزهر 2 : 275
(5) المزهر 2 : 277

ولم تكن وجهة ابن جنى فــى كتابه (المحتسب) تلمس وجه مــن العربية للقراءة الشاذة ، ولم تكن القراءة الشاذة عنده بأقل من تلك التى اجمعوا عليها ، بل لعل بعض ما جاء من هذا الشاذ ـــ او كثير منه ـــ (مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه • نعم ، وربما كان ما تلطف صنعته) فكان عليه ان يناقش هذا الوجه مــن القراءة حتى لا يظن ظان ان العدول عــن هذا الوجه هو غض منه أو تهمة له •

يقول ابن الجزرى فى اختلاف القراءات (••• ان معنى اضافة كــل حرف من حروف الاختلاف الى من أضيف اليه من الصحابة وغيرهم انمــا هو من حيث انه كان اضبط له ، واكثــر قراءة واقراء بــه ، وميلا اليــه ـــ لا غير ذلك وكذلك اضافة الحروف والقراءات الى ائمة القراءة ورواتهم المراد بها ان ذلك القارىء وذلك الامام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به، فآثره على غيره، وداوم عليه، ولزمه حتى اشتهر وعرف به، وقصد فيه ، واخذ عنه فلذلك اضيف اليه من القراء ، وهذه الاضافة اضافة اختيار ودوام ولزوم ـــ لا اضافة اختراع وراى واجتهاد) (1) •

ولقد اعان ابن جنى على ماهو بسبيله معرفة واسعة باللغة ، واستبطان لاسرارهــا ، وتذوق لطعومها كأنه نقع فــى ينابيع العربية نقعا ، فانجذب طبعه لها ، ودق حسه ، ولطف تناوله لها •

لاحظ ابو الفتح تقارب بعض الحروف فى المخرج او الصفة فآخــى بينها ، وأحل بعضها مكان بعض ، ووضع اللفظ مكان اللفظ ، وسلط عليها التأمل والصنعة حتى انقادت لهذا التآخى •

جاء فى سورة هود (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقرأها

---

(1) النشر 1 : 51 ـــ 52

ابن عباس ، وايوب السختيانى (فأكثرت جدلنا) فقال ابـو الفتح وهـو يعرض للقراءة الاخيرة : الجدل اسـم بمعنى الجدال والمجادلة ، وأصـل ج د ل فى الكلام القوة منه قولهم :

غلام جادل : اذا ترعرع وقوى

وركب فلان جديلة رأيه : اى صمم عليه ولم يلن فيه

ومنه الاجدل : للصقر وذلك لشدة خلقه

وكذلك الجدال انما هو الاقتواء على خصمك بالحجة ، قال الله عز وجل (وكان الانسان اكثر شيء جدلا) اى مغالبة وتقويـا ، ونحو منـه لفظا :

ظبى شادن اى قد قوئ واشتد ، ثم اخذ ابـو الفتح يعرض ملاحظته فقال : الشين اخت الجيم ، والنون اخت اللام يعنى : الشين والنون فـى شادن ، والجيم واللام فى جادل . ونحو منه : عطوت الشيء اذا تناولته ، وقالوا : اتيت عليه اذا ملكته واشتملت عليه . والعين اخت الهمزة ، والطاء اخت التاء ، والواو اخت الياء (1) وهو يعنى العين ، والطاء ، والواو فـى عطوت ــ والهمزة ، والتاء والياء فى أتيت ، وهذه قضية من قضايا الفلسفة اللغوية التى اشاعها ابن جنى فى كتبـه ــ تعتمـد عـلى جرس الحروف والمشابهة الصوتية لها وكأنه يعلل لظواهر القلب والابدال فى العربية .

فالشين اخت الجيم فكلتاهما مفتوحة منخفضة وان افترقا فى الصفات الاخرى فالشين مهموسة رخوة ، والجيم مجهورة شديدة ، وقد تبادلتا فى: مدمج ، ومدمش وهو احكام الفتل فى رقة . قال الشاعر :

اذ ذاك اذ حبـل الوصال مدمش

فأبدل الشين من الجيم لمكان الروى (2) .

---

(1) المحتسب 1 : 321 — 322

(2) اللسان د م ج

والنون اخت اللام فكلتاهما مجهورة متوسطة الشدة مفتوحة منخفضة ذلقية وقد جاء فى اول كتاب (القلب والابدال) لابن السكيت عن الاصمعى :

ــ هتنت السماء ، وهتلت •

ــ والسدول ، والسدون : ما جلل به الهودج •

ــ والكتل ، والكتن : التلزج ولزوق الوسخ بالشىء •

ــ ولعاعة ، ونعاعة لبقل ناعم •

ــ وبعير رقل ، ورقن اذا كان سابغ الذيل •

ــ وطبرزل ، وطبرزن للسكر •

وعن ابى عبيدة : يقال للحرة

ــ نوبة ولوبة ، ومنه قيل للأسود : لوبى ونوبى

ولابى زيد : الدحن من الرجال : العظيم الباطن ، وقال الاصمعى : هو الدحل باللام (1) •

والعين اخت الهمزة ، كلتاهما مجهورة مفتوحة منخفضة حلقية ، جاء عن الاصمعى :

ــ آديته على كذا ، وأعديته أى قويته وأعنته ، ويقال : أستأديت الأمير على فلان ، واستعديته •

ــ وموت زؤاف ، وزعاف •

وقال الفراء : سمعت بنى نبهان من طىء يقول : دأنى يعنى دعنى (2)

والطاء اخت التاء تتفقان مخرجا وصفة ، يقال :

ــ طعنه فقطره ، وقتره : القاه على احد جانبيه ، كما يقال :

ــ الغلط ، والغلت (3) •

---

(1) القلب والابدال لابن السكيت اول الكتاب

(2) القلب والابدال 22 ، وكتاب الابدال لابى الطيب 2 : 552

(3) القلب والابدال 46

والياء اخت الواو كلتاهما مجهورة متوسطة الشدة مفتوحة منخفضة فمن الممكن ان يتحقق بينهما التبادل ، ومـــن ذلك الوجه ايضا قرأت هذيل (عتى حين) وعلل لها ابو الفتح بأن العرب تبدل احد هذين الحرفين مـــن صاحبه لتقاربهما فى المخرج كقولهم : (بحثر ما فى القبور) اى (بعثر) (1) وضبعت الخيل أى ضمحت •

وقد احال ابن جنى على كتابه (الخصائص) حيث افرد لهذه الظاهرة بابا عجيبا (2) لم يمنعنا من الاسترسال فى الاشارة والتعليق عليه الا التزاما بما جاء منه فى صدد القراءات •

ومن التخاريج الفلسفية لابن جنى ايضـــا ان (اليأس) ، (والتبيين) لغتان جاءت بهما القراءات • ففى الآية الكريمة (افلم ييأس الذين آمنـــوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) قرأها علىّ عليه السلام، وابن عباس، وابن ابى مليكة ، وعكرمة ، والجحدرى ، وعلى بن حسن ، وزيد بن على ، وجعفر بن محمد ، وابو زيد المدنى ، وعلى بن بديمة ، وعبد الله بن يزيـــد (افلم يتبين الذين) فخرجها ابو الفتح على لغة (هبيل) وهـــو فخذ مـــن (النخـــع) لقول شاعرهم :

الم ييأس الاقوام أنى أنـــا ابنـــه
وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

وقول سحيم بن وثيل :

اقول لأهل الشعب اذ يأسروننى
الم تيأسوا انى ابن فارس زهدم

أى ألم تعلموا •

وكان من الممكن ان يكتفى ابن جنى بما بينه من ان اليأس هو العلم

---

(1) المحتسب 1 : 343

(2) الخصائص 2 : 145 (باب فى تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى)

ـ بلغة هبيل لا سيما وان الفراء ، وابا عبيدة ذكرا ذلك ونسباه الى هذيل، والى النخع (1) الا ان الرجل ـ كما قلنا ـ كان شديد التأمل ، حفيا بأسرار العربية اخذ يقارب بين المعنيين ، وهو يدرك ان العامة ، وفيهم عامة المتعلمين يرون الفارق بين اليأس بمعنى القنوط أو عدم الرجاء ، وفيهم عامة المتعلمين فقال :

(ويشبه عندى أن يكون هذا راجعا أيضا الى معنى اليـأس ، وذلك أن المتأمل للشىء المتطلب لعلمه ذاهب بفكره فى جهات تعرفه ايـاه ، فاذا ثبت يقينه على شىء من أمره اعتقده وأضرب عما سواه ، فلم ينصرف اليـه كما ينصرف اليائس من الشىء عنه ، ولا يلتفت اليه) ثـم يقول (وهـذه اللغة هكذا طريق صنعتها وملاءمة اجزائها وضم نشرها وشتاتها . فان لـم تطبّن لها ، وتلاق بين متهاجراتها بدّت فرقا ، وكانت حرية ـ لو لاطفتها ـ بالتعانق والالتقـاء ..) (2) .

وقرأ عاصم الجحدرى فى سورة المائدة (وعزرتموهم) خفيفـة فقال ابو الفتح : عزرت الرجل ، اعزره عزرا : اذا حطتـه وكنفتـه ـ وعزّرته (بالتشديد) : فخمت امره وعظمته . ثم قال : وكأنه لقربـه من الازر وهو التقوية معناه أو قريبا منه ، ونحوه عزر اللبن وحزر : اذا حمض واشتـد ، فانظر الى تلامح كلام العرب واعجب (3) .

---

(1) تفسير القرطبى 9 : 319 ، والذين فسروا اليأس بمعنـاه المعروف وهو القنوط قالوا : افلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء الكفـار لعلمهم ان الله تعالى لو اراد هدايتهم لهداهم ، لان المؤمنين تمنـوا نزول الآيات طمعا فى ايمان الكفار . تفسير القرطبى 9 : 319

(2) المحتسب 1 : 358

(3) المحتسب 1 : 208

واتخذ ابن جنى بعض القراءات سبيلا الى القول فى فلسفة العربية فمن ذلك : الفرق بين — فرّقنا (مشددة الراء — وبينها مخففة الراء) فقال ابو الفتح حول قراءة الزهرى (واذ فرّقنا بكم البحر) مشددة • يعنى فرقنا : جعلناه فرقا — ومعنى فرقنا (مخففة) شققنا بكم البحر — وفرقنا (المشددة) اشد تبعيضا من فرقنا • وقوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) يحتمل أن يكون فرقين ، ويحتمل ان يكون افراقا (1) •

والرجل هنا وهو يجيز القراءة بالتشديد ، ويستعين بتخريج آية من سورة البقرة (2) بنظير من سورة الشعراء (3) على أن التشديد أكثر تبعيضا ، يجيز قراءة الجماعة بالتخفيف على انه للتكثير أيضا لدلالة الفعل على مصدره ، وعلى هذا خرج قراءة ابن محيصن (يَذْبَحون ابناءكم) بفتح الياء ، وسكون الذال ، وفتح الباء وقال : والمصدر اسم الجنس ، وحسبك بالجنس سعة وعموما (4) •

وقرأ على عليه السلام ، وابو رجاء ، وجؤية بن عائذ (ولا تناسوا الفضل بينكم) فقال ابو الفتح : الفرق بين تنسوا ، وتناسوا ان تنسوا نهى عن النسيان على الاطلاق : أنسوه أو تناسوه — فأما تناسوا فانه نهى عن فعلهم الذى اختاروه كقولك : قد تغافل ، وتصام ، وتناسى اذا أظهره من فعله ، وتعاطاه ، وتظاهر به — وأما تفعّل فانه تعمل الامر وتكلفه كقوله :

ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

أى حتى تكلفه •

---

(1) المحتسب 1 : 82
(2) الآية 50
(3) الآية 63
(4) المحتسب 1 : 81

ويعزو أبو الفتح حسن هذه القراءة لسببين :

أولهما : أنك انما تنهى الانسان عن فعله هو ، والتناسى مـن فعله . فأما النسيان فظاهره أنه من فعل غيره فكأنه أنسى فنسى ، قال الله سبحانه (وما أنسانيه الا الشيطان) .

والثانى : ان المأمور هنا جماعة ــ وتفاعل ــ لائق بالجماعة كتقاطعوا، وتواصلوا وتقاربوا ، وتباعدوا . (1)

وعرض ابن مجاهد لرواية المفضل عـن الاعمش عـن يحيى وابرهيم وأصحابه (الا تقسطوا) بفتح التاء بينما قراءة الجماعة بضمها ــ وقال ابن مجاهد : لا أصل له ــ ولكن ابن جنى بين لها وجها مستقيما مـن العربية حين فرق بين فعل ، وافعل من (قسط) مع زيادة (لا) فقال :

هذا الذى انكره ابن مجاهد مستقيم غير منكر وذلك على زيادة (لا) حتى كأنه قال : وان خفتم ان تقسطوا فى اليتامى ــ اى تجوروا ــ يقال : قسط اذا جار وأقسط اذا عدل ، قال الله جل وعلا (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وزيادة (لا) قد شاعت عنهم واتسعت ... (2)

والقول فى الكلام والكلم حول قراءة الاعمش (يسمعون كلم الله) قال ابو الفتح :

« الكلام : كل ما استقل برأسه ، اعنى الجمل المركبة ... فأما الكلم فلا يكون أقل من ثلاث وذلك انه جمع كلمة ... ولذلك ما اختاره صاحب الكتاب (اى سيبويه) على الكلام فقال : هـذا باب علم مـا الكلم مـن العربية ، ولم يقل ما الكلام ، وذلك لأن الكلام كما قد يكون فوق الاثنين

(1) المحتسب 1 : 127 — 128

(2) المحتسب 1 : 180 — 181

فكذلك ايضا قد يكون اثنين ، وسيبويه انما أراد هنا ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف فترك اللفظ الذى قد يكون أقل من الجماعة الى اللفظ الذى لا يكون الا جماعة . (1)

وقرأ الحسن ، وعمرو الأسوارى (أصيب به من أساء) بالسين . فقال ابو الفتح « هذه القراءة أشد افصاحا بالعدل من القراءة الفاشية التى هى (من أشاء) لان العذاب فى القراءة الشاذة مذكور علة الاستحقاق له وهو الاساءة ، والقراءة الفاشية لا يتناول من ظاهرها علة اصابة العذاب له وان ذلك لشىء يرجع الى الانسان . وان كنا قد أحطنا علما بأن الله تعالى لا يظلم عباده ، وانه لا يعذب أحدا منهم الا بما جناه واجترمه على نفسه ، الا أنا لم نعلم ذلك من هذه الآية بل من أماكن غيرها . وظاهر قوله تعالى (من اشاء) بالشين المعجمة ربما أوهم من يضعف نظره من المخالفين انه يعذب من يشاء من عباده ــ أساء أو لم يسىء » . (2)

وهنا نراه بالاضافة الى حسه اللغوى ، رجلا يحس بالمسئولية الدينية فيقيم حاجزا منيعا أمام الذين يقرأون القرآن ابتغاء الفتنة واساءة التأويل. وحذف المضاف شائع عند العرب فخرج عليها ابو الفتح قراءة يزيد بن القعقاع فى سورة النساء (بما حفظ الله) بالنصب بينما قرأها الجمهور بالرفع كانه قرأ : بما حفظ دين الله ، وشريعة الله وقال : ان حذف المضاف فى القرآن والشعر وفصيح الكلام فى عدد الرمل سعة . ومما جاء منه فى القرآن الكريم : (ان تنصروا الله ينصركم) اى دين الله ... وربما حذفت العرب المضاف بعد المضاف مكررا أنسا بالحال ودلالة على موضوع

(1) المحتسب 1 : 93 — 94

(2) المحتسب 1 : 261

الكلام كقوله عز وجل (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي من أثر حافر فرس الرسول • (1)

وعلى حذف المضاف ايضا قراءة من قرأ (وأتبع الذين ظلموا) بضم الهمزة واسكان التاء وكسر الباء • وتقديره عند أبـى الفتح : اتبع الذين ظلموا جزاء ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين : اى جزاء ما أترفوا فيه وأجرموا فلم يشكروا • بل اترفوا فيه مجرمين ظالمين • (2)

وعلى ذكر المحذوف ، فمن جمال حذف المفعول قوله تعالى (ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أي تذودان ابلهما • قال أبو الفتح : ولو نطق بالمفعول لما كان فى عذوبة حذفه ولا فى علوه ، أنشد ابو علي للحطيئة :

منعمـــة تصـــون اليـــك منهـــا
كصونـــك مـــن رداء شرعبـــى

أي تصون الحديث وتخزنه ، وعلى هذا النحو خرج ابو الفتح قراءة من قرأ (يرتع ويلعب) بضم الياء وكسر التاء فـى الفعـل الأول أى يرتع مطيته فحذف المفعول • (3)

وقرأ الاعمش فى سورة آل عمران (ومن يرد ثواب الدنيا يوته منها ومن يرد ثواب الآخرة يوته منها وسنجزى الشاكرين) بالياء فيهما فأضمر الفاعل لدلالة الحال عليه • اى يوتـه الله يـدل على ذلـك قراءة الجماعة (نؤته منها) بالنون • (4)

وقرأ يحيى وابرهيم فى سورة المائدة (فيرى الذين فى قلوبهم مرض)

---

(1) المحتسب 1 : 188
(2) المحتسب 1 : 331
(3) المحتسب 1 : 333
(4) المحتسب 1 : 170

بالياء • اى فيرى رائيهم أو متأملهم ••• فأضمـر الفاعـل لدلالة الحـال عليه • (1)

وقرأ مجاهد (زَين للناس حبَّ الشهوات) بفتح الزاي والباء على حذف فاعل هذا الفعل ، وهو ابليس ودل عليه ما يتردد فـى القرآن مـن ذكره نحو قول الله تعالى : (يعدهم ويمنيهم) فى سورة النساء • (2)

حمل ظاهر اللفظ على معناه

ومن القراءات ما كشف عن طريقة العرب فى حمل ظاهر اللفظ عـلى معقود المعنى ففى قوله تعالى فى سورة البقرة (واتقوا يوما ترجعون فيه) قرأها الحسن (واتقوا يوما يُرجعون فيه) بياء مضمومة • فعللها ابو الفتح بترك الخطاب الى لفظ الغيبة كقولـه تعالى (حتـى اذا كنتم فى الفلـك وجرين بهم بريح طيبة) غير انه تصور فيه معنى مطروقا هنـا فحمل الكلام عليه ••• كأنه قال : واتقوا يوما يرجع فيه البشر الى الله فأضمر على ذلك فقال : يرجعون فيه الى الله • (3)

وقد تناول هذه الظاهرة ابو الفتح فى كتاب الخصائص ، وضرب لها الامثال من القرآن الكريم ، ومن فصيح الكلام منثـورا ومنظوما كتأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث ، وتصور معنى الواحد فى الجماعة ، والجماعة فى الواحد الى غير ذلك •

فمن امثلة تذكير المؤنث قوله تعالى (فلما رأى الشمس بازغـة قال هذا ربى) أى هذا الشىء المرئى • وقوله تعالى (فمن جاءه موعظة من ربه) لأن الموعظة والوعظ واحد • وفى قوله تعالى (ان رحمة اللـه قريب مـن

---

(1) المحتسب 1 : 213 (2) المحتسب 1 : 155
(3) المحتسب 1 : 145

المحسنين) قالوا : أراد بالرحمة هنا المطر ... ومن كلام العرب فى هـذا قول الحطيئة :

ثلاثة أنفس ، وثلاث ذود لقد جار الزمان على عيالى

ذهب بالنفس الى الانسان فذكر .

وحكى الاصمعى عن ابى عمرو انه سمع رجلا من اهل اليمن يقول : فلان لغوب ، جاءته كتابى فاحتقرها ، فقلت له : تقول جاءته كتابى ؟ فقال : نعم اليس بصحيفة . فأنث المذكر حملا على معنى الصحيفة .

وخرج ابو الفتح على هذا الوجه قراءة مجاهد (ان تُعف عـن طائفة منكم) بالتاء المضمومة (تعذب طائفة) فقال : الوجـه يعف بالياء لتذكير الظروف ... لكنه حمل على المعنى فأنث (تعف) حتـى كأنـه قال : ان تسامح طائفة او ان ترم طائفة . وزاد فى الانس بذلك مجىء التأنيث يليـه وهو قوله (تعذب طائفة) . (1)

ومن باب الواحد والجماعة ما جاء فى قوله سبحانه (ومـن الشياطين من يغوصون له) فحمل على المعنى . وقال (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فأفرد على لفظ (من) ثم جمع من بعد .

وبعـد :

فلا مراء ان العربية مدينة فى خلودها الى القرآن الكريم . ومهمـا قلبت صفحات التاريخ فلن تجد رابطـا استطاع ان يربط بين شعب ولغـة ودين بقدر ما ربط القرآن الكريم بين الامة الاسلامية ولغتهـا . فاللغات كما نعلم كالكائنات الحية تولد ، وتشب ، وتشيب ، وتهـزل ، وتمـوت ،

---

(1) المحتسب 1 : 298

وتتأثر بغيرها من اللغات وتلد جديدا على انقاض قديم ، وكان مـــن الممكن ان تكون العربية كذلك لولا هذا السند المتين : القرآن الكريم •

لقد نزل بلغة قريش فى مجموعه ، وكانت قريش قد استصفت لهجات العرب حين كانوا يأتونها حاجين او متاجريـــن ، واذن لهـــم ان يقـــرأوه بلهجاتهم كما تطوع به السنتهم ، بـــــل كان القرآن يتناول احيانـــا بعض الالفاظ تأتى على لهجة الحجازيين مـــرة وعلـــى لهجة التميميين مـــرة حين يتطلب النظم ذلك • فأهل الحجاز يقولون : انا منك براء ، وتميم وسائـــر العرب : انا منك برىء واللغتان فى القرآن (1) وقريش يقولون : اسريت ، وغيرهم يقولون : سريت واللغتان فـــى القرآن ايضا (2) فضيق القـــرآن فوارق اللهجات ، وجمع المسلمين على سطوره وآياته يقيمون بـــه صلاتهم ويجدون أصول معاملاتهم فيه ، وهو فوق هذا أصل ما فـــى العربية ذوقا وبيانا فلم يلبث ان اجتذب كل المسلمين ونفرا من غيرهم كل يتلمس فيـــه بغيته : المسلم لاصول دينه ، والاديب يشبع منه حاسته اللغويـــة ، والملحد ليتلمس سقطا او يجادل فيه ابتغاء الفتنـــة فأفادت العربية مـــن كل هـــذه الوجوه حتى من الملاحدة •

لقد ذهب من مصادر رواية اللغة ركن له خطره بذهاب القرن الثانى وهو السماع (3) وما جاء منه بعد ذلك كان شيئـــا يسيرا يجـــرى بعضه

---

(1) قال تعالى فى سورة الزخرف (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون) الآية 26 • وقال تعالى فى سورة الانعام (قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون) الآيـــة 19 وانظر كذلـــك الآيات 78 من سورة الانعام و 48 من الانفال ، و 41 مـــن يونس ، و 35 و 54 من هود و 216 من الشعراء و 16 من الحشر •

(2) الآية الاولى من سورة الاسراء ، والآية الرابعة من سورة الفجر

(3) اتفق علماء اللغة على ذلك • وان سمع ابن جنى من بعض بنى عقيل فى القرن الرابع

مجرى التقليد ، ويتأرجح البعض الآخر في مجال التوثيق . وكان من السماع ما لا يحصره تقعيد النحاة لأنه لا يذهب مع الكليات التى حصروا انفسهم فى دائرتها — وما كان لهم ان يفعلوا غير ذلك — فحفظ القرآن من النظائر التى جاءت وفق اساليب العرب بحكم حاستهم اللغوية الشىء الكثير . صحيح ان القرآن الكريم لم يجمع بين صفحاته كل اللغة مقيسها ومسموعها ، ولكنه خلد من المسموع الذى لا يجرى مع منطق النحاة (1) ما يمكن ان نقيس عليه ، مع فارق بينه وبين بقية مصادر الرواية من شعر ونثر وهو التوثيق الذى صاحب جمعه وكتابته ، وروايته ، وتفسيره .

ولم تستطع فئة من المستشرقين — ولهم نزعاتهم — اخفاء اعجابهم وهم يشيرون الى اثر القرآن الكريم فى اللغة . فالعالم يوهان فك يستفتح كتابه (العربية . دراسات فى اللغة واللهجات والاساليب) بقوله : لم يحدث حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثرا فى تقرير مصيرها من ظهور الاسلام . ففى ذلك العهد قبل اكثر من 1300 عام عندما رتل محمد صلى الله عليه وسلم القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد .

وفى الفصل الذى كتبه عن (عربية الدولة ولغة الشعب فى اوائل العصر العباسى) علل لبقاء العربية بالرغم مما اصاب الدولة بأن « لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم أيا كانت لغته الأصلية جزءا لا ينفصل من حقيقة الاسلام » . (2)

ويقول المستشرق ارنست رينان فى كتابه « التاريخ العام للغات

(1) انظر ما جاء من ذلك فى مقدمة كتاب المجاز لابى عبيدة
(2) العربية .... ص 50

السامية » : (اذا لم يكن الانسان فى حل مـن ان يقول : ان شبه جزيـرة العرب من بين جميع الاقطار هى التى تناقض اكثر من غيرها جميع القوانين التى يمكن تطبيقها على نمو الفكر البشرى ... واذا نظرنـا الـى تلـك الظواهر التى يقدمها لنا هذا الظهور الفجائى لوعى جديـد لـدى البشرية وجدنا انه ربما كانت اللغة العربية نفسها اغربها واعصاها تفسيرا فهذه اللغة لم تكن معروفة من قبل تظهر لنا بغتة فـى ابهى كمالها بما تتمتع بـه مـن مرونة وثراء عريض الى حد انه لم يطرأ عليها اى تغيير جوهرى منذ ذلك الوقت حتى عصرنا هذا . فهى لم تمـر كغيرها بدور طفولـة وشيخوخة ، ولكنها لم تكد تظهر وتستتب لها هذه الفتوح الرائعة حتى بدت كاملة ـ ولست ادرى اذا كنا نستطيع ان نجد مثلا آخـر للهجة شقت طريقها فـى العالم دون أن تمر بمرحلة بدائية ومراحل وسطى ودون تعثر) . (1)

ولا وجه للغرابة ، ولا لعصيان التفسير اذا وضع رينان امـام دهشته هذه نزول القرآن الكريم باسمى صور العربية وبقائه على افواه المسلمين . ومبلغ القول انها ستزداد اتساعا بما تكتسبه من جديد عـن طريق التعريب الصحيح دون ان تفقد حرفا واحدا ورد فى القرآن الكريم .

---

(1) مجلة مجمع اللغة العربية العدد 12

الباب الثاني

الحديث مصدر من مصادر اللغة



الفصل الأول

رواية الحديث

مدى العناية برواية الحديث

جاء القرآن الكريم بتعاليم الدين الاسلامى مجملا ، ففصل القول فيه ، وبينه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنى المسلمون بالكتاب والسنة عناية بالغة . اما الكتاب فقد ذكرنا طرفا من وجوه عنايتهم به : جمعا ، وحفظا ، وتفسيرا ، وشرحا ، وقراءة ، واعرابا الى غير ذلك .

واما السنة فقد عنى بها أئمة المسلمين ، بدأ بذلك الصحابة رضوان الله عليهم فحفظوا عن نبيهم اقواله ، وافعاله ، فأتقنوا وتثبتوا وهم يعلمون ان من الحديث ما هو تفصيل للقرآن ، وبيان لمجمله ، وتوضيح لغريبه — ولقد عرّف ابو البقاء الحديث بأنه اسم من التحديث ، وهو الاخبار — ثم سمى به قول أو فعل ، او تقرير نسب الى النبى صلى الله عليه وسلم . (1)

(1) قواعد التحديث 61 للقاسمى ط الحلبى سنة 1961

والصحابة على رأس الثقاة فى الرواية ، لم يرم واحد منهم بكذب أو وضع قال النووى فى التقريب (الصحابة كلهم عدول) وبهذا قال الحافظ الدمشقى الذهبى وان لمحنا فى كلامه ترددا كأن فى نفسه من هـذا الرأى شيئا ويود لو استثنى منهم فقال (وأما الصحابة رضى الله عنهم فبساطهم مطوى وان جرى ما جرى وان غلطوا ما غلط غيرهم من الثقاة فما يكـاد يسلم من الغلط احد لكنه غلط نادر لا يضر ابـدا اذ على عدالتهم وقبول ما نقلوا العمل) .(1)

وفى مجال التوثيق كان لا بد مـن تعريف الصحابى المحدث ، فقد ذهب بعض رجال الحديث الى القول بأن الصحابى هو مـن صحب النبى صلى الله عليه وسلم او رآه مـن المسلمين . قال بذلـك البخارى فـى صحيحه . وكان انس بن مالك يفرق بين الرؤية والصحبة ، روى شعبة عن موسى السيلانى قال : اتيت أنس بن مالك فقلت : هل بقى مـن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم احد غيرك ؟ قال : بقى ناس مـن الأعراب قد رأوا ، فأما من صحبه فلا . أما الاصوليون فانهم يقصرون هذا اللقب على من طالت صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم وكثرت مجالسته له على طريق التبع له والاخذ عنه ـ وكان سعيد بن المسيب يرى هـذا الرأى ولا يعد الصحابى الا من أقام مع رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم سنة او سنتين وغزا معه غزوة او غزوتين . (2)

والتابعون ايضا صادقون فى مجموعهم ، استنادا عـلى ان مـا ندر غلطه فى جنب ما قد حمل احتمل ، ومن تعدد غلطه وكان مـن اوعية العلم اغتفر له ايضا ونقل حديثه وعمل بـه عـلى تردد (3) ثم اختلف المحدثون ورأوا فى التابعين الافضل والفاضل ، كان احمد بـن حنبل يقول : افضل

(1) قواعد التحديث 187

(2) مقدمة ابن الصلاح 146 ، والتقريب للنووى 34

(3) قواعد التحديث 187

التابعين سعيد بن المسيب فقيل له فعلقمة والاسود ؟ فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والاسود (1) ثم قال مرة اخرى : لا أعلم فى التابعين مثل ابى عثمان النهدى ، وقيس بن ابى حازم • وقال ايضا : افضل التابعين قيس ، وابو عثمان ، وعلقمة ، ومسروق ، هؤلاء كانوا فاضلين ومن علية التابعين • (2)

الاسناد

واتجهت المفاضلة احيانا الى نزعة اقليمية فأهل المدينة يقولون : سعيد بن المسيب ، وأهل الكوفة يقولون : أويس ، وأهل البصرة يقولون: الحسن البصرى ثم بدأ علماء الحديث فوضعوا رواته تحت النقد الشديد وعنوا بدراسة السند كما عنوا بدراسة المتن ، وكان السؤال التقليدى بعد سماع الحديث — اين سنده ؟ او عمن ؟ حتى ضج بعض العلماء بهذا السؤال ، سأل حفص بن غياث — الاعمش عن اسناد حديث فأخذ بحلقه وأسنده الى حائط وقال : هذا اسناده (3) ، وحدث الحسن البصرى بحديث فقيل له : يا أبا سعيد عن من ؟ قال : وما تصنع بعن من يابن أخى ؟ اما انت فنالتك موعظته ، وقامت عليك حجته • وقال رجل للحسن : يا ابا سعيد انك تحدثنا فتقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو كنت تسنده لنا الى من حدثك ؟ قال الحسن : ايها الرجل ، ما كذبنا ، ولا كذبنا ، ولقد غزونا غزوة الى خراسان ومعنا فيها ثلاثمائة من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم • (4)

---

(1) كان علقمة والاسود يبلغهما الحديث عن عمر رضى الله عنه فلا يقنعهما حتى يخرجا الى عمر فيسمعانه منه ، مقدمة ابن الصلاح 124

(2) مقدمة ابن الصلاح 152 — 153

(3) العقد الفريد 1 : 4

(4) قواعد التحديث 142

وكانت هناك الظروف السياسية التى جعلت رجلا كالحسن البصرى يمسك عن ذكر السند خوفا من بطش الامويين كما يبدو من هذا الخبر : قال يونس بن عبيد سألت الحسن قلت يا أبا سعيد انك تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وانك لم تدركه ، فقال : يابن أخى ، لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، ولولا منزلتك منى مـا أخبرتك ، انى فى زمان كما ترى ــ وكان فى زمن الحجاج ــ كل شىء سمعتنىّ اقولـه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عن على بن ابى طالب غير انـى فى زمان لا استطيع أن أذكر عليا . (1)

وكان ابن حجر يعطى هذا الحق للسائلين ويرى ان معرفـة الاسناد من فروض الكفاية ، وقال عبد الله بن المبارك : الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء (2) وقال احمد بن حنبل : طلب الاسناد العالى سنة عمن سلف لان اصحاب عبد الله كانوا يرحلون من الكوفة الى المدينة فى زمان لا استطيع أن أذكر عليا . (3)

وظل الاسناد يؤدى دورا هاما فى مجال الرواية الموثقة ، فقد قسموا الحديث الى صحيح ، وحسن ، وضعيف (4) وعرفوا الصحيح بأنه المسند الذى يتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط الـى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا (5) واقتدى رجال اللـغة برجال الحديث فـى ضرورة البحث عـن السند وقالوا ان اللغـة أداة تفسـير الحديث ، وان

---

(1) قواعد التحديث 143 (2) قواعد التحديث 174

(3) قواعد التحديث 202

(4) للحديث اقسام اخرى كالمسند ، والمتصل ، والمرفوع ، والموقوف ، والمقطوع ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والمنكر الى غير ذلك لسنا بحاجة الى تفصيل القول فيها فى مجالنا اللغوى

(5) مقدمة ابن الصلاح 8

الاسناد من شروط النقل الصحيح ، وطالب به ابن الانبارى وقال : لولا الاسناد لأدى أن يروى كل من أراد ما أراد • (1)

الجرح والتعديل

وبلغت الدقة بعلماء الحديث أن قسموا المحدثين من حيث الدقة فى الرواية الى فئات ووضعوا لهم الاقيسة والشروط التى تضع الواحد منهم فى مكانه الصحيح ــ فاذا قيل للمحدث انه ثقة أو متقن فهو ممن يحتج بحديثه ــ فاذا قيل انه صدوق او محله الصدق او لا بأس به وضع فى المرتبة الثانية وحينئذ يكتب حديثه وينظر فيه وفرق عبد الرحمن بن مهدى بين المنزلتين حين حدث فقال : حدثنا ابو خلدة فقيل له : اكان ثقة فقال : كان صدوقا ، وكان مأمونا ، وكان خيرا ــ او قال خيارا ــ الثقة شعبة وسفيان ــ فهو هنا يضع شعبة وسفيان وأمثالهما فى المرتبة الاولى ، والصدوق والمأمون والخير فى مرتبة بعدهم ــ واذا قيل للمحدث شيخ فهو فى المرتبة الثالثة فاذا قيل صالح الحديث وضعوه فى المرتبة الرابعة • (2)

واما الفاظهم فى الجرح فهى على مراتب ايضا يضعون فى اعلاها (لين الحديث) سأل حمزة بن يوسف السهمى ابا الحسن الدارقطنى : اذا قلت : فلان لين الحديث ايش تريد منه ؟ فقال : لا يكون ساقطا متروك الحديث ولكن مجروحا بشىء لا يسقط عن العدالة ــ ثم يطلقون على المحدث دون هذه الدرجة (ليس بقوى) ثم (ضعيف الحديث) ثم (متروك الحديث) او (ذاهب الحديث) او (كذاب) حيث يجمعون على ترك حديثه • (3)

---

(1) الاغراب فى جدل الاعراب 47 ط الجامعة السورية سنة 1957

(2) مقدمة ابن الصلاح 58 وما بعدها

(3) الكفاية فى علم الرواية 21 للخطيب البغدادى ط حيدر آباد سنة 1357 هـ

كتابة الحديث

لم ينشط الصحابة الى تدوين الحديث نشاطهم في تدوين القرآن ، بل كان توقفهم عن هذا التدوين يعود في اكثره الى القرآن نفسه حتى لا يكون للمسلمين كتاب غيره ـ كان هذا رأي عمر ، وابن مسعود ، وزيد ابن ثابت ، وابي موسى الاشعري ، وابي سعيد الخدري الذي روى عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تكتبوا عني شيئا الا القرآن ومن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه » . (1)

الا ان الاخبار تشير الى مسلك لعبد الله بن عمرو بن العاص حين كان يحرص على تدوين الحديث ويكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال له بعض الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم في الغضب فلا تكتب كل ما تسمع فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : (اكتب . فوالذي نفسي بيده ما خرج من بينهما الا حق) يعني شفتيه ، واشار ابو هريرة الى مسلك عبد الله فقال : لم يكن احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم احفظ مني الا عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب بيده ويعي بقلبه ، وكنت اعي بقلبي ولا اكتب بيدي . (2)

والرأي عندي ان النهي عن كتابة الحديث ، والاذن به لعبد الله بن عمرو بن العاص لا يخلق تعارضا ـ اذ كان النهي يستهدف توحيد كتاب المسلمين فلا يشارك القرآن كتاب آخر ـ وكان عبد الله يكتب لنفسه ليستعين بذلك على الحفظ والاستظهار كما يفهم من اشارة ابي هريرة في قوله (كان يكتب بيده ويعي بقلبه) ويدلك على ذلك موقف ابي شاة اليمني حين التمس من النبي صلى الله عليه وسلم ان يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام فتح مكة فقال صلى الله عليه وسلم (اكتبوا لابي شاة)

(1) مقدمة ابن الصلاح 88 ، المصاحف للسجستاني 4

(2) قواعد التحديث 62

ولهذا اباح الكتابة قوم ، منهم على بن ابـى طالب وابنه الحسن ، وانس وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العـاص وأكثرهم كـان يكتب لنفسه ليستعين بهذه الكتابة على الحفظ ـ ولـم ينشطوا لتدوين الحديث على سبيل الجمع الا فى نهاية المائة الاولى للهجرة عندما أرسل عمر بن عبد العزيز الى أبى بكر بن محمد بن حزم والى المدينة أن انظر مـا كان مـن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فانى أخاف دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل هذا الى محمد بن شهاب الزهرى •

وفى اواخر عصر التابعين قام فريق بتدوين الآثار منهم الربيـع بـن صبيح ، وسعيد بن ابى عروبة الى ان جـاء الامـام مالك فصنف الموطـأ وتوخى فيه القوى من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم ـ كما صنف ابن جريـج بمكـة ، وابو عمرو عبـد الرحمن بن عمرو الاوزاعى بالشام ، وأبو عبد اللـه سفيان بـن سـعيد الثورى بالكوفة ، وابو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة ولم يصـل الينا حديث مدون قبل موطأ مالك ـ وعلى رأس المائتين صنف المسانيـد جماعة منهم : عبيد الله بن موسى العبسى الكوفى ، ومسدد بن مسـرهد البصرى ، واسد بن موسى الاموى ، ونعيم بن حماد الخزاعى • ثم اقتفى الائمة اثرهم فقل امام من الحفاظ الا وصنف حديثه عـلى المسانيد كالامام أحمد بن حنبل ، وأسحق بن راهويـه ، وعثمان بن شـيبة ، ولقـد تلمذ البخارى لاسحق بن راهويه الذى حبب اليه جمع الحديث الصحيح ، وفى زمانه صنف مسلم بـن الحجاج القشيرى مسنده الصحيح وبقيت هـذه الكتب الثلاثة موطأ مالك ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلـم تمثـل الذروة فى صحيح الحديث •

وكان على الكاتبين أن يعارضوا كتبهم حتى يطمئنوا الـى سلامتها ، ذكر هشام بن عروة ان اباه قال له : كتبت ؟ قال : نعـم • قال : عارضت ؟

قال : لا • قال : لم تكتب • وقال معمر : لو عورض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون سقط ـ أو قال خطأ • (1)

ولقد كان تدوين الحديث ضرورة فرضتها اتساع الرقعة الاسلامية والابتعاد عن موطن العربية فى الجزيرة زمانا ومكانا ـ وكان رواة الحجاز امثل رجال السند من امثال مالك ، والشافعى ، وابن حنبل ـ ثم انتشر ناقلو الحديث فى البصرة ، والكوفة وشرق العراق ، والشام ، ومصر ـ عرب وغير عرب ـ وبالرغم من العناية الفائقة فى استخلاص الحديث المدون بمعارضة كتبه فانه تعرض لآفات فى المجال اللغوى منها :

ـ الرواية بالمعنى •

ـ التصحيف •

ـ الوضع •

رواية الحديث بالمعنى

ورد فى حديث مرفوع رواه ابن منده فى (معرفة الصحابة) والطبرانى فى (الكبيرة) من حديث عبد الله بن سليمان بن اكثم الليثى قال : قلت يا رسول الله انى اذا سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما أسمع منك ، يزيد حرفا ـ او ينقص حرفا فقال : (اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس) (2) وقال ابن سيرين (كنت أسمع الحديث من عشرة ، المعنى واحد والالفاظ مختلفة) وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف فى الحديث على لفظه ، فقال له يحيى : يا هذا ليس فى الدنيا أجلّ من كتاب الله تعالى قد رخص للقراءة بالكلمة على سبعة أحرف • فلا تتشدد • (3)

وهذا الترخيص فيما يبدو انما جاء لاعتماد القوم على المحافظة فى

(1) مختصر جامع بيان العلم وفضله 38 ط الموسوعات سنة 1320

(2) قواعد التحديث.222

(3) قواعد التحديث 221 ـ 222

جزء كبير من رواية الحديث ، وكان السلف الأول على فطرتهم يصيبون المعنى فتمدهم عربيتهم به فى غير لبس كما يبدو فى قول حذيفة (انا قوم عرب نورد الحديث فنقدم ونؤخر) (1) وحيث اختلف الناس فى هذا الأداء بدا أن بعض الرواة أحسن رواية من بعض حتى قال رجل للحسن : يا أبا سعيد ، انما تحدثنا بالحديث أنت أحسن له سياقا ، وأجود تحبيرا ، وأفصح به لسانا منه اذا حدثنا به ، فقال : اذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك .

ولقد رخص فى سوق الحديث جماعة منهم : عليّ بن أبى طالب، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبو الدرداء ، ووائلة بن الأسقع ، وأبو هريرة ـ ومن التابعين الحسن البصرى ، والشعبى ، وعمرو بن دينار ، وابرهيم النخعى ، ومجاهد ، وعكرمة ـ وكان أكثر رواة السلف يقصدون الصدق ويقولون : الكذب على من تعمده ، وكان سفيان الثورى يصرح فى ثقة بأنه يروى الحديث بالمعنى فيقول : ان قلت لكم انى احدثكم كما سمعت فلا تصدقونى ، انما هو المعنى (2) وقال ابن المبارك : علمنى سفيان الثورى اختصار الحديث . (3)

ومن حججهم فى الاطمئنان الى هذا المذهب الاجماع على شرح الشريعة للأعاجم بلسانهم للعارف به ـ فاذا جاز ذلك بلغة اخرى فجوازه بالعربية أولى ، قال بذلك الحافظ بن حجر فى شرح النخبة ، وأباح ذلك فى المفردات دون المركبات ولمن يستحضر اللفظ ليتمكن من التصرف فيه ، ولمن كان يحفظ الحديث فنسى لفظه وبقى معناه مرتسما فى ذهنه فله أن يروى بالمعنى لمصلحة تحصيل الحكم منه بخلاف من كان مستحضرا لفظه . (4)

---

(1) قواعد التحديث 223

(2) الاقتراح 20 للسيوطى ط كلكتا

(3) العقد الفريد 2 : 233

(4) قواعد التحديث 221

وكان من المعروف أن هذه الرخصة ليست عامة ولا مطلقة ، وانما هى مشروطة بعلم الراوى بالعربية وأشار الى ذلك ابن الصلاح فى مقدمته بقوله (ان الراوى اذا أراد رواية ما سمعه على معناه دون لفظه فان لم يكن عالما عارفا بالألفاظ ومقاصدها خبيرا بما يحيل معانيها بصيرا بمقادير التفاوت بينها فلا خلاف انه لا يجوز له ذلك وعليه ألا يروى ما سمعه الا على اللفظ الذى سمعه من غير تغيير) ـ ولكن هذه الشروط وكلها تؤكد ضرورة المعرفة بالعربية يصعب تحقيقها كلما تقدم الزمن ووهنت السليقة ونأت الديار برجال الرواية عن موطن العربية فى الجزيرة .

التصحيف

التصحيف من عيوب الكتابة فى جميع الآثار الادبية ، لاحظ الرواة ذلك فى الأدب والشعر وكرهوا الرواية عن الصحف خشية التصحيف ، وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من ائمة اللغة وائمة الحديث حتى قال الامام أحمد بن حنبل (ومن يعرى من الخطأ والتصحيف ؟ !) (1) وترجع هذه الآفة الى جملة أسباب منها :

ان الكتابة العربية قديما لم تكن تميز بين الحروف المتفقة فى الشكل كالجيم والحاء والخاء ، والدال والذال ، والسين والشين ، والصاد والضاد الى غير ذلك فكان القارىء ينطق بالحرف مجتهدا احيانا وراء سياق المعنى فوقع التصحيف من هذا الوجه قبل أن تميز الحروف بالنقط . وقد وقع المحدث الكبير شعبة بن الحجاج فيه حين التبست عليه السين والشين . يقول الاصمعى : كنت فى مجلس شعبة فروى الحديث فقال (تسمعون جرش طير الجنة) بالشين فقلت : جرس . فنظر الىّ وقال : خذوها منه

(1) المزهر 2 : 354

فانه أعلم بهذا منا (1) وهو يشير بهذا الى تمرس الأصمعى باللغة وادراكه لمفرداتها التى حصلها عن طريق الرواية والمشافهة .

ومن هذا الوجه أيضا ما وقع فيه علماء اللغة أنفسهم فاستشرت هذه الآفة ولم تجد ضابطا لمضطربها وكان من حقهم أن يتجادلوا بحسب ما سمع كل عن شيخه ولكن العربية نفسها أخذت تعانى منه الى حد بعيد ، من ذلك مثلا ما يحكيه محمد بن سلام الجمحى قال : قلت ليونس بن حبيب ان عيسى بن عمر قال : صحف ابو عمرو بن العلاء فى الحديث (اتقوا على اولادكم قمحة العشاء) فقال بالفاء وانما هدف بالقاف — فقال يونس : عيسى الذى صحف ليس ابا عمرو وهى بالفاء كما قال ابو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى (2) . وأخبر ابو معمر عبد الوارث قال : كنا بباب بكر بن حبيب فقال عيسى بن عمر فى عرض كلام له قمحة العشاء (بالقاف) فقلنا لعلها فحمة العشاء فقال : هى قمحة (بالقاف) لا يختلف فيها فدخلنا على بكر بن حبيب فحكيناها له فقال : هى فحمة العشاء بالفاء لا غير اى فورته ، ولم يملك رجل كابن منظور الا ان ينقل هذه الاخبار دون أن يرجع واحدة على اختها . (3)

ومن هذه الاسباب ان بعض الحروف المتماثلة فى الخط والمختلفة فى النقط تتبادل فلا يتغير معها المعنى ، ذكر من ذلك صاحب اللسان : أسود قاحم : شديد السواد كفاحم . (4)

ومن التصحيف ما استقامت قراءته مع السياق العام للمعنى أو أخذ

(1) المزهر 2 : 354
(2) المزهر 2 : 360
(3) اللسان مادة ف ح م
(4) اللسان مادة ق ح م

وجها جديدا من التفسير فلم يبعد عن الغرض واطمأن قارؤه الى ما قرأ ، رأينا أمثلة من ذلك فى النصوص الأدبية . (1)

ومما جاء منها فى القرآن الكريم ما أشار اليه السيوطى حين صحف حماد بن الزبرقان ثلاثة الفاظ فى القرآن لو قرىء بها لكان صوابا . اللفظ الأول (وما كان استغفار ابرهيم لابيه الا عن موعدة وعدها) أباه ـ والجمهور : اياه . واللفظ الثانى (بل الذين كفروا فى « غرة » وشقاق) والجمهور عزة ـ واللفظ الثالث (لكل امرىء منهم يومئذ شأن) يعنيه ـ والجمهور يغنيه . (2)

ومما جاء من ذلك فى الحديث ما رواه الأعمش فى حديث عبد الله ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة وكان أبو عمرو بن العلاء حاضرا عنده فقال له أبو عمرو : يتخوننا ـ وفى التصحيف والتحريف للعسكرى : قال الأصمعى : قد ظلمه أبو عمرو ، يقال : يتخولنا ، ويتخوننا فمن قال يتخولنا يقول : يستصلحنا ومن قال يتخوننا قال : يتعهدنا (3) ـ ونسب ابن الأثير الى أبى عمرو بن العلاء لفظا ثالثا وهو يتحولنا ـ بالحاء ـ أى يطلب الحال التى ينشطون فيها للموعظة فيعظهم فيها ، ولا يكثر عليهم فيملوا .

وبالرغم من ان التصحيف قد وقع فى الآثار الأدبية فلم يمنع من الاحتجاج بها الا ان اللغويين يجعلون التصحيف فى الحديث مبررا لعدم الاحتجاج به ـ ولقد رجحوا رأيهم الاخير فيما يبدو ـ لان رواة الحديث كان اكثرهم من الأعاجم .

(1) اقرا فى هذا موضوع التصحيف والتحريف فى كتاب المزهر للسيوطى 2 : 353

(2) المزهر 2 : 368 — 369

(3) المزهر 2 : 373 وانظر اوائل الجزء الثانى من كتاب النهاية فى غريب الحديث والاثر لابن الاثير

الوضع

كان عمر رضوان الله عليه يدعو الى الاقلال من الرواية ، ولا نكاد نعرف من أسباب ذلك الا ما يشير اليه ابن عبد البر من أنه كان يخشى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولان ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر ، ولم يكد ينتهى عصر الراشدين حتى توزعت الأهواء بين عثمانية وعلوية ، وهاشمية وأموية ، ومضرية ويمنية ، وبين شيعيين وخوارج الى غير ذلك حاولت كل فرقة ان تسمو على اختها فاتخذت الحديث من اسلحتها .

واشتهرت بيئة العراق بوضع الحديث فسميت دار الضرب ، وغمزهم رجال الحجاز فقالوا : يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا ــ وقال هشام بن عروة اذا حدثك العراقى بألف حديث فالق تسعماية وتسعين وكن من الباقى فى شك (1) وتركز الوضع فى الكوفة ، أشار الى ذلك القرطبى فى التنبيه على الاحاديث التى وضعها جماعة اختلفت اغراضهم فذكر قوما من الزنادقة مثل المغيرة بن سعيد الكوفى ، ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة وغيرهما ، ومما رواه محمد بن سعيد هذا عن انس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم (انا خاتم الانبياء لا نبى بعدى) الا ما شاء الله فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو اليه من الالحاد والزندقة . ودخل غياث بن ابرهيم على المهدى فوجده يلعب بالحمام فساق فى الحالّ اسنادا الى النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : (لا سبق الا فى نصل أو خف أو حافر) أو جناح فزاد فى الحديث ــ أو جناح ــ فعرف المهدى أنه كذب لأجله . (2)

وجرت بعض الأحاديث الموضوعة على ألسنة القصاص وقد عرفوا الأسانيد الصحيحة فقدموا بها لأحاديثهم الموضوعة ، من ذلك ما ذكره

---

(1) قواعد التحديث 81

(2) قواعد التحديث 151

جعفر بن محمد الطيالسى فقال : صلى احمد بن حنبل ، ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا احمد بن حنبل ، ويحيى بن معين قالا : أنبأنا عبد الرزاق قال : أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، فجعل ينظر احمد الى يحيى ، و يحيى ينظر الى احمد ، فلما فرغ من قصته سأله يحيى وكشف له عن نفسه وعن أحمد بن حنبل ، قال القاص : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ؟ كتبت عن سبعة عشر احمد ابن حنبل غير هذا .

ومن مسلك أصحاب الفرق فى وضع الحديث ما يشير اليه ابن لهيعة وقد سمع شيخا من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : ان هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، فانا كنا اذا هوينا أمرا صيرناه حديثا (1)

وفى ابواب الاعتقاد ، وعامة ابواب الدين وقع الوضع فى الأحاديث بعضه باطل لا يجوز أن يقال فضلا عن أن يضاف الى النبى صلى الله عليه وسلم ـ وبعضه كلام قاله بعض السلف وكان مما يسوغ فيه الاجتهاد فيعزى الى النبى صلى الله عليه وسلم . ومن العلماء من وضع الحديث ترغيبا فى الدين ، وجره حسن المقصد الى تبرير الوضع ـ قيل لابى عصمة بن ابى مريم المروزى : من اين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ قال : انى رأيت الناس أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن اسحق فوضعت هذا الحديث حسبة . (2)

(1) اللآلىء المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة 2 : 468

(2) قواعد التحديث 156 ، اللآلىء المصنوعة 2 : 470 — وجاء فى الجامع لاحكام القرآن للقرطبى 1 : 78 ومقدمة ابن الصلاح ٤٨ انه قيل لميسرة بن عبد ربه : من اين جئت بهذه الاحاديث : من قرأ كذا فله كذا ، ومن صام كذا فله كذا ؟ قال : وضعتها ارغب الناس فيها

وكان الغزالى حين رأى المتصرفة يبيحون الوضع فى الترغيب والترهيب يقف فى الجانب المعارض وينكر على المتصوفة مسلكهم قائلا : ان فى الصدق مندوحة عن الكذب وفيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها • (1)

وهناك فئة أخرى لا تتهم بوضع الحديث ولكنها تتهم بترويج الأحاديث الموضوعة عن غير قصد ، اشار اليهم الامام مسلم فى مقدمة صحيحه • فروى عن يحيى بن سعيد القطان قال : (لم نر الصالحين فى شيء اكذب منهم فى الحديث) وفى رواية (لم نر أهل الخير فى شيء أكذب منهم فى الحديث) قال مسلم : يعنى أنه يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب ، وقال النووى موضحا هذا الوجه (لكونهم لا يعانون صناعة أهل الحديث فيقع الخطأ فى روايتهم ولا يعرفونه ، ويروون الكذب ولا يعلمون أنه كذب) • (2)

وكان أول من أفرد للأحاديث الموضوعة ــ على ما نعلم ــ الحافظ الحسين بن ابرهيم الجوزقانى المتوفى سنة ٥٤٣ حيث أخرج كتاب الأباطيل ، ثم كتب أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ كتابا يعتبر أشهر ما كتب فى الأحاديث الموضوعة ، ثم وضع الصغانى اللغوى المتوفى سنة ٦٥٠ رسالتين فى ذلك ، وللسيوطى كتب جعلها تعقيبا على كتاب ابن الجوزى اشهرها كتاب اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة •

وبعد ــ فلقد كانت رواية الحديث بالمعنى ، وتعرضه للتصحيف

---

(1) قواعد التحديث 113
(2) قواعد التحديث 152

والوضع على رأس الاسباب التى جعلت أكثر رجال اللغــة يتوقفون عــن الاحتجاج به ، ولو أنهم عرضوا له كما عرضوا للقرآن الكريم حين خرجوا للقراءة الشاذة كما فعل الفراء فى كتابه معانى القرآن ، وابن جنى فى كتابه المحتسب لخلص لهم من هذا الوجه اكثر الحديث .

الفصل الثاني

موقف رواة اللغة من الحديث

لم يكن رواة اللغة يكتفون بالتحصيل فى البيئات العلمية فى العراق فكانوا يذهبون الى البادية القريبة يستمعون الى الاعراب ويوثقون ما حصلوا فى بيئات العراق او يضيفون الى علمهم جديدا ، فلما قلت ثقتهم بالاعراب اطول مكثهم فى الحضر او البادية القريبة من الحضر توجهوا الى قلب الجزيرة العربية يأخذون عن اعرابها الخلص ، وقد يصادفون امرأة ، او صبيا ، أو مجنونا فلا يجدون غضاضة فى الرواية عنه طالما كانت بغيتهم تلقى العربية القائمة على السليقة والفطرة ، ولا يشك احد ان احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تمثل الذروة من الآثار الأدبية فما بال الرواة قد اخذوا عن عامة الأعراب وتوقفوا امام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

لقد كانت شوائب الرواية ــ رواية الحديث ــ هى السبب فى توقف اللغويين عن الاحتجاج بالحديث ، ولقد ذكرنا من ذلك : التصحيف

وكانوا يكرهون الرواية عن الصحف بصفة عامة — ثم رواية الحديث بالمعنى قد اوقع بدوره الشك فى نفوس رجال اللغة فلم يصل اكثرهم الى حد التثبت من أن هذا اللفظ او ذاك قد صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فرواية الحديث بالمعنى جائز عند اكثر المحدثين لأنها تؤدى الغرض المقصود من الحديث وهو التبصرة بالدين ، ولكنها لا تؤدى غرض اللغويين الذين يحرصون أشد الحرص على التثبت من عربية اللفظ، وخلوص عربية قائله وقد علموا أن رواية الحديث قد شارك فيها العربى وغير العربى •

والوضع فى الحديث من اشد آفات الرواية ، ومن الوضاعين من عرف الاسانيد الصحيحة فركب عليها أحاديث من وضعه •

ونتيجة لشوائب الرواية وردت بعض الأحاديث ملحونة — وبديهى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن ، فكان بعض الرواة وأصحاب المعرفة بالعربية يتيمون اعرابه ويصلحون ما فيه من لحن ، من ذلك ما يرويه النضر بن شميل وهو من رجال اللغة ومن رجال الحديث قال : دخلت يوما على المأمون ••• فجرى بنا الحديث فى ذكر النساء فقال المأمون : حدثنا هشيم بن بشير قال : مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان فى ذلك سداد من عوز) بفتح السين — قلت يا أمير المؤمنين : صدق هشيم ، حدثنا عوف بن ابى بجيلة الاعرابى عن الحسن عن على ابن أبى طالب عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان فى ذلك سداد من عوز) بكسر السين • قال : وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا ثم قال يا نضر ، كيف قال هشيم (سَداد) بفتح السين ولم يقل (سِداد) بكسر السين ، وما الفرق بينهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين السداد بفتح السين : القصد فى الدين

والسبيل ، والسداد بالكسر : من الثغر والثلمة ، وكل ما سددت به شيئا فهو فى سِداد (بالكسر) ، قال وتعرف ذلك العرب ؟ قلت : نعم ، قال الشاعر ، وهو العرجى :

اضاعونى وأى فتى اضاعوا
ليوم كريهة وسِداد ثغر

فقال : قبح الله اللحن

قلت : يا أمير المؤمنين ، انما لحن هشيم وهو لحانة فاتبع أمير المؤمنين لفظه (1)

وقال النضر بن شميل : كان هشيم لحانا فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة ــ يعنى بالاعراب • (2)

ولا ادرى جهد النضر فى تتبع هشيم ــ هل فى هذا الحديث وحده الذى اورده صاحب انباه الرواة ــ ام فى جملة من الحديث كما يفهم من الخبر الذى جاء فى قواعد التحديث وأصبح فى نظر النضر لحانا •

وكان الاوزاعى يوصى باصلاح الحديث ويقول : اعربوا الحديث فان القوم كانوا عربا •• ولا بأس باصلاح اللحن والخطأ فى الحديث • (3)

والشعبى الذى كان يمثل الفئة المحافظة فى الكوفة يصرح بتغير شكل الحديث ليستقيم اعرابه ، سأله جابر : اسمع الحديث بغير اعراب فأعربه ؟ قال : نعم لا بأس فى ذلك ــ ولا بأس عند الشعبى ايضا ان يقرأ الحديث يأخذ بعضه ويترك بعضه فى سبيل تجنب اللحن ويقول : لأن اقرأ وأسقط أحب الى من أقرأ وألحن • (4)

---

(1) انباه الرواة 3 : 349 — 350
(2) قواعد التحديث 211
(3) جامع بيان العلم وفضله 78
(4) معجم الادباء 1 : 79

ولكن بقيت فئة من الرواة لم تسترح نفوسهم لتغيير الحديث او رواية جزء منه وترك الجزء الآخر ، (١) فرووه ملحونا ، قال سفيان بن عيينه عن اسماعيل بن امية : كنا نرد نافعا (مولى ابن عمر) نسأله اقامة اللحن في الحديث فيأبى — وكان ابو معمر يقول : انى لاسمع الحديث لحنا فألحن اتباعا لما سمعت ، وكان ابن سيرين يسمع الحديث ملحونا فيحدث به على لحنه وبلغ ذلك الاعمش فقال : ان كان ابن سيرين يلحن فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يلحن • (٢)

ومن الممكن ان نرد عزوف الاصمعي عن الخوض في الحديث الى هذه الوجوه بالاضافة الى ما عرف عنه من التأثم والتحرج حين يعرض للحديث ، يقول نصر بن علي : حضرت الاصمعي وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (جاءكم اهل اليمن وهم ابخع نفسا) ما معنى ابخع ؟ قال : يعني : اقتل ، ثم اقبل متندما على نفسه كاللائم لها فقلت له لا عليك ، فقد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (فلعلك باخع نفسك) أي قاتل نفسك — فكأنه قد سرى عنه (3) جاء في معجم العين وهو أول المعاجم العربية في مادة ع هـ ر : العهر الفجور • واحتج بالحديث (الولد للفراش وللعاهر الحجر) وفي ع ر ق (ليس لعرق ظالم حق) وهو الذي يغرس في ارض غيره •

ولكن الامر في الاحتجاج بالحديث لم يترك جملة ، فقد احتج ابو

---

(1) كان بعض الرواة يجيز رواية جزء من الحديث اشار الى ذلك الحافظ ابن حجر في شرح النخبة ، والنووي في شرح مسلم • وكان مجاهد يقول : انقص من الحديث ما شئت ولا تزد حرفا

(2) معجم الادباء 1 : 79

(3) نزهة الالبا 170

زكريا الفراء لتأنيث معا ـ مفرد امعاء ـ بالحديث (المؤمن يأكل في معا واحدة) ، وتأنيث ضلع بالحديث (ليس في أقل من خمس ذود صدقة) لمجيء العدد مذكرا في كل كما جوز كسر همزة (ام) اذا سبقتها ياء او كسرة بقول من روى عن النبي صلى الله عليه وسلم (اوصى امرءا بامه) بكسر الهمزة . (1)

واحتج سيبويه بالحديث (ما من ايام أحب الى الله فيها الصوم من عشر من ذي الحجة) الكتاب 1 : 232

(وكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه هما اللذان يهودانه وينصرانه) نفس المصدر 1 : 396

وكذلك احتج ابن قتيبة بالحديث في تفسير كلمة (عرض) فقد فسره ابو على القالى بأنه واد باليمامة ، وكل واد يقال له عرض ـ والعرض ايضا : الريح ، والعرض ما ذم من الانسان او مدح ، واختلف فيه ، فقال ابو عبيد : عرضه : اباؤه وأسلافه . وقال ابن قتيبة عرضه : جسده واحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في صفة أهل الجنة (لا يبولون ولا يتغوطون انما هو عرق يجري من اعراضهم مثل المسك) يعني من أبدانهم . (2)

وفسر أبو على القالى الغيم بالعطش ، وروى عن أبي بكر بن الانباري قول النبي صلى الله عليه وسلم (نعوذ بالله من الأيمة ، والعيمة،

---

(1) معاني القرآن للفراء 1 : 5 — 6

(2) الامالي للقالي 1 : 118

والغيمة ، والكزم ، والقرم) وقال .... الغيمة : العطش . (1)

وكان أحمد بن فارس يستشهد بالحديث ويشير الى بعض غريبه . فمن الغريب : ما جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه الى الاقيال العباهلة (على التيعة شاه ، والتيمة لصاحبها . وفى السيوب الخمس لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار . من أجبى فقد أربى) ذكر ذلك ابن فارس وهو يشير الى غريب العربية فيما جاء من القرآن والحديث والشعر والامثال الى غير ذلك . (2)

واحتج لحرف اللام بمعنى بعد بقوله صلى الله عليه وسلم (صوموا لرؤيته) أى بعد رؤيته (3) وفى باب الاستثناء يشير الى قول بعض النحويين : المستثنى خرج مما دخل فيه ويقول ابن فارس : وهذا مأخوذ من الثنا ، والثنا : الامر يثنى مرتين واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم (لا ثنا فى الصدقة) يعنى لا تؤخذ فى السنة مرتين (4) واحتج لكلمة (بيد) بمعنى (غير) بقوله صلى الله عليه وسلم (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد انهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم) أى غير أنهم (5) واحتج للأمر بمعنى الوعيد بالحديث (اذا لم تستح فاصنع ما شئت) (6) وفى سياق القول بأن لبعض الفاظ العربية خصائص ومعان لا يجوز نقلها الى غيرها عرض لقول النبى صلى الله عليه وسلم (ما يحملكم على أن تتايعوا فى الكذب كما يتتايع الفراش فى النار) فقال : قال ابو

---

(1) الامالى للقالى 1 : 160 — (2) الصاحبى فى فقه الله 41
(3) المصدر السابق 85 — (4) المصدر السابق 106
(5) المصدر السابق 118 — (6) المصدر السابق

عبيد : هو التهافت ولم نسمعه الا فى الشر • (1)

وبعـــد :

فلقد كان اعتماد اللغويين على الحديث فى سياق الروايــة اللغويــة اعتمادا قليلا يصل الى حد الندرة : ولم يسلم المتأخرون من النحــاة مــن أمثال ابن خروف ٦٠٩ هـ وابن مالك ٦٧٢ هـ (2) مــن النقــد الشديد ، وكان ابن جماعة ممن أخذ عن ابن مالك فقال له يوما وكأنه لا يرى رأيه : يا سيدى هذا الحديث رواية الاعاجم ووقع فيه من روايتهم مــا نعلم انــه ليس من لفظ الرسول ، فلم يجب بشىء • (3)

ومع هذا فقد أثرت العربية من خــلال الشــروح والتفاسير التــى تناولت الحديث ونحن نعقد لذلك الفصل القادم •

---

(1) المصدر السابق 222

(2) كان يرى ان القرآن هو اوثق المصادر اللغوية ـ ثم الحديث ـ ثــم كلام البدو ، فوات الوفيات 2 : 288 والبغية 55
2 : 288 والبغية 55

(3) الخزانة 1 : 25



الفصل الثالث

ما أفادته العربية من الحديث

غريب الحديث

تتبعت الرواية مصادر العربية حيثما كانت ، فى سوق المربد لمشافهة الاعراب الوافدين اليها ، وفى الجزيرة العربيــة للاستماع الــى الاعراب والتعرف على الدارات والجبــال والنبــات والحيوان واســماء المعانى ــ وعادت الرواية بأوعية تحمل هذه الاسماء ، بعضها آثار أدبية كالاشعار والامثال والحكم ، وبعضها فى صورة حكايات عن رجال ونساء وأطفــال ومجانين حيث كانت بغية الرواية حصر ما يمكن حصره من الفاظ العربيــة وتراكيبها ــ وكما ذكرنا كان مــن الممكن ان يكون الحديث عــلى رأس مصادر الرواية لولا شوائب روايته التى فصلنا القول فيها .

وأصبحت هذه الحصيلة من الاسماء والتراكيب عدة اللغويين والرواة يحفظونها فى صدورهم الواعية ، أو يدونون ما يقع منها تحت أصل واحد

فى كتاب ، كالنبات ، والوحوش ، والقوس ، والقداح ، والانواء الى غير ذلك — أو يضعون هذه الحصيلة فى خدمة الآثار الأدبية الضخمة كالقرآن والحديث والشعر • وهنا نجد الرواية التطبيقية تسد العربية بثروة ضخمة من خلال التفاسير والشروح •

ورجال الحديث بدورهم كانوا يدركون أنهم يروون أثرا عربيا له خطره يجب أن يتخلص من شوائب العجمة واللحن كما يجب ان يتضح غريبه ، فكانوا يذهبون الى رجال اللغة يعرضون عليهم الحديث • يقول أبو حاتم السجستانى : كان عفان بن مسلم يجيء الى الاخفش والى أصحاب النحو يعرض عليهم الحديث يعربه . قال له الاخفش : عليك بهذا — يعنينى — وكان بعد ذلك يجيء الىّ حتى عرض علىّ حديثا كثيرا • وكان ابن مناذر الشاعر من العارفين باللغة وكلام العرب . وكان سفيان بن عيينة من اعلام المحدثين يسأله عن معانى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فيخبره بها ويقول له : كذا وكذا مأخوذ من كذا وكذا فيقول سفيان : كلام العرب بعضه يأخذ برقاب بعض — ولقد كان سفيان يدرك هذه الصفة فيه فيحرص على الافادة منها وربما كتب عنه ما يجده عونا على مسلكه فى الحديث او يقوى به سببه فى تفهمه وادراك غريبه — حدث احمد بن سليمان بن ابى شيخ قال : حدثنى شيخ من اهل الكوفة يقال له عوام قال : سمعت سفيان ابن عيينة وقد تكلم بكلام استحسن فسأله محمد بن مناذر ان يمليه عليه ، فتبسم سفيان وقال له : هذا كلام سمعتك تتكلم به فاستحسنته فكتبته عنك — قال وعلى ذلك أحب أن تمليه علىّ فانى اذا رويته عنك كان أنفق له من أن انسبه الى نفسى (1) ثم وجه بعض اللغويين جزءا من عنايتهم للتعريف بغريب الحديث •

---

(1) الاغانى 17 : 9

وللمحدثين تقسيمات فى غريب الحديث فيضعون الغريب ، والعزيز ، والمشهور فى نسق ويتجهون فى هذا التقسيم الى طرق الروايــة ، وليس هذا مجال بحثنا (1) والمقصود هنا بغريب الحديث هو مــا وقع فى متون الاحاديث من الفاظ غامضة . وكان يتحرج من الكلام فيه كبــار رجــال الحديث ، بل كبار رجال اللغة ، سئل احمد بن حنبل عن حرف مــن غريب الحديث فقال : سلوا أصحاب الغريب ، وسئل الاصمعى مــا معنى قــول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الجار أحق بسقبه) فقال : انــا لا أفسر حديث رسول الله صلى اللــه عليه وسلم ولكن العرب تزعم أن السقب : اللزيق • (2)

وأول من كتب فى غريب الحديث النضر بن شميل وأبــو عبيدة (3) معمر بن المثنى ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب • وقال ابــن الجزرى وهو يستفتح كتابه (النهاية فى غريب الحديث والاثر) ان هذه الكتب كانت فى أوراق ذوات عدد ــ يشير الى صغرها ــ الى أن جاء ابو عبيد القاسم ابن سلام فوضع كتابا فى غريب الحديث جمعــه فى اربعين سنة فرغب فيه أهل الحديث ، والفقه ، واللغة لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه ــ بــل كان رجال الحديث يستقرئونه عليه سعيا الى معرفة اللغة بخاصة ــ سأله يحيى ابن معين فى جماعة من المحدثين ان يقرأ عليهم غريب الحديث الذى اعــده للمأمون ، فجعل ابو عبيد يقرأ الاسانيد ويدع تفسير الغريب فقالوا لــه : دعنا والأسانيد ، نحن أحذق بها منك • (4)

---

(1) انظر فى هذه التقاسيم كتاب الكفاية فــى علم الروايــة للخطيب البغدادى • ومقدمة ابن الصلاح

(2) مقدمة ابن الصلاح 137

(3) الفهرست لابن النديم 77 ط الرحمانية ، 79 من الفهرست

(4) تاريخ بغداد 12 : 408

ثم صنف ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة كتابا فى غريب الحديث حذا فيه حذو ابى عبيد ، ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة فى كتاب ابى عبيد الا ما دعت اليه حاجة من زيادة شرح وبيان أو استدراك أو اعتراض وأشار فى مقدمته الى أنه تكملة لكتاب أبى عبيد فقال (... وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبى عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث وأن الناظر فيه مستغن به ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما ترك نحوا مما ذكر فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر وأرجو ألا يكون بقى بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال) . (1)

ومن الذين ألفوا فى غريب الحديث شمر بن حمدويه ، وأبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، وأحمد بن الحسن الكندى ، وأبو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ، وأبو سليمان حمد بن محمد ابن أحمد الخطابى البستى الذى نهج نهج أبى عبيد ، وابن قتيبة ، فكانت هذه الكتب الثلاثة أمثل الكتب ، يعنى كتاب ابى عبيد ، وكتاب ابن قتيبة ، وكتاب البستى .

وجمع ابو عبيد أحمد بن محمد الهروى غريب القرآن والحديث فى كتاب مقفى على حروف المعجم ووجه عنايته الى التعريف بالكلمة الغريبة لغة واعرابا ومعنى . وصف ابن الاثير كتاب الهروى فقال (... فلما كان زمن أبى عبيد أحمد بن محمد الهروى صاحب الامام أبى منصور الازهرى اللغوى ، وكان فى زمن الخطابى وبعده وفى طبقته صنف كتابه المشهور

---

(1) النهاية فى غريب الحديث 1 : 5

السائر فى الجمع بين غريب القرآن العزيز ، والحديث ، ورتبه مقفى على حروف المعجم على وضع لم يسبق فى غريب القرآن والحديث اليه • فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها ، وأثبتها فى حروفها وذكر معانيها ، اذ كان الغرض والمقصد من هذا التصنيف معرفة الكلمة الغريبة لغة واعرابا ومعنى ، لا معرفة متون الاحاديث والآثار وطرق اسانيدها وأسماء رواتها ••• ثم انه جمع فيه من غريب الحديث ما فى كتاب أبى عبيد ؛ وابن قتيبة وغيرهما ممن تقدمه عصره من مصنفى الغريب ، مع ما أضاف اليه مما تتبعه من كلمات لم تكن فى واحد من الكتب المصنفة قبله فجاء كتابه جامعا فى الحسن بين الأحاطة والوضع ••• فانتشر كتابه بهذا التسهيل والتيسير فى البلاد والامصار) •

وكتاب الهروى فى مجموعه معجم لغة افرد لغريب القرآن وغريب الحديث ، يقول الهروى فى مقدمة كتابه (فان اللغة العربية انما يحتاج اليها لمعرفة غريبى القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ، والصحابة والتابعين، والكتب المؤلفة فيها جمة وافرة ، وفى كل منها فائدة ، وجمعها متعب ، وحفظها عن آخرها معجز ••• وكنت أرجو أن يكون سبقنى الى جمعهما ، وضم كل شىء الى لفظه منهما على ترتيب حسن واختصار كاف ؛ سابق، فكفانى مؤونة الدأب وصعوبة الطلب ، فلم أجد أحدا عمل ذلك الى غايتنا هذه فاستخرت الله ــ عز وجل وتقدس ــ فيه وسألته التوفيق له ليكون تذكرة لنفسى مدى حياتى ، وأثرا حسنا لى بعد وفاتى ••• وكتابى هذا لمن حمل القرآن ، وعرف الحديث ، ونظر فى اللغة ثم احتاج الى معرفة غرائبهما) • (1)

---

(1) كتاب الغريبين لاحمد بن محمد الهروى 1 : 6 بتحقيق محمود محمد الطناحى ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

وكتب الزمخشرى كتاب (الفائق فى غريب الحديث) رتب غريبه على حروف المعجم فكتاب الهمزة يبدأ بالهمزة مع الباء ، ثم بالهمزة مع التاء الى آخر الحروف على هذا النسق الا ان الاستطراد اللغوى كان عنده اوسع ، كان يذكر الحديث ، ويفسر الكلمة التى اشار اليها الباب ثم يأخذ فى الكلام عن بقية الحديث فيتناول فيه الفاظا أخرى ثم يستطرد الى نظائر لها فى أحاديث أخرى .

وأفاد من هذه الكتب ابن الاثير الجزرى ووضع كتاب النهاية فى غريب الحدث والاثر وعنى فيه ببيان الفاظ الحديث ومعانيه وجعل الألفاظ مقدمة فى الرتبة على المعانى ، وقسم الالفاظ الى مفردة ومركبة ، والمفردة الى عام يشترك فى معرفته الجمهور ، وخاص يشتمل على الغريب الحوشى وهو اولى بالعناية من غيره ـ وجاء من بعده جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فلخص كتاب ابن الاثير وسماه (كتاب الدر النثير) .

لهجات القبائل

وثمة مطلب آخر ، هو الكشف عن الوجه الاقليمى لبعض الالفاظ والعبارات ، واذا كانت الفوارق بين الحجازية والتميمية قليلة نسبيا فان الفوارق بين اليمنية والنزارية كانت أكثر تفاوتا حتى قال ابو عمرو بن العلاء : (ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) . (1) وهو رأى ابن جنى ايضا حيث يقول: (لسنا نشك فى بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار) (2) ويدلل على ذلك بخبر يقول فيه : (دخلت يوما على ابى

(1) طبقات فحول الشعراء 11

(2) الخصائص 1 : 386

على ـــ رحمه الله ـــ خاليا فى آخر النهار. فحين رآنى قال لى : أين أنت ؟ أنا أطلبك . قلت وما ذلك ؟ قال : ما تقول فيما جاء عنهم من حَوْريت ؟ فخضنا معا فيه ، فلم نحل بطائل منه ، فقال : هو من لغـــة اليمن ومخالف للغة ابنى نزار (1) والاصمعى يحكى أن رجلا مـــن العرب دخل على ملك ظفار ، فقال له الملك : (ثب) فوثب الرجل ، واندقت رجلاه ، فقال الملك : ليست عندنا عربيَّت ، من دخل ظفار حمّر . (2)

اما ما جاء من ذلك فى الحديث ففى مثل رد النبى صلى الله عليـــه وسلم على وفود اليمن ـــ فقد جاء مالك بن نمط فى وفد همدان فقال :

(يا رسول الله ، نصية من همدان ، من كل حاضر وباد ، اتوك على قلص نواج ، متصلة بحبائل الاسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، مـــن مخلاف خارف ، ويام ، وشاكر . عهدهم لا ينقض عـــن سنة ماحـــل ، ولا سوداء عنقفير ما أقام لعلع ، وما جرى اليعفور بصلع) . (3)

فكتب النبى صلى الله عليه وسلم (هـــذا كتاب مـــن محمد رسول الله الى مخلاف خارف وأهل جناب الهضب ، وحفاف الرمل مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها

---

(1) الخصائص 1 : 387

(2) الخصائص 2 : 28

(3) القلص النواج = الابل السريعة ـــ والماحل = الساعـــى بالنميمـــة ، والمحل = السعاية من ناصح وغير ناصح، وهو ايضا المكر والكيد ـــ والعنقفير = الداهية من دواهى الزمان. لعلع = اسم جبل، اليعفور = الظبى الذى لونه كلون العفر وهو التراب وقيـــل الظبـــى عامة ، صلع = الصلعاء من المال ما ليس فيها شجر ، وقيـــل هـــي الارض الجرداء عامة .

ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها ويرعون عفاها ، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثلب ، والنـــاب ، والفصيل ، والفارض الداجــن ، والكبش الحورى ، وعليهم الصالــغ ، والقارح) (1) واليك ما أثبته القلقشندى فى شرح غريبه :

(الفراع بالكسر : جمع فرعــة ، وهو مــا ارتفــع مــن الارض ــ والوهاط : جمع وهطة وهو ما اطمأن من الارض ــ والعلاف بالكسر جمع علف كجبل وجبال ، والمراد ما تعتلفه الدواب من نبات الارض ــ والعزاز : ما صلب من الارض واشتد وخشن ويكون ذلك فى أطرافها ــ والعفــاء العافى : وهو ما ليس لأحد فيه ملك ، من قولهم : عفا الأثــر اذا درس ــ والدفء : نتاج الابل وما ينتفع به منها سمى دفئا لأنه يتخذ من أوبارهــا ما يستدفأ به ، والمراد هنا الابل والغنم ــ والصرام : النخل ، وأصله قطع الثمرة ــ والثلب من ذكور الابل : الذى هرم وتكسرت أسنانه ــ والناب المسنة من اناثها ــ والفصيل من أولاد الابل : الذى فصل عــن أمه مــن الرضاع ــ والفارض : المسن من الابل ، والمراد أنــه لا يؤخــذ منهم فى الزكاة ــ والداجن: الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم ــ والكبش الحورى : منسوب الى الحور وهى جلود تتخذ من جلود الضــأن ، وقيل : هو مــا دبغ من الجلود بغير القرظ ــ والصالغ : بالصاد المهملة والغين المعجمــة : وهو من البقر والغنم الذى كمل وانتهى ويكون ذلك فى السنة السادســة ويقال بالسين بدل الصاد ــ والقارح : الفرس الــذى دخــل فى الســنة الخامسة) . (2)

---

(1) العقد الفريد 2 : 32 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر

(2) صبح الاعشى للقلقشندى 6 : 375

وكتب صلى الله عليه وسلم الى وائل بن حجر ، وأهل حضرموت :

(من محمد رسول الله الى الاقيال العباهلة من أهل حضرموت باقامة الصلاة وايتاء الزكاة . على التيعة الشاة ، والتيمة لصاحبها ، وفى السيوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ، ولا شناق ، ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام) .

وذكر القاضى عياض فى (الشفاء) أن كتابه لهم :

(الى الأقيال العباهلة ، والارواع المشابيب ، وفى التيعة شاة لامقورة الألياط ، ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفى السيوب الخمس ، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاما ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالاضاميم ، ولا توصيم فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال . (1)

واليك ما جاء فى شرح غريبه مما ذكره القلقشندى ، وما جاء منه فى جمهرة اللغة لابن دريد ولسان العرب لابن منظور :

الاقيال : جمع قيل وهو الملك، وقيل هم ملوك حمير بخاصة ، والتيعة اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان كالخمس من الابل ، والأربعين من الغنم ، والتيمة : الشاة الزائدة على الاربعين حتى تبلغ الفريضة الاخرى ، وقيل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى منزله يحلبها وليست بسائمه ، والسيوب : الركاز اخذا من السيب وهو العطاء قاله ابو عبيدة ويقول ابن دريد : هو العطاء ثم كثر حتى سميت الكنوز سيوبا ، وقيل هى عروق الذهب والفضة التى تسيب فى المعدن ، وقال الزمخشرى : هى جمع سيب ، يريد به المال المدفون فى الجاهلية ، أو المعدن لأنه من فضل الله

---

(1) صبح الاعشى 6 : 371

تعالى على من أصابه ــ والخلاط : مصدر خالط ، والمراد أن يخلط الرجل ابله بابل غيره أو بقره أو غنمه ليمنع حق الله تعالى فيها ــ والوراط : أن تجعل الغنم فى وهدة من الارض لتخفى على المصدق مأخوذ من الورطة وهى الهوة من الارض ــ والشناق : المشاركة فى الشنَق (بفتح النون) وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة •

وفى أجبى : قيل هو بيع الزرع قبل بدو صلاحه ، وقيل هو أن يغيب ابله عن المصدق أخذا من أجبأته اذا واريته ، وقيل : هو أن يبيع من الرجل سلعة بثمن معلوم الى أجل معلوم ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذى باعها به ــ والمشابيب : السادة الرؤوس ، الزهر الألوان ، الحسان المناظر ، واحدها مشبوب ــ والمقورة الألياط : المسترخية الجلود لهزالها . والألياط : جمع ليط وهو قشر العود ــ والضناك : السمين الكثير اللحم ، والمراد أنه لا تؤخذ المفرطة فى السمن كما لا تؤخذ الهزيلة وأنطوا : لغة فى أعطوا ، لغة اليمن ــ الثبجة : الوسط ، ليست من خياره ولا من رذالته ، وثبجة الناقة ما بين الكاهل الى الظهر •

ومم بكر، جرى فيه على لغة اليمن حيث يبدلون لام التعريف ميما ــ والأضاميم : هى الحجارة ، واحدها اضمامة ، والمراد : ارجموه بالحجارة والتوصيم : الفترة والتوانى ــ ويترفل : أى يسود ويترأس ، استعارة من ترفيل الثوب وهو أسباغه وارساله •

وقد تلحظ فى بعض الكلمات صياغتها على طريقة أهل اليمن كابدال النون من العين فى أنطوا ــ أى أعطوا ــ وابدال لام التعريف ميما كما فى قوله مم بكر وكما جاء فى حديث آخر (ليس من امبر امصيام فى امسفر) • نقول الى جانب هذه الخواص فى لغة اليمن فان الكلمات التى

أخذت سمتها فى العربية عامة ، يبدو أنها كانت يمنية الاصل ايضا ، يدلك على ذلك وقوف علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه امام كلمات النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى نهد وقوله له (نحن بنو أب واحد ونـراك تكلـم وفود العرب بما لا نفهم أكثره) (1) ، وكذلك كان اللغويون الذين عرفوا بغريب هذه الاحاديث كانوا يحتجون لاكثرها بما ورد منها فـى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم كما هو واضح فى جمهرة ابـن دريد ، ولسان العرب لابن منظور ولو جاءت وافرة فـى الشعر العربـى لاحتجوا بـه كعادتهم .

وفى هذه النماذج نلمح من غريب الالفاظ ما لا يصل الى حد الفصل بين النزارية واليمنية كما يبدو فى حديث أبى عمرو بن العلاء ، وانما يقربنا الى مفهوم آخر هو انه خلاف بين اللهجتين يصعب معـه التفاهم بين نزارى ويمنى ، أو يفهم بعضه ويستغلق بعضه .

والرأى عندى يحتاج الى بيان وجوه ثلاثة :

اولا ــ اولئك الذين خرجوا من اليمن وعاشوا فى الشمال .

ثانيا ــ الذين استقروا فى بلاد اليمن فى ظل حكومة ثابتة .

ثالثا ــ سكان المناطق المتطرفة فى حضرموت ، والشحر ، وجزيـرة سقطرة .

فأما الذين خرجوا الى الشمال كالاوس والخزرج وقضاعة وطىء الى غير ذلك فقد تحدثوا العربية التى يتحدثها أهـل الشمال ، وشب شبابهم ، وتعاقبت عليهم الاجيال ولم تختلف لغاتهم عن لغات أصحابهم الا بما يفرضه

---

(1) النهاية فى غريب الحديث والاثر 3

التأثر والجوار مع لغات أخرى ، وهذا ما يعنيه الجاحظ بقوله (العـرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والاخلاق والشيم واحدة، واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الاخلاق وفي الاعراق ، ومن جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء • فهم فـي ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل ، والمرعى والرايـة ، والصناعة والشهوة) • (1)

والقرطبي عندما يعرض لتفسير حديث رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم : (ان هذا القرآن أنزل علـى سبعة أحرف فاقرأوا مـا تيسر منه) يقول : قال قوم هي سبع لغات في القرآن ، فبعضه بلغـة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن (2) • فاليمن كما ترى قسيمة القبائل العربية الاخرى ، والتي نزل القرآن بلغاتها •

وذكر الشعر عند عبد الملك فقال : اذا أردتم الشعر الجيـد فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة ، وهم رهط أعشى بكر ، وبأصحاب النخل من يثرب — يريد الاوس والخزرج — وأصحاب الشعب مـن هذيل (3) وهكذا جمع عبد الملك ربيعة ممثلة في الزرق مـن بني قيس بـن ثعلبة ، واليمن في الاوس والخزرج ، ومضر في أصحاب الشعب من هذيل •

ولدينا من قبائل اليمن كبار الشعراء واللغويين مـن أمثـال امرىء القيس ، وعمرو بن معد يكرب ، ويزيد بن مفرغ الحميري ، ودحية الكلبي،

---

(1) البيان والتبيين 3 : 247 بتحقيق السندوبي ، 3 ، 291 بتحقيـق عبد السلام هارون

(2) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي 1 : 43

(3) العقد الفريد 5 : 273

وجميل بن عبد الله بن معمر صاحب بثينة من بنى عذرة من قضاعة ، وحاتم الطائى ، وزيد بن مهلهل الطائى المعروف بزيد الخيل ، والمنذر بـــن حرملة الطائى ، وكثرة وافرة مـــن الشعراء • ومـــن اللغويين الخليل بـــن احمد الفراهيدى ، وابن درَيد الازدى • وعـــلى هذا فأبو عمرو لا يعنى هؤلاء الذين خرجوا من اليمن وعاشوا فى انحاء متفرقة من الجزيرة •

الذين استقروا في بلاد اليمن

من المعروف أن اليمن كانت أكثـــر استقرارا وتحضرا مـــن الحجاز ونجد ، فتكونت فيها الحكومات ، وثبتت فيهـــا اللهجات تبعـــا لاستقرار الحكم ، فسادت لهجة السبئيين اولا بعد انتصارهم عـــلى دويلات اليمن ، وظلت كذلك بعد أن انتزع الاحباش الحكم سنة ٣٧٥ م لأن الاحباش لم تساندهم فى تثبيت حكمهم ديانة تستند الى لغـــة معينة ، وظلت السبئية تقاوم الغزو الحبشى حتى سنة ٤٠٠ م اذ تولى الحكم والسيطرة على البلاد أسرة حميرية يلقب ملوكها بالتبابعة ، وبالرغم من عودة الاحباش مرة ثانية ابان حكم ذى يزن ، ثم تغلب الفرس علـــى بـــلاد اليمن فان الحميرية ظلت باقية وسط هذه التقلبات • هذه الحميرية كانت تتأثر بالعربية وخاصة بعد ظهور الدعوة ، على تفاوت ، بالنسبة للمناطق الجغرافية فتلك التى يسهل الوصول اليها غير تلك المناطق المحصورة التـــى بقيت بعيدة عـــن التأثـــر بالعربية وان اعتنق اهلها الاسلام •

والامر أكثر من هذا بالنسبة للمناطق النائية على حدود اليمن فاللهجه الحضرمية السائدة حول حضرموت قريبة من العربية الا انهم يقلبون كاف الخطاب شينا فيقولون قلمش وكتابش فى قلمك وكتابك ، ويستعملون الباء قبل الفعل المضارع للدلالة على زمن المستقبل ، فيقولون : غـــدا باذهب ، بدلا من سوف أذهب ، ويقلبون الجيم يـــاء أحيانا فيقولون ريـــال وهم يقصدون رجال •

وفى منطقة شرقى حضرموت تسود اللهجة المهرية ، وشرق المنطقة المهرية توجد لهجة الشحر .كما توجد اللهجة السقطرية فى جزيرة سقطرة وكلها تبعد عن العربية .

والهمدانى الذى كان يقيس فصاحة لهجات القبائل بقربها أو بعدها عن لهجة قريش يقول : فأهل الشحر ، والاسعاء ليسوا بفصحاء ـ ومهرة غتم يشاكلون العجم ـ وحضرموت ليسوا بفصحاء وربما كان فيهم الفصيح ، وسرو حمير وجعدة ليسوا بفصحاء وفى كلامهم شىء من التحمير ، وأهل عدن مولدة ردية ... وسافلة المعافر غتم ، وجبلان فى لغتهم تعقد . (1)

وبعد

فهذا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ـ اذا توقف اللغويون عن الاحتجاج به لشوائب روايته ، واشتراك الاعاجم فيها ، فانه لم يخل من نفع جليل للعربية بما منحها من سعة فى سياق شروحه ، وحسبك من تثبت أن تجد اكثر الشارحين للحديث هم من كبار اللغويين منهم : ابو عبيدة ، والنضر بن شميل ، وقطرب ، وابو عبيد القاسم بن سلام ـ وكان من تمام النفع أن نجد انفسنا ـ ونحن نمعن النظر فى حديثه صلى الله عليه وسلم الى الوفود ـ نجد انفسنا مستطردين الى الكلام عن لغات اليمن والفروق بين جهاتها القريبة من بلاد ابنى نزار ، وما نأى عنها وبعد .

---

(1) تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على 2 : 279

الباب الثالث

الشِّعْرُ



الفصل الأول

الشعر الجاهلي

دور الشعر والشاعر في الجاهلية

كانت القبيلة وحدة العالم العربى القديم ، مجموعة من أفراد يرتبطون بالقرابة ، وهى بذلك اسرة كبيرة لها نظامها الذى يجعل منها وحدة سياسية كما هى وحدة اجتماعية ، يصرف شئونها سيد من ساداتها ، معروف بخبرته وشهامته وكرمه ينزل من نفوسهم منزلة الأب لا الحاكم فضلا عن سلطانه المطلق فى ادارة شئون القبيلة ، يدينون له بالطاعة تحت شعارهم المألوف : انصر أخاك ظالما او مظلوما ، او كما يعبر عنه أحدهم بقوله :

وهل انا الا من غزية ان غوت
غويت ، وان ترشد غزية أرشد

وبالجملة ، فقد كانت العصبية هى الدعامة الكبرى التى ترتكز عليها مقومات القبيلة •

وعلى هذه الصورة البعيدة عن التعقيد كانت حياة العرب في جاهليتهم ، وكانت الكتابة لا تلح عليها ضرورة طبيعية في ذلك النظام الاجتماعي ، فالكتابة تسير في خط مطرد مع التحضر ، فهي الوسيلة الى تنظيم الدواوين ، وتقسيم الارزاق ، وجباية المكوس ، وحصر التجارة وارباحها ، وتقييد الاحداث ، وتقنين الظواهر ، ولذلك ترى قلب الجزيرة لا يعتمد اعتمادا أصيلا على الكتابة في الوقت الذي كانت فيه معروفة عند التبابعة جنوبا والمناذرة والغساسنة في الشمال .

وبالرغم من ان المكيين كانوا يصطنعون التجارة يرحلون بسببها الى أطراف الجزيرة مكتسبين حظا من المعرفة ، وبالرغم من وجود المدارس عند يهود المدينة ، فان الكتابة ظلت قاصرة على بضعة عشر انسانا من قريش ؛ وقلة من الأوس والخزرج ، ولم ترتق الكتابة الى الدرجة التي نعول عليها في استكناه الشعر الجاهلي .

وحيث عزت الكتابة ، كانت المشافهة والرواية هي السبيل الى الحفاظ على ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ، ومن حسن الحظ ان فن القول قد احتل مكانا هاما في نفوس العرب حتى كانت الحاسة اللغوية من أدق حواسهم وأرهفها ، وكان الشعر اصبر هذه الفنون على البقاء بسبب وزنه وقافيته .

وكان اصحاب الشعر من منشئيه ، ورواته ، ومتذوقيه يمثلون الطبقة المستنيرة في القبيلة ، والشاعر على رأس هؤلاء جميعا يتبوأ من القبيلة مكانا رفيعا ، ويحس في نفسه — وقد اعطى العقل والشاعرية — انه من أماثلهم وعقلائهم ، وخير ما يصور لنا هذه المنزلة ما يحكيه صاحب السيرة عن الطفيل بن عمرو الدوسي حين حذره رجال قريش من سماع النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يتأثر بما يسمع ، قال الطفيل :

« ... فوالله ما زالوا بى حتى اجمعت الا اسمع منــه شيئــا ، ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا (الكرسف هو القطن) فرقا من ان يبلغنى شىء من قوله وأنــا لا أريــد أن أسمعه . قال : فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة ، قال : فقمت منه قريبا، فأبى الله الا أن يسمعنى بعض قوله ، قال : فسمعت كلاما حسنا ، قال : فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، واللــه انى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن اسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى بــه حسنا قبلتــه ، وان كان قبيحا تركته .....) (1) فانظر كيف يستمد الثقة من صفته كشاعر .

والاقوال فى بيان مكانة الشاعر فى القبيلة كثيرة معادة لعل أكثرها استلفاتا للنظر ما يروى من انهم كانوا اذا نبغ فيهم شاعر أقاموا المآدب ، وجاءت افراد القبائل الاخرى مهنئــة ، وقامت النسوة يضربن بالمزاهــر والدفوف (2) ولا تعجب أن ترى الشاعر يتبوأ فى القبيلة مكــان الرياسة بعد الشيخ ، أو يكون هو الشيخ بذاته ، فقد كان يحمل على كتفيه عبء الذود عن القبيلة من اشادة بها أو امتهان اعدائها اذا كانت محتربة وكثيرا ما تكون كذلك ، وهو أيضا صوتها المعبر ، وهاديها ومضلها ، احتربت أو سالمت .

وبسبب من مكانة الشاعر تطلع أبناء القبيلة الى هذه المنزلة فتلمذوا لشاعرها ولازموه، ونجح منهم من اوتى الموهبة ونماها بالدربة والمران . يروى شعره كأنه النسخةالثانية من كتابالقبيلة، وتدور فى مسامعهالالفاظ، ثم لا يقتصر امر الرواية على الشاعر والراوية الذى كان يلازمه ، وانما الى

---

(1) السيرة لابن هشام 1 : 407 — 408 ط حجازي سنة 1937

(2) المزهر للسيوطى 2 : 473

جانب ذلك افراد من القبيلة يهفون الى ترديد الشعر قصدا للمتعة الفنية، ثم من وراء ذلك جمهور القبيلة المستحسن المتذوق الذى يسمع هذا الفن فيطرب له أو يهتز ويردده ان شاء أو يكتفى بسماعه وكأن الشعر شغلهم الشاغل فى جدهم الجاد المتجهم وفى لهوهم المرح الهازل ، وهم ان استحسنوا قطعة منه أو قصيدة من القصائد تعبر عن امجادهم وغلبهم توارثوها فى الاعقاب ورددها خالف عن سالف • انشأ عمرو بن كلثوم التغلبى قصيدة ينذر فيها عمرو بن هند لميله الى بكر ، ويوعد البكريين وثوب بنى تغلب عليهم ، وكانت غاية فى الفخر ، وظل بنو تغلب يعظمونها فيرويها صغيرهم وكبيرهم حتى القرن الثانى لظهور الاسلام فقال أحد الشعراء يهجوهم :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة
قصيدة" قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم
يا للرجال لفخر غير مسئوم (1)

ولقد كان هذا التجاوب بين الشاعر وأفراد القبيلة من الحوافز الى قول الشعر ثم الى روايته والحفاظ عليه داخل القبيلة، وكما أعد شعر الفخر لتحميس شباب القبيلة فقد أعد ايضا ليسمعه افراد القبائل الاخرى ليؤتى غرضه فى الفخر وتسمو به القبيلة على اعدائها ، والى جانب هذا اللون شعر آخر يقصد به ذكر مثالب الاعداء ، وكانت القبائل تحرص على اذاعته خارج القبيلة وتتلمس لذلك مناسبة كموسم الحج أو الاسواق •

وكانت الأسواق تعمر بالبائعين لأسباب المعيشة فلا يكاد يجمعهم

(1) الاغانى 12 : 54 ط دار الكتب

السوق حتى يأخذ الفن مكانه فيها وليس لهم كما نعلم فـن أرقى من فـن القول فتراهم يشبعون نزوعهم اليه بقصيدة يفخرون بهـا أو يهجون بهـا أعداءهم ، أو يعرضون هناك مـا جادت بـه قرائحهـم أو يتخاصمون أو يتنافرون أمام حكم يحكم بينهم أيهم أشعر ــ وقد أشارت كتب النقد الى مواقف متقدمة فى هذا الفن أخذت تثير اعجاب المطمئن الى الشعر الجاهلى كما أخذت تثير الشكوك عند غيرهم ، فلقد استبعد النقاد رواية ابى الفرج فيما ذكره النابغة الذبيانى لحسان بن ثابت عندما أنشده :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دمـا

ولدنا بنى العنقاء وابنى محـرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنـا ابنما

قال النابغة : انك لشاعر ، لولا أنك قللت عدد جفانك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ــ وفى رواية أخرى ــ أنـك قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت يلمعن فى الضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلـغ فى المديح لان الضيف بالليل أكثـر طروقا وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتل ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الـدم . (1)

ولدينا أحكام تشير الى مثل هذا المبلغ من النقـد صدرت عـن أم جندب حين احتكم اليها زوجها امرؤ القيس فيما تبارى فيه مـع علقمة بن عبدة فقالت : قولا شعرا تصفان فيه الخيل على روى واحد ، وقافية واحدة فقال امرؤ القيس :

---

(1) الاغانـى 9 : 340

خليليّ مرا بــى على أم جندب
لنقضى حاجــات الفؤاد المعذب

وقال علقمـــة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب
ولم يك حقــا كل هــذا التجنب

ثم انشداها جميعا ، فقالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك ، قال وكيف ذاك ؟ قالت : لانك قلت :

فللسوط الهــوب وللســاق درة
وللزجر منه وقــع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك ، وقال علقمة :

فأدركهــن ثانيــا مــن عنانــه
يمــر كمــر الرائــح المتحلــب (1)

فأدرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ولا زجره (2) ولكن المنهج العلمى والتعليمى الذى سلكه الشعــر العربى فى الجاهلية وظهور الحكمة فى شعر زهير ، والمعانى الرقيقة فى اعتذاريات النابغة ، والمنطق الرصين فى معلقة طرفة بن العبد مــع حداثة سنه ، كــل اولئك قد يعينك على فهم المنزلة التى احتلها الشعــر الجاهلى ، والتى لا يبعد معها أن ترى نقدا رفيعا كنقد النابغة لأبيــات حسان ، وأم جنــدب لشعر امرىء القيس .

---

(1) الرائح المتحلب = السحاب المتتابع
(2) الشعر والشعراء 1 : 170 — 171

ومن الاخبار التى تدل على عنايـة الجاهليين بمدارسـة الشعـر ، والتلمذة لاوائل الشعراء وأماثلهم مـا يقوله القاضى الجرجانى فى كتاب الوساطة « وقد كانت العرب تروى وتحفظ ويعرف بعضها بروايـة شـعر بعض كما قيل ان زهيرا كان راوية أوس ، وان الحطيئة راوية زهير ، وان أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جويرية فبلغ هؤلاء فى الشعر حيث تراهم » (1)

وربما علقت ــ بسبب هذا الاتصال ــ أو تسلسل الرواية ــ بعض معانى السابقين فلم تجد فكاكا من هذا الاسار فيمـا يصدر مـن الاشعار فجاءت كلها أو بعضها فى قصيدهم فمن ذلك قول امرىء القيس :

وقوفـا بها صحبى عـلى مطيهم
يقولـون لا تهلك أسى وتجمـل

فظهر فى معلقة طرفة بن العبد على النحو التالى :

وقوفـا بها صحبى عـلى مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلـد

وقال امرؤ القيس يصف فرسا :

ويخطو على صم صلاب كأنهـا
حجارة غيـل وارسات بطحلب

فأخذه النابغة الجعدى فقال :

كـأن حواميـه مدبـرا
خُضِبْن وان كان لـم يخضب
حجـارة غيـل برضراضـة
كسين طـلاء مـن الطحلب

(1) الوساطة بين المتنبى وخصومه 15 ط مصر سنة 1945

وقال امرؤ القيس يصف فرسا :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا

له حجبات مشرفات على الفـــال

فأخذه كعب بن زهير فقال :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا

كأن مكان الردف من ظهره قصر

كما اقتبسه النجاشى أو عاق بذهنه فقال :

أمين الشظا عارى الشوى شنج النسا

أقب الحشا مستذرع الندفان (1)

وعدد ابن قتيبة أمثلة على هذا النحو أفاد منها زهير ، وطرفة . وزيد الخيل ، والنجاشى ، والنابغة الجعدى (2) وهـــذا لا يتأتـــى الا نتيجـــة دراسة ، ورواية ، وروية ، واختيار المحسن من الاشعار ، ولقد عبر الرواة عن سبق امرىء القيس وافادة الشعراء من شعره فقال ابو عبيدة : (هـــو أول من قيد الأوابد يعنى فى قوله (قيد الاوابد) فتبعه الناس على ذلك) وقال غيره هو اول من شبه الثغر فى لونه بشوك السيال فقال :

منابتـــه مثـــل السدوس ولونه

كشوك السيال وهو عذب يفيص

فاتبعه الناس ، وأول من قال (فعادى عداء) فاتبعه النـــاس ، وأول من شبه الحمار (بمقلاء الوليد) وهو عود القلة و (بكر الاندرى) وشبه الطلل (بوحى الزبور فى العسيب) والفرس (بتيس الحلب) (3) .

(1) اى سريع رجع اليدين

(2) الشعر والشعراء 1 : 77 — 82

(3) الشعر والشعراء 1 : 82 — 83 قال الاصمعى : لا أدرى ما يفيص. قال ابن برى يفيص يبرق وقيل يتكلم . يقال فاص لسانه بالكـلام ابانه (اللسان)

ومن الذين سبقوا فى المعانى وأذادوا بها لاحقيهم أوس بن حجر ، وزهير ، والنابغة ، والمسيب بن علس ، وطرفه وغيرهم . (1)

والذين يقراون هذا الاقتباس والذى صدر فى مؤلفات تحت اسم السرقات الشعرية لا بد وأن يسألوا انفسهم : ماذا كانت لغة الشعر الجاهلى ؟ هل كانت تتجاوز لهجات القبائل ؟

الفرض القريب انها كانت اللغة الخاصة التى كانت تلقى فى الاسواق فيفهمها العرب على اختلاف لهجاتهم ، ويفهمون دقائقها ، ويدركون وجوه الجمال فيها على النحو الدقيق الذى ظهر فى نقد النابغة وأم جندب .

وكانت الاسواق تعقد على مدار السنة فلا تكاد تنفض سوق حتى تعمر أخرى ، ويجتمع الناس من كل حدب وصوب ومن كل قبيل ، بعضهم للبيع والشراء ، وأكثرهم لأغراض شتى ، والصور التى تخبرك بها كتب الادب عن عكاظ تدلك على أن فن القول قد احتل النصيب الأوفر فى السوق . (2)

ـ رجل يخطب ويعظ بنثر مسجوع وقصيد عذب والناس آذنون له وقد استحوذ على حواسهم ومشاعرهم وهو يقول :

(أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ـ ليل داج ، وسماء ذات ابراج ، بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام ، وبر وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا

---

(1) انظر الشعر والشعراء على التوالى 158 — 95 — 120 — 127 — 143

(2) راجع ما كتبناه عن الاسواق فى كتابنا (رواية اللغة) ص 41 وما بعدها

فناموا ؟ واله قس بن ساعدة ما على وجه الارض دين أفضل مـن دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ؛ فطوبى لمن أدركه ، وويل لمن خالفه ، ثـم أنشأ يقول :

فـى الـذاهبين الاولـ ين من القرون لنـا بصائـر
لمـا رأيـت مـواردا للموت ليس لهـا مصـادر
ورأيـت قومـى نحوهـا يمضى الاصـاغر والأكابـر
ايقنـت أنـى لا محـا لة حيث صار القوم صائـر (1)

ـ ورزئت الخنساء بفقد والدها عمرو بن الشريـد وبأخويها صخر ومعاوية فلم تجد عزاءها الا أن تنزل الى السوق فى كل عـام تعاظم العرب بمصيبتها فى شعر يفتت الأكباد .

ـ وأنشأ عمرو بن كلثوم التغلبى قصيدته :

الا هبى بصحنك فاصبحينـا

وأراد لها أن تسير فى الناس فألقاها فى عكاظ ثم فى موسم الحج . (2)

ـ وقد يتوعد الشاعر صاحبه باللقاء أهاجيه فى عكاظ كما فعـل أمية ابن خلف الخزاعى بحسان بن ثابت حين أنشد :

الا مـن مبلـغ حسـان عنـى
مغلغلـة تـدب الـى عكـاظ
اليس ابـوك فينـا كان قينـا
لدى القينات فسلا فى الحفـاظ (3)

---

(1) الاغانى 4 : 14 ط التقدم
(2) الاغانى 4 : 210 وما بعدها
(3) المعلقات 25 ط حجازى سنة 1353 هـ

فيجيبه حسان :

أتاني عن أمية زور قول
وما هو بالمغيب بذى حفاظ

سأنشر ان بقيت لهم كلاما
ينشر فى المجامع من عكاظ (1)

هذه لمحات مما كان يجرى فى الاسواق لم نشأ أن نستوفى صورها، ولم نتعمد ذكرها لطرافتها ، وانما لنسبب القول بأن لغة الشعر هى اللغة الادبية المنتقاة الخالية من اللهجات الخاصة ، مثلها فى ذلك كمثل عربيتنا الفصحى فى ايامنا هذه والتى يلتقى عندها العراقى ، والحجازى ، والشامى ، والمصرى ، والمغربى فيدرك أحدهم قول صاحبه ، ويتعرف وجوه الجمال فيه ويضعه فى الدرجة المناسبة من الفصاحة فاذا تكلم كل بلهجته الخاصة استغلق الامر .

ولقد وجد الاستاذ نلينو فى اذاعة الاشعار بين القبائل سببا من اسباب وحدة اللغة فقال : (ولولا الشعر الذى نشأ فى نجد ، ثم شاع فى سائر انحاء جزيرة العرب الشمالية لما تهيأت قبل الاسلام وحدة اللغة الادبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم) (2) ولهذا كان القصيد العربى فى العصر الجاهلى من أهم الموارد التى استقى منها اللغويون مادة العربية .

---

(1) ديوان حسان 65 ط مصر سنة 1332 هـ

(2) تاريخ الاداب العربية لكارل نلينو 78

تاريخ الشعر

نؤمن بوجود حقبة طويلة عفى عليها الزمن استنادا الى منطق الاشياء، فالآثار الأدبية التى وصلت الينا حين استطاعت الرواية أن تتعقبها . وصلت كاملة مبنى ومعنى وهذا الكمال لا يتأتى الا نتيجة تطور على مدى آجال بعيدة ، وعبّر عن ذلك المستشرق الايطالى كارل نلينو عند تقسيمه للعصور الادبية فبدأها بالعصر الجاهلي وعرفه بأنه المنتهى من زمان لا تدرك أوائله الى ظهور الاسلام وهو عصر عربى صريح لغة وأدبا وبلادا .

ويتصور ابن رشيق وهو يسنطق لمولد الشعر بأن الكلام كله كان منثورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها .... لتهز انفسها الى الكرم ، وتدل ابناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم قد شعروا به أى فطنوا (1)

وابن رشيق حين تصور نشأة الشعر العربى على هذا الوجه لم يشارك اولئك الذين جهدوا فى تأريخه ، ولم يشر الى الزمن الذى توهم فيه العرب هذه الأعاريض التى جعلوها موازين الكلام ، ولم يفتق وجوه الاحتمالات كما صنع نلينو حين سأل هذه الاسئلة :

ــ كيف نشأ الكلام الموزون المقفى ؟

ــ أكان الشعر اولا ذا وزن معين وقافية ؟

ــ وما أصل الوزن والقافية ؟

---

(1) العمدة 1 : 5 ط القاهرة سنة 1925 م

ــ وكيف توصل العرب الى اختراع القصيدة على نمطهـا الكامـل المتقـن ؟

ــ ولماذا جعلوا النسيب أول القصيدة ؟

ــ وهل كانت لغة الاشعار لغة واحـدة ؟

ــ وكيف تكونت هـذه اللغـة ؟

ــ وعلى أي وجه وصلت أشعار الجاهلية الينا ؟ أيجوز لنـا أن نثق بصحة روايتها ؟ ، وأن نعتمد عـلى الحكايات المرويـة لشـرح الابيات القديمة ؟ (1)

لم نجد فيما كتبه ابن رشيق ما يساعدنا على اجابـة اسئلة وشكوك المستشرق نلينو الا ما فهمناه من أن الشعر كان توهما لأعاريض جعلوهـا موازين الكلام حين احسوا أنهم بحاجة الى التعبير عـن شيء غير عادي . وكان ابن سلام قد وضع امامنا بداية تصلح لمجـرد التأمل واعمال الفكر فمن ذلك اشارته لأول شعر مكتوب كان عند النعمان بن المنذر فيه اشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به ، وأنـه صار الى بنـي مروان أو صار منه (2) وجاء مثل هذا الخبر فيما نقله ابن جني بسنده عـن حماد الراوية قال : (أمر النعمان فنسخت لـه أشعـار العرب في الطنـوج ــ يعنـي الكراريس ــ فكتبت له ثم دفنها في قصره الابيض فلما كان المختار بـن أبي عبيد قيل له : ان تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الاشعار) (3)

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية 55.

(2) طبقات فحول الشعراء 23 ط دار المعارف

(3) اللسان مادة ط ن ج

اما محتويات هذا الديوان وهذه الطنوج فظلت فــى عالم الظنون . ولــم نستفد من هذه الاخبار ان صحت ــ الا وجود آثار شعرية مكتوبة الــى عهد النعمان بن المنذر ، وقد توفــى النعمان سنة **28** قبل الهجرة وبالطبع فان الاشعار التى لم تدون كانت قبل ذلــك بكثير ولا زال تاريخ الشعــر الجاهلى يحتاج الى تنقيب .

يقول ابن سلام الجمحى ايضا (ولم يكــن لأوائل العرب من الشعر الا الابيات يقولها الرجل فى حادثة ، وانما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ويذكر من قديم الشعر قول العنبر ابن عمرو بن تميم وكان جاور فى بهراء فرابه ريب فقال :

قد رابنى مــن دلوى اضطرابها
والناى فــى بهراء واغترابهــا
الا تجىء ماذى يجــىء قرابهــا

ومن قديم الشعر أيضا ــ كما يقول الجمحى ــ مــا كان بــين سعد ومالك ــ ابنى زيد مناه بن تميم ــ فقد تزوج مالك النوار بنت جل بــن عدى ، فلما اهتداها مالك اى اعرس بها ، خرج سعد فى الابل ثم أوردها لظمئها ، ومالك فى صفرة فاراد القيام فمنعته امرأتــه مــن القيام ، فجعل سعد وهو مشتمل يزاول سقيها ولا يرفق فقال مشيرا الى أخيه :

يظــل يــوم وردهــا مزعفــرا
وهــى خناطيل تجوس الخضرا

فقالت النوار لمالك : الا تسمع ما يقول أخوك ؟ أجبه . قــال : فما اقول ؟ قالت : قل :

اوردهــا سعد وسعد مشتمــل
ما هكــذا تورد يا سعد الابــل

الى غير ذلك من مقطعات قصار لا تشير الى اكثر من قول ابن سلام (لم يكن لاوائل العرب من الشعر الا الابيات يقولها الرجل فى حادثة) (1) ولا زالت بقية الاسئلة التى طرحهـا تلينو تـدور فى ذهن الباحث حـول اولوية الشعر الجاهلى ، لا نملك مـن اسبابها الا مجرد الظن والتقريب ، وكذلك الامر فى تقدير عسر الشعر •

والذين حاولوا تأريخ الشعر تباينت آراؤهم شأن اى قضية ينقصها التدوين الموثق ، فالاصمعى يرد رواية الشعر الى اربعمائة سنة فى الجاهلية ويقول : وأول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا مـن الشعر مهلهل ، ثـم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة رجل مـن كنانة ، والاضبط ابن قريع ـ قال : وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعمائة سنة ، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير) (2)

وكان الجاحظ يرى الشعر حديث المولد ، صغير السن ويرده الـى عهد امرىء القيس والمهلهل ، ويحدد فترتـه فى الجاهلية بمائـة وخمسين عاما ، وبمائتى عام اذا استظهرنا بغاية الاستظهار ، ونص عبارة الجاحظ :

(•••وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق اليـه امرؤ القيس بـن حجر ، ومهلهل بن ربيعـة ؛ وكتب ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس ، وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والاحقاب قبـل الاحقاب ، ويدل على حداثة الشعر قول امرىء القيس بن حجر :

---

(1) طبقات فحول الشعراء 23 — 27
(2) المزهر 2 : 477 عن أمالى ثعلب

ان بنـي عـوف ابتنـوا حسبا
ضيعـة الدخللون اذ غـدروا
أدوا الـي جارهـم خفارتـه
ولـم يضع بالمغيب مـن نصروا
لا حـيرى وفـى ولا عـدس
ولا اسـت عـير يحكها الثفـر
لكـن عويـر وفـى بذمتـه
لا قصـر عابـه ولا عـور

فانظر كم كان عمر زرارة ، وكم كان بين موت زرارة ومولد النبـي عليه الصلاة والسلام فاذا استظهرنا الشعر وجدنا لـه الى ان جـاء اللـه بالاسلام خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام (1)

وحين نضع هذه الاقوال موضع التأمل والاختبار ، نـرى الاصمعى يحدد الرواية بأربعمائة سنة قبل الاسلام ، بل ربما كان يعنى أكثر من هذا لان نص الاصمعى يشير الى من يروى لـه ثلاثون بيتـا ، وكأن هناك من يروى له مقطعات أو أبيات تقل عن الثلاثين قد سبقوا هؤلاء ، ولكننا حين نؤرخ لهذه الاسماء التى ذكرها الأصمعى فاننا نرتاب فى هذا التحديد الا أن يكون الأصمعى قد أراد بهذا العدد (أربعمائة عـام) مجـرد التكثير والدلالة على طول الفترة ولا يعنى التحديد التاريخى بمفهوم الارقام لأننا لو عاودنا النظر وحسبنا الأجيال التى كانت بين مهلهل والاسلام وجدناها لا تبعد عن مائة وخمسين سنة كما افترض الجاحظ ولقد تتبعنا فى هـذا تقسيم الاستاذ ا. ب. كوسان دي برسفال فيما كتبه عن تاريخ العرب قبل الاسلام ووجدنا أنه يؤرخ لمهلهل سنة 460 م (2) ولو أن هذا التاريخ لا

---

(1) الحيوان للجاحظ 1 : 74 ط الحلبى

(2) A. P. Caussin de Perceval : Essai sur l' histoire des Arabes avant l' islamisme

يعطى كل الحقيقة الا ان طريقته كانت مسألة جدولية مفترضا لكـــل جيل خمسة وعشرين عاما ، كان مهلهلا وهو خال امرىء القيس لا يبعد عن ابن اخته بكثير •

أما الاحكام التى وردت فى نص ابن سلام الجمحى حين ذكر مـــن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم :

قد رابنى من دلوى اضطرابها

فلا تعدو أيضا فى تأريخها مائة وخمسين سنة قبل الاسلام ــ فالعنبر ابن عمرو بن تميم هو الجد الخامس لغاضرة بن سمرة بن عمرو بن قـــرط ابن جندب بن العنبر الذى بعثه النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقـــة كما كان سمرة والد غاضرة هـــذا قـــد استخلفه خالـــد بن الوليد عـــلى اليمامة (1) الا اذا كان فى رواية ابن سلام سقط أو اختصار •

اما رواية الجاحظ فقد ناقشها الاستاذ كـــارل نالينو وقال ان شـــعر امرىء القيس الذى ذكره الجاحظ لا يعنى أنـــه أول الشعر ولا دلالة فيه على سابقية تلك الابيات لغيرها ، وأن الجاحظ اغتـــر بقول العلماء الذين يروون أن مهلهلا وهو خال امرىء القيس أول من قصد القصائد وأعاد نلينو ما ردده العلماء وكثير من الباحثين بأن الشعر وقد وجد فى صـــورة تامة فانه لا يمكن أن يكون صغير السن وانما وصل الى درجـــة الاكتمال على مراحل زمنية طويلة تسبق عهـــد مهلهل وامـــرىء القيس ، وافترض لصواب رأى الجاحظ أنه اراد بهذا التحديد الزمنى ما وصل الينـــا مـــن الاشعار القديمة •

---

(1) انظر طبقات فحول الشعراء 33

وإذا كان الطريق الى تلمس أولوية الشعر ، وكيفية نشأته قد غم علينا الا من ظنون افترضها السابقون فقد تعلقنا بتأريخ ما وصلنا منه وتكاد كل النصوص الذاهبة الى تقديره تلتقى حول المائة وخمسين سنة السابقة للهجرة ولا يبعد هذا عن رأى الاستاذ نلينو الذى يقول :

(لم ينقل الينا بيت عربى غير مرتاب بصحته أقدم من اواخر القرن الخامس للمسيح ، أعنى سابقا للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة) (1) .

ويبدو أن الاستاذ طه حسين قد تلقف عن استاذه نلينو هذه الشكوك ، وهذا الارتياب فى رواية الشعر الجاهلى — لا الشعر الجاهلى نفسه — فيما وراء مائة وثلاثين سنة سابقة للهجرة فأعمل فكره واضعا الشك امام خاطره على مذهب ديكارت ليخلص الى ان الشعر القديم من صنع الاسلاميين — والحقيقة أن الدكتور طه حسين قد دافع عن وجهات نظره أشد المدافعة ، وأغرق فى ذلك أشد الاغراق ، وحاول تطويع النصوص والاخبار لترويج فكرته حتى حولها عن وجهتها الاولى ؛ وضخم الفروق بين اليمنية والنزارية ليثبت افتعال الاشعار حين وجدها منسوبة الى النزاريين واليمنيين بلغة واحدة وكاد يخرج بهذه النظرية فى كتابيه (فى الشعر الجاهلى) و (فى الادب الجاهلى) لولا أن أدلى العلماء بدلوهم فى هذا المضطرب وأغرقوه بحثا وتفصيلا حتى كادت رائحة الشياط تتجاوز دور النضوج ولا زال فى الكتابين علم غزير عن الشعر الجاهلى ، لم يغير من ذلك طريقة الرجل فى معالجة شكوكه فى الشعر الجاهلى ، كما لم يغير من ذلك نقد الناقدين لطريقته ومسلكه مع ايماننا بأن الشعر الجاهلى قد صدر عن الجاهليين بلا مراء .

---

(1) تاريخ آداب العربية لكارل نلينو 52

الفصل الثانى

الشعر في صدر الإسلام

تمهيد

تصورت وأنا أبدأ هذا الفصل أن هناك من يسألنى هل تؤرخ للادب العربى ؟ وهل يدخل هذا فى موضوع الكتاب مصادر الفصحى ؟

الحقيقة ، أننى لا أؤرخ للأدب العربى فى صدر الاسلام ، كما أننى لم أؤرخ له فى الفصل السابق فى العصر الجاهلى ولكننى أعد بحثا عن بضاعة الرواة، وعن المصادر التى ذهبوا اليها وهم يبحثون فى توثيق اللغة. والتأريخ للشعر الاسلامى لا يبعد عن بحث يحاول أن يلقى الضوء على ملابسات الشعر الاسلامى ، واذا كنا قد التزمنا الايجاز فيما كتبناه عن الشعر الجاهلى فلأنه كان فى أكثره ، الا يكن كله ، صريح العروبة ، وكان عمر ما وصلت اليه الرواية ــ كما بينا ــ لا يتجاوز القرن من الزمان أو أكثر بقليل ، والذين حاولوا التشكك فيه كالدكتور طه حسين ، فانه كان

يجرى على طريقة من طرق البحث العلمى لا يبتغى من ورائها — على ما أظن — انكار عروبة النص ، والذين نقضوا كتابه (فى الشعر الجاهلى) قد اشبعوا الموضوع نضجا وتوثيقا ٠

وفى النية الا نكتفى بمثل هذا الايجاز الذي أوجزناه فى الفصل السابق بل ننوى أن نطيل الكلام نوعا فى الشعر الاسلامى • وفى سبيل ما نرجوه من توثيق نجد امامنا عدة قضايا تحتاج الى ابطاء الخطا والتمهل لتفهمها أو التعليل لها ويثير تلك القضايا عديد من الأسئلة أهمها :

— لقد كان فى الجاهلية منزعان الى قول الشعر : العصبية دفاعا عن القبيلة ، والنزوع الى الاشباع الفنى تعبيرا عن الذات ، فما اثر هذين المنزعين فى الاسلام ؟

— هل تأثرت البادية كما تأثرت القرى بالدعوة الاسلامية ؟

— وهل تأثر القرى فى الحجاز يجرى على نسق واحد مطرد ؟

ولنا ان نتصور وفرة الشعر بسبب الدواعى الجديدة الى قوله ، معارضة للدعوة أو تأييدا لها ، وهجرة الى مواطن اكثر أمنا ، وطمأنينة أكثر من سابقتها ، وحربا تدور بين العرب والعرب ، وبين العرب وغيرهم ، ورثاء للقتلى ، ووفودا تأتى مستكشفة أمر هذا الدين ، ووفودا تأتى مؤمنة به أو متحدية له ، ووفودا لا هى مؤمنة ولا متحدية وانما تأتى مادحة تلتمس العطاء ، ومشركين يهجون المسلمين اليوم ثم يسلمون غدا يفرحون بما أوتوا ويندمون على ما كان • ومرتدين يخرجون من الاسلام ، الى غير ذلك من الاحداث والتطورات التى يتصورها الباحث وتمر امام خاطره •

ومع هذا التصور من وفرة الشعر فانك لا شك بحاجة الى التمهل

وأنت تقرأ خبرا ينسب الى عمر رضى الله عنه يقول : (لقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) ثم تجد تعقيبا لمحمد بن سلام الجمحى يقول : (فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ؛ فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير) (1) ولعلنا نجد توضيحا لهذه القضايا حين نعرف بالشعر فى البيئات المختلفة •

الشعر في القرى

فى تأريخ هذه الفترة ، وفى بدايتها يتساءل الباحث ماذا كان موقف المكيين بالنسبة للتيارات الروحية ، وأثر ذلك على الشعر عامة حين ظهرت الدعوة الاسلامية ؟

كانت الكعبة فى مكة مثابة العرب ، يأتونها من كل مكان حاجين ومعتمرين ، وتنافست قريش شرف الولاية على البيت ، وأقرت لها العرب بهذه الصفة الدينية . فكان أى تغيير روحى يصطدم بمعارضة شديدة مخافة أن تهتز أمكنتهم التى تبوأها أشرافهم والتى أخذوا يزيدون فيها ويغالون فى واجباتها حتى خرجت عن مألوف المناسك • وقبيل الاسلام ابتدع المكيون أشياء تزعمها دينا ، اما لتأكيد رئاستهم ، أو لتحقيق مغانم مادية يجبرون الحجيج على ادائها وهى (رأى الحمس) كما ذكرها صاحب السيرة ـ والحمس من الحماسة ـ أى اشتدوا فى دينهم فقالوا : نحن بنو ابرهيم ، وأهل الحرمة ، وولاة البيت ، وقطان مكة وساكنيها فليس لأحد

(1) طبقات فحول الشعراء للجمحى 22.

من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، ومن ثم رأوا أن يلزموا العرب بقيود يأتونها ، أو يمتنعون عنها فى مناسكهم ، كتركه الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعرفون أنها من المشاعر والحج ودين ابرهيم ثم قالوا : لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة .... الى غير ذلك (1) وقد ترى أن مثل هذا المجتمع يصعب معه التصريح نثرا أو شعرا بأى تغيير روحى .

وقبيل الاسلام ظهرت طائفة أطلق عليهم اسم المتحنفين لحظوا أن الله فوق ما يعتقده جماعتهم فبدأوا يرون رأيهم سرا مخافة بطش المكيين بهم ، ويشير اليهم ابن اسحق فى حديث له فيقول :

(واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ــ وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ــ فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل بن عبد العزى ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . فقال بعضهم لبعض : تعلموا ، والله ما قومكم على شيء . لقد اخطأوا دين أبيهم ابرهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء .. فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابرهيم (2) .

(1) السيرة 1 : 219

(2) السيرة 1 : 242

والكتمان ، وممارسة التفكير سرا فيما يتعلق بالدين مسألة طبيعية في بلد ارتضتها العرب جميعا محجة دينية ، واستقر لسادتها من قريش مغنم المادة وشرف الولاية على البيت ـ والكتمان وممارسة التفكير سرا يتنافى مع الجهر بالشعر وروايته اذا تعلق الامر بالدين والخوض فيه ـ على عكس الطائف ويثرب ، فقد ظهر في الطائف رجل كأمية بن أبي الصلت رأى رأيا في الدين فجهر به نثرا وشعرا وقال للناس عنه حين أغرب في شعره الديني : انه قرأ كتاب الله ـ عز وجل ـ الاول ، فكان يسمى الله عز وجل في شعره : التغرور ، ومرة أخرى : الساطيط ، وكان كما يحكي أبو الفرج قد نظر في الكتب ، وقرأها ، ولبس المسوح تعبدا ، وكان ممن ذكر ابرهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر ، وشك في الاوثان ، والتمس الدين ، وطمع في النبوة . ويبدو أنه أنشأ شعرا غزيرا في هذه الناحية الروحية فقال فيه الأصمعي (ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة ، وقال الحجاج يوما على المنبر (ذهب قوم يعرفون شعر أمية) (1)

والأمر في يثرب كذلك ، فقد ظهر فيها في نفس الفترة رجل من بني النجار هو أبو قيس صرمة بن أنس فترهب ، ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، وتطهر من الحائض من النساء ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا تدخله عليه فيه طامث ولا جنب وقال : أعبد رب ابرهيم حين فارق الأوثان وكرهها حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلم وحسن اسلامه وهو شيخ كبير (2) . وللرجل قصائد في الجاهلية وفي الاسلام تكشف عن اتجاه روحي يخالف به عامة الجاهلية .

---

(1) الإغاني 4 : 12 وما بعدها

(2) السيرة 2 : 130

ولك أن تتصور بعد هذه المقارنة في مدن الحجاز توقف الشعر في مكة بدء الدعوة الاسلامية التي أخذتهم أخذة رابية ، فما كادوا يذيعون رأى الحمس قبيل الدعوة الاسلامية كما أسلفنا القول يبتغون به غلوا على الحجيج أو التماسا لثراء حتى جاء الاسلام مبطلا له ، بل قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم أبطل ما ابتدعه الحمس قبل نزول القرآن ، وجاء القرآن فأبطلها بأمر صريح للمكيين : (ثم افيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) وبالنسبة لما حرموا على الناس من طعام ولباس جاء قوله تعالى (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) (١) •

ولعلك تدرك في تزيد المكيين وحمل العرب الحاجين والمعتمرين على غرم يغتنمه المكيون ان الدين عندهم نزع الى الناحية العصبية ولما كان الشعر هو سلاح العصبية كما نعلم تساءلنا عن الشعر اين هو ؟ ، والرأى عندى ان هذه النزعة ما كادت تطل برأسها حتى دهمتها الدعوة التي دعت على الفور الى اعادة المناسك الى ما كانت عليه ، وبدأ القرشيون يواجهون حركة أكبر ، ودعوة أعمق الى المساواة ، ولو كانت العصبية وحدها هي التي تحكم المجتمع المكي لآزروا الدعوة التي بدأت تخرج من عندهم الى الناس كافة ، ولكن كانت مصالح اثريائهم تعاني الضعف أمام المثل التي جاء بها القرآن فلا هم بمستطيعين نقضها شعرا لان النبي واحد منهم ، ولا هم بمستطيعين الحفاظ على مصالحهم بعد أن حددها الدين الجديد وبدا لكبارهم أن المسألة لا تحتاج الى اكثر من الاتجاه الى قتل النبي صلى الله

---

(١) سورة الاعراف 32

عليه وسلم وينتهى الامر عند ذلك ويخلو لهم دينهم الذى ارتضوا من قبل، ومصالحهم التى ينعم بها اثرياؤهم ، واجتمعوا وتشاوروا وتعددت وسائلهم الهادفة الى النيل من صاحب الدعوة حتى أسلمهم الغضب الى ما يمكن تصوره وما لا يمكن تصوره فمشوا الى أبى طالب بادىء الامر راجين أن يكف عنهم ابن أخيه متذرعين بأنه سب آلهتهم ، وعاب دينهم ، وسفه أحلامهم • فلما بسط حمايته على النبى ذهبوا يناقشونه فى أمر قد لا يصدر الا عن نفس مكدودة وعقل كليل مرهق ، ذهبوا يبادلون النبى بفتى من فتيانهم ، وكانت قسمة ضيزى — أبو طالب يرعى فتاهم ، وهم يأخذون النبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، مسألة تجاوزت أقصى التصور ، استمع الى ابن اسحق يحكى حكايتهم فيقول :

(••• ثم ان قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد فقالوا له — فيما بلغنى — يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره (1) واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل • فقال : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! ؟ هذا والله لا يكون أبدا • فتنابذ القوم ، وأخذ أبو طالب يعرض بالمطعم بن عدى ، ويعم من خذله من بنى عبد مناف ، ومن عاداه من قبائل قريش ، ويذكر ما سألوه ، وما تباعد من أمرهم فى قصيدة طويلة (2) •

---

(1) يحتمل المعنيين ان يفيد بعقله ، أو له عقله بمعنى ديته اذا قتل
(2) السيرة 1 : 279

هنا بدأ الشعر يظهر من جانب واحد ، وربما من شخص واحد هـو عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وسترى أيضا عندما تتوالى الاحداث أن الشعر لفترة معينة يكاد يكون لأبى طالب وحـده ، فالى جانب القصيدة التى عرض فيها بالمطعم بن عدى وزملائه أخذ يمدح من وافقه على موقفه، ويشيد بسكانة عبد مناف وهاشم والنبى من قريش :

اذا اجتمعت يومـا قريش لمفخر
فعبد منـاف سـرها وصميمها
فان حصلت أشراف عبد منافهـا
ففى هاشم أشـرافها وقديمهـا
وان فخرت يومـا فان محمـدا
هو المصطفى من سـرها وكريمها

الى آخر القصيدة ، وحفظت الرواية قصيدة طويلة لأبى طالب يتودد فيها لأشراف عشيرته ، ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم ذكر منها صاحب كتاب السيرة أربعة وتسعين بيتا ، وتناولها الرواة ووضعوها تحت الدرس والنقد ، وبدا لبعضهم انها طولت حتى لا يكاد يعرف منتهاها ، يقول محمد ابن سلام الجمحى : (وكان ابو طالب شاعرا جيد الكلام ، وابرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم وهى :

وأبيض يستسقى الغمـام بوجهه
ربيـع اليتامى عصمة للأرامـل

وسألنى الأصمعى عنهـا فقلت صحيحة جيـدة ؛ قال : أتدرى أين منتهاها ؟ فقلت : لا أدرى) (1) .

---

(1) طبقات فحول الشعراء 204

وهاجرت جماعة من المسلمين الى الحبشة فرارا مـن أذى الكفار ، وأحسوا بالأمان في جوار النجاشي فأنشأ عبد الله بن الحارث بـن قيس ابن عدى قصيدة يعبر فيها عن هذا الامان ، وأخرى يعاتب فيها بعض قومه من قريش (1) ولعثمان بن مظعون قصيدة يعاتب فيها ابن عمه وكان يؤذيه أن أسلم . (2) واستشعر أبو طالب وهو في مكـة أن القرشيين يحاولون اجتذاب النجاشي الى صفوفهم ، ويوغرون صدره على المهاجرين فأرسـل اليه قصيدة يرجوه أن يدفع عـن المهاجرين أذى قريش (3) فكـان هـذا الانتاج الشعرى بسبب الهجرة الى الحبشة .

ثم نفست قريش على الذين هاجروا أمنهم وقرارهم فتعاقدت على بنى هاشم وبنى المطلب على الا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم فأنشأ أبو طالب قصيدة فى هذه المقاطعـة (4) فلمـا نقض الصحيفة بعض أماثل قريش امتدحهم أبو طالب بقصيدة يقول فيها :

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا
على مـلا يهدى لحزم ويرشـد

ويعنى بهم الخمسة الذين اتفقوا على نقض الصحيفة وهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، وزهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عـدى ، وأبو البخترى ابن هشام ، وزمعة بن الأسود (5) .

---

(1) السيرة 1 : 353
(2) السيرة 1 : 355
(3) السيرة 1 : 356
(4) السيرة 1 : 373
(5) السيرة 1 : 400

وكان الذين حملوا لواء العصيان والمقاومة هم أثرياء قريش بينما كانت الطبقة التى تليهم تهفو قلوبهم الى الدعوة وصاحبها فكان ذلك من أسباب الحد من حصيلة الشعر . وسبب آخر فى توقف المشركين عن الشعر وهو أهم الاسباب وأقواها ، هو الاحساس بضعفهم امام القرآن الكريم ، فقديما كانت تقارع الحجة بالحجة وكان الشعراء يتحاكمون امام فحل من الفحول فيحكم لواحد منهم أو عليه ولكن أنىّ لهم بمعارضة القرآن الكريم وقد شهدوا على أنفسهم بالضعف أمام سوره وآياته ولا نريد فى هذا المكان الذى نرجو له الايجاز والاختصار أن نقدم لك الصور العديدة التى حفلت بها كتب السيرة والتى تشير الى ضعفهم وحيرتهم ، وحسبك هذه الأمثلة ففيها غناء عن بقية الأخبار .

فمنها : هذا النقاش الذى يديره الوليد بن المغيرة ، حين تفرقت الكلمة ، وانشقت العصا ، وذهب كل فريق يبحث عن مؤيدين . اجتمع الوليد بن المغيرة بنفر من قريش يأتمرون بصاحب الدعوة صلوات الله عليه، فقال لأصحابه : يا معشر قريش ، ان وفود العرب ستقدم عليكم فى موسم الحج ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به .

قال : بل انتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكهان ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته •

قالوا : فنقول شاعر •

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر •

قالوا : فنقول ساحر •

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم •

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق ، وان فرعه لجناة (ويقال لغدق والغدق الماء الكثير) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل وان أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدم الموسم لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه وذكروا لهم أمره (1)

وخبر آخر أكثر دلالة من سابقه وأشد تصويرا لذهولهم أمام بلاغة القرآن ، وأوضحه اعترافا بعذوبته وميلهم الشديد الى سماعه على كره منهم في غير مكابرة •

قال ابن اسحق ، وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ابن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول

---

(1) السيرة 1 : 283 — 284

الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض :

لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا . حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد الا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا (1)

فهؤلاء النفر ــ كما ترى ــ يقمعون حسهم ، ويجاهدون انفعالهم . وما لبث ان انفرط عقدهم كما يصوره هذا اللقاء بين ابى الوليد عتبة بن ربيعة وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، على التفصيل التالى :

قال عتبة يوما وهو جالس فى نادي قريش : يا معشر قريش : الا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه امورا لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ويكف عنا .... فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلمه ، فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك امورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل يا أبا الوليد أسمع) قال : يابن أخى ان كنت انما تريد بما جئت

(1) السيرة 1 : 337

به من هذا الامر مالا جمعنا لك من آموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ..... حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال (أقد فرغت يا أبا الوليد ؟) قال : نعم . قال (فاستمع منى) قال : أفعل . فقال (بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة منها فسجد ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) فقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة يا معشر قريش : أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه .... فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه (1)

ولا يستطيع الشعر — فيما أرى — ان ينشأ ويروى فى هذه البيئة التى وقعت أسيرة الخوف والاعجاب بعد أن قرعت آذانهم آيات القرآن الكريم ، وأميل الى القول أن الشعر قد توقف برهة فى مكة ، ولكن لم يطل وقوفه ، فما لبثوا أن أفاقوا من غشيتهم ، واستجمعوا قوتهم للمكابرة .

---

(1) السيرة 1 : 313

الهجرة الى المدينة

وهاجر المسلمون الى المدينة ، وكانت أصداء الشعر الذى قيل بعد حرب بعاث وما دار بين الاوس والخزرج لا زال يتردد فى جوانبها ؛ وكانت بيئة شاعرة عبر عنها أنس بن مالك بقوله : قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى الانصار بيت الا وهو يقول الشعر (1)

ولم تنته العداوة بين الفريقين بهذه المهاجرة ، فالمسلمون امام مهمتهم المقدسة نشر الدعوة ، والمشركون من قريش يبتغون القضاء عليها ، كل يضمر التربص بصاحبه ، وفى موقعة بدر الكبرى دارت الدائرة على المشركين فسكتت السنتهم بادىء الامر الا من مقطوعات قلائل حين منّ الرسول صلى الله عليه وسلم على بعض الاسرى • فمنهم من شكر ومنهم من غدر ، فقد توسل أبو عزة الجمحى بعياله وحاجته فمنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وأطلقه فأنشأ ابو عزة يقول :

من مبلغ عنى الرسول محمدا
بأنك حق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو الى الحق والهدى
عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة
لها درجات سهلة وصعود
فانك من حاربته لمحارب
شقىّ ، ومن سالمته لسعيد
ولكن اذا ذكرت بدرا وأهله
تأوب مابى حسرة وقعود (2)

(1) العقد الفريد 5 : 283
(2) السيرة 2 : 305

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطلقوا سراح صيفى بن أبى رفاعة المخزومى على أن يبعث اليهم بفدائه ، وحنث فى وعده ، فهجاه حسان بأبيات يقول فيها :

وما كان صيفى ليوفى أمانة
قفا ثعلب أعيا ببعض الموارد

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتل ابى البخترى يوم بدر لأنه كان يكف القوم عن رسول الله فى مكة ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم ، وبنى المطلب . فلقيه المجذر البلوى ، ومع أبى البخترى زميل له قد خرج من مكة وهو جنادة بن مليحة ، فأبى المجذر ترك زميل ابى البخترى ، فقال ابو البخترى : لا والله اذن لأموتن انا وهو جميعا وأخذ يرتجز :

لن يسلم ابن حرة زميله
حتى يموت أو يرى سبيله

وقال المجذر حين قتل أبا البخترى :

اما جهلت أو نسيت نسبى
فاثبت النسبة انى من بلى
الطاعنين برماح اليزنى
والضاربين الكبش حتى ينحنى

الى آخر القصيدة (1) .

وتكتمت قريش مصيبتها حتى لا يشمت بها المسلمون ، وتهون فى نفوس العرب ، وتواصوا الا يبكى أحد قتلاه ، ولكن أنّى لهم أن يصبروا وفى افئدتهم جزع الفراق وحرقته . لقد عاشت صدورهم كالمراجل تهتز

(1) السيرة 2 : 270 — 271

من الغليان تحاول أن تنفث مكنونها . كان الأسود بن عبد يغوث قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة بن الاسود وعقيل بن الاسود ، والحارث بن الأسود ــ أو الحارث بن زمعة كما يحكى صاحب كتاب السيرة ، وكان يتوق الى البكاء على بنيه فبينا هو كذلك اذ سمع نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر أحل النحيب ، وهل بكت قريش على قتلاها فان جوفى قد احترق ، قال : فلما رجع الغلام اليه قال : انما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته فقال متعجبا ، وقد وجدها مبررا للقول والبكاء :

أتبكى ان يضل لها بعير
ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن
على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بنى هصيص
ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى ان بكيت على عقيل
وبكى حارثا أسد الاسود
وبكيهم ولا تسمى جميعا
فما لابى حكيمة من نديد
الا قد ساد بعدهم رجال
ولولا يوم بدر لم يسودوا (1)

ولم يطل الوقت حتى عاد كل الى فطرته ، المسلمون يفخرون بيوم بدر ، والمشركون يجيبونهم ، وأذن الرسول لحسان بن ثابت أن يهجو

---

(1) تاريخ الطبرى 2 : 161 والسيرة 2 : 291 والاغانى 4 : 209

القوم ، ودارت النقائض بين الفريقين فكان من أشــهر شــعراء المسلمين بالاضافة الى حسان ــ عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ــ ومن جانب المشركين ضرار بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزبعرى ، والحارث بــن هشام ، وعقد صاحب كتاب السيرة حديثا واسعا عن الشعر الذى قيل فى بدر (1) شارك فيــه غير ما ذكرنا : على بــن أبى طالب ، وطالب بــن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبدة بن الحارث بن المطلب وهنــد بنت أثاثة ، ومعاوية بن زهير ، وهند بنت عتبة ، وصفية بنت مسافر ، وقتيلــة بنت الحارث ، الى غير هؤلاء .

وناح أمية بن أبى الصلت على قتلى بدر ، وهو رجل من ثقيف أومأنا اليه قبل قليل وبينا سعيه فى الحصول على النبوة ، وأخذ يحرض قريشــا فى قصيدة طويلة ذكرها ابن هشام وأشار اليها أبو الفرج فى الأغانى وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها (2) . ولأمية قصيدة فى رثاء زمعة بن الأسود (3) . كما كان فى مؤازرة المشركين أيضا كعب بن الأشرف الذى شبب بنساء المسلمين وقتل بأمــر النبى صلى اللــه عليــه وسلم . (4)

وصور هذه المعركة كعب بن مالك الانصارى :

فلمــا لقيناهــم وكــل مجاهــد
لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنــا بأن اللــه لا رب غــيره
وأن رسول اللــه بالحق ظاهــر

(1) السيرة 2 : 368 وما بعدها
(2) الاغانى 4 : 123 وطبقات فحول الشعراء 221
(3) السيرة 2 : 407
(4) طبقات فحول الشعراء 238

وقـد عريت بيض خفاف كأنهـا
مقاييس يزهيها لعينك شاهـر
بهـن أبدنـا جمعهـم فتبددوا
وكان يلاقى الحين من هو فاجـر
فكب ابو جهل صريعـا لوجهـه
وعتبة قـد غادرته وهو عاثـر
فأمسوا وقود النـار فى مستقرها
وكـل كفور فى جهنـم صائـر
وكان رسول الله قد قال : أقبلوا
فولوا ، وقالوا : انما أنت ساحر
لأمـر اراد اللـه ان يهلكوا بـه
وليس لأمر حمـه اللـه زاجـر

وفى رثاء قتلى بدر انشئت القصائد وكانت أحرها قصائد هنـد بنت عتبة بن ربيعة (1) وقتيلة بنت الحارث فى رثاء أخيهـا النضـر ، وقيل ان النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه شعرها قال : (لو بلغنى هذا قبل قتلـه لمننت عليه) (2) .

ويوم أحد

اصيب المسلمون جزاء ما خالفوا من تعاليم الرسول ، ومنوا بخسارة فى رجالهم لحكمة عنده سبحانه ، فعلا من أصوات القرشيين مـا خفت ، ودبت فيهم روح الثأر ، وتشفوا ليوم بـدر فطالت ألسن ابـن الزبعرى :

---

(1) **السيرة** 2 : 414 ، 415 ، 416

(2) السيرة 2 : 421

وضرار بن الخطاب الفهرى وعمرو بن العاص ، وهند بنت عتبــة ، وهبيرة ابن أبى وهب المخزومى ، وتصدى لهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهند بنت أثاثة ، والحجاج بن علاط ، وصفية بنت عبد المطلب ، وأفرد ابن هشام حديثا عن الشعر فــى يوم احد وكان يربو على ما قيل يوم بدر أو يزيد ، ولا اخالنى بحاجة الى بيانه وقد طفحت بــه كتب السيرة ، والتواريخ ، والمغازى ولعلك تجد منه ما تريد فى سيرة ابن هشام ، وفى تاريخ الطبرى ، وأضعك الآن امام منظر يغنيك عن الاغراق فى التصور ولك بعدها أن تدرك حصيلة الشعر فى المدينتين بعد أحد •

كانت هناك بنت عتبة تغلى بالغضب منذ فقدت اباها عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وما كاد يسقط حمزة رضى الله عنــه حتى ذهبت الى جثته ، وبقرت بطنه ، وفتشت عن كبده فأكلتها ليبرد جوفها المحترق ثم اعتلت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحــن جزينــاكم بيــوم بــدر
والحرب بعد الحرب ذات سُعْر

ما كان عــن عتبــة لى من صبر
ولا أخــى وعمــــه وبكــرى

شفيت نفسى ، وقضيت نــذرى
شفيت وحشىّ غليــل صــدرى

ثم عــادت تقول :

شفيت من حمزة نفسى بأحد
حين بقرت بطنه عــن الكبد
أذهب عنى ذاك ما كنت أجد
من لذعةالحزن الشديدالمعتمد

والحرب تعلوكم بشؤبوب برد
تقدم اقداما عليكم كالأسد (1)

فما برئت من دائها ، وظلت تندب أباها ، وعمها ، وأخاها ما وجدت لذلك سببا أو أثارتها مناسبة ، لقد بلغها أن الخنساء كانت تسوم هودجها فى الموسم ، وتعاظم العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد ، وبأخويها صخر ومعاوية ، فقالت هند : انا أعظم من الخنساء مصيبة ؛ وأمرت بهودجها فسوم براية ، وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : اقرنوا جملى بجمل الخنساء ففعلوا ، فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء : من أنت يا أخية ؟ قالت : أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظميهم ؟ فقالت الخنساء : بعمرو بن الشريد . وصخر ومعاوية ابنى عمرو ، وبم تعاظمينهم انت ؟ قالت : بأبى عتبة بن ربيعة ، وعمى شيبة بن ربيعة ، وأخى الوليد ... فلما سمعت رثاء الخنساء فى اهلها انفجرت هند تجيبها :

أبكى عميد الابطحين كليهما
وحاميهما من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى
وشيبة والحامى الذمار وليدها
اولئك آل المجد من آل غالب
وفى العز منها حين ينمى عديدها

ثم قالت :

من حسّ لى الأخوين كالـ
غصنين أو من رآهما

(1) السيرة 3 : 41 — 43

قـــرمـــان لا يتظالمــــــا
ن ولا يـــرام حمـــاهمــــا
ويلـــى علـــى ابـــوى والـــ
قبـــر الـــذى واراهمـــا
لا مثل كهلـــى فـــى الكهـــو
ل ولا فتـــى كفتاهمـــا

الى آخر القصيدة .وبعض الاخبار ومنها الأغانى تشير الى ان التقاء السيدتين كان بعد بدر وليس بعد أحد ، والخبر على الوجهين دليل علـــى تعطش هند الى القول والانشاد فى أكبر محفل فى الجزيرة ــ فى عكاظ ــ كما يدل على رغبة فئة الى الاستماع والرواية وهو ما نهدف الى بيانه فى بحثنا هذا اذا رأينا أن الدعوة لم تعوق الشعر ولا روايته .

وحادثتان تقشعر لهما الابدان ، يـــوم الرجيع ، وبئـــر معونة . ففى يوم الرجيع جاء نفر من عضل، والقارة ــ من الهون بن جذيفة بن مدركةــ فقالوا : يا رسول الله ان فينا اسلاما فابعث معنا نفرا من اصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا الشرائع . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرا ستة مـــن اصحابه وقيل عشرة حتـــى اذا كانوا علـــى الرجيع ، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بهـــم واستصرخ المسلمون بنى لحيان من هذيل فلم يفلحوا فأنشأ حسان بن ثابت أربع قصائد يبكى فيها خبيب بن عدى وأصحابه ، وست قصائد يهجو فيها هذيلا (1)

وكان من حديث بئر معونة أن قدم أبو عامر بن مالك علـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاه الرسول الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل

(1) السيرة 3 : 160 وما بعدها

نجد فدعوهم الى امرك رجوت أن يستجيبوا لك • فبعث النبى صلى الله عليه وسلم أربعين نفرا من أصحابه فلما نزلوا بئر معونة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم بعثوا بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل وانتهى الام بالغدر بأصحاب رسول الله صلى الله عليهوسلم فأخذ حسان بـن ثابت ، وكعب بن مالك يحرضان بنى ابى براء على عامر بـن الطفيل ، ولحسان قصيدة فى رثاء شهداء بئر معونة ، ولعبد الله بن رواحة قصيدة اخرى (1) •

غدر اليهود

وفى سنة اربع ــ تآمر بنو النضير على قتل النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم ، ثم اذن لهم بالرحيل ومعهم أموالهم الا السلاح ، فأنشأ القيم العبسى قصيدة يشيد فيها بالنبى وبالمسلمين ، كما ذكر صاحب كتاب السيرة قصيدة تنسب لعلى بن أبى طالب يذكر فيها غدر اليهود ورحيلهم ، ومقتل كعب بن الأشرف يقول فيها :

فيا أيها الموعدوه سفاها
ولم يأت جورا ولم يعنف

الستم تخافون أدنى العذاب
وما آمن الله كالأخوف

وان تصرعوا تحت اسيافه
كمصرع كعب ابى الاشرف

كما أنشأ كعب قصيدة مماثلة، واجاب على القصيدتين سماك اليهودى (2)

(1) السيرة 3 : 184 وما بعدها
(2) السيرة 3 : 191 وما بعدها

والشيء العجيب فى هذا الحادث هو أمر العباس بن مرداس ، فلقد سبق أن رأيناه مسلما مجاهدا مع النبى صلى الله عليه وسلم فما بال هواه مع بنى النضير ، يمدحهم ويعز عليه هذا الاجلاء ويقول فيهم :

ولو ان أهل الدار لم يتصدعوا
رأيت خلال الدار ملهـى وملعبا
فانك عمرى هـل اريك ظعائنا
سلكن على ركن الشطاة فتيأبا (1)
عليهـن عـين مـن ظباء تبالـة
أوانس يصبين الحليم المجربـا
اذا جاء باغى الخير قلن فجـاءة
له بوجوه كالدنانير ، مرحبـا
وأهلا ، فـلا ممنوع خير طلبتـه
ولا أنت تخشى عندنا ان تؤنبـا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم
سلام ، ولا مولى حيى بن أخطبا

ثم دارت على هذه البداية مناقضة شعرية اذ أجابـه خوات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف بقصيدة بدأها بقوله :

تبكى على قتلى يهود وقـد ترى
من الشجو لو تبكى أحب وأقربا
فهلا عـلى قتلى ببطـن أرينق
بكيت ولم تعول من الشجو مسهبا
اذا السلم دارت فى صديق رددتها
وفى الدين صدادا وفى الحرب ثعلبا

(1) الشطاة وتيأب مكانان

الى آخر القصيدة التى رد عليها العباس ، وأجاب على قصيدة العباس الأخيرة كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة • (1)

ولم ييأس يهود ، فقد تحزبت ، وحزبوا معها قريشا ، وحببوا اليهم وثنيتهم فنزل فيهم قوله تعالى (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا • اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا (2) ثم حزبوا معهم غطفان أيضا ضضرب الرسول الخندق على المدينة •

في غزوة الخندق

ومن الطريف أن تجد الرجز عدة العاملين فى حفر الخندق ، كهذه الصورة التى تراها بين عمال الأبنية وهم يستجمعون نشاطهم على نغمات الأناشيد كان ذلك أيضا فى حفر الخندق حول المدينة ، قال ابن اسحق : وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له جعيل سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرا فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا
وكان للبائس يوما ظهرا

فاذا مروا بعمرو (اى بكلمة عمرو) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عمرا ، واذا مروا بظهر (أى بكلمة ظهر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ظهرا (3) ولم تعد ــ بعد غزوة الخندق ــ مسكة لقريش ولا

---

(1) السيرة 3 : 208
(2) سورة النساء آية 51 و 52
(3) السيرة 3 : 232

ليهود ، فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم) فلم تغزهم قريش بعد ذلك وكان هو الذى يغزوها حتى فتح الله تعالى عليه مكة .

وفى غزوة الخندق ومعاقبة بنى قريظة القيت القصائد من الجوانب المختلفة تعبيرا عن اتجاهاتها فلقد بدأ عمرو بن عبد ود يناجز المسلمين ، وخرج يوم الخندق معلما ليرى مكانه قائلا : من يبارز ؟ قال له على بن أبى طالب : انى ادعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام . قال : لا حاجه لى بذلك . قال : فانى ادعوك الى النزال . فقال له : لمَ يابن أخى ؟فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على :ولكنى والله احب أن أقتلك ... فتنازلا وتجاولا فقتله على رضى الله عنه وأنشد فى ذلك :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه
ونصرت رب محمد بصوابى
فصددت حين تركته متجندلا
كالجذع بين دكادك وروابى
وعففت عن أثوابه ولو اننى
كنت المقطر بزّنى أثوابى (1)
لا تحسبن الله خاذل دينه
ونبيه يا معشر الاحزاب (2)

ودارت حول مقتل عمرو بن عبد ود عدة قصائد بين الفريقين فبكاه من

---

(1) يقول انى قتلته ولم اسلبه اثوابه ؛ ولو كنت المقطر لسلبنى اثوابى
(2) السيرة 3 : 242

جانب المشركين : ضرار بن الخطاب الفهري ، وعبـد اللـه بن الزبعرى ومسافع بن عبد مناف ، وهبيرة بن أبى وهب فى عدة قصائد نقضها عليهم كعب بن مالك ، وحسان بن ثابت فى عدة قصائد أيضا وكانت من الكثرة بحيث أفرد لها ابن اسحق حديثا عما قيل من الشعر فى أمـر الخندق وبنى قريظـة .

ولا تكاد هذه الحصيلة من الشعر تقل عما قيل فى فتح مكة وقـد شارك فى ذلك حسان ، وانس بن زنيم ، وبديل بن عبد مناف ، وبجير بن زهير ، وعباس بن مرداس ، وجعدة بن عبد اللـه الخزاعى ، ونجيد بـن عمران الخزاعى . (1)

ولم تكن المعارك وحدها مثار ألسنة الشعراء ، وانما كانت الدعـوة تأتى بالعديد من اسباب الشعر ، فهذه وفود تأتـى مستكشفة امـر هذا الدين ، وهذه تأتى معلنة اسلامها ، وبعضها جاء يفاخر رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ، وبعضها جاء يعلن تأييده عـلى أن يكون لـه الامر بعد الرسول ، وهذا يشكو نصيبه من الفيء . واليك بعض هـذه الامثلـة لا نبتغى حصرها جئنا بها لنبين دورها فى الشعر .

هذا ابو قيس بن الأسلت ، رجل من الأوس ، لم يسلم ، ولكنه كان يأتى أعمال المسلمين ، ويحض على التآخى واجتناب القتـال ، فقـد كان صهرا لقريش وعنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته وهو بهذا له أقارب فى مكـة ، وأقارب فى المدينة ؛ هو أوسى ، وامرأته قرشية . يستطيع ان يجد آذانا صاغية عندمـا ينادى

---

(1) السيرة 4 : 43 وما بعدها

بالكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن جهوده فى هذا الاتجاه قصيدته :

يا راكبا اما عرضت فبلغن
مغلغلة عنى لؤى بن غالب

يقول فيها :

أقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم
لنا غاية قد يهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة
تؤمون والاحلام غير عوازب
وأنتم اذا ما حصل الناس جوهر
لكم سرة البطحاء شم الأرانب (1)

كان ذلك فى العام الاول للهجرة ، وأقبل يريد النبى صلى الله عليه وسلم ليسلم فقال له عبد الله بن أبى : خفت والله سيوف الخزرج قال : لا جرم ، والله لا أسلم حولا ، فمات فى الحول (2)

ومن الذين أسلموا وأخذوا يورعون أقوامهم عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيم بن أمية بن حارثة السلمى وكان شريفا مطاعا ، فأوعز اليهم بأنه سيسلم مهما تعرض للوم الصديق .

وأسلم وجهى للاله ومنطقى
ولو راعنى من الصديق روائع (3)

---

(1) السيرة 1 : 300
(2) تاريخ الطبرى 2 : 122 ، طبقات فحول الشعراء 190
(3) السيرة 1 : 309

من الوفود

وهذا وفد تميم من سبعين أو ثمانين رجلا ، يأتى المدينة ويقف من وراء الحجرات قائلا : أخرج الينا يا محمد فقد جئنا نفاخرك وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا وقام فيهم الزبرقان بن بدر يقول :

نحن الملوك فلا حي يقاربنا
منا الملوك ، وفينا يؤخذ الربع (1)
تلك المكارم حزناها مقارعة
اذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نشدنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العز يتبع
وننحر الكوم عبطا فى منازلنا
للنازلين اذا ما استطعموا شبعوا
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا
من العبيط اذا لم يظهر القزع (2)
وننصر الناس تأتينا سراتهم
من كل أوب فتمضى ثم تتّبع

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حسان بن ثابت فأمره أن يجيبه فأنشد قصيدته المشهورة :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

---

(1) كان من عادة الجاهلية اذا غلب فريقهم اخذ رئيسهم ربع الغنيمة
(2) القزع : السحاب

ذكر منها أبو الفرج ستة عشر بيتا يقول فيها :

أكرم بقوم رسول الله قائدهم
اذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحى قلب يؤازره
فيما أراد لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم
ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

ثم قام عطارد بن خالد فقال :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
اذا اجتمعوا وقت احتضار المواسم
بأنا فروع الناس فى كل موطن
وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فأجابه حسان :

منعنا رسول الله من غضب له
على رغم أنف من معد وراغم
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك ، واحتمال العظائم

فقال الاقرع بن حابس : والله ان هذا الرجل لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم أسلم وفد بنى تميم (1) .

---

(1) الاغانى 4 : 146 وما بعدها .

وكان الشعر سلاحا قويا من أسلحة الدعوة فى جوانبها المختلفة ، وها هو ذا حسان بن ثابت يستل الضغينة من صدور مزينة حين جاء وفدهم وفيهم خزاعى بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ... ثم ان خزاعيا خرج الى قومه فلم يجدهم فطمأنه الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا حسان بن ثابت فقال (اذكر خزاعيا ولا تهجه) فقال حسان :

الا أبلغ خزاعيا رسولا
بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو
وأسناها اذا ذكر الوفاء
وبايعت الرسول وكان خيرا
الى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه
من الاشياء لا تعجز عداء

وعداء بطن منها الخزاعى ، فقام خزاعى فقال : يا قوم ، لقد خصكم شاعر الرجل فانشدكم الله . فقالوا : فانا لا ننبو عنك ، وأسلموا . فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء مزينة يوم الفتح الى خزاعى وكانوا يومئذ ألف رجل (1) .

ومنهم من عاش فى أخيلته ، وكاد خياله يسلبه ، ويسلمنا معه الى غيبيات لا نملك من أمرها مقنعا ، حين يأتيه الجن فيسمعه أبياتا من الشعر فى ترك الاصنام واتباع الدعوة ، يروى أبو الفرج عن العباس بن مرداس قوله :

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 : 292 ط دار صادر

كان لأبى ــ اى لأبى العباس ــ صنم اسمه ضمــار ، فلمــا حضره الموت أوصانى به وبعبادته والقيام عليه فعمدت الى ذلك الصنم فجعلتــه فى بيت ، وجعلت آتيه فى كل يوم وليلة مرة ، فلما ظهر أمر رسول اللــه صلى الله عليه وسلم ، سمعت صوتا فى جوف الليل راعنى فوثبت الــى ضمار فاذا الصوت فى جوفه يقول :

قــل للقبائل مــن سليم كلهــا
هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
ان الذى ورث النبوة والهدى
بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى الضمار وكان يعبــد مرة
قبل الكتاب الــى النبى محمد

قال : فكتمت الناس ذلك فلم أحدث به أحدا حتــى انقضت غزوة الأحزاب ، فبينا أنا فى ابلى فى طرف العقيق وأنــا نائم اذ سمعت صــوتا شديدا فرفعت رأسى فاذا أنا برجل على حيالى بعمامة يقــول : ان النــور الذى وقع بين الاثنين وليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء (اسم ناقــة النبى صلى الله عليه وسلم) فى ديار بنى أخى العنقاء • فأجابه طائف عن شماله لا أبصره فقال : بشر الجن وأجناسها أن وضعت المطى أحلاسهــا (الحلس : كساء تحت البرذعة) فوثبت مذعورا وعرفت أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصطفى فركبت فرسى وسرت حتى انتهيت اليــه فبايعته ، وانصرفت الى ضمار فأحرقته بالنار (1)

وللطبرى حديث آخر يرويه بسنده عن أسماء بنت أبى بكر ، وقــد

(1) الاغانى 14 : 303 وما بعدها ط دار الكتب ، 13 : 62 ط الاستقامة

جاءها نفر من قريش يسألون عن النبى صلى الله عليه وسلم وأبـى بكر . قالت ومكثنا ثلاث ليال لا ندرى أين توجه رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يغنى بأبيـات مـن الشعر غناء العرب والناس يتبعونه ويسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلا مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين قالا خيمتـى أم معبـد
هما نزلاها بالهدى واغتدوا به
فأفلح من أمسـى رفيق محمد
ليهن بنـى كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد (1).

فعلمنا أنه توجه الى المدينة .

ومن الناس من مال كل الميل الى الاسلام ، ومنهم من نازعته نفسه فاتبع المشركين يوما ثم ذهب الى المسلمين يوما آخر ، ومنهم من عاد وارتد ولهم فى ذلك أشعار ملأت كتب الأدب والتاريخ ، لقد فزعت زوجة العباس ابن مرداس حين بلغها اسلام زوجها ، فقوضت بيتها وارتحلت الى قومهـ وقالت تؤنبه :

ألم ينه عباس بن مرداس اننـى
رأيت الورى مخصوصـة بالفجائع
أتاهم من الأنصار كل سميدع
من القوم يحمى قومه فـى الوقائع

(1) الطبرى 2 : 104 — 105

بكل شديد الوقع عضب يقوده
السى الموت هام المقربات البراقع
لعمرى لئن تابعت ديـن محمد
وفارقت اخوان الصفـا والصنائع
لبدلت تلـك النفـس ذلا بعزة
غـداة اختلاف المرهفات القواطع
وقوم هم الرأس المقدم فىالوغى
وأهل الحجا فينا وأهـل الدسائع
سيوفهم عز الـذليل وخيلهـم
سهام الأعادى فى الأمور الفظائع (1)

ومن الذين بدأوا مشركين وشاركوا فى المقاومة ، ثم انتهوا مسلمين وشاركوا فى الدعوة عبد الله بن الزبعرى ، وكان من الالسنة الحداد فى جانب قريش ، وظل معهم يوم أحد فقال ينتصف لبدر :

ليت أشياخى ببـدر شهـدوا
ضجر الخزرج من وقـع الأسل
حـين ألقـت بقنـاة بركهـا
واستحر القتل فـى عبد الأشل
فقبلنـا النصف مـن سادتهم
وعدلنـا ميـل بـدر فاعتدل

فلما أسلم ابن الزبعرى عام الفتح مدح النبى صلى اللـه عليه وسلم واعتذر اليه بقوله :

---

(1) الاغانى 14 : 306 — 307

يا رسـول المليك ان لسانـي

راتق مـا فتقت اذ انـا بـور

اذ أجارى الشيطان فى سنن الغ

ى ومـن مـال ميلـه مثبور

آمن اللحم والعظـام بمـا قلـ

ـت فنفسى الفدى ، وأنت النذير

وله قصيدة أخرى بنفس المعنى وفى نفس المصدر (1) ولمـا كـان الاسلام يجب ما قبله لم أدهش حين رأيت اسمه متبوعا بكلمـة (رضى الله عنه) .

وكذلك كان كعب بن زهير فلقد ناوأ الدعوة قبـل أن يسلم وكان يذم أخاه بجيرا ويعاتبه أن أسلم ووجه اليه عتابا قائلا :

الا ابلغـا عنى بجـيرا رسـالة

على أى شىء ويب غيرك دلكـا

على خلق لم تلف أمـا ولا أبـا

عليه ولم تدرك عليه اخـا لكـا

سقاك ابو بكـر بكأس رويـة

فأنهلك المأمـون منهـا وعلكـا

ويروى المأمور (2) ثم أسلم وأنشأ قصيدته المشهورة :

بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول

متيم أثرهـا لـم يفـد مكبول

وصار من خيـار المسلمين ، وأصفى الدعوة شـعره .

(1) طبقات فحول الشعراء للجمحى 202 ط دار المعارف

(2) الاغانى 15 : 142 ط الاستقامة

وكان مالك بن عوف النصرى قائد المشركين في حنين ، وأشدهم خطرا على المسلمين ثم أسلم فقال يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
فى الناس كلهم بمثل محمد (1)

ومن وراء هذه الامور الرتيبة التى يمكن افتراض حدوثها أمور أخرى يأتى بها تداخل الاحداث أو ملابسات الدعوة وتستمد منزعها من أصل اجتماعى ساد يوما فى جاهليتهم وأثارتها المناسبة فى وضعهم الجديد وعبرت الالسنة عن ذاك شعرا على طريقتهم • كنا نعرف عادة من عاداتهم فى الجاهلية ان رئيسهم حين يقود الغارة أو يأمر بالغزو يتحدد نصيبه بربع الغنائم ويطلقون عليه كلمة المرباع ، ويفخرون بذلك فى أشعارهم تذكيرا بانتصاراتهم فى وقائعهم ، ولقد أشار الى ذلك الزبرقان بن بدر حين جاء مع قومه لمفاخرة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله :

نحن الملوك فلا حى يقاربنا
منا الملوك وفينا يؤخذ الربع

ولمحنا صورة اسلامية علها تعود الى هذا الاصل عندما وجد العباس ابن مرداس نصيبه من العطاء يقل عن زميليه الاقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فغضب وذهب محتجا الى النبى صلى الله عليه وسلم فأنشده :

وكانت نهابا تلافيتها
بكرى على المهر فى الاجرع
وايقاظى الحىّ أن يرقدوا
اذا هجع القوم لم أهجع

(1) السيرة 4 : 138

فأصبح نهبى ونهب العبيـ
ـد بين عيينة والاقرع (1)
وقد كنت فى الحرب ذا تدرء
فلم أعط شيئا ولم أمنع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع (2)

ولكن يبدو ان اعتبارات توزيع العطاء فى الجاهلية لم تكن هى السائدة فى الاسلام اذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يتألف قلوب البعض ليرسخ قدمهم فى الاسلام ، يبدو هذا من حديث رجل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن ، والاقرع بن حابس مائة ، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الارض كلهم مثل عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة الى اسلامه ـ وظهرت مثل هذه النزعة عند حسان ابن ثابت يوما حين أعطى النبى صلى الله عليه وسلم ما أعطى فى قريش وقبائل العرب ، ولم يعط الانصار ، وتحدثت الانصار فى هذا حتى خطبهم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . (3)

وحين لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى جادت قريحة حسان بن ثابت بأربع قصائد من عيون الشعر العربى .

---

(1) العبيد = فرس العباس بن مرداس
(2) الاغانى 14 : 308 ط دار الكتب
(3) السيرة 4 : 148

الشعر في عصر الراشدين

والراشدون لم تلههم أعباء الخلافة وتبعات الحكم والفتح عن النظر في الشعر واستنشاد الشعراء ، وشاركت الاحداث أحيانا ومناسبات الغزو في قول الشعر ، ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يستعمله كسلاح يواجه به المشركين ويقول لحسان بن ثابت : سن الغطاريف على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام وتحفظ ببيتي فيهم (1) •

وكان يهش الى سماعه ولقد اتسع صدره ليسمع من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية وهو يقول : هيه هيه كأنه يستزيد منشده (2) ونحن نعرف مواقف لأمية كان فيها الى جانب المشركين •

ويقول جابر بن سمرة جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم (3) •

ويروي ابو الفرج بسنده عن ابن عائشة قوله : أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله

حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلى الله عليه وسلم : ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه الا عنترة (4) •

---

(1) العقد 5 : 277 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر
(2) الاغاني 4 : 129 ، العقد 5 : 277
(3) الطبقات الكبرى لابن سعد 2 : 95 — 96
(4) الاغاني 8 : 243 ط دار الكتب

ويقول أنس بن مالك : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فـــى مجلس ليس فيه الا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيـــدة لقيس بـــن الخطيم يعنى قولـــه :

أتعرف رســـما كاطـــراد المذاهب
لعمرة وحشبـــا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم اياها فلما بلغ الى قولـــه :

أجالدهم يـــوم الحديقة حاســـرا
كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

التفت اليه رسول الله صلى الالـــه عليه وسلم فقال : (هـــل كان كما ذكر ؟) فشهد له ثابت بن قيس بن شماس (1) .

وقالت عائشة رضوان الله عليها : دخل علىّ رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفـــه
يومـــا فتدركه العواقب قد نمـــا
يجزيك أو يثنى عليـــك وأن من
أثنى عليك بما فعلت فقـــد جزى

فقال صلى الله عليه وسلم : ردى على قول اليهودى قاتله الله ! لقد أتانى جبريل برسالة من ربى : أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لـــه جزاء الا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه (2) .

وقال صلى الله عليه وسلم ، وذكر عنه امرؤ القيس بن حجر : هـــو قائد الشعراء ، وصاحب لوائهم (3) .

---

(1) الاغانى 3 : 7

(2) الاغانى 3 : 117 ، العقد 5 : 275

(3) العقد 5 : 270

وأنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قول طرفة :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فقال : هذا من كلام النبوة (1)

ويروى يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعى عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ومنشد ينشده قول سويد بن عامر المصطلقى :

لا تأمنن وان أمسيت فى حرم

ان المنايا بجنبى كل انسان

فاسلك طريقك تمشى غير مختشع

حتى تلاقى الذى منّى لك المانى

فكل ذى صاحب يوما مفارقه

وكل زاد وان أبقيته فانى

والخير والشر مقرونان فى قرن

بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو أدرك هذا الاسلام لأسلم (2).

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأثر بالقول الصادر من اعماق الشعراء وهم يستعطفونه فى بعض ما يلم بهم ، فلقد أنشدته قتيلة بنت الحارث ترثى اخاها النضر بالقصيدة التى اولها:

يا راكبا ان الأثيل مظنة

---

(1) العقد 5 : 271

(2) العقد 5 : 276

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته (1) .

ومن حديث زياد بن طارق الجشمى قال : حدثنى ابو جرول الجشمى وكان رئيس قومه قال : أسرنا النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين فبينما هو يميز الرجال من النساء اذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله فى حرم
فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها
يا أرجح الناس حلما حين يختبر
انا لنشكر للنعمى اذا كفرت
وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه فقال صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم . فقالت الانصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله فردت الانصار ما كان فى أيديها من الذرارى والاموال (2) .

وقدم ابو ليلى النابغة الجعدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : الى اين يا أبا ليلى ؟ فقال : الى الجنة يا رسول الله بك ــ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الى الجنة ان شاء الله ، فلما انتهى الى قوله :

---

(1) العقد 5 : 279

(2) العقد 5 : 279 — 280

ولا خير فى حلم اذا لم تكن لــه
بوادر تحمى صفوه أن يكــدرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن لــه
حليم اذا ما أورد الامر أصــدرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك (1) .

وحصل كعب بن زهير ــ بعد أن أمنه الرسول صلى الله عليه وسلم على برد اشتراه منه معاوية بعشرين الفا بعد أن سمع منه قصيدته (بــانت سعاد) كما أثاب العباس بن مرداس بحلــة (2) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى سفر : أين حسان بن ثابت، فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : أحْدُ ، فجعل ينشــد ويصغى اليه النبى صلى الله عليه وسلم ويستمع ، فما زال يستمع اليه ... حتى فرغ من نشيده فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لَهذا أشــد عليهم من وقــع النبل) (3) .

وبعد . فالأدلة على استحسان النبى صلى الله عليــه وسلم للشعــر أكثر من أن تحصى ، ولدينا من الاخبار ما يشير الى أن النبى صلى اللــه عليه وسلم ربما تجاوز مضمون الشعر الى دوافعه وكنهه ، سأل عبد اللــه ابن رواحة يوما ، أخبرنى : ما الشعر يا عبد الله ؟ قال : شىء يختلــج فى صدرى فينطق به لسانى . قال : فأنشدنى . فأنشده :

فثبت الله مــا آتــاك من حسن
فثبوت عيسى باذن اللــه والقدر

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وايــاك ثبت اللــه ، وايــاك ثبت اللــه (4) .

---

(1) العقد 5 : 276
(2) العقد 5 : 291
(3) الاغانى 4 : 143
(4) العقد 5 : 278

وكان صلوات الله عليه وسلامه يعرف أجواء الشعر ، والمحيط الذى يغترف منه الشاعر والأخيلة التى يصدر عنها ، ولا يغضب من الشاعر يأتى فى شعره بما يتنافى مع النسك ونهاية التقوى ، روى ابو هريرة قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر وحاد يحدو :

طاف الخيالان فهاجا سقمـا
خيال لبنى ، وخيال تكتمـا
قامت تريك خشية أن تصرما
ساقا بخنداة ، وكعبا أدرمـا

والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر ذلك (1) .

وهكذا كان نزوع العرب جميعا الى قول الشعر وروايته نزوعا قويا كما يقول صلوات الله عليه : لن تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين، وحديث الشعر عند الراشدين لا يختلف عن هذا الأصـل .

فأبو بكر

كان شاعرا (2) وذكر ابن رشيق بعض شعره فى كتاب العمـدة (3) كما نسب له صاحب كتاب السيرة بعض الاشعار (4) وطبيعة الشعر فـى عصره لا تختلف عن الصورة التى رأيتها فيما قرأت من احداث الدعوة . فقد تولى أمر المسلمين والاعراب فى البوادى يضمرون العودة الى ماضيهم والتحلل من الارتباط بالحكومة القائمـة فى يثرب يهولهم أمـر الزكاة ،

---

(1) الاغانى 21 : 58 ط الاستقامة
(2) العقد 5 : 283
(3) العمدة 1 : 13 ط هندية سنة 1925
(4) السيرة 2 : 225

ويرون فى أدائها انتقاصا من قيمهم حتى لقد عرض بعضهم أن يقيم الصلاة ولا يؤتى الزكاة • وادعى بعضهم النبوة ، وأدرك الخوف بعض الصحابة حتى زين لأبى بكر أن يتألف قلوب الناس حرصا على تماسك الأمة ومنهم عمر بن الخطاب • ولكن ابا بكر قابل الامر بالحزم والشدة وواجه عمر أشد المواجهة وقال له : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ، جبارا فى الجاهلية خوارا فى الاسلام ! بماذا عسيت أن أتألفهم ؟ بشعر مفتعل ؟ أو بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات ، مضى النبى صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحى ، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لقاتلتهم على منعها •

واستغلظ أمر مسيلمة ، وطليحة الأسدى ، واجتمع على طليحة عوام طيء واسد وترددت هوازن فقدمت رجلا واخرت اخرى وكذلك فعلت أفناء من بنى سليم وغيرها • ولكن اكثر هؤلاء طأطأوا رؤسهم عندما دهمهم خالد بن الوليد الذى خرج يريد القطاع بعد أن استبرأ أسدا وغطفان وطيئا وهوازن ، ولم يبق فى بلاد بنى حنظلة الا مالك بن نويرة ومن لاذ به وانتهى الامر بقتل مالك • وفى الردة والمرتدين حديث طويل لا نريد أن نجشمك مشقته فمقالنا يستهدف الكشف عن مكان الشعر فى هذه الحقبة ونحن نقصر حديثنا عليه •

كان مالك بن نويرة اليربوعى شاعرا ، شريفا فى قومه ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم — وأسلم — فاستعمله على صدقات قومه ، فلما علم بموت النبى صلى الله عليه وسلم فرق ما فى يده من ابل الصدقة ، ونصحه الأقرع بن حابس ، والقعقاع بن معبد أن يتأنى فى أمره فقال لهما:

ارانى الله بالنعم المندى

ببرقة رحرحان وقد أرانى

تمشى يابـن عوذة فـى تميـم
وصاحبـك الأقـيرع تلحيانى

وقال معللا لمـا فعـل :

وقلت خذوا أموالكـم غير خائف
ولا ناظـر فيما يجىء من الغـد
فان قـام بالامـر المخوف قائـم
منعنا ، وقلنا : الدين دين محمد

فلما قتل مالك ـ فى خبر طويل ـ ذهب أخوه متمم بن نويرة ، ومعه بعض الشعراء ، الى أبى بكر يشكون ما فعله خالد فقال ابو نمير السعدى :

ألا قـل لحى أوطئوا بالسنابك
تطاول هذا الليل من بعـد مالك
قضى خالد بغيـا عليه بعرسـه
وكان لـه فيها هوى قبل ذلـك
فأمضى هواه خالـد غير عـاطف
عنـان الهوى عنهـا ولا متمالك
فأصبح ذا أهـل وأصبح مالـك
الى غير أهل ، هالكا فى الهوالك

وصلى متمم بن نويرة مع أبى بكر الصبح ، ثم أنشد :

نعـم القتيـل اذا الريـاح تناوحت
تحت الازار قتلت يابـن الأزور
أدعوتـه باللـه ثـم قتلتـه
لو هو دعـاك بذمـة لم يغـدر

فقال ابو بكر : والله ما دعوته ولا قتلته فقال :

لا يضمـــر الفحشاء تحت ردائـــه
حلـــو شمائلـــه عفيف المئـــزر
ولنعم حشو الدرع أنت وحاسرا
ولنعـــم مأوى الطـــارق المتنور

ومن عيون الشعر العربى ، ومن أجمل المراثى قصيدة متمم فى رثـــاء أخيـــــه

لعمرى ومـــا دهرى بتأبين مالك
ولا جزع مما أصـــاب فأوجعـــا
لقـــد كفن المنهال تحت ردائـــه
فتى غير مبطان العشيات اروعـــا

وسمعه عمر بن الخطاب وهو يقول من هذه القصيدة :

وكنـــا كندمانى جذيمة حقبـــة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعـــا
فلمـــا تفرقنـــا كأنـــى ومالكـــا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معـــا

قال عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت انى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخـــاك (1)

ولم يكن عمر وحده الذى يعجب بقصائد متمم فى أخيـــه مالـــك ، ولكن يبدو أن صدق حزنه على أخيه قد طير مراثيه الى آفـــاق بعيـــدة ،

(1) الاغانى 14 : 67 — 68 ط الاستقامة

وتناقلتها الرواة ، وحبب الى الكثيرين سماع متمم بـن نويرة ــ الا يكن بشخصه فبالرواية عنه ، روى ابو الفرج بسنده قال : بينا طلحـه والزبير يسيران بين مكة والمدينة اذ عرض لهما أعرابـي ، فوقفـا ليمضى فوقف ، فتعجلا يسبقاه فتعجل ، فقالا : ما أعجلك يـا أعرابى ، تعجلنـا لنسبقك فتعجلت ، فوقفنا لتمضى فوقفت. فقال : هبانى خفت الضلال فأحببت أن استدل بكما ، أو خفت الوحشة فأحببت أن أستأنس بكما . فقال طلحة : من أنت ؟ قال : أنا متمم بن نويرة فقال طلحة : واسوأتاه لقـد مللنـا غير مملول . هات بعض ما ذكرت فى اخيك من البكاء . فزوجوه أم خالد فبينا هو واضع رأسه على فخذها اذ بكي فقالت : لا اله الا اللـه ، أمـا تنسى أخاك ؛ فأنشأ يقول :

أقول لها لما نهتنى عـن البكـا
أفـى مالـك تلحيننى أم خالـد
فان كان اخوانى اصيبوا وأخطأت
بنى أمك اليوم الحتوف الرواصد
فكـل بنـى أم سيمسون ليلـة
ولم يبق من أعيانهم غير واحد (1)

ولقد ظلت رواية الشعر تبحث عن قصائد متمم آجالا طويلة ؛ فكانت ميراثا لاحفاد متمم ، أخبر بذلك محمد بن سلام الجمحى فقال : أخبرنـى أبو عبيدة ان ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض مـا قـدم له البدوى في الجلب والميرة ، فنزل النحيت فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر ابيه متمم (يقصد جده) وقمنا له بحاجته، وكفيناه ضيعته فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الاشعار ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام

---

(1) الاغانى 14 : 69 ط الاستقامة

متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنـه يفتعله (1) وأبو عبيدة كما نعلم أحد ثلاثة يعتبرون عصب الرواية فى تاريخ الرواية كلها .

وقلما تجد انتاجا أدبيا فى غير قرى الحجاز الا وهو صادر عن عصبيتهم الماضية ، وحسرتهم عليها وهذه صورة بدت فى شعر ابن بقيلة وهو عمرو ابن عبد المسيح حين أخضع خالد بن الوليد رؤساء الحيرة فقال يتحسر على ماضيـه :

أبعـد المنـذرين أرى سـواما
تـروح بالخـورنق والسديـر
وبعـد فوارس النعمان أرعـى
قلوصـا بـين مـرة والحفـير
فصرنـا بعـد هلك أبـى قبيس
كجرب المعـز فى اليـوم المطير
تقسمنـا القبائـل مـن معـد
علانيـة كأيسـار الجـزور
وكنـا لا يـرام لنـا حـريم
فنحن كضرة الضـرع الفخـور
نؤدى الخرج بعد خراج كسـرى
وخـرج مـن قريظـة والنضير
كذاك الدهـر دولتـه سـجال
فيوم مـن مساءة أو سرور (2)

الى غير ذلك من الاحداث التى صدرت فى عهد ابى بكـر .

---

(1) طبقات فحول الشعراء 40 ط دار المعارف
(2) تاريخ الطبرى 2 : 566

وفي عهد عمر

كان عمر رضى الله عنه من علماء الشعر ، يعـرف جيده ، ويتحسس الجمال فيه ، ويتعرف على طعومه ، ويلذ لاستماعه ولا يكاد يعرض له أمر الا أنشد فيه بيت شعر (1) ويحكى ابن عباس فيقول : خرجت مع عمر فى اول غزوة غزاها فقال لى ذات ليلة: يا ابن عباس ، أنشدنى لشاعر الشعراء. قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ابن أبى سلمى . قلت : وبـم صـار كذلك ؟ قال : لانه لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل مـن المنطق ، ولا يقول الا ما يعرف ، ولا يمتدح الرجل الا بما يكون فيه ، اليس الذى يقول كذا وكذا . أنشدنى له . فأنشدته حتى برق الفجر (2) .

وهو يعجب بشعر النابغة ويتخير منه أبياتا يحفظها . سأل نفرا مـن غطفان ، من الذى يقول :

أتيتـك عاريـا خلقـا ثيابـى
علـى خوف تظـن بى الظنون

قالوا : النابغة .

قال : ذاك أشعر شعرائكـم .

وقال يومـا : من أشعر النـاس ؟

قالوا : أنت أعلم يـا أمير المؤمنين .

قال : من الذى يقول :

الا سليمـان اذ قال الالـه لـه
قم فى البريـة فاحددها من الفند
وخبر الجن أنى قـد اذنت لهـم
يبنون تدمـر بالصفاح والعمـد

---

(1) البيان والتبيين 1 : 241

(2) الاغانى 10 : 290 — 291

قالوا : النابغــة •

قال : فمن الذى يقول :

حلفت فلم أتــرك لنفسك ريبــة

وليس وراء اللــه للمرء مذهب

لئن كنت قــد بلغت عنى خيانــة

لمبلغك الواشى أغش وأكــذب

ولســت بمستبق أخــا لا تلمــه

على شعث ــ أى الرجال المهذب

قالوا : النابغــة •

قال : فهو أشــهر العــرب (1) •

ولقى عمر بعض ولد هرم بن سنان فاستنشده شعر زهير فــى أبيــه فأنشده فقال له : انه كان ليحسن فيكم القول • قال : ونحن والله ان كنــا لنحسن له العطاء فقال : لقد ذهب ما أعطيتموه ، وبقى ما أعطاكم (2) •

وهو يوصى بتعلم الشعر وروايته ويكتب الى ابى موسى الاشعرى (مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معالى الاخــلاق وصواب الــرأى ومعرفة الانساب) (3) ، ويصف الشعر فيقول : الشعر جزل مَن كلام العرب يسكن بــه الغيظ ، وتطفأ بــه الثائرة ، ويتبلغ بــه القــوم فى ناديهم ، ويعطى به السائل (4) •

وكل ما حاوله عمر هو الوقوف أمام نوع واحد من الشعر . هو شعر الهجاء • ورأى فيه شيطانا للفرقة بعد أن جمع الله أمر المسلمين فنهى الناس

(1) الاغانى 11 : 4 ، العقد 5 : 281

(2) الاغانى 1 : 304

(3) العمدة 1 : 10

(4) العقد 5 : 281

أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الانصار ومشركى قريش وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن وقد هدم الله أمر الجاهليــة بمـا جـاء فى الاسلام (1) •

وكان عمر فى هذا يتطلع الى تماسك رعيته وجمع الناس عـلى رأى واحد ، وحاول عمر أن يهدر قيم الهجاء حتى يفقـد أثـره فى اذن السامع ويتعطل هذا اللون من الشعر جاءه وفد من بنى العجلان يشكون اليه لسان النجاشى وقد هجاهم بقوله :

اذا اللــه عادى أهــل لؤم ورقــة

فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : انه دعا عليكم ولعله لا يجاب •

فقالوا : انه قال :

قبيلـــة لا يغــدرون بذمـــة

ولا يظلمون النــاس حبــة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء • وظل يحاورهم على هــذا النحو الى أن ضجـوا ،

فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانـا

فقال : ما أسمع ذلـك

فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت• فسأله فقال حسان : ما هجاهم ولكن سـلح عليهـم (2) •

وتكرر موقف عمر هذا حين جاءه الزبرقان بن بـدر يشكو الحطيئـة لقولـه فيـه :

---

(1) الاغانى 4 : 140

(2) العمدة 1 : 23 ط هندية سنة 1925

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر : ما أرى به بأســـا

قال الزبرقان : والله يا أمير المؤمنين ما هجيت ببيت قـــط أشـــد على منـــه .

فبعث الى حسان بن ثابت وقال : انظر ان كان هجاه ، فقال : ما هجاه ولكن سلح عليه (1) .

ولم يكن عمر يجهل موضع القسوة فى هذا الشعر ، ولكنه كان يبغى خلع قيم شعر الهجاء حتى لا تعود الامـــة شيعا كمـــا كانت فى الجاهليـــة ، وحاول أخذ الهجائين بالشدة والقى بالحطيئة فى غياهب السجن لـــولا أن استعطفه بضعفه وضعف عياله بكلمات تذيب القلب يقول فيها :

ماذا تقول لافـــراخ بـــذى مـــرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فـــى قعـــر مظلمـــة
فاغفر عليك سلام الله يـــا عمـــر
أنت الامام الذى من بعد صاحبـــه
ألقى اليك مقاليـــد النهى البشـــر
مـــا آثروك بهـــا اذ قدموك لهـــا
لكن لانفسهم كانت بها الاثر (2)

ومع هذا الجهد الذى بذله عمر فانه لم يصب نجاحـــا فى محو شـــعر

(1) العقـــد 5 : 293
(2) العقد 5 : 293

الهجاء ولا التقليل منه اذ كان هذا اللون من الشعر يستمد دعامته وقوته من طبيعة البيئة ، ولم يستطع عمر نفسه أن يقاوم رغبة حسان فى الثأر الأدبـــى كما يبدو من رواية أبى الفرج على الوجه التالى :

« نهى عمر بن الخطاب الناس أن ينشدوا شيئا من مناقضة الانصـــار ومشركى قريش وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن ، وقـــد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الاسلام ، فقدم المدينـــة عبـــد اللـــه بن الزبعرى السهمى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ثم المحاربى فنزلا على أبـــى أحمد بن جحش وقالا له : نحب أن ترسل الى حسان بـــن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فأرسل اليه فجاءه فقال له : يـــا أبـــا الوليد ، هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار قـــد جاءا يريدان أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار: نعم يا أبا الوليد ان شعرك كان يحتمل فى الاسلام ولا يحتمل شعرنا وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : افتبدآن أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن . قال : ابدآ ، فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضبا ثـــم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمـــر بن الخطاب فقص عليـــه قصتهما وقصته ، فقال له عمر : لن يذهبا عنك بشىء ان شاء الله وأرسل من يردهما ، وقال له عمر : لو لم تدركهما الا بمكة فارددهما علىّ .

وخرجا ... فأقاما بالروحاء .... حتى وافاهما رسول عمر فردهمـــا اليه فدعا لهما بحسان ، وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك فى الخلاء ، وأنشدتهما فى الملأ (١) .

---

(١) الأغاني 4 : 140

ونستطيع ان نتصور موقف الشعر وموقف الشعراء فى عهد عمر من المثال السابق ، ومن جرأة حسان على الخليفة فى موقف آخر عندما مر عليه وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهره عمر، فقال حسان : لقد أنشدت فيه من هو خير منك ؛ فانطلق عمر (1) •

وحفلت أيام عمر بالفتوح . وفى هذا الباب وحده سيل من الشعر والرجز لا يدركه الحصر ، ونكتفى منه بمثالين فى حرب القادسية سنه ١٦ من الهجرة • يقول قيس بن المكشوح المرادى فى هذه الوقعة :

حلبت الخيل من صنعاء تردى
بكل مدجج كالليث سام
وجئن القادسية بعد شهر
مسومة دوابرها دوام
فناهضنا هنالك جمع كسرى
وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعا
بسيف لا أفلّ ولا كهام
وقد أبلى الاله هناك خيرا
وفعل الخير عند الله نام (2)

وفى ذات الواقعة يصفها بشر بن ربيعة فيقول :

تذكر هداك الله وقع سيوفنا
بباب قديس والمكر ضرير

---

(1) الاغانى 4 : 143
(2) فتوح البلدان 261 ط ليدن

عشية ود القـوم لو أن بعضهـم
يعـار جنـاحى طائـر فيطـير
اذا بـرزت منهـم الينـا كتيبـة
أتونـا بأخرى كالجبـال تمور
فضاربتهم حتـى تفـرق جمعهـم
وطاعنت انـى بالطعـان شـهير

وأمثال هذا الشعر كثير تجده فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، وفى تاريخ الطبرى وفى أخبار متفرقة من كتاب الاغانى . وبحسبك مـن انواع الشعر المختلفة فى هذه الفترة فرائد حسان قيدتها لطرافتها ، وكأنى أستريح من قضية تحقيق الشعر فى صدر الاسلام الى حديث الادب والحـديث ذو شـجون .

كان أبو محجن عبد الله بن حبيب الثقفى يشرب الخمر فى الجاهلية . وكان رجلا شاعرا يردد من ذاكرته ما يساء تفسيره ، فأقام عمـر بن الخطاب عليه الحد مرارا ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص بحبسه ، فلما كان يـوم القادسية سأل أبو محجن امرأة سعد ان تعطيه فرس سعد ، وتحـل قيـده ليقاتل المشركين فان استشهد فلا تبعة عليه ، وان سلم عاد حتى يضع رجليه فى القيد ؛ فاعطته الفرس ، وخلت سبيله وعاهدها على الوفاء فقاتل فأبلى بلاء حسنا الى الليل ثم عاد الى حبسه وهو يقول :

لقـد علمـت ثقيف غـير فخـر
بأنـا نحـن أكرمهـم سيوفـا
وأكثرهـم دروعـا سابغـات
وأصبرهم اذا كرهـوا الوقوفـا

وأنـا رفـدهم فـي كـل يـوم
فان جحدوا فسل بهـم عريفـا
وليلـة قادس لـم يشعـروا بـي
ولم أكـره لمخرجي الزحوفـا
فان أحبس فقـد عرفـوا بلائـي
وان اطلـق اجرعهـم حتوفـا

فقالت له سلمى : يا أبا محجن ، فى أى شىء حبسك هـذا الرجـل ؟ فقال : أما والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربتـه ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر علـى لسانى فينفثه أحيانا فحبسنى لانى قلت :

اذا مت فادفنى الى أصـل كرمـة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فـى الفـلاة فاننـى
أخاف اذا ما مت ألا أذوقها (1)

وفى هذا ـ زيادة على طرافة الخبر ـ دليل علـى أن ألسنة الشعراء تعيش فى ماضيها ، وفى وجدانها لا تقصد من قول الشعر الا قول الشعـر أحيانا ، ولقد سمع عمر قول أبى محجن يوما :

وانى لذو صبر وقد مـات اخوتى
ولست عن الصهباء يومـا بصابر
رماهـا أمـير المؤمنين بحتفهـا
فخلانها يبكون حول المعاصـر

(1) الاغانى 21 : 138 وما بعدها ط التقدم

فقال عمر : قد أبديت ما فى نفسك ولأزيدنك عقوبة لاصرارك على شرب الخمر ، فعارضه على عليه السلام قائلا لعمر : ما يجوز ان تعاقب رجلا قال لأفعلن وهو لم يفعل وقد قال الله فى الشعراء (وانهم يقولون ما لا يفعلون) •

ولنسرع الخطا مع عثمان وعلى فالمسار يكاد يكون متماثلا رتيبا ، والاحداث متشابهة وألسن الشعراء تشارك فى كل صغيرة وكبيرة •

بويع لعثمان بن عفان بالخلافة سنة أربع وعشرين ، وقبل أن تتم البيعة واجهته قضية عبيد الله بن عمر ، فلقد شهد نفر من الناس أن الهرمزان ، وجفينة كانا شريكى أبى لؤلؤة فى قتل عمر ، فامسك بسيفه وقتلهما ، وانتظر المسلمون كيف يخرج عثمان من هذه الازمة ، كيف يأمر بقتل عبيد الله بن عمر ودم والده لم يجف بعد — أو كيف يصفح فيضع سابقة فى قضاء الخلفاء — قيل أن عثمان أمر بدفع الديات وتحملها هو ، وبقيت الواقعة تداعب أذهان الناس ، وعرض لها بعض الشعراء فكان كلما تقابل زياد بن لبيد البياضى مع عبيد الله بن عمر ذكره بفعلته قائلا :

الا يا عبيد الله ما لك مهرب
ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دما والله فى حله
حراما وقتل الهرمزان له خطر
على غير شىء غير أن قال قائل
اتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة
نعم اتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد فى جوف بيته
يقلبها والامر بالامر يعتبر

فشكاه عبيد الله الى عثمان ، فقال زياد فى عثمان أيضا :

أبا عمرو ، عبيد الله رهن   فلا تشكك بقتل الهرمزان

فانك ان غفرت الجرم عنه   وأسباب الخطا فرسا رهان

لتعفو اذ عفوت بغير حق   فما لك بالذى تخلى يدان (1)

وفى عهد عثمان استمرت الفتوح والغزوات والتصدى لاعداء المسلمين ؛ فقد نقضت الاسكندرية عهدها فغزاها عمرو بن العاص سنة ٢٥ ، وتم فتح أفريقية على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة 27 وتم فتح قبرص على يد معاوية بأمر عثمان فى سنة 28 ، وفى عهده قامت الدعوة التى حمل لواءها أبو ذر حين أخذ يدعو للاشتراكية ويحرض الفقراء على الاغنياء وشارك الشعر فى هذه الاحداث ومثيلاتها •

وكان على شاعرا ذكر له صاحب كتاب العمدة شعرا يوم صفين يذكر فيه همدان ونصرهم اياه (2) وذكر صاحب العقد بسنده عن سعيد بن المسيب ان ابا بكر كان شاعرا وكان عمر شاعرا، وكان على أشعر الثلاثة(3) وكان اذا اراد المبارزة فى الحرب انشأ يقول :

أى يومى من الموت افر

يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه

ومن المقدور لا ينجو الحذر

ويعجب بأرض الكوفة فاذا سار فيها ارتجز بقوله :

---

(1) تاريخ الطبرى 3 : 302 — 303

(2) العمدة 1 : 14 ط هندية 1925

(3) العقد 5 : 283 ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

يا حبذا السير بأرض الكوفة
أرض سواء سهلة معروفة
تعرفها جمالنا المعلوفة (1)

ومن قوله يوم صفين :

لمن راية سوداء يخفق ظلها
اذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها في الصف حتى يزيرها
حياض المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عني والجزاء بكفه
ربيعة خيرا ما أعف وأكرما (2)

وكان يطرب لسماع الاشعار ويثيب عليها ــ وقف عليه أعرابي وشكا حاجته فاذن لغلامه قنبر أن يدفع اليه حلة من حلله ، فلما أنشده شعرا قال علي : يا قنبر اعطه خمسين دينارا ، وتلفت الى الاعرابي قائلا : اما الحلة فلسمألتك واما الدنانير فلأدبك (3) .

وكانت وقعة الجمل سنة ثلاثين وست ، وصبر الفريقان بعضهم لبعض ، وحمل عليّ بنفسه وقاتل حتى انثنى سيفه ، وخرج فارس أهل البصرة عمرو بن الأشرف لا يخرج اليه احد من أصحاب علي الا قتله وهو يرتجز :

يا أمنا يا خير أم نعلم
والأم تغذو ولدها وترحم
الا ترين كم جواد يكلم
وتختلى هامته والمعصم

ولم تهدأ المعركة بالسيف واللسان الا بعد ان كشفوا عرقوب الجمل بالسيف (4) .

---

(1) العقد 5 : 287 (2) العقد 5 : 283 (3) العقد 5 : 274 والارشاد القومي

(4) الاخبار الطوال 152 لابي حنيفة الدينوري ط وزارة الثقافة

فلما نزل عليّ الكوفة في نفس العــام حرضه الشنيّ علــى السير للشام بقوله :

قل لهذا الامام قــد خبت الحــر
ب وتمــت بــذاك النعمـــاء
وفرغنا مــن حــرب نكث العهــ
ــد، وبالشـــام حية صمـــاء
تنفث السم ، مــا لمــن نهشتــه
فارمها قبل أن تعض شفــاء (1)

وتوالت الاحداث ، وكانت وقعة صفين فــي السنة التالية حين وفــد على معاوية رجل تسمى بالحجاج بن خزيمة بن الصمة أخذ يحرضه بقوله :

ان بنــي عمك عبــد المطلب
هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب
وسر مسير المحزئــل المتلـئب

فضاق معاوية بما اتاه به الحجاج وانشأ قصيدته الطويلة :

اتانــي أمر فيــه للنــاس غمــة
وفيــه بكــاء للعيــون طويــل

القصيدة (2)

وأحداث هذه الفتنة مليئة بالانفعالات التي صورها الشعراء ، والتي لم نجد ضرورة في نقلها مكتفين بالاشارة اليها . (3)

---

(1) الاخبار الطوال 152 (2) الاخبار الطوال 155 — 156
(3) راجع تاريخ الطبري ، وكتاب الاخبار الطوال

الشعر في البادية

رأيت فيما قرأت شعرا يرتبط بالدعوة على وجه من الوجوه . لها أو عليها أو حولها ، وتستطيع أن تعتبر الدعوة محورا جديدا يدور حوله هذا اللون من الشعر نضيفه الـى منزعين عرفا فـى الجاهلية همـا : العصبية ، واشباع النزوع الفنى . ولقد عاش هذان التياران فى البادية ، ولم تتأثر البادية بالدعوة الاسلامية فى كثير ، فالاعراب كما يصفهم القرآن الكريم (أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) .

ولقد تسألنى عن الأعشى وقد أعد قصيدته المعروفة فى مدح النبـى صلى الله عليه وسلم ، وهم بالخروج اليه ليعلن اسلامه كما تحكى الأخبار وكتب الأدب ، فالرأى عندى أن الاعشى لم يتأثر بالاسلام ، وكـان مجيئه استمرارا لمسلكه فـى الجاهلية فالشعر عنده متجر يتجر به ، ولابن رشيق كلام فى هذا يحكيه فى كتاب العمدة فيقول : (كـانت العرب لا تتكسب بالشعر ، وانما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة او مكافأة عن يد لا يستطيع على اداء حقها الا بالشكر اعظاما لها ... حتى نشأ النابغة الذبيانى فمـدح الملوك وقبل الصلة على الشعر ...وتكسب زهير بن أبى سلمى يسيرا مـع هرم بن سنان ، فلما جاء الاعشى جعـل الشعر متجـرا يتجر بـه نحـو البلدان) (1)

والمشهور فى قصة الاعشى انه خرج الى النبى صلى الله عليه وسلـم فى المدة بين صلح الحديبية وفتح مكة ليعلن اسلامه ووجهته الى يثرب كما يقول فى البيت الثامن :

الا أيهذا السائلـى أيـن يممت
فان لها فى أهـل يثرب موعـدا

---

(1) العمدة 1 : 49 ط هندية سنة 1925

فالتقت به قريش ، وكرهوا اليه الاسلام فعاد الاعشى راجعا الى اليمامة ،ومات من عامه . والذي يمعن النظر في القصيدة يرى أن الاعشى جاء يطلب عطاء الرسول ، لان الاعشى كما يدعى لاقى الكثير من تقلب الدهر ولذلك أمضى عمره في جمع المال :

شباب وشيب وافتقار وثروة
فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع
وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

وتأتى الدعوة الاسلامية والاقتناع بها فى المرتبة الثانية أو الثالثة ، يدلك على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم في نظره رجل ذهب صيته فى كل مكان ، وهو يغمر الناس بصدقاته ولا يمنعه عطاء اليوم أن يعطى فى الغد :

نبى يرى ما لا ترون وذكره
اغار لعمرى فى البلاد وانجدا
له صدقات ما تغب ونائل
وليس عطاء اليوم مانعه غدا

ولو كان الرجل صادق الايمان لما رضى بمائة من الابل ثمنا لرجوعه. لقد كان الاعشى فى سبيل المال لا يفرق بين نبىّ ومتنبىء ، وكان على استعداد لأن يهجو الكريم الذى اعطاه واكرمه اذا وجد من هو اكرم منه . والأعشى أعد قصيدته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم فلما وجد من عجل اليه بالعطاء ترك قصده الأول ، وهذه لا تختلف فى كثير مع ماضيه ، ويحكى أبو الفرج خبرا تدرك منه هذه الدلالة :

ـ أتى الاعشى الاسود العنسى ، ونحن نعرف أن الاسود واسمه عبهلة بن كعب كان كاهنا مشعوذا ، وادعى النبوة ، أتى اليه الاعشى ومدحه فاستبطأ جائزته ، فقال : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيك عرضا ، فأعطاه خمسمائة مثقال دهنا ، وبخمسمائة حللا وعنبرا • فلما مر ببلاد بنى عامر خافهم على ما معه فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرنى ، فقال : قد أجرتك • قال : من الجن والانس ؟ قال : نعم• قال : ومن الموت ؟ قال: لا• فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرنى• قال : أجرتك• قال: من الجن والانس؟ قال : نعم ، قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ، قال : وكيف تجيرنى من الموت؟ قال : ان مت وأنت فى جوارى بعثت الى اهلك بالدية • فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت فمدح عامرا وهجا علقمة (1) •

وقصارى ما يقال فيه أنه أعرابى ممن وصفهم القرآن الكريم بالكفر والنفاق •

وهذا فارس من فرسان العرب يذهب لمقابلة النبى صلى الله عليه وسلم لا ايمانا بالدعوة ولكن ليكون له الامر من بعد الرسول • كان عامر ابن الطفيل من فرسان العرب ومن شياطينهم حتى خافه عمرو بن معد يكرب ، فقال يوما : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حرّاها وهجيناها يعنى بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة ، والسليك ابن السلكة (2) •

سمع عامر بن الطفيل بالدعوة الاسلامية وتابع أخبارها فهالته منزلة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم ير فى الدعوة الا صورة من الملك والعزة المانعة ، فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يساومه أن يسلم هو وقومه

---

(1) الاغانى 9 : 120 — 121

(2) الاغانى 8 : 246 ط دار الكتب

على أن يكون له الامر بعد الرسول فقال : يامحمد ما لى ان أسلمت ؟

فقال : الك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين

قال : أتجعل لى الامر من بعدك ؟

قال : ليس ذلك لك ولا لقومك

قال : أفتجعل لى الوبر ولك المــدر ؟

قال : لا ، ولكن أجعل الك أعنة الخيل فانك امرؤ فارس

قال : أو ليست لى ؟ لأملأنها عليك خيلا ورجلا (1) .

ومن العرب من أسلم كما يسلم الناس بعد أن أحاطت به الدعوة من كل جانب . كان ابن أبيّ بن مقبل جافيا فى الدين يبكى أهل الجاهلية فى شعره فقيل له : تبكى أهل الجاهلية وأنت مسلم ؟ فقال :

وما لى لا أبكى الديــار وأهلهــا
وقد زارها زوار عــك وحميرا

وجاء قطا الأجباب من كــل جانب
فوقع فى اعطاننا ثــم طــيرا (2)

واذا فتشت فى افئدة الناس وجدت هواهم مــع قبائلهم ــ عصبيــة أعمتهم عن الهدى ــ ففى غزوة حنين جمع مالك بــن عوف النصرى هوازن وثقيف ... واشتدت الحملة على المسلمين ــ قال ابن اسحق : فلمــا انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفــاة أهــل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ... وصرخ جبلة بن الحنبل (قال ابن هشام : كلدة بن الحنبل) وهو مع أخيه صفوان بن أميــة : ألا بطل السحر

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 3 : 310 ط دار صادر

(2) طبقات فحول الشعراء 125 ط دار المعارف

اليوم • فقال له صفوان : اسكت فض اللـه فاك ، فوالله لان يربّنى رجل من قريش أحب الى" أن يربّنى رجل من هوازن (1) •

فاسلام أبى سفيان لم يصدر عن عقيدة أو ايمان ، وانما أسـلم حين وجد نفسه فى قلة ، وأسلم بلسانه ، وظل قلبـه يرجو الهزيمة للمسلمين ــ وأما كلدة أو جبلة بن الحنبل فقد رأى رأى" السابقين مـن الجاهليين انه السحر ، وقد بطل اليوم ، وأما صفوان فانه لا يريـد النصرة للنبى ايمانـا برسالته ولكن فرارا من هوازن ،وخير عنده أن يجد ربا من قريش بدلا من هـوازن •

وامتنعت ثقيف عن المسلمين ، وامتدحهم عيينـة بن حصن ووصفهم بقوله : مجدة كراما ، فقال له رجل من المسلمين : قاتلك اللـه يـا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـد جئت تنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى والله ما جئت لاقاتل ثقيفا معكم ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف ، فأصيب مـن ثقيف جارية أتطئها لعلها تلد لى رجلا (2) •

وما رأيك فى منظور بن زبان وهو رجل فى ذروة الشرف وسيد قومه من بنى فزارة يتزوج مليكة بنت سنان زوج أبيه ، لقد كانت هـذه العـادة مباحة على كراهية فى الجاهلية فما بال الرجل يقترفها فى الاسـلام ، ومـا عذره الا هوان دينه عليه ــ لقد تزوجها ولم تزل معه الى خلافة عمر ، وكان يشرب الخمر ايضا فرفع امره اليه فأحضره وسأله عما فعل فاعترف به وقال : ما علمت انها حرام ، فحبسه الى وقت صلاة العصر ثم أحلفه انه لم يعلم ان

---

(1) السيرة 4 : 73

(2) السيرة 4 : 130

الله جل وعز حرم ما فعله فحلف ـ فيما ذكر ـ أربعين يمينـا فخلى سبيله وفرق بينه وبين امرأة أبيه وقال : لولا أنك حلفت لضربت عنقك .

قال ابن الكلبى فى خبره : اتنكح امرأة أبيك وهى أمك ؟ اوما علمت ان هذا نكاح المقت ؟ وفرق بينهما فتزوجها محمد بن طلحة فلما طلقها أسف عليها وقال فيهـا :

ألا لا أبالى اليوم مـا صنع الدهـر
اذا منعت منى مليكـة والخمـر
فان تك قد أمست بعيدا مزارهـا
فحىّ ابنة المرّى ما طلع الفجـر
لعمرى مـا كانت مليكـة سوءة
ولا ضم فى بيت على مثلها ستر

وقال أيضـا :

لعمر أبـى ـ ديـن يفرق بيننـا
وبينك قسـرا ـ انـه لعظيـم

وهو لا يقصد بالعظيم كلمة التبجيل ، فلقد رآها مرة وهى تمشى فى الطريق فقال : يا مليكة ، لعن الله دينا فرق بينى وبينك (1).

ولاحظ الاستاذ كارل نلينو فى قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) والتى قيلت فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة أنها تجرى على طريقة أهل البادية فى مدح سادتهم لولا الابيات التى يقول فيهـا :

نبئت أن رسـول اللـه أوعـدنى
والعفو عند رسول اللـه مأمول

---

(1) الاغانى 12 : 194 — 195

مهلا هداك الذى أعطاك نافلـة الـ
قرآن فيـه مواعيـظ وتفصيـل
ان الرسـول لنـور يستضاء بـه
مهند من سيوف الله مسلول (1)

والحقيقة أن محبوبته قد استحوذت وحدها على سبعة وثلاثين بيتـا قبل أن يقول : نبئت أن رسول الله ....

ولم يكن الحطيئة بأحسن من الاعشى مسلكـا ، فكلاهمـا تكسب بالشعر ، الاعشى بالمديح ، والحطيئة بالهجاء ، وكان الحطيئة كصاحبه على استعداد لأن يهجو الكريم اذا وجد من هو اكرم منه ، لقد لقى الزبرقان بن بدر فسأله الاخير عن وجهته فقال الحطيئة : العراق ، وددت أن أصادف بها رجلا يكفينى مؤونة عيالى وأصفيه مدحى أبدا . فقال لـه الزبرقان : قـد أصبته فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمرا ويجاورك أحسن جـوار وأكرمـه ؟ فقال له الحطيئة : هذا وأبيك العيش وما كنت أرجو هذا كله ــ ثم أرسلـه الى أهله وأوصى بالاحسان اليه ، فبلغ ذلك بغيض بن عامر بن شماس وكان على خلاف مع الزبرقان بن بدر فذهب ومعه قومه من بنى أنف الناقة الـى الحطيئة وألحوا عليه فأجابهم ، فضربوا له قبة وربطوا بكل طنب من أطنابها جلة هجرية (الجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر) واراحوا عليه ابلهم .... ولم يلبث أن هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر وناضل عـن بغيض فى قصيدة طويلة يقول فيها للزبرقان :

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

---

(1) تاريخ الآداب العربية لكارل نلينو 89

وكاد عمر يفتك به لولا أن استعطفه بأبياته المشهورة :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فلما أطلقه قال له : اياك وهجاء الناس ، قال الحطيئة : اذا يموت عيالى جوعا ، هذا مكسبى ومنه معاشى !! (1)

وللحطيئة حادثان هما أشد من هذا الخبر دلالة على أعرابيته المتمردة الجافية لقد سمع بموت النبى صلى الله عليه وسلم وخلافة أبى بكر رضى الله عنه فلم يطل به الوقت حتى ارتد مع المرتدين وقال متهكما على خليفة المسلمين :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا
فيا لعباد الله ـ ما لأبى بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر (2)

وظل خبيثا بالرغم من تصنعه العودة الى الاسلام يدلك على ذلك هذا الحدث الثانى حين حضرته الوفاة ، فقد اجتمع اليه قومه يستوصونه فكانت وصيته أخبث وصية سمعنا بها ونحن نربأ بهذا الورق أن يلتاث بها مكتفين بالاشارة اليها (3) .

---

(1) الاغانى 2 : 179
(2) الاغانى 2 : 157
(3) الاغانى 2 : 195 — 197

ومالك بن نويرة من الذين قالوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبهم، وقصة مالك كقصة هؤلاء الاشراف من الاعراب الذين رأوا فى دفع الزكاة انتقاصا من أقدارهم ، وحداً من حريتهم وكانوا قبل فى الجاهليه يصرفون أمورهم وفق مشيئتهم ، قدم مالك بن نويرة على النبى صلى الله عليه وسلم فولاه صدقات قومه من بنى يربوع فلما مات النبى صلى الله عليه وسلم فرق ما فى يده من ابل الصدقة وهان الاسلام فى نظره وكأنه لم يخش فى الاسلام الا قوة النبى كحاكم ، وأن الدين هو دين محمد فاذا انتهى أمر محمد فقد انتهى أمر الدين أيضا فى نظره ، يقول حين أخذ يوزع أموال الصدقة :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجىء به الغد
فان قام بالامر المخوف قائم
منعنا ـ وقلنا : الدين دين محمد

فالرجل قد وزن الامر بميزانه . ورأى أنه سيسأل عما فعل ، ولماذا خالف أمر الجماعة وفرق أموال المسلمين فأوعز اليه شيطانه بحجة يقولها حين يسأل عن ذلك وهى أن الدين دين محمد ، وكنا ندين له ـ أى نطيعه ـ ونحن الآن نمنع زكاة محمد عن القائم مقامه ـ ولم يستمع الى نصح الأقرع بن حابس المجاشعى ، والقعقاع بن معبد الدرامى فقال يعتب عليهما:

أرانى الله بالنعم المندى
ببرقة رحرحان وقد أرانى
تمشى يا بن عوذة فى تميم
وصاحبك الأقيرع تلحيانى

ويعود سبب قتاله الى نفاقه ايضا ؛ والمشهور فى هذا أن اجابته على

خالد بن الوليد كانت تتضمن سطحية الايمان . راجعه خالد فيما فعل فقال : انى آتى بالصلاة دون الزكاة فقال خالد بن الوليد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون أخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك .

قال خالد : وما تراه لك صاحبا ؟ والله لقد هممت أن اضرب عنقك ، ثم تجاولا بالكلام الطويل فقال له خالد : انى قاتلك . قال : أوبذلك أمرك صاحبك ؟

قال : وهذه بعد تلك والله لأقتلنك (1) .

الصعلكة كصورة بدوية

بقيت صورة الصعلكة كما كانت فى الجاهلية لم يغير من ذلك أن العرب قد أصبحوا يدينون بدين سماوى يحرم الاغتصاب ، وتحت ظل حكومة ترعى الحقوق وتؤمن اصحابها ، ولا تكاد تجد اختلافا بين قصيدة لأبى النشناش النهشلى الذى كان يعيش فى العصر الاموى وبين قصيدة فى نفس الغرض لعروة بن الورد الجاهلى .

يقول عروة مثلا :

اقلى علىّ اللوم يابنة منذر
وناميفان لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان اننى
بها قبل ألا أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد
اذا هو أمسى هامة تحت ضير

---

(1) الاغانى 14 : 63 وما بعدها فى اخبار متمم ومالك والفقرة الاخيرة من لفظ ابن خلكان ، وانظر طبقات فحول الشعراء للجمحى 171

ذريني أطوف فـي البـلاد لعلني
أخليك أو أغنيك عن سوء محضر

الى أن يقول :

ولله صعلوك صفيحة وجهه
كضـوء شـهاب القابس المتنور
فذلـك ان يلـق المنيـة يلقها
حميدا ، وان يستغن يوما فأجدر (١)

ويقول ابو النشناش اللص الـذى كان يعترض القوافـل فى شذاذ من العرب بين الحجاز والشام :

وسائلة أيـن الرحيـل وسـائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
وداوية يهماء يخشى بهـا الردى
سرت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثـأرا أو ليدرك مغنمـا
جزيلا وهذا الدهر جـم عجائبه
اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح
سواما ولم تعطف عليـه أقاربـه
فللموت خير للفتـى مـن قعوده
فقيرا ، ومن مولى تدب عقاربه

(١) الاصمعيات 37 — 39

ولم أر مثل الهــم ضاجعه الفتى
ولا كسواد الليــل أخفق طالبــه

فمت معدما ، أو عش كريما فاننى
أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه

ولو كان شيء ناجيــا من منيــة
لكان اثير" يوم جاءت كتائبه (1)

فهل ترى كبير اختلاف بين هذه القصيدة وتلك بالرغم مما جاءت به الدعوة من مثل تناهض هذا المسلك الجاهلى ؟

وستجد حين تتحدث عن الشعر فى العصر الاموى انه قد عاد ــ أو أعيد ــ فى أكثره الى العصبية الجاهليــة .

(1) الاصمعيات 125 ــ يرجــح الاستاذ عبــد السلام هارون شارح الاصمعيات ، ان اثيرا هو أثير بن عمرو السكونى الطبيب الــذى دعى لعلاج على بن ابى طالب حين ضربه ابن ملجم .



الفصل الثالث

الشعر في العصر الأموي

تمهيد

هنا نسرع الخطا ــ بعد أن تناولنا قضية الشعر فى صــدر الاسلام بشىء من التفصيل كان الغرض منــه أن نقف موقف المناقش لقضية أثارها ابن سلام الجمحى تشير فى محصلتها الى تمهل الشعر وذهاب رواتــه على النحو الذى سنتكلم فيه فى آخر الباب . أما الآن وقد بــات واضحا فى غير مكابرة وفرة الشعر ووصول أكثره الينا فلا نجد داعيا للتفصيل وحسبنا خطوطه العريضة لنفرغ الى وجه آخر هو رأى رواة اللغة فى الشعر وفى الشعراء ، وقــد اعتمدوا فى رواية اللغــة ــ جل الاعتماد ــ عــلى هــذا المصدر حتى كاد يشكل عصب الروايــة اللغويــة .

اتخذت الدولة الاموية عاصمة الخلافة فى دمشق ، وكان من سياسة

الأمويين صرف المطالبين بالخلافة عن أغراضهم فسلكوا فـي ذلك مسالك شتى منها :

- تسليط الترف والغناء عـلى شباب الهاشميين فى الحجاز فنشـأ شـعر الغـزل •
- واعادة العصبية بين القبائل والجماعات فى العـراق فنشأ شـعر الهجاء وشغل بـه النـاس •

وكاد معاوية يطمئن الى هذه السياسة بعد أن أحكم تدبيرها ، وأصهر الى اليمنيين ليكونوا عونا له على ما هو بسبيله ، لولا موقف ابن الزبير فى الحجاز ، وموقف الخوارج فى كل مكـان •

شعر الغزل

لجأ معاوية الى صرف الشباب الهاشميين عن المطالبة بالخلافة ، فجعل عطاءهم وفرا ، وبعث اليهم بالمغنين والمغنيات ، وتركهم الى الدعة والراحة حتى خرج من هذه البيئة المترفة أرق شعر فـى الغـزل ـ كان شـعراء الجاهلية يتناولون النسيب فى أول القصائد ولا يفردون للغزل الا مقطعات قصيرة فاذا بالحجاز يموج بالقصائد الغزلة حتى دهش النقاد لشيوع الشعر فيهم فقالوا : (كانت العرب تفضل قريشا فى كل شيء الا الشعر ، فلمـا نجم فى قريش عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومى ، والعرجى، وأبو دهبل ، وعبيد الله بن قيس الرقيات أقرت لها العرب بالشعر أيضا) (1)

سمع الفرزدق من عمر بن أبى ربيعة قصيدته التى يقول فيها :

لمـا التقينا واطمأنت بنـا النوى

وغيب عنـا مـن نخاف ونشفق

---

(1) الاغانى 1 : 149

حتى انتهى الى قولـه :

فقمن لكـى يخلينـا فترقرقت
مدامـع عينيهـا وظلت تـدفق
وقالت : امـا ترحمننى لا تدعننى
لدى غـزل جـم الصبابة يخرق
فقلن : اسكتى عنـا فلست مطاعة
وخلك منا ، فاعلمى ، بك أرفق

فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب اغـزل الناس ، لا يحسن والله الشعراء أن يقولوا مثـل هـذا النسيب ولا أن يرقوا مثـل هـذه الرقيـة (١) .

وكان جرير ينفس على عمر بن أبى ربيعة شعره ويصفه بأنـه شـعر تهامى اذا أنجد وجد البرد حتى سمع من رائيته : أمن آل نعـم أنت غـاد فمبكـر :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت
فيضحى وأمـا بالعشى فيخصـر

..... الابيات فقال : ما زال هذا يهذى حتى قال الشعر (2)

ووصل الأمر أن كان غلاة المسلمين يسمعون مثل هذا الشعر فتجذبهم اليه رقته وعذوبته ، فشغفوا به ، سمع سعيد بن المسيب وهو عـلى رأس فقهاء المدينة شعرا قاله محمد بن عبد الله النميرى من أهـل الطائف فـى زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف من رجل يغنى بذلك الشعر فى ازقة مكة ، فلما وصل الى البيت :

---

(١) الاغانى 1 : 149
(2) الاغانى 1 : 173

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت

به زينب فى نسوة عطرات

ضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ سماعه (1) .

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة فى المدينة ، ومن أعلام التابعين يقول من شعر الغزل :

شققت القلب ثم ذروت فيه

هواك فليم فالتام الفطور

تغلغل حيث عتمة فى فؤادى

فباديه مع الخافى يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب

ولا حزن ولم يبلغ سرور

فقيل له : أتقول مثل هذا ؟ فقال : فى اللدود راحة المفئود ولا بد للمصدور ان ينفث (2) ، ويقول : لو كان الشعر محرما لوردنا الرحبة كل يوم (3) .

وكانت سكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنه سيدة نساء عصرها ولها حكايات طريفة مع الشعراء فى هذا السياق ، من ذلك ما يروى أنها وقفت على عروة بن اذينة وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين فقالت له : أنت القائل :

اذا وجدت اوار الحب فى كبدى

ذهبت نحو سقاء الماء ابترد

---

(1) وفيات الاعيان 2 : 131 فى ترجمة سكينة بنت الحسين رقم 254 والعقد الفريد 5 : 289

(2) الاغانى 1 : 72

(3) الاغانى 1 : 73

هبْنى بردت ببرد المـــاء ظاهــره
فمن لنـــار على الاحشاء تتقــد ؟

فقال لها : نعم فقالت : وأنت القائل :

قالت وأبثثتها ســرى وبحت بــه
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى فقلت لهــا
غطى هواك وما القى على بصرى؟

قال : نعم ، فالتفتت الى جوارٍ كن حولها وقالت : هن حرائر ان كان خرج هذا من قلب سليم قــط (1) .

وكان ابن عباس يستريح من مجلس الفقه والتفسير الى سماع شعر ابن أبى ربيعة ولقد عاتبه نافع بن الازرق على هذا المسلك قائلا له : اللــه يا ابن عباس !! انا نضرب اليك أكباد الابل من أقاصى البلاد نسألك عــن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك كذا وكذا مشيرا الى قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعــم أنت غــاد فمبكــر
غداة غــد أم رائــح فمهجر (2)

ولامه بعض أصحابــه فــى حفــظ هــذه القصيــدة فقال : انــا نستجيدها (3) .

---

(1) وفيات الاعيان 2 : 131 فى ترجمة سكينة بنت الحسين رقم 254 والعقد الفريد 5 : 289
(2) الاغانى 1 : 72 ط دار الكتب
(3) الاغانى 1 : 73

وكاد مالك بن أنس ــ لشيوع الغناء فى بيئة المدينة ــ يتعلق بالغناء وينصرف اليه لولا أن وجهته أمه الى الفقه ، وهو يحكــى ذلك فيقول : (نشأت وأنا غلام اتتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لــى أمى : يــا بنىّ انّ المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقــه فانه لا يضر معه قبح الوجه فتركت المغنين واتبعت الفقهاء) (1) .

ويبدو أن النواح والغناء يصدران من منبــع قريب ويتخذان الشعر وسيلة للتعبير عنهما ــ حدث ابن جامع عن شيوخ من أهل مكة ان سكينة بنت الحسين عليهما السلام بعثت الى ابن سريج بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحنا يناح به فصاغ فيه ، وهو الآن داخل فى غنائه ، ومن هذا الشعر :

يا أرض ويحك أكرمى أمواتــى
فلقد ظفرت بسادتى وحماتى (2) .

الشعر في العراق

وبينما كان هذا الغزل الرقيق يجــرى فى أرجــاء الحجاز كان فى العراق لون آخر نتيجة لطبائع ساكنيه ، فلم يكن فيه راحة ودعة كما كان الأمر فى الحجاز ولكن اختلفت الأهواء وتعددت المنازع ، والشعر لسان كل حزب ، كما ظهر فيه الهجاء الشخصى فى أوضح صورة .

ففى العراق دارت أكبر معركة أدبية فى التاريخ الأدبى كلــه ، بدأت بين جرير والفرزدق وتدخل فيهــا الراعــى والأخطــل وشغلت المجالس بأشعارهما فجاءت الأحكام عليهما متفاوتــة ومتضمنــة بعــض خصائص الرجلين ، طلب من الصلتان العبدى ان يحكم بين الفرزدق وجريــر فأنشأ

---

(1) لاغانى 4 : 222
(2) الاغانى 1 : 97 ط الاستقامة فى اخبار ابن سريج

فيهما عينيته الطويلة ولا أبعد أنه أطال قصيدته لينال شهرة الرجلين ومنها :

سأقضى قضـاء بينهم غير جائـر
فهـل أنت للحكم المبين سـامع
قضاء امرىء لا يتقى الشتم منهم
وليس له فى المدح منهم منافـع
قضاء امرىء لا يرتشى فى حكومة
اذا مال بالقاضى الرشا والمطامع

وبعد أن يعد بالعدل فى الحكم ، وانه سوف يصدر رأيه مجردا عن الهوى يقول :

جرير أشـد الشاعرين شكيمـة
ولكن علتـه الباذخات الفوارع
ويرفع من شـعر الفرزدق أنـه
له باذخ لـذى الخسيسة رافع

ثم يوهم بان الفرزدق تملقه وناشده أن يقف بجانبه وأن يحكم لـه على صاحبه :

يناشدنى النصر الفرزدق بعدمـا
ألحت عليـه من جريـر صواقع
فقلت له : انـى ونصرك كالذى
يثبت أنفـا كشمته الجوادع (1)

وبلغ من أمرهما أن تنازع فيهما رجلان فى عسكر المهلب فارتفعا اليه وسألاه فقال : لا أقول بينهما شيئا ولكنى أدلكما على مـن يهون عليـه سخطهما .. أما أنا فما كنت لاعرض نفسى لهما . وانتهت القصة بالحكم لجرير عـلى صاحبـه (2) .

(1) الشعر والشعراء 1 : 475 (2) الاغانى 8 : 7 — 8 دار الكتب

ويبدو أن الفارسين كانا يجريان فى عنان واحد، شهد بذلك الفرزدق نفسه وان نسب لنفسه القدرة على الاطالة فقال : انى واياه لنغترف مـن بحر واحد وتضطرب دلاؤه عند طول النهر (1) وقال رجل مـن بنى دارم للفرزدق وهو بالبصرة : يا أبا فراس ، هل تعلم اليوم أحـدا يرمى معك ؟ فقال : لا والله ما أعرف نابحا الا وقد استكان ، ولا ناهشا الا وقد انحجر الا القائل :

فان لم أجد فى القرب والبعد حاجتى
تشأّمت أو حولت وجهى يمانيـا

الى آخر القصيدة وهى لجريـر (2) .

وبينما كان يونس بن حبيب ، والمفضل الضبى يقدمان الفرزدق فان يونس كان يعترف بأن المجالس كانت تعقد للنظر فى الحكم بينهما فما شهد مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل المجلس على أحدهما ،(3) وعند حماد الراوية لم ترجح كفة أحدهما على صاحبه فقد أنشده الفرزدق وسأله : هل أتيت جريرا ؟ قال : نعم ، فسأله : فأنا أشعر أو هـو ؟ قال : أنت فى بعض الأمر وهو فى بعض (4) .

واستطاع الأخطل حين واتته المناسبة أن يدخل الحلبـة وأن يجرى جريهما وأن يقرن معهما وأن يأتى سابقا أحيانا ، يروى ابو العساكر قال : كنا بباب سلمة بن عبد الملك فتذاكرنا الشعراء الثلاثـة فقال أصحابـى : حكمناك وتراضينا بك ، فقلت نعم ، هم عندى كأفراس ثلاثة أرسلتهن فى

---

(1) الاغانى 8 : 8.
(2) الاغانى 8 : 36
(3) طبقات فحول الشعراء 251
(4) الاغانى 8 : 36

رهان ، فأحدها سابق الدهر كله ، وأحدها مصلّ وأحدها يجيء أحيانا سابق الريح واحدها سكيتا وأحيانا متخلفا ، فأما السابق فى كل حالاته فالاخطل ، وأما المصلى فى كل حالاته فالفرزق ، وأما الذى يسبق الريح أحيانا ويتخلف أحيانا فجرير (1) •

الهجاء

والمعركة التى دارت بين جرير والفرزدق واشترك فيها الاخطل والراعى أقامت دعائم فن الهجاء ، وأعلت شأنه حتى تمنى الشاعر أن يعرف بهذا الوجه من الشعر ، ولقد حاول بشار بن برد أن يربط سببه بجرير عن طريق هذا الفن •

ولقى ابن ميادة الشاعر ابن هرمة ، فقال ابن ميادة لصاحبه : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بد من أن تتهاجى ، ولقد فعل ذلك الناس قبلنا فقال ابن هرمة : بئس والله ما دعوت اليه وأحببته — وهو يظنه جادا — ثم قال له ابن هرمة : أما والله اننى للذى أقول :

انى لميمون جوارى واننى
اذا زجر الطير العدا لمشوم
وانى لملآن العنان مناقل
اذا ما ونى يوما الكفّ سئوم
فود رجال أن أمى تقنعت
بشيب يغشى الرأس وهى عقيم

فقال ابن ميادة : وهل عندك جراء ؟ (أى وهل فيك فتوة) ثكلتك

(1) الاغانى 8 : 299

أمك . أنت الأم من ذلك ، ما قلت الا مازحا (1) .

وكان الفحول من الشعراء يتطلعون الى التعلق بهم أو يرتبط سببهم بواحد منهم فيعلو ذكرهم ، وكان من هاجى جريرا فغلبه جرير أحسن منزلة عندهم ممن هاجى شاعرا آخر فغلب ، مر راكب بالراعى وهو يغنى :

وعاوٍ عوى من غير شىء رميته
بقارعة أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها
قرا هندوانى اذا هز صمما

فأتبعه الراعى رسولا يسأله : لمن البيتان ؟ قال : لجرير . قال : لو اجتمع على هذا جميع الجن والانس ما أغنوا فيه شيئا ، ثم قال لمن حضر : ويحكم أألام على أن يغلبنى مثل هذا ؟ (2)

وأراد منازل بن ربيعة (اللعين المنقرى) أن يرتفع شأنه فلم يجد لذلك من وسيلة الا أن يقحم نفسه بين الرجلين (جرير والفرزدق) وأن يبدأهما المشاكسة لعل أحدهما يجيبه فيرتفع ذكره فقال فيهما :

سأقضى بين كلب بنى كليب
وبين القين قين بنى عقال
فان الكلب مطعمه خبيث
وان القين يعمل فى سفال
وقد حسر البعيث وأقعدته
لئيمات المناخر والسبال

(1) الاغانى 4 : 369 — 370
(2) الاغانى 8 : 9

ويترك جـده الخطفـي جريـر
وينـدب حاجبـا وبنى عقـال

يقول يونس : فلم يلتفتا لفتة ، وأراد أن يذكراه فيرفعه ذلك (1) .

ويقول بشار : هجوت جريـرا فأعرض عنـي واستصغرني ، ولـو اجابني لكنت أشعر الناس (2) .

فلم يكن أمام الشعراء الفحول الا أن يجتمعوا يظاهر بعضهم بعضـا للوقوف امام جرير ــ أقول الفحول لأن أخبـارا كثيرة تشير الـى شعراء وقفوا رغبة في هذه المنزلة فلم ينالوا شيئا وانصرف عنهـم جرير امتهانـا لهم واستصغارا لشأنهم ــ أما الفحول فان الأصمعي يحكي مـن أخبارهم وقد ذكر جريرا فقال : (كان ينهشه ثلاثة وأربعون شـاعرا فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدا واحدا ... وثبت لهالفرزدق والاخطل) (3) .

وسمع الحجاج بأمر جرير بعد أن كتب له عامله الحكم بن أيوب بن يحيى أنه قدم عليّ أعرابي شيطان من الشياطين ــ فاستدناه الحجاج معجبا به وابتدره قائلا : ايه يا عدو الله علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال جرير : جعلني الله فداء الامير ،واللهاني ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فانتصر ، ما لي ولابن أم غسان ! وما لي وللبعيث ! ، وما لي وللفرزدق ! ، وما لـي وللأخطل! ، وما لي وللتيمي ! حتى عددهم واحدا واحدا. فقال الحجاج: ما أدري ما لك ولهم ! قال : أخبر الامير أعزه الله . أما غسان فانه رجل مـن قومي هجاني وهجا عشيرتي وكان شاعرا .

قالَ : فقالَ لك ماذا ؟

---

(1) طبقات فحول الشعراء 342 — 343
(2) الاغاني 3 : 143
(3) الاغاني 8 : 8

قال : قال لى :

لعمرى لئن كانت بجيلـة زانهـا
جرير (1) لقد أخزى كليب جريرها
رميت نضالا عـن كليب فقصرت
مراميك حتى عـاد صفرا جفيرها
ولا يذبحون الشـاة الا بميسـر
طويـل تناجيها صغار قدورهـا

قال : فما قلت له ؟ قال : قلت :

الا ليت شعرى عـن سليط ألم تجد
سليط سوى غسان جارا يجيرها
فقد ضمنوا الاحساب صاحب سوءة
يناجى بها نفسا خبيثا ضميرهـا

الى آخر القصيدة (2) وعلى هـذه الصورة أخـذ الحجاج يسأل ، وجرير يحكى فى خبر طويل تناول فيه موقفـه مـع البعيث ، والفرزدق ، والاخطل ، وعمر بن لجأ التيمى وسراقة بن مرداس البارقى ، والمستنير بن سبرة العنبرى ، وراعى الابل ، والعباس بن يزيد الكندى ، وجفنة الهزانى ابن جعفر بن عباية ، والمرار بن منقذ و ... ... قال جرير : وطلع الصبح فنهض ونهضت قال : فأخبرنى من كان قاعدا معـه أنـه قال : قاتله اللـه أعرابيا ! انه لجرو هراش (3) .

هذه أمكنتهم فى نوع واحد من الهجاء ، هو الهجاء الشخصى ، أما ما كان من أمر الأحزاب فأوسع مدى وأكثر نشاطا .

---

(1) هو جرير بن عبد الله البجلى

(2) الاغانى 8 : 15 (3) الاغانى 8 : 28

الخوارج (*)

هذه التسمية كما جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى تطلق على كل من خرج على الامام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه سواء كان الخروج فى ايام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين (1) .

وأول من خرج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه جماعة ممن كان معه فى حرب صفين ، وأشدهم خروجا عليه الأشعث بن قيس ، ومسعود بن فدكى التميمى ، وزيد بن حصين الطائى — ثم تفرق الخوارج بحسب معتقداتهم الى ست فرق رئيسية واشتدت شوكة بعضهم حتى بويع بالخلافة أو أطلق عليه اسم امير المؤمنين فبويع بالامامة عبد الله ابن وهب الراسبى ، وقطرى بن الفجاءة المازنى وسمى أمير المؤمنين ، ونجدة بن عامر الحنفى ولك أن تتصور خطر الخوارج اذا علمت ان المهلب ابن ابى صفرة قد اشتبك فى حرب معهم تسع عشرة سنة .

استطاع معاوية أن يصانع الناس ولم يبق أمامه الا ابن الزبير والخوارج وعلى رأسهم فروة بن نوفل الذى هزم أمام رجال الامويين سنة **41** هـ — وفى سنة **45** هـ كان على البصرة زياد بن أبيه وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة فنكلا بالخوارج — ثم تولى زياد امر المدينتين ، ثم خلفه عبيد الله بن زياد فاشتد على الخوارج وقتل منهم جماعة كثيرة — ثم خرج

(*) اقرا فى اخبار الخوارج من صفحة 202 وما بعدها من كتاب الاخبار الطوال ، وفى اشعارهم الجزء الثالث من كتاب الكامل للمبرد

(1) الملل والنحل للشهرستانى ص 155 على هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم

مرداس ابو بلال وهو من ربيعة بن حنظله فى أربعين رجــلا الــى الأهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشا فهزموه فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة :

أألفــا مؤمــن منكــم زعمتــم
ويقتلهــم بآســك أربعونـــا
كذبتم ليس ذاك كمــا زعمتــم
ولكــن الخــوارج مؤمنونــا
هم الفئــة القليلة قــد علمتــم
على الفئة الكثيرة ينصرونــا (1)

ولكن عبيد الله تعقبهم ، وفر أكثرهم الى بــلاد الحجاز فتلقاهم ابن الزبير وبين لهم أنه يرى رأيهم ولم يطل هذا الوئام عندما تبين لنافــع بــن الازرق أنه لا يرى رأيهم فذهب بهم الى البصرة أولا ثم الى شرق العراق ثانيا ، وكان للمهلب بن أبى صفرة وقائع مشهورة فى محاربــة الخوارج ، ولقد تركت هذه الاحداث ميراثا وفرا مــن الشعر ، وكان الخوارج حقيقة — وأكثرهم من بنى تميم — يجمعون الى خلوص عروبتهم ايمانــا عميقــا بمذهبهم وحسبك من أشعارهم مختارات ولمن اراد السعــة فليطلبها فــى المراجع التى أشرنا اليها •

يقول قطرى بن الفجاءة وهو رجــل مازنى تميمــى يحــدث نفسه ويلومهــا :

أقول لهــا وقــد طارت شعاعــا
من الابطال ، ويحك لــن تراعى
فانــك لــو سألت بقــاء يــوم
على الأجل الذى لك لم تطاعــى

(1) تاريخ الطبرى 4 : 232 حوادث سنة 58 ، والاخبار الطوال 269

فصبرا فى مجـال المـوت صبرا
فمـا نيـل الخلـود بمستطاع
ولا ثـوب الحيـاة بثوب عـز
فيطوى عن أخى الخنـع اليراع
سبيل المـوت غايـة كـل حـى
وداعيـه لأهـل الأرض داعـى
ومـن لا يغتبـط يسأم ويهـرم
وتسلمه المنـون الـى انقطـاع
ومـا للمـرء خـير فـى حيـاة
اذا ما عد من سقط المتـاع (1)

ولما شدد المهلب بن أبى صفرة الخناق على الخوارج ارتجـز رجـل منهـم :

حتـى متـى يتبعنـا المهلب
ليس لنا فى الأرض منه مهرب
ولا السماء اين أيـن المذهب

فلما سمع قطرى بكى ووطن نفسه على الموت وباشر الحرب بنفسه وهو يرتجز :

حتى متـى تخطئنى الشهادة
والموت فى اعناقنـا قـلادة
ليس الفرار فى الوغى بعادة
يارب زدنى فى التقـى عبادة
وفى الحياة بعدها زهادة (2)

(1) وفيات الاعيان 3 : 256
(2) الاخبار الطوال 276 — 277

وكان من شعرائهم عمران بن حطان وقد عرف بكراهته للرياء يقول :

ايها المادح العباد ليعطى
ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم
وارج فضل المقسم العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه
وتسمى البخيل باسم الجواد

وهو القائل حين قتل مرداس بن ادية :

لقد زاد الحياة الى بغضا
وحبا للخروج ابو بلال
احاذر أن أموت على فراشى
وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى
كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فانى
لها — والله رب البيت — قالى

وله فى تأبينه كلام آخر (1)

وكان الطرماح بن حكيم يرى رأى الخوارج الشراة ومن شعره فى هذا الوجه :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له
ان لم افز فوزة تنجى من النار
والنارلم ينج من روعاتها احد
الا المنيب بقلب المخلص الشارى

(1) الكامل للمبرد 3 : 896 ط الحلبى سنة 1937

أو الذى سبقت من قبل مولده
له السعادة من خلاقها البارى (1)

ولقد أورد المبرد نخبة من أشعار الخوارج فى كتاب الكامل كما أورد أبو حنيفة الدينورى مجموعة أخرى فى كتاب الأخبار الطوال نكتفى بالاحالة اليها للايجاز ، ولم تقف هذه الثروة الأدبية عند آثار الخوارج وانما نجد بقيتها عند معارضيهم •• فلقد عاب قيس بن همام وهو رجل من رهط الفرزدق مسلك ابن الزبير فى تقبله لهم فكاتبه بقوله :

يابن الزبير أتهوى عصبة قتلوا
ظلما أباك ولم تنزع الشكك
ضحوا بعثمان يوم النحر ضاحية
ما أعظم الحرمة العظمى التى انتهكوا

فقال ابن الزبير : لو شايعنى الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها (2) •

ولما استشرى أمر الخوارج بحث الامويون عن قائد يتصدى لهم فانتهوا الى المهلب وفى ذلك يقول ابن عرادة البصرى :

اذا قيل من يحمى العراقين أومأت
اليه مَعَدٌ بالأكف ، وقحطان
فذاك امرؤ ان يلقهم يطف نارهم
وليس لها الا المهلب انسان (3)

(1) الشعر والشعراء 2 : 571 — 572
(2) الكامل للمبرد 3 : 1029 ط الحلبى سنة 1937
(3) الاخبار الطوال 271

ولما هزمهم المهلب بنهر تستر أنشد زياد الأعجم :

جزى الله خيرا والجزاء بكفه
أخا الازد عنا ما أذب وأحربا

الى أن يقول :

فلما رأينا القوم قد كل حدهم
لدى حربهم فيها دعونا المهلبا

وبلغ أهل البصرة أن المهلب قتل فرج المصر بأهله ، وهم أميرها الحارث بن أبى ربيعة بالهرب فكتب اليه رجل من بنى يشكر :

أيا حار يا بن السادة الصيد هب لنا
مقامك لا ترحل ولم يأتك الخبر
فان كان أودى بالمهلب يومه
فقد كسفت فى أرضنا الشمس والقمر
ومالك من بعد المهلب عرجة
ومالك بالمصرين سمع ولا بصر
فدونك فالحق بالحجاز ولا تقم
ببلدتنا ان المقام بها خطر
وان كان حيا كنت بالمصر آمنا
وكان بقاء المرء فينا هو الظفر

وقال رجل من بنى سعد :

الا كل ما يأتى من الامر هين
علينا يسير عند فقد المهلب

الى آخر القصيدة ـ فأقبل رسول الى أهل البصرة يبشرهم بسلامة المهلب فقال رجل من بنى ضبة :

ان ربا أنجى المهلب ذا الطـو

ل لأهـل" ان تحمـدوه لتيرا

لا يـزال المهلب بـن أبى صفـ

ـرة مـا عاش بالعراق أمـيرا

فـاذا مـات فالرجـال نسـاء

مـا يساوى مـن بعـده قطميرا

قد أمنا بك العدو عـلى المصـ

ـر ووقّرت منبرا وسـريرا (1)

ولما ظهر المهلب على الازارقة وجه بشر بن مالك الحرسى الى الحجاج يبشره بالفتح فأحال الحجاج الخبر الى عبد الملك وفيه يقول بشر بن مالك:

قد حسمنا داء الازارقـة الدهـ

ـر فأضحوا طـرا كآل ثمـود

بطعان الكمـاة فى ثغـر القـو

م وضـرب يشيب رأس الوليـد

كلمـا شئت راعنـى قطـرى

فوق عبـل الشوى أقب عنـود

معلمـا يضرب الكتيبـة بالسيـ

ـف، وعمرو كالنار ذات الوقود (2)

رومى رجل من اصحاب المهلب قطرى بن الفجاءة بالكفر ووجه اليه قولـه :

سائل بنا عمرو القنـا وجنـود

وأبـا نعامة سيد الكفـار (3)

الى غير ذلك .. والشعر وفير حول الخوارج واخبارهم .

(1) الاخبار الطوال 274 (2) الاخبار الطوال 279 .

(3) الكامل للمبرد 3 : 173 ط الحلبى

وكان يكفينى مجرد الاشارة الى شعر الخوارج كرافد من روافد الشعر يعين فى مناقشة القضية التى نعد للكلام فيها ، وهل كان الشعر قليلا حقيقة بعد الدعوة كما يبدو من ظاهر كلام ابن سلام ... وقد هممت أن أقصر ما أطلت ، ولكن كان لشعر الخوارج اصالة عربية كما كانت دوافعه اسلامية أيضا .

الشيعة

هم الذين شايعوا عليا عليه السلام وقالوا بامامته ووجوب الخلافة فى أهل البيت . ولقد اعتنق مذهب الشيعة شاعران كبيران ودافعا عنه هما : السيد الحميرى ، وكثير بن عبد الرحمن .

فأما السيد فهو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى وكان شاعرا متقدما مطبوعا مكثرا وأحد ثلاثة عرفوا بوفرة الشعر فقال ابو الفرج بسنده : اكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فانه لا يعلم ان احدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع (1) وحدث الموصلى عن عمه فقال (جمعت للسيد فى بنى هاشم الفين وثلاثمائة قصيدة فخلت أنى قد استوعبت شعره حتى جلس الىّ يوما رجل ذو أطمار رثة فسمعنى أنشد شيئا من شعره فأنشد له ثلاث قصائد لم تكن عندى، فقلت فى نفسى : لو كان هذا يعلم ما عندى كله ثم انشدنى بعده ما ليس عندى لكان عجيبا فكيف وهو لا يعلم وانما أنشد ما حضره ، وعرفت حينئذ ان شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه كله (2) .

---

(1) الاغانى 7 : 229 (2) الاغانى 7 : 237

ولكبار الرواة رأى طيب فى شعر السيد الحميرى ، سمعه الأصمعى وكان يكره أصحاب المذهب فقال : قبحه الله مـا أسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته . وجاء رأى أبى عبيدة فى حكاية لعمر بن شبه فيقول : أتيت أبا عبيدة معمر بن المثنى وعنده رجل من بنى هاشم يقرأ عليه كتابا ، فلما رآنى طبقـه فقال له أبـو عبيدة : ان ابا زيد ليس ممن يحتشم منه فاقرأ ، فأخـذ الكتاب وجعـل يقرؤه فاذا هو شعر السيد فجعل أبو عبيدة يعجب منه ويستحسنه ــ قال ابو زيد وكان أبو عبيدة يرويه ، وسئل يوما من أشـعر المولدين ؟ فقال : السيد ، وبشار (1) .

وكان بشار بدوره يعرف قدر السيد الحميرى وقال فيه يوما : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا ، ولو شاركنـا فـى مذهبنا لأتعبنا (2) . ويقول العتبى (ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهبا فى شعره ولا أنقى ألفاظا من السيد ثم قال لبعض من حضر : أنشدنا قصيدته اللامية التى أنشدتناها اليوم ، فلما سمعها قال العتبى .... هـذا واللـه الشعر الذى يهجم على القلب بلا حجاب) (3) .

ولم يكن رأى الأعراب فى شـعر السيد بأقـل مـن رأى الـرواة والشعراء ، يدلك على هذا مـا يحكيه الحسين بن ثابت قال : قـدم علينا رجل بدوى وكان أروى الناس لجرير فكـان ينشدنى الشىء مـن شعره فأنشد فى معناه للسيد حتى أكثرت ، فقال لى :ويحك ، من هذا ؟ هو والله أشعر من صاحبنا (4) أى أشعر من جرير .

---

(1) الاغانى 7 : 232 و 236
(2) الاغانى 7 : 237
(3) الاغانى 7 : 237
(4) الاغانى 7 : 239

اعتنق الحميرى مذهب الشيعة الكيسانية التى تقول بامامة محمد ابن الحنفية ويعتقدون أنه لم يمت ، وأنه بجبل رضوى ، وأنه يرجع الى الدنيا فيملؤها عدلا ولقد ذكر السيد معتقدات الشيعة الكيسانية فى قصيدته الدالية :

أشاقتك المنازل بعد هند
وتربيها وذات الدل دعد

ومن معتقداتهم أن هذا الامام هو المهدى المنتظر ، وأنه يقيم فى جبل رضوى بين أسد ونمر ، وعنده عينان نضاختان تجريان عسلا وماء ، وقد حوت القصيدة السابقة بعض هذه المعتقدات :

ألم تر أن خولة سوف تأتى
بوارى الزند صافى الخيم نجد
يغيّب عنهم حتى يقولوا
تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهرا ويرى برضوى
بشعب بين أنمار وأسد (1)

وجادل عن مذهبه هذا مجادلة شديدة فقد تحاور فيه مع محمد بن على بن النعمان المعروف بشيطان الطاق فغلبه محمد الذى تنسب اليه الطائفة الشيطانية وهى من غلاة الشيعة فقال السيد :

الا ايها الجَدِل المعنّى
لنا ، ما نحن ويحك والعناء
اتبصر ما تقول وأنت كهل
تراك عليك من ورع رداء

(1) الاغانى 7 : 233

الا ان الائمـة مـن قـريش
ولاة الحـق أربعـة سـواء
عـلى والثلاثـة مـن بنيـه
هـم أسباطـه والأوصـياء
الى آخر القصيدة (1) .

وعرف عنه هذا الولاء لبني هاشم وكراهته للشيخين ولعثمان فكانوا يثيرونه بذكرهم أو يعارضونه فيدخل في جدلهم ، يقول على بـن المغيرة : كنت مع السيد على باب عقبة بن سلم ومعنا ابن لسليمان بن على ننتظـره وقد اسرج له ليركب اذ قال ابن سليمان بن عـلى يعرض بالسيد : أشـعر الناس والله الذى يقول :

محمد خير من يمشى على قـدم
وصاحبـاه وعثمـان بن عفانـا

فوثب السيد وقال : أشعر والله الذى يقول :

سائل قريشا اذا ما كنت ذا عمه
من كان اثبتها فى الدين أوتـادا
من كان أعلمها علمـا وأحلمهـا
حلمـا وأصدقها قولا وميعـادا
ان يصدقوك فلن يعدو أبا حسن
ان أنت لم تلق للابرار حسادا (2)

وهو لا ينتظر من يجادله ليجرى لسانه فى مدح عـلى وبنيه بـل لا

(1) الاغانى 7 : 245 ــ ولكثير كلام كهذا ذكره الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل 1 : 245 على هامش كتـاب الفصل ط مصر سنـة 1317 هـ
(2) الاغانى 7 : 266

يكاد يسمع من أمرهم خبرا حتى يحيله الى قصيد ، وكان يأتي الاعمش فيكتب عنه فضائل علىّ ويخرج من عنده ويقول فى تلك المعانى شعرا . خرج ذات يوم من عند بعض امراء الكوفة وقد حمله على فرس وخلع عليه فوقف بالكناسة ثم قال : يا معشر الكوفيين ، من جاءنى منكم بفضيلة لعلىّ بن أبى طالب لم أقل فيها شعرا أعطيته فرسى هذا وما على ، فجعلوا يحدثونه وينشدهم حتى أتاه رجل منهم وقال : ان أمير المؤمنين عزم على الركوب فلبس أحد خفيه ثم أهوى الى الآخر ليأخذه فانقض عقاب من السماء فحلق ثم القاه ، فسقط منه أسود وانساب فدخل جحرا . وهذه قصة رويت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن فيها شعر أعده السيد فقال على البديهة فى فضائل علىّ :

الا يا قوم للعجب العجاب

لخف أبى الحسين وللحباب

أتى خفا له وانساب فيه

لينهش رجله منه بناب

الى آخر القصيدة ، كما نظم قصة الحسن والحسين حين ركبا ظهر النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد (1) .

أما الشاعر الآخر الذى اعتنق مذهب الشيعة حتى كادت تختلط أشعاره بأشعار السيد الحميرى فهو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الأسود وكان مكثرا كذلك جيد الشعر جعله ابن سلام الجمحى فى الطبقة الاولى من شعراء الاسلام وقرن به جريرا والفرزدق والراعى ، وتحدث عنه عبد الله بن أبى عبيدة فقال : من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره ، وكان يملى شعر كثير بثلاثين دينارا (2) .

---

(1) الاغانى 7 : 255 — 259

(2) الاغانى 9 : 5

وهو كالسيد الحميرى يقول بامامة محمد بن الحنفية ومن قوله فيه :

أقــر اللــه عينــى اذ دعانــى
أمين اللــه يلطف فــى السؤال
وأثنى فى هــواى عــلى ّ خيرا
وساءل عــن بنى ّ وكيف حــالى
وكيف ذكــرت حــال أبى خبيث
وزلـــة فعلــه عنــد السؤال
هــو المهــدى خبرنــاه كعــب
أخو الاحبار فى الحقب الخوالى

فلما قيل له : ألقيت كعبا ؟ قال : لا . قيــل : فلم قلت خبرناه كعب ؟ قال : بالتوهم (1) . وكان عبد الله بن الزبير قد أغرى ببنى هاشم فحبس ابن الحنفية فى سجن عارم فتأثر كثير لذلك وقال :

من ير هذا الشيخ بالخيف من منى
من الناس يعلم أنــه غير ظالــم
سَمِىّ النبى المصطفى وابن عمه
وفكــاك أغلال ، ونفاع غــارم
أبى فهو لا يشرى هدى بضلالة
ولا يتقى فى اللــه لومــة لائــم
ونحن بحمد اللــه نتلو كتابــه
حلولا بهذا الخيف خيف المحارم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن
وحيث العــدو كالصديق المسالم

(1) الاغانى 9 : 16 — 17

فمـــا فرح الدنيـــا بباق لأهلـــه
ولا شـــدة البلوى بضـــربة لازم
تُخَبِّرُ من لاقيت أنك عـــائذ
بل العائذ المظلوم فى سجن عارم (1)

وبالرغم من تشيع كثير فلقد كان عبد الملك يعظم شعره فكان يخرجه لمؤدب ولده مختوما يرويهم اياه ويرده ، وسأله يوما : كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر (2) .

والتعريف بكثير مفصل فى أول الجزء التاسع من كتاب الأغانى وفيه بالاضافة الى شعر التشيع أخباره مع صاحبته عزة .

الشعوبية

وكان من سياسة الامويين التعصب للعرب يجعلون منهم الرؤســـاء والقضاة ويحرمون ذلك على الموالى ، يدلك على ذلك هذه المعاتبة القاسية التى وجهها الحجاج بن يوسف الثقفى الى سعيد بن جبير بعـــد أن فشلت حركة ابن الاشعث (3) وكان سعيد بن جبير قد شارك فى ثورته .

قال له الحجاج : يا شقى بن كسير ، أما قدمت الكوفـــة وليس يؤم بها الا عربى فجعلتك اماما ؟

(1) الاغانى 9 : 15 — 16
(2) الاغانى 9 : 23
(3) خرج عبد الرحمن بن الاشعث عن طاعة الحجاج فى عهد عبد الملك ابن مروان ودانت له كرمان والرى لولا ما بذله عبد الملك مـــن جهد وما ارسله من مدد للحجاج الى ان دارت الدائرة على ابن الاشعث فى موقعة دير الجماجم بعد اكثر من ثمانين وقعة تساجل الفريقان فيها .

قال : بلـــى

قال : أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء الا لعربى فاستقضيت أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى وأمرته ألا يقطــع أمــرا دونـــك ؟

قال : بلى

قال : او ما جعلتك فى سمارى وكلهم من رؤوس العرب ؟

قال : بلى

قال : أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها فى أهل الحاجــة ثم لــم أسألك عن شىء منها ؟

قال : بلى

قال : فما أخرجك على ؟! (1)

وذكر صاحب العقد الفريد أن نافع بن جبير بن مطعم قدم رجلا مــن الموالى يصلى به فلامه رجل من العرب فقال : انما أردت أن أتواضع للــه بالصلاة خلفه واذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فان قالــوا قرشى قال : واقوماه ، واذا قالوا : عربى قال : وابلوتاه ، واذا قالوا : مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء (2) .

وقال مولى لخالد بن صفوان : زوجنى امتــك فلانــة ، قال : قــد زوجتكها قال : أفأدخل الحى حتى يحضروا الخطبة ؟ قال : أدخلهم ، فابتدأ خالد فقال : أما بعد ، فان الله أجل وأعز من أن يذكــر فى نكــاح هذين الكلبين وقد زوجت هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة (3) .

---

(1) الكامل للمبرد 1 : 297 ط الخيرية سنــة 1308 هـ ، 2 : 81 ط الازهرية

(2) العقد الفريد 2 : 63

(3) البيان والتبيين 2 : 250 ط لجنـــة التاليف والترجمة والنشر ، سنة 1367 هـ 1948 م .

تيقظت النزعات القومية كرد فعل لمسلك الأمويين ، وعبر أكثرهم عن هذا الضيق شعرا ــ كان اسماعيل بن يسار النسائى منقطعا لآل الزبير، فلما أفضت الخلافة الى عبد الملك مدحه ومدح بنيه من بعده ــ تقية وتصنعا ــ استأذن على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوما فحجبه ساعة ثم أذن له فدخل يبكى ، فقال له الغمر : مالك يا أبا فائد تبكى ؟ قال : وكيف لا أبكى وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك ! فجعل الغمر يعتذر اليه وهو يبكى فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر ، وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له : أخبرنى ويلك يا اسماعيل اى مروانية كانت لك أو لأبيك ؟ ! قال : بغضنا اياهم ، امرأته طالق ان لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وان لم يكن ابوه حضره الموت فقيل له : قل لا اله الا الله فقال : لعن الله مروان تقربا بذلك الى الله تعالى وابدالا له من التوحيد واقامة له مقامه ! » وهو القائل فى ذم العرب وفخره بالعجم فى قصيدته التى أولها :

ما على رسم منزل بالجناب
لو أبان الغداة رجع الجواب

يقول :

رب خال متوّج لى وعم
ماجد مجتدى كريم النصاب

انما سمى الفوارس بالفر
س مضاهاة رفعة الأنساب

فاتركى الفخر يا أمام علينا
واتركى الجور وانطقى بالصواب

واسألى ان جهلت عنا وعنكم
كيف كنا فى سالف الاحقاب

اذ نربـى بناتنـــا ، وتدســو
ن سفاها بناتكم فى التـراب.(1)

وبلغت الجرأة باسماعيل بن يسار أن يستنشده هشام بن عبـد الملك فينشده قصيدته :

يا ربـع رامة بالعلياء من ريـم
هـل ترجعن اذا حييت تسليمى

وفيها يفخر بنفسه وبالأعاجم فيقول :

انى وجدك ما عودى بذى خـور
عند الحفاظ ولا حوض بمهدوم

أصلى كريم ، ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحد السيف مسموم

أحمى به مجد اقوام ذوى حسب
من كل قرم بتـاج الملك معموم

جحاجح سـادة بلـج مرازبـة
جـرد عتـاق مساميح مطاعيـم

من مثل كسرى وسابور الجنود معا
والهرمـزان لفخـر أو لتعظيـم

أسد الكتائب يوم الروع ان زحفوا
وهم أذلوا ملوك الترك والـروم

يمشون فى حلق المـاذىّ سابغة
مشى الضراغمة الأسـد اللهاميم

هناك ان تسألى تـنْبـَيْ بأن لنا
جرثومـة قهرت عـز الجراثيـم

(1) الاغانى 4 : 411 ط دار الكتب

فغضب هشام وقال له : يا عاض بظر امه ، أعليّ تفخر ، واياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟! (1)

وكان ابنه ابرهيم على ارث من طبيعة والده فقد شرب حب العجم وكراهة العرب (2) .

ووفد يزيد بن ضبة مولى ثقيف على هشام بن عبد الملك أيضا فلم يحسن لقاءه ، ويبدو أنه كان يشعر بهذه النزعة فيهم وكانت نفسه غير مهيئة للتسامح مع الموالى بصفة عامة فخرج يزيد يفخر بالعجم فى قصيدة بدأها بقوله :

أرى سلمى تصد وما صددنا
وغير صدودها كنا أردنا

وفيها يقول مفتخرا :

ولينا الناس أزمانا طوالا
وسسناهم ، ودسناهم ، وقدنا
وأتلد مجدنا انا كرام
بحد المشرفية عنه ذدنا (3)

ومال بعض الموالى الى ابن الزبير ضيقا من معاملة الامويين فوجدوه على عادته شحيحا ــ وهو القائل : انما بطنى شبر ــ فنفروا منه وعرض به الضحاك بن فيروز الديلمى فقال :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة
وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت اذا ما نلت شيئا قضمته
كما قضمت نار الغضى حطب السدر

---

(1) الاغانى 4 : 423
(2) الاغانى 4 : 327
(3) الاغانى 6 : 96 — 97

فلو كنت تجرى أو تبيت بنعمـــة
قريبا لردتك العطوف على عمرو

وكان بشار بن برد (1) وهو من مخضرمى الدولتين يقول الشعر وهو فى العاشرة من عمره ، وقد شب على بغض العرب وتفتحت أحاسيسه عـــلى هجاء الناس مذ كان طفلا فكانوا يأتون أباه ويشكونه اليه فيضربه ــ فقال له : يا أبت ، ان هذا الذى يشكونه منى اليك هـــو قول الشعر ، وانى ان الممت عليه أغنيتك وسائر أهلى فان شكونى اليك فقل لهـــم : أليس اللـــه يقول : (ليس على الأعمى حرج) فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار (2) .

وكان الرجل قلقا متبرما فى ولائه للعرب كثير التلون ، مرة يفتخــر بولائه فى قيس فيقول :

أمنـــت مضـــرة الفحشاء أنـــى
أرى قيســـا تضـــر ولا تضـــار
كأن النـــاس حـــين تغيب عنهـــم
نبات الأرض اخطأه القطـــار (3)
وقـــد كانت بتدمر خيـــل قيس
فكـــان لتدمـــر فيهـــا دمـــار
بحـــى مـــن بنى عيـــلان شوس
يسير الموت حيث يقال ســـاروا

---

(1) هو بشار بن برد بن بهمن بن ازدكرد بـــن شروستان بـــن بهمن ابن دارا بن فيروز
(2) الاغانى 3 : 208 ط دار الكتب
(3) جمع قطر وهو المطر

ومـــا نلقـــاهم الا صـــدرنـــا
بـــرىّ منهم وهـــم حـــرار (1)

ومرة يفتخر بولاء بنى عقيل فيقول :

انى مـــن بنى عقيل بـــن كعب
موضع السيف من طلى الاعنـــاق

ومرة تغلب عليه طبيعته الكارهة للعرب المنتفضة مـــن الولاء لهـــم فيقـــول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكـــرم مـــن تميم كلهـــا
أهـــل الفعال ومن قريش المشعر
فارجـــع الى مولاك غير مدافـــع
سبحان مولاك الأجل الأكبر (2)

ولما كان الشعر فن العربى وبضاعته كان على المـــوالى أن يأخـــذوا أنفسهم به والمران عليه للحاق بالعرب أو الظفر بالمجد الأدبى ، ولقد حاول بشار التعلق بشاعر مرموق هو جرير لينشب الهراش بينهما فيسمو بهـــذه المقارنة ولكن جريرا اعرض عنه امتهانا له (3) لا امتهانا لشعره فيما نعتقده .

ويبدو أن الامويين كانوا يدركون فيه صفته المتقلبة الكارهة للعرب فكانوا يمسكون أيديهم عنه ـــ قصد سليمان بن هشام بن عبد الملك فـــى حرّان ومدحه فلم يحظ منه الا بقدر ضئيل رفضه ، وذهب الـــى العراق معرضا ببنى مروان قائلا :

---

(1) حرار بالحاء شديدو العطش
(2) الاغانى 3 : 139
(3) الاغانى 3 : 143

فلقرب مـــن تهوى وأنت متيـــم
أشفى لدائك من بنى مروان (1)

ولم يكن حظه مع العباسيين بأحسن من حظه مـــع الامويين ، فحين قامت الدولة العباسية لم يمنحها اخلاصه شأنه فى ذلك شأن اكثر البصريين الذين شايعوا العلويين فناوأها بقصيدته المعروفة :

أبا جعفر مـــا طول عيش بدائـــم
ولا ســـالم عمـــا قليل بسالـــم

ولقد تركت هذه القصيدة اثرها السىء فى نفس رجال الدولة فلمـــا حاول الاتصال بأخى الخليفة العباس بن محمـــد أعرض الأخير عنـــه فقال بشار يهجوه :

ظل اليسار عـــلى العباس ممدود
وقلبه أبـــدا فى البخل معقـــود
ان الكريم ليخفى عنك عســـرته
حتى تراه غنيـــا وهـــو مجهـــود
وللبخيل عـــلى أموالـــه علـــل
زرق العيون عليها أوجـــه سود
اذا تكرهت أن تعطى القليل ولم
تقدر على سعة لم يظهر الجـــود
أورق بخير ترجى للنـــوال فمـــا
ترجى الثمـــار اذا لم يورق العود
بـــث النـــوال ولا تمنعك قلتـــه
فكل ما سد فقرا فهو محمود (2)

(1) الاغانى 3 : 218 — 219
(2) الاغانى 3 : 159

فاذا اضطرته الحاجة عدل عن التصريح بهذه العـداوة الـى الكذب والمداهنة ، زعم أبو العالية أن بشارا قدم عـلى المهدى فلما استأذن عليه قال له الربيع : قد أذن لك وأمرك ألا تنشد شيئا مـن الغزل والتشبيب ، فادخل على ذلك ... ثم انشده ما مدحه به بلا تشبيب ، فحرمه ولم يعطه شيئا ، فقيل له : انه لم يستحسن شعرك ، فقال : والله لقـد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحد ولكنه كذّب أملى لأنى كذبت فى قولـى (1) .

ثم لا يلبث أن يفخر بالفرس فى قصيدة تكشف عن أعماقه :

هـل مـن رسـول مخبـر
عنـى جميـع العـرب
مـن كـان حيـا منهـم
ومـن ثـوى فـى التـرب
بأننـى ذو حسـب
عـال عـلى ذى الحسـب
جـدّى الـذى اسـمو بـه
كسـرى ، وساسـان أبـى

وهو لا يقف عند الفرس وحدهم ، وانما يفخر بأى عظيم غير العرب فيقول وهو يدرك ما كان بين الفرس والروم :

وقيصـر خـالـى اذا
عـددت يومـا نسـبى
كـم لـى ، وكـم لى مـن أب
بتـاجـه معتصـب

(1) الاغانى 3 : 239

أشـــوس فـــى مجلســـه
يُجثـى لــــه بالــركـــب

ويقول فى ذم العرب :

ولا حـــدا قـــط أبـــى
خلـــف بعـــير أجـــرب
ولا أتـــــى حنظلـــــة
يثقبهـــا مـــن ســـغب
ولا أتـــــى عرفطـــــة
يخبطهـــــا بالخشـــــب
ولا شـــوينـــا ورلا
منضنضـــا بالـــذنـــب

الى أن يقول :

انـــا ملـــوك لـــم نـــزل
فـــى ســـالفـــات الحقـــب

ولا أحسبه قال بيتـــه المشهور :

الارض مظلمة والنـــار مشرقـــة
والنار معبودة مذ كانت النـــار

وهو يدين بالرجعة ،ويكفر الائمة كما يحكى الجاحظ (1) ولكنهـا مجوسية الفرس التى آمن بها فرارا من ولائه للعـرب .

ونلمح هذا الاتجاه فى شعر أبى نواس ، فكـل جميل عنده آت من ناحية العجم يستوى فى ذلك المعنوى والمادى ، وأحيانا يضع مقارنة بادية التحيز بين ما هو عربى وما هو أعجمى ، ولا بأس أن نضع أمامك شيئا من

(1) الاغانى 3 : 145

هذا تاركين أكثره للايجاز ــ ففى الوصف يشرب الخمر فى كأس جميلــة محلاة بصورة فارسية ، ترى فى قاعها كسرى ، وفى جنبات الكأس لوحة بديعة وفيها وقف الرجال بعصيهم يتحينون غفلة من مها لصيدها :

تدار علينا الكأس فى عسجديــة
حبتها بأنــواع التصاوير فارس
قرارتها كســرى ، وفى جنباتهــا
مهــا تدريهــا بالقسى الفوارس

واذ سمع صوتا فى غمرة الصفو والسرور تمناه فارســيا لا عربيــا يجرى فى وصف دمنة او فى زجر طير :

فاسقنيهـــا ، وغــن صـــو
تــا ــ لــك الخــير ــ أعجمــا
ليس فـــى نعــت دمنـــة
لا ، ولا زجــر أشــأمــا

وهو لا يرى فيما أبقت العرب بديلا عن ميراث الأكاســرة :

تراث أبى ساسان كسرى ولم يكن
مواريث ما أبقت تميم ولا بكــر

الــى غير ذلــك (1) .

---

(1) انظر مختارات الاغانى فى الاخبار والتهانى ، اختيار ابــن منظــور محمد بن مكرم 3 : 25 — 26 فى اخبار ابى نواس سلسلة تراثنــا ط الحلبى سنة 1385 هـ 1966 م

الشعر السياسي

أما الشعر السياسى فى العصر الاموى فقد تشعبت به السبل بعد أن فرق معاوية الكلمة ، وأعاد العصبية القبلية ، وأصهر الى اليمنيين ليشد بهم ازره ، وتتابعت الأحداث السياسية التي عصفت ببيت سفيـان وكـادت تعصف بالبيت الاموى كله لولا أن سنده مـروان وبنوه ، وكـان الشعر لسان الاحداث كلها ، ونحن نوجز القول فى هذا المقال ونشير الى بواعث الشعر ومصادره لمن أراد المزيد والسعة .

لم يترك الامويون بابا للترغيب فيهـم أو الحط مـن خصومهم الا طرقوه ، وكان الشعر من هذه الأبواب ، وكان سبيل الاخطـل اليهم مـن هذا الوجه ، فقد اوعزوا اليه بهجاء الانصار وكان مجموعهم الـى جـانب العلويين فقال فيهم الأخطـل :

لعن الالـه بنى اليهود عصابـة
بالجزع بين جلاجـل وصـوار

وأشار فى هذه القصيدة الى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بقوله :

واذا نسبت ابن الفريعـة خلتـه
كالجحش بين حمـارة وحمـار

فهاج الأنصار ودارت معركة شعرية اشترك فيها جمع منهم رد عليهم الأخطل جميعا وكان النعمان بن بشير أشدهم غضبا لا سيما انه كان قريب الصلة من معاوية ومن مؤيديه فذهب اليه مطالبا بقطع لسان الاخطل وهدد بنقض البيعة ، ومن كلامه :

معاوى الا تعطنا الحـق نعترف
لحى الأزد مشدودا عليها العمائم

فما لى ثــأر دون قطــع لسانــه
فدونك من يرضيه منك الدراهم
فما أنت والأمر الذى لست أهله
ولكن ولىّ الحق والأمــر هاشم

ففزع الأخطل الى يزيد واستجار به ، فدخل يزيد الى أبيه فقال : يــا أمير المؤمنين هجونى وذكروك فجعلت له ذمتك وذمتى عــلى أن رد عنى . فقال معاوية للنعمان : لا سبيل الى ذمة أبى خالد فقال الأخطل فى مــدح يزيــد :

أبــا خالــد دافعت عنى عظيمــة
وأدركت لحمى قبــل أن يتبددا

الى آخر القصيدة (١) .

ولم يقف الأخطل عند هجاء الأنصار وهو ينافح عــن البيت الاموى بل هجا قيسا أيضا ــ لا للعداوة بين قيس وتغلب كما تحكى بعض الأخبار، ولكن لان القيسية رفضت البيعة لمروان بعد مؤتمر الجابية سنة ٦٤ هـ على النحو الذى سنوضحه بعد قليل . تناول الاخطل فى قصيدته الطويلة :

الا يا اسلمى يا هند ــ هند بنى بدر
وان كان حيانا عدى آخر الدهر

معظم القبائل القيسية وهجاها واحدة واحدة فمن ذلك قوله :

وقد سرنى من قيس عيلان اننــى
رأيت بنى العجلان سادوا بنى بدر

(١) طبقات فحول الشعراء 398

يريد أن الأمر قد انقلب رأسا على عقب ، فبنو العجلان من قيس ، وبنو بدر من قيس فأصبح ضعفاؤهم سادة على كبارهم ، ويوجع بني العجلان بقوله :

وكنتم بنى العجلان ألأم عندنا
وأحقر من أن يشهدوا عاليَ الأمر
بنى كل دسماء الثياب كأنما
طلاها بنو العجلان من حمم القدر

ثم تعرض لسليم ، وعامر ، وغيرهم (1) . وبالاختصار اتصل سبب الاخطل بالامويين وأصبح شاعرهم يرى رأيهم ويمتدح فعالهم ، وظل كذلك فى عهد يزيد ، ومعاوية الثانى ، ومروان بن الحكم ثم ادناه عبد الملك وقربه . فاذا تركنا الاخطل ـ وشعره فى السياسة وفير ـ مكتفين بهذا الايجاز وجدنا فى الأحداث المتلاحقة التى صاحبت الدولة الاموية ما يدلك على بواعث الشعر فى عهدها ، ونحن نعلم أن كل حادثة سياسية لا تكاد تمر دون أن تعبر عن نفسها شعرا ، تأييدا لها أو نقضا عليها .

الاختلاف حول البيعة ليزيد

زين المغيرة بن شعبة لمعاوية أن يأخذ البيعة ليزيد ، وبايع رجال الكوفة تحت ضغط المغيرة ، وحمل لواء المعارضة فى المدينة عبد الرحمن ابن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، فذهب معاوية الى

---

(1) القصيدة فى اكثر من خسين بيتا يمكن مراجعتها فى كتاب نقائض جرير والاخطل لابى تمام من ص 28 — 37 وقد نقضها عليه نقيع ابن صفار القيسى بقصيدته :

الا حى هندا بالنبى الى البشر
وكيف تحييها على النأى والهجر

نقائض جرير والاخطل 38 ، النبى : الرابية . البشر . اسم جبل

المدينة ، وخطب الناس وأوهمهم أن أقطاب الرجال فى المدينة قد بايعوا ؛ فبايع الناس .

ومات معاوية وخلفه يزيد فكتب الى الوليد بن عتبة واليه على المدينة أن يأخذ البيعة ممن حبسها عنه فبايعه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وامتنع عبد الله بن الزبير وفر الى مكة يعمل لنفسه ، وتلقى الحسين ابن على رغبات أهل الكوفة بالخروج اليهم وكان فى ذلك نهايته وأصحابه فى العاشر من محرم سنة 61 هـ فى كربلاء وترك موته اثرا سيئا معاديا للامويين حين توحدت صفوف الشيعة .

ولم يمض عامان حتى ثار أهل المدينة فأرسل يزيد قائده مسلم بن عقبة فنكل بأهل المدينة وخربها ثم توجه الى مكة حيث لاذ بها ابن الزبير .
ولم تخل هذه الاحداث من النشاط الشعرى تعبيرا عنها وعن آثارها .

نهاية بيت أبي سفيان وظهور بيت مروان

وتولى معاوية الثانى الحكم أربعين يوما واعتزل زاهدا فى الدنيا ، وبموت معاوية الثانى انقسم الامويون فى دمشق لولا أن انعقد مؤتمر الجابية سنة ٦٤ وقر قرارهم على أن تتم البيعة لمروان بن الحكم ، ثم لخالد ابن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد فاتحدت كلمة اليمنيين ورفضت قيس هذه البيعة وآزرت ابن الزبير برئاسة الضحاك بن قيس الفهرى ، فسار مروان الى الضحاك وأوقع به فى مرج راهط فاحتدم الخلاف بين اليمنية والقيسية فى كل البلاد الاسلامية وترك أثره الضخم فى الشعر فقال أبو ثمامة الكلبى يظاهر مروان بن الحكم :

اشهدكم أنى لمروان سامع
مطيع ، وللضحاك عاص مجانب
الى غير ذلك .

وقال مروان حين بويع له مشيرا الى الذين آزروه من اليمنيين :

لما رأيت الامر أمرا نهبا ... يسرت غسان لهم وكلبا

والسكسكيين رجالا غلبا ... وطيّشا تأباه الا ضربا

والقين تمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخرا صعبا

لا يأخذون الملك الا غصبا ... وان دنت قيس فقل لا قربا (1)

وعات أصوات اليمنيين ولكل قبيلة منهم شاعر أو شعراء يتحدثون بهذا النصر ومن ذلك ما يقوله عويج الطائى يمتدح كلبا وحميد بن بحدل فى عصبية كعصبية الجاهلية :

لقد علم الاقوام وقع ابن بحدل
واخرى عليهم ان بقى سيعيدها

يقودون أولاد الوجيه ولاحق
من الريف شهرا ما ينى من يقودها

فهذا لهذا ثم أنى لناقض
على الناس اقوالا كثيرا حدودها

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت
قضاعة أربابا ، وقيس عبيدها (2)

وما كادت قيس تجمع شتاتها تحت رئاسة زفر بن الحارث بعد هزيمتهم فى مرج راهط حتى أطلق شيطان الثأر لسانه قائلا قصيدته المشهورة :

(1) تاريخ الطبرى سنة 65 ، نقائض جرير والاخطل 17
(2) تاريخ الطبرى سنة 65

أريني سلاحي ــ لا أبا لك ــ انني

أرى الحرب لا تزداد الا تماديـا

وفيها يعتذر عن فراره يوم مرج راهـط :

فلم تر مني نبـوة قبـل هـذه

فراري وتركي صاحبيّ ورائيـا

عشية أعـدو بالقران فـلا أرى

من الناس الا من عليّ ولا ليـا

ويتوعـد القبائل اليمنيـة فيقول :

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا

وتثأر من نسوان كلب نسائيـا

الا ليت شعري هل تصيبن غارتي

تنوخا ، وحيّي طيء من شفائيا (1)

ويعجب أن انصرف القوم عن ابن الزبير متجهين الى هذا الحـي من اليمنيـة :

أفي الله ــ أما بحدل وابن بحدل

فتحيى وأمـا ابن الزبير فيقتل

كذبتم وبيت اللـه لا تقتلونـه

ولمـا يكـن يوم أغـر محجـل

ولمـا يكـن للمشرفية فوقكـم

شعاع كقرن الشمس حين ترجل (2)

فأجابه جواس بن قعطل ، وكأن الثأر الأدبي لا يقل حرقـة عن ثـأر الـدم :

---

(1) تاريخ الطبري سنة 65 ، نقائض جرير والاخطل 25

(2) تاريخ الطبري سنة 65

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط

على زفر داء من الداء باقيا

الى آخر القصيدة (1) .

ونحن لا نبعد اذا قلنا أن الشعر الذى صدر حول قصور الامويين كان له أكبر العون فى انتصارهم على عدوهم الاكبر عبد الله بن الزبير ، لقد كانوا مبسوطى اليد يتألفون الشعراء بالمال كما يتألفون قبائلهم بالمناصب ولك ان تتمثل هذا الاثر الضخم فى جانب الامويين لاننا لا نملك حصره ولا ذكر اكثره اذا عرفنا ان عبيد الله بن قيس الرقيات كان الشاعر الوحيد من مشاهير الشعراء الذى كان يؤازر الزبيريين ، وحتى هذا الشاعر الواحد اضطرته الحاجة بعد مقتل مصعب بن الزبير الى مدح عبد الملك ، ولم يتقبله عبد الملك قبولا حسنا لان شعره فى مصعب بن الزبير كان من غرر القصائد وعيونها (2) .

وكان تعصب بعض الامويين لليمنية مسلكا من مسالك السياسة ، وهى مسالك وعرة ذات حدين لذلك لم ينسوا فى يوم من الايام عصبيتهم المضرية فما كاد الوليد بن يزيد يسمع أن واليه على العراق قتل خالدا القسرى اليمنى حتى سر بذلك وانطلق لسان الوليد يفخر بمضريته ويعبر عن فرحته بذلك ويقول من قصيدة له :

شددنا ملكنا ببنى نزار

وقوّمنا بهم من كان مالا

---

(1) تاريخ الطبرى سنة 65

(2) راجع هذه القصائد فى الكامل للمبرد : 1 : 1990 ط الازهرية ، وتاريخ الطبرى فى حوادث سنة 71

وهـذا خالـد فينـا قتيـلا
الا منعوه ان كانـوا رجـالا ؟
ولـو كانت بنو قحطـان عربـا
لمـا ذهبت صنائعـه ضـلالا
ولا تركـوه مسلوبـا أسـيرا
نحملـه سـلاسلنـا الثقـالا
ولكـن المذلـة ضعضعتهـم
فلم يجـدوا لذلتهم مقـالا (1)

ولكن تعصبت اليمنية ، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبـد الملـك ، وخلعوا الوليد بن يزيد وقتلوه ، وتشفى فيه محمد بن خالد قائلا :

قتلنـا الفاسـق المختـال لمـا
أضـاع الحـق واتبـع الضلالا
يقـول لخالـد : الا حمتـه
بنو قحطان ان كانـوا رجـالا
فكيف رأى غـداة غدت عليـه
كـراديس" يشبههـا الجبـالا
الا ابلـغ بنـى مـروان عنـى
بأن الملك قـد أودى فـزالا (2)

واستمرت السلسلة الى آخرها تحمل الدماء والشر فجمع المضريون جمعهم وذهبوا الى مروان بن محمد وطالبوه بأن يثأر لابن عمه الوليد بن يزيد وأمدوه بجنود من تميم وقيس وكنانة .

(1) الاخبار الطوال 348 فى قصيدة طويلة
(2) الاخبار الطوال 367 .

وجرت هذه العدوى من الحاكمين الى الافراد فكان الكميت يفخر بقومه من نزار ويغمز القحطانيين :

لنا قمر السماء وكل نجم
تشير اليه ايدى المهتدينا
وجدت الله اذ سمى نزارا
وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات
وللناس القفا ولنا الجبينا

الى أن يقول :

وما وجدت بنات بنى نزار
حلائل أسودينا وأحمرينا

يشير بذلك ان اليمنية أصهرت الى الأحباش والى الفرس حين نزلا بها • فيجيبه دعبل الخزاعى يشيد باليمنية ويغمز النزارية :

أفيقى من ملامك يا ظعينا
كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى
يشيبن الذوائب والقرونا
وما طلب الكميت طلاب وتر
ولكنا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى
الى نصر النبوة فاخرينا

هذه نماذج من الشعر السياسى فى العصر الاموى ، أما حصره فأمر لا نستطيع دركه الا أن نخلص له ، أما حصيلة الشعر ــ كما رأيت ــ وهى عدة الرواة فهى ضخمة نكتفى منها بما أشرنا لنجلس الى محمد بن سلام الجمحى لنرى رأيه فيما يقول من ذهاب الشعر وروايته •

مناقشة ابن سلام الجمحى

يحسن بنا أن نعرف بابن سلام قبل أن نأخذ فى مناقشة القضية التى أثارها والتى أشرنا اليها فى صدر هذا البحث حين علق علـى قول عمر بن الخطاب (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) بقوله :

(فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسـلام وجـاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الـى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب والفوا ذلك وقد هلك مـن العرب مـن هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير) (1) .

فمن هو ابن سـلام ؟

هو ابو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحى ، ولد بالبصرة فى سنة مائة وتسع وثلاثين من الهجرة ، فى بيت علم ، فوالده من رجال الرواية وأخوه عبد الرحمن من رواة الحديث ، ومن هذا البيت أبو خليفة الجمحى ابن اخت محمد بن سلام .

سمع الجمحى من الأصمعى ، وأبى البيداء الرياحى الأعرابى ، وخلف الاحمر وأبى زيد الانصارى ، وأبى سرار الغنوى الأعرابى ، وأبى عبيـدة معمر بن المثنى ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبى الغراف الاعرابى ، والمفضل الضبى . ومعاوية بن أبى عمرو بن العلاء ، ويونس بـن حبيب ــ وتلمـذ

---

(1) طبقات فحول الشعراء للجمحى 2

للجمحى شيخ الكوفيين احمد بن يحيى ثعلب ، ومن البصريين أبو حاتم السجستانى ، وأبو الفضل الرياشى ، وأبو عثمان المازنى وهؤلاء الثلاثة يمثلون الطبقة الثانية من رواة اللغة بعد الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد . وترك من الكتب كما يحكى ابن النديم كتاب الفاضل ، وبيوتات العرب ، وطبقات الشعراء الجاهليين ، وطبقات الشعراء الاسلاميين ولعله يعنى بالكتابين الأخيرين كتاب فحول الشعراء الموجود بأيدينا الآن ، وعن ياقوت انه ترك كتابا فى غريب القرآن .

والرجل على هذا الوجه من كبار الرواة ، وعاش قرب الفترة التى يدور حولها البحث فى كنه الشعر الاسلامى وروايته ، وصاحب تصنيف فى آثار الشعراء جاهليين واسلاميين فكان لا بد من الوقوف أمام التعليق الذى نسب اليه دون أن نجنح الى تأويل قريب نعلل به هذا التعارض بين رأى ابن سلام ووفرة الشعر الاسلامى . والامر الذى يسترعى الانتباه فى تعليق ابن سلام هو ما يتبادر الى الفهم من أن العرب شغلوا عن الشعر وروايته بالجهاد والفتح ولم يعودوا الى طبيعتهم منه الا بعد ان اطمأنت العرب بالأمصار .

وابن خلدون يرى هذا الرأى فى جزئية منه ، وعبارة ابن خلدون كما جاءت فى الفصل الخمسين من المقدمة كما يلى :

(.... ثم انصرف العرب عن ذلك ـ أى عن قول الشعر ـ أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم

والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه) (1) •

أما المحدثون فلم يستريحوا الى ذلك • منهم الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الايطالي الذي رفض قول ابن سلام وقول ابن خلدون ، وقال بالحرف الواحد : (هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتة) ويقول . (فاذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطولة مثل سيرة الرسول لابن هشام ، وكتاب المغازي للواقدي ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبري وجدتم كثرة ما يرددونه من أشعار صدر الاسلام • ثم اذا تصفحتم كتب الادب القديمة مثل كتاب الاغاني وغيره ألفتم أن الآداب العربية لم تزل في ذلك العصر زاهية وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم) (2)

ومن الباحثين المعاصرين الدكتور ناصر الدين الأسد ، ناقش كلام ابن سلام وقسمه الى ثلاث قضايا :

ــ الصحيح منها أن القوم حفظوا أقل الشعر وذهب عنهم أكثره •

ــ والثانية قول ابن سلام انهم لم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب حين راجعوا رواية الشعر ، وهذه ــ في نظر الدكتور الأسد ــ قضية باطلة استنادا الى ما أشار اليه من مدونات •

ورأينا أنها حالات فردية لا تقيم عمادا لتقرير رأي خطير كهذا ولم يثبت ان هذه المدونات كانت سندا في الرواية •

(1) مقدمة ابن خلدون 530 ط بيروت سنة 1886 م
(2) تاريخ الآداب العربية لكارلو نالينو 86 — 87

ـ والثالثة فهى تلك التى نناقشها الآن وقول ابـن سـلام (فجـاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم) فقد افترض لصواب هذا الرأى أن يكون ابن سلام قد اراد الرواية العلميـة المنظمة ـ والا ـ فهو لا يقبل دعواه مستندا فى ذلك عـلى وفـرة الشعر الذى ساق أمثلة كثيرة له •

والقول عندنا أن الشعر الذى صدر فى الفترة الاسلامية الاولى كان غزيرا ، فنوازعه فى البادية ظلت كما كانت فى الجاهلية • وفى القرى كانت الدعوة وملابساتها من الحوافز على انشاده كدوافع جديدة عـلى النحـو الذى بسطنا القول فيه منذ قليل •

ولكن الرواية هى التى تسهلت بشواغل الجهاد والفتح ، فلقـد كانت الرواية قديما شغلهم الشاغل وعلمهم الذى ليس عندهم علم أصح منـه • وكان فى الجاهلية منزعان يلحّان فى أداء الرواية :

ـ العصبية القبلية •

ـ والاشباع الفنى •

اما العصبية القبلية فقد فقدت حدتها ، وما تبقى منها بقى فى محيط مجتمع اسلامى لم يعد فيه الشيخ مطلق التصرف ، وأما الاشباع الفنى فقد أذهلهم أسلوب القرآن الكريم وأصاب حاستهم اللغويـة ، واذا ارادوا أن يجتروا أشعار الاوائل على النحو الذى كانوا عليه فى الجاهلية صرفهم عن ذلك مجالس العلم ، وجهاد الفتح ، وفوق هذا ما تتصوره من طاقة للعقل الانسانى يعى فيه ما أدرك من شعر قديم ، فاذا أضاف اليه ما هو أحـدث منه أثقل بذلك طاقته ولم يعد للقديم لمعانه السابق فـلا يلبث ان تضعف صورته أو يُنسى ، فاذا أضفنا أن الزمان عفّى عن الجاهلية ومحـا بعض

معالمها ، وجاءت تعاليم الاسلام تنسخ شيئا من عاداتها وتذكر مع كتب التواريخ والسير ما هو أقرب الى المحدثين سببا ، والصق بهم نسبا وأدنى الى ارحامهم قربا كانت الدواعى الى حفظ الجديد أقوى من الاستمساك بالقديم فاذا أصر الراوية على أن يمسك باليدين ، ويحتفظ بما كان وما هو كائن ثقلت عليه علة الطاقة فلا يلبث أن يرضى بالأهم عوضا عن المهم ، وفى التاريخ الادبى أبيات قلائل علقت أجزاء منها بأذهان حفاظها وغابت أجزاء أخرى •

جرى بين عبد الله بن الزبير وعتبة بن أبى سفيان لحاء بين يدى معاوية فجعل ابن الزبير يعدل بكلامه عن عتبة ويعرض بمعاوية حتى أطال وأكثر فالتفت اليه معاوية متمثلا وقال :

ورام بعوران الكلام كأنها
نوافر صبح نفرتها المراتع
وقد يدحض المرء الموارب بالخنا
وقد تدرك المرء الكريم المصانع

ثم قال لابن الزبير : من يقول هذا ؟

فقال : ذو الاصبع •

فقال : أترويه ؟

قال : لا •

فقال : من هاهنا يروى هذه الأبيات ؟

فقام رجل من قيس فقال أنا ارويها يا أمير المؤمنين

فقال أنشدنى • فأنشده ، حتى أتى على قوله :

وساع برجليه لآخر قاعد
ومعط كريم ذو يسار ومانع

وبـــان لأحساب الكرام وهـــادم
وخافض مولاه سـفاها ورافـــع
ومغض على بعض الخطوب وقد بدت
له عورة من ذى القرابة ضاجـــع
وطـــالب حوب باللسان وقلبـــه
سوى الحق لا تخفي عليه الشرائع

فقال له معاوية : كم عطاؤك ؟
قال : سبعمائة •
قال : اجعلوها الفا • (1)

والحافظ الواعى كما ترى قد حصل على جائزة لانـــه أدرك مـــا لم يدركه الآخرون وهو بعد هذا رجل من قيس ، وصاحب الشعر قيسىّ •

وفى قصة لعبد الملك بن مروان وهو يستعرض أحياء العرب ، وحول ذى الاصبع أيضا ما هو أكثر دلالة على ذهاب الشعر والأخبار عن أذهان الناس • يقول ابو الفرج ان عبد الملك بن مروان لمـــا قدم الكوفة بعد قتله مصعب بن الزبير جلس لعرض أحياء العرب ــ وقال عمر بن شبه: ان مصعب كان صاحب هذه القصة ــ فقام اليه معبد بن خالد الجدلىّ ، وكان قصيرا دميما ، فتقدمه اليه رجل منا حسن الهيئة ، قال معبد : فنظر عبد الملك الى الرجل وقال : ممن أنت ؟ فسكت ولم يقل شيئا ، وكان منا •

فقلت من خلفه : نحن يا أمير المؤمنين من جديلة • فأقبل على الرجـــل وتركنى •

فقال : من أيكم ذو الاصبع ؟
قال الرجل : لا أدرى •

(1) الاغانى 3 : 100 — 101 ط دار الكتب

قلت : كان عدوانيا ، فأقبل على الرجل وتركنى

وقال : لم سمى ذا الاصبع ؟

قال الرجل : لا أدرى •

فقلت : نهشته حية فى أصبعه فيبست ، فأقبل على الرجل وتركنى •

فقال : وبم كان يسمى قبل ذلك ؟

قال الرجل : لا أدرى •

قلت : كان يسمى حرثان ، فأقبل على الرجل وتركنى •

فقال : من أى عدوان كان ؟

فقلت من خَلْفِه : من بنى ناج الذين يقول فيهم الشاعر :

وأمـا بنو نـاج فـلا تذكرنّهم
ولا تتبعن عينيك ما كان هالكـا

اذا قلت معروفـا لأصلح بينهـم
يقول ُوهَيْب لا أسالم ذلكـا

فأقبل على الرجل وتركنى ، وقال : أنشدنى قوله :

عذير الحى مـن عـدوان

قال الرجـل : لست أرويها •

قلت : يا أمير المؤمنين ، ان شئت أنشدتك

قال : ادن منى فانى أراك بقومك عالمـا •

فأنشدته ••• ••• فأقبل على الرجل وتركنى •

وقال : كم عطاؤك ؟

فقال : الفان •

فأقبل علىّ فقال : كم عطاؤك ؟

قلت : خمسمائة .

فأقبل على كاتبه وقال : اجعل الالفين لهذا والخمسمائة لهذا (1)

والذى نتصوره ان هذا الذى سئل ولم يجب ولم يـدر كما يقول ، مثل لجمهرة الناس ، والذى سئل أو تبرع بالاجابة هو الفرد فـى افـراد عنوا بالحفظ لسبب أو لآخر كأن يكون معنيا بتاريخ قبيلته ، أو داعيا لهـا مشيدا بشعرائها وأماثلها ووجه آخر تجدر الاشارة اليه بل تجب الاشـارة اليه هو ان هذا الحافظ الواعى لم يكن أمثل رجل فى قبيلته يدلك عـلى هذا أن عطاءه كان خمسمائة وكان عطاء الرجل الذى لم يدر الفين ، فـان تكن فى هذه القصة دلالة على ذهاب الشعـر القديم وذبول الروايـة فقد أخذت مكانها بين الادلة على ذلك ـ وان كان فى نفسك منها شيء ففيمـا يلى دليل آخر .

حكى عن الاصمعى أنه قال : سألت أبا عمرو بن العـلاء عـن قول الشاعـر :

زعموا أن كل من ضـرب العيـ
ـر مـوال لنـا وأنّا الـولاء

فقال : مات الذين يعرفون هذا ـ وأبو عمـرو كمـا نعلم أسـتاذ الاساتذة وشيخ الشيوخ فى الرواية ، وسئل مرة أخرى عن قول امـرىء القيس :

نطعنهـم سـلكى ومخلوجـة
كـرّك لأمـين عـلى نـابل

فقال : قد ذهب من يحسنه (2) .

---

(1) الاغانى 3 : 91 — 93 ط دار الكتب واقرا خبرا مماثلا فـى معجم البلدان 1 : 362 للقاضى سوار بن عبد الله بن سوار

(2) المزهر 323 — 324

فالرواية على هذا الوجه قد ثقل عليها الحمل والاستظهار على النحو الذى كان سائدا فى الجاهلية عندما كان الشعر عندهم هو علمهم الأمثل ، أما وقد شارك هذا العلم علوم أخرى جاء بها القرآن والسنة ، وواجب أكثر شغلا وهو واجب الفتح فالقول ما قال ابن سلام حينما نعتقد أنه يعنى أن القوم شغلوا بالجهاد عن الرواية لا عن القريض .

وبعد . فاذا استتقر الرأى الذى نراه تفسيرا لعبارة ابن سلام من أنه كان يعنى توقف الرواية لا توقف القريض استطعنا أن نعود الى عبارة ابن سلام تحت هذا التفسير فنجدها مستقيمة لا عوج فيها ، فكما قلنا ان الشعر كان على انطلاقه فى صدر الاسلام كما كان فى الجاهلية ، بل زيد بسبب الملابسات الاسلامية ولدينا من أخبار الشعر فى الاسلام أنه كان من الكثرة بحيث يتعذر دركه — لضعف الرواية الادبية أيضا — من ذلك ما يقوله عبد الله بن أبى عبيدة (من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره .. وكان ابن ابى عبيدة يحكى شعر كثير بثلاثين دينارا (1) وفى أخبار السيد الحميرى يقول ابو الفرج (... وكان شاعرا متقدما مطبوعا . يقال ان اكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وابو العتاهية والسيد فانه لا يعلم ان احدا قدر على تحصيل شعر منهم أجمع) (2) وكلهم كما ترى اسلامى .

أما ما يقول به الدكتور ناصر الدين الاسد وقد افترض لصواب رأى ابن سلام انه يعنى الرواية المنظمة فاننا لا نفهم ما يعنيه بالرواية المنظمة ، والذى نفهمه أن هناك نوعين من الرواية :

---

(1) الاغانى 9 : 5
(2) الاغانى 7 : 229

ـ الروايـــة الاديبـــة •

ـ والروايـــة اللغويـــة •

الاولى هى التى يعنيها ابن سلام وقد سارت على نهجها منـــذ كانت فى الجاهلية والتى أمكن تتبعها الى مائة وخمسين سنة تقريبا قبل الهجرة ، واستمرت بعد الاسلام على النحو الذى بيناه فى البـــاب الاول ، ناشىء يحس بالموهبة الفنية تربو فى صدره فيلزم شاعرا يتلمذ له ويروى شعره ، والى جانب هذا اللون افراد من القبيلة يرددون الشعر قصدا للمتعة الفنية، أما خارج نطاق القبيلة فكانت الاسواق محـــط أنظـــار الشعراء والـــرواة يعلنون فيها عن آثارهم وقد يتخذونها مادة للمخاصمة والمنافرة •

أما الرواية المنظمة فهى الرواية اللغوية وهذه نشأت عن دواع غـــير عربية فى أكثر الأحيان حين دخل العربى وغير العربى فى دين الله ووجدوا أنفسهم أمام اصول اجملها القرآن فعادوا يتعرفون على صحيح العربية من خلال الشعر ، ووضعت للرواية اللغويـــة الاصول والنظـــم فـــى التوثيق والسند الى غير ذلك ، وهذه كما قلنا لا يعنيها ابن سلام لانها نشأت فـــى بداية القرن الثانى الهجرى •



الفصل الرابع

اتجاهات الرواة

والرواة هنا ـ حتى لا يلتبس عليك الامر ـ هم رواة اللغة ، فقديما سمعنا عن رواة الشعر ، منهم من كان يتبع شاعرا بعينه ، يحفظ اشعاره ويرددها على جهة التلمذة له ، ومنهم من كان يروى الشعر عامة ـ اشباعا لنزوع فنى او رغبة فى نقل هذا الفن .

وهناك رواة الحديث ـ حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد اعدوا لهذا الوجه اصولا تتفق مع ما هم بسبيله على النحو الذى تحدثنا عنه فى باب الحديث .

ونحن الآن امام لون جديد ، فى مجتمع جديد . امام صنف من الرواة يتجهون الى جمع اللغة وتوثيق صحيحها ، هم رواة اللغة لم يكونوا بالامس ـ فلقد كان القوم عربا يتحدثون العربية بفطرتهم تدور على السنة الخلف كما دارت على السنة السلف من غير عمد الى تعلم ، ثم

ما لبثت الارض ان رحبت وامتدت اطرافها وشملت الجزيرة وغير الجزيرة وخرج العربى مجاهدا الى هذه الاطراف او مهاجرا اليها وما لبث ان دخل غير العربى فى هذا المجتمع الجديد مسلما او غير مسلم ، وهو فى كل الاحوال ملتزم بلغة هذا المجتمع ، الا" يقيم بها عباداته وصلاته فبها تدور أصول معاشه وحياته ، والعرب من وراء كل هذا أحرص الناس على لغتهم •

وجد رواة اللغة هذا الشعر الوفر يحمل اليهم الفاظ العربية وتراكيبها ، وكلما نسب الى القدم ازدادت الثقة به ، فأعلاه مرتبة هو ما أدركه التوثيق من شعر الجاهلية ، ثم ما جاء فى الصدر الاول من العهد الاسلامى ، ثم ما أحاطته البادية بسياجها الى غير ذلك من شروط تستهدف صحيح الشعر ليخلص لرواة اللغة صحيح العربية وكان لرواة اللغة فى هذا مذاهب وآراء تشتد حينا وتلين حينا على النحو الذى نبينه بعد •

ابو عمر بن العلاء

من آراء اللغويين أن العرب احتفظوا بسليقتهم حتى نهاية القرن الثانى للهجرة ، واتفق أكثرهم على أن يكون هذا التاريخ نهاية الاحتجاج حين ارادوا توثيق الفاظ العربية بشواهد من كلام العرب ، منهم من غالى فى هذا كأبى عمرو بن العلاء الذى كان يعد الشعر للمتقدمين وحصرهم بين امرىء القيس وذى الرمة كما يفهم من عبارته (ان الشعر فتح بامرىء القيس وختم بذى الرمة) (1) وقوله (ختم الشعر بذى الرمة والرجز برؤبة بن العجاج) (2) •

---

(1) البيان والتبيين 4 : 84 ط لجنة التاليف والترجمة والنشر بتحقيق عبد السلام هارون

(2) وفيات الاعيان 3 : 188 ط النهضة سنة 1948 بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

ومع هذا كان يضيق على نفسه فى دائرة الاحتجاج كما شهد بذلك تلميذه عبد الملك بن قريب الاصمعي فقال : جلست الى ابى عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت اسلامى ، وهو يعجب بشعر جرير والفرزدق وأمثالهما ولكنه مع هذا الاعجاب يراه شعرا مولدا بالاضافة الى شعر القدامى فيقول : (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته) (1) يعنى شعر جرير والفرزدق وأمثالهما .

ولكن أين جرير والفرزدق والراعى والأخطل وكلهم معاصر لذى الرمة ، لقد اختارهم محمد بن سلام الجمحي ووضعهم فى الطبقة الاولى من الشعراء الاسلاميين بينما وضع ذى الرمة فى الطبقة التالية لهم (2) كانت أكثر الاحاديث عن جرير والفرزدق والاخطل والراعى ومن سار سيرهم تشير الى المفاضلة بين اثنين أو أكثر منهم فى هذا الفن الذى عرفوا به ـ وهو الهجاء . وفى بعض الاحيان كان يرجح احدهم على الآخر بسبقه فى الفصاحة ، وتشبيهه بالجاهليين ، من هذا ما جاء فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة من ان جريرا كان من فحول الشعراء ، ويشبه بالاعشى (3) وكان ابو عمرو يشبه الفرزدق بزهير (4) ويقول ابو عبيدة عن الاخطل انه اشبه بشعراء الجاهلية وأشدهم أسر شعر وأقلهم سقطا (5) وذكر ابو الفرج خبرا يُجمع فيه اللغويون على تفضيل الاخطل يرويه أبو عبيدة فيقول :

(جاء رجل الى يونس فقال له : من اشعر الثلاثة ؟ : قال الاخطل ،

---

(1) البيان والتبيين 1 : 32 ، العمدة 1 : 57 ط هندية سنة 1925

(2) طبقات فحول الشعراء 248 وما بعدها

(3) الشعر والشعراء 1 : 437

(4) الشعر والشعراء 1 : 448

(5) الاغانى 8 : 292 ط دار الكتب

قال : من الثلاثة ؟ قال أى ثلاثة ذكروا فهو اشعرهم • قلنا : عمن تروى هذا ؟ قال : عن عيسى بن عمر ، وابن أبى اسحق الحضرمى ، وأبى عمرو ابن العلاء ، وعنبسة الفيل ، وميمون الاقرن الذين ماشوا الكلام وطرقوه •••لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون • قلت للرجل : سله وبأى شىء فضلوه؟ قال بأنه كان اكثرهم عدد طوال جياد ليس فيها سقط ولا فحش ، وأشدهم تهذيبا للشعر •فقال ابو وهب الدقاق اما ان حمادا وجنادا كانا لا يفضلانه ؛ فقال : وما حماد وجناد، لا نحويان ولا بدويان ولا يبصران الكسور ولا يفصحان وأنا أحدثك عن ابناء تسعين أو أكثر ادوا الى امثالهم ، ماشوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته فلم تشذ عنهم زنة كلمة ، وألحقوا السليم بالسليم ، والمضاعف بالمضاعف ، والمعتل بالمعتل ، والاجوف بالاجوف ، وبنات الياء بالياء ، وبنات الواو بالواو فلم تخف عليهم كلمة عربية (1) وفى فصاحة الفرزدق يقول يونس (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة) (2) •

هذه المحاورة وهذا التقريظ يتصلان بالمجال اللغوى والخبر على هذا الوجه يغطى جانبا من سؤالنا لماذا توقف ابو عمرو عن الاحتجاج بشعرهم وهم على ما ترى من المعرفة باللغة والاحاطة بخصائصها ، وكان ابو عمرو نفسه أحد اللغويين الذين شهدوا لهم بهذا السبق ، واذا كان أمر جرير والفرزدق والراعى والاخطل على ما رأيت فلماذا دنوا بالاضافة الى ذى الرمة فى رأى ابى عمرو بن العلاء ؟ •

يبدو أن هؤلاء المشاهير قد تبوأوا أمكنتهم بسبب المعركة الشعرية التى طيرتها الراوية فى كل مكان ، وشغل الناس بأخبارهم ، وعنوا بما

---

(1) الاغانى 8 : 283

(2) الاغانى 19 : 48 ط ساسى

أحدث جرير في هجاء الفرزدق وبما عارض الفرزدق جريرا وكيف تدخل الاخطل والراعي وشغلوا بهذا الخوض في اللغة اما أبو عمرو — وكان على رأس اللغويين — فانه كان يدرك الوجه اللغوي الموثق عند ذي الرمة ولا يهمه الا أن يضع الجميع أمام اعتبارات علمية وأقيسة خاصة للرواية والاحتجاج ليس من بينها الكثرة وطول القصائد ولا شهرة الشاعر ، وانما كان مقياس الفصاحة عنده هو مدى قربه من البادية • لقد سلم أول الامر للجاهليين ، ثم أطال الحبل للبدو حتى وصل الى ذي الرمة • وكان ذو الرمة شاعرا فصيحا بدويا ؛ وكان بصفته هذه الاخيرة اكثر بداوة من رجال الطبقة الاولى من الشعراء الاسلاميين • لقد قرنه حماد الراوية بامرىء القيس فقال : أحسن الجاهليين تشبيها امرؤ القيس ، وذو الرمة أحسن أهل الاسلام تشبيها (1) ووصفه زرعة بن أذبول فقال : كان ذو الرمة مدور الوجه • • مفوها اذا كلمك كلمك ابلغ الناس يضع لسانه حيث يشاء (2) وروى محمد بن صالح عن نخبة من العلماء والاعراب لهم اقدارهم في فهم الشعر وتذوقه منهم خالد بن كلثوم وابو عمرو بن العلاء ، وابو حزام ، وأبو المطرف قالوا : لم يكن أحد من القوم في زمانه أبلغ من ذي الرمة ، ولا أحسن جوابا ، وكان كلامه أكثر من شعره (3) •

فلم يكن ذو الرمة شاعرا فحسب ، ولكنه كان ذا لسان ، وصاحب كلام ، ويحسن النقاش في غير مكابرة كما يحكي ابو عبيدة اذ يقول : ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر ثم يرد على نفسه الحجة من صاحبه فيحسن الرد، ثم يعتذر فيحسن التخلص مع حسن انصاف وعفاف في الحكم (4)

---

(1) الاغاني 16 : 109 ط ساسي (2) الاغاني 16 : 108 ط ساسي
(3) الاغاني 16 : 109 (4) الاغاني 16 : 109

ولم يستطع الفرزدق وجرير وكانا يحسدانه (1) أن يخفيا رأيهما في هذا الرجل عندما طلب خليفة من بنى امية ـ هو الوليد بن عبد الملك ـ كما يبدو من خبر مماثل أن يقول كل منهما رأيه في ذى الرمة على انفراد فكلاهما قال : أخذ من طريف الشعر وحسنه ما لم يسبقه اليه غيره ، فقال الخليفة : أشهد لاتفاقكما فيه أنه أشعر منكما جميعا (2) .

ويروى عن أبى عدنان عن ابرهيم بن نافع أن الفرزدق دخل على الوليد بن عبد الملك ـ أو غيره ـ الشك من أبى الفرج ـ فقال له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قال : افتعلم أحدا أشعر منك ؟ قال : لا ، الا أن غلاما من بنى عدى بن عبد مناة يركب أعجاز الابل وينعت الفلوات . ثم أتاه فسأله فقال له مثل ذلك (3) .

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى : سمعت أبى يقول دخل جدى على بعض ملوك بنى أمية فقال : ألا تخبرنى عن الشعراء .... وسأله عن ذى الرمة فقال : قدر من طريف الكلام وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد حتى صنف الشعر (4) .

فاذا تركنا هذا الجانب بعد أن اعترف الفرزدق وجرير بسبق ذى الرمة الى جانب آخر وهو البداوة وجدنا ذا الرمة أسبق من أصحابه . كان الرواة يأخذون عن الاعراب في المربد ، ثم ذهبوا اليهم في البادية التماسا للعربية التى لم تشبها شوائب الحضارة وكان ذو الرمة أعرابيا بدويا يرعى ويجود شعره فيها وفى وصف البادية ، وامه من بنى أسد (5) وهى من القبائل التى اشتهر أمرها بالفصاحة ، فاذا قدم البصرة او الكوفة

---

(1) الاغانى 16 : 108
(2) الاغانى 16 : 109
(3) الاغانى 16 : 114
(4) الاغانى 8 : 199 ط دار الكتب
(5) الاغانى 16 : 107

تلقاه الرواة ليفيدوا من لسانه وخلوص عربيته . قال حماد : قدم علينا ذو الرمة الكوفة فلم أر أفصح ولا أعلم بغريب منه (1). كما أعجب به الكميت وبشعره (2) . ويتفق رجلان على رأس الرواة على تقديم ذى الرمة أولهما أبو عمرو بن العلاء الذى وصف اقرانه بأنهم محدثون ، والثانـى حمـاد الراوية الذى يقول فى ذى الرمة : (ما آخر القوم ذكره الا لحداثة سـنه وأنهم حسدوه) (3) .

ونستطيع بشىء من الاطمئنان أن نحدد وجهة أبى عمرو بأنه كان لا يرى الشعر الا للجاهليين ، أو البدو من الاسلاميين ، نلمح هذا فى قوله : لو أدرك الاخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا (4) والمقصود بالشعر هنا هو الشعر الذى يتفق وطبيعة أبى عمرو كعالم لغة وكرجل رواية لغوية يستخدم الشعر ليحتج به ويوثق به بضاعته مـن مفردات وتراكيب وصيغ ، ولعلك تدرك فى تقريظه للاخطل أنـه لا يعيب شـعره كفن ، ولا يتهمه بالقصور فى الفصاحة ، ولكنه لا يقع تحت شرطين عرفا لابى عمرو — لا هو جاهلى ولا هو من الاعراب البداة .

وذو الرمة فى نظر ابى عمرو من الاعراب على شاكلة اولئك الذيـن كانوا يأتون من البادية الى سوق المربد ثم يتجاوزونها الى البصـرة فـلا يطول مكثهم بها حفاظا على سليقتهم ، وكان طلاب اللغـة يتعلقون بهـم يسمعون من أفواههم مصادق العربية فاذا طال مكثهم فى الحضر زيفوهم . والذى يدلك على أن ذا الرمة كان كذلك : من الاعراب الـذين تؤخـذ عنهم اللغة الموثقة ، أن أبا عمرو دهش حين رآه يجلس فى دكان طحان فى

(1) الاغانى 16 : 109
(2) الاغانى 16 : 108
(3) الاغانى 16 : 109
(4) الاغانى 8 : 285

البصرة يكتب فقال له : ما هذا يا ذا الرمة ؟!! قال : اكتم علي يا أبا عمرو (1)

والعبارة الصادرة عن كل منهما تشهد بصفة ذي الرمة كأعرابي فليس لابي عمرو ان يدهش ، وليس لذي الرمة أن يرجو أبا عمرو أن يكتم موقفه اذا لم يكن كذلك ، وكانت صفة الاعرابي كصاحب فطرة وسليقة هي كل بضاعته في الحضر حين رأوا حاجة الطلاب اليهم .

ومن هذا الوجه عابه الاصمعي الذي كان ينظر اليه كأعرابي يجب أن تصان سليقته ، يقول أبو حاتم : كان الاصمعي ينكر (زوجة) ويقول انما هي (زوج) ويحتج بقوله تعالى (أمسك عليه زوجك) قال فأنشدته قول ذي الرمة :

أذو زوجة في المصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاويا (2)

فقال : ذو الرمة طالما أكل المالح والبقل في حوانيت البقالين (3) أي شيبت سليقته ، والذي نعرفه أن كثرة من اللغويين يقرون صحة (زوجة) أيضا ، ولكن الاصمعي كان يضع اللغة التي لها نظير من القرآن الكريم في اعلى درجات الفصاحة ــ ومن ناحية اخرى فانه لا يعيب ذا الرمة على جهة الاطلاق ولكن ذا الرمة كان أعرابيا فصيحا موثقا لدى الاصمعي قبل أن يقيم بالبصرة وتفسد بهذه الاقامة سليقته ، يدلك على ذلك أنه احتج بشعر ذي الرمة في أكثر من موضع في كتاب النبات والشجر (4) .

---

(1) الخصائص 3 : 296 ط دار الكتب

(2) من قصيدة له في مدح بلال بن ابي بردة ، وقد اشار الى عجوز تقول له : ماذا اقعدك في البصرة ، الك زوجة فيها ؟ ام لك قضية ينظرها القاضي

(3) الخصائص 3 : 295 ، الموشح 180

(4) النبات والشجر للاصمعي ص 7 و 8 و 23 و 36 و 37 و 43 ط. بيروت سنة 1898

ونلحظ فى أبى عمرو بن العلاء اطمئنانه الى البيئات التى بعدت عن شبهات الحضر فأفصح الناس عنده أهل السروات (1) . وكان يتزود من اللغة فى الحجاز اذا حج ، فاذا تخلف عن الحج أرسل أخاه الى الحارث بن خالد المخزومى يسأله عن الحروف (2) .

ولو لم يحرق ابو عمرو كتبه لوجدنا فيها وجهته فى الرواية على نطاق اوسع ولكن بحسبنا ما وجدناه منثورا فى بطون كتب اللغة .

ومن تلامذة أبى عمرو ثلاثة رجال يعتبرون بحق رجال الرواية ، وأصحاب منهجها العلمى هم الاصمعى ، وابو عبيدة ، وابو زيد .

عبد الملك بن قريب الأصمعى

وشخصية الاصمعى أكثر وضوحا من استاذه أبى عمرو ، لان بعض مؤلفاته بقيت الى الآن ، ووجّه عنايته الى تحصيل الشعر كما كان له فى هذا التحصيل ذوق واختيار ونظر ، قال : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنى عشر الف ارجوزة . ويقول عمر بن شبه : سمعت الاصمعى يقول : (أحفظ ستة عشر الف أرجوزة)، كأنه استمر فى حفظ الاراجيز بعد أن بلغ الحلم ، ويبدو أن الخبرين مبالغ فيهما فليس فى الشعر العربى كله — بحسب تقديرنا — هذا العدد الضخم من الاراجيز والا تساءلنا : فكم من القصيدة اذن ؟ على كل حال سنأخذ من مدلول الخبرين مجرد الاخبار عن الكثرة الكاثرة للحصيلة التى استظهرها من الشعر ، ولعلك تجد ما يوضح هذا الوجه فى خبر يحكيه التوزى عن المبرد يقول :

(1) الاغانى 1 : 384 ط دار الكتب — والسروات ثلاث : الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن ، اولها هذيل وهى تلى السهل من تهامة ، ثم بجيلة وهى السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الازد — ازد شنوءة — وهم بنو كعب بن الحارث بن كعب .

(2) الاغانى 3 : 458 ط دار الكتب

كنا عند الاصمعى ، وعنده قوم قصدوه من خراسان وأقاموا علـى بابه فقال له قائل منهم : يا أبا سعيد ، خراسان يرجف بعلم البصرة وعلمك خاصة ، وما رأينا أصح من علمك فقال لا عذر لى ان لم يصح علىى ، دع من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة للحديث والمحدثين ، ولكن قد لقيت من الشعراء الفصحاء وأولاد الشعراء : رؤبة ، ومسرد بن اللعين ، وبلالا ونوحا ابنى جرير ، ولبطة بن الفرزدق ، ومحمد بن علقمة التيمى ، وأبا بابل اهاب بن عمير ، وقطينة اللخمى ، وحطاما المجاشعى ، وابن ميادة ، والحسين بن مطير ، وابن هرمة ، وابن اذينة ، والحكم الخضرى ، ودكينا العذرى ، وابن شوذب المدنى ، وأبا الاخزر الحمانى ، وجندل بن المثنى ، وأبا لحيانة ، والذى هاجاه — وهو الابرش — ولقيت أبا الزحف ، ومقاتل بن أبى داوود ، وأبا خيرة ، وأبا العراف ، وأبا العذافر ، وعمارة بن عطية ، وطفيلا الكنانى ، وقتادة بن يعرب اليشكرى ، وابن الدمينة ، وأبا حية أنس ، وابن الطثرية ، وأبا ترسيس وبفصاحته يضرب المثل ، والموار ، ومصرف بن الحارث ، وابنه الحارث بن مصرف ، وأبا العسيثل ، ومحبس بن أرطأة ، وعريفا الكلبى ، وعلاكم بن نهير ، وابن شراد الغطفانى ، والعجيف العجلى ، وأبا القرين الفزارى وحفظت عنهم وسمعت منهم ، وسبقنى أبو النجم ، وذو الرمة ، ومعبد بن طوق ، والوعيل ابن كليب ، وزياد الاعجم ، ونهار بن توسعة ، وصخر ومغيرة ابنا حبناء ، وابن عرادة تعليل — وبى بعضهم رويـة لا روايـة ومـا عرف هؤلاء غير الصواب فمن اين لا يصح علىى ؟ والخبر يشير كما ترى الى شعراء وابناء شعراء وأعراب .

وكان صاحب نظر فى الشعر لا مجرد ناقل ، واختياره لطريقة التحصيل تؤدى الى هذه النتيجة بالاضافة الى طبيعته كعربى ، والى تكوينه العقلى ، فقد سعى الى الشعر فى اماكنه ، وطوف فى البادية ، وسمع من أعراب

رآهم رأى العين وناقشهم أو أطال معهم سبب الحديث ومن أعراب يعرفهم بأسمائهم ، وأعراب يعرفهم بالشخوص فيقول : سمعت فتى فى أرض كذا أو أعرابية فى طريق كذا فاذا عاد الى البصرة جلس الى خلف الاحمر وكان شيخ الرواة فى الشعر فتذاكرا القصائد والمقطعات وعرفا مذاهب الشعراء، واتجاهاتهم ، وأساليبهم وعاشا فى أخيلتهم ، فاذا ذكر البيت من الشعر فطنا الى قائله أو رجحا نسبته اليه ، كان الاصمعى يسمع الشعر أحيانا فيقول : ليس هذا الشعر لفلان انه أشبه بشعر فلان ، من ذلك انه سمع البيتين التاليين منسوبين الى امرىء القيس :

لنا غنم نسوقها غزار
كأن قرون جلتها العصى
فتملأ بيتنا أقطا ، وسمنا
وحسبك من غنى شبع ورى

فقال : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطيئة (1) لأن الرجل كان يعرف من طبيعة امرىء القيس تطلعه الى الملك والسيادة فكيف يرضيه من الدنيا شبع ورى وهو القائل :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ــ ولم أدرك ــ قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان الاصمعى يعرف الكثير عن الحطيئة ، فمع نفوره من شعر الهجاء ــ وأكثر بضاعة الحطيئة من هذا اللون ــ فانه كان يحرص على شعره حتى كتب له فى ليلة واحدة أربعين قصيدة (2) ويبدو أن الرجل كان

(1) الحيوان للجاحظ 5 : 495
(2) الاغانى 2 : 174 ط دار الكتب

يفرق بين العلم وبين التأثم فدراسة شعر الحطيئة شيء ، ورواية ما فيه من هجاء شيء آخر في نظر الاصمعي — أما رأينا نحن فيختلف ، مما جعلنا نعيب على الاصمعي توقفه عن رواية شعر الهجاء .

ومنازل الشعراء عند الاصمعي لا تستند الى القرب والبعد عن البادية فحسب ، كما كان يرى أبو عمرو ، وانما كان يضيف الى هذا عوامل أخرى كالجودة والاكثار ، وله كتاب باسم (فحولة الشعراء) يذكر فيه الشعراء بأوصاف منها فحل ، وليس بفحل ، ويقول في هذا :

الاعشى ، أعشى قيس بن ثعلبة ليس بفحل ، وعلقمة بن عبدة فحل ، والحارث ابن حلزة فحل ، وعمرو بن كلثوم ليس بفحل . وسئل عن مزرد أخي الشماخ قال : ليس بدون الشماخ ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس ، وكان الكتاب كله مساءلة بين أبي حاتم السجستاني وبين الأصمعي على هذه الصورة ، وأورد صاحب الموشح مثل هذه المناقشة عن الاصمعي فاذا استحثه ابو حاتم على التوسع في الرأي فانه كان يشير الى الشاعر الجيد المقل على أنه غير فحل فيقول عن الحويدرة : لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته العينية كان فحلا ، ومثل هذا الحكم أيضا قوله عن ثعلبة بن صعير المازني ، ومعقر بن جمار البارقي ثم يزيد هذا العدد عندما يسأل عن أوس بن مغراء الهجيمي فيقول : لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول .

وهو قصير العبارة في مقارنته بين شاعر وشاعر فقد سئل من أشعر : الراعي أم ابن مقبل ؟ فقال : ما أقربهما ، فلما ألح عليه أبو حاتم قال : الراعي أشبه شعرا بالقديم وبالأول — والاصمعي يستجيد أحيانا قصيدة واحدة أو بعض القصائد للشاعر فيعده من الفحول عند هذه القصائد وحدها . كما يقول وقد سئل عن كعب بن سعد الغنوي : ليس من الفحول

الا فى المرثية فانه ليس فى الدنيا مثلها — يعنى مرثيته التى قالها يرثى اخاه أبا المغوار والتى مطلعها :

تقول سليمى مـا لجسمك شاحبا
كأنـك يحميك الطعـام طبيـب

أما شعراء الحرب فانه كان يطلق عليهم اسم الفرسان وكأنها تقابـل الفحول ولا يجمع بين الفارس والفحل ، فقـد سئل عن زيـد الخيل فقال هو من الفرسان ، وعن عمرو بن معد يكرب قال : من الفرسان، وعن خفاف ابن ندبة ، وعنترة والزبرقان بن بدر قال : هؤلاء اشعر الفرسان فلما سئل عن سليك بن السلكة قال : ليس من الفحول ولا من الفرسان (1)

وللاصمعى عبارات تكشف عن اتجاهاته فيقول عـن بشار : لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (2)

ويستمع من التوزى الى شعر السيد الحميرى فيطرب له ويستزيده ثم يقول : قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما فـى شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته (3) او يقول : ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء ، والله لولا ما فى شعره من سب السلف مـا تقدمه مـن طبقتـه أحـد (4) .

وكان الاصمعى يستجيد شعر نصيب ويقول اذا انشد هذه الابيات :

---

(1) الموشح 81
(2) الاغانى 3 : 143
(3) الاغانى 7 : 23
(4) الاغانى 7 : 236

فان يك مـن لونى السواد فاننى
لكالمسك لا يروى من المسك ذائقه
وما ضـر أثوابى سوادى وتحتها
لباس من العليـاء بيض بنائقـه

قاتل الله نصيبا ما أشعره •

ويعلق على قول ابن هرمه :

لا أمتـع العـوذ بالفصـال ولا
ابتـاع الا قريبـة الأجـل

بقوله : أما ترون كيف قال ، والله لو قال هذا حاتم لما زاد ولكـان كثيرا • ثم يقول : ما يؤخره عن الفحول الا قرب عهده •

ويقول فى شعر الحسين بن مطير : لو كان شعر العرب هكذا ما أثم منشـده (1) •

وهذه أحكام ليست كلها خالصة للغة ، وأكثرها يتجـه الى النقـد الادبى أو يشير الى المكثرين والمقلين من الشعراء ، ولما كانت اللغة تؤخـذ عن الشعراء كما تؤخذ عن غيرهم، بل انها كانت تؤخذ عن المجانين والاطفال أحيانا استنادا الى الثقة فى سليقتهم ، فانه لا يعنينا فى كل هذه الاحكـام الا ما يقوله عن بشار : لولا ان ايامه تأخرت لفضلته على كثير منهم ، وعن ابن هرمة : ما يؤخره عن الفحول الا قرب عهده ومعنى هـذا أن أوثـق الشعراء عنده أقربهم عهدا بالعربية الفصيحة والتى انتهت اتفاقا بنهاية القرن الثانى كمصدر موثق للاحتجاج •

كان الاصمعى فى هذا اذا أضفناه الى استاذه أبى عمرو بن العـلاء

(1) الاغانى 1 : 354 ط دار الكتب ، معجم الادباء 10 : 473

يتجاوز ذا الرمة الى بشار بن برد ، فبينما كان الأول خاتم الشعراء عند أبى عمرو كان بشار خاتم الشعراء عند الاصمعى (1) .

واحتج فى كتبه بالشعراء الـذين كان يراهم أبو عمـرو مولـدين بالاضافة الى القدامى ، احتج بشعر الأخطل فى كتاب الابل عندمـا فسـر (العيثوم) بأنها الناقة اذا كانت كثيرة اللحم والوبر ، وجمل (عيثوم) اذا كان كذلك وأنشد له:

وملحَّب خضـل الثياب كأنمـا
وطئت عليـه بخفها العيثوم (2)

وفى كتاب خلق الانسان فسر الاصمعى كلمة (الجثل) بأنـه الشعر الكثيف المتلف ، وكذلك من النبت والشجر واحتج بقول الأخطل :

غـداة غـدت غـراء غير قصيرة
تذرى على المتنين ذا عذر جثلا (3)

وقال فى نفس الكتاب (الصبحة والملحة لونان) وهو بيـاض الـى الحمرة وما هو كلون الظبى يقال : رجل أصبح اللحية ، وأملح اللحية ... وقال الأخطل فى الملحة :

ملـح المتون كأنمـا ألبستهـا
بالماء اذ يبس النضيح جلالا (4)

واستشهد بشعر جرير فى كتاب الدارات وهو يسمى (دارة صلصل) فأنشد لـه :

---

(1) الاغانى 3 : 143
(2) الابل للاصمعى 103 ط بيروت ضمن كتاب الكنز اللغوى
(3) خلق الانسان للاصمعى 172 ط بيروت سنة 1903 ضمن كتـاب الكنز اللغوى
(4) نفس المصدر ص176

اذا مــا حــل أهلك يــا سليمى

بدارة صلصل شحطوا مرارا (1)

وفى كتاب الابل يذكر الاصمعى من ولد الناقـة (الربـع) اذا كان من نتاج الربيع والأم مربع ويستشهد بقول جرير :

قد أطلب الحاجة القصوى فأدركها

ولست للجـارة الدنيـا بـزوار

الا بغـر مـن الشيزى مكللـة

يجرى عليها سديف المربع الوارى (2)

وفسر (هنيدة) بأنها مائة من الابل وهى معرفة غير منونـة واحتج بقول جريـر :

أعطوا هنيـدة يحدوها ثمانيـة

ما فى عطائهم من ولا سرف (3)

وفى كتاب خلق الانسان قال : يقال جدع أنفه ، وكشم أنفه ، ويقال: عبد أجدع وعبد أكشم ، قال جرير :

هذى التى جدعت تيما معاطسها

ثم اقعدى بعدهـا ياتيم أو قومى (4)

وفسر الجوانح بأنها الضلوع الصغار التى تلى الفؤاد ، والواحـدة جانحة وذكر لجرير :

تبكى على زيـد ولم تـر مثلـه

بريا من الحمى سليم الجوانح (5)

---

(1) الدارات للاصمعى 8 ط بيروت سنة 1898

(2) الابل للاصمعى 74 ضمن كتاب الكنز اللغوى

(3) كتاب الابل للاصمعى 116 ضمن كتاب الكنز اللغوى

(4) كتاب خلق الانسان للاصمعى 190 ضمن كتاب الكنز اللغوى

(5) كتاب خلق الانسان للاصمعى 216 ضمن كتاب الكنز اللغوى

واستشهد بشعر الفرزدق ايضا ـ ففى كتاب القلب والابدال لابـن السكيت يروى عن الاصمعى فى تبادل الميم والنون (يقال للبعير اذا قارب الخطو وأسرع : بعير دهامج ، وبعير دهانج ـ وقد دهمج يدهمج دهمجة ـ دهنج يدهنج دهنجة وأنشد للفرزدق :

وعير لها مـن بنـات الكـداد
يدهنـج بالقعـو والمـزود

ويروى يدهمج) (1) .

وفى كتاب الابل للاصمعى يقول : اذا درت الناقة على الجوع والقر فهى مجالح بغير هاء . ويقال قد جالحت الناقة تجالح مجالحة شديدة ... وأنشد للفرزدق :

مجاليـح الشتـاء خبعثنـات
اذا النكبـاء ناوحـت الشمالا

وكل غليظ الجسم من الابل وغيرها خبعثن (2) .

وقال : شرخ الشباب : النتاج الذى ولد مع الشباب . قال الفرزدق:

ناتنـى الغانيـات فقلـن هـذا
أبونـا جـاء مـن تحت السّلام
ولـو جـداتهن سـألن عـنى
رددن عـلى أضعـاف السّلام
رأيـن شـروخهن مـؤزرات
وشرخ لِدِيٍّ أسنانِ الهرام (3)

(1) كتاب القلب والابدال لابن السكيت 20
(2) كتاب الابل للاصمعى 89
(3) كتاب الابل للاصمعى 91

وفى كتاب خلق الانسان للاصمعى ، ذكر الاذن وقال : وفى الاذن الصماخ وهو الخرق الباطن الذى يفضى الى الرأس وفيه السَّم . يقال فى مثل : سُدَّ سمك عنا ، قال الفرزدق :

ونفّسْتُ عن سَمَّيْه حتى تنفسا
وقلت له لا تخش شيئا ورائيا (1)

واحتج بشعر الراعى فى كتاب النبات والشجر فذكر من اسماء النبات السبط ، والنصى يكون فى السهل والرمل ــ فما دام رطبا فهو نصى فاذا يبس فهو حلى ، فاذا تحطم واسود فهو الدويل . قال الراعى :

شهرى ربيع ما تذوق لبونهم
الا حموضا ، وحمة ، ودويلا (2)

وذكر ابن السكيت فى تبادل السين والزاى قول الاصمعى .... ويقال قد تسلع جلده ، وقد تزلع جلده أى تشقق وأنشد للراعى :

وغملى نصى بالمتان كأنها
ثعالب موتى ، جلدها قد تسلعا (3)

وفى كتاب الابل يقول الاصمعى : اذا لقحت الناقة عراضا من الفحل ــ والعراض أن يعارضها الفحل فيتنوخها فيضربها فذلك الضراب يسمى العراض ، ويقال لقحت الناقة يعارة كما ترى ، قال الراعى :

نجائب لا يلقحن الا يعارة
عراضا ، ولا يشربن الا غواليا (4)

---

(1) كتاب خلق الانسان للاصمعى 170 ضمن كتاب الكنز اللغوى
(2) كتاب النبات والشجر للاصمعى 32 ط بيروت سنة 1898 م
(3) كتاب القلب والابدال لابن السكيت 43
(4) كتاب الابل للاصمعى 66

وكان الراعى قد اشتهر أمره بذكر الابل وأوصافها ولذلك احتج الاصمعى بشعره كثيرا فى كتاب الابل (1) •

وفى كتاب خلق الانسان للاصمعى : (يقال لشخص الرجل سماوته) وأنشد للراعى :

كأن على اذنابها حين أبصرت
سماوته فيئا من الطير وقعا (2)

وفى كتاب خلق الانسان أيضا يصف الاصمعى (الارحاء) بأنها ثمانية اضراس من كل شق من اسفل الفم وأعلاه ، وقال الراعى يصف السيوف ويذكر الارحاء :

وبيض رقاقٍ قد علتهن كبرة
يداوى بها الصاد الذى فى النواظر
اذا استكرهت فى معظم البيض أدركت
مراكز أرحاء الضروس الأواخر (3)

والاصمعى صاحب رأى واسع فى مجال الرواية لا يقف عند القرب أو البعد من البادية كأستاذه ابى عمرو ، بل ربما عاب الأعرابى القح لاسباب اثرت فى سليقته ، وربما اطمأن الى رجل من الموالى عاش فى البادية واكتسب لسان اهلها • ويحكى الاصمعى في خبر يزيد بن ضبة فيقول انه مولى ثقيف ولكنه كان فصيحا وقد أدركته بالطائف ، وقد كان يطلب القوافى المعتاصة والحوشى من الشعر • وقال ابو حاتم فى خبره ــ وأبو حاتم احد تلامذة الاصمعى ــ (وحدثنى غسان

---

(1) انظر كتاب الابل ص 96 و 97 و 100 و 113 و 126 و 140
(2) كتاب خلق الانسان 163
(3) كتاب خلق الانسان 191

ابن عبد الله بن عبد الوهاب الثقفى عن جماعة من مشايخ الطائفتين وعلمائهم قالوا : قال يزيد بن ضبة الف قصيدة فاقتسمتها شعراء العرب وانتحلتها فدخلت فى أشعارها) (1) .

ويدلك على أن الرجل كان صاحب منهج منظم انه :

ـ كان يضع القرآن الكريم فى اعلى مراتب الفصاحة ، وفى ذلك يقول أبو حاتم : كان الاصمعى ينكر (زوجة) ويقول انما هى (زوج) ويحتج بقوله تعالى (امسك عليك زوجك) قال : فأنشدته قول ذى الرمة:

أذو زوجة فى المصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاويا (2)

فقال : ذو الرمة طالما أكل المالح والبقل فى حوانيت البقالين أى أن عربيته شيبت بمجالسته لغير الأعراب فى هذه الحوانيت . والحقيقة أن الاصمعى لم ينكر صواب (زوجة) ولكنه كما قلنا كان يتشبث بالافصح ، قرىء عليه شعر عبدة بن الطبيب وهو شاعر ادرك الاسلام :

ولقد علمت بأن قصرى حفرة
غبراء يحملنى اليها شرجع
فبكى بناتى شجوهن وزوجتى
والطامعون الىّ ثم تصدعوا
وتركت فى غبراء يكره وردها
يسفى علىّ الترب حين أودع

فلم ينكره (3) .

(1) الخبران فى الاغانى 9 : 103 ط دار الكتب
(2) طبقات الزبيدى 190
(3) النوادر لابى زيد 23 — 24

ـ وكان لا يقبل الشعر لمجرد صدوره عن بدوى بل لا بد من وضعه تحت اختبار ذوقى يتصل بالفهم الدقيق للعربية فعاب ذا الرمة فى قوله .

حتى اذا دوّمت فى الارض راجعه

كبر ، ولو شاء نجى نفسه الهرب

قال الاصمعى : لا يكون التدويم الا فى السماء دون الارض فيقال دوى فى الارض ودوّم فى السماء (1) وان الصواب انما هو قوله :

والشمس حيرى لهـا فى الجو تدويـم (2)

وسمع قول أبى النجـم :

وهى على عذب روى المنهـل

دحل ابى المرقال خير الأدحل

من نحت عاد فى الزمان الاول

فقال الاصمعى : الدحل لا تورده الابل ، انمـا تورد الركايـا (أى الآبار) ..... والدحلان لا تحفر ولا تنحت انما هى خروق وشعاب فـى الارض والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه وهى هوة فى الارض يضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء (3) . ويحكى مرة فيقول : سألت أعرابيا ونحن بالموضع الذى ذكره زهير فى قوله :

ثـم استمروا وقالوا ان موعدكم

ماء بشرقى سلمى فيد أو ركك

---

(1) الخصائص 3 : 296 وكان الاخفش وابن الاعرابـى يفسران اللفظ بانه من دام يدوم فتكون دومت يعنى ابعـدت لا بمعنـى الدوران وذهب الازهرى فى التهذيب مذهب الاصمعى، انظر اللسان : دوم.

(2) الاقتضاب 159

(3) الاغانى 10 : 161

اتعرف ركاكا هذا ؟ فقال : قد كان ههنا ماء يسمى ركا ، فعلمت أن زهيرا احتاج اليه فحركه ، أى أنه ضرورة شعرية ، وقد يجوز أن يكونـا لغتين ــ رك وركك (1) .

ولم يسترح حين سمع أبا عبيدة ينشد قول حاجب بن زرارة :

شتان هــذا والعنــاق والنــوم
والمشرب البــارد فى ظــل الدوم

فقال : حاجب نجدى ، والدوم شجر ينبت بالحجاز وكان ينشده : الظل الدوم ، أى الدائم (2) .

ــ وكانت روايته عن خلص الاعراب ، وطول مكثه فى البادية قــد أعانه على مهمته كراوية يحفظ ، ويتذوق ، ويعى ، وينقد ، ويستبقى مــا يعتقد انه صحيح ، ويجحفل ــ على حد تعبيره ــ بما عداه . كان على علم واسع بخلق الفرس ، وكانت تذكر امامه الاوصاف فينقدهــا نقــد الخبير العارف ، سمع قول امرىء القيس :

وأركب فــى الــروع خيفانــة
كســا وجههــا ســعف منتشر

فقال : اذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريمــا ، والجيــد الاعتدال كما قال عبيد :

مضبــر خلقهــا تضبــيرا
ينشق عــن وجهها السبيب (3)

وكان من حقه بعد أن تمرس فى هذا اللون أن يخرج بعض الشعراء

---

(1) المحتسب لابن جنى 2 : 27
(2) نزهة الالبا 148 ــ 149
(3) الموشح 25 والمضبر = المجتمع الخلق موثقه

من عداد الفحول فى وصف الفرس فكان يقول : لم يكن النابغـة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الغنوى فى صفة الخيل غايـة النعت (1) .

ورأيه حسن فى أبى النجم ، قيل له يوما يا أبـا سعيد : أى الرجـز أحسن وأجود ؟ فقال : رجز أبى النجم (2) ومع هذا فقـد عابه حين وصف فرسه بقوله :

تسبح أخـراه ويطفو أولـه

وقال : أخطأ فى هذا لانه اذا سبح أخراه كان حمار الكساح أسـرع منه ... وانما يوصف الجواد بأنه تسبح أولاه وتلحـق رجـلاه ، وقال : وخير عدو الذكور أن تشرف ، وخير عدو الاناث أن تنبسط وتصغى كعدو الذئب (3) .

ـ ولا أعرف حجته فيما انفرد به من خلاف فى صيغه فعل ، وأفعل ، فلقد طعن فى بيت زهير :

حتى اذا أنبت البقـل

لانه يجيز (فعل) من هذا الفعل ، ولا يجيز أفعل (4)

ولم يلتفت الى قول رؤبة بن العجاج :

يعرضن اعراضا لداء المُفتتن

لا يجيز أفعل من (فتن) (5) .

---

(1) الموشح 41

(2) الاغانى 10 : 158

(3) الاغانى 10 : 161

(4) الجمهرة فى اللغة لابن دريد 3 : 438

(5) الجمهرة فى اللغة لابن دريد 3 : 436

وله كتاب في صيغة فعل وأفعل يتجه فيه الى تغليب لغة القرآن الكريم ويستضعف ما عداها ، كان ابو زيد يقول : أهل نجد يقولون أكننت اللؤلؤة والجارية فهي مكنة ، وكننت الحديث ، وكل صواب ، ولكن الاصمعي كان يفرق بين الصيغتين ، فيستعمل للشيء في معنى الصون (فعلت) تقول كننت الدر والجارية وكل شيء صنته فأنا أكنها ، وأنا كان" ، وهي مكنونة ، وفي القرآن (كأنهم لؤلؤ مكنون) . وصيغة أكننت تستعمل لاخفاء الحديث والشيء في النفس وفي القرآن (أو أكننتم في أنفسكم) وقال جل شأنه (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) (1)

ومن تضييق الاصمعي ما حدث به أسيد بن خالد الانصاري قال : قلت لابي زيد النحوي : ان الاصمعي قال : لا يقال شتان ما بينهما انما يقال : شتان ما هما وأنشد قول الأعشى :

شتان ما يومي على كورها

فقال : كذب الاصمعي ، يقال شتان ما هما ، وشتان ما بينهما وأنشدني لربيعة الرقي :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيد سليم ، والأغر بن حاتم (2)

وذكر عمر بن أبي ربيعة فقال : (عمر حجة في العربية ولم يؤخذ عليه الا قوله :

ثم قالوا تحبها : قلت بهرا
عدد الرمل والحصى والتراب

(1) فعلت وافعلت للاصمعي
(2) الاغاني 16 : 255

لانه حذف همزة الاستفهام) (1) فى تحبها . ومن الناس من يزعم أنه انما قال :

قيل لى هل تحبها ؟ قلت بهرا – أى بهرنى بهرا

واحتج بشعر لعبيد الله بن قيس الرقيات فى كتاب الابل (2) وعابه فى مكان آخر (3) واحتج بشعر الكميت فى كتاب خلق الانسان (4)، وفى كتاب القلب والابدال لابن السكيت (5) ثم وصفه بأنه جرمقانى من أهل الموصل عندما احتج ابو حاتم بشعره فى جواز فعل وأفعل من برق ورعد (6) .

ومجمل القول فى الاصمعي أنه نهج فى الشعر المتصلْ برواية اللغة منهجا علميا فكان :

– لا يعطى كل الاطمئنان واليقين لمجرد أن الشعر منسوب الى شاعر جاهلى ، وقد وجدناه يشك فى نسبة أبيات الى امرىء القيس لمجرد أنها لا تأتلف مع طبيعة رجل يرتفع قصده عن مجرد الشبع والرى لأنه يطلب ملكا .

– ويسمع شعر حاجب بن زرارة ، وفيه كلمة (الدوم) يفسرها ابو عبيدة على انها شجر الدوم ، فيأبى الاصمعى ذلك ، لان حاجبا نجدى والدوم شجر ينبت بالحجاز ويفسر الدوم بالدائم (7)

---

(1) الاغانى 1 : 79
(2) كتاب الابل للاصمعى 125 ، 148
(3) الموشح 186
(4) كتاب القلب والابدال لابن السكيت 37
(5) كتاب خلق الانسان 182
(6) كتاب القلب والابدال لابن السكيت 37
(7) الامالى للقالى 1 : 96

ـ ويسمع البيت :

فما برحت فى الناس حتى تبينت

ثقيفـا بزيـزاء الاسـاة قبابهـا

أى ما زالت هذه الخمرة فى الناس حتى أتـوا بها ثقيفا • فيقـول الاصمعى متعجبا : كيف تحمل الخمرة الى ثقيف وعندهم العنب ؟! (1)

ـ وذو الرمة والكميت موثقان عنده حتى اذا طال مكثهما بالحضـر عبر عن زيفهما بقوله عن الاول (أكل البقل والمملوح فى حوانيت البصرة) وعن الثانى (جرمقانى من اهل الموصل) •

عرف عن الاصمعى هذه الملاحظ الدقيقة كما عرف عنه أيضا سعيه فى الحصول على أشعار بعينها كأنه يجد فيها جانبا خاصا مـن جوانب اللغة ، فقد وجدناه يعنى بشعر الحطيئة ويكتب منه أربعين قصيدة فى ليلة واحدة مع نفوره من شعر الهجاء ، وهـو شديد العناية بشعر الهذليين ، فحصله ، وعقد له المجالس يرويه الناس ، فلما سمع بمحمد بـن ادريس الشافعـى وكان أحسن الناس معرفة باشعار هذيل رحـل اليه وصحح عليه اشعـار هذيل (2) واذا كانت نسخة الهذليين الموجودة بأيدينا هى رواية ابن سعيد فقد اعتمد السكرى على رواية الاصمعى فى خمسة أجزاء من ثمانية منهـا كما كان يعود الى رأى الاصمعى فى أكثر مـن مقارنـة ، فيقول مثـلا : والاصمعى يروى هذا البيت متأخرا عن الذى يليه ، او يحذف هذا البيت ، او لم ترد هذه الابيات فى رواية الاصمعى ، وعلق السكرى علـى قصيدة ابى ذؤيب التى مطلعها :

يا بيت خثمـاء الـذى يتحبب

ذهب الشباب وحبهـا لا يذهب

---

(1) كتاب الصناعتين لابى هلال العسكرى 71

(2) معجم الادباء 17 : 286 و 299

بقوله : ان الاصمعى لم يعرف هذه القصيدة ، ويعزز رأى الاصمعى فى عدم نسبتها الى ابى ذؤيب بقوله : ان كلثوم بن خالد ينسبها لرجل من خزاعة ، وان الزبير ينسبها الى ابن أبى دياكل (1)

والاعلم بن يوسف الشنتمرى وهو اندلسى من رجال القرن الخامس حين جمع اشعار ستة من القدماء فى ديوان واحد وهـم ، امـرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، بدأ فى كل ديوان بروايـة الاصمعى حتى اذا استوفاها ، ميز آخرها وقال : اعتمدت فيما جلبته مـن هذه الاشعار على اصح رواياتها وهى رواية عبد الملك بن قريب الاصمعى لتواطىء الناس عليها واعتيادهم لها واتفاق الجمهور على تفضيلها •

وهو ان وسع دائرة الاحتجاج بالاضافة الى ابى عمرو بـن العـلاء واحتج بمن رفضهم استاذه ؛ فلقد ضيق هذه الدائرة بالنسبة لمن عاصره أو جاء بعده ، فكان ابو زيد وابو عبيدة يتفقان ويختلف الاصمعى الذى كان يضيق ولا يجيز الا أصح اللغات ويلح فى دفع ما سواه (2)

ابو عبيدة

ابو عبيدة معمر بن المثنى ــ احد كبار الرواة بالغ فـى التحصيـل مدفوع بعقدة الموالى ــ فيما اعتقد ــ ليحقق بذلك مجدا علميا ، ولقـد وقف موقفا معاديا لكثير من معاصريه من العلماء ، وأعطى جزءا من عنايته للتأليف فى مثالب العرب •

ولقد تبوأ بمكانته العلمية مكانا مرموقا حتى قال عنه الجاحظ : (لم

---

(1) ديوان الهذليين 1 : 63

(2) العمدة 2 : 57

يكن فى الارض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة) (1) ولكن الخصومة التى نشبت بينه وبين معاصريه ربما نشأت من أمرين هامين ، ومن أمور أخرى جانبية ، وأكثر الاسباب وضوحا فى هذه الخصومة هو التحصيل الغزير الذى عرضه على عقل غير ملتزم بالناحية النقلية ، وحيث اختلفت عقليته عن كثير من معاصريه ــ وخاصة رواة اللغة ــ كانت الخصومة تتجه الى الناحية الثانية ، الى شعوبيته ، فقيل انه كان يخطىء اذا قرأ القرآن نظرا ، أو انه كان لا يقيم اعراب البيت من الشعر الى غير ذلك مما يتهم به الاعاجم ، وحين بدت الروح المتحررة فى مؤلفات أبى عبيدة وخاصة فى كتاب مجاز القرآن ثار عليه اهل المصرين : الكوفة والبصرة على السواء ، وكل ما اتهم به أنه فسر القرآن بعقله .

أما اعتماده على الشعر الموثق فى سياق احتجاجه للعربية فأمر واضح فيما وقع الينا من مؤلفاته وكل ما استرعى نظرى أنه احتج بزياد الاعجم فى شعره .

فسر أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن قوله تعالى من سورة التوبة (ومنهم من يلمزك) ففسر اللمز بأنه : العيب واحتج بقول زياد الاعجم :

اذا لقيتك تبدى لى مكاشرة
وان اغيب فأنت العائب اللمزة (2)

كما احتج به فى كتاب القلب والابدال لابن السكيت فى باب تبادل اللام والنون بقوله :

اذا تعشوا بصلا وخلا
وجوفيا وسمكا قد صلا (3)

---

(1) البيان والتبيين 1 : 331 ط السندوبى ، و 1 : 347 ط عبد السلام هارون

(2) مجاز القرآن 1 : 262 — 263 والبيت فى الطبرى 10 : 108 ط بولاق غير منسوب

(3) القلب والابدال لابن السكيت ص 6

والرواية عن زياد الاعجم والاحتجاج بشعره أمر يثير الانتباه ويدعو الى التريث والتأمل ، فزياد ـ كما يحكى أبو الفرج ـ نشأ مولى لعبد القيس فى اصبهان ، ثم انتقل الى خراسان فلم يزل بها حتى مات ، وقيل ايضا انه كان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه (1) .

دعا غلاما له ليرسله فى حاجة فأبطأ فلما جاء قال له : منذ لدن دأوتك الى أن قلت لبَّىْ ما كنت تسنأ ؟ يريد : منذ لدن دعوتك الى أن قلت لبيك ماذا كنت تصنع ؟ (2) وكان لا يستطيع نطق الحاء أيضا ، ذكروا أنه رثى المغيرة بن المهلب فقال :

ان الشجاعة والسماحة ضمنتا
قبرا بمرو على الطريق الواضح
فاذا مررت بقبره فاعقر به
كوم الهجان وكل طرف سابح

فقال له يزيد بن المهلب : يا أبا أمامة ، أفعقرت أنت عنده ؟ قال : كنت على بنت الهمار ،يريد الحمار (3) .

وذكر الجاحظ عن أبى عبيدة أنه كان يجعل السين شينا ، والطاء تاء فكان ينشد قوله :

فتى زاده السلطان فى الود رفعة
اذا غير السلطان كل خليل

فيقول : فتى زاده الشلتان (4) .

---

(1) الاغانى 15 : 380
(2) الاغانى 15 : 380 ط دار الكتب
(3) الاغانى 15 : 382
(4) البيان والتبيين 1 : 71 ط عبد السلام هارون

وكان ابن قتيبة يعده لحانا وذكر قوله ليزيد بن المهلب :

هـل لـك فـى حاجتى حاجـة
أم أنـت لهـا تـارك طـارح
أمتها ـ لك إلخير ـ أم أحيهـا
كمـا يفعـل الرجـل الصالـح
اذا قلـت : قـد أقبلت أدبـرت
كمـن ليس غـاد ولا رائـح

وكان ينبغى أن يقول غاديا ولا رائحا ـ وقال : وهو كثير اللحن فى شعره ، ولهذا قيل له الاعجم لفساد لسانه فى فارس (1) •

ولقد عيره بهذه العجمة ، المغيرة بن حبناء عندما طلبت ربيعة من زياد أن يذب عن أعراضها فقال :

يقولون ذبب يا زيـاد ولم يكن
ليوقظ فى الحرب الملمـة نائمـا
ولو أنهم جـاءوا به ذا حفيظـة
فيمنعهم ، أما ماجدا ، أو مراعما
ولكنهم جاءوا بأقلف قـد مضت
له حجج سبعون يصبح رازمـا
لئيمـا ذميمـا أعجميـا لسانـه
اذا نـال دنـا لم يبال المكارمـا

كما وصف المغيرة بنات زياد بأنهن ولائد جاريات لا يختتن كالهجينات يقمن فى اصطخر :

فأصبحت علجا من يزرك ومن يزر
بناتـك يعلـم أنهـن ولائـد

(1) الشعر والشعراء 398

وأصبحن فلقا يغتزلن بأجرة
حواليك لم تجرح بهن الحدائد
نفرن من الموسى ، وأقرن بالتى
يقر عليها المقرفات الكواسد
باصطخر لم يلبسن من طول فاقة
جديدا ولا تلقى لهن الوسائد (1)

وفى مرة أخرى يهجوه المغيرة بهذه العجمة أيضا فيقول :
أزياد انك والذى أنا عبده
ما دون آدم من أب لك يعلم
فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم
ما لا يطيق وأنت علج أعجم (2)

ويبدو أن المغيرة قد لاحظ عقدة فى لسان زياد ، فقد اجتمع هو والمغيرة بن حبناء وكعب الاشقرى عند المهلب ومدحوه فأمر لهم بجوائز وفضل زيادا عليهم ووهب له غلاما فصيحا ينشد شعره (3) وقد غضب المغيرة أن فضل المهلب زيادا عليهم فقال : اصلح الله الامير ، ما السبب فى تفضيل الامير زيادا علينا ، فوالله ما يغنى غناءنا فى الحرب ، ولا هو بأفضلنا شعبا ، ولا أصدقنا ودا ، ولا أشرفنا أبا ، ولا أفصحنا لسانا (4).

هذا وجه لزياد الاعجم أمدتنا به الاخبار ووضعتنا فى تأمل طويل أو على الأصح فى حيرة . أما الوجه الثانى فهو شديد القرب من طبيعة الشاعر الذى يعتمد على شعره فى الاحتجاج — ووجود هذين الوجهين لزياد

(1) الاغانى 13 : 94 — 96 ط دار الكتب
(2) الاغانى 13 : 92
(3) الاغانى 13 : 89
(4) الاغانى 13 : 90

الاعجم يجعلنا نقلب الامر لنرى رأيا فيما ذهب اليه ابو عبيدة من الاحتجاج بشعره •

هذا الوجه الثاني يتمثل في شهرة زياد بالفصاحة وقوة العارضة ، وقد تعجب ان يوصف الرجل مرة بالعجمة ومرة بالفصاحة ، وقد يزداد عجبك أن تجد الوصفين في مصدر واحد ، فلقد وصفه ابو الفرج أيضا بقوله :

(•••• وكان شاعرا ، جزل الشعر ، فصيح الالفاظ على لكنة لسانه) ووصف قصيدته في رثاء المغيرة :

قل للقوافل والقرى اذا غزوا
والباكرين وللمجد الرائح

بأنها طويلة ومن نادر الكلام ونقي المعاني ، ومختار القصائد وهي معدودة من مراثي الشعراء في عصر زياد ومقدمها (1) •

ويبدو أنه لسبب لكنة زياد قد ارتابوا في نسبة هذه القصيدة له فقال أبو الفرج : أخبرني علي بن سليمان الاخفش عن السكري عن محمد بن حبيب أن من الناس من يروي هذه القصيدة للصلتان العبدي ، وقال : وهذا قول شاذ ، والصحيح أنها لزياد قد دونها الرواة غير مدفوع عنها (2)

ولقد بلغ من أمر هذا الرجل أن خافه الفرزدق ، وخاف لسانه بعد أن سمع شعره ، والفرزدق له لسان في الشعر واللغة شهد بذلك يونس (3) والجاحظ (4) لقيه يوما فقال له الفرزدق : لقد هممت أن أهجو عبد

---

(1) الاغاني 15 : 381 ط دار الكتب و 14 : 99 ط بولاق
(2) الاغاني 15 : 381
(3) و (4) البيان والتبيين للجاحظ 1 : 381 ط عبد السلام هارون

القيس .... قال له زياد : كما أنت حتى اسمعك شيئـا ثم قال : قـل ان شئت أو أمسك ،قال : هات ، قال :

وما ترك الهاجون لى ان هجوته
مصححا أراه فى أديـم الفـرزدق
فانا وما تهدى لنـا ان هجوتنـا
لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

فقال له الفرزدق : هلم نتتارك ؟ قال : ذاك اليك وما عاوده بشىء (1)

وتعرض لكعب الاشقرى ، وكان رابع أربعة هم شعراء الاسلام فـى نظر الفرزدق ، ومن كلام زياد يهجو الاشاقر :

نبئت أشقر تهجونـا فقلت لهـم
ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا
لا يكثرون وان طالت حياتهـم
ولو يبول عليهـم ثعلب غرقـوا
قوم من الحسب الأدنى بمنزلـة
كالفقع بالقاع لا أصل ، ولا ورق
ان الأشاقر قـد أضحوا بمنزلـة
لو يرهنون بنعلى عبدنـا غلقوا

غلق الرهن = استخفه المرتهن

ثم شكاه كعب الى المهلب عندما هجا الازد بقوله :

هـل تسمع الازد مـا يقال لهـا
فى سـاحة الـدار أم بها صمم

(1) الاغانى 15 : 392 ط دار الكتب

اختتن القـــوم بعدمـــا هرمـــوا
واستعربوا ضلة وهـــم عجم (1)

ونكتفى بهذا القدر من التعريف بزياد الأعجم لنناقش الوجـــه فـــى احتجاج ابى عبيدة بشعره •

أميل، وقد رأيت أبا عبيدة يحتج بشعر زياد أن أفسر هذه العجمة بأنها لا تعدو ان تكون عيبا خلقيا يصيب أعضاء النطق ، ويحصل للعربى وغـــير العربى دون أن يؤثر فى السليقة ، ولكن قد يشاع عن الانسان هذا العيب، ويتندر به الناس ، وتكثر فى هذا التندر الروايات والاقاويـــل • ولعلك لاحظت اختلاف الرواة فى الحرف الذى لا يستطيع زياد نطقه ففى مراجعته لخادمه قائلا « منذ لدن دأوتك الى ان قلت لبى ما كنت تسنأ » وهو الخبر الذى ذكره أبو الفرج نرى زيادا لا يستطيع نطق العين فيقلبها همزة ، ولا يستطيع نطق الصاد فيقلبها سينا • وفى الخبر الذى يليه ــ وقد ذكره أبو الفرج أيضا ــ يقول زياد : كنت على بنت الهمار ، يريد الحمار ، كأنـــه لا ينطق الحاء ، وذكر الجاحظ عـــن أبى عبيدة ان زيادا كـــان يجعل السين شينا والطاء تاء فكان يقول فى السلطان : الشلتان •

ولعل فى هذا الاضطراب ما يقوى يقينك ان زيـــادا كان يعانى مـــن عقدة فى لسانه بالغ شانئوه فى تصويرها حتى عده أكثرهم أعجميا بالمعنى المقابل للفصيح ، فالسين التى فى السلطان ونطقها شينـــا (الشلتان) قـــد نطق بها صحيحة وهو يقول لخادمه : ماذا كنت تسنأ ــ والحـــاء التى لـــم يستطيع النطق بها فقال (الهمار بدل الحمار) كانت قافية القصيدة التى رثى بها المغيرة بن المهلب ، أى كانت قصيدة حائية ، بل ربما كانت أخف القوافى

(1) الاغانى 14 : 288 ط دار الكتب ، 13 : 56 ط ساسى . الضلة = الحيرة

عنده فقد رأيناه مرة أخرى وقد أعد قصيدة حائية يهجو بها يزيد بن حبناء الضبى مطلعها :

يحذرنى الموت ابن حبناء والفتى
الى الموت يغــدو جاهدا ويروح

الى آخرها (1) .

ولو أن الرجل كان مصابا حقيقة (بالحاء) لهرب منها ، أو على الاقل لم يتخذها قافية تطارده عند نهاية كل بيت ونحن نعرف أن القافيــة هــى أحسن مكان يستريح عنده الشاعر فكيف وضع نفسه فى هذا المــأزق ان كان لا يحسن الحاء وهو الشاعر المشهود له بالقدرة على الشعر والتصرف فيه حتى لجأت اليه ربيعة كلها تقول له : « يا زيادا أنت لساننا فاذبب عن أعراضنا بشعرك وان سيوفنا معك » (2) .

ومما ذهبنا اليه أيضا أن وجود الرجل فى خراسان أو فى مرو أو فى اصبهان ونشأته فى قبيلة عربية لا ينتج مثل هذه العجمة التى أفاض الناس فى تجسيمها ، فلقد ذهبت القبائل العربية الى هذه البلاد ومــدت سكناها فيها قبيل الفتح الاسلامى وفى ابانه ، وأشار الى ذلك المثنى بــن حارثــة الشيبانى وهو يحمس جنوده قائلا : لا يعظمن عليكم هذا الوجه ؛ فانا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنامنهم واجترأ من قبلنا عليهم (3) ثم تلاحق دخول القبائل العربية هــذه البلاد ، ومدت سكناها الى أقصى الشرق فى أرض فرغانة والشاش (4) فى مطلــع

(1) الاغانى 14 : 103 ط ساسى
(2) الاغانى 13 : 94 ط دار الكتب
(3) تاريخ الطبرى 2 : 631 ط الاستقامة
(4) فتوح البلدان للبلاذرى 437 ط الموسوعات

القرن الأول من الهجرة وفى ضواحى أصبهان نزلت بطـون مـن ثقيف ، وتميم ، وبنى ضبة ، وخزاعة ، وبنى حنيفة وبنى عبد القيس (1) (قبيلـة زياد) كما نزلت بطون من عبد القيس فى مرو (2) وكان من سياسة الولاة فى هذه البلاد الاستكثار من العنصر الغربى ،فحين ولى زيـادُ بن ابـى سفيان الربيع بن زياد الحارثى خراسان حـول معـه من أهل المصرين : البصرة والكوفة خمسين ألفا بعيالاتهم وأسكنهم دون النهر (3) .

وفى اصبهان كان للسان العربى القح مكان فيها ، أشـار الى ذلـك ياقوت الحموى وهو يترجم للحسن بن عبد الله الاصبهانى المعروف بلغدة فنقل عن حمزة بن حسن الاصبهانى فى كتاب اصبهان : (وقـد تقدم مـن أهل اللغة فى اصبهان ، وصار فيها رئيسا يؤخذ عنه ، جماعة منهم أبو على لغدة ، وكان رأسا فى اللغة والعلم والشعر والنحو ، حفـظ فـى صغره كتب أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، ثم تتبع مـا فيها ، فامتحن بهـا الأعراب الوافدين أصبهان ، وكانوا يفدون على محمد بن يحيى بن أبان ، فيضربون خيمهم بفناء داره فى باغ سلم بن عود ، ويقصدهم أبو على كل يوم فيلقى عليهم مسائل شكوكه من كتب اللغـة ...) (4) فأنت تـرى للسليقة العربية مكانها فى أصبهان لم تفقد دورهـا ببعدها عـن الباديـة الفصيحـة .

ونشأة زياد وسط بطون عبد القيس لا يعطى بالضرورة سببـا لهذه العجمة ، فأمره امرهم ، ونشأته نشأتهم ، وحديثـه حديثهم ـــ بـل كـان

---

(1) البلدان لليعقوبى 51
(2) معجم الادباء 8 141
(3) فتوح البلدان 410 ط ليدن
(4) معجم الادباء 16 : 71

أشعرهم ـ وألفاظه العربية الصريحة الصحيحة الفصيحة لا يمكن صدورها عن أعجمي ـ واذا تحدثنا عن عبد القيس وجدناها تحتل المرتبة الثانية في عداد القبائل الشاعرة كما يقول أبو عبيدة (اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف) (1) •

وكل ما نفترضه ونراه قريبا هو اصابة الرجل بعيب من عيوب النطق لا يرقى الى حالة العجمة ، والا فكيف احتج به ابو عبيدة وهو عمدة من عمد الرواية اللغوية •

ثم ما رأيك في سيبويه هذا الرجل الذي قعد العربية معتمدا على ألسنة اهلها ، قد وجدت سيبويه يحتج به في باب الساكن الذي تحركه في الوقف اذا كان بعده هاء لمذكر الذي هو علامة الاضمار ، يحتج بقوله :

عجبت والدهر كثير عجبه
من عنزي سبني لم أضربه (2)

وها هو اللغوي المفسر المؤرخ محمد بن جرير الطبري يحتج بشعر زياد الاعجم في سياق تفسير قوله تعالى (ومنهم من يلمزك في الصدقات) (3) ونحن لا ننسى للطبري مكانه العلمي حتى لو افترضنا انه نقل عن أبي عبيدة •

وأبو الفتح عثمان بن جني الذي يرجح برأيه أي معترك لغوي نراه يحتج بزياد الاعجم ويخرج بهذا الاحتجاج شواذ القراءات (4) •

يبدو أننا أطلنا الحديث في منعطف جرنا اليه زياد الاعجم ، ونسينا

---

(1) الاغاني 3 : 180 ط ساسي
(2) الكتاب لسيبويه 2 : 287
(3) تفسير الطبري 10 : 108 ط بولاق سنة 1337 هـ
(4) انظر المحتسب لابن جني 1 : 168 و 196

أبا عبيدة ودوره فى الشعر ، والكلام عن زياد واختلاف الناس فى أمــره قريب من اختلافهم فى أمر أبى عبيدة ، الأول لكلمة الأعجــم التى لحقت باسمه ، والثانى لشعوبيته ــ فلقد كان الثانى على علم غزير باللغة والأدب، والاخبار ، والانساب ــ والشعر عصب هذه المواد جميعا ، ويبدو أنه كان أغزر مادة من الاصمعى الذى عرف بسعة علمه بالشعر وتصرفه فيه ، ولكن حين يجتمع الرجلان تهبط كفة أبى عبيدة لشعوبيته ، وعبر العلماء عن ذلك بأكثر من مناسبة ، قيل لابى نواس : قد أشخص أبو عبيدة والاصمعى الى الرشيد قال : أما أبو عبيدة فانهم ان امكنوه من سِفْرِه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الاصمعى فبلبل يطربهم بنغماته (1) وزعم الباهلى صاحب كتاب المعانى أن طلبة العلم كانوا اذا أتوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر ، واذا أتوا أبا عبيدة اشتروا الــدر فى سوق البعر ، والمعنى أن الاصمعى كان حسن الانشاد والزخرفة لردىء الاخبار والاشعار حتى يحسن عنده القبيح ، وأن الفائدة عنده مع ذلك قليلة وأن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة وفوائد كثيرة والعلوم عنده جمة (2) وقال الخشنى : كان أبو عبيدة أكثر علما من الاصمعى وأكثر أخبارا وكتبا، وكان الأصمعى احضر جوابا وأرضى عند الناس (3) .

ولدينا مقارنة موضوعية لها وجهان ، الأول هذا الخبر الذى يرويــه الأصمعى فيقول : (حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لى : كم كتابك فى الخيل ؟ فقلت : مجلد واحد ، فقال لأبى عبيدة عن كتابه فى الخيل فقال : خمسون مجلدا ، فقال له : قم الى هذا الفرس وامسك عضوا عضوا منه واذكر ، فقال : لست ببيطار وانما هذا الشىء أخذته عن العرب،

---

(1) انباه الرواة 2 : 202
(2) انباه الرواة 3 : 279
(3) طبقات الزبيدى 188

فقال لى : قم يا أصمعى وافعل ذلك • قال : فقمت وأمسكت ناصية الفرس وشرعت أذكر منه عضوا عضوا ويدى على ذلك العضو وأنشد ما قالته العرب الى أن فرغت منه • فقال : خذه ، فكنت اذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته اليه (1) •

فحصيلة أبى عبيدة من شعر العرب ، ومن المادة التى جمع منها خمسين مجلدا اكبر من حصيلة الأصمعى ولكن معرفة الاصمعى بالدلالات كانت ميزة على صاحبه ـ وفى رواية أخرى لهذا الخبر أن المقابلة كانت عند الرشيد ، فلما انتهى الأصمعى من مهمته سأل الرشيد أبا عبيدة : ما تقول فيما قال ؟ قال : قد أصاب فى بعض وأخطأ فى بعض ، فالذى أصاب فيه تعلمه منى والذى أخطأ فيه لا أدرى من أين أتى به (2) •

أما الوجه الآخر فى هذه المقارنة فنظرة فى كتابى الرجلين وهما ـ لحسن الحظ ـ تحت ايدينا ، نلمس فيهما اعتماد أبى عبيدة على حسن الترتيب ، وغزارة الشعر فقد بدأه بمقدمة تبين عناية العرب بالخيل ومدى صيانتهم لها لما كان لهم فيها من العز والمنعة والجمال ، وحكى عن العرب بعض ما قيل فى من يكرّم الخيل ، ومن يؤثرها على أهله ونفسه ، وفى ذم من يسىء اليها ثم أخذ فى تسميه خلق الفرس ، وما يوصف من أمر الخيل وفحولها واناثها وحال أولادها الى أن تنتهى أسنانها ، وذكر أسماء الطير فى الفرس ، وما يستدل به على جودة الفرس وجودة خلقه وعيوبه ، وما يخالف الذكر فيه الانثى، وتكلم عن الوانها ، وانواع مشيها وأصواتها، وهو فى كل هذا يجد متسعا لقول الشعر استشهادا أو استطرادا حتى اذا فرغ من الكتاب عقب عليه بباب طويل مما قالت العرب فى أشعارها من صفة الخيل ، ذكر فيه قصائد لعلقمة بن عبدة ، وامرىء القيس ، وأبى

---

(1) انباه الرواة 2 : 201 ط دار الكتب 1369 هـ ـ 1950 م
(2) انباه الرواة 3 : 297 ط دار الكتب 1371 هـ ـ 1952 م

دؤاد الايادى ، وعبيد بن الابرص وعدى بن زيـد العبادى ، وعوف بـن الخرع التيمى . وبشر بن أبى خازم الاسدى ، وعروة بن سنان العبدى ، وعروة بن مكدم التغلبى ، وعقبة التغلبى ، وغيرهم ممن عرف بجودة شعره فـى الخيـل •

اما كتاب الاصمعى فقد تناول فيه ما يستحب من الخيل وما يكـره منها ، وصفة مشيها وعدوها والوانها الى غير ذلك ، وجعل وجهته خالصـة للغة فلم يتجه الى الشعر الا لغرض الاستشهاد فجاء كتابه دون كتاب أبى عبيدة كما كان الكتابان يعبران عن الفرق بين الرجلين فى حصيلـة الشعر ودرجة الانتفاع بـه •

ولابى عبيدة كتاب (النقائض) يشهد بعلو كعبه فى ربـط الاشعار بدواعيها ولم يقتصر على ما جاء بعنوان الكتاب من نقائض بـين جريـر والفرزدق وانما على قصائد ومقطعات اقتضاها السياق ، ولم يكتف فيـه بالناحية الاخبارية ولا جمع المادة الشعرية ولكن الكتاب فى مجموعه كتاب لغة اعتمد على هذا المتن الواسع من الشعر •

أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري

كانت علاقة ابى زيد بالشعر تختلف عن زميليه الاصمعى وأبى عبيدة اللذين حضلا واستظهرا منه قدرا كبيرا ، وجاءت بعض مؤلفاتهما نتيجـة لهذا الحفظ كالاصمعيات وكتاب الاراجيز ، ومعانـى الشعر للاصمعى ، والنقائض ، والشعر والشعراء لأبـى عبيدة • وكان الأول يتجـه اتجاها لغويا فى تفسير مختاراته ، ويتجه الثانى اتجاها تاريخيا ولغويا وهو يقيـم كتابه الأول على نقائض جرير والفرزدق • أما أبو زيد فقد جعـل اختياره الشعر والرجز بمثابة متن يشير من خلاله الى فرائد العربية ومع ذلك فقـد كانت القاعدة العامة التى بدت فى محاولة جمع الشعر تفرض نفسها أحيانا

على منهج أبى زيد فكان يورد بعض المقطعات القصار لا يتبعها بشرح ولا ببيان لغوى كأن ذلك من (النوادر فى اللغة) وهو الاسم الذى اختاره لكتابه ٠

وحيث أقام هذا الكتاب على مختارات من الشعر والرجز يجعلها متنا يقفى عليه بشروح لغوية لم يجد ضيرا أن يجمع هذا المتن سماعه عن المفضل الضبى وهو رجل كوفى ، ومن غير المفضل لأنه سيدير دراسته اللغوية على مذهبه البصرى ، ويحتج لها ويوثقها على طريقته هو ــ ويجعل للعرب الكلمة المثلى فيما يرويه من لغات ولقد جاء ذلك واضحا فيما أخبر به أبو حاتم قال : قال لى أبو زيد : ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعى من المفضل بن محمد الضبى ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعى من العرب ــ وجاء فى المقدمة أيضا عن التوزى أن أبا زيد قال : ما كان فيه من رجز فهو سماعى من المفضل ، وما فيه من قصيد أو لغات فهو سماعى من العرب ــ والقولان وان اختلفا فى مصدر الرجز والقصيد ــ يجمعان على أن اللغات كانت سماع أبى زيد عن العرب ٠

وأكثر الذين عنوا بالشعر من اللغويين لم يذهبوا فى جمعه الى مجرد الاختيار بمعنى استحسان القصائد والمقطعات وانما جعلوه سببا لمعرفة العربية ، أو التعريف بمسائلها كتوضيح الغريب والوحشى من الالفاظ ، وبيان لهجات القبائل ، وفرائد العربية ، وبعض الخصائص كالاشتقاق ، والقلب والابدال ، والاضداد الى غير ذلك ونحن نعرف بكتاب أبى زيد كما بدا لنا من هذا الوجه ٠

روى كتاب (النوادر فى اللغة) فى عصر متأخر، فأضيفت اليه شروح وزيادات لم تكن من عمل أبى زيد اذ جاء بعضها متأخرا عن العصر الذى عاش فيه ؛ والحقيقة ان الكتاب يمثل الرواية فى بغداد حيث نزح اليها

رجال من الكوفة ، والبصرة ، ونشأ جيل على مزاج من الثقافتين . واشترك كل اولئك فى شرح الكتاب وتحشيته بفضل ابى الحسن على بـن سليمان الاخفش ، والاخفش وان نسب الى البصريين فانه زاوج بـين الثقافتين ، وروى عن أبى العباس المبرد ، وثعلب ، ولذلك جاء كتاب النوادر لابـى زيد صورة بغدادية ترى فيه الى جانب البصريين علما عن ابـن الاعرابى ، والفراء وثعلب من رجال الكوفة ، فاذا استطعنا أن نستخلص مادة أبى زيد وهو عمل شاق ومتداخل رأينا فى مسلك أبى زيد أكثر من وجه فى وضع الكتاب ، منها :

ــ أن يأتى بمقطوعات غير مشروحة وكأنها مجـرد اختيارات كقوله تحت باب شعر :

لا أرضع الدهر الا ثدى واضحة
أو واضح الخد يحمى حوزة الجار
من آل سفيان أو ورقـاء يمنعها
تحت العجاجة ضـرب غير عوار
يا ليتنى ــ والمنى ليست بنافعـة
لمالـك أو لحصـن أو لسـيار
طوال أنضية الاعنـاق لم يجدوا
ريح الاماء اذا راحت بأذفار (1)

ويمكنك أن ترى صورا من هذا الوجـه فى أبواب متفرقـة مـن الكتاب (2) .

ــ وكانت الصورة الثانية ابياتا من القصيد أو الرجـز ذيلت بشروح وتفسير لغريبها كروايته لقول عبدة بن الطبيب :

---

(1) النوادر 22

(2) النوادر 45 و 91 و 109 و 111

ولقد علمت بأن قصرى حفرة
غبراء يحملنى اليها شرجع
فبكى بناتى شجوهن وزوجتى
والطامعون الى ثم تصدعوا
وتركت فى غبراء يكره وردها
يسفى على الترب حين أودع

ومن تفسيره لهذا الشعر قوله : الشرجع السرير الذى تحمل عليه الموتى ، وقوله : قصرى اى قصاراى اى آخر أمرى الموت والقبر ، والشجو : الحزن ــ ولو قال فبكت لكان جيدا ــ وأشار الى كلمة زوجتى فى الابيات فقال : ويقال : هى زوجى (1) وهذه الصورة متكررة فى الكتاب .

وفى التعريف بغريب الكلام ما يورده تحت باب شعر ، منسوبا الى غامان بن كعب بن عمرو بن سعد :

الا قالت بهان ولم تأبق
نعمتَ ، ولا يليط بك النعيم
بنون وهجمة كأشاء بُسّ
صفايا كثّة الاوبار كوم
تبك الحوض علاها ونهلى
وخلف ريادها عطن منيم
اذا اصطكت بضيق حجرتاها
تلاقى العسجدية واللطيم

(1) النوادر 23 ـــ 24

قال : يليط مثل يليق ، بهان اسم امرأة مثل حذام ، وتأبق تباعد أخذه من اباق العبد أى لم يقر (1) • واتسع الشراح فى تفسير وشرح هذا الشعر ولم نشأ أن نعرض لهم فنتشاغل بهم عن أبى زيد •

ـ ويشير ابو زيد الى كلمات تحذف ، وكلمات تأتى زائدة ، من ذلك حذف المضاف اذا دل الكلام عليه • قال ابو زيد : أنشدنى المفضل لرجل من بنى ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة :

ان لسعدى عندنا ديوانا
يخزى فلانا وابنه فلانا
كانت عجوزا عمرت زمانا
وهى ترى سيئها احسانا
أعرف منها الانف والعينانا
ومنخران أشبها ظبيانا

قال : ظبيان : اسم رجل ، أراد منخرى ظبيان فحذف ، كما قال عز وجل (واسأل القرية) يريد أهل القرية (2) •

ومن الكلمات التى تأتى زائدة كلمة (كذب) ذكر أبو زيد شعر لخداش بن زهير العامرى :

كذبت عليكم أوعدونى وعلّلوا
بى الأرض والأقوامَ قردانَ موظبا

وقال : معنى كذبت عليكم ، أى عليكم بى ، وتجىء (كذب) زائدة فى الحديث والشعر قال عمر : كذب عليكم الحج فرفع الحج بكذب ، والمعنى عليكم الحج أى حجوا وقال : نظر أعرابى الى فلان يعلف بعيرا

---

(1) النوادر 16
(2) النوادر 15

فقال : كذب عليكم البزر والنوى ، وفى الحديث ثلاثة اسفار كذبن عليكم (1) •

ـ وكان أبو زيد عالما بالنحو ويفضل الاصمعى وأبا عبيدة فكان يأتى بملاحظ نحوية ويتلمس الاسباب للقول فيها : ذكر قول ضابىء بن الحارث :

من يك أمسى بالمدينة رحله
فانى وقيارا بها لغريب

وقال : قيار : جمله ـ أراد فانى غريب ، وان قيارا أيضا لغريب ، ولو قال : لغريبان لكان أجود ـ ويجوز وقيار بالرفع على الابتداء (2) •

وفى فعل وأفعل يروى قول الأسود بن يعفر :

أجد الشباب قد مضى فتسرعا
وبان كما بان الخليط فودعا

قال أبو زيد : جد فى الأمر وأجد (3)

ـ ومن لهجات القبائل أشار الى رواية المفضل الذى قال : أنشدنى أبو الغول هذه الابيات لبعض أهل اليمن :

يارب ان كنت قبلت حجتج
فلا يزال شاحج يأتيك بج
أقمر نهات ينزى وفرتج

اراد حجتى ، ووفرتى ، وبى

وجاء فى كتاب القلب والابدال ليعقوب بن السكيت فى باب الجيم

(1) النوادر 17 — 18
(2) النوادر 20
(3) النوادر 162

والياء هذا الشعر مرويا عن الفراء ــ وقال الاصمعى : حدثنى خلف الأحمر عن رجل من أهل البادية يقول :

المطعمــون اللحــم بالعشج
وبــالغداة كســر البرنــج
هلــع بالــود وبالصيصــج

يريد بالعشى ، وقدر البرنى ، والصيصى وهو قرن البقرة .

وقال ابو عمرو بن العلاء : قلت لرجل من بنــى حنظلة ممــن أنت ؟ قال : فقيمج ، قال : وقلت : من أيهم ؟ قال : مرج . يريد فقيمى ، ومرى وأنشد لهميان بن قحافة السعدى :

تطير عنهــا الوبر الصهابجــا

يريد الصهابى من الصهبة ــ قــال : وبعض العرب اذا شدد اليــاء جعلها جيما وأنشد عن ابن الأعرابى لابى النجم :

كأن فــى أذنابهــن الشّوّل
من عبس الصيف قرون الأجّل

يريد الأيّل ــ وقال ابو زيد : هو الصهريج والصهــاريج ، وبنــو تميم يقولون : الصهرى والصهارى وهو الذى يجعل للماء يجتمع فيه (1)

وفى لهجات القبائل أيضا يقول أبو زيد : أنشدنى أبو الغول لبعض أهل اليمن :

أى قلــوص راكب تراهــا
طاروا عليهــن فشل علاهــا
واشدد بمثنى حقب حقواها
نــاجية وناجيــا أباهــا (2)

(1) القلب والابدال لابن السكيت 28 — 29 ط بيروت سنة 1903
(2) النوادر 164

ويشير أبو زيد الى طريقة نطق أهل البدو فيما رواه عن رجل زعموا أنه من كلب :

أرسل فيهـا بازلا يقـرمـه
وهو بها ينحو طريقـا يعلمه
باسم الذى فى كل سورة سُمُه

اراد اسمه ، وأنشد أعرابى :

أنا الحباب الذى يكفى سُمى نسبى
اذا القميص تعدى وَسْمَةَ النسب

وقال أيضـا :

فدع عنك ذكر اللهو واعمد بمدحة
لخير يمان كلها حيث مـا انتمى
لأوضحها وجهـا وأكرمها أبـا
وأسمحها كفـا ، وأعلنها سـما

ثم قال ـ اى ابو زيد : يقال : سُمُه ، وسِمُه يريد الاسم (1)

ويعنى أبو زيد بالشعر أكثر من عنايته بالشاعر أو بتحقيق السند كأن يقول : قال رجل زعموا أنه من كلب ـ أو ـ وأنشـد أعرابى ، أو قـال الراجز ، وفى الكتاب الذى وضعه باسم (كتاب المطر) يحتج لكثير مـن المسميات بأشعار غير منسوبة ويكتفى بقولـه : قال الراجـز (2) أو قال الشاعر (3) ولم يجىء منسوبا فى هذا الكتاب كله الا بيت كثير عزة :

كساع الى ظـل الغيـاءة يبتغى
مقيلا فلما أن أتاهـا اضمحلت

---

(1) النوادر 166
(2) كتاب المطر 6 و11 و12 و16 و17 و 19
(3) كتاب المطر 6 و7 و 14

يحتج به على أن الضياءة هى ظل السحابة عند بعض العرب ، وعند البعض الآخر الغياية (1) بالياء •

وفى كتاب اللبأ واللبن لابى زيد أيضا رواية أبى حاتم السجستانى ، وأبى الفضل الرياشى لم يجىء فيه من الشعر منسوبا الا بيت أعشى بنى عكل :

وان لم تقدّر خمرة من ثمالها

فانك عن ألبانها سوف تسمن

محتجا لكلمة ثمالة بمعنى رغوة (2) •

هؤلاء الثلاثة : الأصمعى ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد هم أهم رجال الرواية اللغوية فى القرن الثانى وواضعو نهجها •

---

(1) **كتاب المطر** 15

(2) كتاب اللبأ واللبن 2 ضمن كتاب البلغة فى شذور اللغة ص 143 ط. بيروت سنة 1908

الصف الثاني في البصرة - وعنايته بالشعر

ترأس من بعد الاصمعي ، وأبي زيد ، وأبي عبيدة نفر من العلماء في البصرة عنوا بالشعر عناية ملحوظة على أنه وعاء العربية وجامع متونها فتكلموا في معانيه ، وغريبه ، وعروضه وقوافيه ، ومروا في أبحاثهم من الأهم نازلين الى المهم ، الى ميادين لا تتصل برواية اللغة اتصالا وثيقا كالكلام في القوافي والعروض ، ويبدو أن الذين ألفوا في القوافي والعروض من رجال اللغة لم يبدأوا مؤلفين في هذا الغرض ولا هادفين اليه، ولكنهم استبانوا علما به بعد أن قتلوا الشعر بحثا عن معاني اللغة ، ومفرداتها ، وخصائصها ، ولهجات القبائل فيه ، فجاءت معرفتهم بالقوافي والعروض من وراء هذه السعة ، ولا تكاد تخلو ترجمة واحدة من تراجم لغويي هذا العصر من دليل اتصالهم الوثيق بالشعر والتأليف فيه فلعبدالرحمن ابن أخي الاصمعي كتاب معاني الشعر بالاضافة الى عنايته بشعر الشماخ(1) وكان الاثرم يملي شعر الراعي ويفسره واشتهر أمره بذلك حتى كان ثعلب وابن السكيت وهما من رؤساء البغداديين على المذهب الكوفي يسألانه عن غريبه (2) وعمل كل من الجرمي والمازني كتابين أحدهما في القوافي واخر في العروض (3) ويوصف الرياشي بأنه كان عالما باللغة والشعر (4) وكان أبو حاتم السجستاني عالما باللغة والشعر حسن العلم بالعروض واخراج المعمى (5) وللمبرد شرح شواهد كتاب سيبويه، والقوافي ، وكتاب ضرورة الشعر ، وكتاب قواعد الشعر ، وكتاب العروض (6) وعمل تلميذه أبو ذكوان كتاب معاني الشعر رواه ابن درستويه (7) وللاشناندانى كتاب معاني الشعر .

---

(1) طبقات الزبيدى 197
(2) الفهرست 83 ط الرحمانية
(3) الفهرست 84 و 85
(4) الفهرست 86
(5) انباه الرواة 2 : 59
(6) الفهرست 88
(7) الفهرست 88

وحين انتقل رجال المذهب البصرى الى بغداد بقى هـذا الاثر فيهـم فكتب فى الشعر والشعراء ابن السراج وكان مـن تلامذة المبرد (1) ولابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء أيضا ولابن درستويه كتاب معانى الشعر (2).

ونستطيع أن نمر مرورا هينا على أدوار الشعر المتصلـة بالروايـة اللغوية الى أن نعيش مع أصحابنا رجال القرن الثالث عـلى النحو التالى :

فهم ألفاظ القرآن الكريم

بدأ ذلك من عصر مبكر ابن عباس وعكرمة ، روى طلحـة بن عمرو عن عطاء قال : سمعت ابن عباس اذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر ، فقيل له ما زنيم ؟ فقال :

زنيم تداعـاه الرجـال زيـادة

كما زيد فى عرض الأديم الاكارع

وعن ابن أبى مليكة قال : سئل ابن عباس عن (الليل ومـا وسق) فقال وما جمع ، الم تسمع قول الشاعر :

ان لنـا قلائصـا حقائقـا

مستوسقات لو يجـدن سـائقا

.... الى غير ذلك (3) .

فاذا شذت كلمة عن مداركه تلمسها فيما يأتى الى سمعه مـن لهجات القبائل الاخرى ، جاءه رجل يخاصم أخاه فى مال له فأنشده :

تخوفنى مالى أخ لى ظالـم

فقال : تخوفك ، تنقصك ؟ الله أكبر (أو يأخذهم على تخوف) أى على تنقص مـن خيارهم .

(1) الفهرست 93

(2) الفهرست 94

(3) مقدمتان فى علوم القرآن 198 نشرهما ارثـر جفرى ط القاهـرة سنة 1945 م

وروى عن عكرمة أنه سئل عن الزنيم فقال : هو ولد الزنى ، وتمثل بقول الشاعر :

زنيـــم ليس يعرف مـــن أبـــوه
بغـــى الأم ذو حســـب لئيـــم

كان هذا الوجه يجرى على ندرة وقلة حين كان الناس على ارث من سليقتهم اللغوية ويردهم الشعر الى ذاكرتهم ان كانت الآفة من النسيان أو يحملهم الى لهجة أخرى لم يألفـــوا سماعها ، واجتمعت القبائل فى البصرة تأتلف لهجاتهم فى أكثر الأحايين وتختلف احيانـــا ويأتى اليهـــا غير العرب مستعربون ، ويدخل فى دين الله فارسيون وهنود وزط وسبابجة ، وتشتد الحاجة الى العربية فيبرز دور آخر للشعر هو :

التأدب فكنت تجد عند ابن عباس مجلسا للشعر (1) ، وعند ابن أبى اسحاق مجلسا يصف مهمته فيه بقوله : (نفتى فيما استتر من معانى الشعر وأشكل من غريبه واعرابه بفتوى سمعناها من غيرنـــا أو اجتهدنـــا فيهـــا آراءنا) (2) .

ثم يتخصص هذا التعميم وتضيق دائرته ويتجه فى فرع منه الى :

توثيق الفاظ العربية فلقد اتجه رجال اللغة الى جمع مفرداتها ، وتبويب حصيلة هذا الجمع تحت موضوعات معينـــة كالـــدارات ، والوحـــوش ، والنبات ، وخلق الانسان الى غير ذلك وكان على جامع هـــذه المفردات أن يتسلح لما يأتى به بشواهد من كلام العـــرب وكانت أمثـــل الشواهد مـــا صدرت عن عربى خالص العروبة فوضعوا لذلك الضوابـــط والحـــدود ، وحرصوا فى أكثر الأحايين على نسبة الشعر لقائله فتظهر فيه لهجة قبيلته . وكان القرن الثانى موعد جمع اللغة وشواهدها من الشعر ، واستطيع فـــى اطمئنان القول بأن عملية الجمع انتهت فى هذا العصر فى تلـــك الرســـائل

(1) الاصابة 4 : 809 ترجمة رقم 9149 ط الهند
(2) انباه الرواة 2 : 106

والمجاميع التى وضعها الرواة وتبع ذلك أو سار مع نفس المسار جمع المعاجم ثم اتجه العلماء الى بيان خصائص العربية ومسائلها كالقلب والابدال والترادف والتضاد واعتمدت هذه الخصائص فى جوانبها الفنية على الشعر ايضا ، ولم يقف دور الشعر عند الدراسات اللغوية وانما وسع دائرة التوثيق الى :

الاتجاه التعليمى

وأقدم صورة لذلك فيما يبدو هى ـ رواية كتاب النوادر لأبى زيد ـ أقول رواية الكتاب لا الكتاب نفسه فلقد صدرت هذه الرواية عن أبى الحسن على بن سليمان الاخفش وأضاف شروحا لرجال جاءوا بعد عصر أبى زيد فبرزت هذه الصورة التعليمية التى استهدفت بيان ما غمض من ألفاظ الكتاب ، بالاضافة الى ابراز نوادر العربية فيه •

وربما سأل سائل عن الفرق فى دور الشعر فى مجالس الأدب عند ابن أبى اسحق فى القرن الأول ، ودوره فى توثيق ألفاظ العربية فى القرن الثانى ، وفى الاتجاه التعليمى فى القرن الثالث فنقول : ان دوره فى القرن الأول والثالث يتشابهان ووجهتهما واحدة ودواعيهما واحدة من حيث التعريف بالعربية بشرح غريبها ، يفصلهما هذا الدور الذى صاحب جمع اللغة والذى كان لا يقبل فيه لفظ غريب غير معتمد على شعر موثق لان اصحاب هذا الدور كانوا يجمعون أصولا فكان الشعر الموثق سند هذه الاصول ، فطلب الشعر الموثق لتأصيل الكلمة وبيان وجهها العربى غير طلب المعانى لتفهم الشعر ، الأول يتجه اتجاها لغويا والثانى يتجه اتجاها أدبيا •

وفى القرن الثالث اختلط الوجهان على أيدى اللغويين ، والفراغ الذى كان يشغل جمع اللغة قد اتسعت باحته بانتهاء هذا الجمع ، فاتسع الكلام فى الشعر وفى ألفاظه ، ووضعت فيه الكتب واختلفت وجهات التأليف باختلاف طبائع المؤلفين ، فقد يكون نحويا فتراه يحرص على بيان

هذا الوجه ويعنى باعراب الكلمات ، وقد يكون اخباريا فينحو بك ناحية التاريخ ، والاخبار والوقائع ، وقد يستعين اللغوى القح بمادة الشعر ليتكلم فى خصائص العربية ومسائلها فيوقفك على الاضداد ، والترادف ، والابدال ، والقلب الى غير ذلك ، وكلهم لغوى على كل حال ، ولكل وجهه البارز الذى عرف بـه .

أشار ابن النديم الى عالم بصرى ضمن اللغويين والنحويين هو سعيد ابن هارون الأشناندانى ، وذكر من كتبه : كتـاب معانـى الشعر ، وكتاب الأبيات ، ولعله يعنى أبيات الشعر ، والكتاب الأول وصل الينا رواية أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى ، وبالرغم مـن الاشارة الى الرجل بأنه لغوى كبير كما ورد فى بغية الوعاة للسيوطى فان العمق اللغوى فـى كتاب معانى الشعر ضحل لا غور فيه ، ويكاد يقتصر على تفسير العبارات.

جعل الكتاب فى مقاطع بلغت مائة وأحد عشر مقطعا ، نكتفى بعرض المقطع الأول منه كتعريف بمسلك الاشناندانى ، يقول :

وشعثاء غبراء الفـروع منيفـة
بها توصف الحسناء ، أو هى أجمل
دعوت بها أبنـاء ليـل كأنهـم
وقد أبصروها ـ معطشون قد انهلوا

فقال : يصف نارا ، جعلها شعثاء لتفرق أعاليها بالدخان كأنها شعثاء الرأس ، و (غبراء) يعنى غبرة الدخان ـ وقوله : بهـا توصف الحسناء ، فان العرب تصف الجارية فتقول : كأنها شعلة نار ، وكأنها بيضة فى روضة ـ ويقول (بها توصف الحسناء أو هى أجمل حسنا منها) ـ والمنيفـة : المشرفة ، والمعطش : الرجل الذى عطشت ابله ، وقوله (دعوت بها ابنـاء ليل) يعنى أضيافا ، دعاهم بهذه النار ، وليس هناك دعـاء وانمـا دعاهم

بضوئها فلما رأوها كانوا من السرور بها كأنهم معطشون قد أوردوا ابلهم، والناهل أيضا الذى سقى ابله أول سقية ، وهو من الاضداد (1) .

وللمبرد وجه آخر فى تناوله للشعر ، وكان لغويا نحويا ، أديبا ذا تصرف فى المعارف (2) ومؤلفاته التى حرصت على ذكرها فى الهامش تدلك على أن الرواة فى هذا العصر ــ وقد انتهى جمع مفردات اللغة ــ قد ذهبوا الى تشقيق فصولها ، فالذين التزموا بالجانب اللغوى كتبوا فى خصائص العربية ، وانتقلوا من معانى المفردات الى التراكيب ، وآخرون جمعوا الى ذلك مادة الأدب والاخبار ، وكان المبرد يجمع كل هذا ويضيف الى ذلك سعة فى النحو ، قدم لكتاب الكامل فقال :

(هذا كتاب الفناه يجمع ضروبا من الادب ما بين كلام منثور ،

---

(1) معانى الشعر للاشنانداني 7 ط دمشق سنة 1922

(2) له من الكتب : الكامل ، الروضة ، المقتضب ، الاشتقاق ، الانواء والازمنة ، القوافى ، الخط والهجاء ، المدخل الى سيبويه، المقصور والممدود ، المذكر والمؤنث ، معانى القرآن ويعرف بالكتاب التام ، احتجاج القراء ، الرسالة الكاملة ، الرد على سيبويه ، قواعد الشعر ، اعراب القرآن ، الحث على الادب والصدق ، قحطان وعدنان ، الزيادة المنتزعة من سيبويه ، المدخل فى النحو ، شرح شواهد كتاب سيبويه ، ضرورة الشعر ، ادب الجليس ، الحروف ومعانى القرآن الى طه ، معانى صفات الله جل اسمه ، المادح والقابح ، الرياض المونقة ، اسماء الدواهى عند العرب ، الاعراب ، التعازى ، الوشى ، فقر كتاب سيبويه ، الناطق ، معنى كتاب الاوسط للاخفش ، كتاب البلاغة ، العروض ، شرح كلام العرب وتلخيص الفاظها ، ما اتفقت الفاظه واختلفت معانيه فى القرآن ، الفاضل والمفضول ، طبقات النحويين البصريين واخبارهم ، كتاب العبارة عن اسماء الله تعالى ، الحروف ، التصريف ــ انباه الرواة 3 : 251 — 252

وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية فيه أن نفسر لكل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الاعراب شرحا شافيا) .

فلا تتوقع اذن أن ترى الشعر شاهدا او اداة احتجاج فحسب ولكنه أيضا اثر يحتاج الى شرح واعراب وغير ذلك — وكان بالنفس أن ننقل نموذجا ترى فيه المبرد وهو يعالج معارفه المختلفة لتلمس دور الشعر فيها فخفت التطويل ، وهممت بالاحالة الى فقرات اخترتها من كتاب الكامل فخفت التقصير — ولا بأس أن نذكر الك شيئا ونوجز فيه .

قال أبو العباس : (وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة عند ولايته العراق وفي ذلك يقول ليزيد بن عبد الملك بن مروان :

أمير المؤمنين وأنت بر
أمين لست بالطَّبِع الحريص
أأطمعت العراق ورافديه
فزاريا أحذَّ يد القميص (1)
تفهق بالعراق أبو المثنى
وعلم قومه أكل الخبيص
ولم يك قبلها راعى مخاض
ليأمنه على وركى قلوص

قوله : لست بالطبع الحريص ، فـ (الطَّبِع) الشديد الطمع الذي لا يفهم لشدة طمعه وانما أخذ هذا من طبع السيف ، يقال : طبع السيف ، أو هو سيف طبع اذا ركبه الصدأ حتى يغطى عليه ، والمثل من هذا في الذي طبع على قلبه انما هو تغطية وحجاب يقال : طبع الله على قلب فلان كما

(1) في بعض النسخ اأطعمت ، وفي بعضها اوليت

قال عز وجل (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) هذا الوقف ـ ثم قال : (وعلى أبصارهم غشاوة) وكذلك (رين على قلبه) و (غين على قلبه) فالرين يكون من أشياء تألف عليه فتغطيه ! قال الله عز وجل (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وأما (غين على قلبه) فهى غشاوة تعتريه ، والغينة : القطعة من الشجر الملتف تغطى ما تحتها قال الشاعر :

كأنى بين خافيتى عقاب
أصاب حمامة فى يوم غين

وقال بعضهم : أراد : فى التفاف من الظلمة ، وقال آخرون : أراد فى يوم غيم فأبدل من الميم نونا لاجتماع الميم والنون فى الغنة ، كما يقال للحية : أيم ، وأين ، واستجازت الشعراء أن تجمع الميم والنون فى القوافى لما ذكرت لك من اجتماعهما فى الغنة قال الراجز :

بنى ان البر شىء هين
المنطق اللين والطعيّم

وقال آخر :

ما تنقم الحرب العوان منى
بازل عامين حديث سنى
لمثل هذا ولدتنى أمى

والعراقان : البصرة والكوفة ، والرافدان : دجلة والفرات ـ وقوله: « أحذ يد القميص » الأحذ : الخفيف ، قال طرفة :

وأتلع نهاض أحذ ململم

وانما نسبه بالخفة فى يده الى السرقة ... الى آخر الخبر (1) .

(1) الكامل 3 : 808 وما بعدها ط الحلبى سنه 1937

وتستطيع فيما قرأت أن ترى فى المبرد رجلا قوى العارضة ، واسع التناول للغة حسن الاستفادة من الشعر ــ مضى عهد جمع اللغة بمفرداتها، ولكن التراكيب التى كانت تجرى على ألسنة العرب تحتاج الى مناسبات لتبرز ، وتحتاج الى حسن استعمال لتدور فى مسامع الناس ، فالسيف اذا ركبه الصدأ هو سيف طبِع ويمكن أن يشبه به الرجل الذى لا يفهم لشدة طبعه أو طبعه .

ثم يستطرد فيفرق بين الرين والغين ــ الاولى من أشياء تألف عليه فتغطيه ، والثانية غشاوة تعتريه ، ثم يدخل فى قضية الابدال بين الميم والنون ويعلل لها ــ وكل اولئك من تراكيب العربية وصيغها وخصائصها ومسائلها .

وأميل الى أن أقف بالبصرة عند هذا الحد فالبصرة كبيئة علمية قد ضعف أمرها بعد ثورة الزنج (1) ولننظر فى علاقة الشعر باللغة فى الكوفة .

---

(1) راجع كتابنا رواية اللغة 144

الشعر في الكوفة

تأثرت كل من البصرة والكوفة بماضيها ، كانت البصرة مرفأ ترتاده السفن التواجر ، ويجمع أشتاتا تختلف ألسنتهم وأمزجتهم ، وأتيح للجنس اليونانى حين فتح الاسكندر هذه البلاد أن يعيش فى جماعات تعمل فى البحرية التجارية ، وكانت هذه الجماعات تدين بالمسيحية ويصطنع رؤساؤها الجدل معتمدين على الفلسفة اليونانية بمنهجها المنطقى المعروف — وكانت المؤلفات العربية التى ظهرت فى البصرة تدل على مدى تأثر علمائها بالفلسفات الواردة الى هذا المرفأ ككتاب سيبويه ومعجم العين (1) فكان جمع اللغة تحت كليات عامة وأقيسة يعود الى هذا الأصل من ماضى البصرة .

أما الكوفة ، فكانت وريثة الحيرة والانبار ، وظل العنصر العربى بها محتفظا بفطرته وتقاليده البدوية، ومن ثم كان الشعر العربىميراثا أصيلا فى الكوفة ، يجرى على السنة اهلها ، وكان على بن أبى طالب يلمح فيهم هذه النزعة ، فخطبهم يوما فقال : اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا عزين تضربون الامثال وتناشدون الاشعار ، تربت ايديكم . وكان للشعر دوره اللغوى ولكن على خلاف من دوره فى البصرة — كان الشعر فى البصرة وسيلة لاستنباط العربية ، وكان فى الكوفة ارضاء لنزوع العنصر العربى فيها حتى كان جمع الشعر بادىء الامر غاية ، ثم كان البحث اللغوى من خلاله استطرادا وامتدادا من هذه الغاية ، فلا عجب أن ترى أربعة رجال من الرواة يتصل سببهم بجمع الشعر .

حماد بن ميسرة

كان حماد بن ميسرة — أو ابن سابور — من أعلم الناس بأيام العرب ، وأخبارها ، وأشعارها ، ، وأنسابها ، ولغاتها كما يحكى أبو الفرج

(1) راجع كتاب رواية اللغة للمؤلف فيما كتب عن البصرة

حتى عرف بالراوية وسأله الوليد بن يزيد يوما : بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأني اروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به — ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف انك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعرا قديما ولا محدثا الا ميزت القديم منه من المحدث . فقال: ان هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ فقال : كثيرا، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام ، قال : سأمتحنك في هذا ، وأمره بالانشاد فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين وأخبر الوليد بذلك (1) وكانت ملوك بني أمية تستزيده لتفيد من علمه ، فيأخذ مكانه على مقربة من الخليفة ، ويوقفه على قيم الشعراء الوافدين ، يحكي بعض هذا ، مروان بن أبي حفصة فيقول :

(دخلت أنا وطريح بن اسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد ..... ، واذا رجل عنده كلما أنشد شاعرا شعرا وقّف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا كذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا كذا من شعر فلان حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : حماد الراوية (2) ونراه في يوم آخر عند المهدي وهو يحكي الخبر بنفسه فيقول : دخلت على المهدي فقال : أنشدني أحسن أبيات قيلت في الشعر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف فأنشدته قول الأخطل .... (3) وكان انقطاعه الى يزيد ، فلما ولي هشام الأمر أرسل في طلبه (4) ولما ذهبت دولة الأمويين رأينا أبا جعفر يجد في طلبه (5)

(1) الاغاني 6 : 70 — 71 ط دار الكتب

(2) الاغاني ٦ : ٧١ (3) الاغاني ٦ : ٨٨

(4) الاغاني ٦ : ٧٢ (5) الاغاني ٦ : ٨٠

ويستدعيه .

وحسن فيه رأى البصريين ، فكان أبو عمرو بن العلاء وهو شيخ رواة البصرة يقدمه على نفسه (1) وقال الأصمعى : كان حماد أعلم الناس اذا نصح (2) .

ولم يكن الرجل راوية للشعر فحسب ، ولكنه راوية للغة أيضا ، بدا ذلك فى مواقف عديدة له ، ومن شهادة العلماء فيه ، فهذا أبو الفرج يصفه بأنه من أعلم الناس بأيام العرب .... ولغاتها (3) ، وفى مجلس الوليد أنشد مروان بن أبى حفصة من شعر ابن مقبل :

سل الدار من جنبى حبرٍ فواهب

اذا ما رأى هضب القليب المضيّح

فسأله حماد : ماذا يقول الشاعر ؟ فلم يدر ما يقول ، فقال له حماد : يا ابن أخى ، أنا أعلم الناس بكلام العرب ، يقال : تراءى الموضعان اذا تقابلا (4) .

وكان الهيثم بن عدى صاحبه وراويته ، ويبدو أنه أحس بأنه أفاد علما باللغة بسبب صحبته لحماد ، فقال له يوما : ألق علىّ ما شئت من الشعر أفسره لك فضحك حماد، وقال : ما معنى قول ابن مزاحم الثمالى :

تخوّف السير منها تامكا قردا

كما تخوف عود النبعة السفن

فلم يدر ما يقول . فقال حماد : تخوف : تنقص ، قال الله عز وجل (أو يأخذهم على تخوف) اى على تنقص (5) .

والذين اتهموا هذا الرجل اتهموه جملة من غير تفصيل ، ولم يأتوا بشواهد او قضايا محددة ، فالأصمعى يتهمه اتهاما ضمنيا بقوله : كان

---

(1) الاغانى 6 : 73 ط دار الكتب

(2) الاغانى 6 : 70 (3) نفس المصدر والصفحة

(4) الاغانى 6 : 72 (5) الاغانى 6 : 72

حماد اعلم الناس اذا نصح ، وكان لحماد منهجا آخر غير النصح . ويأتى المفضل يريد ذمه فيمدحه والا فماذا تفهم من الخبر التالى :

يقول ابن الأعرابى ، سمعت المفضل الضبى يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ (1) .

فالرجل بلغ بعلمه بلغات العرب ومذاهب الشعراء فى شعرهم حدا جعله يقول الشعر فينسبه الى شاعر فيكون أشبه بشعره ، وتستعصى التفرقة بين ما يقوله وبين ما ينسب اليه .

وليس عندنا عن نشأته كبير علم ، والخبر الذى أورده الأغانى لا يصلح أن يكون اساسا لنشأة رجل كبير كهذا ، وأميل الى القول بأنه حكاية عن رجل نجح فذهبوا يتلمسون له بداية ، يقول أبو الفرج : كان حماد الراوية فى أول أمره يتشطر ، ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الانصار فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه فبلغ فى العلم ما بلغ (2) .

ولكن يبدو أن موهبة حماد ومقدرته على الحفظ والاستظهار ، وبيئة الكوفة التى تطن اصداء الشعر فيها قد أسهما فى تكوين هذا الراوية ، كانت هذه البيئة معنية بجمع اشعار القبائل، ترى مصداق ذلك فيما يحكيه حماد ، وما يروى عن أبى عمرو الشيبانى فى هذا السياق .

(1) الاغانى 6 : 89

(2) الاغانى 6 : 87

يقول حماد : أرسل الوليد بن يزيد الىّ بمائتى دينار ، وأمر يوسف ابن عمر بحملى اليه على البريد، قال: فقلت: لا يسألنى الا عن طرفيه قريش وثقيف فنظرت فى كتابى قريش وثقيف ، فلما قدمت عليه سألنى عن أشعار بلى ، فأنشدته منها ما استحسنه (1) أما الخبر عن أبى عمرو الشيبانى فنذكره فى حديثنا عنه .

اذن ، فكان من الاتجاهات فى الكوفة العناية بأشعار القبائل ؛ وجمعها ، وتصنيفها والتعريف بشعرائها على الوجه الذى ندركه من كلام حماد فقد نظر فى شعر قريش وثقيف لصلتهما بالوليد بن يزيد ، وتوقع أن يقف منهما موقف الامتحان فاذا هو يسأل عن شعر قبيلة أخرى فيروى من شعرها ما استحسنه الوليد .

بزرج العروضى

وكان فى الكوفة رجل آخر عالم بالشعر هو بزرج بن محمد العروضى ، وكان يسرف فى الرواية حتى تشكك الناس فيه فذهبوا يسألونه عن سنده وعن مصداق ما يقول (2) وعرف به القفطى فقال : كان حافظا راوية ، وكان كذابا يحدث بالشىء عن رجل ثم يحدث به عن غيره ، وكان حكم يونس عليه مزاجا من الاعجاب والشك فقال : ان لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس (3) .

ابو عمرو الشيبانى

وكان أبو عمرو الشيبانى يعطى جزءا من عنايته لقيد الشعر . قال عمرو بن ابى عمرو : ولما جمع أبى أشعار العرب كانت نيفا وثمانين قبيلة فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس ، كتب مصحفا وجعله فى مسجد الكوفة حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه (4) .

---

(1) الاغانى 6 : 94
(2) معجم الادباء 7 : 73
(3) انباه الرواة 1 : 241
(4) انباه الرواة 1 : 221

هذا وجه من تكوين أبى عمرو لان الشعر وعاء العربية كما قلنا ، أما الوجه الآخر فكان ذهابه الى البادية يسمع من الاعراب ويكتب هذا السماع ، ومن حق أبى عمرو بعد هذا الجهد أن يمسك بزمام الشعر واللغة ، وأن يوصف بصاحب ديوان اللغة والشعر ، وأن يكون فى نظر رجل كأبى العباس ثعلب فى مصاف كبار رجال البصرة وفى مقدمتهم ، يقول أبو العباس : كان مع أبى عمرو من العلم والسماع عشرة أضعاف ما كان مع أبى عبيدة ، ولم يكن من أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم (1) وكان عند أبى عمرو ما يحتاج اليه وما لا يحتاج اليه لكثرة ما طلب وجمع كما يحكى ثعلب (2) ولكنه كان يضعها تحت الاختبار والتصفية ولا يقيد منها فى كتبه الا ما يثق فيه • دخل عليه يونس بن حبيب البصرى فوجد بين يديه قمطرا فيه اليسير من الكتب فقال متعجبا منه : أيها الشيخ : هذا جميع علمك ؟ فتبسم قائلا : انه من صدق كثير (3)

المفضل الضبى

وهذا لغوى آخر كانت همته جمع الشعر ، وظهرت أول مجموعة كبيرة فى الشعر على يديه وسميت بالمفضليات ، وهى مائة وثمانية وعشرون قصيدة قد تزيد وتنقص بحسب الروايات • قيل فى سبب جمعها أنه جمعها للمهدى ، وفى خبر آخر يقول العباس بن بكار الضبى ، قلت للمفضل الضبى : ما أحسن اختيارك للأشعار ، فلو زدتنا من اختيارك ؟ فقال : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن ابراهيم بن عبد الله بن حسن استتر عندى فكنت اطوف وأعود اليه بالأخبار فيأمرنى ويحدثنى ، ثم حدث لى

---

(1) انباه الرواة 1 : 221
(2) انباه الرواة 1 : 229
(3) انباه الرواة 1 : 223

خروج الى ضيعتى أياما فقال لى : اجعل كتبك عندى لأستريح الى النظر فيها ، فجعلت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار فلما عدت وجدته قد علم على هذه الأشعار وكان أحفظ الناس للشعر ، وأعلمهم به فجمعته وأخرجته فقال الناس اختيار المفضل •

وشواهد الحال تشير الى عنايته بالشعر وجمعه ــ وله من هذا الوجه بالاضافة الى المفضليات : كتاب القصائد المختارة ، والعروض ، ومعانى الشعر ، واستحق بهذه الصفة ثناء علماء البصرة عليه مع وجود العداوة التقليدية بين البلدين فكان محمد بن سلام الجمحى يقول : أعلم من ورد علينا بالشعر وأصدقه من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبى الكوفى (1) •

توثيق اللغة في الكوفة

الفرق بين البصرة والكوفة يتضح فى مجال التوثيق والتقعيد ؛ ويكاد ينحصر فى العناية بالاسناد فى البصرة ، وتركه فى الكوفة ، والذين تناولوا هذا الوجه ذهبوا مذاهب متعددة فى التعليل له ، من ذلك ما ذكرنا من الافادة من الفلسفة اليونانية فى البصرة ، ووضع اللغة تحت كليات لتعذر الجمع المطلق الشامل ، كان لا بد من انتقاء الاعم الأغلب وطرح الشواذ ، ومن الشاذ ما هو عربى خالص العروبة ولكنه محدود الدوران على الالسن ، فاكتفى البصريون بالأهم عن المهم ، وعنوا بالاحتجاج بالشعر منسوبا الى شاعر موثق ، ولم يهدر البصريون ما بقى بعد هذا الانتقاء والغربلة ، فبقيت الكليات مطلب الجمهور ووضعت الباقيات تحت دراسات خاصة ــ تسمى أحيانا لغات ــ يقول ابن نوفل لأبى عمرو بن العلاء : أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه

(1) طبقات فحول الشعراء 21 ط دار المعارف

الكلام كله ؟ فقال : لا ، قال : فما تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات (1) وكل ما هنالك أنهم أشاروا بحفظ الشاذ وتواصوا بعدم القياس عليه .

أما فى الكوفة فبحسبهم أن يجدوا شاهدا من شعر العرب ، وجوزوا القياس على كل ما سمع منهم ولو كان بيتا واحدا ولم يعد يهمهم اسناد الشعر لصاحبه ، تحدث ابو زكريا الفراء فى ابدال التاء والطاء فقال : التخوم ، والطخوم بالضم والفتح ، قال : وسألت الكسائى عن فتحها فلم يعرفه ، قال : وأنشدنى أعرابى من بنى سليم :

فان أفخر بمجد بنى سليم
أكن منها التخومة والسرارا (2)

وفى ابدال الهمزة والعين يقول : سمعت بعض بنى نبهان من طيء يقول : دأنى يريد دعنى (3) وفى أكثر الأحيان تقرأ فى مروياته مثل هذه العبارات: سمعت اعرابيا .. انشدنى بعض العرب لامرأة من بنى الحارث بن كعب ، وقال الآخر (4) وقال بعض بنى تميم (5) وقال بعض بنى غنم بن أسد (6) .

وفى كتاب (معانى القرآن) يحتج الفراء بالشعر فينسبه أحيانا

(1) طبقات الزبيدى 24
(2) القلب والابدال لابن السكيت 46
(3) القلب والابدال 24
(4) القلب والابدال 60
(5) القلب والابدال 45
(6) القلب والابدال 16

ويترك نسبته أحيانا ، ففي تفسيره لقوله تعالى (بئسما اشتروا به أنفسهم) يقول : سمعت أبا ثروان يقول لرجل : بع لى تمرا بدرهم ، يريد اشتر لى ، وأنشدنى بعض ربيعة :

ويأتيك بالأخبار من لم تبـع له
بتاتا ، ولم تضرب له وقت موعد

على معنى لم تشتر له بتاتا (1) وأمثال هذا كثير فى كتابـه معـانى القرآن كأن يقول : قال الشاعر ، أنشدنى بعض بنى عقيل ، أنشدنى بعض بنى أسد ، أنشدنى بعضهم الى غير ذلك (2) .

ومن أجل هذا كان أبو عبيدة البصرى قليل الثقة فى المفضل الكوفى، قال المفضل أنشدنى أبو الغول لبعض أهل اليمن :

أى قلـوص راكـب تراهـا
طـاروا عليهن فَشُلّ علاهـا

علاها : أراد عليها ، ولغة بنى الحارث بن كعب قلب الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها ، قال أبو حاتم : سألت عن هـذه الأبيات أبا عبيدة فقال : انقط عليه ، هذا صنعه المفضل (3) .

ومن مطاعن التوثيق فى الكوفة أن علماءها أخذوا عن أعراب فسدت سليقتهم فى نظر البصريين ، فكان اليزيدى يغمز الكسائى بأنه يأخذ عـن أشياخ قطربل (4) ورماه ابو زيد بأنه لقى أعراب الحطمية فأخـذ عنهـم الفساد والخطـأ (5) .

---

(1) معانى القرآن للفراء 1 : 56
(2) انظر صفحات 66 و 67 و 91 من كتاب معانى القرآن
(3) النوادر فى اللغة لابى زيد 58
(4) اخبار النحويين البصريين للسيرافى
(5) معجم الادباء 2 : 182

والرأى عندى أن الحياة العلمية اللغوية فى الكوفة كانت من القصر بحيث لم تتمكن من استكمال مناهجها ، وما كادت الدولة العباسية تتخذ عاصمتها فى بغداد حتى ذهب اليها رجال الكوفة فى أعقاب رجال الدولة . وبالرغم من أن الكوفيين قد استأثروا بالأمكنة فيها قرابة ربع قرن فقد دعت الحاجة الى جمع حصيلة العلم البصرى على يد رجلين من رجال المذهب الكوفى هما :

ابو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو يوسف يعقوب بن السكيت (1) .

والذى يذكر بالفضل حقيقة للكوفيين أنهم جمعوا الثقافة البصرية ومكنوا لها فى بغداد حين لاحظوا ان البصريين يأنفون من البقاء فى عاصمة الخلافة ، ولم يأنف رجال المذهب الكوفى فى بغداد من محاولة الجلوس والافادة من رجال البصرة ما وجدوا الى ذلك سبيلا — رأينا أبا عبيد القاسم بن سلام يأخذ عن أبى زيد الأنصارى ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى، وابى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى (2) كما أخذ عن اليزيدى (3) والنضر بن شميل (4) وكان ابن السكيت حريصا على روايات الاصمعى حتى رجح الأزهرى صاحب التهذيب التقاءه به (5) وسمع ثعلب وهو شيخ المذهب الكوفى فى بغداد من محمد بن سلام الجمحى ، وعلى بن المغيرة الاثرم ، وأحمد بن حاتم (6) صاحب الأصمعى ، وهم بالسفر الى البصرة للقاء أبى حاتم السجستانى .

(1) انظر تفصيل ذلك فى الباب الثالث من كتابنا (رواية اللغة)
(2) نزهة الالبا 189
(3) نزهة الالبا 104
(4) نزهة الالبا 111
(5) تهذيب اللغة 1 : 23 ط دار القومية سنة 1964
(6) مجالس ثعلب 1 : 10

ابن جنى كصورة بغدادية

كان ابن جنى ، وهو من لغويى القرن الرابع، صاحب آراء واتجاهات يبدىء فيها مرونة واضحة أمام القيد الزمنى لمن يحتج بكلامهم ، فمن المسلم به ، والمجمع عليه تقريبا أن أبا تمام حبيب بن أوس الطائى المتوفى سنة **231** هـ من المحدثين ، وأن البحترى الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى المتوفى سنة **284** هـ أكثر منه حداثة ، وأن أبا الطيب المتنبى أحمد بن محمد بن الحسين المتوفى سنة **354** هـ أحدث من الاثنين ، ولكنه يعرض لأشعارهم بوجه يتجاوز مجرد الاعجاب وكأنه يبحث عن مخرج من القيد الزمنى ليحتج بأشعارهم ، ومع تسليمه للقدامى فانه كان يرى لهؤلاء المحدثين وجها أو وجوها للاحتجاج بأشعارهم ، من ذلك أنه رأى رأى المبرد حين احتج بشىء من شعر أبى تمام فى سياق المعانى ، وأومأ الى عمل المبرد فقال (وقد كان أبو العباس ـ وهو الكثير التعقيب لجلة الناس ـ احتج بشىء من شعر حبيب بن أوس الطائى فى كتابه فى الاشتقاق لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه) (1) .

وكان أبو الفتح ، وهو يؤيد رأى المبرد ، وينهج نهجه ، كان من غير شك يدرك سعة هذه الخطوة ، وعدم تقبل الناس لرواية اللغة عن طريق التوسع فى المعانى وفتح هذا الباب لشعر أبى تمام ولمن جاء بعد أبى تمام ، ترى هل كان اعجاب ابن جنى بأبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى دافعا له على توسيع باب الرواية ليدخل هؤلاء بعد أن أوصد القيد الزمنى أمامهم أبوابها ففتح لهم ثغرة المعانى ؟ ـ اننا نعلم ان رواية اللغة تعنى ألفاظها

---

(1) الخصائص 1 : 42 ط دار الكتب سنة 1952

المجردة ، تعني متن العربية بمدلولها المتفق عليه عند الناطقين الاول ، أما المعاني ، وقد تلونها الأخيلة ، والأخيلة لا سلطان عليها فلا تدخل في باب الرواية • لقد قارب ابن جنى بين المتن والشرح أو المعنى ، ولا بأس أن نقرأ معا طرفا مما أثاره هذا اللغوى الكبير بعد أن ربط بين الذهب والفضة والغرب بسبب وثيق فقال :

(••• قالوا للجام من الفضة «الغرب» وهو فعل من الشيء الغريب، وذلك انه ليس في العادة والعرف استعمال الآنية من الفضة ، فلما استعمل ذلك في بعض الاحوال كان عزيزا غريبا ، هذا قول أبى اسحق ، يعنى الزجاج ـ وان شئت ••• قلت : ان هذا الجوهر غريب من بين الجواهر لنفاسته وشرفه ، الا تراهم اذا اثنوا على انسان قالوا : هووحيد في وقته، وغريب في زمانه ، ومنقطع النظير ، ونسيج وحده، ومنه قول الطائي الكبير يعنى أبا تمام :

غربته العلا على كثرة النا
س ، فأضحى في الأقربين جنيبا
فليطل عمره ، فلو مات في مر
و ، مقيما بها لمات غريبا

••••• وعاد الى ذكر اسماء الذهب فقال (ويدلك على انهم قد تصوروا هذا الموضع من امتزاجه بتراب معدنه أنهم اذا صفوه وهذبوه أخذوا له اسما من ذلك المعنى فقالوا له : الخِلاص ، والابريز ، والعقيان ـ فالخِلاص : فِعال من تخلص ، والابريز : افعيل من برز يبرز ، والعقيان : فعلان من عقى الصبى يعقى وهو أول ما ينجيه عند سقوطه من بطن أمه قبل أن يأكل وهو العقْى فقيل له ذلك لبروزه كما قيل له البَرَاز) •

ويبدو أن أبا الفتح قد أحس بأنه قد شقق الكلام ، وفلسف الشرح ، وأدرك ان المستمع قد لا تواتيه الرغبة فى الربط بين اللفظ والمعنى على هذا الوجه فقال معقبا :

(فالتأنى والتلطف فى جميع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة ، وسرها ، وطلاوتها الرائقة ، وجوهرها ، فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هرجة منعوذ بالله منه ونرغب بما آتاناه سبحانه عنه) (1) .

وابن جنى رئيس من رؤساء اللغويين يعرف ان رواية اللغة التى تعنى جمع الالفاظ والاحتجاج لها ليس من منهجها التعريف بالمعانى على جهة المجاز ، فالألفاظ مجمع عليها ــ الا يكن بين العرب جميعا ــ فبين قبيلة بعينها ، وتظل الكلمة فى هذه الحال مقرونة بناطقيها فيقال : أزدية ، أو تميمية ، أو حجازية الى غير ذلك وأما المعانى التى يلهث وراءها التخيل فهى كلوحات الفنان تنسب لصاحبها اذا كان أول مبتكر لها . ولأبى تمام كلمات لها معان مستمدة من الظلال المجازية والأخيلة استحوذت على اعجاب الادباء أحيانا وغربت أحيانا .

وابن جنى يحتج بأبى تمام ، وهو يدرك أنه حديث العهد ، فيأتى بشعره فى أعقاب الاحتجاج بشعر القدامى ، فقد عرض لقراءة أبان بن تغلب لقوله تعالى من سورة الشعراء : (خطايانا ان كنا) بالكسر ، وأوضح الشرط للماضى فى (أن كنا) بمعنى (كما أن) واحتج بقول أبى تمام :

ومكارما عتق النجار تليدة
ان كان هضب عمايتين تليدا

اى فكما أن هضب عمايتين تليد لا محالة ، فكذلك هذه المكارم

(1) الاقتضاب 324

تليدة (1) وبالرغم من وضوح بيت أبـى تمام وتغطيته الاحتجاج لهـذه القراءة ، الا أن أبا الفتح قـد احتج لهـا ببيت من أبيات كتاب سيبويه ، وآخر أنشده أبو على الفارسى ، وكان بيت الكتاب هو قول الفرزدق :

أتغضب ان أذنـا قتيبـة حزتـا
جهارا ، ولم تغضب لقتل ابن خازم

ولكن تقبله له ، واعجابه به قد فتح بابا واسعا أمام اللغويين من بعده ليدخلوا أبا تمام فى دائرة الاحتجاج ، من ذلك : ميـل البطليوسى الـى الاحتجاج بشعره فى مادة لم يجمع عليها القدامى ، فلقـد شـرح البرد ، والبردة فقال (قال أبو حاتم : لا يقال للثوب برد حتى يكون فيـه وشى ، وقال الخليل : البرد ثوب من ثياب العصب والوشى ، وأما البردة فكساء كانت العرب تلتحف به ولذلك قال حبيب :

فهـم يميسون البخترية فـى
برودة ، والأيام فـى برده) (2)

ولقد تعجب من أمر البطليوسى حين يذكر بيت حبيب كأنه يحتج به فى حين يجمع ابن منظور فى هذه المادة اقوال القدامى ــ ويكتفى بهـذا الجمع ــ فلا يقطع فيها برأى انظره يقول :

(والبرد من الثياب ، قال ابن سيده البرد : ثوب فيه خطوط ، وخص بعضهم به الوشى ، والجمع : ابراد ، وأبرد وبرود .

والبردة : كساء يلتحف به ، وقيل : اذا جعل الصوت شقة وله هدب فهى بردة ... قال شمر : رأيت أعرابيا بخزيمية وعليه شـبه منديل مـن صوف قد اتزر به فقلت : ما تسميه ؟ قال : بردة ، قال الأزهرى : وجمعها

---

(1) المحتسب لابن جنى 2 : 128
(2) الاقتضاب 324

برد وهى الشملةالمخططة . قال الليث : البرد : معروف مـن برود العصب والوشى ، قال : وأما البردة فكساء مربع أسود فيه صغر تلبسه الاعراب . وقولهم : هما فى بردة أخماس فسره ابن الأعرابـى فقال : معنـاه انهمـا يفعلان فعلا واحدا فيشتبهان كأنهما فى بردة ... وقول يزيد بن المفرغ :

معـاذ اللـه ربـا أن ترانـا

طـوال الدهـر نشتمل البـرادا

قال ابن سيده: يحتمل أن يكون جمع بردة كبرمة وبرام، وأن يكون جمع برد كقرط وقراط ...) (1) فكيف استراح البطليوسى فاحتج بأبى تمام أو رجح به رأيه وفى اقوال القدامى من الاحتمالات ما رأيت ؟

واحتج الزمخشرى بشعر حبيب فى تفسير أوايـل سورة البقرة فـى قوله تعالى : (يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا) ويخلق الزمخشرى وجها للاحتجاج بأبى تمام فيقول : (وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربيـة فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه الا ترى الى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه) (2) واقتنع الزمخشرى برأيه هذا فاحتج بأبى تمام فى أكثر من موضع فـى الكشاف كمـا احتج بقوله فى أساس البلاغة :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسيل حـرب للمكان العالـى

كاستعمال مجازى لكلمة الحرب بمعنى العداوة والغضب (3)

---

(1) انظر اللسان مادة ب ر د

(2) الكشاف 1 : 43 ط مصطفى محمد سنة 1354 هـ

(3) اساس البلاغة مادة ج ر ب ص 163

وفى مادة م هـ ل قال اتمهلّ الرجل : طال واعتدل ، وانه لمتمهلّ القيام واحتج بقول أبى تمام :

ان الأشاء اذا أصاب مشذّب
منه اتمهلّ ذرى وأث أسافلا (1)

هذا رأى الزمخشرى حين يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ولو أنه قال : ان أبا تمام قريب العهد بعصر الاحتجاج لكان وجها .

ولأبى تمام وان لم يكن فى عداد الرواة فى رأى الجمهور فله مواقف تشهد بعلو كعبه فى الرواية ، من ذلك ما يروى أن ابن قتيبة عاب أبا تمام فى قوله :

ألا ويل الشجىّ من الخلىّ

فقال له أبو تمام : ولم قلت ذلك ؟ قال : لأن يعقوب قال : شج بالتخفيف ولا يشدد فقال له أبو تمام : من أفصح عندك ابن الجرمقانية يعقوب أم أبو الأسود الدؤلى حيث يقول :

ويل الشجىّ من الخلىّ فأنه
نصب الفؤاد لشجوه مغموم

فأجاز البطليوسى قول أبى تمام وأيده بقول أبى دؤاد الايادى :

من لعين بدمعها موليّة
ولنفس مما عناها شجيّة

وفسر ذلك بقوله : قد أكثر اللغويون من انكار التشديد فى هذه اللفظة وذلك عجب منهم لأنه لا خلاف بينهم أنه يقال: شجوت الرجل أشجوه اذا أحزنته ، وشجى يشجى شجيا اذا حزن ، فاذا قيل شج بالتخفيف كان

(1) اساس البلاغة 84 ط دار الكتب

اسم فاعل من شجى فهو شج كقولك عمى يعمى فهو عم ، واذا قيل شجيّ بالتشديد كان اسم المفعول من شجوته اشجوه فهو مشجوّ وشجيّ كقولك مقتول وقتيل ، ومجروح وجريح (1) .

وأبو الفتح يعجب بالطائى الصغير أبى عبادة البحترى أيضا فى سياق المعانى ، اقول يعجب ولا أقول يحتج ، فقد عقد أبو الفتح فى كتاب الخصائص بابا فصل فيه الكلام والقول ، واعتمد على نظريته فى الاشتقاق الكبير فأبان أن ق و ل أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض ، وتأخره عنه انما هو للحفوف والحركة . وأما ك ل م فانها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشد ، وتمثل ببيت الأخطل :

حتى اتقونى وهم منى على حذر
والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر

وذكر قول الطائى الصغير :

عتاب بأطراف القوافى كأنه
طعان بأطراف القنا المتكسر (2)

يتمثل بهذا على أن مادة ق و ل تدل على القوة والشد .

وفى أساليب العرب (غلبة الفروع على الأصول) تأتى أحيانا هذه الأساليب لأغراض بلاغية كالمبالغة وذكر ابن جنى من ذلك شعرا لذى الرمة وغيره كما ذكر قول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من ملاحتها
وللقضيب نصيب من تثنيها

(1) الاقتضاب 197
(2) الخصائص 1 : 15

ولا يدخل شيء من هذا في رواية اللغة ـ العلم الذى يعتمد على نقل الألفاظ والاسماء والتراكيب بوضعها المجرد ـ لا المجازى ـ وانما جئنا بها لنشير الى أن ابن جنى كان يأنس بالبحترى ويأتى بأقواله فى أعقاب الشعراء الذين يحتج بأقوالهم •

أما ابن جنى والمتنبى فهما صديقان جمعهما قصر سيف الدولة فى حلب ، وقصر عضد الدولة البويهى فى شيراز ، وأعجب كل منهما بصاحبه، واذا قال ابو الفتح : صاحبنا او شاعرنا فانه كان يعنى المتنبى •

والحقيقة أن المتنبى كان أهلا لصداقة واعجاب أبى الفتح لأن المتنبى صانع فى تحصيل اللغة فكان من المكثرين نقلا لها ، ومن المطلعين على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر (1) وله مع شيوخ العربية جلسات ومساجلات ، سأله أبو على الفارسى يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعْلى (بكسر الفاء وسكون العين) فقال المتنبى فى الحال : حِجْلى ، وظِرْبى • قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد (2) ومع هذا فقد ساءت علاقته مع أبى على الفارسى كما وقعت مشادة بينه وبين ابن خالويه ترك على أثرها بلاط سيف الدولة •

ولكن أيا كان اطمئنان أبى الفتح على مقدرة المتنبى اللغوية فان الاحتجاج بشعره امر يخالف الاجماع • ففى جمع ثمر على ثمرات علل أبو الفتح لهذا الجمع بضعف غير العاقل فيلحقه التأنيث كقولهم : يا لثارات فلان جمع ثأر ، وذكر من قول المتنبى :

أسد تهد بالزئيرات الصفا

(1) وفيات الاعيان I : 102 ترجمة رقم 49
(2) المصدر السابق ـ نفس الصفحة

جمع زئير ــ ثم يقول أبو الفتح : وقد ذكرنا هــذا فى تفسير ديوان المتنبى عند قوله :

ففــى الناس بوقات لهــا وطبول (1)

وقرأ ابرهيم فى سورة الأنعام فى الآية السابعة والثلاثين (وليلبَسـوا عليهم دينهم) بفتح الباء فقال أبو الفتح فى تخريج هذه القراءة : المشهور فى هذا (لبِست) بكسر الباء ــ الثوب البسه بفتح الباء ، ولبست (بفتح الباء) عليهم الامر البِسه (بكسر الباء) فاما أن تكون هذه لغة لم تتــأد الينا (لبست) ــ بكسر الباء ــ عليهم الامر البسه ــ بفتح الباء فى معنى لبَسته بفتح الباء البِسه بكسر الباء ــ واما أن تكون غير هــذا وهو أن يراد به شدة المخالطة لهم فى دينهم ..... ولقد مر به لفظا البنه شاعرنــا ــ يقصد المتنبى ــ فقال :

وانا اذا ما الموت صرح فى الوغى
لبِسنا الى حاجاتنا الضرب والطعنا

بكسر الباء ، وعقب أبو الفتح : فاما أن يكون هذا الشاعر نظر الــى هذه القراءة ــ واما أن يكون أراد المراد بها فسلك سنة قارئها (2) .

ويبدو أن أبا الفتح قد أحس بالخروج على الاجمــاع حــين احتج بالمتنبى وهو رجل متأخر فأخذ يدافع عــن هذا المسلك بقوله (.... ولا تقل ما يقوله من ضعفت نحيزته وركت طريقته ، هذا شاعر محدث وبالأمس كان معنا فكيف يجوز أن يحتج به فى كتاب الله جل وعــز ؟ فان المعانى لا

(1) المحتسب 2 : 153

(2) المحتسب 1 : 231

يرفعها تقدم ، ولا يزرى بها تأخر ، فأما الألفاظ فلعمرى ان هذا الموضع معتبر فيها ، وأما المعانى ففائتة بأنفسها الى مغرسها ، واذا جاز لأبى العباس أن يحتج بأبى تمام فى اللغة كان الاحتجاج فى المعانى بالمولد الآخر أشبه) (1) .

فهل احتج ابن جنى بالمتنبى فى سياق المعانى فحسب حتى يجوز له أن يخفف من ملامة اللائم له على احتجاجه بالمحدثين ؟ ان كانت اللغة لم تتأد اليه ونظر الشاعر الى قراءة القارىء للآية فهذا احتجاج فى اللغة لا فى المعانى ، ثم ما معنى قول أبى الفتح (فأما الألفاظ فلعمرى أن هذا الموضع معتبر فيها) الا أن يكون أبو الفتح قد أراد الاحتجاج باللغة صراحة ، وأوضح من هذا أنه يحتج ببعض المولدين دون أن يسميهم فى قراءة الحسن (أهدنا صراطا مستقيما) (2) .

ولقد ترك ابن جنى هذا الباب مفتوحا فدخل منه رجل كالبطليوسى ، يعرف تماما ان المتنبى من المحدثين ، ويعرف أنه لا يجوز الاحتجاج بشعره، ومع هذا يحاول خلق مبرر للاحتجاج به ، كان البطليوسى يناقش فى كتاب الاقتضاب الذى جعله فى شرح كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة ــ أو أدب الكتّاب كما يسميه ــ كان يناقش قضية اضافة الاسماء الظاهرة والمضمرة الى (آل) وذكر من أقوال أبى جعفر النحاس أن (آلا) يضاف الى الأسماء الظاهرة ، ولا يجوز أن يضاف الى الاسماء المضمرة ، فلم يجز أن يقال : صلى الله على محمد وآله . قال : وانما الصواب : وأهله .....ثم أخذ فى مناقشة آراء اللغويين الى أن احتج بقول أبى الطيب المتنبى فى قوله :

---

(1) المحتسب 1 : 231

(2) المحتسب 1 : 24

واللـــه يسعد كــل يوم جــده
ويزيــد مــن أعدائــه فى آلــه

وقال ــ أى ابن السيد البطليوسى ــ (وأبــو الطيب وان كان ممن لا يحتج به فى اللغة فان فى بيته هذا حجة من جهة أخــرى ، وذلــك أن الناس عنوا بانتقاد شعره ، وكان فى عصره جماعة من اللغويين والنحويين كابن خالويه وابن جنى وغيرهما ، وما رأيت منهم أحدا أنكر عليه اضافــة (آل) الى المضمر) (1) .

وكان ابــن السيد البطليوسى لا يــرى بأسا مــن الاحتجاج بشعر المتنبى ، فلقد توفر لشعره ما توفر لهذه الجزئية وهو عناية اللغويين بنقــد شعره ، ولكن الذى يدلك على تردد البطليوسى أنــه كان يحتج أو يتمثل بشعر المتنبى منسوبا الى ابن جنى وكأنه يستأنس بهــذه النسبة ــ عرض لقول ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب (قنع يقنع قناعة اذا رضى) (وقنع يقنع قنوعا اذا سأل) فيختلف المصدران لاختلاف المعنى . فقال البطليوسى ان ابن الاعرابى حكى قنوعا فى الرضى ، وكذلك حكاها ابن جنى وذكــر أن أبا الطيب المتنبى كان ينشد :

ليس التعلل بالآمــال من أربــى
ولا القناعة بالاقلال مــن شيمى

قال : وكان مرة ينشد :

ولا القنوع بضنك العيش من شيمى (2)

وروى ابن قتيبة فى وصف الخيل قول خالد بن الصقب :

---

(1) الاقتضاب 8 ط بيروت سنة 1901
(2) الاقتضاب 181

ملاعبـة العنـان بغصن بـان

الـى كتفـين كالقتب الشميـم

وفسره ابن السيد البطليوسى فقال : قوله ملاعبة العنـان يريـد أن عنقها لينة غير كزة كأنها غصن بان فهى تلاعب عنانها وتطوى عنقهـا كيف شاءت ، ثم قال : وقد أفرط ابو الطيب المتنبى فى هـذا المعنى فقال يصف مهـرة :

يحك أنى شاء حـك الباشق

قوبـل مـن آفقـة وآفـق

بين عتاق الخيل والعتائق (1)

وعرض البطليوسى لكلمة : (أسحم داج) من شـعر الأعشى فـى المحلق بن حنتم الكلابى :

رضيعى لبان ثـدى أم تحالفـا

بأسحم داج عـوض لا نتفـرق

فكان فيها سبعة أقوال : الرماد ، والليل ، والرحم ، والـدم وهـذه الأقوال الأربعة ليعقوب ، وقال غيره : يعنى حلمـة الثدى ، وقيل يعنى : زق الخمر ، وقيل : يعنى دماء الذبائح التى كانت تذبح للاصنام ، وجعلـه أسحم لان الدم اذا يبس اسود ، وقال : (وأبعد هذه الأقوال قول من قال انه أراد الرماد لان الرماد لا يوصف انه أسحم ولا داج ، وأمـا الدم فلا ينكر وصفه بالسواد لأنه يسود اذا يبس ••••• وقد وصف المتنبى الـدم بالسواد فقال :

---

(1) الاقتضاب 328

وربتما حملة في الوغى
رددت بها الذبّل السمر سودا) (1)

اتصال ابن جنى بالاعراب

ولم يكن أبو الفتح ناقلا ، ولا ملتزما بآراء القدامى جامدا ، ففى عصره هذا لم يجد مانعا من أن يستنطق أحد الأعراب ليفيد من سليقته ـ أو على الأصح ليختبر سليقته ، فلقد كان يسمع من العقيليين بعامة ، ومن أبى عبد الله الشجرى العقيلى بخاصة كرجل تشيع فصاحته وتقوى لغته ، ففى قراءة محمد بن السميفع من سورة (آل عمران) (قَرَح) بفتح القاف والراء تردد أبو الفتح فى أن تكون لغة ، او لأن الحاء حرف حلقى يفتح ما قبلها كما تفتح نفسها ... ومن كلامه فى هذا (.... ولعمرى أن هذا عند أصحابنا ليس أمرا راجعا الى حرف الحلق ، لكنها لغات ، وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين فى أن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرا معتدا معتمدا فلقد رأيت كثيرا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدا لولا حرف الحلق .... وسمعت الشجرى يقول فى بعض كلامه : أنا محَموم (بفتح الحاء) (2) .

ويقول فى هذه الظاهرة فى سياق قراءة سهل بن شعيب النَّهمى (جَهَرة) فى سورة البقرة و (زَهَرة) فى سورة طه بفتح الهاء فى كل : (مذهب أصحابنا فى كل شىء من هذا النحو مما فيه حرف حلقى ساكن بعد حرف مفتوح : أنه لا يحرك الا على انه لغة فيه ... ومذهب الكوفيين فيه أنه يحرك الثانى لكونه حرفا حلقيا فيجيزون فيه الفتح وان لم يسمعوه ... وما ارى القول من بعد الا معهم ، والحق فيه الا فى أيديهم ، وذلك

(1) الاقتضاب 391
(2) المحتسب 1 : 167

انني سمعت عامة عقيل تقول ذاك ••• حتى لسمعت الشجرى يقول : أنـا محـَموم) ـ بفتح الحاء • (1)

وهذا فتح جديد يثيره أبو الفتح ، وعودة الى الاحتجاج بالاعراب ، وتقبل لشعر المحدثين •

كان ابن جنى ـ العالم الفذ ـ الذى يعد أعجوبة خارقـة بين علماء اللغة ينظر الى العربية ببصيرته لا ببصره فحسب ، ويعرضها على عقله المميز لا على ذاكرته الحافظة ، كان عقليا لا نقليا ، كان يـدرك أن استقاء العربية من أفواه الاعراب وجه من وجوه الرواية ، وأن هـذه الطريق هـى التى سلكها أوائل الرواة ، وحصلوا بها علمهم ، ووثقوا بها مـا حصلوه عـن شيوخهم ، وكان الجيل الثانى والثالث يتقبل ما نقـل اليه حين يطمئن الى صحة السند عن القدامى ، ويكف عن الاستماع الى الاعراب بعد أن اتهمهم الأوائل بفساد الفطرة بطول المكث فى الحضر • ولكن ابن جنى كان يدرك أن الآراء العلمية لا يمكن ان تتقبل هكذا بهذا الشمول ، وأن فساد سليقة أعرابى لا تعنى فساد سليقة الأعراب جميعا وألا تفسر الظواهر فى الكوفة بظروف البصرة ، والميزان الذى يجرى فى البلدين لا يوزن به فى بغداد •

ترى ما الوجه ونحن نرى ابن جنى يلتقى بأعراب مـن بنـى عقيل ، ويعول أحيانا على مـا يصدر مـن أعرابى تـردد اسمه كثيرا فـى كتابى الخصائص والمحتسب وهو أبو عبد الله الشجرى العقيلى بعـد ان توقف الأخذ عن الأعراب بصفة عامة •

الرأى عندى أن قضية الاعراب قد شابها الشمول ويقتضى الأمـر تفصيلها ، فبعض اعراب البصرة قد رموا بالافتعال لأنهم وجـدوا أنفسهم

(1) المحتسب 1 : 84 وانظر ايضا المحتسب 2 : 166

أمام من يشترى العربية ، وكان الطلاب يذهبون اليهم فى المربد يعرضون عليهم ما سمعوه من شيوخهم فــى البصرة ، ويستمعون الــى احاديثهم ، ويلحظون مخارج الحروف من أفواههم ، ولما أحس الاعراب بحاجة الطلاب اليهم انتقلوا الى البصرة فضعفت سليقتهم أو سليقة البعض منهم ـــ واضطر علماء البصرة الي وضع الاسئلة لهم يمتحنون بها طبيعتهم ، وباتوا يفاضلون بين أعرابى وأعرابى ، فلما تزعزعت الثقة بهم اتجه العلماء الى البادية فــى طلب اللغة ـــ كان هذا يجرى فى البصرة .

وكان الأمر فى الكوفة يخالف هــذا النهج ، كــان العنصر العربى البدوى فى الكوفة اكثر منه فى البصرة ، وكان ميراثهم مــن الشعر كثير ، وكان رواة الكوفة لا يجدون غضاضة فى الاستماع الى كل مــا هو عربى فكان من اعراب الكوفة الذين اصطنعوا رواية اللغة : أبو المجيب الربعى ، وهو من بنى ربيعة بن مالك بن تميم ، وأبو الجراح العقيلى ، وأبو ثروان العكلى . والاخيران لهما ذكر فى بغداد وكانا يشهدان مــع الكسائى على سيبويه فى المسألة الزنبورية كما روى الفراء عــن رجل اسمه أبو دثار ، والتقى أبو عمرو الشيبانى بأبى مسلم العاصى .

ذهب أكثر هؤلاء الاعراب الى بغداد سعيا وراء العيش ، فقد انتقل اليها رجال الدولة وفى أعقابهم من يلوذ بهم مــن العلماء والاعراب ، وبقى فى الكوفة العنصر البدوى بفطرته وسليقته يدلك عــلى ذلك أن الكسائى حين ذهب الى البصرة عجب منه رجل من الاعراب وقال لــه : تركت أسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة وجئت الى البصرة . (1)

وحين اشتدت الخصومة بين البلدين ذهب البصريون يوهنون رجال

---

(1) انباه الرواة 2 : 258

الكوفة بأنهم يستمعون الى أعراب قطربل" ـ وقطربل هـذه بلـد ينسب اليها الخمر ، ويذهب اليهان مجان الأعراب طلبا فـي خمرها ـ ومن أقوال البصريين للكوفيين : نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلـة اليرابيع ، وانتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكوامخ (1) وقال أبو عبيدة : أخذنا اللغة عن الاعراب البوالين على أعقابهم (2) وعاب اليزيدى الكسائى فقال لـه :

كنـا نقيس النحـو فيمـا مضى
عـلى لسـان العـرب الأول
فجـاء قـوم يقيسونـه
عـلى لغـى أشيـاخ قطربـل
ان الكسائـى ، وأشيـاعـه
يرقون فى النحو الى أسفل (3)

أما بنو عقيل الذين تردد ذكرهم فى كتب ابن جنى فهم طبقة متأخرة من بنى عامر بن صعصعة، وكانت منازلهم بالبحرين، واضطروا الى الالتجاء للعراق حين غلبت عليهم بنو تغلب ، فملكـوا الكوفة والبـلاد الفراتية ، وتغلبوا على الجزيرة والموصل • (4)

وجدير بالملاحظة أن نظرة ابن جنى الـى المحدثين مـن الاعـراب والشعراء تختلف عن نظرة قدامى الرواة ، فقدامى الرواة ، ورواة البصرة بخاصة كانوا ينفضون أيديهم من الاعراب حين يكشفون سقطهم ، كـان

(1) معجم الادباء 2 : 205
(2) طبقات الزبيدى 194
(3) اخبار النحويين للسيرافى 62
(4) صبح الاعشى 1 : 342

أبو عمرو بن العلاء تهتز ثقته فـي أبـي خيرة الأعرابي حين سمـع قوله (استأصل الله عرقاتهم) بنصب التاء لأنه كان سمعها منه بالجر ، فقال له : هيهات يا أبا خيرة ، لان جلدك ! (1)

ولحظ الجاحظ في يزيد بن كثوة بعض الهنات بالرغم مـن أنه كان يسكن بين البادية والبصرة فقال فيه (كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على أنه قـد كان وضع منزله فـي آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة) . (2)

ولكن أبا الفتح كان يأنس بالأعراب يستمع الـى أحاديثهم ، ويوجه اليهم الاسئلة ، لا ليكشف سقطهم ولكن ليتبين أثر الحضارة في سليقتهم، وأثر العامل الزمني على اللغة نفسها ، ومَنْ مِن الاعراب يستمسك عـلى بداوته الى غير ذلك . وجدنا أبا الفتح يتناول هذا ويقيم عليه دراسة علمية غزيرة ، فالأعرابي عنده مادة لا يجوز تركها بعيـدة عـن عناصر الرواية ، وكان في الأعراب من يتصف بالفصاحة لم تتغير طبيعته في كثير كما يتضح لك من كلامه :

(حضرني قديما بالموصل أعرابي عقيلي جوثي تميمي يقال له : محمد ابن العساف الشجري ، وقلما رأيت بدويا أفصح منه فقلت لـه يوما شغفا بفصاحته والتذاذا بمطاولته وجريا على العادة معه في ايقاظ طبعه واقتداح زند فطنته :

كيف تقول : أكرم أخوك أباك .

فقال : كذلك .

---

(1) نزهة الالبا 32 — 33

(2) البيان والتبيين 1 : 174

فقلت له : أفتقول : أكرم اخوك أبوك ؟

فقال : لا . لا أقول أبوك أبدا .

فقلت : فكيف تقول : أكرمني أبوك ؟

قال : كذلك .

قلت : ألست تزعم أنك لا تقول أبوك أبدا .

فقال : أيش هذا ، اختلفت جهتا الكلام .

فعجب أبو الفتح من تعبيره قائلا : فهل قولـه : اختلفت جهتا الكلام الا كقولنا نحن هو الآن فاعل وكان في الأول مفعولا ؟ فانظر الى قيام هذا الامر في أنفسهم وان لم تقطع به عبارتهم) . (1)

وفي مرة أخرى يقول : سألته يوما يا أبـا عبـد اللـه كيف تجمع محرنجما ـــ وكان غرضي من ذلك أن أعلم ما يقوله أيكسّر فيقول حراجم أم يصحح فيقول محرنجمات فذهب هـو مذهبا غير ذيـن فقال : وأيش ! فرقه حتى أجمعه ـــ قال أبو الفتح : وصدق وذلك أن المحرنجم هو المجتمع يقولها مارا على شكيمته غير محسن لما أريده منه ، والجماعة معي على غاية الاستغراب لفصاحته . قلت له : فدع هذا ، اذا أنت مررت بابل محرنجمة، وأخرى محرنجمة ، وأخرى محرنجمة تقول مررت بابل ماذا ؟ فقال وقـد أحس الموضع : يا هذا ، هكذا أقول : مررت بابل محرنجمات ، وأقام على التصحيح البتة استيحاشا من تكسير ذوات الاربعة لمصاقبتها ذوات الخمسة التي لا سبيل الى تكسيرها . (2)

ولم يطع لسان الأعرابي حين جره أبو الفتح الـى دائـرة الاستطراد فيما لا يجري على النسق ، قال : سألته يوما : كيف تجمع سرحانا ؟

---

(1) معجم الادباء 12 : 105

(2) معجم الادباء 12 : 108

قال : سراحين .

قلت : فدكانا ؟

قال : دكاكين .

قلت : فقرطانا ؟ (1)

قال : قراطين .

قلت : فعثمان ؟

قال : عثمانون .

قلت : هلا قلت عثامين كما قلت سراحين وقراطين ؟

فأباها البتة ــ وعلل لذلك أبو الفتح فقال : استوحش من تكسير العلم لا سيما وفيه الألف والنون اللتان بابهما فعلان الذي لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان . (2)

وقال : سألت الشجرى كيف يا أبا عبد الله تقول : اليوم كان زيد قائما ؟

فقال : كذلك .

فقلت : فكيف تقول : اليوم ان زيدا قائم ، فأباها البتة .

أباها الاعرابى ، وأنكرها بفطرته ، وعللها أبو الفتح فقال : ان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها لأنها انما تأتى أبدا مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها، وما بعدها عما قبلها . (3)

---

(1) الاصمعى : من متاع الرجل البرذعة وهو الحلس للبعير ، وهو للبعير ، وهو لذوات الحافر قرطاط وقرطان بكسر القاف وضمها ــ وهو أيضا الداهية ، والشىء اليسير وهو من الاضداد ــ انظر اللسان ق ر ط

(2) معجم الادباء 12 : 109 (3) معجم الادباء 12 : 106

والأعراب — فى عصر ابن جنــى — كطبيعتهم السابقــة لا يعرفون الأقيسة والتعاريف وانما يتكلمون بنحيزتهم فيجد أبــو الفتح فــى ذلك مدخلا لتعليل نظرياته وما هداه اليــه القياس والتحليل ، قال : أنشدنا مرة أبو عبد الله الشجرى شعرا لنفسه فيه بنو عوف فقال له بعض الحاضرين: أتقول بنو عوف أم بنى عوف ؟ — شكا من السائل فى بنى وبنو — فلــم يفهم الشجرى ما أراده وكان فى ثنايا السائل فضل فــرق فأشبع الصويت الذى يتبع الفاء فى الوقف فقال الشجرى مستنكرا لذلــك : لا أقوى فى الكلام على هذا النفخ . وفى هذا السياق يقول : سألت غلاما من آل المهيا فصيحا عن لفظة من كلامه لا يحضرنى الآن ذكرها فقلت : أكذا أم كذا ؟

فقال : كذا بالنصب لأنه أخف فجنح الى الخفة ، وعجبت من هذا مع ذكره (النصب) بهذا اللفظ ، وأظنه استعمل هــذه اللفظة لانهــا مذكورة عندهم فى الانشاد الذى يقال له النصب مما يتغنى به الركبان . (1)

وابن جنى لا تعوزه الدقة والمقدرة فى كشف طبيعة الأعرابى فللرجل معرفة بأسرار العربية وخصائصها يستطيع بهــا التفرقة بين أعرابى فصيح ، وأعرابى أقل فصاحة ، ويعرف أيضا كيف يفيد مــن الاثنين على السواء ، فهو يقيم دراسة قائمة على التوثيق مستعينا بالأعرابــى الفصيح ، كما يقيم دراسة على الأعرابى الآخر ليرى أثر التطور على لسانه ، وهو يروى موقفا كهذا فيقول :

قلت له يوما (أى لأبى عبد الله الشجرى) ولابن عم لــه يقال له : غصن ، وكان أصغر منه سنا وألين لسانا ، كيف تحقران حمراء ؟

فقالا : حميراء

قلت : فصفراء .

(1) الخصائص ١ : 78

قالا : صفيراء •

قال : واستمررت بهما فى نحو هــذا ، فلما استويا عليه دسست بين ذلك (علباء) فأسرع ابن عمه على طريقته فقال : عليبــاء ، وكان الشجرى يقولها معه ، فلما هم بفتح الباء استرجع مستنكرا ــ أو تراجع كالمذعور ــ فقال اه عليبى • (1)

وهكذا ، كان الشعــر القديم ، والشعر الــذى يليــه ، والاعــراب القدامى ، والاعراب المتأخرون موضع عناية ابن جنى ، يوثق اللغة بالاوائل وبدرس التطور اللغوى فى أشعار المحدثين وألسنة المتأخرين •

---

(1) معجم الادباء 12 : 106 — 107 والخصائص 2 : 26

الفصل الخامس

مآخذ حول الشعر

شعراء في ميزان الرواية

يطمئن الرواة الى الشعراء القدامى ، والذين عاشوا فـي قلب البادية بخاصة ، هذان القيدان ، الزماني والمكاني ، يختلفـان حـدودا وتحديدا بحسب وجهات نظر الرواة .

كان ابو عمرو بن العلاء لا يحتج ببيت أسلامي،كما يحكى وان اعجب بشعر جرير والفرزدق واضرابهما ، وخالفه كثرة من الرواة فاحتجوا بشعر الاسلاميين ، وقد يكون الشاعر موضع ثقة الراوية فى خصوصية من شعره ولا يكون كذلك فى موقف آخر ، وقد يكون ثقة فى جل شعره ولا يكون كذلك فى خصوصية واحدة . فالاصمعى يحتج بشعر الكميت بصفة عامة ــ وحينا يراه جرمقانيا من أهل الموصل لا يحتج بشعره ــ وذو الرمة مـن الشعراء البداة ، وموضع ثقة الرواة ، وفـي موقف مـن المواقف لا يراه الاصمعى كذلك ، ويعلل ذلك بانه طالما أكل البقـل والمملوح فى حوانيت

البصرة ، يعنى انه بعد عن البادية .

والشعر الجاهلى لم يكن كله متقبلا عند كل الرواة ، فلقــد عاب ابن قتيبة عدى بن زيد ، وأبا دؤاد الايادى فقال عن الاول (كان يسكن الحيرة ويدخل الارياف فثقل لسانه ، واحتمل عنــه شيء كثير جــدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة (1) وقال عن الرجلين : عدى بن زيد وابى دؤاد الايادى (ان الفاظهما ليست بنجدية) ولم يشفع لهما عنــد ابن قتيبة ان كثرة من الرواة كانوا يوثقون الرجلين .

كان ابو دؤاد الايادى فى نظر الاصمعى أحــد ثلاثة لا يقاربون فى وصف الخيل : طفيل ، وابو دؤاد ، والجعدى (2) وكان أبــو عبيدة يحتج به ويذكر كثيرا من شعره فى كتاب الخيل . وحسن فيه رأى الحطيئة فلقد تذاكر الناس الشعراء عند سعيد بن العاص الى ان سأل عن أشعر الناس ، فقال الحطيئة : هو الذى يقول :

لا أعــد الاقتار عدمــا ولكــن
فقــد مــن رزئتــه الاعــدام

وحين فخرت اياد على العرب قالت : منا أجود الناس كعب بن مامه ، ومنا اشعر الناس ابو دؤاد . (3)

وحين رجح البطليوسى رأى أبى تمام لما شدد ياء الشجىّ احتج بقول ابى دؤاد الايادى :

مــن لعــين بدمعهــا موليّــة
ولنفس ممــا عنــاها شجيّــة

---

(1) الشعر والشعراء 1 : 176
(2) الاغانى 16 : 375
(3) الاغانى 16 : 378

وقال : وناهيك به حجة • (1)

وكان ابن السكيت يوثق بأشعار عـدى بن زيـد اصلاح المنطق ، عرض لكلمة « الفلح » مصدر فلحت الارض اذا شققتها للزراعـة ، قال : والفلح (بفتح الفاء واللام) والفلاح بمعنى البقاء وأنشد لعدى بن زيد :

ثم بعد الفلاح والملْك والامّـ
ـة وارتهمْ هنـاك القبور (2)

وقال : وما جاء صحيحا بالواو : قد عنت الارض بالنبات تعنوا عنوا اذا ظهر نبتها وأنشد لعدى :

فيأكلن ما أعنـى الولى فلم يلث
كأن بحافـات النهـاء المزارعـا

قوله : أعنى الولى أى انبته الولى وهو المطر الذى بعد الرسمى (3) وفى تأنيث الدلو يقول ابن السكيت : الدلـو ، الغالب عليهـا التأنيث ، وتصغيرها دليّة ، وقد تذكر ويتمثل بقول عدى :

فهـو كالدلـو بكف المستقى
خذلت منـه العراقى فانجذم (4)

وابن احمر الباهلى :

أعرابى جاهلى ادرك الاسلام ، وكان يعيش كما يقول ابـو عمرو بن

---

(1) الاقتضاب 198
(2) اصلاح المنطق 92.
(3) اصلاح المنطق 209
(4) اصلاح المنطق 397

العلاء فى أفصح بقعة من الارض : يذبل والقعاقع (1) ذكر ذلك ابن قتيبة حين ترجم لهذا الشاعر فى كتاب الشعر والشعراء وقال : أتى ابن أحمر فى شعره بأربعة الفاظ لا تعرف فى كلام العرب ، سمى النار مأنوسة وقال :

تطايح الطل عن أعطافها صعـدا
كما تطايح عن مأنوسة الشرر (2)

ذكرها ابن منظور فى لسان العرب ، ونسبها الى ابن احمر .

وجاء فى شعر ابن أحمر (البابوس) بمعنى ولد الناقة فقال :

حنت قلوصى الى بابوسها طربا
فما حنينك أم مـا أنت والذكر

وفسرها ابن منظور بولد الناقة ، وفسره الازهرى فى التهذيب بأنـه الصبى الرضيع فى مهده ، وفى حديث جريج الراهب حين استنطق الرضيع فى مهده مسح رأس الصبى وقال له : يا بابوس ، من ابوك ؟ فقال : فلان الراعى . قال : فلا ادرى اهـو فـى الانسان أصل أم استعـارة ، وقال الاصمعى : لم نسمع به لغير الانسان الا فى شعر ابن احمر ، ومعنى هـذا ان الاصمعى قد سمع (البابوس) لولد الانسان . وقيل : هو اسم للرضيع من أى نوع كان واختلف فى عربيته . (3)

---

(1) يذبل : جبل فى نجد ، وقال ابو زياد : يذبل جبل لباهلة وله ذكر فى شعرهم . والقعاقع : جمع قعقاع للمكان اذا كان بعيدا والسير فيه متعبا ، وربما قصد ان ابن احمر عاش فـى مكان لا يسهـل الوصول اليه والخروج منه فاحتفظ فيه بالعربية الفصيحة لعـدم المخالطة ـ وقال البكرى : هما جبلان لباهلة التنبيه 60

(2) رواية الخصائص (كما تطاير عن مأنوسة الشرر) 2 : 23

(3) مادة ب ب س فى اللسان

وفى شعر لابن أحمر يذكر فيه البقرة يقول :

وبنس عنهـا فرقد خصر

اى تأخر ــ فقال ابن قتيبة ، ولا يعـرف التبنيس ــ وشرحها ابـن منظور بمعنى التأخير محتجا لذلـك بقول ابـن احمـر المذكور ، وقال الاصمعى : هى أحد الالفاظ التى انفرد بها ابن احمر ، وكذلك قال شمر : لم اسمع بنس اذا تأخر الا لابن أحمر •

ويبدو ان للكلمة أصل عربى قريب مـن معنى التأخير ، لا يغير مـن ذلك عدم سماع الاصمعى لهذا اللفظ الا لابن أحمر ، وأن شمرا تبعه فى ذلك ، فقد أورد صاحب اللسان حديث عمر رضى الله عنـه (بنسوا عـن البيوت لا تطم امرأة ولا صبى يسمع كلامكم) أى تأخروا لئلا يسمعوا ما يستضرون به من الرفث الجارى بينكم ، كذلك حكى ابن منظور عن كراع فعل الامر من هـذه المادة بنس بمعنى اقعـد ، وكذلك رواهـا اللحيانى بالسين والشين بمعنى القعود • (1)

وفسر ابن قتيبة (الأرنة) بأنه ما لف على الرأس ، وقال : ولا يعرف ذلك فى غير شعره أى شعر ابن احمر فى قوله :

وتقنـع الحربـاء أرنتـه
متشاوسا لوريـده نقـر (2)

ومن الكلمات التى انفرد بها ابن احمر (الجبر) بمعنى الملك فى قوله:

---

(1) اللسان ب ن س

(2) اللسان ا ر ن

اسلـم براووق حُبيت بـــه
وانعم صباحا ايها الجبـر (1)

ومنها : (كأس رنوناة) أى دائمة فى قوله :
بنت عليـه الملـك أطنابهـــا
كأس رنونـاة وطـرف طمـر

ومنها (الديدبون) بمعنى اللهو فى قوله :
خلـوا طريـق الديدبون وقـد
فات الصبا وتنوزع الفخـر (2)

وفى معنى أخذ الشىء كله أخذه بزوبره ، أنشد يعقوب لابن أحمر :
وان قال غاو مـن تنوخ قصيدة
بها جرب عدت علىّ بزوبرا (3)

وأنت ترى بسبب البقعة التى عاش فيها ابن أحمر ، واكتسب بسببها ثقة الرواة لم يتجه اللغويون الى انكار ما ورد فى شعره حتى ولو لم يسمع من غيره ، بل ذهب ابن جنى يعلل لتوثيق ابن أحمر بأنه ربما اخـذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك فى سماع ذلك منه واما ان يكون شيئا ارتجله ابن أحمر (فان الاعرابى اذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد) . (4)

---

(1) الخصائص 2 : 21
(2) الخصائص 2 : 22
(3) امالى القالى 1 : 244
(4) الخصائص 2 : 24 — 25

وقد نسب الى رؤبة وأبيه انهما كانا يرتجلان ألفاظـا لم يسمعاها ولا سبقا اليها ، وكانت حجة الفرزدق فى خصومته مع ابـن ابى اسحق أنـه أعرابى عليه ان يقول وعلى الآخرين أن يقعدوا ، كل ما فـى الامر ان ابن احمر ، ورؤبة وأباه قد ارتجلوا أصولا وارتجل الفرزدق صيغا أو كابر فى تبديل الصيغ المسموعة استنادا الى اعرابيته ، كل أولئك متقبل فى نظر ابن جنى الا أن يأباه قياس العربية • والرأى عندى مختلف فلقـد كان يشفع لابن أحمر هذه البقعة التى عاش فيها فى يذبل والقعاقع اما الفرزدق ورؤبة فقد تغشاهما شوب الحواضر •

امية بن ابى الصلت

والرواة عندما يذكرون ابن احمر ويكتفون بقولهم ان بعض الالفاظ التى صدرت عنه لم تصدر عن غيره دون تشكيك فى صحتها فانهم وقفوا متشككين أمام الفاظ صدرت عن امية بن أبى الصلت وقالوا فى وضوح : (كان أمية بن ابى الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل الاول ، فكان يأتى فى شعره بأشياء لا تعرفها العرب) فمنها قوله :

قمر وساهور يسل ويغمد

وكان يسمى الله عز وجل فى شعره (السليطط) فقال :

هو السليطط فوق الارض مقتدر

وسماه فى موضع آخر (التغرور) فقال : (وأيده التغرور) •

قال ابن قتيبة : وعلماؤنا لا يحتجون بشىء من شعره لهذه العلة (1)

(1) الاغانى 4 : 121

ويقول فى كتاب الشعر والشعراء : وهذه أشياء منكرة وعلماؤنا لا يرون شعره حجة فى اللغة . (1)

والفرق بين ابن أحمر وبين أمية لا يأتى من جهة الفصاحة فكلاهما نشأ فى بيئة فصيحة ، وكان أمية فى نظر أبى عبيدة من أشعر أهل المدن ويقول فى هذا (اتفقت العرب على ان اشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وان أشعر ثقيف أمية بن أبى الصلت) (2) ولكن يبدو أن الرواة لم يحتجوا بشعر أمية ، أو أن كثرة منهم كانت كذلك بسبب لا يتصل بالفصاحة ، ولا بسبب سفره الى الشام ولكن بسبب الغيبيات التى يأتى بها المتنبئون ، فمثل هذه الغيبيات قد تلقى قبولا من الناس قال الكميت : أمية أشعر الناس قال كما قلنا ولم نقل كما قال (3) وقال الحجاج وهو ثقفى مثله: (ذهب قوم يعرفون شعر امية وكذلك اندراس الكلام) (4) ـ وقد تقابل بالرفض والاستنكار ، وكان أمية قد نظر فى الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبدا ، وكان ممن ذكر ابرهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر ، وشك فى الاوثان والتمس الدين وطمع فى النبوة (5) ولكنه كان يأتى أيضا بما يأتيه السحرة والكهان من الافعال الغريبة ، فلقد زعموا انه كان جالسا فى قوم فمرت بهم غنم فثغت منها شاة فقال للقوم : هل تدرون ما قالت الشاة ؟ قالوا : لا . قال : انها قالت لسخلتها : مرّى لا يجىء الذئب فيأكلك كما أكل أختك عام أول فى هذا الموضع فقام بعض القوم الى الراعى فقال له : أخبرنى عن هذه الشاة التي ثغت ، ألها سخلة ؟ فقال: نعم ، هذه سخلتها . قال : أكانت لها عام أول سخلة ؟ قال : نعم ، وأكلها

(1) الشعر والشعراء 1 : 431
(2) الاغانى 4 : 122
(3) الاغانى 4 : 122
(4) الاغانى 4 : 123
(5) الاغانى 4 : 122

الذئب فى هذا الموضع (1) الى غير ذلك من أفعال على هذه الشاكلة رواها ابو الفرج فى كتاب الاغانى وهو يترجم لأمية ، واذا كان الرواة يأخذون عن الاطفال والمجانين لعلمهم انما يصدرون عـن فطـرة وسليقة لا يشوبها تعمل ، فان من حقهم أن يرفضوا الأخذ عن متنبىء يأتـى بالغيبيات عـن اغراب متعمد لا عن فطرة وسليقة . والمحاولات التى بذلها اللغويون بشأن هذه الألفاظ التى شابت شعر أمية لم تكشف الا عن شكوكهم فيها ، فقد جاء ابن منظور بشعر أمية فى مادة س ل ط وقال : والفعل سلط ، سلاطة وسئل بقول أمية :

ان الانـام رعايـا اللـه كلهـم
هو السليطط فوق الارض مستطر

وحاول ابن جنى أن يجد له مخرجا ونحن نعلم انـه صاحب الابتكار الواسع الذى أطلق عليه «الاشتقاق الاكبر» وأداره على الاوزان والأقيسة فلم يجد له قياسا ، قال ابن جنى فى البيت السابق : هو القاهر من السلاطة وروى السَّليطَط (بتشديد السين وفتحها ، وفتـح الطـاء الاولى) ثم قال : وكلاهما شاذ .

وفى التهذيب ، يقول الازهرى : سليطط جاء فـى شعر أمية بمعنى السلط . ولا ادرى ما حقيقته . (2)

ومع هذه الاعتبارات فقد احتج ابـن جنى بشعر أميـة فـى كتاب المحتسب . (3)

---

(1) الاغانى 4 : 125

(2) اللسان مادة س ل ط

(3) انظر المحتسب فى القراءات الشاذة لابن جنى 1 : 366 ، 2 : 288

شعراء إسلاميون

وفى عصر الاحتجاج الذى اتفق عليه أكثر الرواة ، وهو نهاية القرن الثانى ، كثير من الشعراء مشهود لهم بالفصاحة ، ووقف عندهم الرواة مترددين •

من هؤلاء بشار بن برد ، وكان الاصمعى يضعه فى مقارنة مع الاعشى والنابغة الذبيانى (1) وكان الرجل حقيقة يملك حسا دقيقا يدرك به خصائص الشعر الجاهلى ، ويحكى ذلك أبو عبيدة معجبا بـه فيقول : سمعت بشارا يقول وقد أنشد فى شعر الاعشى :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت

من الحوادث الا الشيب والصلعا

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الاعشى ، فعجبت لذلك ، فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند يونس فقال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الاعشى •••• فجعلت حينئذ ازداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر • (2)

وكانت جلة الرواة تعظم بشارا ، وتدهش لمجيئه بالغريب فى شعره والذى لا يفطن اليه الا خلص الأعراب ، ويقول الاصمعى : كنت أشهد خلف بن أبى عمرو بن العلاء ، وخلفا الأحمر يأتيان بشارا ويسلمان عليه بغاية التعظيم ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما

---

(1) الاغانى 3 : 149 ط دار الكتب

(2) الاغانى 3 : 143 — 144

ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الظهر ثم ينصرفان عنه فأتياه يوما فقالا له : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى سلم بن قتيبة ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك اكثرت فيهـا مـن الغريب فقال نعم ، بلغنى أن سلما يتباصر بالغريب فأحببت ان اورد عليـه مالا يعرفه . قالا : فأنشدناها فأنشدهما :

بكـرا صاحبى قبـل الهجـير

ان ذاك النجـاح فـى التبكـير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان (ان ذاك النجاح) (بكرا فالنجاح فى التبكير) كان أحسن ، فقـال بشار : بنيتهـا أعرابية وحشية فقلت كما يقول الأعراب البدويون . (1)

وحدث أحمد بن المبارك قال : حدثنى أبى قال : قلت لبشار ، ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيـه شيئا استنكرته العرب مـن ألفاظهم وشُكّ فيه ، وانه ليس فى شعرك ما يُشَك فيه .

قال : ومن أين يأتينى الخطأ ، ولدت ها هنـا ، ونشأت فـى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت فأبديت الى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ (2)

ولبشار ألفاظ وحشية كأنها صدرت عـن أجلاف الأعراب ، فكـان الرواة يقصدون شيوخهم يسألونهم عنها ، كان بشار كثير الولوع بديسم

---

(1) الاغانى 3 : 189 — 190

(2) الاغانى 3 : 149 — 150

العنزى وكان صديقا له وهو مع ذلك يكثر هجاءه ، قال فيه يوما :

أديسم يابن الذئب من نجل زارع
أتروى هجائـي سادرا غير مقصر

قال أبو حاتم : فأنشدت أبا زيد هذا البيت وسألته مـا يقول فيـه فقال : لمن هذا الشعر ؟ فقال : لبشار يقول فى ديسم العنزى فقال : قاتله الله ، ما أعلمه بكلام العرب ! ثم قال : الديسم : ولد الذئب مـن الكلبة ، ويقال للكلاب اولاد زارع • (1)

الا أن للرجل وجوها أخرى ربما كانت هى السبب فى توقف أوائل الرواة عن الاحتجاج بشعره ولعل على رأسها :

ـ اسرافه الشديد فى الشعوبية •

ـ انطلاقه فى القياس •

ـ وتأخر أيامه فى نظر أوائل الرواة •

اما اسرافه فى الشعوبية ، فقد سبق أن أوضحنا جانبا منـه ، ولكن لم يصرح أحد من الرواة فى شعوبيته ما يجنح به الى الزيف فى الرواية ، الا أن تكون قد تركت اثرها فـى نفوس العـرب فعـزف رواتهم عـن الاحتجاج بشعره •

ولكنهم أخذوا عليه تطرفه فى القياس واتيانه بموازين لم تصدر عن العرب ، ذكر ذلك ابو حاتم فقال : طعن الاخفش على شعر بشار قوله :

---

(1) الاغانى 3 : 152

فالآن أقصر عـن سمية باطلـى
وأشار بالوجلى علـىّ مشـير

وقولـه :

على الغزلى منـى السلام فربما
لهوت بها فـى ظل مرؤومة زهر

وقوله فى صفة سفينة :

تلاعب نينـان البحـور وربما
رأين نفوس القوم من جريها تجرى

وقال : لم يسمع من الوجل والغزل فعلى، ولم أسمع بنون ونينان (1) وقال غير أبى حاتم انما بلغه أن سيبويه عاب هـذه الأحرف فهجـاه بشار فكان سيبويه يتقيه ويحتج بشعره ! وهذا الكلام ادعاء ضعيف ، وقد أجاز ابن منظور فى اللسان جمع نون على ننان قائلا : (وأصله نونـان فقلبت الواو ياء لكسرة النون) وقال : وفـى حديث على عليـه السلام (يعلـم اختلاف النينان فى البحار العامرات) واعتراض الاخفش قائم على أنـه لم يسمع بنون ونينان ، وعدم وصول اللفظ الى سمع الاخفش لا يقطع بخطئه ولهذا ــ فيما نعتقد ــ ان صحت الرواية طلب بشار مواجهة الاخفش مهددا له قائلا (ويلى على القصارين ! متى كانت الفصاحة فى بيوت القصارين ، دعوني واياه) (2)

ولكن يبدو أن السبب الثالث فى نظر قدامى الرواة كـان هو المانع الحقيقي من الاحتجاج بشعر بشار ولقد صدر هـذا فى تصريح للاصمعى

(1) الاغانى 3 : 209
(2) الاغانى 3 : 209

يقول فيه : (بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم)(1) •

ابو نواس

وكان ابو علي الحسن بن هانيء من الذين نشأوا نشأة علمية دينية ، فقد نشأ بالبصرة ، واختلف في طلب الحديث ، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي ، واختلف الى أبي زيد النحوي فكتب عنه الغريب والألفاظ . وحفظ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ونظر في نحو سيبويه •

ولقد تسلح بالرواية الغزيرة للشعر ، وهو يحكي بعض ذلك فيقول : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء ، وليلى فما ظنك بالرجال !؟ (2)

وكانت حصيلة ذلك من اللغة ما عبر عنه ابن خالويه في شرحه لأرجوزته التي أولها :

وبلـــدة فيهـــا زَوَرْ

بقوله : لولا ما غلب عليه من الهزل لاستُشهِدَ بكلامه في كتاب الله تعالى • وقد شهد له بالسبق في العربية ابو عثمان الجاحظ فقال : ما رأيت أحدا كان اعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لهجة ، مع حلاوة ومجانبة للاستكراه (3)

ولكن • هل المجون الذي عرف عن أبي نواس هو وحده السبب في

(1) الاغاني 3 : 143 و 150
(2) تاريخ بغداد 7 : 437
(3) تاريخ بغداد 7 : 437

عدم الاحتجاج بشعره ؟ ان ابن الاعرابى يشارك ابن خالويه فى هذا الرأى ويصرح بذلك قائلا : لولا ان أبا نواس وضع نفسه بهذه الادناس والارفاث لاستشهدت بشعره ولاحتججت به ، وقال معجبا : ختمت الشعر بشعر أبي نواس فلم أدون بعده لشاعر (1) .

عبيد الله بن قيس الرقيات

وعاب يونس عبيد الله بن قيس الرقيات حين قال فى قصيدة مدح بها عبد العزيز بن مروان (أو يالغان دما) بالالف ، ثم غيرته الرواة على الوجه التالى :

ما مر يوم الا وعندهما

لحم رجال أو يولغان دما

فقال يونس : يجوز يالغان فقيل له : فقد قال ذلك ابن قيس الرقيات وهو حجازى فصيح فقال : ليس بفصيح ولا ثقة ، شغل نفسه بالشرب بتكريت (بلدة بين بغداد والموصل) (2) .

وهكذا كان أكثر ما وجه الى الشعراء يتمثل فى أنهم بعدوا عن البادية الفصيحة فشيبت السنتهم كما يقول الرواة . فالكميت جرمقانى من أهل الموصل ، وذو الرمة أكل البقل والمملوح فى حوانيت البصرة ، وابن قيس الرقيات يشرب فى تكريت .

وحيث كانت البادية الفصيحة معقل العربية تعلق بهذه البداوة بعض الشعراء والرجاز حين اشتد الطلب على العربية الموثقة ، وعمد بعضهم الى الغريب أو الاغراب امعانا فى هذه الغاية ، فأخذوا على الكميت والطرماح

---

(1) مختارات الاغانى لابن منظور 3 : 6 ط الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق عبد العليم الطحاوى

(2) الاغانى 5 : 88 ط دار الكتب

استعمال الغريب تقليدا لشعراء البادية ، وفضحهما العجاج فقال في شأنهما : كانا يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه ، فقيل له ولم ذاك ؟ قال : لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في موضعه (1) وروى مضمون الخبر عن ابنه رؤبة ، فقال فيما يحكيه الأصمعي : كان الطرماح والكميت يصيران الي فيسألاني عن الغريب فأخبرهما به فأراه بعد في أشعارهما (2)

وهذا الخبر كما رأيت ينسب مرة الى العجاج ، ومرة الى ابنه رؤبة ، يباهيان انهما يعرفان الغريب كشيء ثمين تسأل عنه الشعراء والرواة ، ويبدو انهما أوغلا في هذا الميدان وجنحا فيه الى ما يشبه التزييف والوضع فقال فيهما ابن جني : (كان قدماء أصحابنا يتعقبون رؤبة وأباه ويقولون : تهضما اللغة وولداها وتصرفا فيها غير تصرف الاقحاح فيها وذلك لايغالهما في الرجز وهو مما يضطر الى كثير من التفريع والتوليد) (3)

والقضية كما ترى تكشف عن بداية لتصنيع اللغة ، ولم يكن وزر المدعي لخف من وزر المدعى عليه ، فكلمة الغريب التي يباهي بها رؤبة وابوه لم تتحقق لها هذه الدلالة الا عند تعذر ادراك معناها ، وهي تأتي لذلك من قبل الغير لا من قبل قائلها اذ المفروض على هذا القائل انه يدرك دلالتها بدليل استعمالها ، وحينئذ لا تعد غريبة ، فالغريب كلمة يطلق عليها هذا التعبير عندما تختفي دلالتها ولا تكون كذلك عند من يدرك هذه الدلالة . (4)

---

(1) الاغاني 2 : 97

(2) الاغاني 12 : 36

(3) الخصائص 3 : 298

(4) راجع ما كتبناه عن الغريب في كتابنا (رواية اللغة) ص 89

هنات حول مبنى الشعر

الشعر أكثر فنون القول علوقا بالاذهان لوزنه وقافيته ، واتصاله بحياة العرب ، وهو بذلك أوسع الأوعية التى حملت ألفاظ العربية ، ولكنه ليس أوثقها بسبب الوزن والقافية أيضاً . ذلك ان الشاعر قد يضطر الى وضع كلمة لا تتفق تمام الاتفاق مع الدلالة المطلوبة ، فهو يختار من الكلمات التى تعنى العسل مثلا كلمة من الكلمات التى ترادفه والتى ذكرت منها كتب اللغة نحو ثمانين كلمة من بينها : الضرب ، والضَّرَبة ، والضَّريب ، والشوب ، والمذوب ، والحميت ، والشهد ، والغرب ، والصبيب ، والرضاب ، والسلاف ، والرحيق ، الى آخر ما ذكره صاحب القاموس ونقل منه السيوطى فى كتاب المزهر . وبين هذه الكلمات فروق من غير شك حتى بات نفر من علماء اللغة ينكر الترادف * ، ومجىء الشعر بها اضطرارا يغير الدلالة المقصودة احيانا .

وقد تأتى قراءة البيت من الشعر على معنى لم يرده الشاعر، فاذا أخذت الفاظه منسوبة الى لهجته أو قبيلته كانت نسبة زائفة أو قد تكون كذلك ، قرأ الاصمعى على استاذه ابى عمرو بيت الحطيئة :

وغررتنى وزعمت أنـ
ـك لابن بالصيف تامر .

اى كثير اللبن والتمر فقرأها (لا تنى بالضيف تأمُر) يريد لا تتوانى عن ضيفك تأمر القرى اليه ، فقال له أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا اشعر من الحطيئة (1) ومع سلامة هذه المسألة فانالحطيئة لم يرد هذا،

★ انظر ما كتبناه عن الترادف فى كتابنا (رواية اللغة) ص 325

(1) المزهر 2 : 355

وقد يداخل الشعر تصحيف خاطىء يدور فى الاسماع فيفسد اللغة ، فالبكرة النخيس هى بكرة من خشب قد اتسع ثقبها من الاستعمال فتوضع فيها خشيبة تلقم فى ثقب البكرة ، ظل الجوهرى صاحب الصحاح يتردد فيها أهى بحاء مهملة ام بخاء معجمة الى أن وجد أعرابيا من تميم فى نجد وهو يستقى ، وبكرته نخيس قال : فوضعت اصبعى على النخاس وقلت : ما هذا ؟ وأردت أن أتعرف منه الحاء والخاء فقال (نخاس) بخاء معجمة ، فقلت اليس قال الشاعر :

وبكرة نحاسها نحاس

فقال : ما سمعنا بهذا فى ابائنا الاولين (1)

واكثر ما يكون التصحيف فى الحروف المتشابهة فى الشكل انشد ابو عبيد القاسم بن سلام :

اشكو الى الله عيالا دردقا
مقرقمين وعجوزا شملقا

بالشين • فاشار الى ذلك ابو على القالى ، وصوب رواية ابن الاعرابى (سملقا) بالسين غير المعجمة (2) ونبه البكرى الى ان رواية ابى عبيد فى الغريب المصنف تصحيف ، والصواب بالسين المهملة (3) •

وانشد ابو على فى أماليه لرؤبة :

---

(1) المزهر 2 : 312
(2) الامالى للقالى 2 : 246
(3) التنبيه على اوهام ابى على القالى فى اماليه للبكرى| 125

أذمّـــه صياغـة وارذلـــه
أوقص يخزى الأقربين عيطلـه

وقال : والعيطل طول العنق .

فعلق البكرى بقوله : هذا وهم بين وتصحيف ظاهـر كيف يكـون (أوقص طويل العنق) وانما يخزى الاقربين عطله دون ياء اى عنقه . يريد يخزى الاقربين وقص عنقه ، والعطل : العنق (1) .

وقرىء يوما على الاصمعى فى شعر أبى ذؤيب :

باسفل ذات الدير افراد جحشها

فقال أعرابى حضر المجلس : ضل ضلالك ايها القارىء انما هى ذات الدبر وهى ثنية عندنا فأخذ الاصمعى بذلك فيما بعد (2) .

واذا احتاج الشاعر الى اقامة الوزن ربما مطـل الحركة وأنشأ عنها حرفا من جنسها كقول الفرزدق يصف سرعة ناقته فى المهاجرة :

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة
نفى الدراهيم تنقاد الصياريف (3)

وبسبب الوزن والقافية يأتـى الشاعر بما لا يجـوز فى عموم اللغة كقوله :

عجبـت والدهـر كثير عجبـه
مـن عنزى سبنى لم أضربـه

(1) التنبيه للبكرى 127
(2) المزهر 2 : 355
(3) الكامل للمبرد 2 : 491 ط الحلبى سنة 1356 هـ 1937 م

اراد لم أضربه ، فلما اسكن الهاء التى حركتها على الباء (1) ولا يجوز فى مثل هذه الحالة قياس اللغة فى عمومها علـى شعر عيب بضرورة شعرية ولذلك لم يستسغ ابن جنى قراءة أبى عبد الرحمن فى سورة الفيل (الم ترْ كيف) باسكان الراء فقال ابو الفتح : هـذا السكون انما بابه الشعر لا القرآن ، ولقد ورد فى الشعر فى مثل قول الشاعر :

قالت سليمى اشترْ لنـا سويقـا (2)

وقول الراعى :

تأبى قضاعة ان تعرفْ لكم نسبا

وابنا نزار فانتم بيضة البلد (3)

بتسكين الفاء •

ومما ورد فى الشعر ولا يجوز ان يحتذى فى عموم اللغة دخول (ال) على الفعل المضارع فى مثل قول ذى الخرق الطهوى :

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقا

الى ربنا صوت الحمار اليجدع (4)

وقول الفرزدق :

ماأنت بالحكم الترضى حكومته

وبعض الابيات التى وردت كشواهد على قضايا النحو ينظر اليهـا بشىء من الارتياب •

---

(1) الكامل للمبرد 2 : 508 ط الحلبى

(2) المحتسب لابن جنى 2 : 373

(3) الخصائص 2 : 341

(4) النوادر فى اللغة لابى زيد 16 ، 17

وقد يضطرك المنطق الى التوقف عند بعض قضايا الابدال ، وقد تضطر الى رفضها حتى فى سياق الشعر ، وبالتالى لا يجوز القياس عليها فى عموم اللغة فهذا قول علباء بن أرقم :

يا قبح الله بنى السعلات
عمرو بن يربوع شرار النات
غير اعفّاء ولا أكيات

وذكر أبو زيد فى كتاب النوادر وقال : النات : أراد الناس ، وأكيات : أراد أكياس وقال أبو الحسن (على بن سلمان الأخفش) هذا من قبيح البدل ، وانما ابدل التاء من السين لان فى السين صفيرا فاستثقله فأبدل منها التاء • وهو من قبيح الضرورة •

وهذا ــ عندى ــ شىء غير متقبل ، وانما هى ضرورة القافية التى الجأت الشاعر الى هذا المركب الصعب ، وتركت للرواة مهمة أصعب فى تقبله ومحاولة التخريج له •

وفى مثل آخر يروى عن الاصمعى قال : أنشدت الخليل بن أحمد قول السموأل :

ينفع الطيب القليل من الرز
ق ، ولا ينفع الكثير الخبيت
ولكل من رزقه ما قضى الله
ولو حك أنفه المستميت

فقال لى : ما الخبيت ؟ فقلت اراد الخبيث ، وهذه لغة لليهود يبدلون

من الثاء تاء . قال : فلم لم يقل الكثير ؟ ! فلم يكن عندى فيه شىء (1)

وقد يضطر الشاعر ـ بسبب الوزن والقافية ـ الى الزيادة والنقص ، ولا يصح القياس على ذلك فى عموم اللغة . انظر قول قعنب :

مهلا اعاذل قد جربت من خلقى

انى اجود لأقـوام وان ضننوا

وانما الكلام ضنوا

وقول ابى النجم الراجز :

الحمد للـه العلـى الاجلل

والصحيح العلى الاجل (2)

ولا يصح فـى عموم اللغة حذف النون مـن ليتنـى ؛ ولا احسب الشاهد الذى جاء به سيبويه فى هذا السياق الا مصنوعا :

كمنية جابـر اذ قـال ليتـى

اصادقـه وافقد بعـض مالـى

وفى جموع التكسير ما جاء به الشاعر لتستقيم القافية والوزن ثـم ترك النحاة يعللون له على استكراه فى اكثر الاحايين . نسب الى ابـى كبير الهذلى :

لو كان فى قلبى كقدر قلامـة

حبا لغيرك قد اتاهـا أرسلـى

---

(1) النوادر فى اللغة 104 .

(2) الموشح للمرزبانى 94 ط السلفية 1343 وانظر تنبيه البكرى عـلى امالى القالى 70 والخصائص 2 : 437 وما بعدها

قال ابن جنى : كسر رسولا وهو مذكر على ارسل وهو من تكسير المؤنث ، كأتان وآتن . وعناق واعنق ، وعقاب واعقب لما كان الرسول هنا انما يراد به المرأة لانها فى غالب الامر مما يستخدم فى هذا الباب (1) .

وهذا تعليل لغوى لا أحسب الشاعر اراده وحدد رسله بالنساء ، ولكنها القافية قد الزمته هذا المركب الصعب . ومن جموع التكسير التى وردت فى الشعر ودار حولها الاختلاف، قول الهذلى :

علـى أطرقـا باليـات الخيـا
م ، الا الثمـام والا العصـي

فهل خطر على بالك ان (اطرقا) جمع طريق ؟ ان اللغويين انفسهم لم يتفقوا على هذا . قال ياقوت : وللنحويين كلام لهم فيه صناعة ، قال ابو الفتح : ويروى على أطرقا (فعلا) فعل ماض ، واطرقا : جمع طريق فمن انث الطريق جمعه على أطرق مثل عناق واعنق ، ومن ذكر جمعه على أطرقاء كصديق وأصدقاء فيكون قد قصره ضرورة .

وهذا تخريج لم يقل به كثير من اللغويين فهو عند ابى عمرو : بلد بعينه من فعل الامر ، وفيه ضمير علامته الألف كأن سالكه سمع نبوة فقال لصاحبيه : أطرقا وقال الاصمعى : كان ثلاثة نفر بهذا المكان فسمعوا أصواتا فقال أحدهم لصاحبيه اطرقا ، فسمى بذلك وانشد البيت .... وقال عبد الله بن أبى امية بن المغيرة المخزومى يخاطب بنى كعب بن عمرو بن خزاعة وكان يطالبهم بدم الوليد بن المغيرة أبى خالد بن الوليد لأنه مر برجل منهم يصلح سهاما فعثر بسهم منها فجرحه فانتقض عليه فمات .

---

(1) الخصائص 2 : 416

انـــى زعيم أن تسيروا وتهربوا

وان تتركوا الظهران تعوى ثعالبه

وان تتركوا ماء بجزعة أطرقـــا

وأن تسلكوا أى الأراك أطاسه

وانـــا اناس لا تطـــل دماؤنـــا

ولا يتعالى صاعدا من نحاربـــه

وقالوا فى تفسير هذا : الجزعة ، والجزع بمعنى واحد ، وهو معظم الوادى ...... وقال ابن الأعرابى : هو ما انثني منه ، وأطرقا اسم علـــم لموضع بعينه سمى بفعل الأمر كما قدمنا ، وهذا يؤذن بأن اطرقا موضـــع من نواحى مكة ، لان الظهران هناك ، وهى منازل كعب بن خزاعة فيكون أطرقا من منازلهم بتلك النواحى ، وهى منازل هذيل ايضا (1)

وأنشد عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير قصيدة فيهـــا « الارياح » و « الامطار » فقال له ابو حاتم السجستانى : هـــذا لا يجوز ، انما هـــو الارواح فقال : لقد جذبنى اليها طبعى ، فقال له ابو حاتم : قد اعترضـــه علمى . فقال : اما تسمع قولهم رياح . فقال له أبـــو حاتم : هذا خـــلاف ذلك . قال صدقت (2)

وقال ابو منصور الازهرى : الريـــح : ياؤهـــا واو ، صيرت يـــاء لانكسار ما قبلها ، وتصغيرها رويحة ، وجمعها رياح وارواح (3)

---

(1) معجم البلدان 1 : 286

(2) الاغانى 20 : 185

(3) اللسان ر و ح

ومن الفرائد التي وردت في الشعر ولا تجد لها مثيلا في عموم اللغة دخول الواو والنون على (من) في مثل قول الشاعر :

أتوا ناري فقلت منــون أنتم ؟

فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما (1)

ومن عيوب الشعر في المجال اللغوي جرأة الشاعر وتوهمه ان مراده معروف للسامع فيقدم مــا لا يجوز تقديمه ، ويفصل مــا لا يجوز فصله ويؤخر ما هو اولى بالتقديم • لقد اراد الشاعر مثلا ان يقول (فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها) فقال :

فأصبحت بعــد خط بهجتهــا

كــأن قفــرا رسومهــا قلمــا

عرض ابن جني لهذا القبح وقال : ففصل بين المضاف الــذي هــو (بعد) والمضاف اليه الذي هو (بهجتها) بالفعل الذي هو (خط)

وفصل ايضا بخط بين (اصبحت) وخبرها الذي هو (قفرا) •

وفصل بين كأن واسمها الذي هو (قلما) بأجنبيين أحدهمــا قفرا ، والآخر رسومها ••••• وأغلظ من ذا انه قدم خبر كأن عليها وهو قوله : خط ، فهذا ونحوه مما لا يجوز لأحد قياس عليه (2)

ومن الذي يستطيع ازالة الابهام في البيت التالي :

---

(1) الخصائص 1 : 129 وفي نوادر ابي زيد ص 123
أتوا ناري فقلت : منون ؟ قالوا سراة الجن قلت : عموا ظلاما

(2) الخصائص 2 : 393

كـأن بـرذون أبـا عصـام
زيـد حمـار دق بـاللجـام

الا بعد التنبيه الـي أن همزة (أبا عصام) للمنادي يريـد : كـان برذون زيد ..... يا أبا عصام (1) .

ومن ذلك قول ذي الرمة :

كأن أصوات مـن ايغالهن بنـا
أواخر الميس أصوات الفراريج (2)

اي كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من ايغالهن بنا .

الوضع

ومن آفات الشعر أيضا هوانه وسهولة مركبه عند حذاق الروايـة يقولون عفو خاطرهـم وينسبونه بعد ذلـك لمـن شاءوا تحـت ظروف واغراض تبدو احيانا وتغمض احيانـا فرجل مثل حمـاد الرواية يـروى للجاهليين ، ولخلص البدو فلا يملك الرواة امام صنعته الدقيقة الا التسليم بما يقول ، أشار اليه المفضل الضبى فقال : قد سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يصلح ابدا ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى رواية ام يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فان أهل العلم يردون مـن أخطـأ الـى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغـات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجـل ويدخله فـى شعره ، ويحمل ذلك عنه فـى الآفاق فتختلط أشعار القدمـاء ولا يتميز الصحيح

(1) الخصائص 2 : 404
(2) الخصائص 2 : 405

منها الا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ ! (1)

ولأبى عمرو بن العلاء ــ وهو عالم ثقة ــ قضية فى الوضع لم أعرف دوافعه اليها ، ذكر أبو عبيدة أنه أنشد شعر الأعشى

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت
من الحوادث الا الشيب والصلعا

فأنكره ، وقال هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الاعشى . قال أبو عبيدة : فعجب لذلك ، فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند يونس فقال : حدثنى ابو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الاعشى (2)

واذا كنا لا ندرى وجهة أبى عمرو فى البيت الذى ينسبه للاعشى ، فان استكراه الحكم على الهوى فى القصة التالية شىء كنا ننزه عنه شيخ الرواة وأشدهم تحرجا وأكثرهم نسكا . كتب صاحب طبقات فحول الشعراء :

(حدثنى ابو الغراف قال : دخل ذو الرمة على بلال بن أبى بردة ، وكان بلال راوية فصيحا أديبا ، فأنشد بلال ابيات حاتم طىء :

لحا اللــه صعلوكا منــاه وهمه
من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

يرى الخمس تعذيبا ، وان يلق شعبة
يبت قلبه من قلة الهم مبهمــا

---

(1) معجم الادباء 10 : 265 — 266

(2) الاغانى 3 : 143 ومجاز القرآن لابى عبيدة 1 : 293

فقال ذو الرمة : يرى الخمص تعذيبا ، وانما الخمس للأبل ، وانما هو خمص البطون فضحك بلال ، وكان محكا وقال : هكذا أنشدنيها رواة طيء •

فرد عليه ذو الرمة • فضحك • فدخل ابو عمرو بن العلاء فقال له بلال :

· كيف تنشدهما ؟

وعرف أبو عمرو الذى به فقال : كلا الوجهين

فقال : أتأخذون عن ذى الرمة ؟

قال : انه لفصيح ، وانا لنأخذ عنه بتمريض • وخرجامن عنده

فقال ذو الرمة لأبى عمرو : والله ، لولا أنى أعلمك خططت فى حبله وقلت فى هواه لهجوتك هجوا لا يقعد اليك معه اثنان (1) •

وكما كان حماد فى الكوفة يقول الشعر وينسبه لمن شاء بلغات العرب وأشعارها كان خلف الاحمر فى البصرة كذلك ، وبلغ من حذقه واقتداره اذ يشبه شعره بشعراء القدماء حتى يغمض ذلك على جلة الرواة ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم (2)

ولا أحسب أن حمادا وأبا عمرو بن العلاء وخلفا الاحمر قد تعمدوا افساد اللغة العربية أو جنحوا الى خلق شواهد تعين النحاة على ما هم

---

(1) طبقات فحول الشعراء 483 — 484 — الخمس ان تشرب الابل يوم وردها ثم تظل فى مرعاها ثلاثة ايام تعود بعدها — وخمص البطون = ضمر البطون . بتمريض اى على وهن

(2) ذكر القفطى امثلة عديدة . انظر انباه الرواة 1 : 348 وانظر ايضا معجم الادباء 11 : 68 وامالى القالى 1 : 156

بسبيله من تقعيد العربية ولكن قد داخل اللغة حين جد النحاة فـي طلب الشاهد والمثل فوضعوه ، أو وجدوا من يضعه لهم ، مـن ذلك مـا أشيع عن المفضل انه قال : أنشدني أبو الغول لبعض اليمن :

أي قلـوص راكـب تراهـا
طـاروا عليهـن فشل علاهـا

علاها : اراد عليها

قال : ولغة بني الحارث بـن كعب قلب اليـاء الساكنة اذا انفتح ما قبلها الفا ، فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبـان ، والسـلام علاكم . قال أبو حاتم : سألت عـن هذه الأبيات أباعبيدة فقـال : انقط عليه ، هذا صنعه المفضل . (1)

وأنشد سيبويه لعبد الرحمن بن حسان :

من يفعل الحسنات الله يشكرها
والشر بالشر عنـد اللـه سيان

في الاضطرار لحذف الفاء في جواب الامـر ، وانشدها الاصمعي :

من يفعل الخير فالرحمن يشكره

فلما سئل عن الرواية الاولى قال : ان النحويين صنعوها . (2)

وقال البكري في التنبيه (انشد اللغويون في سوى بمعنى قصد)

---

(1) النوادر في اللغة لابي زيد 58
(2) سيبويه (الكتاب) 1 : 435 ونوادر اللغة 31 — 32

فلأصرفن سوى حذيفة مدحتى
لفتى العشى وفارس الاجـراف

وقال : وانا اشهد ان قائل هذا البيت انما قال :

فلأصرفن الى حذيفة مدحتى (1)

وقال ابو حسن الاخفش : سألنـى سيبويه عن تعـدى (فَعِل") فوضعت له :

حَذِرٌ" أمورا لا تضير وآمـن
ما ليس منجيه من الأقدار (2)

اصبح الرمى بالافتعال يوجه الـى المشتغلين بالنحو واللغـه ، ودار حول هذا الموضوع (وضع) جديد . روى المفجع البصرى قال : كـان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها ، فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لها لننظر ماذا يجيب ، وكنا قبل ذلك قد تمارينا فـى عروض بيت الشاعر :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنـا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فقال البعض : هو من البحر الفلانى ، وقال آخرون : هو من البحر الفلانى ، فقطعناه ، وتردد على افواهنا من تقطيعه (قِ بعضنا) ثم ذهبنا

(1) التنبيه على اوهام ابى على القالى فى اماليه 67
(2) تحصيل عين الذهب من معدن جوهـر الادب فـى علم مجازات العرب . ليوسف الشنتمرى على كتاب سيبويه 1 : 58 ط بولاق و 1 : 74 ط الاعلمى بيروت

الى المبرد فقلت له : ايدك الله تعالى ما القبعض عند العرب ؟

فقال : هو القطن وفى ذلك يقول الشاعر :

كأن سنامها حشــى القبعضا

قال : فقلت لأصحابى هــو ذا ترون الجواب والشاهد فــان كــان صحيحا فهو عجب وان كان مختلقا على البديهة فهو أعجب (1)

واضطر المبرد يوما الــى اختلاق الشاهــد ، حذر الحــرج . روى البغدادى فى خزانة الادب ان ابا العباس المبرد ورد الدينور زائــرا لعيسى ابن ماهان فأول ما دخل عليه ، وقضى سلامه قال له عيسى : أيها الشيخ ، ما الشاة المجثمة ؟ التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اكل لحمها ؟

فقال : هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة .

فقال : هل من شاهد ؟

قال : نعم ، قال الراجز

لم يبق من آل الحميد نسمة
الا عــنيز لجبــة مجثمــة

فاذا الحاجب يستأذن لابى حنيفة الدينورى فلما دخل عليه قال : ايها الشيخ ، ما الشاة المجثمة التى نهينا عن أكل لحمها ؟

فقال : هى التى جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها

فقال : كيف تقول وهذا شيخ أهل العراق يقول : هــى مثل اللجبة وانشده الشعر

---

(1) معجم الادباء 19 : 112 — 113

فقال ابو حنيفة : ايمان البيعة تلزم ابا حنيفة ان كان هـــذا التفسير سمعه هذا الشيخ او قرأه ، وان كان الشعر الا لساعته هذه .

فقال أبو العباس : صدق الشيخ فانـــى أنفت ان ارد عليـــك مـــن العراق ، وذكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه فاستحسن منه هذا الاقرار . (1)

وبعد . فاذا كان عيسي بن ماهان قد سر لاقرار المبرد ، فانه لا يسرنا ان تهتز ثقتنا فى الشعر كمصدر من مصادر العربية بعد ان رأينا علما جليـــلا كأبى العباس محمد بن يزيد المبرد يجنح الى هذا المسلك فرارا من موقف حرج — وكم من مواقف محرجة اسدل الكتمان عليهـــا ستـــاره ودارت الشواهد فى فلك العربية منسوبة لاعلامها الشوامخ .

---

(1) خزانة الادب 1 : 36 — 37

الباب الرابع

العربي والمعرب من الكلام



الفصل الأول

كلام الأعراب

مصادر العربية هى القرآن الكريم ، والشعر ، وما صدر عـــن خلص الاعراب من أنواع القول ، ولعلك تلحظ فـــى رواة اللغة أن أكثرهم مـــن القراء ، او الذين ربطوا سببهم بالقرآن عـــلى وجه مـــن الوجوه ، وأنهم وجهوا جزءا من عنايتهم الـــى الشعر تقييدا لـــه ، او بحثـــا عـــن الالفاظ والتراكيب فيه وخاصة الغريب والنادر منها .

وكلام الاعراب ، رافد ضخم فى الحقيقة ، وهـــو أنقى الروافد بعد القرآن الكريم اذا ادركه التوثيق وسلم من شوب الرواية ، وللجاحظ فى كلام الاعراب رأى حسن اذ يقول : انه ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ، ولا ألذ فى الاسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق

للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الفصحاء ... (1)

ولكن الباحث عن مصادر العربية لا يقف عند كلام الأعراب العقلاء الفصحاء وان مازه عن غيره ، ومن حق الباحث أن يجمع كل ما صدر عن خلص الأعراب ، العقلاء وغير العقلاء ، الرجال والنساء والصبية حين يفصح كل اولئك بمنطق العربية .

فحين دعت الدواعي لرواية اللغة وجمعها تطلع الطلاب الى أصحاب هذه اللغة ، وظهرت هذه البداية اول أمرها في البصرة ، فكانوا يتلقون عن شيوخهم في المسجد الجامع ، ثم يجدون في طلب الأعراب في دروب البصرة واحيائها يستمعون منهم .

وللاعراب في هذه الحاضرة مآرب شتى ، يأتونها للبيع والشراء ، أو للجلب والميرة كما يحكي أبو عبيدة في شأن ابن داود بن متمم بن نويرة (2) او يرفعون مظالمهم الى قضاتها كما يبدو من قول امرأة لذي الرمة وقد لمحته بالبصرة :

أذو زوجة في المصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاويا

كما كان لبعضهم بيوت بها .

كان طلاب اللغة يتعلقون بهؤلاء الاعراب ، ويسلكون معهم كل مسلك لحملهم على الكلام – الى حد المشاكسة – ودار حول هذا الامر

---

(1) البيان والتبيين 1 : 145 بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون
(2) طبقات فحول الشعراء للجمحي 40 ط دار المعارف

طرف الحكايات والاخبار من ذلك قول الاصمعى : كنت أغشى بيوت الاعراب أكتب عنهم كثيرا حتى الفونى وعرفوا مرادى ، فأنا يوما مارّ بعذارى البصرة ، قالت لى امرأة ، يا أبا سعيد : ائت ذاك الشيخ فان عنده حديثا حسنا ... فسلمت عليه فرد علىّ السلام وقال : من انت ؟ قلت : أنا عبد الملك بن قريب الاصمعى ، قال : ذو يتتبع الأعراب فيكتب الفاظهم . (1).

والتقى أبو زيد بأعرابى فسأله : ما المتكأكىء ؟

قال : المتآزف .

قال : وما المتآزف ؟

قال : المحبنطى ؟

قال : وما المحبنطى ؟

قال : أنت أحمق ، ومضى . (2)

كان أبو زيد والاصمعى ـ فيما يبدو ـ فى مرحلة التحصيل ، فكانا يكتفيان بمثل هذا اللقاء العاجل وهذه الاسئلة الساذجة ، ولكن الأعراب كانوا قد احتلوا فى نفوس كبار الشيوخ منزلة جليلة ، كان شبيل ابن عزرة الضبعى الاعرابى اذا حضر مجلس أبى عمرو بن العلاء تقبله بقبول حسن ، وأنزله مكانا حسنا ، وقام له وقدم له لبد بغلته ليجلس عليه (3) وكان شبيل هذا يعرف عند علماء العربية بصاحب الغريب . (4)

---

(1) المزهر 2 : 308
(2) نزهة الالبا 174
(3) طبقات الزبيدى 49
(4) الحيوان للجاحظ 1 : 313 بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

وسئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف فمر أعرابى محرم فأراد السائل سؤال الاعرابى ، فقال له أبو عمرو : دعنى فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، وسأله ، فقال الاعرابى : اشتقاق الاسم من فعل المسمّى. فلم يعرف من حضر ما أراد الاعرابى ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال : ذهب الى الخيلاء التى فى الخيل ، والعجب ، الا تراها تمشى العرضنة خيلاء وتكبرا ؟ (1)

وبلغ الأمر فى البصرة ــ هذه البيئة العلمية ــ أن كان يؤمها رجال من الأعراب تلتمس عندهم الفروق الدقيقة فى اللغة ، ولا يكفى لبلوغ هذه الغاية أن يكون مجرد أعرابى يتمتع بعمومية الصفة ، وانما كان منهم من يتكلم على لهجة بنى تميم ومن يتكلم بلسان الحجازيين كما يتضح ذلك من قول الاصمعى : جاء عيسى بن عمر الثقفى ونحن عند أبى عمرو بن العلاء ، فقال يا أبا عمرو : ما شىء بلغنى عنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال: بلغنى عنك أنك تجيز ليس الطيب الا المسك (بالرفع) فقال ابو عمرو : نمت يا أبا عمر وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى الا وهو ينصب وليس فى الأرض تميمى الا وهو يرفع ، ثم قال أبو عمرو : قم يا يحيى ــ يعنى اليزيدى ــ وانت يا خلف ــ يعنى خلفا الأحمر ــ فاذهبا الى أبى المهدى فانه لا يرفع ، واذهبا الى المنتجع ولقناه النصب فانه لا ينصب . فذهبا ، وسمعا من أبى المهدى بالنصب ثم أتيا المنتجع وجهدا فى النصب فلم ينصب وأبى الا الرفع . (2)

وكان أبو الوجيه العكلى ، يتحدث فى خصائص البادية ، وفى

---

(1) طبقات الزبيدى 29

(2) امالى القالى 3 : 39

صفات السحاب ، وأحوال الضباب ، والعقارب ، والقنافذ الى غير ذلك • (1)

بقيت الثقة فى الأعراب ما بقيت لهم تلك السليقة التى كان من علاماتها التزامهم بأسباب البداوة لا يشاركون فيما يأتيه الحضرى من حدبث مخافة أن يدور فى مسامعهم أو يجرى على ألسنتهم ، وهم ان اضطروا الى المكث فى الحواضر تعجلوا العودة الى البادية حفاظا على السنتهم ان يدركها الشوب •

كانت تهمة ذى الرمة لدى الأصمعى أنه ـــ أكل البقل والمملوح فى حوانيت البصرة ، وعند أبى عمرو بن العلاء أنه رآه فى دكان طحان بالبصرة يكتب ، قال : ما هذا يا ذا الرمة ؟ فقال : اكتم على يا أبا عمرو • ولما قال ذو الرمة :

كأنما عينها منها وقد ضمرت
وضمها السير فى بعض الأضى ميم

قيل له : من أين عرفت الميم !؟

فقال : والله ما أعرفها ، الا أنى رأيت معلما خرج الى البادية فكتب حرفا فسألته عنه فقال : هذا الميم ، فشبهت به عين الناقة • (2)

كأن معرفته لحرف الميم ـــ ومعرفة الكتابة وجه شائع فى الحضر ـــ ينتقص من بداوته •

---

(1) الحيوان الجاحظ 4 : 194
(2) الخصائص 3 : 296

أحس الأعراب أن صفة البداوة يمكن أن تكون سببا فــي التماس الرزق ، او مجلبة للاحترام فــي الحاضرة ، فأضاف الاعرابى مهمة الرواية الى مآربه عندما يحضر البصرة ، وحام حــول حلقات العلم ، وشاعت لهم فى هذا السياق صور طريفة اليك بعضها :

وقف أعرابى على حلقة أبى زيد فظنه جاء يسأل عن شىء فــي النحو فقال : سل يا أعرابى حاجتك ، فقال على البديهة :

لسْــت للنحــو جئتكــم
لا ، ولا فيــــه أرغــب
أنــا مالــى ولامــرىء
أبــد الدهـــر يضرب
خـل زيـــدا لشأنـــه
أينمــا شــاء يــذهــب
واستمــع قــول عــاشق
قــــد شجــاه التطــرب
همــه الــدهــر طفلــة
فهــو فيهــا يشبب (1)

يبدى عجبه مما يدور فى هذه الحلقة ، والامثلة التــى يــدور عليها درس النحو .

وفى مثل هذه الصورة أيضا ، وقف أعرابى علــى حلقــة الأخفش يستمع الى حديثهم فى النحو ، وأخذ يعجب مما يسمع فقال له الاخفش . ما تسمع يا أخا العرب ؟ فقال : تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس مــن كلامنا . (2)

---

(1) نزهة الالبا 178
(2) الامتاع والمؤانسة 2 : 139

وهذا أعرابى ثالث يحكى عنه أبو عثمان الاشناندانى فيقول : كنا يوما فى حلقة الأصمعى اذ أقبل أعرابى يرفل فى الخزوز فقال : أين عسيدكم ؟ فأشرنا الى الاصمعى فقال : ما معنى قول الشاعر :

لا مال الا العطاف تؤزره
أم الثلاثين وابنة الجبل
لا يرتقى النز فى ذلاذله
ولا يعدى نعليه عن بلل

قال : فضحك الاصمعى وأكمل القصيدة فأدبر الاعرابى وهو يقول : تالله ما رأيت كاليوم عضلة • (1)

وجاء الى حلقة الاصمعى أعرابى متحد متعجرف فقال : أيكم الاصمعى ؟

قال : أنا ذاك •

قال : أنت الذى يزعم هؤلاء النفر انك اثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الاعراب ؟

قال الاصمعى : فيهم من هو أعلم منى ، ومن هو دونى •

قال : أفلا تنشدوننى من شعر أهل الحضر شيئا حتى أقيسه على شعر أصحابنا ؟

---

(1) الامالى 2 : 265 قال ابن دريد : هذا يصف رجلا خائفا لجأ الى جبل وليس معه الا قوسه وسيفه ، والسيف هو العطاف (أم ثلاثين وابنة الجبل) يعنى كنانة فيها ثلاثون سهما ، وابنة الجبل : القوس لانها من نبع والنبع لا ينبت الا فى الجبال

فأنشده الأصمعي في خبر طويل . (١)

ومنهم من كان يجلس في حلقات الدرس فتجره المناسبة الى الاشتراك ، وتمضي كل حادثة بفائدتها ، قرىء يوما على الاصمعي في شعر أبي ذؤيب ، وكان الاصمعي أمثل من يشرح شعر الهذليين :

بأسفل ذات الدير أفرد جحشها (بالياء)

فقال أعرابي حضر المجلس : ضل ضلالك أيها القارىء ، انما هي ذات الدبر (بالباء) ، وهي ثنية عندنا فأخذ الاصمعي بذلك فيما بعد . (2)

تكاثر الاعراب في البصرة ، وطال مكثهم بها ، فكان لذلك رد فعل مزدوج لدى الطالبين ، ولدى الاعراب ، أما الطالبون فما لبثوا أن استبانوا لين الاعراب وتطرق الفساد الى سليقتهم ، وراحوا يضعون لهم الاسئلة ليكشفوا سقطهم ذهب منهم فريق الى أبي ضمضم الاعرابي بعد العشاء فقال لهم : ما جاء بكم يا خبثاء ؟ ، قالوا جئناك نتحدث اليك . قال : كذبتم ، بل قلتم كبر الشيخ وتبلغته السن عسى ان نأخذ عليه سقطة .

وسأل أبو عمرو بن العلاء أبا خيرة الأعرابي عن قولهم (استأصل الله عرقاتهم) فنصب أبو خيرة التاء من عرقاتهم فقال له أبو عمرو : هيهات يا أبا خيرة ، لان جلدك . ذلك ان أبا عمرو استضعف النصب لانه كان قد سمعها منه بالجر . (3)

---

(1) زهر الاداب 2 : 101
(2) المزهر 2 : 355
(3) نزهة الالبا 32 — 33

ولم تكن سليقة الاعرابى وحدهـا هـى التـى اصيبت بالاهتزاز والشوب ، بل فسدت بعض الالسنة عـن عمد وتزيـد وتمويـه ارضاء للسامعين أو مباهاة بسعة المعرفة • ولقد ضاق رؤبـة بيونس بـن حبيب فقال له : حتى متى تسألنى عن هذه الاباطيل وازوقها لك ، أما ترى الشيب قد بلغ فى رأسك ولحيتك ؟ (1)

وكشف أبو عبيدة معمر بن المثنى مسلك ابـن داود بـن متمم بن نويرة قال : اتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه فجعل يزيد فى الاشعار ويضعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم، واذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله • (2)

وشهد الاعراب على أنفسهم بالفساد أمام طلاب العربية حين اختلفوا واحتاجوا الى من يفصل بينهم فى هذا الخلف ، قال المنتجع : كمء للواحدة وكمأة للجميع ــ وقال أبو خيرة : كمأة واحدة ، وكمء للجميع مثـل ثمرة وتمر فاحتكموا الى رؤبة فقال كما قال المنتجع ــ وقال أبو زيد كمأة وكمء كما قال أبو خيرة • وقال الرياشى : سمعت أبا زيـد يقول : قال المنتجع : أغمى على المريض وقال أبو خيرة غمى عليـه فأرسلوا الـى ام أبى خيرة فقالت غمى على المريض فقال لها المنتجع : أفسدك ابنك • (3)

وما لبث الجاحظ ان استبـان ضعف الأعـراب أيضا ، وأنهـم لا يستمسكون على بداوتهم طويلا وعبر عن ذلك بقوله : كان بين زيـد بن

---

(1) طبقات فحول الشعراء للجمحى 581.

(2) طبقات فحول الشعراء للجمحى 40.

(3) الخصائص 3 : 305

كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد . (1)

وأما الاعراب — وقد أحسوا أنهم يحملون « بضاعة » تلتمس لهـا سبل « الرواج » كان عليهم أن يقنعوا الطالبين أن هذه « البضاعة » آتيـة من البادية لم تشبها شوائب العجمة فى الحاضرة لتظل لهم صفة المعلمين او صفة القضاة فى مجالس الامراء على النحو الذى قرأنا عنـه حين تناظر الاصمعى والمفضل الضبى فى منزل الامير سليمان بن على فى البصرة وقد احتكما فيها الى غلام من بنى أسد ، وحين تناظـر الكسائـى وسيبويـه واحتكما فيها الى بعض الاعراب ، وتناظر الكسائى واليزيدى فـى حضرة المهدى وحكم بينهما ابو المطوق الاعرابى ، ولم تكـن حكومتهم خالصة لوجه العلم فيما يقال .

كان من هذه المظاهر — فيما أرى — مسلك أبـى مهدية الأعرابى ، وقد صور نفسه مثالا لأجلاف الاعراب ، وأتى من الافعال ما كانت ضعفة الاعراب تفعل ، كان يعلق على ملابسه صوفا وقذرا فاذا سئـل عنها قال : أنجاس حتى يتنجس منى الموت فلا يقدر علىّ » (2) وكان اذا اراد الاذان قال : الله أكبر مرتين ، اشهد ان لا اله الا الله مرتين ثم كذلك الى آخره ، فاذا قيل له : ليست السنة كذلك انما هى : الله أكبر الله أكبر ، أشهد ان لا اله الا الله اشهد ان لا اله الا الله ، الى آخـره يقول : قـد عرفتم ان المعنى واحد والتكرار عىّ » (3) والرأى عندى انها لافتعال الخبل لا الخبل ذاته ، حتى يظن أنه لم يتحضر ثم أخذ يردد فى أجواء البصرة أنـه ثابت على لحنه ولحن آبائه ، ولـن يطوع لسانه بهـذه اللهجات التـى سادت

(١) البيان والتبيين 1 : 174 فى بعض المراجع يزيد بن كثوة
(٢) طبقات الزبيدى 175
(٣) الخصائص 2 : 466 — 467

البصرة وهبت رياحها من الفارسية من شرق العراق :

يقولون لى (شنبذة) ولست (مشنبذا)
طوال الليالى ما أقام ثبير
ولا قائلا (زوذا) ليعجل صاحبى
(وبَستان) فى صدرى على كبير
ولا تاركا لحنى لأحسن لحنهم
ولو دار صرف الدهر حيث يدور (1)

ترى كيف دارت فى مسامعه هذه الألفاظ مرتبطة بمعانيها وهو يوهم أنه لن يترك لحنه ولا لحن آبائه ليتبع لحن الآخرين •!؟

وهذا أعرابى تميمى ، يبرأ من الحضر ، ويعلن أنه وان قدم البصرة حقيقة الا أنه ليس منهم فى كثير فيقول فيما يرويه عنه أبو حاتم السجستانى :

ما أنا بالبصرة بالبصرى
ولا شبيه زيهم بزيى (2)

وحديث أم الهيثم الاعرابية ، لا يدعو الى الاطمئنان ، وأفضل أن نعرضه قبل أن نأخذ فى مناقشته • يقول عمر بن خالد العثمانى : قدمت علينا عجوز من بنى منقر تسمى أم الهيثم ، فغابت عنا ، فسأل عنها أبو عبيدة فقالوا : انها عليلة • فقال : هل لكم أن نعودها ، فجئنا ، فاستأذنا ، فقالت : لجوا • فسلمنا عليها ، فاذا هى عليها أهدام وبجد وقد طرحتها عليها فقلنا : يا أم الهيثم ، كيف تجدينك ؟

---

(1) الخصائص 1 : 239 وطبقات الزبيدى 39
(2) امالى القالى 3 : 21

قالت : كنت وحمى بالدكة ، فشهدت مأدبة ، فأكلت جبجبة ، من صفيف هلعة ، فاعترتنى زلخة .

فقلنا : يا أم الهيثم : أى شىء تقولين ؟

فقالت : أو للناس كلامان ؟ والله ما كلمتكم الا بالعربى الفصيح (1)

وجاء ذكرها فى خبر آخر ينسب الى ابى حاتم السجستانى . سألها عن حب يقال له بالفارسية اسفيوش . قالت أرنى منه حبات ، فأراها فأفكرت ساعة ثم قالت : هذه البخدق .... وقال ابن خالويه : البخدق نبت ولم يعرف الا من ام الهيثم . (2)

وفى خبر ثالث يرويه المبرد فيقول : كانت أم الهيثم من أفصح من رأيت وسمعتها تقول من كلامنا (لا ترضى الشانئة الا بجرزة) والشانئة المبغضة وهى التى لا ترضى ممن أبغضته الا باستئصال ، ومنه قيل جراز الذى يقطع كل ما يمر به ، ورجل جروز اذا قعد على الزاد فأفناه ، وأنشدنى :

كانت عجوزا خبة جروزا

تأكل فى مقعدها قفيزا

تشرب حبا ، وتبول كوزا

لا تنكحن بعدها عجوزا

كما سمعها تقول : جاء فلان يضرب أصدريه ، وأزدريه، وأسدريه ، وينفض مذرويه اى هو فارغ . (3)

---

(1) امالى القالى 3 : 69 والمزهر للسيوطى 2 : 540

(2) اللسان ب خ ق ـ ب ح د ق

(3) الفاضل للمبرد 22 — 23 بتحقيق الاستاذ عبد العزيز الميمنى ط دار الكتب 1956

وفى كلام رابع ينسب لأبى حاتم السجستانى أنه سألها : هــل تبدل العرب من الجيم ياء فى شىء من الكلام ؟ قالت : نعم وأنشدت :

اذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى
فأبعدكن اللــه من شيرات (1)

أما الخبر الأول ــ والذى تنسب روايته الى عمر بن خالد العثمانــى فانى لم اجد تعريفا بهذا الرجل فيما بين يدى من مراجــع ، ولا هــو ممن يجرى ذكرهم مع أبى عبيدة ، ولا مع أصحابه ــ وجبــات البخدق فــى الخبر الثانى لم تذكر الا عن أم الهيثم كما يحكى ابن خالويه .

والخبر الثالث ، يحتاج الى تمهل ان كانت أم الهيثم هذه هى هــى التى يحكى عنها المبرد فى كتاب الفاضل وقــد سمعها تقول (لا ترضــى الشانئة الا بجرزة) كما سمعها تقول: جاء فلان يضرب أصدريه ، وأزدريه. وأسدريه ــ فانها تكون شخصية خرافية تركب عليها الروايــات ، فلقــد كانت فى زمن أبى عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ عجوزا ، فكيف سمعها المبرد الذى ولد فى نفس السنة التى مات فيها أبو عبيدة ــ كما أن الابدال بين الزاى ، والسين ، والصاد فى (أصدريه) واخواتها ــ وتبادل الجيم والياء فى شجرات وشيرات لا يصدر عن ناطق واحد ، ولكن شــاع ذلك فــى اعقاب جمع اللغة من قبائل متعددة ، وبهذا أيضا ما كان لها أن تفهم كلمــة (الابدال) على الوجه الذى اراده علماء اللغة والنحو .

فهل هذا نسق مــن التأليف ركــب عليــه السنــد ليسهل تقبلــه واستظهاره ، وكان ابو على القالى ممن ينشطون لهذا النهج فــى أماليه ؟ أم ايهام بأعرابية أم الهيثم المغرقة فى البداوة تنفــى بهــا شبهــة التحضر

(1) المزهر | 1 : 146

مفترضين أم هيثم أخرى فى زمن المبرد ؟

الوجه الحضرى السافر للاعراب

على كل حال لم يطل الزمن حتى كشف الأعراب عن الوجه الحضرى، وبدأ الكاتب منهم يصطنع الرواية أو التعليم أو التأليف على طريقة طلاب الرواية وعلمائها فكان أبو البيداء الرياحى يعلم الصبيان بأجر (1) واستهوى العلم أبا محلم الشيبانى فسعى اليه وتناول الكتب واستظهرها بشراهة ، أشار اليه أبو فيد مؤرج السدوسى ، وقرظه لقوة حفظه فقال : استعار منى جزءا ، ورده من الغد وقد حفظه فى ليلة وكان مقداره نحو خمسين ورقه (2) وكتب أبو خيرة كتاب الحشرات (3) وكتاب الصفات (4) ثم اصطنع الوراقة (5) وكتب الحرمازى الأعرابى كتابا فى خلق الانسان (6) وترجم ابن النديم لدلامز البهلول وقال رأيت له كتاب النوادر والمصادر بخط السكرى (7) ووصف ابن النديم كتابا فى النوادر لدهمج ابن محرز وقال : رواه عنه محمد بن الحجاج بن نصر الانبارى وقال : رأيته نحو مائة وخمسين ورقة وفيه اصلاح بخط أبى عمر الزاهد (8) وكتب أبو المضرحى كتابا فى النوادر رآه ابن النديم بخط ابن ابى سعد — وعرّف بربيعة البصرى فقال : بدوى تحضر وله من الكتب كتاب ما قيل فى الحيات من الشعر والرجز ، وكتاب حنين الابل الى الأوطان (9) .

---

(1) البيان والتبيين 1 : 252

(2) الفهرست 69

(3) الفهرست

(4) ذكره احمد بن محمد الخارزنجى البشتى ضمن مصادره لكتاب التكملة . انباه الرواة 1 : 8 .

(5) الخصائص 3 : 365

(6) الفهرست 72

(7) الفهرست 71

(8) الفهرست 68

(9) الفهرست 74

واصطنع الوراقة أبو مالك عمرو بن كركرة (1) وهكذا انتهت صورة الأعراب الرواة في البصرة •

وفى الكوفة

كانت صورة الاعراب الرواة تختلف عن هذه الصورة التى رأيناها فى البصرة لسببين :

الاول : ان الجنس العربى فى البصرة كان واحدا من الأجناس العديدة التى اجتذبها مرفأ العراق ، كما أن اصطناعه لمهن وصناعات تختلف عن طبيعة العربى قد مسخت صورته البدوية ، لذلك كان ظهور الاعراب الرواة بالبصرة واضحا مميزا •

اما الكوفة — وهى وريثة الحيرة والانبار فقد كانت عربية الوجه فى مجموعها وذهب بعض المؤرخين الى انها انشئت أول أمرها ليجتمع فيها الأعراب وكانوا يقدمون على أهل هذه البلاد بالتجارات والبياعات ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب ، فاتخذوا حيرا على النجف — وبعض العرب كانت تضيق بهم المعيشةفيخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة على ثلاثة اثلاث : ثلث تنوخ وهو من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر غرب الفرات فيما بين الحيرة والانبار وما فوقها — والثلث الثانى العباد وهم الذين كانوا سكنوا الحيرة وابتنوا بها ، — والثلث الثالث الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ممن لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد الذين دانوا لأردشير (2) فكان العنصر العربى فى الكوفة عنصرا غالبا ، ومن بينهم من اشتهر امره بالفصاحة

---

(1) الفهرست 66

(2) تاريخ الطبرى 1 : 480

كأعراب أسد وتميم وأهل العالية من كنانة ، وقد عجب رجل من الكسائى أن رآه ينزل البصرة يسأل الخليل عن اللغة فقال له : (تركت اسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة وجئت الى البصرة ؟) .

الثانى : ان الرواية اللغوية لم تعمر طويـلا بالكوفة اذ نشأت الدولة العباسية بها (1) ثم انشئت بغداد لتكون عاصمة الخلافـة العباسية فانتقل اليها رجال الكوفة فى اعقاب رجال الدولـة .

ومع ذلك فأنت تسمع عن أعراب يصطنعون الروايـة ، تجدهم فـى الكوفة حينا ، وفى بغداد حينا . نعرف منهم أبا المجيب الربعى وهو مـن بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (2) وأخذ الفراء عن أبى الجراح العقيلى وأبى ثروان العكلى (3) وستجدهما أيضا فى بغـداد يشهدان مـع الكسائى على سيبويه فى المسألة الزنبورية كما روى الفراء عن أبى دثار . وروى أبو عمرو الشيبانى عـن أبى مسلم العـاصى (4) وحضـر مجلس الكسائى أعرابى وهم يتحاورون فى النحو فأعجبه ذلك ، ثم تناظروا فـى التصريف فلم يهتد الى ما يقولون ففارقهم وهو يقول :

ما زال أخذهم فى النحو يعجبنى
حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

---

(1) هرب اليها السفاح والمنصور وجماعة مـن اقاربهم بعـد ان قبض مروان بن محمد على اخيهما ابرهيم الامام فاخلى لهم ابـو سلمة الخلال دارا وكتم امرهم الى ان وصل ابـو مسلم بالجنود مـن خراسان فاشتدت به شوكة العباسيين فأعلنت الخلافة . الفخرى فى الآداب السلطانية 130

(2) مجالس ثعلب 1 : 356

(3) المزهر 2 : 410

(4) الفهرست 71

بمفعل فعل ، لا طاب من كلـم
كأنه زجل الغربـان والبوم (1)

وفي بغداد

" وأستأذنك أن ننتقل فجأة ـ كواقع الحال ـ تسمع عـن الأعراب ؛ ولكن بوجه غير الوجه البدوى الذى يمنحك الطمأنينة ، تجدهم فى بغداد وقد ثارت حولهم الشكوك ، وجاء أكثرهم من الكوفة فى أعقاب الكسائى والفراء لما نالا من الحظوة فى دار الخلافة ـ كما تجد أكثرهم يكتبون ـ كان أبرز الأعراب فى بغداد يزيد بن عبد الله الحـر المعروف بأبى زيـاد الكلابى ، وفد من الكوفة فى مجاعة ونزل قطيعة العباس بن محمد فأقـام بها أربعين سنة ومات بها ، وعمل أبو زياد على شاكلة علمـاء الرواية فـى عصره ، فألف فى النوادر ، والفرق ، والابـل ، وخلق الانسان ، وكلهـا بمفقودة ـ على ما أعلم ـ واعتمـد ياقوت الحموى عـلى نوادر هـذا الأعرابى فى كتاب معجم البلدان وذكره فى مصادره فقال (••••• وأمـا الذين قصدوا ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية وهم •••• وأبو زياد الكلابى ذكر فى نوادره من ذلك صدرا صالحا وقفت على أكثره) ومـن خلال كتاب ياقوت وجدت هذا الاعرابى يخص قبيلته بنى كـلاب بالكثير من عنايته •

ومن أعراب بغداد أبو مسحل عبد الوهاب بن حريش (2) مـن بنى ربيعة •••• من بنى عامر بن صعصعة ، منازلهم فى نجد ـ نزل الكوفـة تسده فطرته بأسباب العربية ، وجلس فى حلقة الكسائى فلم ينفر كما نفـر

---

(1) معجم الادباء 13 : 193 — 194
(2) فى طبقات الزبيدى عبد الله بن حريش

زملاء له من قبل مما يدور فى هذه الحلقات من أوجه القراءات ، والنحو . والشواهد ، والتصريف بل اعجبه ما سمع فأقبل عليه ، ونحن لا نعجب أن يأخذ أبو مسحل عن الكسائى شيئا من القراءات ، أو ضروبا من النحو وأقيسة التصريف ـ ولكننا نعجب اذ نراه يروى عنه اللغة ـ انظره يقول فى (أما والله) ويسند قوله الى الكسائى :

(ويقال : أما والله ـ وهَمَا والله ـ وحَما والله ـ وَعما والله ـ وَغما والله ـ وغَرْمى والله ـ وعَرْمى والله ـ وحرمى والله ، سبع لغات حكاها الكسائى) (1) .

ولم تشر عبارة اللسان فى (أما) الا بما يلى (أما بالفتح معناها: الاستفتاح بمنزلة : ألا ، ومعناها : حقا ، وحكى بعضهم : هَمَا والله أى أما ، والهاء بدل من الهمزة .... وتكون أما تأكيدا للكلام واليمين) (2) .

ويقول ايضا : حكى لنا الكسائى أربع لغات فى الاسم : (هذا اسمُك ، وهذا سِمُك ، وسُمك ، وأُسمك . ويقال اذا ابتدأ : أُسْمٌ، واِسْمٌ ، وسُمٌ ، وسِمٌ وأنشد :

سبحان من فى كل سورة سِمُه
وسُمُه (3)

وجلس الى الفراء أيضا ، وسمع منه قوله : (سمعت ظِفْرٌ ـ وظُفْرٌ ـ وأظفور ـ وأظفورة ـ وسَطْرٌ ، وسَطَرٌ ، وأسطورة ـ حكاها يونس) (4) .

(1) نوادر ابى مسحل 52 ط دمشق سنة 1961
(2) لسان العرب 58 : 46 ط دار صادر
(3) نوادر ابى مسحل 95 (4) نوادر ابى مسحل 251

ورحل الى بغداد ، وان تعجب أن يأخذ هذا الأعرابى عـن الكسائى والفراء فعجبك لا شك أكثر عندما تعرف فى هذا الأعرابى رغبته الجامحة فى التحصيل ، وأن يروى فى سبيل ذلك عن رجل نوبى كان يقف عـلى باب الرشيد هو على بن الحسن المعروف بابن المبارك الاحمـر ، فجمـع بذلك الدراية والرواية • يقول ابن الانبارى : (كان ابو مسحل يروى عن على بن المبارك اربعين الف شاهد فى النحو ، وكان ثعلب ينـدم أن فاتـه سماعها منه) (1) •

ومن أعراب بغداد محمد بن عبد الملك الفقعسى راويـة بنى أسـد وصاحب اخبارها ــ جلس اليه الفراء ــ وكان الفقعسى من المتهمين ، مدح الفضل بن الربيع وشهد مع الكسائى حين ناظر سيبويه •

واذا كان الكسائى قد وجد من يشهد له لدنوه مـن الامراء فى دار الخلافة فلقد شهد الأعراب عليه من قبل ــ والحكم على الهوى شائع فـى سير الاعراب ــ والأعراب أشد كفـرا ونفاقـا ــ لقـد اختلف الكسائى واليزيدى فى حضرة المهدى فقال المهدى : قد اختلفتما وانتما عالمان فمـن يفصل بينكما ؟ فقال اليزيدى : فصحاء العرب المطبوعون فبعث الى أبـى المطوق الاعرابى • قال اليزيدى فعملت أبياتا الى أن يجىء؛ وكان المهدى يميل الى اخواله من اليمن فقلت :

يـا أيهـا السائلـى لأخبـره
عما بصنعاء مـن ذوى الحسب
حـمـير سـاداتها ، تقـر لهـا
بالفضل طـرا جحاجح العـرب

---

(1) طبقات الزبيدى 148

فان مــن خيرهــم وأفضلهــم
أو خيرهــم بقــة أبــو كــرب

فلما جاء أبو المطوق أنشدته الأبيات وسألته عن المسألة فوافقنى (1)

ومما رأيت ـ لا تكاد صورة الأعراب الرواة تتضح الا فى البصــرة وقد بهتت هى الأخرى عندما فسدت سليقتهم وزيفهم طلابهم ـ وتعين على طلاب العربية أن يلتمسوا الفصحى فى منازلها ، فاتجهوا أول أمرهم الــى المربد ثم طوفوا فى البادية ـ ولهذا حديث طويل .

(1) امالى الزجاجى 41 ط السعادة سنة 1324 هـ

طلب العربية من المربد والبادية

الاتجاه الى المربد

اهتزت ثقة الطالبين فى أعراب الأمصار ، ورأوا ألسنتهم قــد شيبت بآفة الحضارة ، واختلف المنتجع وأبو خيرة فى المفرد والجمــع فى كــمء وكمأة، وغمى وأغمى على المريض واحتاجوا الى من يفصل فى هذا الخلف، وشهدوا على أنفسهم بالفساد (1) فذهب الطالبون الى المربــد يلتمسون بغيتهم من أعرابهــا .

كانت المربد على مقربة من البصرة ، وهى سوق للابل ، يأتى اليهــا الأعراب ويخرج اليهم أهل البصرة يبيعون ويشترون ، فلا يكــاد يجمعهم المكان حتى تتضح الصورة التى نعرفها لاسواق الجاهلية : أعرابى جــاء ينشد ضالته ، وآخر يرتجز على بارز مــن الارض ، أو تهــدر اشــداقه بالقصيد على ظهر دابته ، وفتيان يظاهرون شاعرا من ذوى قرابتهم ، وفى المربد دارت المعركة الأدبية الكبرى ، والتى لم يشهد التاريخ الأدبى مثيلا لها ، وهى المعركة التى دارت بين جرير والفرزدق وتدخــل فيها الراعــى والاخطل وسراقة البارقى . وكان رؤبــة ينشد اشعاره وأراجيزه فيلتف حوله شباب من بنى تميم ، وكان لذى الرمة حلقــة فى المربــد ينشد فيها والناس مجتمعون اليــه (2) .

ذهب طلاب العربية الى المربد يلتقون بالاعراب ، يسمعون منهــم ، ويلحظون مخارج الحروف من أفواههم ، ومنهم من يقيد مــا يسمع مــن غريب العربية. ويشير الى ذلك عبد الملك بن قريب الاصمعى فيقول: جئت

---

(1) الخصائص 3 : 305

(2) الاغانى 16 : 114 ط ساسى

الى أبى عمرو بن العلاء فقال : من اين جئت يا أصمعى ؟ قلت من المربد ، قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فأخذ يعدو فى الدرجة قائلا : شمرت فى الغريب يا أصمعى (١) .

وفى هذا المكان ، كان تمام الجاحظ بعد أن تزود فى البصرة ، وسمع من أبى عبيدة والاصمعى وأبى زيد وأخذ الكلام عن النظام فتلقف الفصاحة شفاها بالمربد (٢) ومعنى هذا أن المربد ظلت له مكانته اللغوية الى وقت متأخر ، ونحن نعلم ان الجاحظ قد كمل تمامه فى بداية القرن الثالث ، لا يغير من هذا ان الرواة قد اخذوا سبيلهم الى البادية قبل ذلك .

الرحلة الى البادية

لم يعد طالب العربية الذى يصطنع الرواية يكتفى بالمربد ، وأعرابه فى أغلب الاحوال يمثلون بقعة من الارض قربت من الحاضرة ، وتعاقب الايام لا بد ان يترك أثره فى هذه السوق التى يؤمها فى كل يوم أخلاط من البدو والحضر ، كما أن المنافسة العلمية كانت تدفع بالطالبين الى البحث عن البادية الفصيحة ، وقد فرض عليهم هذا السعى بعض المعايير الملزمة — من ذلك أنهم أنكروا على بكر فصاحتها لاتصالها بالفرس والنبط ، كما رفضوا الاخذ عن تغلب لقربهم من حواضر العراق وتأثرهم بالفارسية . ولم يأخذوا عن قضاعة ومن بهراء بخاصة ، ولا من كلب وغسان ولخم لتأثرهم باللغات التى سادت الشام .

وقديما كانت بعض القبائل تخشى مثل هذا التأثر فكانوا يرسلون

(1) معجم البلدان 2 : 202 ، امالى القالى 3 : 182

(2) معجم الادباء 16 : 75

ابناءهم الى قبائل بعينها عرفت بالفصاحة فى حمى البادية البعيدة ؛ كـان الشافعى ـ فيما يحكى ـ يلزم هذيلا فى البادية يتعلم كلامها ويأخذ طبعها وكانت أفصح العرب (1) ، ويقول : أقمت فـى بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها (2) وكـان بهـذه الصفة أحسن مـن يروى شعر الهذليين فكان الاصمعى يقول : صححت شعر الهذليين على فتى يقال لـه محمد ابن ادريس (3) . وندم عبد الملك بن مروان ان استثنى الوليد من هذه العادة فقال : أضرّ بنا فى الوليد حبنا له فلم نلزمه البادية (4) .

بدأ البصريون سعيهم نحو البادية ، ورأى الكوفيون أثر هذا السعى فيهم فشدوا رحالهم اليها ، والغريب فـى موقف الكـوفيين ان فصحـاء القبائل كانت عندهم فى الكوفة . لقد ذهب الكسائى الى البصرة ، وجلس الى الخليل يسأله عن اللغة ، فقال له رجل يتعجب من أمره : تركت أسـد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحة وجئت الى البصرة ؟ . فقال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ قال : من بوادى الحجاز ، ونجد وتهامـة فخرج ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبرا فى الكتابة عن العرب سوى مـا حفظ (5) ومن رجال الكوفة الذين سمعوا مـن أعراب البوادى ابو عمرو الشيبانى ، فقالوا : دخل البادية ومعه دستيجان حبرا فما خرج حتى أفناهما يكتب سماعه عن العرب (6) .

---

(1) معجم الادباء 17 : 286

(2) تاريخ بغداد 2 : 63 (3) معجم الادباء 17 : 299

(4) العقد الفريد لابن عبد ربه 2 : 480 ط لجنـة التأليف والترجمـة والنشر سنة 1359 هـ ـ 1940 م

(5) انباه الرواة 2 : 257 ـ 258 ، معجم الادباء 13 : 169

(6) انباه الرواة 1 : 224

أبعدوا تاركين العراق وراءهم حتى وصلوا فى طلب العربيـــة الـــى اقصى ما يحتمله الجهد والطاقة • وبحسبنا الاصمعى نتتبعـــه فـــى بعض سفراته فى البادية كمثال على هذا السعى فى الطلب :

بين اليمامة والبصرة تجد الاصمعى فى القصيم يستنشد رجلا مـــن بنى اسد (1) وفى حمى ضرية (2) يداعب غلاما مـــن بنى أسد حتى يظفر منه بالكلام ؛ ويأخذ منه بغيته نثرا وشعرا (3) وينتقل الى بعيد فى البادية فان وجد من البيان ما ترتاح اليه النفس هوّن عليـــه متاعب السفر ومشقة الاغتراب، وان صادف غريبا من اللهجات دونه أو استظهره على أنه لون من التحصيل العلمى ، عليه أن يحيط به وهو يذكر بعض هذا :

وقف علينا أعرابى ونحن برملة اللوى فقال : رحم اللـــه امرأ تسجج أذناه كلامى ، وقدم معاذة من سوء مقامى ، فان البلاد مجدبـــة ، والحال مسغبة ، والحياء زاجر يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر يدعو الى اخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين فرحم الله امرأ أمر ببر أو دعا بخير •

قال : من أنت يرحمك الله ؟

فقال : اللهم غفرا ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب (٤) •

وفى واد موحش يعجب من عجوز قد كرهت من الدنيا بهجتها الـــى

---

(1) الامالى 1 : 170، ومادة ق ص م فى القاموس المحيط

(2) الاصمعى : الحما : حميان ، حمى ضرية وحمى الربذة ، والاولـــى اشهرها فى بادية طيىء انظر معجم البلـــدان 3 : 346 والامالـــى 1 : 66 — 67

(3) كتاب الصناعتين 10

ان تقول له : انى لآنس بالوحشة ، وأستريح الى الوحدة ..... فأتذكر من عهدت فكأنى اخاطب أعيانهم ، وأتراءى أشباحهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم ، وملاعب ولدانهم ، ومندّى أموالهم ، والله يابن أخى لقد رأيت هذا الوادى بشع اللديدين ، بأهل أدواح وقباب ، ونعم كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح يبارون الرياح ... ... انصرف راشدا رحمك الله (1) .

ويفيد من نساء بنى تميم فرائد لغوية فيقول : رأيت امرأة من بنى تميم لم ار افصح منها ، فسمعتها تدعو على أخرى وتقول : ان كنت كاذبة فحلبت قاعدة قال : رعية الغنم عندهم ضعة فانها تتمنى لها ذلك (2) .

وكان الأعراب يلغزون فى المزاح أحيانا فلا يفهم عنهم الا بدوى على شاكلتهم من ذلك ما يرويه الاصمعى فيقول : بينا أنا فى طريق مكة ومعى أصحابى اذ مر بنا أعرابى وهو يقول : من أحسّ من بعير بعنقه علاط ، وبأنفه خزامة ، تتبعه بكرتان سمراوان ، عهد العاهد به عند البئر .

قلنا : حفظ الله عليك يا هذا ، والله ما أحسسنا جملا على هذه الصفة .

قال : وجويرية من الاعراب على حوض لها تسوره ، فأعاد الكلام عليها .

فقالت : اعزب ، لا حفظ الله عليك يا فاسق .

---

(1) الامالى 2 : 6

(2) الفاضل للمبرد 114 تحقيق عبد العزيز الميمنى ط دار الكتب سنة 1375 هـ — 1956 م

فقلنا لها : ما تريدين من رجل ينشد ضالته ؟

فقالت : انما ينشد أيره وخصيتيه (١) ٠

وهو يفر من حر مكة فيذهب الى الطائف ويتفسى بها شهر رمضان (١)

ويحكى مناقشة مع اعرابية ذات جمال بمنـى وقـد رآهـا تسأل ، قال :
فقلت لها : تسألين ولك هذا الجمال :

قالت : قدر الله ، فما أصنع ؟

قلت : فمن أين معاشكم ؟

قالت : هذا الحاج ، نسقيهم ، ونغسل ثيابهم ٠

قلت : واذا ذهب الحاج فمن اين ؟

فنظرت الى وقالت : ياصلت الجبين ، لو كنا نعيش من حيث نعلـم ما عشنا (٣) ٠

وبحسبك هذه الأمثلة ، فقد عادوا بعلم غزير ، وملاحـظ دقيقـة . ومعرفة بما يحيط بالجزيرة من معالم الطبيعة ، من جبال تحفها ، ومن نبت يجود فيها ، وآخر لا يجود ، وثالث لا يكـاد حتى يخبو ، رأوا وسمعوا ما لا يقع تحت حصر ولا عـد ٠

رأوا وسمعوا عن وحوش الصحراء التى يتعرض لها المارون ، ومـن أجل هذا أسموها مفازة تيمنا بنجاة المسافر ٠

رأوا وسمعوا عن جبالها ووهادها وأوديتها وداراتها ومياهها وآبارها

---

(1) الامالى 3 : 168 (النوادر)

(2) العقد الفريد 6 : 251

(3) العقد الفريد 3 : 210

وعيونها فرصدوه وحددوه ، وقالوا : كان هنا يسكن فلان قبل فلان ، ودارت هذه القبيلة فى هذا المسار وهاجرت الثانية فجاورت بنى فلان .

سمعوا عن الانساب فاستظهروها وتتبعوها الى آجال بعيدة ، والى الآجال قبل الآجال وأمدهم النسابون وابناء النسابين بالعجب العجيب ، وكان فى قلوب الشعوبيين حفيظة من العرب فجمعوا مثالبهم يعيرونهم بها، مشافهة أول الامر وتدوينا من بعد ذلك . وكما نسبوا الناس ، نسبوا الخيول لما للخيل من مكانة عند العربى وبينوا دورها فى حروبهم وأيامهم، والسوابق منها فى مرحهم اللاهى او لهوهم المرح .

عرفوا أطعمتهم فى حنان الطبيعة وغب الغيث ، وعرفوها فى الشظف والاعسار وأدركوا أن الكرم عندهم ضرورة لا عادة ، فكريم اليوم قد تضيق به الأرض فى غد ويحمله التيه الى قرار سحيق .

عرفوا من عاداتهم هذه النار التى توقد فى عل يتهدى بها المسافر التائه ، فاذا لم يجد نارا وهام على وجهه فى هذه المفازة خلع جلبابه وأعاده مقلوبا حتى يعرف من رآه أنه يسأل الطريق .

سمعوا أناشيد الأحياءفى أسلافهم يرددون همم الفوارس وتاريخهم، وأسماء دروعهم وأسلحتهم واثر ذلك على خصومهم ، وهم فى غالب الاحيان يشيدون بهؤلاء الخصوم ، ويذكرون بأسهم ، فتعود تلك المفاخر اليهم ، لأنهم فوق الأقوياء ، وهم بذلك اولو بأس شديد .

رأوا وسمعوا هذه الوحدة الحازمة والعروة الوثقى حين تجمعهم كلمة القبيلة ويحزبهم أمر الشيخ ، فلا مخرج ولا مهرب من دستور أجمعوا عليه وارتضوه وتنادوا به ، وتناهوا عن عصيانه وخلافه — انصر أخاك ظالما أو مظلوما .

عادوا بعلم غزير ، بعضه لطبيعة الارض ، وبعضه للتاريخ ، وبعضه لمتن اللغة وأكثره للذوق اللغوى •

كان من حق أبى عمرو بن العلاء أن يقف حين أنشده الاصمعى قصيدة نسبت للمخبل السعدى مطلعها :

ذكر الرباب وذكرها سقم

فلما وصل الى قوله :

وأرى لها دارا بأغدرة الـ
سيدان لم يدرس لها رسم

قال أبو عمرو : قد رابنى هذا ، وكيف يكون هذا المخبل وأغدرة السيدان وراء كاظمة ـ وهذه ديار بكر بن وائل • ما أرى هذا الشعر الا لطرفة (١) •

ولم يستسغ الاصمعى نسبة البيتين التاليين لامرىء القيس :

لنا غنم نسوقها غزار
كأن قرون جلتها العصى
فتملأ بيتنا اقطا وسمنا
وحسبك من غنى شبع ورى

لانه كان يدرك ان امرأ القيس طالب ملك لا يكفيه شبع ورى • بل كانت حاسة الاصمعى ومعرفته بالمذاقات اللغوية ترجح نسبة البيتين للحطيئة (٢) وكان من حق الرواة ان يتوقفوا عند نسبة البيت التالى لتأبط شرا :

---

(١) انظر معجم البلدان 1 : 294

(٢) الحيوان للجاحظ 5 : 495

ان بالشعب الـذى دون سـلع
لقتيـلا دمـه مـا يطـل

لان سلعا ليس دونه شعب (١) •

وسمع الاصمعى قـول الشاعر :

فما برحت فى الناس حتى تبينت
ثقيفـا بزيزاء الاسـاة قبابهـا

فقال متعجبا : كيف تحمل الخمرة الـى ثقيف وعندهم العنب ؟! (٢) وكان يدرك الفرق بين الغدو والرواح وما الذى يستحب عمله فى كـل وقت ، ولذلك علق على قول النابغة فى وصف النعام :

مثل الاماء الغوادى تحمل الحزما

فقال : انما توصف الاماء فى هـذا الموضـع بالرواح ، لأنهن يجئن بالحطب اذا رحن (٣) •

عادوا بملاحظ دقيقة عن القبائل ، وعن اللهجات لا بأس أن نوقفك على بعضها :

ــ سمعوا خثعم وزبيد ــ أو أكثرهـا ــ يحذفون نـون (مـن) فيقولون أتيت ملمنزل •

ــ وسمعوا الامالة فى بنى أسد ، ومنهم مـن يكسر حرف المضارعة

---

(١) معجم البلدان 1 : 5
(٢) كتاب الصناعتين 71
(٣) الموشح 44

فيقول تِسمعون فى تَسمعون ، وهى مع ذلك أفصح القبائل كما يبدو فى كلام الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز : ما كلمنى رجل من بنى أسد الا تمنيت أن يمد له فى حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه • ويذكرهم يونس فيقول : ليس فى بنى أسد الا خطيب أو شاعر أو زاجر أو كاهن أو فارس (١) •

ــ ومن المنطوق عند بعض هذيل قلب الحاء عينا فى اول الكلام فيقولون « عتى حين » ويعربون الذين فيقول شاعرهم :

نحن اللذون صبحوا الصباح

وهذيل بعد هذا فى عداد القبائل الفصيحة

ــ وطيىء فصيحة ، مع قربها من جبلى أجأ وسلمى • ومن لسانها ــ أو بعضها ــ جعل الهاء بدل الألف فى الوقف ، وابدال الزاي من الصاد ، وبهذا عرف حاتم الطائى فى غير بلاده ــ فقالوا : مر حاتم بن عبد الله الطائى ببلاد عنزة فناداه أسير لهم : يا أبا سفانة : أكلنى الاسار والقمل • فقال له : ويحك ! والله لقد أسأت بى اذ نوهت بى فى غير بلاد قومى • قال : فنزل ، فشد نفسه فى مكانه فى القد ، وأطلقه حتى عرف مكانه ففدى فداء كثيرا •

وفى كلام آخر ــ أن امرأة آسره أتته والحى خلوف ببعير قد نيط ، وبشفرة فقالت له : افصده ، فقام فنحره ، فلطمته

فقال : لو غير ذات سوار لطمتنى

فقالت : أمرتك أن تفصده فنحرته

---

(١) البيان والتبيين 1 : 174

فقال : هكذا فزدى أنه ، فبذلك عرف (١) •

ـ ولحظ الفراء أن كثرة من العرب تؤنث الابهام فيرى هـذا الرأى ويقول : الاصابع اناث كلهن الا الابهام فان العرب على تأنيثها الا بنى أسد أو بعضهم فأنهم يقولون : هذا ابهام ـ والتأنيث أجود وأحب الى

ـ وكان ابن دريد معنيا بلغات اليمن فذكر مـن ذلك قدرا ملحوظا فى كتاب الجمهرة ونأمل ان نبسط القول فى ذلك عندما نتحدث عن جمع اللغة فى باب قادم ـ من ذلك ترجيحه لما تردد فيه الأصمعى مستندا الى سماعه من فصحاء جرم ، قال : (اى ابن دريد) سألت أبا حاتم عـن باع وأباع فقال : سألت الاصمعى عن هذا فقال : لا يقال أبـاع فقلت قـول الشاعر (الاجدع بن مالك الهمدانى) :

ورضيت الاء الكميت فمن يبيع

فرسا فليس جوادنـا بمبـاع

قال الاصمعى : لعلها لغة لهم ، وعقب ابن دريد بقوله : وقد سمعت جماعة من جرم فصحاء يقولون : أبعت الشىء ، فعلمت أنها لغة لهم (٢) •

ـ وكان ابو زيد شديد العنايـة بجمع اللغـات واللهجـات (٣) ، يقول : طفت فـى عليا قيس وتميم مـدة طويلة اسأل عـن فعل يفعـل لاعرف ما كان منه بالضم أولى ، وما كان منه بالكسر اولى فلم اجد لذلك قياسا ، وانما يتكلم به كل امرىء منهم على ما يستحسن ويستخف (٤) •

---

(١) الامالى 3 : 187

(٢) الجمهرة فى اللغة لابن دريد 3 : 436

(٣) تاريخ الادب العربى • بروكلمن . ترجمة الدكتور النجار 2 : 145 ط دار المعارف

(٤) المزهر 1 : 207 — 208

ونلمح فيه هذه العناية اذا نظرنا فى كتابه (النوادر فى اللغة) وفيه : قال رجل من بكر بن وائل : أخذت هـذا منه يا فتى ، ومنهما . ومنهم فكسر الاسم المضمر فى الادراج والوقف . قال : وقال : ولم أعرفه ، ولم أضربه . فكسر الهاء مع البـاء ..... وسمعت أعرابيا من أهـل العالية يقول : هو لكَه° وعليكَه° .... هـذا فى الوقف ويلقيهـا فى الادراج . وسمعت نميرا يقول : مـا أحسن وجهكَه° فـى الوقف ، ومـا أكـرم حسَبَكَه° فى الوقف ويطرحهـا فـى الادراج (١) وسمعت بعض بنـى كلاب يقول : غلام يفعة ، وبعضهم وفعـة (٢) وسمعت من بنى ضبّة (٣) او يجمل فيقول : بعض العرب (٤) .

وفاضل ابو زيد بين قبيلة وأخـرى فى درجات الفصاحـة وحـدد اختياراته فى قوله : لست أقول قالت العرب الا اذا سمعته من هؤلاء : بكر ابن هوازن ، وبنى كلاب ، وبنى هلال أو مـن عالية السافلة (نجـد)أو سافلة العالية (المدينة) وقد فصلنا هـذا الايجاز فـى كتابنا رواية اللغة ص ٨٣

ـ وكلما ذكرت جرهم ذكرت على انها افصح العرب (٥) .

ـ ولاحظ الرواة الامالة فى تميم ، وفى بعضهم عنعنة حين يقلبـون الهمزة فى الأول عينا كقول ذى الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلـة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم

---

(١) النوادر فى اللغة 171 (٢) النوادر فى اللغة 191
(٣) النوادر فى اللغة 240 (٤) الامالى للقالى 2 : 280
(٥) الكامل للمبرد 2 : 582 ط الحلبـى والفائق فـى غريب الحديث 2 : 459

اراد ان . وفى لسان بنى العنبر ، أو بلعنبر وهم من تميم بادلوا بين السين والصاد سأل يونس ، ابن أبى اسحاق ، هل يقول احد الصويق يعنى السويق ؟ قال : نعم عمرو بن تميم يقولها (١). وعن تميم وردت عامة اللغة الفصيحة ، وقر فى اذهان الكثيرين أن سلامة العربية فى نجد ، ولم يجدوا ما يعيبون به عدى بن زيد ، وأبا دؤاد الايادى الا انهما بعدا عن هذه البقعة الى مشارف العراق فقالوا : ان الفاظهما ليست بنجدية .

ــ وربما اتجه ذهن عامة المتعلمين الى ان لغة الحجاز ، وكنانة . وقريش واحدة ، ولكن الرواة بينوا كل اولئك بل فرقوا بين قريش البطاح وقريش الظواهر .

ومن الفروق التى أثارها الرواة بين الحجازية والقرشية ما لوحظ فى اختلاف القراء فى قراءة قوله تعالى (بين الصدفين) فابن كثير ، وابو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب يقرأونها بضم الصاد والدال ــ لغة قريش ــ ووافقهم اليزيدى وابن محيصين والباقون بفتحهما ــ لغة الحجاز (٢) .

اتضحت هذه الفروق بعد جمع اللغة ، وتنوع هذا الخلف فكان منه ما يتعلق بالجانب الصوتى ، كالتفخيم والترقيق والامالة ، ومنه ما يتعلق بمقدار الجهد فى النطق كالقلب والابدال وتغيير بنية اللفظ تبعا لذلك .

لاحظ أبو عبيدة أن أهل الحجاز يفخمون الكلام كله (٣) ولاحظ

---

(١) طبقات فحول الشعراء 15

(٢) اتحاف فضلاء البشر . احمد بن محمد الدمياطى الشافعى ص 356

(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى 1 : 94 (قال : أهل الحجاز يفخمون الكلام كله الا حرفا واحدا : عشرة فانهم يجزمونه ، واهل نجد يتركون التفخيم فى الكلام الا هذا الحرف فانهم يقولون عشرة بالكسر)

الرواة انهم لا ينبرون فلما شذ بعضهم عن هـذا الاصل ادركهم رد الفعل فهمزوا ما لا يهمز ، وحققوه فى نبى وبريـة فقالوا نبـىء وبريئـة وراه سيبويه رديئا (١) ولاحظ الفراء ان بعض العـرب أيضا قـد همزت مـا لا يهمز فقال : (وربما غلطت العرب فى الحرف اذا ضارعه آخر من الهمز، فيهمزون غير المهموز ـ ويقول : سمعت امرأة مـن طيىء تقول : رثـأت زوجى بأبيات ، ويقولون : لبأت بالحج ، وحلأت السويق ـ فيغلطون لأن حلأت قد يقال فى دفع العطاش من الابل ، ولبأت : ذهبت الى اللبأ الـذى يؤكل ، ورثأت زوجى : ذهبت الى رثيئة اللبن ، وذلـك اذا حلبت الحليب على الرائب) (٢) .

ثم انتهت التقاسيم فى رأى جمهرة الرواة الى عربية واحدة الا مـن فروق اخذت تضيق حتى انحصر امرها بين حجازية وتميمية ، وأطلقوا على هذه الفروق اسم الفرائد أو النوادر من ذلك ما نقله صاحب المزهر عـن نوادر يونس ، ونوادر أبى محمد اليزيدى نكتفى بالاشارة اليها لكثرتها ، وكلها فروق بين التميمية والحجازية (٣) .

---

(١) الكتاب لسيبويه 2 : 170

(٢) معانى القرآن للفراء 1 : 459

(٣) المزهر 2 : 275 — 276 .

الفصل الثاني

الأمثـــال

دور الامثال فى اللغة

تصدر الامثال عن الشيوخ والحكماء فى أكثر الاحيـان ، فتوجـز التجربة فى كلمات وتغنى بهذا الايجاز عن سـرد طويل ، وقـد يكـون التصريح غير مرغوب فيه ، أو يحسن مداراته فيقوم التلميح مقام التصريح كقولهم فى مناسبات عديدة « اياك أعنى واسمعى يا جارة » وقـد تكون فى قصرها وايجازها بالغة الدلالة قوية كقول على رضى الله عنه « انمـا اكلت يوم اكل الثور الابيض » • ويروى فى أصل المثل أن عليا رضى اللهعنه قال : انما مثلى ومثل عثمان كمثل اثوار ثلاثـة كن فى أجمـة ــ أبيض ، وأسود ، وأحمر • ومعهن فيها أسد فكـان لا يقـدر منهن عـلى شىء لاجتماعهن عليه فقال للثور الاسود ، والثـور الاحمر : لا يـدل علينا فى أجمتنا الا الثور الابيض فان لونه مشهور ، ولونـى عـلى لونكمـا فلو

تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة . فقالا : دونك فكله ، فأكله . ثـم قال للاحمر : لونى على لونك فدعنى آكل الاسود لتصفو لنا الاجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للاحمر : انى آكلك لا محالة . فقال : دعنـى انادي ثلاثا ، قال : افعل .

فقال : ألا انى أكلت يوم أكل الثور الابيض .

ثم قال علىّ رضى الله عنه : « ألا أنـى أكلت يـوم أكـل الثور الابيض » .

وكما تعلق الاشعار بالاذهان تعلق الامثال ، الاولـى بسبب الوزن والقافية والثانية بسبب قصرها ، وتقبل الناس لها على انها اثر من الاجداد ونتيجة تجربة انحدرت من وراء الاجيال .

وقد يكون فى المثل غموض فيلقى كما وعته الاسماع اكتفاء بدلالته التى يظهرها السياق او ما تضفيه من عون فى فهمه جملة دون وعى لمفردات قد تكون أعلاما بَعُدَ بها الزمن لاناس او لأماكـن ، فاذا تساءلت عـن بيانه وما كان من امره سمعت تاريخا من حيـاة الاعراب وعاداتهم ، قـد يكون صحيحا ، وقد يكون خلقا اديبا ولد لساعته ، ولهذا جاء على السنة الرواة اشتات من التفسير وخلف كثير .

وحديث الاعراب رافد من روافد العربية كما اسلفنا ، والامثال فـى حديث الاعراب من آصل الكلام لعصمتها من التغيير والتبديل ، ومجيئها على سجيتها ممثلة لطباع أهلها وطباع بيئتهـا ، فان هـذبت أو تحضرت مسخت وخرجت عن أصلها وفقدت طلاوتها وربما ذهبت مع الرياح فلـم تجد من يسمع ومن يروى .

ولقد عنى رواة اللغة بجمع الامثال والتأليف فيهـا لا طلبـا للشاهد والدليل ، ولا بحثا عن مفردات وتراكيب ، ولا لترجيـع قياس أو اقامـة حجة ، فحظ الامثال من هذا قليل ، بل ربما خرجت عن نطاق الاعراب فى

سبيل اقامة المعنى • ولكنها المصدر الذى روى كما سمع لا كما يراد لـه ان يسمع ، لا دخل فيه للنحاة ولا كلام فيه لاصحاب الكلام ، فعاش كمـا خرج من المنجم من غير صقل ولا تبديل ولا تجميل ، فكانت الامثال بهذه الصفة عونا على معرفة الاعلام والتواريخ والوقائع التى جاءت بها الاشعار والاراجيز • لم يكن من السهل مثلا ان نقرأ قول ابى اخزم الطائى :

ان بنـــى ضـــرجونى بالـــدم

شنشنة أعرفهـا مـن أخـزم

قبل ان نعرف ان الشطر الاخير قـد طار مثلا بعد ان ذكر الرواة من امره ان أبا اخزم كان يصف ابنه بالعقوق ، فلما مات أخـزم هـذا ، وثب ابناؤه على جدهم فأدموه ــ فقال البيت السابق ، يصف عقوق الاحفـاد وقد ورثوه من أبيهم أخزم •

والتأليف فى الامثال مرتبطة بدواعيها ليس بالامر الهين ، ولا يأتيـه كل من اراده الا على مشقة الاستقصاء والبحث والمذاكرة والتحقيق ، وكما كان الرواة يجوبون البادية يتعرفون على طبائع اهلها وعاداتهم ، وما ينبت فيها ، وما يعيش فيها من كائنات يستعينون فى ذلـك كلـه فهـم الكلام العربى ، فقد وجدوا هذا فى الامثال ، وامدتهم منه بمدد واسع •

سمعوا « اعق من ضب » و « أحن من نـاب » وعرفـوا ان الضب يصل بها العقوق انها تأكل اولادها ــ وان الناب وهى الناقة المسنة شديدة الحنو على وليدها ، وقالوا وسمعوا : « احمق من رجلـه » لان النبـات المعروف بهذا الاسم ينمو فى مسيل الماء ، فيأتى السيل فيجرفه ويقتلعه • وفى ذكر الاماكن تروى الامثال ما يلقى الضوء على هـذه الاماكن قالوا « لا حر بوادى عوف » يقصدون منعة عوف بن محلم الشيبانى والوادى

الذى يسكنه ــ ويذكرون من امره ان عمرو بن هند طلب مــن عوف ان يسلمه مروان بن القرظ ، وكان قــد اجاره ، فمنعه عوف من الملك وأبــى ان يسلمه فقال الملك هذا المثل • ويقولون فى ذكر الاماكن « ان اضاخــنا منهل مورود » يضرب للرجل الجواد ، وأضاخ موضع ، وكــدى وكداء جبلان بمكة فاذا اراد الانسان أن يدلل على أصالته قال : انــا ابن كديها وكدائها •

وفى مجال الخلق الادبى ، تشير الامثال الى العقلية العربية المبدعــة وقصة حنين صاحب الخفين أشهر من أن نعيدها ، ولكنها اجــل مــن أن نتركها بغير اشارة وتذكرة فى مقامها من الامثال •

الف من الامثال مــن قدامى اللغويين : يونس بــن حبيب ، وأبــو عبيدة ، والاصمعى (١) ولم تصل الينا هذه الكتب على ما اعلم ــ وبــين ايدينا كتاب للمفضل الضبى ، وكتاب لابى فيد مؤرج بن عمر السدوسى. وجزء من كتاب ابى عبيد القاسم بن سلام ، وجزء لابن عبــد ربــه جعله الجوهرة الاولى فى العقد الفريد . وجمهرة الامثال لابى هلال العسكرى. وفى نهاية القرن الخامس نشط لهــذا العمل الزمخشرى والميدانى فعمــل أولهما (المستقصى فى امثال العرب) وعمل الثانى (جمهرة الامثال) كما وقع الينا كتاب عنيت به دائرة المعارف العثمانية فى حيــدر آبــاد الدكن فطبعته دون ان توفق الى معرفة صاحبه •

---

(١) الفهرست ط الرحمانية 42 و 52 و 55 و 72

امثال العرب ـ للمفضل الضبي ١٦٨ هـ

هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبى الكوفى ، راوية الاخبار والادب واللغة وصاحب المفضليات ــ أول مجموعة شعرية كبيرة فى التاريخ الادبى ــ روى عنه قدامى رجال الكوفة ، وسمع منه أبو زيد البصرى ، وقال عنه محمد بن سلام الجمحى : « أعلم من ورد علينا بالشعر وأصدقه من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبى » .

جاء كتاب الامثال مرويا عن الطوسى ، عن محمد بن زياد ابن الأعرابى عن المفضل خاليا من المقدمة ، فأكثر الكتب فى عصر المفضل كانت كذلك ، وكان معنيا فى المقام الاول بالوجه التاريخى الذى نشأ عنه المثل فيروى قصته ــ وكرجل رواية ــ يروى معها أيضا ما يكتنفها من اراجيز وأشعار ويبين وجهها الصحيح من اللغة ما وسعته المناسبة . ينشد للفرزدق :

ولولا أن يقول بنو عدى
الم تك أم حنظلة النوارا
اذن لأتى بنى ملكان قول
اذا ما قيل أنجد ثم غارا

ويقول : ليس فى العرب ملكان بالفتح الا ملكان هند بن جرم فى قضاعة . (١)

او يقول فى شعر السليك بن السلكة التميمى :

يا صاحبى الا لا حىّ بالوادى
الا عبيد وآم بين اذواد

---

(١) امثال العرب للمفضل الضبى ص 11 ط الجوائب سنة 1300

ويقول : آم جمع أمة الى العشر ، ثم اماء لما بعد العشر • (١)

هذه أمثلة لملاحظة اللغوية وتستطيع ان تجد اخرى فى ثنايا الكتاب • (٢)

وللمفضل ميل للغوص وراء الاحداث ، فلقد اتسع فى الكلام عن « داحس » فنسبه الى ام يقال لها « جلوى » لقرواش بن عوف اليربوعى التميمى ، واب اسمه « ذو العقال » كان لحوط بن أبى جابر اليربوعى . واستطرد الى مراهنات ، وحرب وتاريخ اشترك فى كل اولئك فرسان عبس وذبيان وشعراؤهم فى خبر طويل لم يخل من رجز وقصيد هذه الاحياء وقليل من الامثال انتهت بقولهم « اشأم من داحس » الذى جلب عليهم الحرب أربعين سنة •

ومن الاستطراد ــ ان يتناول قس بن ساعدة الايادى فيذكر خطبته المشهورة التى عرفت عنه فى عكاظ : أيها الناس اجتمعوا ، ثم اسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ••• الى آخره الا ان تكون هذه العبارات التى جاءت فى الخطبة ــ على شاكلة الامثال فى نظر المفضل •

وذكر ما وصل الى علمه من قصة ابنة الزباء ، فزعم انها كانت امرأة من الروم ، وأمها من العمالقة ، وكانت تكلم بالعربية ، وكانت ملكة على الجزيرة وقنسرين ، ومدائنها على شط الفرات وذكر الامثال المشهورة حول هذه القصة •

---

(١) امثال العرب 14

(٢) نفس المصدر صفحات 16 و 19 و 20

وتكثر الرواية فى كتاب المفضل عن القبائل الشرقية التى عاشت فى نجد ، وحول الخليج العربى ، وفـــى العراق ، فكان يروى عـــن المناذرة ، والغساسنة ، وقبائل تميم ، ويخص ضبة بالكثير من عنايته ، ويروى عـــن باهلة وبنى كلاب وبنى اسد . أما الرواية عن الحجاز فهى قليلة نسبيا .

وفى كتاب المفضل ما يساغ وما لا يستساغ مـــن قديم الاخبـــار ، ولكنه صورة صادقة عن الرواية المنقولـــة والاخبار المتداولة فـــى عصـــر المفضل تضمنت اسير الامثال وأشهرها وهذا الكتاب مـــع قلة مادته فـــى الامثال فانه قد وضع اللبنة الاولى فى هـــذا البناء مدعمة بما يساندها من قصص وتاريخ وعادات وأيام العرب ، ولا يكاد يستقيم هـــذا اللون مـــن التأليف الا بسند منها .

الامثال - لابي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي ١٩٥ هـ

ابو فيد ، من علماء البصرة تلقى عن ابى عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد ، وأخذ القياس عن أبى زيد سعيد بن أوس الانصارى ، وكان مؤرج من المبرزين فى اللغة ذكر له ابن النديم كتاب الانواء ، وجماهير القبائل ، وغريب القرآن وكتاب المعانى ، كما ذكره صاحب الفهرست ضمن فصحاء الاعراب (١) كما يسميه القفطى بـ (صاحب العربية) • (٢)

ورد كتاب الامثال لابى فيد مرويا عن ابى على الحسن بن عليل العنزى ، عن ابى على اسماعيل بن ابى محمد يحيى بن المبارك اليزيدى عن ابى فيد ، من غير مقدمة ، ويحسن ان انقلك اليه حيث يقول فى مادته الاولى :

تقول العرب : (اقدح وانت مسترخ ، اقدح بدفلى فى مرخ)

قال : بلغ من كثرة نار المرخ ان الريح تهب ، فيحك بعضه بعضا فيورى ، تخرج منه النار • ومثله العفار والدفلى قال الاعشى :

زنادك خير زناد الملـو
ك وافق منهن مرخ عفارا
ولو كنت تقدح فى صخرة
بنبع حصاة لأوريت نارا

والنبع اقل الشجر نارا • والزند : عود مثل السواك ، يفرض له فى الزندة ، وهى عود عرضه اصبعان ، فيفرض له فيه ، حتى يتمكن العود

---

(1) الفهرست لابن النديم 71 ط الرحمانية
(2) انباه الرواة 3 : 327

الاعلى الذى يقال له الزند فى الزندة الاسفل ، فيقدح لـــه فـــى الفرض ، فيأكل كل واحد منهما صاحبه ، حتى يحترق طرف الزند ومـــا مس مـــن الزندة ، وينقص الاعلى حتى لا يستطاع أن يقدح بـــه ، وذلـــك اذا الح عليهما القادح ، وكثر استعماله اياهما • قال ابن حرد التغلبى :

يعلل والايـــام ينقصن عمـــــره

كما تنقص النيران من طرف الزند (1)

هذه اول مادة فى كتاب المؤرج ، تحس معها ان الجـــو الذى كنت فيه مع كتاب المفضل الضبى قد تغير فجأة ، كنت مع رجل قاص ، فاذا بك مع رجل لغوى ، يروى لك معيشة العـــرب ، ويعرفك بالمسميات ، ويأتيك بها مذكورة فى أقوال الشعراء ، وهو شديد التجاذب الى اللغة ، يستطرد اليها فى كل مناسبة •

يقف عند قولهم « لم يحرم من فُصْدَ له » فيقول : أكثر ما سمعنا بتسكين الصاد ومنهم مـــن يجرها فيقول : فُصِدَ لـــه • والفَصْدُ أن يملأ المصير دما من وداج بعير أو فرس ثم يشوى فيؤكل ، وذكر قصة اسر حاتم الطائى وقوله لآسرته : هكذا فزدى أنه ، بلهجة طيىء •

وقد تنسيه اللغة أنه يضع كتابا فى الامثال فيأخذ فـــى تحرير الفاظ تحريرا معجميا لا وجه للامثال فيها انظره يقول ابتداء ومن غير مناسبة :

ـ المُبْسَلُ : المُسْلَم قال الله عـــز وجل (ابسلوا بما كسبوا) قال الشنفرى الازدى :

---

(1) الامثال لابى فيد مؤرج بن عمرو السدوسى 38 ط القاهرة 139٠ هـ 1971 م تحقيق د. رمضان عبد التواب

هنالك لا أرجو حيــاة تسرنـــى

سمير الليالى مبسلا بالجرائـــر

أو يقول بنفس الطريقة :

ــ الفَنْعُ : والفَنع : الجـدة والغنى ، قــال عمران بــن عصام العنزى :

ولا اعتــل فــى فنــع بمنــع

اذا نابــت نوائــب تعترينـــى

ويفسر (الرعلاء) تفسيرا معجميا فى مادة على حدة بأنها المشقوقة الاذن . (1)

ــ و « الجُمَّة » الجماعة التى يحمل أصحاب الحمالة . قال ابــن مكعبر :

أو الجُمَّة الراجين أقران قومهم

صروا بين قوم بالذى كان أكرما

صروا = منعوا

ــ و « العَرَضْ » نشاط البهم من المعزى ، ونشاط الحسيل مــن اولاد البقر ، والواحدة : حسيلة . (2)

ــ و « السُّواف » داء يأخذ الابل فيهلكها حتى تفنى ، وربما قالوا « اساف » قال عمرو بن حسان الشيبانى :

أفــى نابــين نالهمــا لسُّواف

تأنــى طلتــى مــا ان تنـام

---

(1) الامثال لابى فيد 53

(2) نفس المصدر 57

وبعضهم يقول « اساف » فيجعله رجلا ، وبعضهم يجعلـه داء ، قال الصنان بن عباد اليشكرى :

فأصبحت ظبيـا مطلقا من حبالةٍ
صحيح الاديم بعـد داء اساف

ـ و « المنجود » المغلوب . قال ابو زبيد :

صاديـا يستغيث غيـر مغـاث
ولقد كـان عصرة المنجود (1)

ـ ولقد يأتى المثل استطرادا مـن التفسير المعجمـى للمفردات كأن يقول : « يقال للعسل الشديد البياض » (الضَرَبْ) قال الشاعر :

وما ضَرَبٌ فى رأس صعب ممنع
بتيهـاءة يستنـزل العفـر نيقهـا
بأطيب مـن فيها لمـن ذاق طعمـه
وقد جف بعـد النوم للنوم ريقها

ويقال للرجل السىء المرآة ، الكريم الخبر « ضربة بيضاء فى ظرف سوء » . (2)

ـ أو يأتى بعبارات تستعملها العرب فيفسرها ؛ يقول : يقال « انهـا لسماء جدا » وهى السماء العامة التى لا يأتى احد مـن وجه الا خبر بأنها أصابته . ويقال « ان خير فلان لجدا » قال الشاعر :

هو الغيث الجـدا لا فتق فيـه
اذا أكـل العوارق كـل مـال

(1) المصدر السابق 80 — 81
(2) المصدر 64

يقول : اذا عرقت السنون الناس كما يعرق العظم فيؤخذ كل ما عليه من اللحم ، قال : جدا لا فتق فيه . (1)

ـ أو يأتى ببعض خصائص العربية كالاضداد ، من ذلك قوله :

« تقول العرب : « كريت ليلتى هذه كلها » فمنهم من يجعلها : نمت كلها ، ومنهم من يجعلها سهرا ، وتقول : أصابنى الكرى ، وأما الذين جعلوها نوما فمنهم الذى قال :

ظلت على فراشها تَكَرَّى

يقول نائمة . وأما الذى جعله سهرا فالذى وصف ناقته بأنها تطيل العشاء ، وهو مما توصف به الناقة ان تكون طويلة العَشَاء مصباح البُكَرَ تصبح فى مبركها وقال :

به كل مِكراء العشاء مُدِلَّةٍ

على الليل تأتى الصمد من كل جانب

وقال الحطيئة يصف ناقته :

... .

... ... معشاء الى السحر (2)

فأما بيت أبى نفيس من ولد يعلى بن منبه فانهم يختلفون فيه :

طال السفار عليهم

فكروا وملوا المركبا

---

(1) نفس المصدر 61

(2) تمام البيت كما اورده المحقق نقلا من الديوان :

قد يملأ الجفنة الشيزى فيترعها

من ذات خيفين معشاء الى السحر

يقول : ناموا ، ولو قال : سهروا لجاز . (1)

ـ او يأتى بعبارات الاتباع فيقول : وتقول العــرب « حسن بسن »
و « مليح بليح » قال الصقب بن علقمة السعدى :

كأن لم أصادف أم فىء بموقف
مليح اصيلال العشى بليــح (2)

ـ او يأتى بمجرد اختيار لأبيات كقوله : قال الراجز :

يا هندُ هنــدٌ بين خلبٍ وكبدْ
أسقاك عنى هَزِمُ الرعـد برد
من الثريا نوؤه غير جحد (3)

ـ أو يتكلم فى اللغة عفو الخاطر كأن يقــول : « أوشم البرق » .
يقال للعنب الاسود اذا لان وهم أن يطيب قد أوشم وذلــك اذا لان بعض الحبة وتلون ، وبعضها لم يلن ولم يسود وهو شىء واحد ، انما هــو بدا بعضه ولم يتم كله ، ولا يقولون للعنب الابيض : أوشم لأنه لا يحدث لونا سوى لونه ولكنهم يقولون قد ارق اذا لان بعضه ، وبعضه غير لين (!)

هذا الفيض المتنوع من اللغة جاء نتيجة لامتــلاء صدور الرواة بما جمعوا من شيوخهم ، ومن الاعراب فى البادية وغير الباديــة ، ووجدوها تتزاحم الى الافواه ، والذاكــرة فقيدوهــا تحت موضوعات كما سنعرف بذلك فى الباب القادم ـ أو تغلبهم الرغبة فى النفع بها حين لا تجد تبويبا

---

(1) الامثال لابى فيد 58 — 59
(2) المصدر 76
(3) المصدر 77

تندرج تحته ، فتأتى فى المجالس ، والاملاء ولـــو لم تخصص لهـــا هـــذه المجالس ولا تلك الكتب وانما تأتى عفو البديهة ـــ اما اطلاق اسم الامثال على هذا الكتاب وفيه ما ترى من النوادر والغريب ، واختيارات الرجـــز والقصيد ، وخصائص العربية من اضداد واتباع الـــى غير ذلك فهو مـــن قبيل اطلاق اسم البعض على الكل وهى تسمية صحيحة فجل الكتاب فـــى الامثال •

الامثال ــ عند ابى عبيد القاسم بن سلام 223 هـ

ابو عبيد ــ كما يحكى المرزبانى : ممن جمع صنوفا من العلم وصنف الكتب فى كل فن من العلوم والادب ... روى عن ابى زيد الانصارى . وعن ابى عبيدة ، والاصمعى ، واليزيدى من البصريين ــ وروى عن ابن الاعرابى ، وابى زياد الكلابى ، والاموى ، وابى عمرو الشيبانى . والكسائى ، والاحمر ، والفراء . وأشهر كتبه : الغريب المصنف فى اللغة . وغريب الحديث ، وله كتاب فى معانى الشعر ، وكتاب فى الامثال .

ويقول القفطى عن كتاب الامثال : « وقد سبقه الى ذلك جميع البصريين والكوفيين .... الا انه جمع رواياتهم فى كتاب ، وبوبه ابوابا ، وأحسن تأليفه » . (1)

ولم يقع الىّ كتابه فى الامثال كاملا ، وفى يدى جزء منه يشير الى تقاسيم الكتاب وقد جعل فى :

ـــــ .....

التقسيم السادس : ذكر الامثال فى مكارم الاخلاق
التقسيم السابع : ذكر الامثال فى المجد والجود
التقسيم الثامن : ذكر الامثال فى الاخاء
التقسيم التاسع : ذكر الامثال فى الاموال والمعايش
التقسيم العاشر : ذكر الامثال فى العلم والمعرفة
التقسيم الحادى عشر : ذكر الامثال فى اهل الالباب والحزم
التقسيم الثانى عشر : ذكر الامثال فى الحوائج وصنوف مطالبها

(1) انباه الرواة 3 : 11

التقسيم الثالث عشر : ذكر الامثال فى الظلم وانواعه
التقسيم الرابع عشر : ذكر الامثال فى المعايب والذم
التقسيم الخامس عشر : ذكر الامثال فى الخطأ والزلل فى الامور
التقسيم السادس عشر : ذكز الامثال فى البخل
التقسيم السابع عشر : ذكر الامثال فى الجبن
التقسيم الثامن عشر : ذكر الامثال فى مرازى الدهر وحدثانه
التقسيم التاسع عشر : ذكر الامثال فى الجنايات
التقسيم الاخير : ••••••••

وكان يلتزم فى كل تقسيم بتبويب داخلى يسهل معه البحث فكان من التقسيم الثامن : امثال للمتصافيين اللذين لا يفترقان ، وفى عناية الاخ بأخيه وايثاره اياه على نفسه الى غير ذلك . حتى بلغت التقاسيم الداخلية فى الباب الثامن ثلاثة عشر . بدأ اولها بالمثل « هما كندمانى جذيمة » فأسنده الى ابن الكلبى وغيره من العلماء الذين روى عنهم قصة المثل (1) وأشار الى مجيئه فى شعر متمم بن نويرة اليربوعى يحكى عن نفسه واخيه مالك بن نويرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كانى ومالكا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(1) فى قصة المثل ان جذيمة الابرش الملك قد فقد ابن اخته عمرو بن عدى ، ثم ان رجلين من بلقين (بنى القين) يقال لاحدهما مالك والاخر عقيل وجداه . فقدما به على جذيمة فعظم موقعه منه وقال سلانى ما شئتما فسألاه ان يكونا نديميه ما عاش وعاشا فأجابهما الى ذلك .

كما تمثل به عمر بن الخطاب فى نفسه واخيه زيـد ، وذكرهما ابـو خراش الهذلى فقال :

ألم تعلمى أن قـد تفرق قبلنـا
نديما صفاء مالـك ، وعقيـل

والناظر فى كتاب ابى عبيد يلمح فيه طبيعته اللغوية فيقول فى الباب الذى عقده فى عناية الاخ بأخيه وايثاره اياه على نفسه : « ومـن الايثار قول الشاعر يخاطب امرأته وهو ابو خراش :

أرد شجاع الجوع قد تعلمينـه
وأوثر غيرى مـن عيالك بالطعم

شجاع الجوع : شديده من الشجاعة وهـى شدة القلب ، يقـال : شجاع ، وشجيع ، واشجع ، وشجع مـن قوم شجعـان وشِجعة (بكسر الشين) وشُجعة (بضم الشين) . والمرأة شجاعـة ، وشجيعة ، وشجعى ، وشجعة » .

وهو يروى غريب الامثال ، ويروى تأويلـه أيضا عـن أبى زيـد ، وسلمة ، والرواية عن البصريين والكوفيين دون تحيز لبلد منهما طبيعة فى ابى عبيد وفضيلة فيه فعن ابى زيد البصرى يروى فى سرعة اتفاق الاخوين قولهم : كانت لقوة فصادفت قبيسا ... وقال سلمـة (الكوفى) وهـى عندنا لَقوة ، مفتوحة ، وفسرها ابو عبيد فقال : اللقوة : السريعة الحمل ، والقبيس : الفحل السريع الالقاح .

والتقسيم السابع عشر جعله فى الجبن وأنواعه ــ فى سبعة ابواب ــ كان الباب الاول فى ذكر المثل فى الجبان وما يذم من اخلاقه فروى عـن

هشام بن الكلبى قولهم : ان الجبان حتفه مـن فوقه ، فحكى عنه وعـن المفضل ان ذلك جاء فى شعر عمرو بن امامة :

لقـد وجدت الموت قبل ذوقـه
ان الجبان حتفـه مـن فوقـه

قال ابو عبيد : أحسبه اراد ان حذره وجبنه ليس بدافع عنه المنية اذا نزل به قدر الله، وأورد ما يشابه ذلك فقال، وهذا شبيه المعنى بالذى يحدث به عن خالد بن الوليد فانه قال عند موته : لقد لقيت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر الا فيه ضربة او طعنة او رمية ثم هأنـذا امـوت حتف انفى كما يموت العنز ويروى كما يموت البعير ، فـلا نامت اعين الجبناء ــ يقول ابو عبيد فما لهم يجبنون عن القتال ولم امت انا بـه انما اموت بأجلى ، ومنه الشعر الذى تمثل به سعد بن معاذ يوم الخندق :

لبّث قليلا يلحق الهيجـا جمل
ما أحسن الموت اذا حان الاجل

ثم اورد ابو عبيد ما يشاكل ذلـك مـن امثـال ، وفسرها وأتبعها بقصصها .

كتاب الفاخر ـ للمفضل بن سلمة

هو المفضل بن سلمة بن عاصم المتوفى سنة ٢٩١ ، تلمذ لوالده ، ولابن السكيت ، ولاحمد بن يحيى ثعلب ، وهؤلاء الثلاثة من أعلام الكوفيين .

وكتاب الفاخر ـ قد يتبادر الى ذهن القارىء ، أو لمن اطلع عليه فى عجلة أنه كتاب فى الامثال ، لا سيما وقد اعتمد عليه الميدانى حين أعد كتابه (مجمع الامثال) .

والحقيقة انه كتاب لغة ، على نمط لم يسبق اليه ـ على قدر علمى ـ بل دعت اليه ضرورة ظهرت لتوها فى عصر المفضل بن سلمة حين لاحظ جمهرة المتعلمين فى المجتمع البغدادى لا يدرون معنى ما يتكلمون به مما يجرى على السنتهم فى أمثالهم ومحاوراتهم ، والباحث عن مصادر اللغة يستطيع ان يجد فى كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة وعاء يحمل تراكيب وعبارات كانت تستعملها العرب فى مناسبات او ظروف خاصة لتعطى دلالات خاصة ، قد تفهم بدلالة مفرداتها وقد لا تفهم، ومثل هذه العبارات يمكن ان تعيش ، ويمتد بها الاجل ، وتعطى ثمارها من التبادل اللغوى فى بيئة علمية كبغداد ، وكان من المستغرب ان يلحظ المفضل بن سلمة ان المجتمع البغدادى بدأ يفقد سلطانه على اسرار العربية ، وتمر امامه العبارات فلا يفهمها على ما وضعت وتواضعوا عليه ، ويضطر ان يجمع من ذلك ما شاء له ان يجمع ، وأن يجلى غامضها ، وأن يبين الوجه العربى فيها .

ولقد صادف المفضل فى هذا المسلك بعض المعاناة حين أخذ يبحث عن دلالة العبارات فلا يجد اجماعا من جمهرة الباحثين فى اللغة وكان

عليه ان يذكر وجوه الاختلاف كما يبدو من كلامه فى المقدمة :

هذا كتاب معانى ما يجرى على السن العامة فى امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره ، ليكون من نظر فى هذا الكتاب عالما بما يجرى من لفظه ويدور فى كلامه .

والكتاب ليس كتاب أمثال وان كان فيه منها وما يجرى مجراها ، وكان فى النية ان اعرف به على انه مصدر من مصادر العربية ؛ فقد عنيت كتب الالفاظ بالالفاظ ، وجاء الشعر بالمفردات والتراكيب ، وحاولت المعاجم التعريف بالكلمات على جهة الاستقصاء ، وجمع الرواة من أحاديث الاعراب ما جمعوا ، وخلص الى الامثال بعض العلماء يبغون جمعها والتعريف بها ، وبقيت التراكيب التى لا تقع تحت قسم من هذه التقاسيم الى ان جمع المفضل بن سلمة منها ما استطاع . ولكى اقرب على القارىء فسأذكر له بعض ما يعرفه هو من هذه التراكيب ، اما ما لا يعرفه فلا بد له من عودة الى كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة .

ــ قولهم : بالرفاء والبنين

هذا مثل لما يجرى على السنتنا نحن ، وربما نستعمله فى اليوم الواحد آكثر من مرة مشافهة وكتابة ، ونبرق به الى اصدقائنا ، ونعرف من دلالته انه تبريك للزوجين ودعاء لهما ان ينجبا البنين فما الرفاء اذن ؟

يقول المفضل : يقال ذلك عند التزويج . والرفاء : الاتفاق والالتئام، وهو مأخوذ من رفأت الثوب ارفؤه اذا لأمت بينه وضممت بعضه الى بعض وقال ابن هرمة :

بُدِّلت من جِدَّةِ الشبيبة وال

أَبدالُ ثوبُ المشيب اردؤهـا

مُلاءةٌ غـيرَ جـدٌّ واسعـةٍ

أخيطهـا تـارة وارفؤهـا

وقال الاصمعى : يكون الرفاء مـن الهدوء والسكون مـن قولهم رفوت الرجل اذا سكنته ، وأنشد لأبى خراش :

رفونى ، وقالوا يا خويلد لا ترع

فقلت وانكرت الوجوه هم هم

يريد : سكنونى

وقال أبو زيد : الرفاء : الموافقة ، وهى المرافاة بلا همز وأنشد :

ولمـا أن رأيت أبـا رويـم

يرافينى ويكـره ان يلامـا

وقال اليمامى : الرفاء : المال . (1)

وانت تسمع فى كل ساعة قولهم : وقع فى ورطة .

والكلمة عربية صحيحة ، ونقلتهـا الألسن والكتب الينـا ، ونقلناها نحن بدورنا الى الآخرين نصيب مدلولها فى كثير مـن الاحيان على أنـه مأزق او موقف حرج . والامر كذلك حقيقة ولكن مـا الورطـة ؟ يحدثنا المفضل بن سلمة فيقول :

قال ابو عمرو وغيره : هى الهلكة وأنشد :

ان تأت يوما مثـل هذى الخطة

تلاق مـن ضرب نمير ورطـة

(1) الفاخر 13 ط القاهرة 1380 — 1960 تحقيق عبد الحليم الطحاوى ومراجعة محمد على النجار

وقال بعضهم : الورطة : الوحل والردغة يقع فيها الغنم ولا تقدر على التخلص • يقال : تورطت الغنم اذا وقعت فى الورطة ثم ضرب مثــلا لكل شدة وقع فيها الانسان •

وقال الأصمعى : الورطة أهوية منصوبة تكون فى الجبل يشق على من وقع فيها الخروج منها ، وأنشد لطفيل يصف ابلا :

تهاب الطريق السهل تحسب انه

وعور وراط وهو بيداء بلقع (1)

ومن الفروق الدقيقــة اسماء الاطعمــة بحسب مناسباتها وان كانت تجمعها كلمة وليمة اما بسبب المساهلة ، او لعدم المعرفة بالاسماء الصحيحه فذكر المفضل الوجه الصحيح فى استعمال العبارة : اولم فــلان ، وكنا فى وليمة فقال :

قال الفراء : الوليمة : طعام الاملاك ، وأما طعام الزفاف فانه العرس ، وطعام الولادة : الخرس ، وطعام حلق الرأس : العقيقة ، وطعــام الختان : العذيرة ، وطعام بناء الدار : الوكيرة ، وطعام القادم مــن سفر : النقيعة ، والدعوة التى يتخذها الانسان لأصحابه : المأدبة ، وأنشد :

كــل الطعــام تشتهى ربيعــة

الخرس ، والاعذار ، والنقيعــة

وأنشد لمهلهل :

انــا لنضرب بالسيوف رؤوسهم

ضرب القدار نقيعــة القــدام

(1) **الفاخر** 18 — 19

القدار : الجزار ، النقيعة : الناقة التى ينحرها القادم للطعام يتخذه .
والقدام : جمع قادم • وقال دكين :

تجمـــع الناس وقالـــوا عرس
اذا قصـــاع كالأكـــف ملـــس
ففقئـــت عـــين ، وفاظت نفس

قال : وأنشدنا أبى فى المأدبة :

قالوا : ثلاثاؤه خصب ومأدبـــة
وكـــل أيامـــه يـــوم الثلاثـــاء

وقال الهذلى يصف عقابا ؛

كأن قلوب الطير فـــى جوف وكرهـــا
نوى القسب يلقى عند بعض المآدب

وأعود فاكرر عليك ، واشد انتباهك ان كتـــاب الفاخر ليس كتـــاب امثال وان كان فيه منها كثير ، وان اعتمد عليه جل من كتب فـــى الامثال ، ولقد اخترت ان اعرف به وانا اعرف بالامثال من طريق المشاكلة او اطلاق اسم البعض على الكل ، ولذلك حرصت على ان اتخير بعض مواده . والتى تقنعك بأنها تراكيب لغوية قد يصل بها الامر ان تكون مـــن كلمة واحدة ظهرت فى المجتمع البغدادى فادرك دلالتها دون ان يدرك الاصل فيه ، من ذالك قوالهم :

الطفيلى :

هذه لفظة واحدة لا تقيم مثلا مـــن الامثال . ولكنهـــا توحى بصفة نطلقها كثيرا على من يقتحم مجلسا أو دارا . أو مأدبـــة لم يـــدع اليهـــا ،

وهكذا فهمها اكثر الناس دون رغبة في فهم أصلها أو فهم المزيد عما القو
يقول المفضل : قال الاصمعي : هو الذي يدخل على القوم من غير أ
يدعوه ، وهو مأخوذ من الطَّفَل ، وهو اقبال الليل على النهار بظلم
وقال ابو عمرو : الطَّفَل : الظلمة بعينها وأنشد لابن هرمة :

سمعت فيها عزيف الجن ساكنها

وقد علاني من لون الدجى طَفَل

فيعني بذلك انه يظلم على القوم امره فلا يدرون من دعاه ، و
كيف دخل عليهم .

وقال ابو عبيدة وغيره : الطفيلي : منسوب الى طفيل بن زلال
رجل من أهل مكة (1) من بنى عبد الله بن غطفان كان يأتي الولائم م
غير أن يدعى اليها ، وكان يقال له طفيل الاعراس والعرائس ، وكان يقول
وددت أن الكوفة بركة مصهرجة فلا يخفى عليّ منها شيء ، وكان هو أو
من فعل ذلك ؛ فأما العرب فانها تسمى الذي يجيء الى الطعام لم يدع ال
« الوارش » وقال الراجز :

ولا تزال وُرَّشٌ تأتينا

مهركلات ومهركلينا

فاذا كان يفعل ذلك على الشراب فهو الواغل وقال امرؤ القيس :

فاليوم فاشرب غير مستحقب

اثما من الله ولا واغل

قال ابو عمرو : يقال لذلك الشراب : الوغل وأنشد لعمرو بن قميئة

ان أك سكيرا فلا أشرب ال

وغل ، ولا يسلم مني البعير

---

(1) في اللسان : من اهل الكوفة

وقال ابن الاعرابى : يقال للطفيلى : اللعمظــى ، والجمع : اللعامظة وأنشد :

لعامظة بــين العصـــا ولحائهــا

ادقاء نيالون من سقط السفر (1)

وسأكتفى بمثل هذه المواد التــى نقلتها كاملــة أو كالكاملة للتعريف بجوهر الكتاب ، وبين سطوره من العزبية ما يجمل بــك أن تنظــر فيــه وتتعرف اليه • سآخذك معى لنمر سراعا بين صفحات الكتاب •

ـ قولهم : فلان ظريف

الاصمعى وابن الاعرابى يقولان : لا يكــون الظرف الا فى اللسان ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب : اذا كان اللص ظريفــا لم يقطع • اراد انه يكون له لسان يحتج فيدفع عــن نفسه ؛ وقال غيرهما : الظرف حسن الوجه والهيئة • (2)

ـ قولهم : هو يتحداه

اى يبادره ؛ والتحــدى المبادرة (3)

ـ اقاموا على فلان ماتما

اصل المأتم مجتمع النساء والرجال على كل حزن أو فرح ثم كثر حتى صيروه فى الموت خاصة • (4)

ـ دخل فى غمار الناس

وهذه عبارة غير صحيحة ولكنها سارت فى الناس على هــذا الخطأ ،

---

(1) الفاخر 76 — 77
(2) الفاخر 133
(3) الفاخر 136
(4) الفاخر 144

والعرب تقول : دخل فى خمار الناس أى فيما يواريه ويستره منهم حتى لا يبين وهو مأخوذ من خمر الوادى . وخمره ما وارى من جرف او شجر او غيره . (1)

ـ دمدم عليه

وأصل الدمدمة الغضب . (2)

ـ هلم جرا

اى تعالوا على هيئتكم كما يسهل عليكم من غير شدة وصعوبة . وأصل ذلك من الجر فى السوق وهو ان تترك الابل والغنم ترعى فى مسيرها ، وقال الراجز :

لطالما جررتكن جرا
حتى نوى الاعجف واستمرا
فاليوم لا آلو الركاب شرا (3)

ـ لعنه الله

قال الاصمعى : معناه باعده الله ، واللعن : البعد وأنشد للشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه
مقام الذئب كالرجل اللعين

اى المباعد ، وقال غير الاصمعى اللعن : الطرد ، ومعنى كالرجل اللعين كالرجل المطرود ، والمعنيان متقاربان . (4)

وهكذا تجد فى كتاب الفاخر معجما على نمط معين : مجمعا للامثال ، ومعلما للعبارات والمفردات التى تجرى على الالسنة ، يذكر بها ، ويصحح معناها ويورد أصلها .

---

(1) الفاخر 246
(2) الفاخر 267
(3) الفاخر 32 — 33
(4) الفاخر 8

الامثال في كتاب العقد الفريد ـ لابن عبد ربه

ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، ولد ونشأ وتعلم في قرطبة وتلمذ لعلمائها من امثال : الخشني ، وابن وضاح ، وبقيّ بن مخلد واتصل بأدب المشارقة عن طريق ابي علي القالي ومؤلفاته فظهر أدب المشرق في أدب ابن عبد ربه . والحقيقة ان العلم كله كان يرد من المشرق وكان لاساتذة ابن عبد ربه رحلات الى المشرق في طلب العلم وتحصيله .

صانع في الشعر والموسيقى والطرف وكل ما يصلح للمنادمة ومجالسة الأمراء ؛ وظل طول حياته يتصل بهم وينادمهم ، صحب الامير عبد الله امير قرطبة ومدحه وظل معه قرابة ربع قرن فلما مات اتصل من بعده بالخليفة عبد الرحمن الناصر .

وكتاب العقد ، كتاب مختارات منوعة فيه : اللغة ، والادب ، والاخبار ، والسير ، والامثال الى غير ذلك . جعله صاحبه كالعقد ، وجعل ابوابه من خمس وعشرين حبة كريمة ، في كل ناحية اثنتا عشرة حبة ، وواحدة في الوسط فكان الباب الاول عنده كتاب اللؤلؤة في السلطان ؛ والثاني كتاب الفريدة في الحروب ؛ والثالث كتاب الزبرجدة في الاجواد والاصفاد الى غير ذلك ، وفي الناحية الاخرى أمثال هذه الحبات فهي اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح ، والفريدة الثانية في الطعام والشراب ... وهكذا .

عقد الجوهرة الاولى في « الامثال » وقدم لهذا الكتاب بقوله :

(قد مضى قولنا في العلم والادب وما يتولد منهما وينسب اليهما من الحكم النادرة والفطن البارعة ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الامثال التي هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تخيرتها

العرب وقدمتها العجم ، ونطق بها فى كل زمان ، وعلى كل لسان فهى ابقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرهـــا . ولا عم عمومها حتى قيل : أسير من مثل وقال الشاعر :

مـــا أنت الا مثـــل سائر
يعرفـــه الجاهل والخابـــر

ثم قال : وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه ، وضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلامه ... فأول ما نبدأ به أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم امثال العلماء ، ثم امثال اكثم بـــن صيفى وبـــزر جمهر الفارسى وهى التى كان يستعملها جعفر بن يحيى فى كلامه ثم امثال العرب التى رواها ابو عبيد وما أشبهها مـــن امثال العامة ثم الامثال التى استعملها الشعراء فى اشعارهم فى الجاهلية والاسلام) . (1)

ونلمح فى هذه المقدمة دور الامثال عامة ، ويهمنا فـــى المرتبة الاولى هذه الامثال التى صدرت عن العرب اذ المقصد من المقال هو البحث عـــن مصادر العربية وترى ابن عبد ربه يخص ابا عبيد القاسم بن سلام ـــ ولـــم يذكر المفضل الضبى مع سبقه مما أثار رغبتى فى رؤية كتاب ابى عبيد ولم يقع الىّ الا وريقات منه لا تكفى للتعريف به .

ولأول مرة ـــ اذا لم يكن ابو عبيد قـــد نهج نفس السبيل ـــ نجـــد تقسيما يشير الى امثال وردت فـــى القرآن الكريم ، ثم يذكـــر بعدها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مـــا بدا لـــه امثالا أو كالامثال ، ثم أمثال العلماء الى آخر النهج الذى رآه ابن عبد ربه وهذا ضرب من التنظيم يعتبر تطورا اذا وضعناه الى جانب كتاب المفضل الضبى من ناحية الشكل فهل كان له وجه أيضا فى الاختيار ؟

---

(1) العقد الفريد 3 : 63 ، ط. لجنة التاليف والترجمة والنشر .

كان عجلا وهو يورد أمثالا جاءت فى القرآن والسنة ولو انــه اراد استيفاء ذلك أو الاكثار منه لوجد معينا يمده بالمدد الواسع ، لا يبعد عن علمه ، ولكنها طبيعة الرجل غير المتفرغ ، والذى يأخذ من كل فن بطرف ، فهو يأخذ مكانه فى مجلس السلطان ، وعليه الا يطيل الا بما يحتمله المقام ويتسع له صدر صاحب المجلس• والقاء القرآن والسنة وظيفة رجل آخر لم تكن من تكوين ابن عبد ربه الذى كان يعرف الموسيقى ويشير الى مواقع الجمال فيها ، ويرى للخمر الذى يؤتى به على حالة خاصة فتوى أو تصريحا يسمح بشربها • وكانت حجته بعد آن ذكر جانبا يسيرا مــن الامثال التى جاءت فى احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : (وله صلى اللــه عليه وسلم وعلى آله أمثال كثيرة غير هذه ؛ ولكنا لم نذهب فــى كل باب الى استقصائه ، وانما ذهبنا الى ان نكتفى بالبعض ونستدل بالقليل عــلى الكثير ليكون أسهل مأخذا للحفظ وأبرأ من الملالة والهرب) •

وفى الفقرة الثالثة مــن ترتيبه أمثال روتهــا العلماء ــ اختيارات ــ صيغ بعضها فى قصة فحسن رونقهــا وأعان عــلى بيان الوجــه العربى : طبيعة ، ولغة ، وذوقا وحسبك ان تقرأ فى هذا مــا قاله النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، وعبد الله بن الزبير لأهل العراق •

والجزء الذى هممت أن أتركه لبعده عن منهجنا « مصادر العربية » وهو امثال بزر جمهر وجدته ومعــه أمثــال أكثم بــن صيفى ــ الحكيم العربى ــ وأمثال الرجلين يجريان عــلى العربية الفصحى لا اثــر للفارسية فيها • وهذا الجزء بصفته العربية مما يحسن الاشارة اليه فى هذا التعريف واكثر هذا النوع موجز معبــر كثير التداول ومنــه : العقــل بالتجارب ــ القريب من قرب نفعه ــ فى كل خبرة عبرة ــ من مأمنه يؤتى الحذر ــ لا يعدو المرء رزقه وان حرص ــ اذا نزل القدر عمى البصر ــ القناعة مال لا ينفد ــ لن تعدم الحسناء ذاما ــ اخــر الشر فاذا شئت تعجلته ــ رب

كلام اقطع من حسام ــ البطنة تذهب الفطنــة ــ النساء حبائــل الشيطان ــ الشقى شقى فى بطن امه ــ كثرة الصياح مــن الفشل ــ مقتل الرجل بين فكيه ــ ليس من العدل سرعة العذل • (1)

وحيث أفرد الجوهرة الاولى فى كتابه العقد الفريد للامثال ، لم يكن بحاجة الى ما يقترن بها من قصص أو أدب ، ولذلك تناول كتاب ابى عبيد فاستل امثاله وترك بقيته ونص على ذلك فقال : (ومن أمثال العرب ممــا روى ابو عبيد ، جردناها من الآداب التى ادخلها فيها ابو عبيد اذ كنا قــد افردنا للادب والمواعظ كتبا غير هذا ، وضممنا الى امثلة العرب القديمة ما جرى على ألسنة العامة من الامثال المستعملة وفسرنا من ذلك مــا احتاج الى التفسير) •

وبعض هذه الأمثلة نسب الى أصحابه فيقول فى حفظ اللسان :

لعمر بن عبد العزيز : التقى ملجم

لابى بكر الصديق : ان البلاء موكل بالمنطق

لابن مسعود : ما شىء أولى بطول سجن من لسان• الى غير ذلك (2)

ولكنه لم يسر على هذا النهج طويلا فلم يعــن بتدوين النسبة الا لمشاهير الناس ، واكتفى فى بقية الامثال بكلمة : وقالوا ــ أو ــ وقال بعضهم ••

والعبارات التى كالأمثال وليست فى الحقيقة كذلك تجــرى عــلى طريقة المفضل بن سلمة كقولهم فى الدعاء بالخير :

---

(1) العقد 3 : 76 — 80

(2) العقد 3 : 81

خير مارُدَّ فـي أهـل ومـال

بلغ اللـه بك اكلأ العمر

نعم عوفك ـ اى نعم بالك (1)

ومن تعبيرهم عن اللقاء وأوقاته :

ـ لقيت فلانا أول عين ، يعنى أول شيء ، وقال ابو زيد : لقيته اول عائنة ، ولقيته أول وهلة ، ولقيته أول ذات يدين ، ولقيته أول صوك وأول بوك (أى اول شيء وأول مرة) فان لقيته فجأة مـن غير أن تريـده قلت لقيته نقابا ، ولقيته التقاطا اذا لقيته من غير طلب ، وقال الراجز :

ومنهـل وردتـه التقاطا

وان لقيته مواجهة قلت : لقيته صفاحا ، ولقيتـه كفاحا (صفاحا اى بصفح وجهه) والمكافحة : (مصادفة الوجه للوجه) ولقيته كفة كفة ... فان لقيته فى اليومين والثلاثة قلت لقيته فى الفرط ولا يكون الفرط فـى أكثر من خمس عشرة ليلة ، فان لقيته بعـد شهر ونحوه قلت : لقيته مـن عفر . فان لقيته بعد الحول ونحوه قلت : لقيته عـن هجر ، فان لقيته بعد اعوام قلت : لقيته ذات العويم . فان لقيته فـى الزمـاز قلت : لقيته ذات الزمين .

والغب فى الزيارة هو الابطاء فيهـا ، والاعتسار فـى الزيارة هـو **التردد فيها** . (2)

وجعل آخر الكتاب ابياتا مختارة مـن الشعر تستعمل أمثالا . وابن عبد ربه شاعر . ولذلك انتهز المناسبة فجعل لنفسه مكانا فى الكتاب فقال: ومن قولنا الذى هو أمثال سائرة :

---

(1) العقد 3 : 87

(2) العقد 3 : 134 وما بعدها .

قالوا : شبابك قـد ولـى فقلت لهم
هل من جديد على كر الجديدين

صل من هويت وان ابدى معاتبة
فأطيب العيش وصل بـين الفين

واقطـع حبائل حـل لا تلائمه
فربما ضاقت الدنيا عـلى اثنين

الى غير ذلك . مما عمله هو (1)

(1) العقد 3 : 138 وما بعدها

جمهرة الامثال ـ لابى هلال العسكرى 395 هـ

ابو هلال ـــ الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعتين ، وديوان المعانى ، وشرح الفصيح ، نشأ وتعلم فى عسكر مكرم ، ذكرت له كتب الطبقات نحوا من عشرين كتابا منها كتاب جمهرة الامثال الذى نعرف به الآن . وعما قليل نعرف بكتاب آخر هو « المعجم فى بقية الاشياء » .

اتجاه ابى هلال الى امثال العرب ، وعنايته بهـا آت من اقتناعه بأن هذا النوع من الدراسة جزء من عدة الاديب واللغوى وهو يذكر ذلك فى مقدمة كتابه فيقول « ثم انى رأيت حاجة الشريف الـى شىء مـن أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته الـى الشاهد والمثـل ؛ والشذرة والكلمة السائرة فان ذلك يزيد المنطق تفخيما ويكسبه قبولا ويجعل لـه قدرا فى النفوس وحلاوة فى الصدور ويدعو القلوب الى وعيه ... ومن عجائبها انها مع ايجازها تعمل عمل الاطناب . ولها روعة اذا برزت فى اثناء الخطاب . والحفظ موكل بما راع من اللفظ وندر من المعنى » .

وهو يرى تمام هذا الوجه بمعرفة اصوله ، والسبب فى المثل ابتداء فيقول « ولما رأيت الحاجة اليها هذه الحاجة عزمت عـلى تقريب سبيلهـا وتلخيص مشكلها وذكر اصولها وأخبارها ليفهمها الغبى فضلا عـن اللقين الذكى ، فعملت كتابى هذا مشتملا منها على ما لم يشتمل عليه كتاب اعرفه وضمنته اياها ملخصة لا يشينها الاهذار ولا يزرى بها الاكثار » .

قسم ابو هلال ابواب الكتاب على حروف المعجم ، وقـدم للبـاب بمجمل لمحتوياته . فاذا انتهى منـه فهرس للامثال المضروبة فـى التناهى والمبالغة لحمزة بن الحسن الاصفهانى فاذا فرغ مـن ذلك اعادها مفسرة ، مبينا بها اصلها وخبرها وهو طويـل النفس واسع الاستطراد : يأتـى بما يرادف المثل احيانا ففى قولهم : « أفرط فأسقط » قال : هـو مثل قـول

النبى صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثر سقطه » (1) أو يروى من الملح ما يخفف به سأم القارىء كما جاء فى شرح المثل الرابع « اول العى الاختلاط » .

وفى أحيان تدفعه طبيعته اللغوية الى الاستطراد اللغوى الواسع اذا جاءت مناسبته ، فقد ذكر قولهم :

« ابن الأيام ، وما يجرى فى بابه »

قال : يقال للرجل الجلد المجرب : ابن الايام ، وابن الملمة ، وهو الذى يقوم بها ، وابن جلا ، وابن أجلى ؛ .... الى آخر ما ذكر من ابناء، يفسرها ويحتج لها حتى كاد يعمل منها معجما ، فلما فرغ من الابناء ذكر البنات فكان منها : بنت الارض وهى بقلة من الرمث ، وبنت الجبل للصدى وهو الصوت الذى يرجع اليك من الجبل وانت على معنى الصيحة ، وبنت الشفة للكلمة الى آخر ما ذكر مفردا وجمعا ثم ذكر البنين جمعا مذكرا ، ثم عاد للابناء مفردا ثم للآباء فكان منها :

ابو الحارث للاسد ، وأبو جعدة للذئب ، وأبو الحصين للثعلب ، وما جاء من ذلك كناية عن المعانى فكان منه ابو زيد للكبر . قال الشاعر :

اما ترىْ شِكّتى رميحَ أبى
زيد فقد أحمل السلاح معا

وأبو مالك وأبو عمرة : الجوع ، ويقال فى المثل (ابى ابو عمرة الا ما أتاه) يقوله الرجل قد سلم للدهر وقال الشاعر :

ان ابا عمرة حل حجرتى
وصار بيت العنكبوت بُرْمَتى

---

(1) جمهرة الامثال 1 : 19 لابى هلال العسكرى بتحقيق محمد ابو الفضل ابرهيم وعبد المجيد قطامش ط القاهرة 1384 هـ - 1964 م

ثم ذكر الامهات فكان منها : ام حلس كنية الاتان وام الهنبر ايضا ، والهنبر الجحش ••••• وعند فزارة ان ام الهنبر الضبع ، وأم حنين فيما بقوله المنتجع بن نبهان هي الخمر فاذا كان لونها اسود فهى ام ليلى ذكر ذلك ابو حنيفة الدينورى (1) •

وفى قولهم : برح الخفاء •

معناه : زال الستر وانكشف السر وهو من قولهم : برح الرجل من مكانه اذا زال عنه وقال ثعلب : معناه صار فى براح من الارض وهو ما ظهر منها فأما قولهم : ما برح فلان يفعل كذا فمعناه ما زال يفعله • وفى القرآن (لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين) اى لا أزال اسير حتى ابلغه ، وأبرح الرجل اذا جاء بالبرحاء وهو الامر الجسيم قال الشاعر :

ابرحت ربا ، وأبرحت جارا

وبرح به الامر اذا صعب عليه واشتد ، وتباريح الشوق شدته (2)

وكان يميل الى بيان اختلاف الرواة فى الكلمة اذا كان الخلف ففى قولهم : « اذا عز اخوك فهن » قال : هن من قولهم : « فلان هيّن ليّن » اذا كان سهلا منقادا ، وليس من الهوان • ورجل هين لين ، وهيْن ليْن لغتان قال الشاعر :

هيْنون ليْنون ايسار ذوو يسر
اربـاب مكرمة ابناء ايسار

وقال الزجاج : قوله (فهُن) بضم الهاء خطأ انما (فهِن) بكسر الهاء قال و (هن) بالضم من الهوان وليس له هاهنا موضع وليس كما

---

(1) راجع المثل رقم 21 فهو غنى فى مادته
(2) جمهرة الامثال 1 : 205 - - 206

قال انما هو من الهون بفتح الهاء وسكون الواو وهو الرفق واللين ، وفى القرآن (على الارض هونا) (1) .

وحظ الكتاب من اللغة عظيم ؛ وحظ الكتاب من الادب كحظه من اللغة وفيه أخبار وقصص وتاريخ وهو بهذا أوسع كتب الامثال استطرادا .

ولحمزة بن الحسن الاصفهانى ٣٦٠ هـ كتاب الدرة الفاخرة فى الامثال التى على وزن أفعل ، وقد وضعه ابو هلال او جزءا منه فى كتاب الجمهرة ، وأشار الى ذلك فى مقدمته بقوله : « وميزت ما أورد حمزة الاصفهانى من الامثال المضروبة فى التناهى والمبالغة وهى الامثال على (افعل من كذا) فأوردت منها ما كان كان عربيا صحيحا ونفيت المولد السقيم » .

(1) المثل رقم 41 ص 65 — 66

مجمع الامثال ـ للميداني 518 هـ

الميدانى ، هو ابو الفضل احمد بن محمد النيسابورى ــ نسبة الى ميدان بجوار نيسابور ، من علماء اللغة والتفسير تلمذ لابى الحسن الواحدى المفسر • من كتبه جامع الامثال ، والسامى فى الاسامى ، والانموذج فى النحو ، والنحو الميدانى ، ونزهة الطرف فى علم الصرف ، وكتاب شرح المفضليات •

وكتابه « مجمع الامثال » من أمثل الكتب فى هذا الفن ، فهو يحاول الاخبار والاستقصاء والترتيب ، ولا ننكر مع هذا فضل المفضل الضبى حين جمع القليل من الامثال ، وأطال البحث والكلام فى اسبابها فأضاف مادة واسعة جدا ــ صدقت أو لم تصدق ــ هي الزم ما تكون لمعرفة احوال العرب قديما ، ولا يتأتى فهم المثل الا بسند من تلك المعرفة ، بكل ظروفهم الاجتماعية والميتافيزيقية ايضا كما اوردها رجل كالمفضل •

ومجمع الامثال حلقة متطورة رأى مؤلفه حالة الباحث يعجله وقته ، فدله على بغيته • وقسم لذلك الكتاب الى ابواب بعدد حروف المعجم ، وأتبعه فيما جاء منه على « أفعل » من هذا الباب متأثرا فى ذلك كتاب حمزة بن الحسن الأصفهانى ، ثم بأمثال المولدين •

ولا يقف فضل الميدانى عند حد الترتيب والتبويب ولكنه فى الحقيقة قد جمع ما نثر فى بطون الكتب ، وأفاد من مؤلفات السابقين فكان عونا على مغالبة الايام التى أطاحت بهذه الكتب والتى لم يبق الا بعضها فى كتاب الميداني وهو يشير الى مراجعه فيقول : « فطالعت من كتب الأئمة الاعلام ما امتد فى تقصية نفس الايام مثل كتاب ابى عبيدة وابى عبيد . والاصمعى وابى زيد ، وابى عمرو وابى فيد ، ونظرت فيما

جمعه المفضل بن محمد بن سلمة حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا ، ونخلت ما فيها فصلا فصلا وبابا بابا » • ووضح فى مقدمته طريق الاسناد فقال : « فاذا قلت المفضل مطلقا فهو ابن سلمه واذا ذكرت الآخر ذكرت اسم ابيه » يعنى الضبى ، او ابن محمد •

وفى الباب الاول قدم لما جاء منه على « أفعل » بمقال لغوى بين فيه الوجه اذا كان للتفضيل ، وأنه فى ذلك على ثلاثة أحوال :

ـ ان يكون معه « من » نحو : زيد أفضل من عمرو •

ـ أن تدخل عليه الالف واللام نحو : زيد الافضل •

ـ أن يكون مضافا نحو : زيد أفضل القوم •

فاذا كان مع « من » استوى فيه الواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث •••• وقد تأتى « من » مضمرة كما جاء فى قوله تعالى (هن أطهر لكم) اى من غيرها •

واذا كان مع الألف واللام ثنى وجمع وأنث ، تقول : زيد الأفضل ، والزيدان الأفضلان ، والزيدون الافضلون وان شئت الأفاضل • وهند الفضلى ، وهندان الفضليان ، والهندات الفضليات وان شئت الفضل قال تعالى : (انها لأحدى الكبر) ـ والالف واللام تعاقبان « من » فلا يجوز الجمع بينهما، لا يقال : زيد الافضل من عمرو •

وقال: من شرط « أفعل » الا يضاف الا الى ما هو بعض منه كقولك: زيد افضل الرجال ، وهند أفضل النساء •••• ولهذا لا يجوز : زيد افضل اخوته لأن الاضافة تخرجه من جملتهم ، ويجوز : زيد افضل الاخوة ، والاضافة فى جميع هذا ليست بمعنى اللام ، ولا بمعنى من ، ولكن معناها ان فضل المذكور يزيد على فضل غيره •

وفرق بين قولهم « زيد افضل القوم » و « زيد افضل مـن القوم » ففى الاولى كان زيد واحدا منهم ، وفى الثانية كان خارجا من جملتهم ـ. ولقد تناول هذه القضية من قبله ابو سعيد الحسن بـن عبد الله السيرافى فى مناظرة بينه وبين متى بن يونس • فقال ابو سعيد السيرافى : اذا قلت : زيد أفضل اخوته لم يجز ، واذا قلت : زيد أفضل الاخوة جاز ـ والفصل بينهما ان اخوة زيد هم غير زيد وزيد خارج من جملتهم •••• فاذا قلت : زيد افضل الاخوة جاز لأنه احد الاخوة (1) •

وقال الميدانى : ومن شرط افعل ان يكون مصوغا من فعل ثلاثى ••• ذلك ان بعض ما زاد على ثلاثة احرف يمتنع ان ينى منه افعل فبنوا مـن الثلاثى لفظا ينبىء عن الزيادة وأوقعوه على مصدر ما أرادوا تفضيله فيـه فقالوا : زيد اكثر افضالا ، وأعم احسانا الخ وضع الميدانى فـي منهاجـه استقصاء الامثال بعجرها وبجرها حتى ما كان منهـا سيء الذوق ، وكنت قديما أضيق بتعبير ابى عبيدة معمر بن المثنى وهو يدلل على فصاحة اللغة التى تلقاها بقوله : أخذنا اللغة عن الاعراب البوالين على اعقابهم ، فـاذا الميدانى يذكر فى امثاله قولهم :

ـ بقطيه بطبك • ويقول فى تفسيره : التبقيط : التفريق ، والبقط : ماسقط وتفرق من التمر عند الصرام ، وقال ، وأصل المثل : ان رجلا اتـى عشيقته فى بيتها فأخذه بطنه ، فأحدث فى البيت ، ثم قال لها : بقطيه بطبك اى بحذقك وعلمك ، اى فرقية لئلا يفطن اليه • (2)

ـ وقولهم فى عبارة عارية : ابنـك ابن ايـرك ليس ابن غيرك (3)

---

(1) معجم الادباء 8 : 213 — 214

(2) الامثال للميدانى 1 : 99 رقم 484

(3) الامثال للميدانى 1 : 107 رقم 543

وعندهم ما يغنى عن هذا ، عندهم قولهم : ابنك ابن بوحك ، وعندهم : ولدك من دمى عقبيك •

ــ ولا ينتظر من اجلاف الاعراب مراعاة الذوق فى الدعاء ، فلا يحتشم وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى ، ففى تفسير المثل « تربت يداك » يقول ابو عبيد : يقال للرجل اذا قل ماله قد ترب أى افتقر حتى لصق بالتراب ، وهذه كلمة جارية على السن الناس يقولونها ولا يريدون وقوع الامر ، الا تراهم يقولون : لا أرض لك ، ولا أم لك ويعلمون أن له أرضاء وأما • وقال المبرد: سمع اعرابى فى سنة قحط بمكة يقول :

قد كنت تسقينا ، فما بدا لكا

رب العباد ، مالنا ؛ ومالكا

انزل علينا الغيث ، لا أبا لكا

قال : فسمعه سليمان بن عبد الملك فقال : اشهد ان لا أبا له . ولا أم ولا ولد • (1)

واذا ذكرت هذه الهنات ، مع أنها فى رأى الآخرين ليست كذلك ، وانها آثار قوم يجب ان تجمع بقضها وقضيضها ، ففى الكتاب من اللغة والادب واللغة ما هو متفق على جماله وكماله ــ ولقد كان هذا الاستقصاء رغبة من الامير محمد بن ارسلان الذى اشار على الميدانى بجمع (كتاب الامثال مبرز على ما له من الامثال ، مشتمل على غثها وسمينها محتو على جاهليها واسلاميها) •

---

(1) مجمع الامثال للميدانى 1 : 133 رقم 662

الفصل الثالث

المعرب والدخيل

أولا ـ قبل الاسلام وفي طوره الاول

وهذا مصدر من مصادر العربية لم ينشأ فى أرضها ابتداء ، وانما وفد اليها بحكم التأثير والتأثر بين اللغات ، فلم تكن العربية حبيسة منعزلة فى هذه الجزيرة ، وانما كان للمجتمع المكى رحلة الشتاء والصيف الى اليمن والشام ، وكانت القبائل الشرقية على صلة وثيقة بالعراق وفارس ، وكان اقليم ميسان مكان البصرة الحالية ملتقى السفن التواجر الآتية الى الخليج العربى ، وكانت القبائل التى سكنت البحرين وعمان على صلة دائمة به وتذهب فى سعيها اليه حتى ذهب بلينوس — فى وسط القرن الاول المسيحى — الى أن هذا الاقليم كان خاضعا لبعض القبائل العربية ، وكذلك كان يحكمها قبائل من عمان حين أخضعها أردشير لحكمه فى القرن الثالث الميلادى ؛ وفى حديث للمثنى بن حارثة الشيبانى وهو يهيىء رجاله

للحرب يشير الى صلة العرب بهذا الاقليم وبما وراءه من حدوده الشرقيــة فيقول : « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قــد تبجبجنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهــم واجترأ من قبلنا عليهم » (1) كما أن الفرس والأحباش وصلوا الى اليمن والحجاز غازين هذه البلاد •

ولا يمكن أن تمر هذه الصلات دون أن تترك أثرها فى اللغة ، يشير الجاحظ الى نزول ناس من الفرس قبل الاسلام الى المدينة فعلق أهل المدينة بألفاظ من الفاظهم ولذلك يسمون البطيــخ الخربــز ، ويسمون السميط الرزدق ، ويسمون المصوص المزوز (2)

ولانتشار اللغة الدخيلة ، أو ترك بصماتها أسباب ، قد يكون مــن بينها تخفيف الجهد ، أو التظرف ، أو الحاجة الى الفاظ لا تستطيع البيئة الوفاء بها ، ويدلنا الاستاذ ج • برجستراسر فى كتابه التطور النحوى على بعض الدخيل الذى تأثرت به العربية ، وعربته فيقول : (••••• ونحــن نكتفى بذكر بعض ما دخل العربية قبل الاسلام أو فى طوره ، منها اصطلاحات الادارة كالديوان ، والرزق ، والمرزبان ، والدهقان ، والفرسخ ، والتاج • ومنها ألفاظ دينية كالدين ، والجناح ، والمجوس ، والنيروز ، ومنها اسماء الاشياء الخاصة بالعجم أو المجلوبة مــن عندهم كالصنج ، والصولجان ، والفيل ، والجاموس ، والمسك ، وانواع النسائج كالديباج والاستبرق ، والابريسم ، والطيلسان ، والقبط ، ومنها غير ذلك كالسراج والخندق) (3)

---

(1) تاريخ الطبرى 2 : 631 ط الاستقامة 1357 هـ ــ 1939 م

(2) البيان والتبيين 1 : 19 ط عبد السلام هارون
السميط = الآجر بعضه فوق بعض • الرزدق اصلــــه بالفارسية رسته اى السطر والصف من النخل وغيره

(3) التطور النحوى 144 للاستاذ ج • برجستراسر ط مصر سنة 1929

وذكر برجستراسر أن بعض هذه الكلمات قد تدخل العربية مباشرة، وقد تتأثر بها الآرامية ثم تنتقل ، وأحيانا لا تكون هـذه الكلمـة فارسية الاصل ، بل قد تكون منقولة من لغة أخرى قال : (ومشك ، أصلها هندى فدخلت الفارسية ، ثم الآرامية ، والعبرية وقد حدث ذلك مرارا) (1) •

وكثير من هذا الدخيل تعرب ، ككلمة (جناح) أصلها (كناه) فيقابل الكاف الفارسية الجيم العربية؛ وقال : ان الكلمات الآرامية المعربـة كثيرة لا تكاد تحصى ، كما اشار الى الحبشية أيضا ونحن نكتفي بالاحالة الـى كتابـه •

وفى محاضرة القاها العلامة عبد القادر بـن مصطفى المغربى صـور وقوع المعرب على السنة العرب ، والتمثيل له تمثيلا يدنيه مـن المشاهدة نقتطف منها ما يلى :

(•••• كثيرا ما يلمح فى الألفاظ المعربة انها تـدل عـلى منـازع اجتماعية وراء دلالتها على معانيها اللغوية الدالة عليها بالوضع ، ويظهـر هذا بنوع خاص فى الكلمات التى اقتبسها العرب من جيرانهم الفرس •

فان العرب كانوا أكثر اختلاطا بالفرس مـن غير الفرس ، ومصالحهم السياسية والقبلية ومرافقهم الاقتصادية والمعاشية أعظـم اشتباكا ، وأشد احتباكـا •

وقد كانت المدائن عاصمـة فارس والحيرة عاصمـة العـرب منتجع الفريقين ، وملتقى العقليتين أو الثقافتين (اذا صـح هـذا التعبير) وكان لعرب الجاهلية ثقافة يعتد بها •

ففى تينك الحاضرتين وغيرهما من قـرى الحـدود ودساكرها كان

---

(1) المصدر السابق 145

الفرس والعرب. يتقارضون الكلمات والعادات مثلما كانوا يتقايضون السلع وضروب البياعات وذلك بالقدر الذى تطيقه حالة عرب الجاهلية يومئذ ويتحمله محيطهم •

نزور مدينة الحيرة عاصمة العرب فى ذلك العهد ، ونجول فى ساحاتها وأرباضها فنرى هنا وفودا من العرب عقلوا أباعرهم ، ولاثوا عمائمهم ، وتنكبوا قسيهم ، ومشوا الخيلاء بمطارف الخز ، وبرود اليمن ، وهم سمر صلع مسترسلو اللحى ، شم الأنوف من الطراز الاول •

ونرى هناك نساء من النصارى يرفلن فى الدمقس وفى الحرير ، يتراكضن الى الكنيسة ليسمعن قداسا يقوم به جاثليقها (صبر يشوع) •

وبجانبهن على برازيق الطريق أسراب من أولادهن يهرولن الى الكتاتيب يحملون الدفاتر والألواح ، وفى اعناقهم وأعناق أمهاتهم صلبان الفضة والذهب ، وفى أرجلهم النعال من جلد (الأرندج) وهو الجلد الاسود أو المدهون بالدهان الاسود (البويا) •

ثم لا نلبث أن نسمع قعقعة اللجم ووقع حوافر خيل البريد قادمة الى الحيرة من (المدائن) عاصمة فارس تنهب الارض نهبا تحمل الى ملكها (النعمان بن المنذر) رسائل الملك (كسرى) يأمره فيها وينهاه ومع البريد أساورة ودهاقين من عظماء فارس حمر الوجوه صهب الشوارب محلوقو اللحى على رؤوسهم القلانس البطح او الضاربة فى الهواء صعدا ، وقد أفرعوا على أبدانهم أقبية الحرير الملونة بالارجوان ، والمخوصة بالذهب ، وفى أوساطهم مناطق الفضة تتدلى منها السيوف والخناجر المرصعة •

واذا أحد هؤلاء الدهاقين يحاور رجلا فى أمر بيع وشراء ، وقد

ارتفع صوت الدهقان واحمر لونه ، فنسأل سوقيا مـن عرب الحيرة عـن الخبر فيقول لنا :

ان الدهقان أعطى هذا (السفسير) الذى يجادله (نـُمـِّيا) ليبتاع له (فصافص) لفرسه وكأن (الفصافص) لم تعجب الدهقان فردهـا الـى (السفسير) واسترد منه (نـُمـِّيَّة) • فقلنا للعربى الحيرى : ويحك ماذا تقول ؟ فاننا لم نفهم مما قلت شيئا • فتفرس فى وجوهنا قليلا ثم قال :

السفسير : كلمة فارسية بمعنى السمسار •

الفصافص : جمع فصفصة : القت أو الباقيـة التي تعلفها الدواب • وهى أى الفصفصة كلمة فارسية معربة من (اسفست) •

والنـُّمـِّى : كلمة رومية تدل على ضرب من النقود يتعامل بـه أهـل بلدنـا •

فامتعضنا وقلنا له : ويلكم يا أهل الحيرة ، أوقعتمونا من أمركم فى حيْرة ، تتكلمون بالكلمات الفارسية وأنتم عرب ؟ قال : وما علينا فـى ذلك ، وهذا النابغة شاعر مليكنا النعمان يصف ناقتـه التى لـم تجرب ، ويذكر شراء الفصفصة لها بالنمى بواسطة السفسير فيقول :

وقارفت وهى لم تجرب وباع لها
من الفصافص بالنمى سفسير) (1)

لعل هذه الصورة الطريفة قد اعجبتك ، ورأيت فيها بعينى رأسـك كيف يقع المعرب على لسان العرب ، وكيف يأخذ أمكنته فى شعر الشعراء•

ترى ما الفرق بين المعرب والدخيل

لقد تركتك يا سيدى القارىء عن عمد ، وجعلت أذكر كلمـة المعرب

---

(1) الاشتقاق والتعريب 86 — 88 للعلامة عبـد القادر بـن مصطفى المغربى ط لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1366 هـ — 1947 م

مرة ، وكلمة الدخيل مرة لكى تدرك ـــ ان شئت ـــ كما أدركت أنا أن الفارق لا يكاد يبين فكلاهما آت أو دخيل من لغة أخرى ، أما أنه معرب فيعنى ـــ كما أتصور ـــ أنه هذب وشذب حتى أخذ هيكل العربية وطاع للاشتقاق فجاء من الفعل فاعل واسم فاعل ، وقد يأتى مفعول واسم مفعول ، وسار فى فلك العربية كما تسير الفاظ هذه اللغة ، وأما الدخيل فهو الذى دخل العربية على هيئته فى لغته او حرف قليلا ، ودخل على العربية حصنها ، ودار على ألسن أهلها بقوة الحاجة اليه • فاذا لم يكن كذلك فلك أن تفهم ما تشاء من أقوال العلماء السابقين وهذه بعضها :

يقول ابو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقى **465 — 540** هـ فى كتاب المعرب ، فى باب ما يعرف من المعرب بائتلاف الحروف :

ـــ لم تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية ، فمتى جاءتا فى كلمة فاعلم أنها معربة •

ـــ ولا تجتمع الصاد والجيم فى كلمة عربية من ذلك الجص ، والصنجة ، والصولجان ونحو ذلك •

ـــ وليس فى أصول أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ، فاذا مر بك ذلك فاعلم ان ذلك الاسم معرب نحو نرجس ، ونرس ، ونورج •

ـــ وليس فى كلامهم زاى بعد دال الا دخيل من ذلك الهنداز والمهندز وأبدلوا الزاى سينا فقالوا (المهندس) •

ـــ ولم يحك أحد من الثقات كلمة عربية مبنية من باء وسين وتاء ، فاذا جاء ذلك فى كلمة فهى دخيل (1) •

---

(1) المعرب للجواليقى 59 — 60 ط دار الكتب سنة 1389 هـ ـ 1969 م تحقيق احمد محمد شاكر

فأنت ترى تعاقب الكلمتين : معرب ، ودخيل بمعنى واحد .

ويقول السيوطى 849 — 911 هـ تعريفا بالمعرب ، وقد عقد له الباب التاسع عشر من كتاب المزهر (هو ما استعمله العرب من الالفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها) ونقل عن صحاح الجوهرى : (تعريب الاسم الأعجمى أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عرّبته العرب ، وأعربته أيضا) (1)

ويقول شهاب الدين احمد الخفاجى 977 — 1069 هـ فى كتابه (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) :

(واعلم أن التعريب نقل اللفظ من العجمية الى العربية ، والمشهور فيه التعريب ، وسماه سيبويه وغيره اعرابا وهو امام العربية ؛ فيقال حينئذ : معرّب ومعرَب) (2) .

ويقول عبد القادر بن مصطفى المغربى (ليس التعريب فى اللغة العربية عملا بدعا ، وليس وجود اللفظ المعرب فى جسم اللغة العربية كوجود جسم غريب فى جسم الانسان من حيث يضر بقاؤه وتجب ازالته . والمعرب — ويسمى أيضا دخيلا — هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها) (3) .

ولقد امتزج العربى بالمعرب والدخيل قبل الاسلام حتى لا يكاد يبين الا اذا عرضته على تلك الخصائص التى أشار اليها رجل كالجواليقى فى أول كتابه المعرب حين قال : لم تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية فمتى

(1) المزهر 1 : 268 ط الحلبى
(2) شفاء الغليل فيما وقع فى كلام العرب من الدخيل ص 3 ط مصطفى محمد ، مصر
(3) الاشتقاق والتعريب 16

جاءتا في كلمة فاعلم أنها معربة أو يقول : لم تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية الا بجاجز ... الى آخر ما ذكر (1) .

والذين أوتوا نصيبا من المعرفة بأصول اللغات المجاورة تعلقوا ببعض هذا المعرب وقالوا : هو آت من الفارسية ، أو الآرامية ، أو الرومية ، أو الحبشية ، أو الهندية وكل هذا متقبل حسن .

وقال بعض العلماء انه لا يجوز الاشتقاق من المعرب منهم الجواليقى الذى قدم لكتابه المعرب بقوله :

(هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت بـه العرب من الكلام الأعجمى ، ونطق به القرآن المجيد ، وورد فى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، وذكرته العرب فى أشعارها وأخبارها ليعرف الدخيل من الصريح ـ ففى معرفة ذلك فائدة جليلة وهى ان يحترس المشتق فلا يجعل شيئا من لغة العرب لشىء من لغة العجم فقد قال ابو بكر بن السراج فى رسالته فى الاشتقاق فى باب (ما يجب على الناظر في الاشتقاق أن يتوقاه ويحترس منه) : ... مما ينبغى أن يحذر منه كل الحذر أن يشتق من لغة العرب شىء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت) .

وحكى عن أبى على قال : رأيت أبا بكر يدير هذه اللفظة (بوصى) ليشتقها فقلت : أين تذهب انها فارسية انما هو (بوزيد) وهو اسم جدنا! قال : ومعناه السالم ، فقال أبو بكر : فرجت عنى (2) .

---

(1) المعرب للجواليقى ص 59 و 142
(2) المصدر السابق 51 ـ 52

وهذا ــ من وجهة نظرنا ــ غير متقبل ويخالف ما فرض علـى جميع اللغات من خضوعها للتأثر باللغات الأخرى تحت ظروف معينة الا اذا كـان المقصود ان الكلمة المعربة لم تشتق أصلا من كلمة عربية فالمعرب والدخيل الذى تعارف الناس على دلالته فى العصر الجاهلى والاسلامى المبكر قـد أخذ سمت العربية ودار على الألسن ، وجاء فـى شعر شعرائهـم فتقبلـه رواتهم ، وتذوقه جمهورهم فلم ينفروا منه وكانت الحاسة اللغوية من أدق حواسهم . وهذه الكلمة بذاتها (بوصى) وردت فى شعر ثلاثة من قدامى الشعراء فيقول طرفة فى معلقته :

وأتلع نهـاض اذا صعـدت بـه
كسكان بوصى بدجلـة مصعـد

ويقول الأعشى :

ما يجعل الجد الظنون الـذى
جنب صـوب اللجـب الماطـر
مثـل الفراتـى اذا مـا طمـا
يقـذف بالبـوصـى والماهـر

الجد : بضم الجيم وتشديد الدال وضمها البئر الجيدة الموضع مـن الكلأ ــ الظنون : الذى لا يوثق بمائه ، ــ اللجـب : الكثير الصوت ــ طما : ارتفع ــ الماهر : السابح وقال الحطيئة :

وهند أتى من دونها ذو غوارب
يقمص بالبوصىّ معرورف ورد (1)

---

(1) المعرب 102 ــ 103

وفى الشعر القديم فيض من الألفاظ المعربة ، ولولا أن علماء المعرب والدخيل أفردوا لها ، وأشار اليها رواة اللغة وأصحاب المعاجم لاختلط على أمثالنا الأمر فهى ليست أكثر غرابة من الألفاظ التى وردت فى الرجز والشعر القديم ، ونحن نحتاج فى كشف غامض الغريب الى المعاجم فنتعرف على معناه ونتعرف أيضا على رأى العلماء فى أصله هل هو عربى أم معرب •

وأكثر ما جاء المعرب فى شعر عدى بن زيد ، والاعشى ، وحسان ابن ثابت ، وطرفة ، ونحن لا نريد أن نورد عليك أمثالا من ذلك ، والا قدمنا اليك كتابا ككتاب المعرب للجواليقى ، أو استخلصنا من جمهرة ابن دريد ما هو أكثر من كتاب المعرب فقد كان ابن دريد كلفا بهذا النوع من الدراسة ، ونحن نحيلك على كتاب الجمهرة فى اللغة لترى منه ما جاء فى شعر القدامى •

وجاء القرآن الكريم ، وفيه من هذه الألفاظ التى أشار اليها علماء اللغات ، فقال بعضهم بأنها أعجمية، وأنها آتية من هذه اللغة أو تلك، وهناك فئة من العلماء تحمسوا لنفى العجمة عن تلك الالفاظ فكان هذا رأى آخر ولكنه اتخذ طريقين ، كان محمد بن جرير الطبرى يرى من الكلام ما يتفق فيه اللفظ واللفظ بين لغتين وأكثر ولذلك لا يرى أحد الجنسين أولى من الآخر بنسبة الأصل الا بخبر يوجب العلم ويزيل الشك ويقطع العذر صحته، والصواب عند الطبرى أن يسمى اللفظ عربيا أعجميا ، او حبشيا عربيا اذا كانت الامتان له مستعملتين فى بيانها ومنطقها استعمال سائر منطقها وبيانها (1)

وفريق لا يتكلف هذا التكلف ، وانما يأخذ الامر سهلا على

---

(1) انظر تفسير الطبرى 1 : 15 ــ 16 وما كتبناه عن هذا الاصل فى الباب الاول من هذا الكتاب

طبيعته ــ والذين قالوا بخلوص عربية القرآن لم يذهبوا هذا المذهب ايغالا في التحرج الديني، ولا مرضاة لوازع تمليه القومية، ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم يرون أن العربية التى تكلم بها خلص العرب فى الفترة المبكرة . وتعارفوا على دلالات الفاظها قد تم لها الادراك والبلوغ وكمال النشأة فهى عربية بحكم هذا الواقع .

كان ابو عبيدة معمر بن المثنى يقول : (من زعم أن فى القرآن لسانا سوى العربية فقد أعظم على الله القول) واحتج بقوله تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا)

وكان أبو عبيدة القاسم بن سلام يزاوج بين الرأيين بقوله . (والصواب من ذلك عندى ــ والله أعلم ــ مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، وذلك أن هذه الحروف وأصولها عجمية كما قال الفقهاء ، الا انها سقطت الى العرب فأعربتها بألسنتها ، وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال عجمية فهو صادق) (1)

ثانياً ـ بعد الاسلام

ترى هل توقف المعرب والدخيل بعد أن تزحزحت الحدود العربية الاسلامية الى الامام فى كل الاتجاهات ورحبت بها الأرض من الصين فى مشارقها الى الاندلس فى مغاربها ، وأصبح من مقاليد الأمور فى يدها السيف ، والدين ، واللغة ؟

وهل بقيت العربية فى حصنها الذى يزاد لها وقد أخذوا يحيطونها

(1) الصاحبى فى فقه اللغة 29 ط القاهرة 1318 هـ ــ 1910 م

بكل وسائل الحماية ويدفعون عنها ألسنة الغربـاء ويحقرون مـن شـأن المو الـى ؟

يروى فى رحلة الليث بن المظفر الى البادية أن المظفر بن سيار مـر به عناق وابنه الليث قد حضره فقال له وأراد أن يخبره : ما هـذا ؟ فقال : (بز) بالفارسية فقال : لأسيرنك الى حيث لا تعرف (بـز) فسيره الـى البادية .... ففيها تأدب (1) .

وكان الاصمعى يقول : ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكبا ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه رائحة طيبة ــ وثلاثه تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ فـى محفل ، أو سمعته يتكلم فى مصر عربى بالفارسية ، أو رأيته على ظهر الطريق ينـازع فـى القـدر (2) .

الحقيقة أن هذا السياج الذى ضرب حول العربية كان شيئا يخالف طبيعة اللغات فلم يدفع عنها دخيلا ــ أو بحسب تعبيرى جديـدا ــ جاءها من الشعوب التى تعاملت معها ووسع من دائرة المعرب عاملان قويان :

ــ انشاء الديوان وتعريبـه .
ــ وحركـة الترجمـة .

أما الديوان

فقد رأى عمر بن الخطاب بعد أن فتح الله على يديه أرجـاء هـذه البلاد ، وأفاء عليه من خيراتها أن يحصى هذا الدخل ، وينظم توزيعه على

(1) معجم الادباء 17 : 50
(2) عيون الاخبار لابن قتيبة 1: 296

جنوده وقبائلهم فاستحدث نظاما لقيد الاسماء والعطاء وسمى ديوان الجيش ، وكان يحرر بالعربية على نظم بسيطة ، فلما أحسوا بأثر هذا التنظيم فى البلاد رأوا تعميمه فى عواصم الاقطار المفتوحة ، وسجلوا فيه القرى ومساحاتها وما يتصل بتنظيم الخراج ، الا أن هذا الديوان الجديد لم يكتب بالعربية وانما بلغات أهل البلاد المفتوحة فكان بالفارسية في العراق وفارس ، وبالرومية فى الشام ، وفى مصر بالقبطية والرومية واستخدموا أهل هذه البلاد لاعداد هذا الديوان ، وظل أمره على ذلك حتى تولى الحكم عبد الملك بن مروان ، وكانت الدولة الاموية تنتصر لكل ما هو عربى فبدأ عبد الملك يضرب العملة العربية فى سنة أربع وسبعين ، وتبعه الحجاج فضرب الدراهم فى سنة خمس وسبعين ، وضربت فى أنحاء البلاد سنة ست وسبعين — وكانت الخطوة التالية أن عرب الديوان فى فارس والعراق والشام ومصر (1) •

كان من الطبيعى أن يدخل الى العربية كثير من ألفاظ هذه اللغات وخاصة تلك التى تتصل بالحساب ، والمساحة ، والمكاييل ، والأوزان ، والزراعة ، والتجارة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل — فيعرب — أو — يدخل على هيئته فى لغته الاصلية • وكان لتعريب الديوان أثر آخر هو دخول عماله وموظفيه فى زمرة المتكلمين بالعربية ومنهم أهل البلاد الذين لا يجيدونها فكانوا من عوامل نشر الدخيل فى العربية •

واما الترجمة

فقد مضى القرن الأول والدراسات العربية تدور حول القرآن والحديث•

---

(1) الخبر مبسوط فى فتوح البلدان للبلاذرى ، وافدت من مقال للاستاذ عبد الحميد العبادى . مجلة مجمع اللغة العربية العدد التاسع ص 48

وتفرع من ذلك الفقه والأصول والغزوات الى غير ذلك ، وكان على تخوم البلاد ثقافات شتى بعضها من اليونان ، وبعضها من مدرسة الاسكندرية ، وأخرى كلدانيية من الشرق ، وكانت الفلسفة والطب وعلوم الصنعة والكيمياء أهم ما نقل الى العربية ، وكان القائمون بالتعليم والترجمة من غير العرب ، وبعضهم من العرب الذين مازجوا بين ثقافات مختلفة .

بدأت حركة الترجمة فى العصر الأموى ، فكان خالد بن يزيد بن معاوية ـ كما يحكى ابن النديم ـ يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلا، وله همة ومحبة للعلوم ، فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى (1) .

ونشطت الترجمة نشاطا ملحوظا فى الغصر العباسى حين شاركت الدولة فى استحضار الكتب من البلاد الاجنبية وأوصت بترجمتها ـ ذكروا ممن ترجم عن الفارسية ابن المقفع ، وموسى ويوسف ابنا خالد ، وأما الحسن على بن زياد التميمى ، وأحمد بن يحيى البلاذرى ، وجبلة بن سالم كاتب هشام ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكى ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى الكردى ، وزاذويه بن شاهويه الأصفهانى ، ومحمد بن بهرام بن مطيار الاصفهانى ، وبهرام بن مردان شاه ، وعمر بن الفرخان (2)

ومن الذين ترجموا من الهندية : منكه الهندى وكان يتصل باسحق ابن سليمان بن على الهاشمى ، وابن دهن وكان اليه بيمارستان البرامكة (3)

(1) الفهرست 338 ط الرحمانية
(2) الفهرست 342 ط الرحمانية
(3) نفس المصدر والصفحة

ومن مشاهير المترجمين ماسرجويه الذى نقل كتاب أهـرن الـى العربيـة وهو كتاب فى الطب الفه صاحبه بالسريانية •

وبعد فتح عمورية وبلاد الروم نقلت كتبها وأودعت خزائن الدولـة وطلب الخليفة العباسى من يوحنا بن ماسويه العمل عـلى ترجمتها ، ورتب له كتابا حذاقا • ورغب يحيى بن خالد البرمكى فى معرفة كتاب المجسطى لبطليموس ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره أبـا حسان ، وسلـم صاحب بيت الحكمة • وفى أيام المأمون تولى حنين بن اسحق رياسة حركة الترجمة خلفا ليوحنا بن ماسرجويه ، ثم اشتغل ابنه أيضـا بالترجمة ففسر اسحق بن حنين كتاب السياسة لأفلاطون ، وكان يحيى بن عدى ، وابـن البطريق من مشاهير التراجمـة •

وعقد ابن أبى أصيبعة فصلا فى طبقات الأطبـاء عن النقلـة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليونانى الـى اللسان العربـى ذكـر جورجس ، وحنين بن اسحق وكان عالما بالعربية والسريانيـة واليونانيـة والفارسية ، واسحق بن حنين ، وحبيش الأعجـم ، وعيسـى بـن يحيى ، وقسطا بن لوقا ، وأيوب الأبرش ، وماسرجيس وكان ناقلا مـن السريانى الى العربى ، وابنه عيسى نقل كتاب الألوان ، وكتاب الروائـح والطعوم ، وشهريا الكرخى وابنه ، والحجاج بن مطر الـذى نقـل للمأمون كتـاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة ••••• وآخرين (1) •

هذا الاتساع العلمى الجديد تعثر أمـام اصطلاحات وتعاريف لـم

(1) طبقات الاطباء لابن ابـى اصيبعـة 302 ـ 304 ط الوهبية سنـة 1300 هـ

تستطع العربية أن تقدم من كلماتها ما يعبر عنها فكان لا بد من تعريبها حتى ينتفع بها القارىء ، ويتيسر له فهم هذه العلوم الجديدة ، وحاول بعض العلماء تذليل هذه الصعاب بوضع كتب للمصطلحات لتعين المترجم والقارىء على السواء ، منهم أبو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الخوارزمي (1) الذي يقول في مقدمة كتابه (مفاتيح العلوم) « دعتني نفسي الى تصنيف كتاب ••••• يكون جامعا لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات متضمنا ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة حتى أن اللغوي المبرز في الأدب اذا تأمل كتابا من الكتب التي صنفت في أبواب العلوم والحكمة ، ولم يكن شدا صدرا من تلك الصناعة لم يفهم شيئا منه ، وكان كالأمي الأغتم عند نظره فيه •••• ولم اشتغل بالتفريع المفرط •••• ولا بايراد الحجج والشواهد اذ كان أكثر هذه الاوضاع أسامي وألقابا اخترعت ، وألفاظا من كلام العجم أعربت ، وسميت هذا الكتاب (مفاتيح العلوم) اذ كان مدخلا اليها ومفتاحا لأكثرها » •

وكان لكل طبقة من العلماء عبارات اصطلحوا عليها ، وعرفت فيما بينهم • كانت الفلسفة مثلا من العلوم التي انتفع بها العقل العربي ، وأمدت العرب بكثير من الألفاظ تعربت ، أو دخلت العربية على هيئتها • كان المعتزلة من أول المؤسسين للنهضة العقلية المتحررة في الاسلام ، وغلبوا حرية الرأي المبني على الدراسة والعقل على التسليم لمجرد التقليد ، فأفاد متكلموهم من المنطق والفلسفة ويقول الجاحظ :

---

(1) هو أبو الريحان البيروني ، اتصل بالسلطان محمود الغزنوي ، وصاحبه في رحلاته الى الهند فتعلم لغتهم والف كتبا كثيرة ، وتوفي بغزنه في حدود سنة ثلاث واربعمائة عن سن عالية معجم الادباء 17 : 180

(وهم ـــ يقصد المتكلمين ـــ تخيروا تلك الألفـــاظ لتلك المعانـــى .
واشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء واصطلحوا عاـــى تسمية مـــا لم يكن له فى لغة العرب اسم) (1) وعمدوا فى سبيل هـــذا الى النحت لخلق ألفاظ جديدة كالهوية ، والماهية ، وقد يضمون لا النافيـــة الى كلمـــة مـــا ليخلقوا لفظا جديدا كاللانهائية ، واللاأدريه ـــ فان أعوزتهم الضرورة ولم يجدوا فى العربية واشتقاقها ونحتها متسعا عربوا عن اللغات الأجنبية .

والمشتغلون بالطب

جمعوا مادته من مدرسة الاسكندريـــة ، وجنديسابور ، وترجمت مادته على أيدى آل بختيشوع ، وظلت العربية تعانى فقـــرا فى المسميات فلم يجد ابن سينا من الاسماء العربية ما يصلح لتسمية الامراض فجاهـــد فى تكوين التراكيب العربية وقال : قد تلحقها التسمية من وجوه ، اما من الاعضاء الحاملة لها كذات الجنب ؛ وذات الرئـــة ، وامـــا مـــن اعراضهـــا كالصرع ، واما من اسبابها كقولهم : مرض سوداوى ، واما من التشبيـــه كقولهم داء الاسد ، وداء الفيل ، واما منسوبا الى أول من يذكر أنه عرض له كقولهم قرحة طيلانية منسوبة الى رجل يقال له طيلانى ، واما منسوبـــة الى بلد يكثر حدوثه فيها كقولهم : القروح البلخية ، واما منسوبا الى من كان مشهورا بالانجاع فى معالجتها كالقرحة السبروتية . واما من جواهرها وذواتها كالحمى والورم (2) .

ويبدو من هذا الجهد محاولتهم التعلق بالعربية الى الحـــد الممكن .
ولكن الحاجة دفعتهم الى قبول ألفاظ من لغات أخرى : قالوا : الترياق أو

---

(1) مقال للاستاذ محمد الخضر حسين . مجلة مجمع اللغـــة العربيـــة العدد السادس 95

(2) نفس المصدر

الدرياق ، وقال فيه الخوارزمي انه مشتق من تيريون باليونانية وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعي ونحوها ، والبحران لبعض أعراض الحمى عن السريانية (1)

ورجال الفقه

لجأوا الى الاتساع الاصطلاحي عندما أرادوا الخروج بمدلول لبعض الالفاظ على غير ما وضعت له لغة . فالصلاة بمعناها اللغوى مجرد الدعاء ، والحج : مجرد القصد ، والصيام هو الامساك فأصبحت تشير الى مدلولات أخرى فى طقوس العبادة والمناسك ، ولكن لم يسعفهم هذا الاتساع الاصطلاحي للتعبير عن مدلولات جديدة صادفت حياتهم الجديدة فاضطروا عندما يعرض لهم مسمى ولا عهد للعرب به الى تعريبه أو استعماله كما هو فقالوا :

السفتجة ، وهو لفظ فارسى ، والمراد به ان تقرض انسانا مالا . ليسلمه المقترض فى بلد آخر الى انسان يريد المقرض توصيله اليه ، وغرضه من الاقراض أن يأمن خطر الطريق ولهذا جعله قرضا لا أمانة ، وتصرفوا فى اللفظ فجمعوه وقالوا (كرهت سفاتج الطريق) (2) وقد تجمع على سفتج يقول شهاب الدين الخفاجى : سفتج جمع سفتجة ، فارسية معربة وهى الخطوط ، وأصلها أن يكون لواحد ببلد متاع عند رجل أمين فيأخذ من آخر عوض ماله ، ويكتب له خوفا من غائلة الطريق (3) وقالوا :

---

(1) مفاتيح العلوم ص 103 - 106

(2) مقال للاستاذ عبد الوهاب خلاف مجلة مجمع اللغة العربية العدد السابع ص 239

(3) شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين احمد الخفاجى ص 112

المسكة والكردار ومعناهما ما يقوم به الزارع من حرث وتهيئة للأرض مما يكسبه أولوية زرعها .

وقالوا :

الكدك وهو ما يحدثه التاجر فى حانوته من العمران والبناء فيعطيه هذا حق أولوية استئجاره .

وقالوا :

الخلو، والرصد قالوا عن الأول ما يدفعه المستأجر الى متولى الوقف من مال ليصرفه فى مصلحة الوقف ، والرصد دين للمستأجر على الوقف لصرفه فى عمارته باذن المتولى .

الى غير هذا

وهكذا استقر الدخيل فى الكلام العربى وربما تلون بلون العربية بالزيادة أو النقص فى حروفه ، وأخذ الرواة ينبهون اليه ويفرقون بينه وبين الصريح ويعربون منه ما دخل على هيئة العربية .

كان سيبويه من أوائل من تحدث فى هذه الظاهرة فقال : (... اعلم انهم يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما الحقوه ببناء كلامهم فدرهم الحقوه ببناء هجرع ـ وبهرج الحقوه بسلهب ، ودينار الحقوه بديماس ، وديباج الحقوه لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية كذلك ... وربما غيروا حاله عن حاله فى الأعجمية مع الحاقهم بالعربية غير الحروف العربية ؛ فأبدلوا مكان الحرف الذى هو للعرب عربيا غيره ، وغيروا الحركة ، وأبدلوا مكان الزيادة ولا يبلغون به بناء كلامهم نحو آجر ، وابريسم ، واسماعيل ، وسراويل .

وربما تركوا الاسم على حاله اذا كانت حروفه من حروفهم ، كـ
على بنائهم أو لم يكن نحو : خراسان ، وخرم ، والكركم ، وربما غـ
الذى ليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه فى الفارسية نحـو فرنـ
وبقم ، وآجر ، وجربز (1) .

ولم يكن موقف سيبويه من هذا الدخيل هو مجرد الوصف، وط
دخوله العربية ، وهيئته بها وانما حاول أن يجرى عليه دراسة عربية، و
نظر الى كلمة آجر وحاول اخضاعها لموازين الممنوع من الصرف حـ
نفسه قائلا :

(فان قلت أدع صرف الآجر لأنه لا يشبهه شيئـا مـن كلام ال
فانه قد أعرب وتمكن من الكلام وليس بمنزلة شيء ترك صرفه مـن
العرب ، لأنه لا يشبه الفعل ، وليس فى آخره زيادة ، وليس من نحو
وليس بمؤنث وانما هو بمنزلة عربى ليس له ثان فى كلام العرب) (2

وجاهد فى التعريب بمعنى الباس اللفظ ثوب العربية كثير من ر
اللغة كان الزمخشرى يقول وهو يفسر سورة الدخان « ان معنى الت
أن يجعل عربيا بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه واجرائـه علـى أو
الاعراب » (3) .

وكان الحريرى يتكلف له ليدخله فى دائـرة القياس يقول فى
الغواص « ويقولون للعبة الهندية الشطرنج بفتح الشين ، وقياس ك
العرب أن تكسر لأن من مذهبهم أنه اذا عرب الاسم الأعجمى رد الـ

(1) الكتاب لسيبويه 2: 342
(2) الكتاب لسيبويه 1 : 19
(3) الكشاف للزمخشرى 4 : 323 ط الاستقامة 1953

يستعمل من نظائره فى لغتهم وزنا وصيغة ، وليس فــى كلامهم (فـعلل) بفتح الفاء وانما المنقول عنهم فى هذا الوزن (فِـعلل) بكسر الفاء ولهــذا وجب كسر الشين من الشطرنج ليلحق بوزن جردحل وهـــو الضخم مـــن الابل، ثم انظر الى محاولة الحريرى ادخاله الدائرة العربية بقوة واستكراه حين يقول : (وقد يجوز فى الشطرنج أن يقال بالشين المعجمـــة لجـــواز اشتقاقه من المشاطرة ، وأن يقال بالسين المهملة لجواز أن يكون مشتقــا من التسطير عند التعبية • ومثله الـــدعاء للعاطس بالتشميت والتسميت اشارة بالسين المهملة الى أن يرزق السمت الحسن ، وبالشين المعجمة الـــى جمع الشمل لأن العرب تقول : تشمتت الابل اذا اجتمعت فى المرعى) (1)

ودار فى فلك العربية كلم كثير ، واختلط بألفاظها ، واستعمل فـــى تعابيرها وأصبح التفريق بين العربى والمعرب نوعا مـــن التخصص الدقيق أو المفاتشة لغرض معين ، وهل ترى ذاك سهلا وأنت تقرأ للجاحظ فعلا مثل « بهرج » ؟ لقد قرأت هذا الفعل لأول مرة فى كتاب البيان والتبيين، حين كان الجاحظ يشير الى سليقة الأعرابى فيقول : (وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل : « مكره أخاك لا بطل » و « اذا عـــز أخاك فهن » ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم «ذهبت الى ابو زيد» و « رأيت أبى عمرو» ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجـــوه ولم يسمعـــوا كلامه) (2) •

فأنت ترى هذه الكلمة (بهرج) لا تكاد تبين بعد أن اشتقوا منها ، بل لا تكاد تشك فى أنها عربية وأنها تعنى ما يعنيـــه الجاحظ مـــن أنهم

---

(1) درة الغواص فى اوهام الخواص للحريرى ط حجر سنة 1273 هـ ص 112 - 113

(2) البيان والتبيين 1 : 162 ط عبد السلام هارون

بهرجوه أى زيفوه ، ولكن الكلمة لها منشأ غير عربى كما يقول رواة اللغة وأصحاب المعاجم ففى اللسان :

بهرج : مكان بهرج : غير حمى ، والبهرج : الشىء المباح ، يقال : بهرج دمه ، ودرهم بهرج : ردىء ، والدرهم البهرج : الذى فضته رديئة، وكل ردىء من الدراهم وغيرها بهرج •

قال : وهو اعراب نبهرة ، فارسى •

ابن الأعرابى : البهرج الدرهم المبطل السكة ، وكل مردود عند العرب بهرج ، ونبهرج • والبهرج : الباطل والردىء من الشىء ، قال العجاج :

وكان ما اهتض الجحاف بهرجا

أى باطلا •

وقيل هى كلمة هندية أصلها «نبهلة» وهو الردىء فنقلت الى الفارسية فقيل «نبهرة» ثم عربت « بهرج » •

وقال الأزهرى : وبهرج بهم اذا أخذ بهم فى غير المحجة •

والبهرج : التعويج من الاستواء الى غير الاستواء (1) •

وقال اللحيانى : يقال درهم مبهرج ، ونبهرج ، وبهرج وأنشد لبعض الرجاز :

قالت سليمى قولة تحرجا
يا شيخ ، لا بد لنا أن نحججا
قد حج هذا العام من تحرجا
فابتغ لنا جمّال صدق فالنجا
لا تعطه زيفا ، ولا نبهرجا

---

(1) اللسان ب هـ ج

وأنشد ابن الأعرابى :

ان هويّا قـــل مـــا تحرجـــا
أعطانـــى الناقص والنبهرجـــا

وقال أبو عمرو : درهم بهرج ، ودراهم بهرج قـــال : والبهـــرج : المعدول به عن جهته . والبهرج الدرهم المضروب فى غير دار السلطان (1)

وكان لا بد من الاختلاف حين تتباين وجهات النظر أو حين يـــدق الفارق ، وقد دفعهم الايغال فى تنقية اللغة الى أن يقولوا فى المعرب بشىء يظنونه . جاء فى المعرب للجواليقى قول ابن دريد (فأما « الجريب » مـــن الارض فأحسبه معربا) (2) وتحسبها فى اللسان عربية خالصة ، وفيـــه : أقطع الوالى فلانا جريبا من الأرض أى مبزر جريب وهو مكيلة معروفة (3)

بل أشاروا الى كلمات ظاهرة العروبة فقالوا بأعجميتها . قالوا عـــن « الخباء »من الشعر والصوف عن أبى هلال انه فارسى معرب ! وأصلـــه « بيان » بالباء الموحدة ثم بالياء المثناة التحتية أعرب فقيـــل خباء (4) وأنـــا لا أدرى كيف ؟

على كل حال ، كان لهذا النشاط أثره فى اثراء العربية ، وتزويدهـــا بما تحتاجه من ألفاظ ، واللغة كما قلنا لا بد أن تحيـــى متجـــددة ملبيـــة لرغبات أهلها ؛

ولم يكن المعرب مصدر خير كله ، فمنه ما دخل العربية علـــى خلف

---

(1) المعرب للجواليقى 97 - 98
(2) المعرب للجواليقى 159
(3) اللسان ج ر ب
(4) المعرب 182

وبلبلة ، عربت كلمة الآجر عن الفارسية ، وأخذت أوزانا مختلفة منهـا :

آجرّ بتشديد الراء ، وآجُر بتخفيفهـا ،وآجُور ، ويأجُور ، وآجُرون . قال أبو دؤاد الايادى :

ولقـد كـان ذا كتائب خضر
وبـلاط يشـاد بالآجـرون

بضم الجيم وكسرها (1) وقال أبو كدراء العجلى :

بنى السعاة لنا مجدا ومكرمـة
لا كالبناء مـن الآجرّ والطين

وقال ثعلبة بن صعير المازنى :

تضحـى اذا دق المطـى كأنها
فـدن ابن حيـة شاده بالآجر

وترك هذا الخلف أثره عند رجال الصرف . حكـى عـن الأصمعى (آجِرّة) و (آجُرّة) والهمز فى الآجُر فاء الفعل كمـا كـانت فـى (أرّجان) بدليل قولهم : الآجور فالآجـور كـ (العاقول) و (الحاطوم) لانه ليس فى الكلام شىء على أفْعُول فاذا ثبت أنهـا أصل فالهمزة فـى آجُرّ هى هذه التى ثبت أنها أصل . ولو حقرت الآجُرّ كنت فى حذف أىّ الزيادتين شئتَ بالخيار ، فان حذفت الأولى قلـت أجَيِّرَة ، ولا يستقيم ان تعوض من الزيادة المحذوفـة . وان حـذفت الآخـرة قلت (أوَيْجِرَة) وان عوضت قلت أويْجِيرة (2) .

وكان لهذا النشاط ايضا هنات ، فكلما وجـدوا مظنـة العجمـة

(1) المعرب للجواليقى 69
(2) المعرب للجواليقى 70

رجحوها أو قالوا بهـا . وحين تقـرأ كتاب الألفاظ الفارسية المعربة (1)، للسيد آدى شير تستطيع أن تجد من الألفاظ المعربة والدخيلة ما يستوجب حيرتك ، وتحمد الله أنه اشار بعلامة الى الألفاظ التى جاء بها هو والتى لم يسبقه أحد اليها .

والرأى عندى أن ترفع هذه الأقواس التى وضعت لتحاصر الألفاظ الدخيلة وتشير الى غربتها بعد أن فرضت نفسها بقـوة الحاجـة اليهـا ، وأصبحت باستعمالها المطرد ، وبسهولة تذليلها على المدلول ــ عربية ــ لا محل للتفريق بينها وبين اخوتها .

والاستاذ أنستاس مارى الكرملى يشير الى هذه الطبيعة القوية فـى لفظ دخيل حاول اللغويون خنقه فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . قال :

(هذه كلمة باذنجان فليس فى العربـى لفظـة أفشى انتشارا ، ولا أعرف منها ، وقد جاءتنا من جيراننا الفرس الأقدمين ، فحاول السلف مرارا. خنقها ووأدها وهى فى مهدها فما زادوها الا تعميما وانتشارا وبثا بين كل ناطق بالضاد وعوضا من أن يقضوا عليها القضاء المبرم زادوها حياة ونشاطا وسريانا وانتشارا بين الناس ــ لا بل عمد بعضهم الى عمـل فـى منتهى القسوة ، انهم لم يثبتوها فى معاجمهم ليلجئوا الجميع الى عدها من حوشى اللفظ ، أو من العربى المستهجن ، ولهذا لا تجدها فى القاموس ، ولا فـى تاج العروس ، ولا فى المصباح ، ولا فى مختاره ولا فـى أساس البلاغة ، ولا فى كثير من كتب متون اللغة خوفا من أن ينبشها أحدهم ويعيدها الى الوجود .

ومن الغريب أنهم لم يحتاطوا لأنفسهم كل الاحتياط لأنهم لما ذكروا

---

(1) الالفاظ الفارسية المعربة للسيد آدى شيـر ط بيروت سنة 1908

ما يقابلها فى العربية المبنية شرحوه بقولهم (الباذنجان) فجاء عملهم هـذا خداجا مضحكا والآن ؛ اذهب بنفسك الى العراق ، ومنـه الى سوريـة ، ففلسطين ، فلبنان ، فديار وادى النيل ، فطرابلس ، فالسودان ، فليبيـا ، فالجزائر ، فالمغرب الاقصى فالى جميع الربوع التى ينطق أهلها بلسان معد وعدنان فانك لا تسمع الا (الباذنجان) ولا يعرفون المغد ، ولا الوغـد ، ولا الجدق ، والحذق ، ولا الحيصـل ، ولا الكهكب ، او الكهكـم أو القهقب ، ولا الانب ، ولا الشرجبان ، ولا الانفحة ولا • ولا • ولا • ولا سواهـا) (1) •

ولنا فى العرب القدامى اسوة فلم يكـن الاعشى ؛ ولا طرفـة ، ولا حسان ، ولا عدى بن زيد يضع مثل هذه الألفاظ بين قوسين وانمـا جاءت بها أشعارهم سهلة طيعة من غير كزازة ولا عنت •

(1) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها 88 - 89 | للاب انستاس مارى الكرملى ط مصر سنة 1938

البَابُ الخامِس

جَمْعُ اللغة



الفصل الأول

دواعي التعريف بالمفردات وبداية المعجم

دواعي التعريف بالمفردات

جمع الألفاظ ، لازالة غموضها ، وتوضيح معناها ، يحصل فى كل لغة يتسع مجالها الزمانى والمكانى ، أى حين يمتد بها الأجل ، وترحب بها الارض ، والمسافر من الاسكندرية مثلا فى طريقه الى أسوان قد يسمع عدة ألفاظ لمدلول قد يفهمه لسبق المعرفة ، وقد يسأل عنه بديا ، فاذا كان ذلك كذلك بالنسبة لمجتمع مترابط فان سعته والعناية به فى مجتمع أقل ترابطا فرض قريب .

ولقد وصل الينا بعض ما صدر عن هذا الأصل فيما يحكى أن قريشا قد استصفت لغة القبائل ، أى تخيرت ذلك القدر المشترك من الألفاظ التى كانت تجرى على ألسنة الحجيج ، فتصيب دلالتها من غير مشقة — ومع مجيىء كلمة « سكين » مثلا فى لغة قريش ، ومجيئها فى القرآن الكريم فاننا نجد رجلا كأبى هريرة لا يعرف كلمة السكين ، فلقد

سقطت من يد النبى صلى الله عليه وسلم ، فطلب أن يناوله اياها فنظر أبو هريرة اليها ، وبحث حولها ، ثم نظر الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : آلمدية تريد ؟ فالسكين فى القرشية التى استصفت لغة القبائل غير معروفة فى قبيلة الأزد كما ترى • (1)

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم يوما لأبى تميمة (واياك والمخيلة)
فقال : يا رسول الله ، نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سبل الازار) (2) •

وأبو بكر يقف عند قوله تعالى (وكان الله على كل شيء مقيتا) ، وعمر يسمع قوله تعالى (وفاكهة وأبا) فيقول : هذه هى الفاكهة فما الأب؟ أو يسأل فى كلمة « التخوف » من قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) وابن عباس الذى كان يسمى البحر لسعة علمه يقول : ما كنت أعلم ما فاطر السموات والأرض حتى جاءنى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى بدأت حفرها الى غير ذلك •

لو أننا دونا هذه المفردات وأمثالها لكان لدينا أول معجم فى الاسلام ولكن كان الناس يجدون بغيتهم فيما يستفسرون عنه عند النبى صلى الله عليه وسلم وعند الصحابة الأول رضوان الله عليهم ، وكان مدار البحث فى أغلب الأحيان ألفاظا تأتى فى سياق العبادات ، وكان التفسير بالمأثور يفى بهذا الوجه •

الغريب والنوادر

ولم يطل الوقت حتى دعت الدواعى الى التعرف علي العربية من

(1) انظر اللسان س ك ن
(2) الكامل للمبرد 2 : 673 ط الحلبى — جاء فى الحديث (فضل الازار فى النار) وكان الرجل يمشى وقد افضل من ازاره ، وتمشى المراة وقد افضلت من ذيلها

خلال آثارها ــ ولهذا حديث طويل ــ وبدأنا نسمع عن كلمة الغريب حين جلس علماء العربية يبينون ما استتر من غريبها ، ولدينا فى عصر مبكر مجالس لابن عباس تظهر فيها كلمة الغريب ــ لأول مرة فيما يبدو ــ وتعنى الغامض من الكلام يقول لأصحابه : اذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فان الشعر ديوان العرب (1) كما كان له مجلس يجيب فيه عن العربية ، والشعر ، والغريب من الكلام (2) •

وعلى أثر ابن عباس جاء يحيى بن يعمر ، وهو رجل من القراء ؛ ومن أهل البصرة ، ومن رواة ابن عباس ، واشتهر أمره بالغريب (3) ويقول ابن أسحق موجها حديثه لابن سيرين « •••• وانما نفتى فيما استتر من معانى الشعر وأشكل من غريبه (4) •

من هذه النتف من سير قدامى العلماء يمكن تتبع مولد المعجم العربى، والذى يتمثل فى توضيح الغامض أو المبهم من الألفاظ التى وردت فى النصوص العربية وسمى هذا العمل ابتداء « التأليف فى الغريب » •

كتب فى غريب القرآن أبو عبيدة ، ومؤرج السدوسى ، وأبو محمد اليزيدى • وألف فى غريب الحديث : أبو عبيدة ، والنضر بن شميل ، وقطرب ، وأبو زيد سعيد بن اوس الانصارى ووصف بعض هذه الكتب مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد بن محمد المعروف بابن الاثير الجزرى فى مقدمة كتابه « النهاية فى غريب الحديث والاثر » وقال يصف

---

(1) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى 1 : 24

(2) حلية الاولياء 1 : 107

(3) طبقات الزبيدى 22 - 23 .

(4) انباه الرواة 2 : 107

كتاب أبى عبيدة « .... كان كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات .... ثـم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازنى بعده كتابـا فـى غريب الحديث أكبر من كتاب ابى عبيدة ، وشرح فيه وبسط على صغر حجمه ولطفه » (1)

ثم بدا لهذا الجيل من العلمـاء أن يتناول نفس النهج فى مـا وراء القرآن والحديث من نصوص عربية فألف أبو زيد كتابا فى غريب الاسماء (2) وللأصمعى (غريب الحديث والكلام الوحشى) ونحـن نرجـح أن الحديث هنا هو حديث الأعراب وكان للأصمعى نشاط جم فى جمع الغريب من أفواه الأعراب فى المربد والبادية .

والأمر فى النوادر لا يبعد عن هذا النهج كثيرا فهو ذكر للفرائد التى تحتاج الى فضل بيان تأتى أحيانا فى صورة ألفاظ مفردة ، أو تراكيب ، أو لهجات ، أو صيغ (3) .

والتأليف فى الغريب والنوادر لا يحكمه تنظيم خاص مقيد ، ومـا قد يكون غريبا عند رجل قد لا يكون غريبا عند آخر ، وقـد يكتب فيـه مؤلفه اذا جاءت مناسبته فيقيده لنفسه ، أو يمليه على طلابه ، ومثل هـذه الجهود اذا لم تنظم فانها لا تفيد الباحث فـى اللغـة الا بمعانـاة وبحث شديدين ، فبدأوا كتابة المجاميع .

جمع اللغة في وحدات متجانسة

أخذ طلاب العربية عـلى شيوخهم فـى مجالسهم ، وتزودوا مـن

---

(1) النهاية فى غريب الحديث والاثر 4 ط العثمانية سنة 1311 هـ
(2) الفهرست 81 ط الرحمانية
(3) انظر (رواية اللغة) للمؤلف ص 93 وما بعدها

الاعراب الوافدين ثم التقوا بهم فى المربد ، ثم رأوا تمامهم فى مشافهة الاعراب فى البادية ، فرحل اليها من رحل ، وهناك تعرفوا على الألفاظ أمام مدلولاتها ، وثقفوا العبارات ، والمسميات على النحو الذى فصلنا فيه القول من قبل ، وجمعوا من وراء ذلك معرفة غزيرة كانوا يعبرون عنها بعبارات تنبىء عن جهد شديد ، وعناية بالغة .

لقد أمضى النضر بن شميل أربعين عاما فى البادية (1) وذهب الكسائى يجمع من بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ (2) وعبر ثعلب عن معاناة أبى عمرو الشيبانى فقال : « كان مع أبى عمرو من العلم والسماع عنده أضعاف ما كان مع أبى عبيدة ، ولم يكن من أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم » ثم قال « دخل البادية ومعه دستيجان حبرا فما خرج حتى أفناهما يكتب سماعه عن العرب » (3) .

عاد الرواة وفى صدورهم وأوراقهم علم غزير ودوا لو يقيدونه حفاظا عليه بطريقة تسمح بالنظر فيه ، والانتفاع به من غير ارهاق . فأعدوا لذلك كراسات تتضمن مجاميع بحسب الموضوعات : فى خلق الانسان ، وصفة الخيل ، والابل ، والوحوش ، والمطر ، والمياه ، والجبال ، والدارات الى غير ذلك .

ومنهم من جمع فى كتاب واحد أكثر من موضوع يحاول بذلك حصر ما يستطيع من ألفاظ العربية ، وأطلق على هذا النوع اسم (كتب

---

(1) نزهة الالبا 111
(2) انباه الرواة 2 : 258 ، معجم الادباء 13 : 169
(3) انباه الرواة 1 : 221 ، 224

الصفات) ومن الذين كتبوا فى الصفات أبو خيرة الأعرابى ، والنضر بن شميل ، وأبو على محمد بن المستنير قطرب وجاء وصف كتاب النضر فى فهرست ابن النديم كما يلى :

(كتاب الصفات ، وهو كتاب كبير يحتوى على عدة كتب :

الجزء الاول : يحتوى على خلق الانسان ، والجود والكرم ، وصفات النساء .

الجزء الثانى : يحتوى على الأخبية ، والبيوت ، وصفة الجبال والشعاب والامتعة .

الجزء الثالث : للابل فقط .

الجزء الرابع : يحتوى على الغنم ، والطير ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والألبان ، والكمأة ، والآبار ، والحياض ، والأرشية ، والدلاء ، وصفة الخمر .

الجزء الخامس : يحتوى على الزرع ، والكرم ، والعنب . وأسماء البقول ، والأشجار ، والسحاب ، والأمطار (1) .

ولم يتوقف هذا الضرب من التأليف ، وان أخذ يتطور بمرور الأيام فكان بعض الرواة يجمعون المفردات بحسب الموضوعات تحت اسم (الصفات)أو اسم (الغريب المصنف) وكان أشهرها كتاب أبى عبيد القاسم بن سلام . (2)

وفى الوقت المبكر الذى كان يجرى فيه هذا الجمع بحسب الموضوعات ، على أيدى أوائل الرواة ــ كان الخليل بن أحمد يحاول حصر كلمات العربية ، على جهة الاستقصاء وعلى الوجه الذى ظهرت به فى كتاب العين .

---

(1) الفهرست 77 ط الرحمانية

(2) وتبعه كتاب مبادىء اللغة للاسكافى ، والمخصص لابن سيده

الفصل الثانى

المعاجم

كتاب العين

هذه ــ فيما يحدثنا التأريخ اللغوى ــ أول محاولة لجمــع مفردات العربية على جهة الاستقصاء كما أرادها الخليل بن أحمد ، وكما ظهرت فى كتاب العين ، وقبل أن نصف الكتاب ، وقبل أن نستبين خطة الخليل فيه ، وقبل أن ندخل فى الخلف الشديد الذى دخل فيه العلمــاء حــول نسبة الكتاب أهو للخليل أم لليث بن المظفر دعنا نستمع الى ملاحظ الخليل التى تنبئك عن شدة الفه بالعربية ، ومعرفته العميقة بخصائصها ، وتنبئك أيضا عن هذه العقلية التى بدأت كتاب العين على نهج رياض رتيب •

كان الخليل فيما نتصوره ، يجمع أمامــه أسئلة ، أو يتمثــل بعض العقبات ، ويضع حلولها واحدة فى اثر واحدة •

ــ كيف يحصر الألفاظ ؟

ــ كيف ينتقى ما استعملته العرب ، ويترك ما أهملته ؟

ـ كيف يتعرف على العربى الأصيل ، وما هى علامات الدخيل ؟
ـ كيف يبـدأ ؟

كان يحادث الليث بن المظفر فى مثل هذا ، فقال له يوما :
« لو أن انسانا قصد وألف حروف ألف ، وباء ، وتاء ، وثاء على ما أمثله لاستوعب فى ذلك جميع كلام العرب وتهيأ له أصل لا يخرج منه شىء البتة قال الليث : وكيف يكون ذلك ؟

قال : يؤلفه على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى فانه ليس يعرف فى كلام العرب أكثر منه .

قال الليث : فجعلت استفهمه ، ويصف لى ، ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت اليه فى هذا المعنى أياما ، ثم اعتل وحججت ، فما زلت مشفقا عليه ، وخشيت أن يموت فى علته فيبطل ما كان يشرحه لى ، فرجعت من الحج ، وصرت اليه ، فاذا هو قد ألف الحروف كلها على ما فى صدر هذا الكتاب ، فكان يملى عليّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لى : سل عنه ، فاذا صح فاثبته الى أن عملت الكتاب (1) .

وترتيب المجموعات ــ وهو ترتيب الأبواب أيضا عند الخليل ثنائى ، وثلاثى ، كما جعل الرباعى والخماسى فى باب واحد . والثنائى عنده كل ما تكون من حرفين ولو تكرر أحدهما مضعفا أو غير مضعف ، ولا يأتى الثنائى عنده من حروف متحدة المخرج او متقاربته الا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل حيعل من (حى على) ؛ ولهذا لم يأت الثنائى فى باب العين مع الحاء ، والهاء ، والخاء ، والغين ، بل لم تأت العين والحاء مع شىء من الحروف فى الثلاثى (2) .

---

(1) الفهرست 64 ط الرحمانية ، معجم الادباء 7 : 51 - 52
(2) كتاب العين 1 : 55

والثلاثي عنده نوعان صحيح ، ومعتل سواء كان حرف العلة في الاول أو في الوسط أو في الآخر ، ويضم هذا الباب أكثر ألفاظ العربية ، وقد رتبه مع تقاليبه بحيث يأتي كل حرف مضافا اليه الحرفان الآخران فينتج عن ذلك ستة أصول يختار منها ما استعمله العرب ففي ض ر ب يتفرع هذا الأصل الى :

ض • ر • ب/ض • ب • ر /ر• ب• ض/ر• ض• ب/ب•ض• ر/ب • ر • ض ثم جعل الرباعي والخماسي في تقسيم واحد يدل على الكلمة فيه الحرف الاسبق في تقسيم الخليل فجعفر في باب الرباعي والخماسي من حرف العين ، وسفرجل في باب الرباعي والخماسي من حرف الجيم •

قال الخليل : وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة مثل « قرعبلانة » انما أصل بنائها « قرعبل » ومثل « عنكبوت » انما أصل بنائها « عنكب » (1) •

ولكن كيف ينتقي العربي من هذا الرباعي والخماسي وهو لا يجرى على الالسن ويدور في الأفواه دوران الثلاثي ؟

للخليل في ذلك أمارات يعرف بها اللفظ العربي الأصيل كما يعرف اللفظ الأجنبي الدخيل ، وهو يحكي ذلك أيضا لتلميذه الليث حتى يكون على بينة مما يضع ومما يدع بعد أن لاحظ أن الرباعي والخماسي لا يأتيان الا معتمدين على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة أو حرفي الطلاقة ويقول :

---

(1) العين 1 : 55

« اعلم أن الحروف الذلق والشفوية ستة وهي ر • ل • ن • ف • ب • م وانما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة فى المنطق انما هى بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة ، منها ثلاثة ذليقة ر • ل • ن تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية ف • ب • م مخرجها من بين الشفتين خاصة ، لا تعمل الشفتان فى شىء من الحروف الصحاح الا فى هذه الأحرف الثلاثة فقط ، ولا ينطلق طرف اللسان الا بالراء واللام والنون ، وأما سائر الحروف فانها ارتفعت فجرت فوق ظهر اللسان من لدن باطن الثنايا من عند مخرج التاء الى مخرج الشين بين الغار الأعلى وبين ظهر اللسان ليس للسان فيهن عمل أكثر من تحريك الطبقتين بهن ، ولم ينحرفن عن ظهر اللسان انحراف الراء ، واللام ، والنون ••••

فلما ذلقت الحروف الستة ، ومذل بهن اللسان ، وسهلت عليه فى المنطق كثرت فى أبنية الكلام فليس شىء من بناء الخماسى التام يعرى منها أو من بعضها (1) ثم ينبه الليث : « فاذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية ولا يكون فى تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم ان تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب »

قال ليث : فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشىء من هذه الحروف ؟
قال : نحو الكشعثج ، والخضعثج ، والكشعطج وأشباههن فهذه مولدات لا تجوز فى كلام العرب لأنه ليس فيهن شىء من حروف الذلق والشفوية•

---

(1) العين 58

ومن وراء هذه الحروف الستة يوجد حرفان أطلق عليهما اسم حرفى الطلاقة وهما العين والقاف لا يدخلان فى بنـاء الا حسناه ــ كمـا يقول الخليل ــ فمهما جاء من بناء اسم رباعى منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية فانه لا يعرى من أحد حرفى الطلاقـة او كليهما ، ومـن السين والـدال أو احـداها (1) •

ولم تكن قضية البدء مسألة سهلة ، لا سيما وقد ترك الخليل ترتيب الأبجدية العادية : ا ب ت ث ، وانما رتب الحروف بحسب مخارجها ، وعلى توالى صدورها من الحلق الا مـن منحنيات بسيطـة لا تسمح بالتسلسل الدقيق ، واذا وضعت الترتيب الصوتى عند الخليل بجانب ترتيب سيبويه خيل اليك ان الرجلين يختلفان فترتيب الخليل كما ورد فـى كتـاب العين يجرى على الوجـه الآتى :

ع • ح • هـ • خ • غ	حلقيـة
ق • ك	لهويـة
ج • ش • ض	شجريـة
ص • س • ز	أسليـة
ط • د • ت	نطعيـة
ظ • ث • ذ	لثوية
ر • ل • ن • ف • ب • م	ذلقيـة
و • ا • ى	هوائيـة

ثم وضع الهمزة فى آخر الحروف •

وحين رتب سيبويه الحروف بحسب مخارجها جعل لهـا ستة عشـر مخرجا • فللحلق منها ثلاثة

(1) العين 1 : 60

فأقصاها مخرجا الهمزة ، والهاء ؛ والالف

ومن أوسط الحلق مخرج الغين والخـــاء

وأدناها مخرجـــا من الفم الغين والخـــاء

ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف •

ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الاعلى مخـــرج الكـــاف •

ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى مخرج الجيم ، والشين واليـــاء •

ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضـــاد •

ومن حافة اللسان من أدناها الى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ، وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخـــرج الـــلام •

ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون •

ومن مخرج النون غير انه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لانحرافه الـــى اللام مخرج الراء •

وما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء ؛ والدال ، والتاء •

ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى والسين والصاد •

ومما بين طرف اللسان واطراف الثنايا مخرج الظاء ، والذال ، والثاء •

ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء •

ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو •

ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة (1) •

---

(1) الكتاب لسيبويه 2 : 405

واو اتفق مقصد الرجلين لما اختلف الترتيب ، فقد كان الخليل يبحث عن طريقة منطقية لترتيب أبواب كتاب العين تتفق أيضا وتواليها على الأحياز الصوتية ، ولما كانت أقصى المخارج كما يقول سيبويه هى للهمزة والهاء والألف فان الخليل كان يدرك ذلك أيضا ولكنه وجدها غير صالحة لغرضه كما يحكى محمد بن احمد بن كيسان فيقول :

« سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ، ولا فى اسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لانها مهموسة خفية لا صوت لها ، فنزلت الى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن فى التأليف وليس العلم بتقدم شىء على شىء لانه كله مما يحتاج الى معرفته فبأى بدأت كان حسنا ، وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا » (1) •

أما ما بقى من خلاف بين الخليل وسيبويه فان الأول يحتاج فى تبويبه الى توالى الحروف بينما يصفها سيبويه كما هى وبعضها لا يلى البعض وانما قد يوازيه أو يخرج من فوقه أو من تحته •

كيف تلقى العلماء كتاب العين

كانت طريقة ظهور الكتاب من أسباب ارتياب العلماء فى نسبته للخليل ، ذلك أنه لم يظهر فى حياته ، ولا فى البصرة بلدته ، ولا حمله عنه أحد تلامذته الملازمين له كالنضر بن شميل ، أو مؤرج بن عمر السدوسى ،

---

(1) المزهر 1 : 90 | ط الحلبى

أو نصر بن على الجهضمى ، وانما جاء به الى البصرة وراق من خراسان سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وكان فى ثمانية وأربعين جزءا فباعه بخمسين دينارا ، وقيل آنذاك أنه كان فى خوائن الطاهريين (1) •

وانقسم الناس في أمره بين من ينكر نسبته للخليل ، وبين من ينسبه اليه ، وبين من ينسب اليه الايماءة والفكرة والتوجيه ويترك لليث بن المظفر تحشية الكتاب ، واذا سمعت رأى كل فريق وجدت له وجها ، وقد ظلت هذه الآراء على خلفها حتى يومنا هذا ، ولو أن هذه العناية وجهت الى مادة الكتاب بقدر ما وجهت الى تحقيق شخص واضعه لكان للعلم من وراء ذلك غنم كبير •

كان أبو حاتم السجستانى يوم ورود الكتاب صاحب اللغة فى البصرة ، وعلى رأس علمائها فأنكره لأول وهلة لانه لم يسمع به للخليل ، ولم يحمل عن رجل من تلامذته، والذين نظروا فى الكتاب وجدوا فيه بعض ما يتنزه الخليل عنه ، وجدوا هنات لغوية لا تصدر احتمالا عن الخليل ، ووجدوا روايات عن الكوفيين ولم يكن الخليل يروى عن الكوفيين ، فقويت حملة الشك حتى نسب هذا الشك الى من لم ير الكتاب حياته ، ولا أدرى كيف أنكر شيئا لم يره • يحكى ياقوت : حدث الحاكم أبو عبد الله بن البيع فى كتاب نيسابور عن العباس بن مصعب قال : سئل النضر ابن شميل عن الكتاب الذى ينسب الى الخليل بن أحمد ، ويقال له كتاب العين فأنكره ، فقيل له : لعله ألفه بعدك فقال : أو خرجت من البصرة حتى

(1) الفهرست 64 ط الرحمانية

دفنت الخليل بن أحمد (1) ونحن نتساءل متى كانت هذه المحادثة ولم يظهر الكتاب الا فى سنة ثمان وأربعين ومائتين ؛ وكان النضر قد مات منذ سنة ثلاث ومـائتين .

ولكن فئة كبيرة من العلماء ــ لعلها الغالبية ــ كانت تدرك أن كتابا كهذا يقبل فى خلال مواده روايات من البصرة والكوفـة ، ومن زمـلاء الخليل ومن تلامذته أيضا فلا يغير ذلك من نسبة الكتاب للخليل ــ كـان ابن دريد ــ وهو رجل له رأى فى هذا اللون من التصنيف ــ وصـاحب (الجمهرة فى اللغة) المعجم الثانى فى العربيـة ينسب الكتاب للخليـل ، ويقول فى مقدمـة الجمهرة :

« وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودى رضـوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدى لغايتـه وعنّى مـن سمـا الـى نهايتـه » (2) .

وكان نفطويه ، وابن درستويه يريان الكتاب للخليل ، فعمـل الأول كتابا رد فيه على ملاحظ المفضل بن سلمة ــ وعمل ابن درستويه فى هـذا الوجه كتابين أحدهما رد على المفضل بن سلمة ، والثانى جعله عاما للـرد على من نفى كتاب العين عن الخليل (3) .

وكان أحمد بن فارس ينسب الكتاب للخليل ويصرح بذلـك فـى

---

(1) معجم الادباء 17 : 51

(2) الجمهرة فى اللغة 1 : 3 ط حيدر آباد

(3) الفهرست 94 ط الرحمانية

مقدمة كتاب المقاييس قائلا « أما كتاب العين للخليل بن احمد فقد حدثنى به على بن ابرهيم القطان » واعترف أبو الأزهر البخارى فى كتابه (الحصائل) وقصد فيه تحصيل ما أغفله الخليل (1) •

وكذلك ألف أبو عبد الله محمد بن عبد الله الكرمانى النحوى كتاب ما أغفله الخليل فى كتاب العين • وما ذكر أنه مهمل وهو مستعمل ، وما هو مستعمل وقد أهمل (2) •

أما السيرافى ، وأبو الطيب اللغوى ، وابن جنى فيتفقون — وان اختلفت عباراتهم — على أن الخليل بدأه ولم يتمه • يقول السيرافى « ان الخليل عمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذى به يتهيأ ضبط اللغة » (3) •

ويقول أبو الطيب : « ان الخليل بدأ كتاب العين فى حياته ، ولكنه مات قبل أن يتمه وقد نصب تلميذه الليث نفسه لاداء هذه المهمة فأتم بقية الكتاب ولهذا نجد ان الكتاب لا يشبه أوله آخره » •

اما الأزهرى فكان يعيب الليث من خلال كتاب العين ، واذا قرأت الخبرين المنسوبين للأزهرى فى مقدمة التهذيب لم تقطع بنفى الكتاب عن الخليل ، وأول الخبرين حين ذكر مصادر كتابه وتناول الثقات من العلماء اولا ، ومن هم دون الثقات بعد ذلك فقال :

(واذا فرغنا من ذكر الاثبات المتقنين ، والثقات المبرزين من اللغويين

(1) انباه الرواة 1 : 113

(2) الفهرست 117

(3) اخبار النحويين البصريين للسيرافى 30

فلنذكر بعقب ذلك أقواما اتسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتبا أودعوها الصحيح والسقيم وحشوها بالمزال المفسد ، والمصحف المغير ...
فمن المتقدمين الليث بن المظفر الذى نحل الخليل بن احمد كتاب العين جملة لينفقه باسمه) (1) ثم قال :

(.... ولم أر خلافا بين اللغويين ان التأسيس المجمل فى أول كتاب العين لأبى عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وان ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه ، وعلمت أنه لا يتقدم أحد الخليل فيما أسسه ورسمه) (2) والخبران يستهدفان الليث ــ لا الكتاب ولا الخليل ، واذا كانت بداية الكتاب ، ومنهجه للخليل ، وأكمله الليث بعد تلقفه اياه عن فيه فالكتاب ــ فيما نعتقد ــ كتاب الخليل . اما العبارة التى قال فيها الازهرى ان الليث عمل كتاب العين ونحله الخليل لينفق باسمه فقد ناقشها الاستاذ يوسف العش وقال : « الكتاب ابداع فنى يتمنى كل انسان ان ينسب اليه » (3) .

وفى العصر الحديث ، كان الاب انستاس مارى الكرملى ممن يرى الكتاب لليث بن المظفر ، جاء ذلك فى خبرين أولهما فى الجزء الثانى من المجلد الرابع من مجلة لغة العرب قال فيه « أما رأينا الخاص فان مدون

---

(1) التهذيب للازهرى 1 : 28 دار القومية العربية للطباعة 1384 هـ ــ 1964 م

(2) التهذيب 1 : 41

(3) مقال فى مجلة المجمع العلمى بدمشق المجلد 16 العدد التاسع 1946 ص 424

العين هو الليث » (1) .

والخبر الثانى فى العدد السابع والثلاثين من مجلة الثقافة قصر فيه دور الخليل على مجرد الفكرة وقال « كان السلف الصالح أول من نظم فرائد المفردات على النحو الذى فكر فيه الخليل فأخرجه الى بصراء القوم وحذاقهم الليث » وكتب المستشرق براونليخ بحثا بعث به الى الأب الكرملى رأى فيه ان مؤلف كتاب العين هو الليث فصادف ذلك اتفاق الرجلين ــ وكان تعليق الكرملى عليه قوله :

« وهذا ما كنا قد استنتجناه نحن أيضا فى الجزء الثانى من المجلد الرابع من لغة العرب وهذا الجزء الذى لم ندخله فى السنة الرابعة الذى ابتدأنا بها بعد الحرب وكنا قد قلنا فى الصفحة المذكورة (أما رأينا الخاص فهو ان مدون العين هو الليث) » .

والآراء التى مرت بك ــ وان وجدت لها وجها ــ فانها ليست فوق الشبهات ، فأبو حاتم السجستانى عالم البصرة حين ظهر الكتاب بها شديد الحرج والتأثم كأنه هو نفسه يرتكب جريمة الانتحال لو أنه قال بنسبة الكتاب للخليل ، فيأخذ جانب السلامة ، ولا يكلف نفسه مشقة البحث ، ولا صبر له على الغوص فى اكتناه ما بدا له زائفا ، ويكفى لرفضه عنده انه لم يسمع به للخليل ، ولا لأحد من تلامذته . وقديما وقف مثل هذا الموقف بالنسبة لكتاب جليل هو كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة ، فقد رفضه لأول وهلة ، وحمل اواء العداء لصاحبه لأنه فسر القرآن برأيه ، وكفر من يتناول الكتاب ، وأجاب حين سئل عنه :

« انه لكتاب ما يحل لأحد أن يكتبه ، وما كان شيء أشد علىّ من

---

(1) لغة العرب السنة الثامنة 9 : 711

أن أقرأه قبل اليوم ولقد كان أن أضرب بالسياط أهون عليّ من أن أقرأه»
فلما أخذ الكتاب مكانه فى البصرة واضطر أبو حاتم الى قراءته صار يقرأه
وهو يحاول تلمس سقطه ، وكان يلتقى بأحمد بن المعذل فيقول كل منهما
لصاحبه « وقفنى على خطأ أبى عبيدة » (1) .

والأزهرى لا يصدر فى رأيه عن حيدة علمية . ولكنه أراد الاشادة
بنفسه وبكتابه التهذيب الذى اختار له هذا الاسم يعنى به تهذيب كتاب
العين ، ومن طريقته فى هذا ان يقلل من شأن المؤلفين ومؤلفاتهم ، فلما لم
يستطع ذلك بالنسبة للخليل هاجم الليث ، وتخبط فى نسبة الكتاب .

ولقد استبقيت لك رأى ثعلب ، ورأى أبى الفتح عثمان بن جنى
ـ فهما وان لم يتفقا مضمونا الا أن الرجلين قد تناولا الكتاب فى أناة
وصبر يقول ثعلب :

« انما وقع الغلط فى كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو
أن الخليل هو حشاه ما بقّى فيه شيئا لان الخليل رجل لم ير مثله « قال »
وقد حشا الكتاب قوم علماء الا انه لم يؤخذ عنهم رواية ، وانما وجد بنقل
الوراقين فلذلك اختل الكتاب » (2) .

وفى هذه الكلمات تتحقق النصفة للخليل فى مجموع الكتاب اذا
تعذر أن يكون ذلك فى جميعه، فلقد فكر فى نهجه ، وفى خطته ، وتبويبه،
وطريقة حصر العربية ، وكيفية النظر الى الدخيل والمهمل منها ، وأفضى
بذلك الى الليث ، وعاد الليث من الحج فوجد استاذه قد فرغ من ذلك .

---

(1) طبقات الزبيدى 194
(2) المزهر 1 : 82

فرغ من مجموع الكتاب لا من جميعه ، وبقيت الفجوات التى تكون عادة فى مثل هذا النوع من التأليف ؛ وهذه تشذ عن ادراك ، وعلم وسمع الخليل وغير الخليل ، فلم تخلص العربية بقضها وقضيضها لأى انسان ، ولا يستطيع فرد مهما أوتى من سعة الحفظ أن يحيط بأطرافها ، ولذلك ، كان الخليل يتوقف فى كلمات لا يدرى وجهها الصحيح كقوله فى مادة ذ ع ق •

« الذعاق بمنزلة الزعاق ــ سمعناه فلا ندرى ألغة هى أم لثغة » (1)

وبهذه المقدرة التى يمكن أن تحيط بشىء ، وتتلمس بقيته فى سماع أو سؤال ، أخذ فى وضع الكتاب فكان كما يحكى الليث بعد أن رجع من الحج وصار اليه ــ أى الى الخليل (قد ألف الحروف كلها على ما فى صدر هذا الكتاب فكان يملى علىّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لى : سل عنه فاذا صح فاثبته الى أن عملت الكتاب) (2) •

فى الكتاب اذن ، أمكنة للعلماء ، والاعراب ؛ وكل من له معرفة موثقة بالعربية ، بقيت هذه الأمكنة تنتظر من يملؤها فى حياة الخليل نفسه حين كان الليث يذهب فى الطلب ، يسأل الأعراب وغير الأعراب ثم يعود فيعرض ما سمع على مسامع الخليل فيرجحها حينا فيثبتها فى مكانها من الكتاب ، ويشك فيها حينا فيستبقيها الليث الى أن يسكن عند رأى ، أو يذكرها محاطة بشكوكها ــ ترى ذلك فيما يحكيه الليث بين السطور ، وفيه ما يعرفه الخليل ، وفيه أيضا ما لا يعرفه الخليل •

يقول فى مادة ن ق ع (النقع : الغبار ، قال الشويعر واسمه عبد العزى :

---

(1) العين 168

(2) الفهرست 64 ط الرحمانية

فهن بهم ضوامر في عجاج

يثرن النقع أمثال السراحي

قال الليث : قلت للخليل ما السراحي ؟

قال : أراد الذئاب ، ولكنه حذف من السرحان الألف والنون فجمعه على سراحي ، والعرب تقول ذلك كثيرا كما قال :

درس المنا بمتالع فأبان

أراد المنازل فحذف الزاي واللام) •

فأنت ترى في هذه الفقرة أنه استفسر الخليل ووجد عنده بغيته •

وفي مرة أخرى — يعود — ويسأل الخليل فلا يعرف الخليل ما جاء به الليث ، ويظل ذلك عالقا في ذهن الليث حتى ترجح الكلمة برواية أحد الاعراب الرواة فيثبتها حينئذ ، ويثبت الى جانبها هذه المحاولات أيضا •

يقول : قلت للخليل ما تقول في المخلع ؟

قال : المخلع من العروض ضرب من البسيط ••••• والخليع من أسماء الغول ، قال عرام : هي الخلوع لأنها تخلع قلوب الناس ، ولم يعرف الخليع (1) يقصد : ولم يعرف الخليل الخليع ، والعبارة الأخيرة وردت بهذا التفصيل في نسخة بغداد ؛ فأين الخليل ؛ وأين عرام ؟

الخليل عالم مستقر في البصرة •

وعرام أعرابي لا نسمع عنه في البصرة ولكنه أعرابي من الأعراب الذين استقدمهم عبد الله بن طاهر الى نيسابور (2) وكتاب العين ملىء برواياتهم التي نفسرها بأن الكتاب قد حمله الليث بعد وفاة الخليل فأكمله

---

(1) العين 138

(2) معجم الادباء 3 : 17 ترجمة احمد بن أبي خالد

من أفواه الرواة فى شـرق العراق •

وهذا تفسير لما تجده من اضطراب حين تنظر الى رجال السند فـى كتاب العين فتجد من الرواة العلماء رجالا عاصروا الخليل ، ومنهم من تلمذ له كالاصمعى ، وأبى عبيدة ، وسيبويه ••• وآخـرون تأخـروا عنـه ، وبعضهم لم يكن له ذكر فى البصرة كابن الاعرابى الكوفى ، وأبى عبيـدة الكوفى البغدادى ، وأحمد بن أبى خالد المعروف بأبـى سعيد الضـرير البغدداى أولا النيسابورى اخيرا ، كما تجد أيضا عبـارة : وقـال غـير الخليـل •

وعلى ذكر الاعراب الرواة تجد فى الكتاب روايات لأعراب نعرفهـم فى البصرة كأبى الدقيش وأبى خيرة وغيرهم ممـن عاصـر الخليل وعاش بقربه فى بلدته ، ولكنك تجد أيضا من الأعراب الرواة من لم تسمع به فى البصرة كعرام هذا ، وزائدة ، ومبتكر ، وحماس ، وأبى ليلى وغيرهم ولا أدرى اذا كان الليث قد سألهم وحشا الكتاب من رواياتهم ، أم كان ذلـك بفعل الوراقين كما يقول ثعلب •

ومات الليث ، وبقى فى الكتاب أمكنة تحتاج من يحشيها ـ أو على الاقل تقبل التحشية فى ثنايا المواد ، فتم ذلك كما يقول ثعلب وكما نرجحه أيضا ـ بفعل الوراقين •

كان من عمل الوراقين بصفة عامة أن يكتبوا عدة نسخ مـن الكتاب الذى تتضح أهميته ـ وقد وجدت عدة نسخ مـن كتاب العين كانت فـى حوزة الازهرى صاحب التهذيب كما يحكى ذلك فى مقدمته ، وكان مـن عمل الوراقين أن يضخموا الكتاب فيتضخم رزقهم أيضا ـ وبعضهم قـد اصبح لممارسة هذه الصناعة على علم بموضوعها فتأتى الزيادة التى يكتبها

صحيحة أحيانا ، كما قد تأتى خاطئة أحيانا • وهذا شأن كل كتاب تختلف روايته عن الطريقة التى كانت متبعة فى عصر جمع اللغة وهى رواية التلاميذ له عن استاذهم مما يتحقق معه الاسناد الصحيح الموثق •

ولابن جنى عبارتان تختلفان بحسب مزاجه . ولكنهما يدلان قطعا على عناية الرجل بالكتاب . وابن جنى على رأس علماء العربية جميعا بلا منازع . وهو لذلك ينظر الى رأيه فى المسائل العلمية بتقدير شديد • للرجل كما قلنا نظرتان : الاولى حين ينظر الى الكتاب بعين السخط . وتتضخم أمامه الهنات ، وحينئذ يطعن عليه كما يطعن الناس • ويقول :

« وأما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر اتباع الخليل فضلا عن نفسه ، ولا محالة ان هذا تخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره — رحمه الله — وان كان للخليل فيه عمل فانما هو أنه أوما الى عمل هذا الكتاب ايماء ، ولم يله بنفسه ، ولا قرره ولا حرره » •

فاذا اطمأنت نفسه ، هفت الى هذا الابداع الذى لا يستطيعه غير الخليل بن احمد ، فينظر الى الكتاب بعين الرضى ويجد فيه كما يحكى « معانى غامضة ، ونزوات للفكر لطيفة ، وصنعة فى بعض الأحوال مستحكمة » ثم يقول « وذاكرت به يوما ابا على — رحمه الله — فرأيته منكرا له ، فقلت له : ان تصنيفه منساق متوجه ، وليس فيه التعسف الذى فى كتاب الجمهرة » فقال : الآن اذا صنف انسان لغة بالتركية تصنيفا جيدا أيؤخذ به فى العربية ، أو كلاما هذا نحوه (1) •

---

(1) الخصائص 3 : 288 ط دار الكتب

فاجتمع على كتاب العين حظ عاثر . وتحريض متحامل من أبى علـى الفارسى ، ولولا هذا فيما نعتقد لا تنفع الناس بنظارات ابن جنـى فـى الكتـاب .

الاثار الفكرية حول كتاب العين

هذا السبق العقلى . والابداع الفكرى الذى تجلى فى منهج العـين وترتيبه يعزوه بعض العلماء الى تأثر البصرة بالثقافات الهلينية ، والهندية ، والكلدانية التى وجدت سبيلها الى البصرة قبل الفتح الاسلامى ، فالاستاذ برجستراسر يشير الى الهنود ، والعرب على انهم أقـدم من تحـدث فـى الدراسات الصوتية (1) عنى بها علماء الهنود كجزء من عنايتهم بكتابهـم المقدس ، وافتراض انتقالها الى البصرة بعد ذلك ، وتأثر علماء المسلمين بها فى دراستهم اللغويـة فرض قريب .

ويذهب ابن أبى اصيبعة الى وجود صداقة علمية بين حنين بن اسحق، والخليل بن أحمد (2) فبنى عليها الدكتور ابرهيم بيومى مدكور افتراضا يوضحه بقولـه :

« ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل مـع الخليل بعض القواعـد النحوية خصوصا وهو يعزى اليـه أنـه ترجـم بعض كتب الأجروميـة اليونانية ، **وأتم مع ابنه اسحق البقية** الباقية من كتب أرسطو المنطقية » (3)

الا أن التحقيق التاريخى يأبى هذا الفرض ، فالخليل لم يلتق بحنين .

---

(1) التطور النحوى ص 5 ج . برجستراسر ط القاهرة سنة 1929

(2) طبقات الأطباء 1 : 184 ط القاهرة 1299 هـ ــ 1881 م

(3) مجلة مجمع اللغة العربية العدد السابـع مقـال للاستـاذ ابرهيم بيومى مدكور

ولا بابنه اسحق . فالخليل مات سنة سبعين ومائة او سبع وسبعين ومائة في قول آخر قبل أن يولد حنين سنة أربع وتسعين ومائه ـ أما صديق الخليل الذى يمكن أن يتأثر به ، أو يتبادل معه المعرفة فهو عبد الله بن المقفع .

ذكر دى بور أن ابن المقفع أصاب بعض العلم بالكتب اليونانية التى ترجمت الى الفهلوية ونقلها الى اللسان العربى (1) وقال : « وابن المقفع الذى كان فى أول الامر صديقا حميما للخليل بن أحمد يسر للعرب الاطلاع على كل ما كان فى اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية » (2) ولكن الاستاذ بول كروس رجح أن الذى قام بترجمة بعض كتب أرسطو هو محمد بن عبد الله بن المقفع ، جاء ذلك فى مقال له بعنوان « التراجم الارسطالية المنسوبة الى ابن المقفع » (3) .

لم يكد يظهر هذا الأثر الفكرى الفذ حتى أتجهت الاذهان اليه باعجاب واهتمام شديدين ، فيهم من أنكره ، وهذا لون من الاهتمام وان أخذ هذا اللون ، ومنهم من رأى فيه نقصا فألف تحت اسم « فائت العين » ـ ومنهم من رأى خطأ فاستدرك عليه ـ ومن بعد هذا ، وكان معجم العين هو المعجم الأول جاءت فى أثره المعاجم .

لعل الذى يسترعى النظر ما ذكره ابن النديم من أن الخليل بن أحمد عمل كتابا باسم « فائت العين » وهذه مسألة يصعب تصورها ؛ ولما ننتبه

---

(1) تاريخ الفلسفة فى الاسلام 22 تأليف دى بور . ترجمة (ابو ريدة) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر 1938

(2) تاريخ الفلسفة فى الاسلام 39

(3) التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية 101 ترجمة عبد الرحمن بدوى ط الاعتماد سنة 1941

بعد من الشك حول خلوص كتاب العين له ، وتكاد الآراء تجمع على أنه لم يكمله .

وذكر ابن النديم أيضا ، من الذين استدركوا على كتاب العين أبا فيد مؤرج بن عمر السدوسي ونصر بن على الجهضمي (1) ونحن نتساءل اذا كان ظهور العين لأول مرة آتيا من خراسان من خزائن الطاهريين كان في سنة ثمان وأربعين ومائتين فكيف استدركا عليه ؟ وكذلك كيف عمل النضر بن شميل كتاب المدخل الى كتاب العين وهو لم يره ــ تحت التفسير السابق ؟

وعرض للكتاب من رجال الكوفة أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ، ويبدو أنه تناوله تحت تأثير الخصومة القائمة بين البصرة والكوفة وعبر أبو الطيب اللغوى عن مسلك المفضل بقوله : « رد أشياء من كتاب العين للخليل أكثرها غير مردود » (2) وقد أثارت هذه الحركة الجانبية حساسية علماء البصريين ، منهم من تناولها تناولا علميا خالصا ، ومنهم من تأثر بالخصومة البلدية فقد تناول على بن مقلة ملاحظ المفضل بن سلمة على الخليل ، وقرأها أمام ابن دريد ، فكان ابن دريد يقول : صدق ابو طالب فى شىء اذا مر به ، وكذب أبو طالب فى شىء آخر (3) ثم جمعت هذه المناقشة فى كتاب سمى التوسط فى نحو المائة ورقة .

وتولى الرد على المفضل فى كتب مفصلة كل من ابرهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الذى يذكر له ابن النديم كتابين فى هذا الاتجاه الأول رد فيه على المفضل ، والثانى رد فيه على من نفى كتاب العين عن الخليل (4) .

---

(1) الفهرست 65 ط الرحمانية

(2) المزهر 1 : 87 ط الحلبى

(3) الفهرست 92 ط الرحمانية

(4) الفهرست 94 ط الرحمانية

كتاب التكملة

وعمل أحمد بن محمد الخارزنجى البشتى كتاب التكملة ؛ أومأ الى أنه كمل بكتابه كتاب العين ، وذكر مصادره فى صدر الكتاب (1) ودافع عن طريقته فى الأخذ عن الصحف بأنه رجل يعرف الغث من السمين ، ومن قبله فعل ذلك ابو تراب فى كتاب الاعتقاب حين روى عن الخليل بن احمد وأبى عمرو بن العلاء ، والكسائى وبينه وبين هؤلاء فترة ـ وكذلك القتيبى روى عن سيبويه والاصمعى وأبى عمرو وهو لم ير منهم أحدا ، ولكن الازهرى هاجمه بعنف ثم قال : « .... والصحفى يصحف فيكثر .... وأنا ذاكر لك حروفا صحفها ، وحروفا أخطأ فى تفسيرها من أوراق يسيرة كنت تصفحتها من كتابه ... فما عثرت عليه من الخطأ فيما ألف وجمع : انه ذكر فى باب (العين والثاء) أن أبا تراب أنشد

ان تمنعى صَوْبَكِ صَوْبَ المدمع
يجرى على الخد كضِئْبِ الثعثع

فقيده البشتى بكسر الثاءين .... والصواب الثعثع (بفتح الثاءين) ـ وأنشد البشتى : فبآمر وأخيه مؤتمر
ومعلِّلٍ وبمطفىء الجمر

قال البشتى : سمّى أحد أيام العجوز آمرا لأنه يأمر الناس بالحذر منه ، قال : وسُمِّىَ اليوم الآخر مؤتمرا لأنه يأتمر الناس ، أى يؤْذنهم (من الايذان وهو الاعلام) .

---

(1) انظر هذه المصادر الواسعة مفصلة فى ص 32 و33 من الجزء الاول من كتاب التهذيب ط الدار القومية العربية للطباعة سنة 1384 هـ ـ 1964 م

قلت : وهذا خطأ محض ، لا يعرف فى كلام العرب ائتمر بمعنى آذن . وفسر قول الله عز وجل (ان الملأ يأتمرون بك) على وجهين أحدهما يهمون بك، والثانى يتشاورون فيك. وائتمر القوم وتآمروا، اذا أمر بعضهم بعضا . وقيل لهذا مؤتمر لأن الحى يؤامر فيه بعضهم بعضا للظعن أو المقام فجعلوا المؤتمر نعتا لليوم ، والمعنى أنه مؤتمر فيه كما قالوا : ليل نائم أى ينام فيه ....

ـ وذكر فى باب (العين واللام) : أبو عبيد عن الاصمعى : أعللت الابل فهى عالّة اذا أصدرتها ولم تُروِها .

قلت : وهذا تصحيف منكر ، والصواب أغللت الابل بالغين ، وهى ابل غالة . أخبرنى المنذرى عن أبى الهيثم عن نصير الرازى قال : صدرت الابل غالّةً ، وغوالّ ، وقد أغللتها ، من الغلة والغليل ، وهو حرارة العطش ... ...

ـ وروى البشتى فى باب (العين والنون) قال الخليل : العنة : الحظيرة وجمعها العنن وأنشد :

ورطب يرفع فوق العنن (1)

قال البشتى : العنن هاهنا : حبال تشد ، ويلقى عليها لحم القديد .

قلت : والصواب فى العنة والعنن ما قاله الخليل ان كان قاله ، وقد رأيت حظرات الابل فى البادية تسوى من العرفج والرمث فى مهب الشمال كالجدار المرفوع قدر قامة لتناخ الابل فيها وهى تقيها برد الشمال . ورأيتهم يسمونها عننا لاعتنانها معترضة فى مهب الشمال واذا يبست هذه

---

(1) اللسان ع ن ن وصدر البيت ترى اللحم من ذابل قد ذوى . والبيت للاعشى

الحظرات فنحروا جزورا شرروا لحمها المقدد فوقها فيجف عليها .

ولست أدرى عمن أخذ ما قاله فى العنة آنــه الحبل الممدود ، ومــد الحبل من فعل الحاضرة ، ولعل قائله رأى فقراء الحرم يمدون الحبال بمنى فيلقون عليها لحوم الهدى والأضاحى التى يعطونها ففسر قــول الاعشى بمــا رأى ....

ــ وأنشد احمد البشتى :

يــا رب شيــخ منهــم عنــين
عــن الطعــان وعــن التجفين

قال البشتى فى قوله (وعن التجفين) هو مــن الجفان أى لا يطعــم فيها (1)

قلت : والتجفين فى هذا البيت من الجفــان والاطعام فيهــا خطــأ ، والتجفين هاهنا كثرة الجماع . رواه أبو العباس عن ابــن الأعرابى ، وقال أعرابى : (أضوانى دوام التجفين) أى أنحفنى وهــزلنى الــدوام عــلى الجماع ....

وقال البشتى فى باب (العين والباء) : أبــو عبيد : العبيبة : الرائب من الألبان .

قلت : وهذا تصحيف قبيح واذا كان المصنف لا يميز العين والغــين استحال ادعاؤه التمييز بين السقيم والصحيح . وأقرأنى أبو بكر الايادى عن شمر لأبى عبيد فى كتاب المؤلف (اى غريب المصنف) الغبيبــة بالغين المعجمة : الرائب من اللبن ....

(1) فى اللسان : الجفان التى يطعم فيها

ـ وقال البشتى فى باب (العين والهاء والجيم) : العوهج : الحية فى قول رؤبة

حصب الغواة العوهج المنسوسا

قلت : وهذا تصحيف دال على أن صاحبه أخذ عربيته من كتب سقيمة ، ونسخ غير مضبوطة .... والحية يقال له العومج بالميم ... وقيل للحية عومج لتعمجه فى انسيابه اى لتلويه ومنه قول الشاعر يشبه زمام البعير بالحية اذا تلوى فى انسيابه :

تلاعب مثنى حضرمى كأنه

تعمج شيطان بذى خروع قفر

وقال فى باب (العين والقاف والزاى) قال يعقوب بن السكيت : يقال قوزع الديك ، ولا يقال قنزع .

قال البشتى : معنى قوله قوزع الديك أنه نفش برائله (البرائل : ريش الطائر حول عنقه) وهى قنازعه .

قلت : غلط فى تفسير قوزع أنه بمعنى تنقيشه قنازعه ، ولو كان كما قال لجاز قنزع وهذا حرف لهج به عوام أهل العراق وصبيانهم ، يقولون : قنزع الديك اذا فر من الديك الذى يقاتله ، وقد وضع أبو حاتم هذا الحرف فى باب المزال المفسد وقال : صوابه قوزع ، وكذلك ابن السكيت وضعه فى باب ما تلحن فيه العامة ، وروى أبو حاتم عن الاصمعى أنه قال : العامة تقول للديكين اذا اقتتلا فهرب أحدهما : قنزع الديك ،

وانما يقال قوزع الديك اذا غلب ولا يقال قنزع .

وقال البشتى فى باب (العين والضاد) قال : العيضوم : المرأة الكثيرة الأكل

قلت : وهذا تصحيف قبيح دال على قلة مبالاة المؤلف اذا صحف ، والصواب : العيصوم بالصاد

وقال فى باب (العين والضاد مع الباء) يقال مررت بالقوم أجمعين أبضعين بالضاد

وهذا أيضا تصحيف فاضح يدل على أن قائله غير مميز ولا حافظ كما زعم ، أخبرنى أبو الفضل المنذرى عن أبى الهيثم الرازى أنه قال : العرب تؤكد الكلمة بأربع توكيدات فتقول مررت بالقوم أجمعين اكتعين أبصعين أبتعين ، هكذا رواه أبو العباس عن ابن الاعرابى قال : وهو مأخوذ من البصع وهو الجمع ...

وقال فى باب (العين والقاف مع الدال) قال يعقوب بن السكيت : يقال لابن المخاض حين يبلغ أن يكون ثنيّا : قعود وبكر ؛ وهو من الذكور كالقلوص من الاناث

قال البشتى : ليس هذا من القعود التى يقتعدها الراعى فيركبها ويحمل عليها زاده وأداته ، وانما هو صفة للبكر اذا بلغ الاثناء

قلت : أخطأ البشتى فى حكايته كلام ابن السكيت ثم أخطأ فيما فسره من كيسه (من عنده) ..... فجعل البشتى (حتى) (حين)

وأحد الخطأين من البشتى فيما قاله من كيسه تأنيثه القعود ولا يكون القعود عند العرب الا ذكرا ــ والثانى أنه لا قعود فى الابل تعرفه **العرب غير ما فسره ابن السكيت** . ورأيت العرب تجعل القعود البكر من حين يركب ، أى يسكن ظهره من الركوب . وأقرب ذلك أن يستكمل

سنتين الى أن يثنى ، فاذا ثنى سمى جملا ، والبكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية اللذين لم يدركا ، ولا تكون البكرة قعودا ، وقال ابن الأعرابى فيما أخبرنى المنذرى عن ثعلب عنه : البكر : قعود مثل القلوص فى النوق الى أن يثنى ، هكذا قال النضر بن شميل فى كتاب الابل (1)

وكان الأزهرى كعادته يتلمس الخطأ أو التصحيف ليكيل الاتهـام لصاحب كتاب التكملة ، بالرغم من أنه كان (امام أهل الأدب بخراسان فى عصره بلا مدافعة) كما يقول الحافظ ابو عبد الله بـن البيع فـى تاريخ نيسابور ، وكذلك شهد له بالتقدمة أبـو عمر الزاهد ، ومشايخ العـراق بسبب كتاب التكملة هذا (2)

كتاب الحصائل لابي الازهر البخاري

وكذلك الف ابو الازهر البخارى كتاب الحصائل ، يقصد به تحصيل ما أغفله الخليل ، وقد اثنى القفطى على هذا الكتاب ، ووصفه بأنه كتـاب جليل القدر جامع للغة ويقول « رأيت منه الجزء الأول فنظرته كتابا جليلا جامعا ، يشتمل هذا الجزء على ما فات الخليل فى حرف العين خاصة » (3) ومع هذا فلم يسلم أبو الأزهر من لسان الأزهرى الذى قال فيه « واما أبو الازهر البخارى الذى سمى كتابه الحصائل فانى نظرت فى كتابه الذى ألفه بخطه وتصفحته فرأيته أقل معرفة من البشتى وأكثر تصحيفا » (4)

مختصر الزبيدي

ثم اختصر كتاب العين محمد بن الحسن الزبيدى ، فحذف ما فيه من

(1) انظر التهذيب 1 : 33-40 وانباه الرواة 1 : 111-119

(2) انباه الرواة 1 : 107

(3) انباه الرواة 4 : 93 (ترجمة ابى الازهر البخارى)

(4) تهذيب اللغة 1 : 40

الشواهد ، وأكثر الآيات القرآنية فخفف حمله ، وسهل النظر فيــه ، وبهذا أعجب به فئة من الناس فقال أبو الحسن الشارى فى فهرسته : كان شيخنا أبو ذر يقول : المختصرات التى فضلت على الأمهات أربعة :

مختصر العين للزبيدى ، ومختصر الزاهر للزجاجى ، ومختصر سيرة ابن اسحق لابن هشام ، ومختصر الواضحة للمفضل بن سلمة (1)

ومع هذا فكان الشارى ، وشيخه أبو ذر مع اعجابهما بهذا المختصر يجدان الزبيدى قد أخل بكتاب العين فيقول الشارى « ومذهبى ومذهب شيخى أبى ذر الخشنى ، وأبى الحسن بن خروف أن الزبيدى أخل بكتاب العين كثيرا لحذفه شواهد القــرآن والحديث وصحيــح أشعار العــرب منه » (2)

فلما علم هذا من أمر مختصر الزبيدى عمل الامام تمام بن غالب بــن عمر المرسى الأندلسى المعروف بابن التيانى كتابا سمى (بفتح العين ؟) أو (تلقيح العين) كما جاء فى معجم الادباء ، قيل انه أتى فيه بما فى العين من صحيح اللغة الذى لااختلاف فيه على وجهه دون اخلال بشىء من شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب وطرح مــا فيه مــن الشواهــد المختلفة ، والحروف المصحفة ، والأبنية المختلفة ، ثم زاد فيه مــا زاده ابن دريد فى الجمهرة فصار هذا الديوان محتويا عــلى الكتابين جميعــا (3) ويبدو أن هذا الكتاب نال استحسان معاصريه فقال فيه الحميدى (... لم يؤلف مثله اختصارا واكثارا) وقال ابن بشكوال بسنده عن ابن حيان فى ترجمة تمام بن غالب (وله كتاب جامع فى اللغة ، سماه تلقيح العين ، جــم الفائــدة) (4) .

---

(1) المزهر 1 : 87 ط الحلبى
(2) المزهر 1 : 88
(3) المصدر نفسه
(4) معجم الادباء 7 : 136 ، 137

واقد ترى معى أن كتاب العين بسبقه ، وترتيبه ، ومنهجه ، والفلسفة التى تراها فى افتتاحيته ، والتى تدل على شــدة الف الخليـــل بالعربيـــة وخصائصها ــ برغم ما قيل فيه ــ عمل ضخم فتح للعلماء من بعـــد الخليل أبوابا دخلت منها المعاجم الأخرى التى سنعرف بهـــا الآن ، والتى تكشف، أن اصحابها جميعا كانوا عيالا على كتاب العين .

جمهرة اللغة

نجم فى البصرة أيضا ، وفى بيت علم بها ، عالم لغوى وهب سعة فى الحفظ ، وقوة فى الذاكرة ، هو أبو بكر محمد بن الحسن بـــن دريـــد ، ذكروا من قدرة استيعابه أن عمه عهد اليه بحفظ قصيدة من ديوان الحارث ابن حلزة ، فلما عاد بعد فترة الغداء مع معلمه وجداه قد حفـظ الديوان • وحكى الخطيب عمن رأى ابن دريد انه قال : « كان ابن دريـــد واسـع الحفظ جدا ما رأيت أحفظ منه ، وكانت تقرأ عليه دواوين العرب كلها أو اكثرها فيسابق الى اتمامها ، وما رأيته قط قرىء عليـــه ديوان شـــاعر الا وهو يسابق الى روايته لحفظه له » •

وبهذه الحافظة الواعية تلمذ لأبى حاتم السجستانى،وأبى عثمان سعيد ابن هارون الاشناندانى ، وأبى الفضل العباس بن الفرج الرياشى ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أخى الأصمعى ، والحسين بن دريد عمه وآخرين •

فلما روعت البصرة بثورة الزنج فـــى سنة سبع وخمسين ومائتين ، وقتل فيها العباس بن الفرج الرياشى ، ذهب ابن دريـــد فى صحبة عمـــه الحسين بن دريد الى عمان ، وأقام بها اثنتى عشرة سنة ، عاد بعدها الـــى البصرة ؛ ولكن هذه البيئة العلميـــة التى كانت مستقر العلمـــاء ومهبـــط الطالبين قد فتر فيها الطلب بظهور بغداد ولم تطب مستقرا ومقامـــا لهـــذا

العالم النابه ، فلما جاءته دعوة من عبد الله بن محمد بن ميكال وكانت لـه عمالة كور الأهواز ليؤدب ولده اسماعيل ، سارع الى اجابتها . وفى ظـل هذه الأسرة ، هدأت نفسه ، وجادت حافظتـه بمكنونها ، فأملى كتـاب الجمهرة ، لا ليوازى به كتاب العين ، ولا ليصحح ملاحظ وجدها فيه ، أو يبرز مطعنا على صاحبه ؛ ولكن ابن دريد لم يقصد الى شىء من هذا ، بل وضع الاشادة بالخليل وبكتاب العين فى سطور الجمهره الأولـى وفـى مقدمتهـا ، ويقـول :

« ولم أجر فى انشاء هذا الكتاب الى الازراء بعلمائنـا ، ولا الطعن فى أسلافنا ، وانما على مثالهم نحتذى ، وبسبلهم نقتدى ، وعلى ما أصلوا نبنى ، وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودى رضوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته ، وعنى مـن سما الى نهايتـه ، فالمنصف له بالغلب معترف ، والمعاند متكلف ، وكل من بعده له تبع » (١)

وأعد كتاب الجمهرة يعنى بذلك الجمهور من كلام العرب ، صارفـا النظر عن الوحشى والمهمل والمتروك ، ويختلف غرضه عن غرض الخليل ؛ فالخليل كان يريد حصر ألفاظ العربية على جهة الاستقصاء ، ويضعها أمام الخاصة والعامة كمعين من العلم يغترف منه من شاء بحسب قدرته ، ولكن ابن دريد وجد منهج الخليل يستعصى على العامة ، ولا يستطيع الانتفـاع بمنهجه الا من أوتى حظا من المعرفة بالصرف والعلوم العربية ، فقرب ابـن دريد من افهام الناس ، وأجرى كتابه على ترتيب الأبجدية العادية اذ كـان علم العامة بها كعلم الخاصـة .

بدأ الثنائى بالهمزة والباء ، ثم الهمزة والتاء .... وهو ما جاء على فَعْلٍ (بفتح الفاء وسكون العين)، وفُعْلٍ (بضم الفاء وسكون العين)،

(١) جمهرة اللغة 1 : 3 ط حيدر آباد 1344 هـ .

وفِعْلٍ (بكسر الفاء) من الاسماء والمصادر ولا يكون حرفين البتة الا والثانى ثقيل حتى يصير ثلاثة أحرف ، وانما سمى ثنائيا للفظه وصورته ، فاذا صرت الى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة ، والثانى حرفين مثلين احدهما مدغم فى الآخر أ ب ب • أ ت ت • أ ث ث • آ ج ج • أ ح ح • أ خ خ • ا د د •••• فلما انتهى ترتيب الثنانى الصحيح المدغم بدأ فى أبواب الثنائى الملحق ببناء الرباعى المكرر على النهج السابق: ب ت ب ت/ب ث ب ث/ب ج ب ج / فلما انتهى الى آخر الحروف هـ ى هـ ى عمل للهمزة بابا بنفس بناء الرباعى المكرر بأ بأ/ت أتأ/الى ى أ ى أ ثم عقد بابا للثنائى المعتل وما تفرع منه ب أو ى ــ ت أو ى •••

وفى أبواب الثلاثى الصحيح لم يبدأ بالهمزة وانما بالباء ب ت ث/ب ت ج الى آخر الترتيب ، وبنفس التقاليب التى كانت فى كتاب العين •

ثم عاد فعقد بابا من الثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلان فى موضع العين واللام ، أو العين والفاء ، أو الفاء واللام من الاسماء والمصادر وما تشعب منه •

ثم جعل للمعتل أبوابا : فهذا ما كان عين الفعل منه أحد حروف اللين ، ثم ما لحق الثلاثى الصحيح بحرف من حروف اللين •

ثم جعل للهمز قسما بدأه بقوله (باب النوادر فى الهمز) رتبه على حروف المعجم : باب الألف فى الهمز : أنت الرجل يأنت أنيتا ، وهو أشد من الأنين ، وأنأت اللحم اناءة أى تركته نيئا ••• ••• الى غير ذلك •

باب الباء فى المهموز : ثم التاء •••• الى الياء فلما استوفاه عقد باب اللفيف فى الهمز رتبه على نفس النهج وعرض للأوزان المختلفة •

وأتبع ذلك بأبواب الرباعى الصحيح بدأه بباب الباء والتاء مع ما بعدهما •••• ثم الرباعى الذى فيه حرفان مثلان (دردق ــ كركم ــ

قرقف) ولم أعرف له فى هذا الباب ترتيبا ، ثم ما جاء من الرباعى على فعلّ بتشديد اللام ، وما الحق بالرباعى فى مثل : فرس سبطر ، وأسد ضبطر ، وما جاء على فيعل وفوعل ، وما ألحق بالرباعى بحرف من حروف الزوائد فلما أكثر من التقاسيم على هذا الوجه لجأ الى الصفات فكان من ذلك :

- باب ما جاء على فعلى من الاسماء والصفات
- وما جاء من ذلك على فُعلى بضم الفاء
- وما جاء فى الشدة والصلابة ، والقصر ، والسرعة ، والمضاء ، والنهم ، والسعة ، والسهولة ... ... الى غير ذلك .

فلما دخل الى الخماسى كان على هذا النمط من البعثرة حتى اذا وصل الى نهايته ، افتتح زيادة تحت اسم (أبواب اللفيف) فسره بقوله : وانما سميناه لفيفا لقصر أبوابه والتفاف بعضها الى بعض . وفى آخر الكتاب عقد أبوابا فى النوادر تضمنت كثيرا من خصائص العربية وفرائدها .

ويصف أبو العباس اسماعيل بن عبد الله الميكالى طريقة وضع الجمهرة فيقول :

« أملى علىّ أبو بكر الدريدى كتاب الجمهرة من أوله الى آخره حفظا فى سنة سبع وتسعين ومائتين فما رأيته استعان عليه بالنظر فى شيء من الكتب الا فى باب الهمزة واللفيف فانه طالع له بعض الكتب .

تعدد نسخ الجمهرة

وظهر للجمهرة عدة نسخ لأن ابن دريد أملاها أكثر من مرة من حفظه ، ولذلك لحظ جامعو نسخ الجمهرة اختلافا فى بعض النسخ بالنقص أو الزيادة .

وطبعت النسخة الموجودة بأيدينا عن ثلاث مخطوطات أحدها نسخة المكتبة الآصفية فرغ منها كاتبها سنة ١٠٧٨ هـ وهى من نسخة قرئت على ابن خالويه وأبى العلاء المعرى ، وعليها حواش لهما . والثانية نسخة مكتبه بانكى فور ، والثالثة لا خير فيها وكأنها منقولة عن النسخة السابقة .

ويشير المستشرق فريتس كرنكوى بمقابلة عدة نسخ من الجمهرة فى مكاتب أوربة ، أحدها النسخة القديمة المحفوظة فى مكتبة جمعية العلوم بليدن وهى فى ثلاث مجلدات ، فى الجلد الاول نقص يبلغ نحو ستين ورقة ، ولكن هذا الخرم أكمل حديثا من نسخة لا يعلم أين هى ؛ اما الجلدان الثانى والثالث فهما من رواية أبى سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى وهى أكمل روايات الكتاب .

والنسخة الثانية محفوظة فى خزانة المتحف البريطانى فى لندن ولا يوجد منها الا جزءان من سبعة أجزاء وخطهما على ثلاثة أشكال أحدها بالخط المغربى القديم فى غاية الحسن والصحة من رواية أبى على اسماعيل القالى أحد تلامذة ابن دريد ، والقسم الثانى لا يجاوز مائتى سنة بالخط العراقى وليس هو فى الصحة كالأول والثالث ، أما الخط الثالث فهو بالخط القديم ويظنه كرنكوى كتب فى القرن الرابع أو أوائل الخامس ، والرواية أقصر من سائر النسخ ولكنها فى غاية الصحة وفيها زيادات فى بعض المواضع .

وفى المتحف البريطانى نسخة أخرى ، وهى مختصر الجمهرة ، الا أنها قديمة الخط جدا ، كتب فى أولها أنها كتبت فى عهد المؤلف وهذا ما يوافق كيفية الخط لأنها بالخط البغدادى القديم فى أكمل الضبط وأحسنه غير أن الكاتب أسقط من هذا المختصر كل شاهد من التنزيل ، والشعر ، وغير ذلك .

أما النسخة الرابعة فهي نبذة من آخر الكتاب محفوظة فـي المتحف البريطاني ــ يظن كرنكوى أنها كتبت قريبا من عهـد المـؤلف ؛ وعلى حواشيها تصحيحات لأبى عمر غلام ثعلب وهو أحـد تلامذة ابن دريـد ، ويذكر انه روى الجمهرة وألف كتابا فى تنبيهات على أغلاط المؤلف .

ويقول كرنكوى : قد بذلت الجهـد فى تصحيح الكتاب ، وقابلتـه بالكتب المؤلفة فى اللغة العربية ، بعضها أخذ من الجمهرة مثل محكم ابن سيده ، ومجمل ابن فارس والصفحات التى طبعت من كتاب العـين فـى بغداد ، وعدة دواوين لقدماء وشعراء العرب . وقال : وكثيرا ما ذكر ابـن دريد أبياتا من الشعر ولم يسم قائلها ، فزدتها بعـد خط فاصل ليعلم انـه ليس من أصل الجمهـرة .

وفى مقدمة الجمهرة ــ كمقدمة العين ــ بحث لغوى ، بناه ابن دريد على منطق حروف المعجم ، فبين فيه الحروف المستقلة بذاتهـا ، والحروف التى تأتى من بين حرفين وهذه تبدو فى لهجات بعض القبائـل ؛ كالحرف الذى بين الجيم والكاف فى لغة اليمن فيقولون فى جمل (كمل) ومثـل الحرف الذى بين (الياء والجيم) ، وبين (الياء والشين) فيقول بعضهم فى غلامى : غلامج ، ويقول المتكلم غلامش (1) وكذلك ما أشبه هـذا مـن الحروف المرغوب عنها ، فأما بنو تميم فانهم يلحقون القاف بالكاف فتغلظ جدا فيقولون الكوم يريدون القوم فتكون القاف بين الكـاف والقاف ؛ وهذه لغة معروفة فى بنى تميم ، قال الشاعر :

---

(1) وفى نسخة المتحف البريطانى قال ابو بكر : الحرف الـذى بيـن الشين والجيم والياء فى المذكـر غلامج ، وفـى المؤنث غلامش ، وكذلك فيما يشبه هذا من الحروف المرغوب عنها فأما بنـو تميم فانهم يلحقون القاف باللهاه الجمهرة ص 5

ولا أكَول لكَدر الكَوم گَد نضجت

ولا أكول لباب الدار مكفول

والكاف الفارسية قريبة من نطق الجيم فى صعيد مصر ، وأصل البيت:

ولا أقول لقدر القوم قد نضجت

ولا أقول لباب الدار مقفول

وكذلك الياء المشددة تحول جيما فيقولون بصرج ، وكوفج كما قال الراجز :

خالى عويف وأبو علج

المطعمان اللحم بالعشج

وبالغداة فلق البرنج

وبعضهم يقلب كاف المخاطبة شينا ، وأنشد أبو بكر لمجنون ليلى :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

اراد عيناك ، وجيدك .

ثم تكلم عن الحروف المصمتة ، والمذلقة ، وبين مخارجها ، والفروق الدقيقة فى هذه المخارج ، وكيف أن الحروف القريبة فى مخارجها لا تأتلف فى كلمة واحدة الا بحواجز ويقول : (.... فاذا جاءتك كلمة مبنية من حروف لا تؤلف مثلها العرب، عرفت موضع الدخل منها فرددتها غير هائب لها) وابن دريد متأثر فى هذا بمقدمة الخليل فى كتاب العين ، وقد نقل منها فقرات مسبوقة بكلمة « قال الخليل » .

ثم عقد بابا فى معرفة حروف الزوائد ، ومواقعها وهى : الهمزة ، والألف ، والياء ، والواو ، والميم ، والنون ، والتاء ، واللام ، والسين ، والهاء وبين مواقعها حين تأتى زائدة ، وختم المقدمة اللغوية ببيان الامثلة فهى ثلاثية ، ورباعية وخماسية .

ملاحظ في كتاب الجمهرة

هناك ملامح عامة فى كتاب الجمهرة تدلك على الكثير من شخصية ابن دريد ، ونظرته فى اللغة ، فهو لا يرجح كفة الا اذا اقتنع هو نفسه ، أو رجحت عنده أسانيدها ، فاذا لم يتوفر له ذلك ، ولم ير سبيلا الى رفضه ، ذكر الشيء كما سمعه .

من ذلك ما جاء فى مادة ح ل ل قال : (ومنه قولهم هذا حل وبل ، وقال بعض اهل اللغة : بل اتباع ، وقال آخرون : البل : المباح ، لغة حميرية) (1) فهل تراه لا يجيز الاتباع ؟.

ــ وفى حضض يقول :

(الحضض دواء معروف . وذكروا أن الخليل كان يقول : الحضظ ، بالضاد والظاء ، ولم يعرفه أصحابنا) (2) وقد ترك القارىء فى حيرة ، هل ابن دريد يوافق الخليل ، أو يوافق أصحابه ، أم له رأى يختلف به عن الرأيين ؟

ــ أو يقول :

(.... ومحة البيضة صفرتها ، وخالص كل شيء محه ، والمحاح فى بعض اللغات الجوع ، ولا أدرى ما صحته) (3) .

ــ وفى خ ز ز يقول :

---

(1) الجمهرة 1 : 64 ا (الف يعنى النهر الايمن ، ب النهر الايسر من الصحيفة)

(2) الجمهرة 1 : 61 ا

(3) الجمهرة 1 : 64 ب

(•••• وزخ فى قفاه أى دفع ، وكل دفع زخ . وربما كنى بـه عـن الجماع ، وقد روى عن علىّ عليه السلام :

أفلـح مـن كانت لـه مزخـة

يزخهـا ثـم ينـام الفخـة

وهذا شيء لا أقدم على الكلام فيه ، وأحسب الفخـة أن ينفخ فـى نومه ولا أدرى ما صحته (1) •

وهو لا يقتصر على العموميات ، وانما يوضح الوجه فيما انتهت اليـه المسميات التى عرفت عند اللغويين ، ففى القرء كان اللغويون يقولون أنهـا من الأضداد ، ولذلك فهى تعنى الطهر ، وتعنى الحيض فأوردها ابن دريـد على جـلاء أوضح فقال :

(وأقرأت المرأة اقراء ، فهى مقرىء ، واختلفوا فى ذلك ، فقال قوم : هو الطهر ، وقال قوم : هو الحيض ، وكل مصيب لأن الاقـراء هو الجمـع والانتقال من حال الى حال ، فكأنه انتقال من حيض الى طهر وهو الأصـح والأكثر ، ويجوز أن يكون انتقالا من طهر الى حيض) (2) •

وابن دريد يضع بذلك أمام الباحثين فى خصائص العربية وفى فلسفتها أصول هذه الخصائص ليروا الوجه فى استنباطها ، أما هو فلا يصرح بهـذا الوجه ، فهو فى هذه المادة يكتفى بما فسـر ، ولا يقول بالتضاد ، والأمـر كذلك فى مواد مشابهة ذكرت فى الجمهرة ففى (ب ك) يقول :

بك الشيء يبكه بكا اذا خرقه ، أو فرقه •

والبك : الازدحام ، وكأنه من الأضداد عندهم ، مـن قولهم : تبـاك

---

(1) الجمهرة 1 : 66 ب

(2) الجمهرة 3 : 276

القوم اذا ازدحموا وركب بعضهم بعضا ، قال الراجز (هو عامان بن كعب)

اذا الشريب أخـذته أكّه
فخاه حتى يبك بكّه

قال ابو بكر : الاكّه : الحر الشديد مع سكون الريح ، والشريب : الذى يورد ابله مع ابلك (1) •

وفى ب ر غ وتقاليبه يقول :

والغابر : الماضى ، والغابر : الباقى ؛ وكأنه عندهم من الأضداد ؛ وفسر ابو عبيدة قوله تعالى (الا عجوزا فى الغابرين) فى الباقين ، والله أعلم ، (2) •

وفى ج ر س وتقاليبه يقول :

والسجر : من قولهم سجرت التنور وغيره اذا ملأته حطبا ونارا ، وكل شىء ملاته من شىء فقد سجرته به ، وفى التنزيل (والبحر المسجور) قالوا: البحر المسجور المملوء والله أعلم ، وزعم قوم : أنه الفارغ ، قال الشاعر (النمر بن تولب العكلى) :

اذا شاء طالع مسجورة
ترى حولها النبع والساسما

••• ••• وأما قوله تعالى (واذا البحار سجرت) أى خلت من الماء ، وزعموا أنه من الأضداد ، ولا أحب أن أتكلم فيه (3) •

فاذا كنت تلمح فى كل هذا اتجاها لابن دريد لعدم التسليم بالتضاد

(1) الجمهرة 1 : 36 ب
(2) الجمهرة 1 : 268 أ
(3) الجمهرة 2 : 76 أ ب

فى اللغة فلعلك ترجح هذا الاتجاه ، وتستبين وجهة ابن دريد فى مـــادة ب ش ع وتقاليبها يقول :

(والشعب الافتراق ، والشعب الاجتماع ، وليس من الأضداد ــ انما هى لغة قوم) (1) .

ويبدو أنه لا يعترف بظاهرة الابدال أيضا ، كظاهرة أو خاصية مـــن خصائص العربية ، ولكنه يذكر ما يقابله منها دون اشارة الى كلمة ابـــدال ، ففى ب ض ض يقول :

(اذا كان الرشح أو النتح من دهن أو سمن فهـــو النث ، والمث (2)
وفى مادة ت ن هـ وتقاليبها يقول :

(وهتنت السماء هتنا ، وهتونا ، وهو مثل الهطلان سواء) (3) .

الاحتجاج والشواهد

وابن دريد يتمتع بذاكرة واعية ، فما باله يكتفى فى الاحتجاج بالشعر والرجز بمجرد قوله : قال الراجز (4) أو قال الشاعر (5) أو قال الآخر (6) أو يتردد فى اسم قائل الشاهد ، كأن يقول فى مادة أ ر ر (أرّ الرجل المرأة يورها أرّا اذا جامعها ، والرجل مئر اذا كان كثير الجمـــاع ، قال الراجـــز (وأحسبه الأغلب العجلى او ليلى بنت الحمارس) ..... (7) الا اذا كانت هذه الزيادة من الناشـــر .

الاستطراد

والاستطراد يتنافى وفكرة الاختصار والتخفيف التى كان يقصد اليها

(1) الجمهرة 1 : 291 ب ، 292 أ
(2) الجمهرة 1 : 33 أ
(3) الجمهرة 2 : 31 أ
(4) الجمهرة 1 : 14 أ
(5) 1 : 14 ب
(6) الجمهرة 1 : 14 ب
(7) 1 : 17 أ

ابن دريد فقد رأيناه أحيانا يحتج للكلمة ببيت من الشعر أو الرجز ، ثم يستطرد فيفسر شيئا من مفردات البيت ، ففي مادة أ د د يقول :

« والآدّ ، والأيد ، والآدْ (بالتخفيف) القوة ، يقال : رجل ذو آد . وأيد . قال الراجز :

أبرح آد الصلتان آدا
اذ ركبت أعوادهم أعوادا

وفي التنزيل (والسماء بنيناها بأيد) أي بقوة والله أعلم ، وقال الراجز في الأد وهي القوة :

نَضَوْن عنّي شِرّة وأدا
من بعد ما كنت صملاً نهدا

ثم اخذ يفسر مفردات من البيت الأول فقال :

(ويقال : أبرح الرجل اذا جاء بالداهية والبرحاء الامر العظيم قال الشاعر الاعشى :

أقول لها حين جد الرحيل
أبرحت ربا وأبرحت جارا

« أعوادهم » أي وقع السهم على القوس فهي الأعواد على الأعواد) (1) .

وفي مادة أ ز ز

از يؤز ازا — والأز : الحركة الشديدة ، وأزت القدر اذا اشتد غليانها ، وفي كتاب الله تعالى (تؤزهم أزا) والمصدر الأز والأزيز والازاز قال رؤبة :

---

(1) الجمهرة 1 : 16

لا يأخــذ التــأفيك والتحــزى
فينــا ولا طيخ العــدى ذو الأز

ثم أخذ يفسر مفردات الشاهد فقال :

« التأفيك ، من قولهم أفك الرجل عن الطريق اذا ضــل عنه ، وفــى القرآن العزيز (يؤفك عنه من أفك) قال يصرف عنه ، وقوله عــز وجــل (فأنى يؤفكون) أى يصرفون، والله أعلم ، والتحزى : التكهن ، والحازى: الكاهن ، والطيخ : التكبر والانهماك فــى الأباطيــل ، يقــول : انــا لا نستضعف (1) .

ولكن ، هل هذا مأخذ على كتاب الجمهرة ؟ وهل من الهنات أن وضع فــى حسبانه التخفيف فاستطرد ؟ الرأى عندى أن لا ، فالاختصار يتبعــه استفسار يكمن بين ما صعب بين السطور ، وأنــه لا يكفى فى الايجاز أن يفسر الشيىء بالشيىء ويحتج له ببيت يحمل من المفردات ما يصعب دركه ، فيضيع المقصودمن الاحتجاج وعلى هذا فالكتاب يتمــم بعضه بعضا ، وان هذا الاستطراد هو مجرد ملاحظة تأخذ مكانها الصحيح من الكتاب .

الاحتجاج بالحديث

وهناك فئة من اللغويين تتحرج من القول فــى الحديث ،وبالتالــى لا تحتج به ، ولا تشير اليه فى سياق التفسير ، ولكنا رأينــا صاحب العــين يستشهد بالحديث ، وابن دريد كذلك ، وفى مناسبات عديدة . فمن ذلك :

ـ يفسر الفلذ بأنه القطعة من الكبد ، ويحتج لذلك بقول أعشى باهلة يرثى المنتشر الباهلى :

---

(1) 1 : 17 أ ، ب

تكفيه حزة فلذ ان ألم بها
من الشواء ويروى شربة الغمر

فيقول : (الغمر) قدح صغير ، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (هلموا غمرى) وأخذ من التغمير وهو الشرب دون الرى (1)

— وفى ب ع ع . عب فى الاناء يعب عبا ، وهو تتابع الجرع ، قال الراجز :

يكرع فيها ويعب عبا
محببا فى مائها منكبا

أى منكسا رأسه ، رافعا عجزه ، وفى الحديث (مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا فان الكباد من العب) (2)

— وفى ب غ غ الغب من أوراد الابل أن ترعى يوما ، وترد يوما من الغد ، وبذلك سميت الحمى الغب لأنها تأخذ يوما وتَتْرُكُه يَوْماً — قال أبو بكر ، قال أبو مالك : سألت العرب عن الغب فقالوا أن تشرب يوما ، وترد بعده بيوم فيكون وردها الماء يوما واحدا وكان ينبغى أن يسمى ثلثا — والربع أن يفوتها الماء يومين ، والخمس أن يفوتها الماء ثلاثة أيام ، ثم كذلك الى العشرة ، وانما سمى عشرا لأنها تشرب يوما ثم ترعى ثمانية أيام وترد فى اليوم العاشر . وفى الحديث (ادّهِنوا غبا) والمثل السائر « زرغبا تزدد حبا » (3)

— ث ج ج ثججت الماء اثجه ثجا اذا صببته كثيرا ، وكذلك فسر فى

---

(1) مادة أ ذ ذ 1 : 16 ب
(2) مادة ب ع ع 1 : 35 أ
(3) 1 : 35 ب

التنزيل فيقوله جل وعز (ماء ثجاجا) وهذا مما جاء في لفظ فاعل والموضع مفعول لأن السحاب يثج الماء وهو مثجوج، وقال بعض أهل اللغة: ثججت الماء وثج الماء وانثج الماء كما قالوا ذرفت العين الدمع ، وذرف الدمع فهو ذارف ومذروف قال الراجز :

حتى رأت العلق الثجاجا

قد اخضل النحور والأوداجا

وفي الحديث (تمام الحج العج والثج) فالعج العجيج في الدعاء ، والثج : سفك دماء البدن وغيرها (1)

ــ وفي ح ش ش والحش مصدر حششت النار أحشها اذا أوقدتها: وفلان محش حرب اذا كان يسعرها لشجاعته ، وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لابي جندل بن سهيل (ويل أمة محش حرب لو كان معه رجال) (2) •

ــ وفي ت ف ك الفتك (بفتح الفاء وكسرها) جميعا معروف ، وفي الحديث : (قيد الاسلام الفتك لا يفتك مسلم) والرجل الفاتك الذي اذا هم فعل (3) •

ــ وفي ت ق و القوت مصدر قات عياله يقوتهم قوتا، والاسم القوت وهي البلغة من الطعام، والجمع أقوات، ويقال قات الرجل أهله، وأقاتهم وفي الحديث (كفى بالرجل اثما أن يضيّع من يقوت) (4) •

---

(1) 1 : 43 ب
(2) 1 : 60 ب
(3) 2 : 23 ب
(4) 2 : 27

اللغات

وهو شغوف بالاشارة الى اللهجات ، وخاصة اليمنية ونحن نورد عليك امثلة من ذلك :

ــ يقول : جح الشيء يجحه جحا اذا سحبه . لغة يمانية وكل شجر انبسط على وجه الأرض فهو عندهم الجح كأنهم يريدون أنه انجَحّ على الأرض اذا انسحب ، ويسمون صغار البطيخ قبل نضجه الجح وكذلك الحنظل الذى يسميه أهل نجد الحدج (1)

ــ والضجاج ، ثمر نبت أو صمغ تغسل به النساء رؤسهن ــ لغة يمانية (2)

ــ والألفت فى لغة بنى تميم الأعسر ، وفى لغة غيرهم **الأحمق** (3)

ــ ومن فروق اللغات ترك الهمز فى الحجاز وتحقيقه فى بقية اللغات يقول ابن دريد فى د ف ف : (قال أبو بكر : جاء قوم بأسير الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرعد فقال : (ادفوه) فقتلوه ، أراد عليه السلام أدفئوه ، ولغته بترك الهمز وهم ذهبوا الى لغتهم ادفوه أى اقتلوه (4)

ومن ذلك (برأت من المرض ابرأ برأ وهذه لغة الحجاز ، وسائر العرب يقولون : برئت من المرض ابرأ ، والمصدر فيهما البرء (5) .

وأنشد فى (بح) لخفاف بن ندبة :

اذا الحسناء لم ترحض يديها
ولم يقصر لها بصر بستر

---

(1) 1 : 48 ب ، 49 أ
(2) 1 : 53 أ
(3) 2 : 24 ب
(4) 1 : 74 ب ، 75
(5) 3 : 277 أ

قــروا أضيافهم ربحــا ببــح
يعيش بفضلهــن الحــى ســمر

قال أبو بكر رحض يرحَض (بفتح حاء المضــارع) ورحض يرحِض (بكسر حاء المضارع) لغة هذا الشاعر وهى لغة أهل العالية (1)

ـ وأنشد لابن أحمر فى قولهم ربت فى معنى رب :

وربــت ســائل عنــى حفــى
أعــارت عينــه أم لــم تِعــارا

« تعارا مكسورة التاء » قال أبو بكر : هكذا لغته أى صارت عوراء ويقال عرت العين وعورتها (2)

ـ والسَّبُّ بلغة هذيل الحبل ، وقال أبو ذؤيب :

تدلى عليهــا بــين سب وخيطــة
شديد الوصاة نابلٌ وابن نابــل

يصف الذى يشتار العسل فيتدلى بالحبل الى موضــع العسل ، وقال أبو عبيدة : الخيطة فى هذا البيت الحبل ، والسبب : الوتد (3)

ـ وفى ث ش ش قال : الشث ضرب مــن الشجر واحتج لــه بقول الشاعــر :

بــواد يمان ينبت الشث فرعــه
وأســفله بالمــرخ والشبهــان

---

(1) 1 : 24| ب
(2) ب د د 1 : 28 ب
(3) 1: 30 ا ب س س

فقال : الشبهان : الثمام ، لغة يمانية (1) .

ـ وقد يفاضل بين فصيح وأفصح كقوله : البر : المعروف أفصح من قولهم القمح والحنطة (2) .

ـ وقد يصوب لغتين كأن يقول : خصب وخصب (بفتح الخاء وكسرها) وكسب وكسب (بفتح الكاف وكسرها) لغتان جيدتان (3) الى غير ذلك .

الأمثال

وهو يشير الى الأمثال فلا أدرى هل يحتج بها أم هى مجرد اشارة ونوجز أمثلة بعد :

ـ فى ب ز ز يقول بز الشىء يبزه بزا اذا اغتصبه ، والمثل السائر (من عزّ بز) أى من قهر اغتصب (4) .

ـ بس بالناقة ، وأبس بها اذا دعاها للحلب ، ومثل من أمثالهم (لا أفعل ذلك ما أبس عبد بناقة) (5) .

ـ وبض الماء يبض بضا وبضوضا اذا رشح من صخرة أو أرض ومثل من أمثالهم (فلان لا يبض حجره) أى لا ينال منه خير (6) .

ـ وفى ب ى ى قال : هَىْ بن بَىْ ـ مثل لمن لا يعرف ، وقالوا : هيّان بن بيّان اسمان لمن لم يعرف ولم يعرف ابوه وأنشد لابن أبى عيينة :

لئام من بنى هَىْ بن بَىْ
وأنذال الموالى والعبيد (7)

---

(1) 1 : 45 ب

(2) 1 : 27 ب ، ب ر ر

(3) 1 : 46 ب ، ت غ غ

(4) 1 : 29 أ ، ب ز ز

(5) 1 : 30 أ ، ب س س

(6) 1 : 33 أ ، ب ض ض

(7) 1 : 38 ب ، 39 أ ، ب ى ى

ــ وفى ح ش ف يقول : ••• وحشف التمر ردبئه ويابسه الــذى لا حلاوة فيه ••• ومثل من أمثالهم (أحشفا وسوء كيلة) (1) •

المعرب والدخيل

وهو ينبه على الفاظ كثيرة بأنها ليست عربية فيقول مثلا : الحب ضد البغض وأما الحب الذى فيه الماء فهو فارسى معرب ، وهو مولد ، قال أبــو حاتم : أصله خنب فعرب فقلبوا الخاء حاء ، وحذفوا النون (2) •

ويقول : البوصى : السفينة ، وكانت بالفارسية بالزاى فقلبتها العرب صــادا (3) •

وفى ج ص ص يقول : الجص معروف وليس بعربى صحيح (4) •

المساهلة في ترتيب الكلمات

وثمة ملاحظة تصل الى حد الخطأ عندما يأخذ هذا العالم الكبير فــى ترتيب الكلمات على حروف المعجم فيداخل الهاء مع التاء المربوطة فيقول فى ح م هـ :

(•••• والحمة مخففة حرارة السم وليست كما تسمى العامة حمــة العقرب ابرتها وسألت أبا حاتم عن الحمة فقال : سألت الأصمعى عنها فقال : هى فوعة السم أى حرارتــه) (5) •

او يقول فى ح ن هـ (حنة الرجل امرأته) (6) •

وفى ح و هـ أشار الى الحوة فى الألوان (7) •

---

(1) 2 : 158 ب
(2) 1 : 25 ا
(3) 1 : 50 ا
(4) 1 : 52 ب
(5) 2 : 196 ب
(6) 2 : 197 ب
(7) 2 : 198 ا

وثمة ملحظ آخر ، لقد وعد ابن دريد أن يأتى بجمهرة الألفاظ . وهى الكلمات التى تدور على الألسنة ، لا المستكره منهـا ولا الميت ، ولذلك اختار لكتابه اسم « الجمهرة » فما باله يتجاوز ما وعد ؟ فسر فى باب البـاء والتاء من أبواب الرباعى الصحيح كلمة (جعتب) فقال : اسم من فعل ممات ، والجعتبة : الحرص والشره ، أو يقول فى نفس الباب :

دعتب ، موضع قد جاء فى شعر شاذ ، أنشدنا أبو عثمان لرجل من كلب :

حلت بدعتب أم بكـر والنـوى
ممـا تشتت بالجميـع وتشعب

ثم يقول : وليس تأليف دعتب بالصحيح (1) .

أو يقول : بخثع : اسم ، وليس بثبت (2) الا أن تكون الكلمة سائرة على الألسن فى عهده ويريد أن يشير الى عدم ثبوتها .

وبعـد ،

فكتاب الجمهرة ، من آصل كتب اللغة وأوثقها ، واذا كان الاختصار قد قلل من حجمه ، واضطرب تنظيم الأبواب فيه ، فقد استكمل مـا ذهب به الاختصار فى بحث شامل ختم به الكتاب تحت اسم النوادر . ولا يكاد الباحث يقلب صفحات الكتاب حتى يدرك طريقـة الترتيب ، ووجهة ابـن دريـد فيـه .

ونحن حين نذكر هذا الرجل لا ننسى أنه أملى الجهمرة من ذاكرته لم يرجع الى كتاب مدون الا فى الهمز واللفيف ، أما ما يقوله نفطويه وتلميذه الأزهرى من طعن فى ابن دريد ، فمرده ـ فيما أعتقـد ـ الى المعاصـرة ، والمعاصـرة حجـاب .

---

(1) 295 : 3

(2) 296 : 3

أبو اسماعيل بن القاسم القالي 288 ـ 356 هـ
وكتابه (البارع)

ولد أبو على بمنازكرد ، من أرمينيا سنة ثمان وثمانين ومائتين ورحل الى بغداد طلبا للعلم سنة ثلاث وثلاثمائة ، وكانت عمره آنذاك خمسة عشر عاما ، فأدرك فيها ابن الأنبارى ، وابن درستويه ، ونفطويه ، وابن دريد ، والزجاج ، والأخفش ، وأخذ عن ابن قتيبة كتب أبيه ، وقرأ على أبى بكر أحمد بن محمد القرآن الكريم بقراءة أبى عمرو بن العلاء أكثر من مـرة ، كما أخذ عنه كتابه فى القراءات السبع ـ وقرأ على ابن درستويه كتـاب سيبويه عن المبرد ، وناظره فيه ، واستفسره مشكلاته ، وقال : (وقرأ معى الكتاب أجمع أبو جعفر ابن أبى محمد بن درستويه تعليما ورواية) وكتب الحديث عن أبى بكر السجستانى ، ويحيى بن صاعد ، وأبى عمرو محمـد ابن يوسف القاضى ، وأبى القاسم البغوى وآخرين (1) .

ويبدو أن الحاجة قد دفعت بأبى على الـى تغيير أسلوب حياتـه . وبلغت به الشدة أن باع كتاب الجمهرة وكان بخـط صاحبه ابن دريـد ، وتبعته نفسه فقال متحسرا :

أنست بها عشرين عامـا وبعتها
وقد طال وجدى بعدها وحنينى

(1) انباه الرواة 1 : 205 - 207 ، بغية الوعاة 210

ومـــا كان ظنى أننى سأبيعهـــا
ولو خلدتنى فى السجون ديونى

ولكن لعجز وافتقـــار وصبيـــة
صـــغار عليهم تستهل شئونـــى

فقلت ولـــم أملك سوابق عبرتى
مقالـــة مكوى الفؤاد حـــزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم مـــن رب بهن ضنين (1)

وتوجه الى الأندلس وقد جاوز الأربعين بعامين ، فقصد عبد الرحمن الناصر الاموى فأكرمه بقدر ما قدم له ولابنه الحكم المستنصر من العلـــم والمعرفـــة ٠

ومن مؤلفات القالى : كتاب الأمالى والنوادر الذى أملاه من حفظه فى مسجد الزهراء ، وكتاب المقصور والممدود ، والابل ونتاجها ، وكتاب حلى الانسان ، والخيل وشياتها ، وكتاب فعلت وأفعلت ، ومقاتل الفرسان ، وكتاب فى القصائد والمعلقات وتفسيرها واعرابها ، ومعجمه البارع ٠

كتاب البارع في اللغة

هو أول معجم يظهر فى المغرب ، يصفه الزبيدى ــ وكان تلميذا لأبى على القالى ــ بأنه فاق كتاب العين بأربعمائة ورقة ، لأن القالى ذكر بعض الأصول التى كان يراها صاحب العين مهملة ، ورتبه القالى كترتيب العـــين الا من اختلاف فى ترتيب الأبجدية ، وقد أخبره ولده ، أن أباه بدأ كتاب

---

(1) المزهر 1 : 95

البارع فى رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، ثم قطعته علل وأشغال ، ثم عاود النظر اليه بأمر أمير المؤمنين وتأكيده عليه ، فبدأ فيه ثانية فى سنه تسع وأربعين وثلاثمائة حتى أكمله ، وبدأ بنقله حتى أتم كتاب الهمز ، والهاء ، والعين ، ثم مرض وتوفى قبل أن يتمه (1) فشارك فى اتمامه محمد بن الحسين الفهرى الوراق ، ومحمد بن معمر الجيانى •

ويبدو أن أبا على ، وقد استشعر ما تبوأ كتاب العين من أهمية ، وحرص ابن دريد على أن يخرج معجم الجمهرة — رأى أن يسلك هذا المسلك متأثرا بأستاذه ابن دريد ، فعمل البارع الذى يقول فيه السيوطى : (وأصح كتاب وضع فى اللغة على الحروف بارع أبى على البغدادى ، وموعب ابن التيانى) (2) •

ولقد عثر على قطعتين من معجم البارع ، احداهما فى المتحف البريطانى والأخرى فى المكتبة الاهلية فى باريس ، نشرهما وقدم لهما الاستاذ أ • س • فلتن •

وقال فى المقدمة : من بين الأوراق التى عثر عليها أمناء المتحف البريطانى وثيقة ترجع شهرتها الى هذا النموذج من الخطوط القديمة ، وهى مكتوبة بخط أندلسى يرجع الى القرن الحادى عشر الميلادى تقريبا ، يتضمن المخطوط جذاذات من معجم عربى كبير اسمه الكتاب البارع فى اللغة ، وكان كتابا مشهورا ألفه صاحبه فى قرطبة فى القرن العاشر الميلادى •

وعندما عثر على هذه الوثيقة كانت الأوراق مربوطة بعضها الى بعض

---

(1) انباه الرواة 1 : 209

(2) المزهر 1 : 89

فى غير نظام ، وكان الترتيب الأبجدى يقودنا الى الترتيب الصحيح •

والمخطوط الآخر المماثل ــ والذى وجد بمحض الصدفة فى مكتبة غير مفهرسة ، يحتمل أن تكون فى شمال أفريقيا أو الشرق الادنى كان على جزازات حفظت فى المكتبة الأهلية بباريس ــ وهو أيضا مكتوب بخط أندلسى يرجع الى نفس العصر الذى كتبت فيه الأوراق الاولى ، ولكن بخط ناسخ آخر ــ أكثر تأنقا ــ وتبلغ المجموعة الأولى ثلاثة أضعاف ونصف القطعة الثانية ، ولا تشترك القطعتان الا فى ثمانى صفحات فقط ــ وعالجت كل واحدة ، فيما عدا هذا ، مادة تخالف الأخرى •••)

تهذيب اللغة

لابى منصور محمد بن أحمد الأزهرى

370 — 282

والأزهرى ، نسبة الى أبيه الخامس ، فهو محمد بن أحمد بن طلحة ابن نوح بن الأزهر ـ ولد وتلقى عن رجال الشافعية فى هراة ، احدى عواصم خراسان ، ولما نيف على الثلاثين ، ذهب يؤدى فريضة الحج ، فوقع فى أسر القرامطة حين عودته وطال مقامه بينهم ، ففصح بفصاحتهم ، وهو يحكى ذلك فيقول :

« وكنت امتحنت بالاسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير ، وكان القوم الذين وقعت فى سهمهم عربا ، عامتهم من هوازن ، واختلط بهم أصرام من تميم ، وأسد ، بالهبير ، نشأوا فى البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ، ويرجعون الى اعداد المياه ، ويرعون النعم ، ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التى اعتادوها ، ولا يكاد يقع فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش ، فبقيت فى اسارهم دهرا طويلا ، وكنا نتشتى الدهناء ، ونتربع الصمان ، ونتقيظ الستارين ، واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ، ونوادر كثيرة ، أوقعت أكثرها فى مواقعها من الكتاب ، وستراها فى موضعها اذا أنت قراءتك

عليها أن شـــاء اللـــه » (1) .

فلما أفلت من اساره ، عرج على العراق ؛ فجلس فى بغداد الى أبـــى عبد الله ابرهيم بن محمد بن عرفه المعروف بنفطويه ، وأبى بكر محمد بن السرى المعروف بابن السراج ، ولما عاد الى هراة تلمذ على أبـــى الفضل محمد بن جعفر المنذرى ، وجماعة من العلماء .

كتب الأزهرى فى مقدمة التهذيب تعريفا بقدامى اللغويين ، وبكتبهم التى انتهى علمه اليها، وكيفية وصولها اليه حتى سمعها شفاها من شيوخه، فكان هذا التعريف وهذا الاسناد نوعا من التأليف أحسب الناس فى حاجة اليه حاجتهم الى كتاب التهذيب نفسه . ولولا ضيق هـــذا المكان لشغلته بمقدمة الأزهرى فى هذا الوجـــه ، ولكن لا بأس مـــن بعض يشير الـــى البعض .

عنون لحديثه بقوله « باب ذكر الأئمة الذين اعتمادى عليهـــم فيمـــا جمعت فى هذا الكتاب » ــ فأولهم : أبو عمرو بـــن العلاء ، أخـــذ عنـــه البصريون والكوفيون من الأئمة الذين صنفوا الكتب فى اللغات ؛ وعلـــم القرآن والقراءات ، وكان من أعلم الناس بألفاظ العرب ونوادر كلامهـــم وفصيح أشعارهم وسائر أمثالهم و ....

وحدثنى .... أنه قال : كان عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى أول من بعج النحو ومد القياس والعلل .... وكان عيسى بن عمر أخذ عـــن ابن أبى اسحق ، وأخذ يونس عن أبى عمرو بن العلاء ....

ومن هذه الطبقة خلف الأحمر .... ، وكان الخليل بن أحمد ....
ومن هذه الطبقة المفضل بن محمد الضبى الكوفى .

---

(1) تهذيب اللغة 1 : 7 ط القاهرة سنة 1384 هـ ــ 1964 م بتحقيق وتقديم عبد السلام هارون ، ومراجعة محمد على النجار

الطبقة الثانية

ومن الطبقة الذين خلفوا هؤلاء .... أبو زيد سعيد بن أوس الانصارى ، ... ... ومن هذه الطبقة من الكوفيين أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، وعنه أخذ ....

وما كان فى كتابى لأبى عبيد عنه (يقصد عن أبى زيد) فما كان منه فى تفسير غريب الحديث فهو مما أخبرنى به عبد الله بن هاجك عن أحمد ابن عبد الله بن جبلة عن أبى عبيد ، وما كان فيه من الغريب والنوادر فهو مما أخبرنى به أبو بكر الايادى عن شمر لأبى عبيد عنه ، وما كان فيه من الأمثال فهو مما أقرأنيه المنذرى وذكر انه عرضه على أبى الهيثم الرازى ، وما كان فيه من نوادر أبى زيد فهو من كتاب ابن هانىء عنه ، وما كان فى كتابى لأبى حاتم فى القرآن عن أبى زيد فهو مما سمعته من ابى بكر بن عثمان السجزى حدثنا به عن أبى حاتم ، وأفادنى المنذرى عن ابن اليزيدى عنه فوائد فى القرآن ذكرتها فى مواضعها من الكتاب .

.... وأما أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ....

.... وما وقع فى كتابى لأبى عبيد عن الأصمعى فما كان منه فى تفسير غريب الحديث (1) فهو مما أخبرنى عبد الله بن محمد بن هاجك عن أحمد بن عبد الله عن أبى عبيد ، وما كان منها فى الصفات والنوادر والأبواب المتفرقة فهو مما أخبرنى به أبو بكر الايادى عن شمر لأبى عبيد، وما وقع فى كتابى لأبرهيم الحربى عن أبى نصر عن الأصمعى فهو مما أفادنيه عن الحربى ، وما كان من جهة أحمد بن يحيى رواية عن ابى نصر

(1) بدات ثقتى تهتز فى الازهرى فلم يكن للاصمعى نشاط فى تفسير الحديث ــ تحرجا

عن الاصمعى فهو من كتاب ابى عمر الوراق » (يقصد الزاهد غلام ثعلب)

ونكتفى بهذا البعض فقد نقلت منه بدايات بعدها نقط تشير الى الكثير من الاختصار ، واكتفيت بفقرتين كاملتين ، ولكن المقدمة فى هذا التعريف طويلة وهامة شغلت من الصفحة الثامنة حتى الأربعين ـ والعلم بالرواة وكتبهم وتلاميذهم ، والعلاقة بين الجزئيات وحامليها وا لمتخصصين فيها ورواتها ، وتسلسل السند فى هذه الجزئية أو تلك مسألة الفت فيها الكتب فقصرت عن هذه الغاية التى تراها فى مقدمة الأزهرى ، ويبدو أنه أحس بالزهو فور فراغه منها فعقب قائلا :

« ولو أنى أودعت كتابى هذا ما حوته دفاترى وقرأته من كتب غيرى ووجدته فى الصحف التى كتبها الوراقون ، وأفسدها المصحفون لطال كتابى ثم كنت أحد الجانين على لغة العرب ولسانها ـ ولقليل لا يخزى صاحبه خير من كثير يفضحه •

ولم أودع كتابى هذا من كلام العرب الا ما صح لى سماعا منهم أو رواية عن ثقة او حكاية عن خط ذى معرفة ثاقبة اقترنت اليها معرفتى اللهم الا حروفا وجدتها لابن دريد وابن المظفر فى كتابيهما فبينت شكى فيها ، وارتيابى بها ، وستراها فى مواقعها من الكتاب ووقوفى فيها » •

ولما كانت مقدمة العين من فلسفة الصوتيات التى لا يرقى اليها الا افذاذ العربية فقد نقلها الأزهرى بسندها الى الخليل بن أحمد ، فنقل أبنية كلام العرب على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى ، وكذلك باب القاب الحروف ومدارجها نقله بطوله ، كما نقل باب أحياز الحروف •

وبعد أن نال من الليث ، وابن دريد ، والبشتى ، وأبى الأزهر البخارى بين قصده من تأليف كتابه فقال :

« وقد سميت كتابى هذا تهذيب اللغة لأنى قصدت بما جمعت فيه من نفى ما أدخل فى لغات العرب من الألفاظ التى أزالها الأغبياء عن صيغتها ، وغيرها الغتم عن سننها فهذبت ما جمعت فى كتابى من التصحيف والخَطاءِ بقدر علمى ؛ ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذى لم أعرف أصله ، والغريب الذى لم يسنده الثقات الى العرب » .

وربما لفتتك أيها القارىء ، هذه العبارة فى سبب تسمية الكتاب بالتهذيب ، وكان القصد تهذيب اللغة مما لحقها بفعل الأغبياء والغتم ــ يقصد هؤلاء العلماء الذين اشتغلوا بالعين والجمهرة ــ وما كان لعالم جليل كالأزهرى أن يحتد بهذه الحدة حين يريد أن يعلن عن مرتبته فى العلم ومرتبة كتابه ، وكان يكفى فى ذلك هذا الثبت من العلماء الذين تلقى عنهم ، وهذا الثبت الضخم من كتب الرواة التى سمعها بأسانيدها .

كان الأزهرى صاحب الحملة على كتاب العين . وهو لا يستطيع أن ينال من الخليل فنال من الليث ، وهو مع ذلك ينقل عن الليث ، ويعتمد عليه أكثر من أى لغوى آخر وربما أضأنا هذا الوجه ونحن نعرف بالكتاب . وكان المعجم الثانى جمهرة اللغة لابن دريد فوقع فى ابن دريد ووصفه بما لا يستحق وقال فيه :

« وممن ألف فى عصرنا الكتب ، فوسم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول وادخال ما ليس من كلام العرب فى كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى صاحب كتاب الجمهرة ، وكتاب اشتقاق الاسماء وكتاب الملاحن ، وحضرته فى داره ببغداد غير مرة فرأيته يروى عن ابى حاتم ، والرياشى ، وعبد الرحمن بن أخى الأصمعى ؛ فسألت ابرهيم بن محمد بن عرفه الملقب بنفطويه عنه فاستخف به ، ولم يوثقه فى روايته » .

كأن الأزهرى تبع لأستاذه نفطويه فى هـذه الخصومه ، والوجـه الثانى أن ابن دريد صاحب المعجم الثانى فـى العربيـة والـذى يسبق التهذيب • والحملة على الليث ، وابن دريد اهون من الحملـة الصاخبـة الشعواء التى شنها على رجلين فى شرق العراق همـا احمـد بن محمـد الخارزنجى البشتى الذى الف التكملة (تكملة العين) وأما الرجل الآخـر فهو أبو الازهر البخارى ، صاحب كتاب الحصائل ، يقصد به تحصيل مـا أغفله الخليل •

ولا يغير هذا الظاهر الحاد من باطن سمح يبتغى فى عملـه مرضـاة الله ورسوله من خلال هذه اللغة ، لغة القرآن ، وحديث الرسول صـلى الله عليه وسلم حيث يقول :

(قلت : قد قال الشافعى ــ رحمه الله تعالى ــ فأحسن ، وأوضـح فبين ، ودل سياق بيانه فيما ذكرناه عنه آنفا وفيما لم نذكره ايجازا ، عـلى أن تعلم العربية التى بها يتوصل الى تعلم مـا به تجرى الصلاة مـن تنزيل وذكر ؛ فرض على عامة المسلمين ، وان على الخاصة التى تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم الاجتهاد فى تعلم لسان العرب ولغاتها ••••

وكتابى هذا وان لم يكن جامعا لمعانى التنزيل وألفاظ السنن كلهـا فانه يحوز جملا من فوائدها ، ونكتا مـن غريبها ومعانيها غـير خارج فيها عن مذاهب المفسرين ومسالك الأئمة المأمونين من أهـل العلـم وأعـلام اللغويين المعروفين بالمعرفة الثاقبة والدين والاستقامة •)

من أسباب وضع الكتاب

ويقول متابعا حديثه السابق (ولقد دعانى الى مـا جمعت فى هـذا الكتاب من لغات العرب وألفاظها •••• خلال ثلاث :

منها : تقييد نكت حفظتها ووعيتها من أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانيهم سنيات اذ كان ما أثبته كثير من ائمة أهل اللغة فى الكتب التى ألفوها والنوادر التى جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة ولا يقوم مقام الدربة والعادة .

ومنها النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين فى افادتهم ما لعلهم يحتاجون اليه ، وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (ألا ان الدين النصيحة لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

والخلة الثالثة هى التى لها أكثر القصد أنى قرأت كتبا تصدى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها مثل كتاب العين المنسوب الى الخليل ، ثم كتب من احتذى حذوه فى عصرنا هذا ، وقد أخل بها ما أنا ذاكره من دخلها وعوارها .... وألفيت طلاب هذاالشأن من ابناء زماننا لا يعرفون من آفات الكتب المصحفة المدخولة ما عرفته ، ولا يميزون صحيحها من سقيمها كما ميزته ، وكان من النصيحة التى التزمتها توخيا للمثوبة من الله عليها ان انضح عن لغة العرب ولسانها العربى الذى نزل به الكتاب وجاءت به السنن والآثار ...) (1)

ترتيب التهذيب

لم يختلف ترتيب الأزهرى عن ترتيب الخليل ، ولم يستطع أن يتخلص من أسر لحقه من كتاب العين ، فكما نقل مقدمة الخليل فى ترتيب حروف المعجم بحسب مخارجها وأحيازها تأثر أيضا بترتيب الابواب فكان:

ابواب المضاعف من حروف العين ــ وجاء بها مع الحاء ، والهاء ،

---

(1) تهذيب اللغة 1 : 5-7

والخاء ، والغين الى آخر تقاسيم الخليل ، ثم أبواب الثلاثى الصحيح من حروف العين مرتبة على هـذا النهج ، ثـم الثلاثى المعتـل ، واللفيف ، والرباعى ، والخماسى •

صورة عامة

لا تكاد تقرأ صفحات من التهذيب حتى تتغير أمامـك الصورة التى استقرت فى ذهنك بعد المقدمة • فالليث ، وابن دريد جرى عليهمـا مـن الأوصاف ما استبعدت معه أن أرى احدهما ضمن رواة التهذيب فاذا بـى أرى الليث عمدة فى هـذا الكتاب ، واذا وضعت الـرواة مرتبين بقـدر مشاركتهم فى رواية التهذيب لوقف الليث فى المقدمة بلا مكابرة ــ فارتفع الليث من حيث أريد له الدنو ، والصورة العامة التى توحى بهـا قراءتك للتهذيب أن الازهرى وضع العين ، ووضع الجمهرة أمامـه ، وحـاول أن يضع معجمًا يكبرهما حجما ــ فكان له ذلك ــ دون أن يكبرهما علمـا ، ومعظم مادة العين الا من محاولة طفيفة لتغليفها جـاءت فى كتاب الأزهرى أما ما وعد به من التخفيف والاختصار فقد ذهب فى رغبة الغلب والاكثار• لقد كان لابن دريد خطة واضحة هى معاونة عامة الناس على ادراك جمهرة اللغة ، اما التهذيب فبغير خطة موضوعة أعد كتابا على نهـج العين ، ومـن مادته ، ومن جمهرة اللغة ، ومن كتب الرواة ما قرأه ومـا سمعه ؛ وممـا حققه من معرفة بالمشافهة والدربة فى اسر القرامطة فخرج كتاب فى العربية له وزن يستمده من طول النفس والاستطراد ، وهـذا شىء يستحب فـى مثل هـذه الموسوعـات •

الاستطراد العلمي النافع

ونحن لا نستطيع أن نستطرد ، فى استطراد الأزهرى فتأخذنا السعة بعيدا عما نويناه من التعريف بالمعاجم موجزين ، وحسبنا أمثلة مختارة •

كان الأزهرى يضع أمام القارىء أقوال العلماء فـــى بعض ظواهـــر اللغة دون أن يشترك مع فريق منهم ، ففى (عس) عرض لكلمة (عسعس) فأورد قوله تعالى (والليل اذا عسعس والصبح اذاتنفس) وقال :

(قال ابن جريج : قال مجاهد فى قوله (والليـــل اذا عسعس) قال : هو اقباله ، وقال قتادة : هو ادباره واليه ذهب ابن الكلبى •

قال الفراء : اجتمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبـــر ، قال : وكان بعض أصحابنا يزعم أن عسعس معناه دنا من أوله وأظلم • وكان أبو البلاد النحوى ينشد بيتا :

عسعس حتى لـــو يشاء ادّنـــا
كان لـــه مـــن ضوئـــه مقبس

قال : ادّنا : اذ دنا ، فأدغم ، قال الفراء : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع •

وكان أبو حاتم ، وقطرب يذهبان الى أن هذا الحرف من الأضداد ، وكان أبو عبيدة يقول ذلك أيضا : عسعس الليل أى أقبـــل ، وعسعس اذا أدبـــر وأنشد :

مدرعـــات الليل لمـــا عسعسا

أى أقبل ، وقال الزبرقان :

وردت بأفراس عتـــاق وفتيـــة
فوارط فى أعجاز ليل معسعس

أى مدبـــر •

وقال أبو اسحق بن السرى : عسعس الليل اذا أقبـــل ، وعسعس اذا أدبر وقال : والمعنيان يرجعان الى أصل واحد ، وهو ابتداء الظلام فى أوله

وادباره فى آخره •

أبو العباس عن ابن الأعرابى قال : العسعسة : ظلمـــة الليل كلـــه ، ويقال ادباره واقباله ، قال أبو العباس : وهذا هو الاختيار (1) •

ومع هذه السعة ، وهذا الجمع لأقوال الـــرواة ، فان الأزهرى لـــم يتكلم فى الظاهرة اللغوية ، ولم يقل رأيه فى الأضداد •

وكذلك فى المقلوب ، فقد ذكر عن الليث :

ـ العيهرة من النساء التى لا تستقر نزقا فى مكان ، فى غير عفة •

ـ وقال الليث أيضا : يقـــال هيعرت المـــرأة ، وتهيعرت اذا كانت لا تستقر فى مكـــان •

فقال الأزهرى : كأنه عند الليث مقلوب من العيهرة لأنه جعل معناهما واحدا (2) •

فأنت ترى الأزهرى صاحب مكتبة لا صاحب مدرسة ، فهو ناقـــل مكثر ، ولا يصانع فى مناقشة الظواهر اللغوية ، ولا تعليلها •

الاستئناس بالحديث

لقد تركت كلمة الاحتجاج ، وكلمة الاستشهاد عن عمـــد ، واخترت كلمة الاستئناس لأنها تأتى قرينة لترجيح كفة الرواية ، والأزهرى فى هذا تبع لسابقيه من أصحاب المعاجم فصاحب العين ، وصاحب الجمهرة كانـــا يذكران حديث النبى صلى الله عليه وسلم بالرغم مـــن أن بعض اللغويين كان لهم رأى يعارض هذا الوجه ، وكان الأزهرى ، بين آونة وأخـــرى :

---

(1) التهذيب 1 : 78 - 79

(2) التهذيب 1 : 140 ع هـ ر

وكلما واتته المناسبة ، يذكر من أحاديث رسول الله صلى اللــه عليه وسلم ما يعينه على تكملة مادتــه (1) •

الامثال

وكصاحبيه ، صاحب العين وصاحب الجمهرة ، كان يشير الى الأمثال يتمم بها شرحه ويستطرد اليها ، وتأخذ مكانها كالشواهد ، ففى مادة ع ق يقـــول :

« ومن أمثال العرب السائرة فى الرجل يسأل ما لا يكون ، ومـــا لا يقدر عليه : (كلفتنى الأبلـــق العقوق) ومثلـــه (كلفتنى بيض الأنـــوق) والابلق ذكر ، والعقوق الحامل ، ولا يحمل الذكر ، وأنشد اللحيانى :

طلب الأبلـــق العقـــوق فلمـــا
لـــم يجـــده أراد الأنـــوق (2)

وفى ع ج يقول :

« قال أبو العباس ، قال ابن الأعرابى : الجعجع صوت الرحى ، ومنه مثل العرب (جعجعة ولا أرى طحنا) (3) •

وفى ع س يقول :

ابو عبيد : من أمثالهم فى الحث على الكسب قولهـــم : (كلب عس خير من كلب ربض) وبعضهم يقـــول : (كلب عـــاس خـــير مـــن كلـــب رابض) (4) •

ومن أمثالهم (عم ثؤباء الناعس) يضرب للحدث يحدث ببلدة ثـــم

---

(1) انظر مثلا مـــن الجـــزء الاول صفحات 89 - 105 - 118 - 130 - 135 - 138 - 140 - 151

(2) التهذيب 1 : 61 ـ 62

(3) التهذيب 1 : 69

(4) التهذيب 1 : 80

يتعداه الى سائر البلدان ، وأصله أن الناعس يتثائب فـى المجلس فيعدى ثؤباؤه أهل مجلسه (1) وهذه نماذج يجرى على مثلها العمـل فـى عامـة الكتاب •

رواة يحتاجون الى تعريف

وبعض الرواة لا يعرفهم القارىء فى يسـر ، ولا يقـوم الأزهرى بالتعريف بهم ، ولا الرواية نفسها تعين على ذلك فمثلا من أبو سعيد ؟

نحن نعرف من آباء سعيد الذين يصطنعون الرواية وهذا الوجه من العلم :

ابا سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعى ، وهو شيخ رواة العربية فى آباء السعداء ، ولكنى عهدت الأزهرى يدعوه بلقبه الأصمعى •

ومنهم ابو سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، وكان كلفـا بجمـع أشعار الشعراء ، ورواية الدواوين وشرحها ، ومن تصانيفه : شرح ديوان جران العود ، وأخبار اللصوص ، وشرح ديوان الهدليين ، وشرح ديـوان كعب بن زهير ، والفرزدق • ومادته هذه لا تأتلف معنا فى رواية اللغة ولا فى هذه الاخبار التى رويت عن (أبى سعيد) •

ومن آباء سعيد أيضا : أبو سعيد الضريـر أحمـد بن أبى خالـد البغدادى التلقى ، وكان طاهر بن عبد الله بن طاهر قد استقدمه من بغداد الى خراسان ، وأقام بنيسابور ، وأملى بها المعانى والنوادر ، وهو بذلـك أقرب سببا الى مادتنا فلعله هو ، واليك بعض مقولاتـه كمـا يحكيهـا الأزهـرى :

(1) التهذيب 1 : 121 ع م

ـ قال أبو سعيد : تصعصع وتضعضع بمعنى واحد اذا ذل وخضع ، قال : وسمعت ابا المقدام السلمي يقول : تصرع الرجل لصاحبه ، وتضـرع اذا تذلل واستخذى (1) •

قال ابو سعيد.: الضعضعة : نبت يستشمى به (2) •

قال ابو سعيد : تقول العرب : أنا عَلاَّن بأرض كذا كذا اى جاهل ، قال : وامرأة علانة جاهلة ، قال : وهى لغة معروفـة (3) قال الأزهرى : لا أعرف هذا الحرف ، ولا أدرى من رواه عن أبى سعيد •

وقال أبو سعيد : رجل علهان علان ، فالعلهان : الجازع ، والعـلان : الجائع (4) والغريب فى أمر أبى سعيد هـذا ان مقولاته غير مقرونة باسناد عنه او اسناد ينتهى اليه ويعرف من سلسلته من هو الان نظن انـه ابـو سعيد الضرير احمد بن ابى خالد •

ثم من ابن هانىء ؟

يقول الأزهرى : وروى ابن هانىء عن أبى زيد أنه قـال : العضاه : اسم يقع على شجر من شجر الشوك له اسماء مختلفة يجمعها العضاه (5)

وأنا لا أعرف رجلا من رواة أبى زيد اسمه ابن هانىء ، ولم يوضـح الازهرى من هو •

كراهيته لليث

أما الملفت مع العجب حقا ، أن الأزهرى أكل من مائدة الليث حتـى

---

(1) التهذيب 1 : 77 ع ص
(2) التهذيب 1 : 78 ع ص
(3) التهذيب 1 : 107 ع ل
(4) التهذيب 1 : 142 ع هـ ل
(5) التهذيب 1 : 75 ـ 131

بشم ، وملأ كتابه من مقولاته ، ونظرة واحدة فى كتاب التهذيب تريك أن بناء الكتاب ،وأساسه ، من مقولات الليث ، واذا به بين آونة وأخرى يلسنه ، أو يغضى من شأنه ، واليك (عينة) انموذج ينتهى بصفحة ٥٠ من الجزء الأول من التهذيب :

ـ قال الليث فى ن ه ع

نهع ينهع نهوعا اذا تهوع للقيء ولم يقلس شيئا

قلت (أى الازهرى) هذا حرف مريب ولا أحقه (1)

ـ وقال الليث : الهيسع : الموت الوحى ، قال : وذبحه ذبحا هيمعا اى سريعا

قلت (اى الازهرى) هكذا قال الليث الهيسع بالعين والياء قبل الميم . وقال أبو عبيد سمعت الأصمعى يقول : الهميغ : الموت ، وأنشد للهذلى

مـن المُربعين ومـن آزل
اذا جنـه الليـل كالناحـط

وقبله

اذا وردوا مصرهم عوجلوا
مـن المـوت بالهميـغ الذاعط

هكذا رواه الرواة بكسر الهاء والياء بعد الميم

قلت (اى الأزهرى) وهو الصواب . قلت : والهيمع عند البصراء تصحيف (2)

---

(1) التهذيب 1 : 147 .
(2) التهذيب 1 : 149

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وفى العين والدال

قال : (قال ابن المظفر : العد : موضع يتخذه الناس يجتمع فيه مــاء كثير ، والجميع الأعداد • قال والعد : ماء يجمع ويعد

قلت : (أى الأزهرى) غلط الليث فى تفسير العد ، والصواب فــى تفسير العد ما رواه ابو عبيد عن الأصمعى انه قال : الماء العد : الدائم الذى لا انقطاع له مثل ماء العين وماء البئر ـ وجمع العد أعداد ، وأنشد لذى الرمة يذكر امرأة حضرت ماء عدا بعدما نشت مياه الغدران فى القيظ فقال:

دعت مية الاعدادُ واستبدلت بها

خناطيل آجال مــن العين خُذَّل

استبدلت بها ، يعنى منازلها التى ظعنت عنها حاضرة اعــداد المياه ، فخالفها اليها الوحش ، وأقامت فى منازلها •

قال شمر : قال أبو عبيدة : العد القديمة من الركايا • قــال : ومنــه قولهم : حسب عد أى قديم وأنشد :

فوردت عــدا من الاعــداد

أقــدم من عاد وقــوم عــاد

قال : وقال أبو عدنان : سألت أبا عبيدة عن الماء العد فقال لى : الماء العد بلغة تميم : الكثير قال : وهو بلغة بكر بن وائل : الماء القليل • قال : بنو تميم يقولون : الماء العد مثل كاظمة جاهلــى اسلامــى لم ينزح قط • قال : وقالت لى الكلابية : الماء العد : الركى يقال : أمن العد هذا أم مــن ماء السماء وأنشدتنى :

وماء ليس مــن عــد الركايــا

ولا حلب السماء قــد استقيت

وقالت : ماء كل ركية عد قل أو كثر (1) .

فاذا استخرجت المعانى منسوبة للرواة بعيدا عن الحواشى لم تجـد مبررا للحملة على الليث ، فهو فى كتاب الازهرى على الوجه التالى

الليث : العد = موضع يتخذه الناس يجتمع فيه ماء ـ ، ماء يجمـع ويعـد .

الاصمعى الماء العد = الدائم مثل ماء العين والبئر .

ابو عبيدة = القديم من الركايا ، ماء عد = ماء كثير بلغة تميم ، وماء قليل بلغة بكر بن وائل .

الكلابية = الماء العد = الركى .

ومن اللسان ، بعد أن ذكر روايات الأزهرى كلها قال :

قيل : العد = ماء الأرض الغزير .

وقيل = ما نبع من الأرض .

وقيل = الماء القديم الذى لا ينتزح (2) .

فهل ترى ما جاء به الليث يبعد عن كل هذا اذا آدرته عـلى أقـوال الرواة ؟ فالبئر ، والعين ، والقديم من الركايـا ، والركى ، ومـاء الارض الغزير ، وما نبع من الارض ، والماء القديم الذى لا ينتزح لا يختلف عـن قول الليث : العد موضع يتخذه الناس يجتمع فيه ماء كثير .

ولم أجد فرقا أو مباينة واضحـة فى قولين متواليين احـدهما لليث والثانى للأزهرى ، قال الليث : الدعاعة حبة سوداء يأكلها فقراء البادية اذا أجدبوا ، قال : ويقال لنملة سوداء تشاكل هذه الحبة دعاعـة ، والجميـع

---

(1) التهذيب 1 : 88 ع د

(2) اللسان ع د د

دعاع • ورجل دعّاع • فثّاث يجمع الدعاع والفث ليأكلهما •

قال الأزهرى : هما حبتان بريتان اذا جاع البدوى فى القحط دقهما وعجنهما واختبزهما فأكلهما (1) •

ـ والعرب تقول : رجل معَمّ مخوَل (بفتح العين والواو) اذا كان كريم الأعمام والأخوال ومنه قول امرىء القيس :

بجيد معَمّ فى العشيرة مخوَل

وقال الليث : يقال فيه معم مخول (بكسر العين والواو) فقال الأزهرى : ولم أسمعه لغيره (2) •

اما حملته على ابن دريد فتتوازى وحجم كتابه ، وان لم تكن فى حدتها أقل من الحمله على الليث ، فهو مثلا يروى عنه قوله : الهطيع : الطريق الواسع ، ثم يقول الازهرى : ولم أسمع الهطيع بمعنى الطريق لغيره وهو من مناكيره التي ينفرد بها (3) •

ونسى الأزهرى أن مثل هذه الموسوعات لا تسلم من التصحيف فى خلال الكتابة أو النسخ أو النقل أو الاملاء ، ولكن كان الرجل مصابا بالليث وابن دريد •

---

(1) التهذيب 1 : 94

(2) التهذيب 1 : 122

(3) التهذيب 1 : 135

تاج اللغة وصحاح العربية
وشهرة الكتاب « الصحاح »
لابي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري

الجوهرى ، رجل من شرق العراق ، من فاراب ، أخـذ عـن خالـه ابرهيم الفارابى وعن أبى سعيد السيرافى ، وسمع من أهل البادية ، وعـاد الى خراسان فأقام بنيسابور مدة ، وبرز فى اللغـة •

ذكر صاحب البلغة فى أصول اللغة (1) نبذات عن الصحاح منسوبة الى رجال اللغة من ذلك قول الخطيب التبريزى :

« وكتاب الصحاح ، كتاب حسن الترتيب ، سهل المطالب لما يراد منه ، وقد أتى بأشياء حسنة ، وتفاسير مشكلات من اللغة ، الا انه مع ذلك فيـه تصحيف لا يشك فى أنه من المصنف لا من الناسخ لأن الكتاب مبنى عـلى الحروف ، ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها ، أو غلط ، غير أن القليل منه الى جنب الكثير الذى اجتهدوا فيـه ، وأتعبوا أنفسهم فـى تصحيحه وتنقيحه معفو عنـه » •

وقد علل ياقوت لما وجد فى الكتاب مـن تصحيف بأنه لمـا صنفـه

(1) البلغة فى اصول اللغة للسيد محمد صديق حسن خـان بهادر ط الجوائب سنة 1296

الجوهرى للأستاذ أبى منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكى سمع عليه الى باب الضاد المعجمة ، ثم مات الجوهرى على أثر حادث ذكره ياقوت فبقى سائر الكتاب مسودة غير منقحة ، فبيضه تلميذه ابرهيم بن صالح الوراق فغلط فيه فى مواضع (1) ولكن هذا الرأى لم يجد قبولا لأن التصحيف وجد فيما قبل ، وبعد حرف الضاد ، ويحكى ياقوت حكاية لعبد الغافر الفارسى يقول : انه وجد على ظهر كتاب الصحاح وكان مجلدة واحدة كاملة بخط الحسن بن يعقوب بن احمد النيسابورى ما صورته :

« قرأ علىّ هذا الكتاب من أوله الى آخره ، بما عليه من حواشيه من الفوائد معارضا بنسختى مصححا اياها ، صاحبه الفقيه الفاضل السديد الحسين بن مسعود الصرام ، بارك الله فيه له ؛ وهو اجازة لى عن الاستاذ أبى منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكى عن المصنف (2) وهذا يعنى أن الكتاب وضع وصحح وقرىء بجميعه على الجوهرى •

ترتيب الصحاح

يعتبر الجوهرى صاحب ابتكار وتطور فى نظام المعاجم ، وهو رائد من مفكرى رجال اللغة ، أدرك ما يعانيه الباحث فى كتاب العين ، وأن صاحب الجمهرة أراد أن يخفف العبء فلم يوفق الى تنظيم يكفل الراحة للباحثين ، وجاء الأزهرى فلم يغير كثيرا عن سابقيه وبقيت المشكلة كما هى ، كيف يبحث الطالب فى المعجم ؟

يقول فى مقدمة وجيزة بدأ بها كتاب الصحاح « قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف الله تعالى منزلتها وجعل

(1) معجم الادباء 6 : 157
(2) معجم الادباء 6 : 163

علم الدين والدنيا منوطا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق اليه ، وتهذيب لم أغلب عليه فى ثمانية وعشرين بابا ، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلا على عدد حروف المعجم وترتيبها الا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية ، واتقانها دراية ، ومشافهتى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية .... »

هذا البيان الموجز الذى قدم به لكتابه يحمل تطورا ضخما يحتاج الى شرح وفضل بيان ، ولقد عرف به كل من الشيخ أبو الوفا نصر الهورينى فى مقدمة النسخة المطبوعة فى مصر ، والسيد محمد صديق بن حسن حان القنوجى فى كتاب البلغة فى شذور اللغة .

ولقد أفدت من الرجلين حين أخذت فى شرح خطة الجوهرى .

قسم الجوهرى كتاب الصحاح الى ثمانية وعشرين بابا بحسب أواخر الكلم ، ثم نظر ثانيا الى أوائل الكلم فجعل فى كل باب فصوله بعد أن يجرد المادة من حروف الزيادة فى أولها وآخرها ، فمثال المزيد كما يحكى الهورينى : الأرنب ، والأزيب ، والانبوبة لان الكلمة اذا كان فى أولها ألف وبعدها ثلاثة أحرف فأكثر تكون زائدة لا تعد من الأصول فيقال فى أرنب وزنه أفعل ، وفى أنبوبة أفعولة فالحروف المقابلة للفاء والعين واللام هى الأصول — وتأسيسا على هذا الشرح فانه يذكر هذه الألفاظ الثلاثة فى فصل الراء والزاى والنون من باب الباء .

وكذلك ما بعد الحرف الاول رتبه على ترتيب حروف المعجم فاذا قال :

باب الباء ، بدأ فيه بفصل الألف ، وجاء فيه بحروف الوسط على الترتيب حتى يصل الى الالف التى تليها الواو ، فيقدمها على ما تليها الهاء وهكذا فى كل فصل — يقدم فصل الواو من كل باب على فصل الهاء .

ويؤخر الياء بخلاف الأبواب فانه قدم فيها بـاب الهاء قبـل الواو ليجعلها ـ اى الواو ـ مع الياء فى باب واحـد فصارت الحروف التى بوب لهـا سبعة وعشرين الا أنه لما كانت الألف على قسمين مهموزة ولينـة جعـل الأولى فى اول الابواب وعقد للثانية وهى اللينة غير المنقلبة عن باء أو واو بابا أخيرا عقب باب الواو والياء الذى فى ضمنه المنقلبة عـن واو أو يـاء فكملت الأبـواب ٢٨ •

المواد المهملة

قد رأيت فى نظام التقاليب ما تأتى به مـن كلمات لا معنى لهـا ، أو غير مستعملة فتركت ، والأمر هنا لا يختلف عن هـذا القصـد ، فكملت الأبواب ، وسقطت بعض فصولها ولكى اقرب عليك ، انظر الى باب البـاء مثلا ، وابحث له عن فصل الفاء ؛ وأدره على الحروف فانك لا تجد كلمـة مستعملة ، فأسقطها الجوهرى ، ووضع الشيخ الهورينى جدولا فى آخـر المقدمة بين فيه عدد الفصول الساقطة من كل باب •

وفى التحشية أيضا ، تجد فجوات واسعة فى الحروف الوسطى ، فلا محل مثلا لحروف التاء ، والثاء ، والجيم ، والحـاء ، والخـاء ؛ والشين ، والصاد ، والضاد ، والظاء ، والعين ، والغين ، والقاف ؛ واللام ، والميـم ، والنون من باب الهمزة فصل الباء •

أما فى فصل التاء من نفس الباب فلا يوجـد غير الهمزة ، والهـاء ، والنون ، وبقية الحروف مهملة فى التحشية •

صورة عامة

فى مثل هذه الكتب الكبيرة ، لا يكتفى فيها بمجرد التعريف الموجز ، والاتجاه فى التأليف واختلاف عمل المؤلف عن عمل أقرانـه الذين سبقوه

فى ميدانه ، ولكن لا بد من الكشف عن الروح العامة التى حكمت تأليف الكتاب ، ولما كان هذا العمل لم يؤد فى وقت واحد ، ولا تحت ظروف واحدة فقد جاء لذلك مبسوط الشرح أحيانا يستطرد على سجيته فيأتى بالعزيز المفيد ، وقد تفتر الهمة وتضيق النفس ــ أو يحسن المؤلف الظن بالقارىء ــ فتأتى المادة موجزة قصيرة مبتسرة •

فمن الاستطراد المفيد الا يكتفى ببيان المعنى وانما يذهب الى سبب التسمية

ــ ففى ذأب يقول :

« تذأبت الريح ، وتذاءبت بمعنى ، أى اختلفت ، وجاءت مرة كذا ومرة كذا قال الأصمعى : أخذ من فعل الذئب لأنه يأتى كذلك » (1) •

ــ ومن الاستطراد المفيد التماس المناسبة للكلام فى المتشابه من الفرائد

يقول فى رمح :

الرمح جمعه رماح ، وأرماح •••• ورجل رامح أى ذو رمح ولا فعل له مثل لابن وتامر • (2)

ــ ومنه فضل البيان فى فعل وافعل

كقوله فى جفأ (••••• والجفاء ما نفاه السيل . قال الله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى باطلا وجفأ الوادى جفأ اذا رمى بالقذى والزبد ، وكذلك القدر اذا رمت بزبدها عند الغليان • وأجفأت لغة فيه ، وجفأت القدر أيضا اذا كفأتها او أملتها فصببت ما فيها ، ولا تقل أجفأتها) فتراه هنا يفرق فى استعمال الصيغتين فاذا كان ذلك بفعل الوادى نفسه أو القدر نفسها جاز فعل وأفعل ، واذا كان ذلك بفعل الانسان لم يجز الا فعل •

---

(1) الصحاح 1 : 51

(2) الصحاح 1 : 175

وقال أبو عبيدة خطىء وأخطأ لغتان بمعنى واحد •••• ولكن الأموى فرق بينهما فاسم الفاعل من الرباعى (المخطىء) من أراد الصواب فصار الى غيره ، واسم الفاعل من الثلاثى (الخاطىء) من تعمد لما لا ينبغى •

ومن الفروق الدقيقة

فى سبأ : سبأت ومسبأ اذا اشتريتها لتشربها • قال الشاعر :

يغلو بأيدى التجار مسبؤها

اى انها من جودتها يغلو اشتراؤها ، واستبأتها مثله ، ولا يقال ذلك الا فى الخمر خاصة ، والاسم السباء على فعال بكسر الفاء ومنه سميت الخمر سبيئة قال حسان :

كأن سبيئة من بيت رأس
يكون مزاجها عسل وماء

ويسمون الخمار : السباء ؛

فاذا ما اشتريتها لتحملها الى بلد آخر قلت سبيت الخمر — بلا همز (١) •

الأخرب ، والأخرم

فى خرب ، كل ثقب مستدير فهو خربة ، والمخروب المشقوق ، ومنه قيل رجل أخرب للمشقوق الاذن ، وكذلك اذا كان مثوب الاذن — فاذا انخرم بعد الثقب فهو أخرم •

الخوبة والحوبة

يروى عن أبى عمرو : اذا قات أصابتنا خوبة (بالمعجمة) فمعناه

---

(١) الصحاح 1 : 13

المجاعة واذا قلت : أصابتنا حوبة بالحاء غير المعجمة فمعناه الحاجة (1) .

الوثاجة ، والوثارة

أبو زيد : الوثاجة : كثرة اللحم ،
والوثارة : كثرة الشحم
قال : وهو الضخم فى الحرفين جميعـا .

وفى فوخ ، يتفق الاصمعى وأبو عبيدة على أن فاخت منه ريح طيبة تفوخ وتفيخ مثل فاحت . ويقول أبو زيد فاخت الريح تفوخ اذا كان لهـا صوت ، قال : وأفاخ الانسان أفاخة ، وفى الحديث « كل بائلة تفيخ » قال: وأما الفوح بالحاء فمن الريح يجدها لا من الصوت . وقال النضـر بـن شميل : اذا بال الانسان أو الدابة فخرجت منه ريـح قيل أفـاخ وأنشد لجريـر :

ظـل اللهـازم يلعبون بنسوة
بالجـو" يـوم يفخن بالأبوال

أى على الأبوال (2) .

الفروق في المعانى باختلاف المصادر

فى بـرأ
تقول : برئت منك ، ومن الديون ، والعيوب براءة
وبرئت من المرض برءا (بالضـم) .
وأهل الحجاز يقولون برأت من المرض برءا (بالفتح) .
والجوهرى هنا يفرق بين البراءة من الديون والعيوب ــ وبين البرء

(1) الصحاح 1 : 50
(2) الصحاح 1: 207

من المرض ، كما يفرق بين منطقها عند سائر العرب بضم الباء ، وعند الحجازيين بفتحها (1) .

اللغات

وفى حصب ، وحضب ، وحطب قال :

الحصب ، ما يحصب به فى النار أى يرمى .

والحضب لغة فى الحصب ، ومنه قرأ ابن عباس « حضب جهنم » قال الفراء : يريد الحصب قال : وذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن الحطب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حضب . والمحضب المسعر ، قال الأعشى :

فلا تك فـى حربنـا محضبـا
لتجعل قومك شتى شعوبـا (2)

وقد يشغلنا بشىء لا حصيلة من ورائه، كأن يقول: (هلج : الاهليلج معرب ، قال ابن السكيت : هـو الاهليلج والاهليلجه بالكسر ولا تقـل هليلجة ، وقال ابن الأعرابى : هو الاهليلج بفتح اللام الأخيرة قال : وليس فى الكلام افعيلل بالكسر مثل اهليلج وابريسم واطريفل)

وترك السائل يقول ما الاهليلج ؟

اختصار ، والايضاح اجود

ومع ما رأيت من استطراد وسعة أحيانا ، ففى الصحاح اختصار يبدو أن الجوهرى افترض فى القارىء معرفة بما أوجزه ، مثال ذلك :

فى جرآ :

(1) الصحاح 1 : 3
(2) الصحاح 1 : 44

(الجرءة مثال الجرعة الشجاعة ، وقد يترك همزة فيقال : الجرة مثل الكرة كما قالوا للمرأة مرة ....) (1)

وكان الأفضل أن يبين الجوهرى هل ترك الهمز وتحقيقها يصدر عن ناطق واحد ؟ ، وان كان المعروف ان اهل الحجاز لا يهمزون ، وقد تكررت عبارة يهمز ولا يهمز فى اماكن كثيرة من غير تعليل ولا بيان ، جاء ذلك مثلا فى

حتأ : فيقول : حتأت الكساء حتأ اذا فتلت هدبه ، وكففته ملزقا به — يهمز ولا يهمز ، فيقال : حتوته حتوا ، وقال ، ابو زيد فى كتاب الهمز : احتات الثوب بالألف اذ فتلته مثل الأكسية .

وفى حجأ يقول :

(حجأت بالامر : فرحت به ، وحجئت بالشىء حجأ اذا كنت مولعا به ضنينا يهمز ولا يهمز) ولم يبين هل ترك الهمز وتحقيقه فى حجأت بفتح عين الفعل أو حجئت بكسرها ، أم فى الاثنين ، وهل يصدر ذلك عن ناطق واحد ؟

ويقول فى حضأ :

حضأت النار سعرتها ، يهمز ولايهمز .

وفى خطأ يقول

(الخطأ نقيض الصواب ، وقد يمد ، وقرىء بهما قوله تعالى « ومن قتل مؤمنا خطأ » ، تقول منه : أخطأت ، وتخطأت بمعنى واحد ولا تقل أخطيت ، وبعضهم يقوله) فمن هؤلاء البعض ؟

---

(1) الصحاح 1: 5

وبعد

فهذه جلسة مع كتاب الصحاح تعرفنا فيها علــى طريقة الجوهرى . ومسلكه ، وترتيبه اما الذين أطالوا النظر فى هذا الكتاب ، وجعلوا هممهم مدارسته فقد صدر عنهم من العلم الغزير ما يتجاوز مجرد التعريف ، منهم من عنى بجزئية منه كما فعل السيوطى الــذى خرج أحاديثه فــى مختصر سماه (فلق الاصباح فى تخريج احاديث الصحاح) ومنهم مــن استدرك عليه أو شرحه ، من اوائلهم ابو سهل محمد بن على الهروى ، فيحكى انه نقل الصحاح مــن خط الجوهرى رواية عــن اسماعيل بــن محمد بــن عبدوس ــ ولأبــى القاسم الفضل بن محمد القصبانــى كتاب اسمــه (حواشى الصحاح)

وبدأ ابن القطاع على بن جعفر كتابا فى تحشية الصحاح ، وتوفــى دون أن يكمله فحاول هذه الرغبة تلميذه ابو محمد عبد الله بن برى فكتب « التنبيه والايضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح » وصل فيه الى مادة و ب ش فأكمله الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن البسطــى الأندلسى .

وألف محمود بن أبى المعالى بــن الحسن الحوارى كتابين ، الاول « ضالة الأديب فى الجمع بين الصحاح والتهذيب » ، والثانــى اختصر فيه كتاب الصحاح ، وجرده من الشواهد ، وضم اليه أشياء من تهذيب اللغــة للأزهرى ، والشامل لأبى منصور الجبان والمقاييس لابن فارس وسمــى هذا الكتاب « ينابيع اللغة »

ولعل أهم الكتب التى ترتبط بالصحاح هو كتاب « التكملة والذيل والصلة » للاستاذ اللغوى الكبير رضى الدين الحسن بن محمــد الصغانى الى غير ذلك مما تناوله المعلقون على كتاب الصحاح .

أما أشهر هذه المؤلفات وأكثرها وجودا فى أيدى الناس فهو كتــاب

« مختار الصحاح » الذى سنفرد له تعريفا ، ومن قبلـه كتب محمود بـن احمد الزنجانى اختصارا للصحاح اجراه مرتين ، وهو يوضـح ذلـك فى مقدمة كتابه « تهذيب الصحاح » فيقول :

(.... لما فرغت من كتاب ترويح الارواح فى تهذيب الصحاح ... وقع حجمه موقع الخمس من كتابه « اى من كتاب الجوهرى » مـن غير اهمال شىء من لغته ، وكان قد حدانى الى تهذيبه ــ أعنى تجريد لغته من النحو والتصريف الخارجين عن فنه ، وحذف ما فيه مـن حشو وتكرير ، واسقاط ما لا حاجة اليه من الأمثـال والشواهـد الكثيرة روم التخفيف والايجاز ، ليسهل حفظه ، ويقرب ضبطه ، ثم نظرت ثانيـا فرأيت همم بنى الزمان ساقطة ، ورغباتهم نائمة ، وحرصهم قليلا ، وحفظهم كليلا ، فأوجزته ايجازا ثانيا حتى وقع حجمه موقع العشر من كتاب الجوهرى ، ولا يعوزه من لغته أكثر من العشر ليكون تذكيرة لنفسى مـدة حياتى وأثـرا بعـد وفاتى) (1) .

أما مختار الصحاح

فقد ألفه محمد بن أبى بكر الرازى ، وقال فى مقدمته ؟

« هذا مختصر فى علم اللغة جمعته من كتاب الصحاح .... لما رأيته أحسن أصول اللغة ترتيبا ، وأوفرها تهذيبا ، وأسهلها تنـاولا ، وأكثرهـا تداولا وسميته « مختار الصحاح » واقتصرت فيه على ما لا بد منه لكـل عالم فقيه ، أو حافظ ، أو محـدث او أديب من معرفتـه وحفظـه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن مما هو الأهم فالاهم خصوصا ألفاظ القرآن العزيز ، والاحاديث النبوية ، واجتنبت فيه عويص اللغـة وغريبها طلبـا .

(1) تهذيب الصحاح للزنجانى 4 بتحقيق عبد السلام هارون واحمـد عبد الغفور عطار ط دار المعارف مصر

للاختصار .... وضممت اليه فوائد كثيرة من تهذيب الأزهرى وغيره من اصول اللغة الموثوق بها ، ومما فتح الله تعالى به علىّ ، فكل موضع مكتوب فيه قلت فانه من الفوائد التى زدتها على الأصل .

ومختار الصحاح معجم مفيد سهل الحمل ، ولذلك تناوله الناسخون بالنسخ ، فتعددت مخطوطاته ، وكذلك تعددت طبعاته حين شىء لـه أن يطبـع .

ثم رأت وزارة المعارف أن ينتفع به طلاب المدارس فكلفت الاستاذين محمود خاطر والشيخ حمزة فتح الله أن يتعاونا على اعداده لهذا الغرض ، فحذفا منه بعض المواد التى قد تفسد مسامع الطلاب ، كما غيرا ترتيبـه . ومع هذا ـ احتفظا للكتاب باسم « مختار الصحاح » ، على غير ما تقضى به آداب النشر وتقاليده ، فبقى فى عالم المطبوعات مختار الصحاح الـذى عمله الرازى ، ومختار الصحاح الذى عمله محمود خاطر وصاحبه حمـزة فتـح اللـه .

ويبدو أن هذا العمل لم يحقق غرضه ، ولـم يـرق لبعض العلمـاء المحدثين فعمل الاستاذان محمـد محيى الدين عبـد الحميد ، ومحمد عبد اللطيف السبكى كتابا باسم المختار من صحاح اللغة ، فاختارا كتاب مختار الصحاح الذى ألفه الرازى ليكون اساس الكتاب الجديد ، وأضافا اليـه زيادات ذات بال من كتب اللغة الموثوق بها وأرشدا الى مصدرها ليرجـع اليها من أراد المزيد ، أما الترتيب ـ فقـد اختـارا ترتيب الحـرف الأول والثانى من أصول المادة ، كمـا صنع الزمخشرى فى أسـاس البلاغـة ، والفيومى فى المصباح المنير ، وابن الأثير فى النهاية .

وبعـد .

فالجوهرى ليس أحسن اللغويين الذيـن سبقـوه ، أو عاصـروه

والصحاح وان جاء بفتح جديد وطريقة مبتكرة فى الترتيب ، ليس أوسع المعاجم علما ولا أكثرها دقة ، ولكن لأمر ما ، قد يكون التوسط بين السعة والايجاز وجد الناس فيه غناء مع سهولة الحمل ، فذاع وشاع ، وعملت له المختصرات والتهذيبات ، وعنى به الناس على اختلاف مشاربهم — هبة من اللـــه .

ويقول الرافعى : « بلغ من اهتمامهم بكتاب الصحاح أنه كان فى بلاد قرامان مدرسة مشهورة بمدرسة السلسلة ، شرط بانيها الا يدرس فيها الا من حفظ كتاب الصحاح للجوهري » (1) .

(1) تاريخ آداب العرب للرافعى 1 : 321 ط مصر سنة 1912 م

أحمد بن فارس بن زكريا
329 ــ 395
وكتابا المقاييس والمجمل

تعريف بابن فارس

نشأ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازى فى قزوين ، وأخذ عن أبيه (1) ثم رحل الى بغداد بادىء الأمر طالبا للحديث فيقول « ... فحضرت مجلس بعض اصحاب الحديث ، وليست معى قارورة فرأيت شابا عليه سمة من جمال ، فاستأذنته فى كتب الحديث من قارورته، فقال : من انبسط الى الأخوان بالاستئذان فقد استحق الحرمان » .

ثم أخذ النحو عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب ، وقرأ كتاب العين على أبى الحسن على بن ابرهيم بن سلمة القطان ، وأخذ كتابى ابى عبيدة : غريب الحديث ، والغريب المصنف على أبى الحسن على

---

(1) قال ابن فارس : سمعت ابى يقول : سمعت محمد بن عبد الواحد يقول : سمعت ثعلبا يقول اذا نتج ولد الناقة فى الربيع ومضت عليه ايام فهو ربع ، فاذا انتج فى الصيف فهو هبع ، فاذا انتج بين الصيف والربيع فهو بعة نزهة الالب 392

ابن عبد العزيز ، وتلمذ لأبى عبد الله أحمد بن طاهر بن المنجم فأعجب به ، وقال فيه : أنه ما رأى مثله ، ولا هو رأى مثل نفسه •

وأخذ عنه أحمد بن الحسين المعروف بالبديع الهمذانى ، وأقام بالرى بعد ان استدعى من همدان ليقرأ عليه أبو طالب فخر الدولة على بن ركن الدولة البويهى وهناك التقى بالصاحب اسماعيل بن عباد فتحابا ، فكان الصاحب يقول : « شيخنا ابو الحسين ، رزق التصنيف ، وأمن من التصحيف » ، وكان ثمرة هذا اللقاء كتاب فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها الذى ألفه ابن فارس ، وأطلق عليه اسم الصاحبى حين أهداه للصاحب اسماعيل بن عباد (1) •

صانع ابن فارس فى صنوف العلم ، وجمع الى دراسة اللغة النظر فى الحديث والفقه والسير ، وجانبه اللغوى لا يخلو من عمق وفلسفة • لقد نجم فى عصر واحد مع الجوهرى صاحب الصحاح ، ونجم الاثنان فى شرق العراق ، وتأثرا بما ظهر من المعاجم وخاصة العين والجمهرة ، وبما صدر عن علماء اللغة فى بغداد من امهات الكتب كغريب الحديث، والغريب المصنف لأبى عبيد الى غير ذلك فهل كان لهذا الجو المتماثل أثر فى صدور الصحاح عن الجوهرى ومعه فكرة عميقة فى تطور المعاجم ، وصدور المقاييس ومعها فكرة عميقة فى خصائص العربية وفى الناحية المعجمية أيضا ؟

هذا فرض قريب ، فالأجواء المتشابهة تأتى بثمر متشابهة •

وجهد ابن فارس لا يقف عند المقاييس ، والمجمل ، ولكن له فى اللغة نظرات وصلت به الى حد الالغاز للآخرين كفن يتزيد به على الناس جمعه فى كتاب سماه « فتيا فقيه العرب » أشار اليه السيوطى فى النوع

(1) راجع ترجمته فى نزهة الالبا 392 وانباه الرواة 1 : 92

التاسع والثلاثين : معرفة الملاحن ، والالغاز وفتيا فقيه العرب (1) ويبـدو أنه تأثر فيه بكتاب أبى بكر الحسن بن دريد ، فكتابـه الملاحن لا يختلف عن هذا الوجه من الالغاز اللغوى قال فى أوله :

(هذا كتاب الفناه ليفزع اليه المجبر المضطهد على اليمين ، المكـره عليها فيعارض بما رسمناه ، ويضمر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم، ويتخلص من حيف الغاشم) .

والكتاب يدور على المشترك اللفظى ويورى عما يريد اخفاءه بشىء ظاهر وليس هو المراد . من ذلك أن تقول : (واللـه مـا عندى صقر ولا أملكه ، فالصقر : دبس الرطب ، والصقر : لبن حـامض أشـد حموضة تكون ، والصقر عند بعضهم : الخطط من الشعر فى باطن أذن الفرس) (2).

وجاء فى انباه الرواة أن ابن فارس كان يومىء الى أصحابه اذا وجد فقيها أو متكلما أو نحويا أن اسألوه ، فان وجده بارعـا جـدلا فى علوم الفقه أو النحو جره الى علوم اللغة فغلبه (3) .

وكتب فى الاتباع والمزاوجة كتابا خفيفا ، نشره رودلف برونو سنة ١٩٠٦ ، كما نشر مرة أخرى بتحقيق كمال مصطفى سنة ١٩٤٧ وطبع فـى القاهـرة بدأه بقوله :

« هذا كتاب الاتباع والمزاوجة ، وكلاهما على وجهين ، أحدهمـا أن تكون كلمتان متواليتان على روى واحـد ، والوجـه الآخـر أن يختلف

---

(1) انظر فى المزهر 1 : 622

(2) الملاحن ط القاهرة 1347 « طبع الملاحن مرات اولهـا بعنايـة المستشرق رايت فى ليدن سنة 1859 ، ونشره توربكه فـى جوتا سنة 1882 ثم حققه ابرهيم اطفيش الجزائرى »

(3) انباه الرواة 1 : 94

الرويان ، ثم تكون بعد ذلك على وجهين أحدهما أن تكون الكلمة الثانيــة ذات معنى معروف الا أنها كالاتباع لما قبلها ، والآخر أن تكون الثانية غير واضحة المعنى ولا بنية الاشتقاق » .

أما كتاب المقاييس ، وكتاب المجمل فهما فى عــداد المعاجم وان كان للمقاييس وجه تأملى آثرت أن أفرد له .

كتاب المقاييس

أعجب ابن فارس بجهد نفر من السابقين ، مــن أصحاب المعاجــم ، فكان يتناول هذا التراث بهدوء وعمق ، وأتيح له وهو يدرس كتاب العين على أبى الحسن على بن ابرهيم القطان أن يلحظ الكثير من خصائص هذه اللغة ، ورأى أن المادة الواحدة تعطى معنى لا يختلف كثيرا فــى تقاليبها ، ونحن نعرف أن الخليل هو صاحب فكرة التقاليب كما شرحت فى كتــاب العين ــ فلما اطردت الفكرة مرات أمام مخيلة ابن فارس ، نظــر فى تغليب الوجه الذى رآه ، وهو ان المادة أصل يضفى على مشتقاتهــا وتقاليبهــا معانيهــا .

وهذا وجه مما تأثر به ابن فارس من الخليل بن احمد من خلال نظام التقاليب ، والفكرة ليست بعيدة أيضا عن عقلية أبن دريد صاحب الجمهرة ، وان لم تكن قد برزت فى الجمهرة ، وانما فى كتاب الاشتقاق . ترى مــا دوافع الاشتقاق عند ابن دريد وما هى فكرته ؟

لقد سمع ما قيل للعتبى : ما بال العــرب سمت ابناءهــا بالاسمــاء المستشنعة وسمت عبيدها بالاسماء المستحسنة ؟ فقال : لأنها سمت ابناءها لأعدائها ، وسمت عبيدها لأنفسها . أعجب ابن دريد بهذا الرد فقال : قــد أحاب العتبى بجملة كافية ؛ ولكنها محتاجة الى شرح يوضحها الاشتقاق ، وسنأتى على ذلك ان شاء اللــه .

عمل كتاب الاشتقاق ، وبدأه باشتقاق اسم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم باشتقاق أسماء آبائه ، فمحمد مشتق من الحمد ، وهو مُفعَّل ، ومفعل صفة تلزم من كثر منه فعل ذلك الشيء ... كما تقول كَرَّمْتُه وهو مُكَرَّمْ . (1)

ومنه فى اشتقاق أسماء أعمام النبى صلى الله عليه وسلم :

« الحارث بن عبد المطلب ، قال : واشتقاق الحارث من أحد شيئين اما من قولهم حرث الأرض يحرثها حرثا اذا أصلحها للزرع ، أو يكون من قولهم :حرث لدنياه اذا كسب لها، ومنه قوله عز وجل (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية اى يكتسب لاخرته .

ويقال : أحرث الرجل ناقته احراثا اذا هزلها بالسير والتعب . والمحراث : خشبة تحرك بها النار أو التنور ، والجمع محارث ، والحرث الزرع بعينه ، وربما سمى الاصلاح للزرع حرثا ، والأول اعلى لأنه فى التنزيل (ويهلك الحرث والنسل) » .

ثم استمر ابن دريد فكتب اشتقاق الأعلام ، والقبائل ، وأسماء مفردة ، وما اشتق من اسماء الشجر .

هذا الوجه أيضا لا يبعد عن فكرة المقاييس التى جاء بها ابن فارس ، ورأى أن قاعدته هذه تطرد فوضع اللغة كلها على القياس ، وقال فى كتاب الصاحبى وهو فى طريقه الى الاقتناع بفكرته (أجمع أهل اللغة الا من شذ عنهم أن للغة العرب قياسا ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض) وقال فى تفسير هذا : (ان الجن مشتق من الاجتنان ، وان الجيم والنون تدلان أبدا على الستر ، تقول العرب للدرع جنة ، وأجنة الليل ، وهذا

(1) الاشتقاق 8 لابى بكر محمد بن الحسن بن دريد بتحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى سنة 1378 هـ — 1958 م

جنين أى هو فى بطن أمه ، أو مقبور ، وأن الأنس من الظهور ـ يقولون آنست الشىء أبصرته) (1) •

وكان ابن فارس يحس أن نظريته تحتاج الى كثير مـن الاقنـاع ، فأوهم أن الخليل قد رأى رأيه من قبل ، يقول فى المقاييس : (قال الخليل: يقال جذا يجذو ، مثل جثا يجثو الا أن جذا أذل على اللزوم ، وهذا الذى قاله الخليل فدليل لنا فى بعض ما ذكرناه مـن مقاييس الكـلام ، والخليل عندنا فى هذا المعنى امام) (2) •

ونحن نعرض عليك شيئا من كتاب المقاييس ،

جاء فى الثلاثى من كتاب الباء :

بقر ـ الباء والقاف والراء أصلان ، وربما جمع ناس بينهما ، وزعموا أنه أصل واحد ، وذلك البقر • والأصل الثانى : التوسع فى الشىء وفتح الشىء ، فأما البقر فجماعة البقرة ، وجمعها أيضـا البقير والباقـر كقولك حمير وضئين قال :

يكسعن أذناب البقير الكنّس

وقال فى البـاقر :

وما ذنبه ان عافت المـاء باقـر

وما ان تعاف المـاء الا ليضربـا

والباقر مثل الجامل فى الجمال ، قال أبو عبيدة : يقال للذكر أيضـا بقرة كما يقال للديك دجاجـة •

---

(1) فقه اللغة وسنن العرب فـى كلامها (الصاحبى) 33 ط القاهـرة سنة 1328 هـ ـ 1910 م

(2) المقاييس 1 : 439

قال الأصمعي : يقال رأيت لبني فلان بقرا وبقيرا وباقــرا وباقورة .
قال وأُبقور مثل أُمعوز . قال وأنشدني ابن أبي طرفة

فسكنتهم بالقــول حتى كأنهــم
بواقر جلـــح أسكنتها المراتــع

قال : والبواقر جمع لاواحد لها ، ويجوز أن يكون جمع باقرة . قال :
والبقير لا واحد له ، وهو جمع مثل الضئين والشوِي « جمع شاة » .

ويقال : بقر الرجل اذا نظر الى بقر كثير مفاجأة فذهب عقله .

ومما حمل على هذا الباب قولهم في العيال البقرة ؛ يقال : جاء فلان
يسوق بقرة أي عيالا كثيرا . وقال يونس : البقرة المرأة .

وأما الأصل الثاني فالتبقر التوسع والتفتح مــن بقرت البطن . قال
الاصمعي : تبقّر فلان في ماله أي أفسده . واليه يذهب في حديثــه صلى
الله عليه وسلم « أنه نهى عن التبقر في الأهل والمال » .

قال الاصمعي : يقال ناقة بَقِير ، للتي يبقر بطنها عن ولدها . وفتنة
باقرة كداء البطن ، والمهر البقير الذي تموت أمه قبل النتاج فيبقر بطنهــا
فيستخرج . قال ابو حاتم للمهر اذا خرج من بطن أمــه وهو في الســلا
والماسكة ، فيقع بالارض جسده هو بقير،وضده السليل .

ومن هذا الباب قولهم : بقروا ما حولهم ، أي حفروا ، يقال : كــم
بقرتم لفسيلكم . والبُقَيْرى لعبــة لهم ، يدقدقون دارات مثــل مواقع
الحوافر ، وقال طفيل

وملن فما تنفك حــول متالــع
لهــا مثل آثــار المبقــر ملعب

ومنه قول الخضرى :

نيط بحقويها جميش أقمر
جَهْمٌ كبُقّار الوليد أشعر

فهذا الأصل الثانى ، ومن جمع بينهما ذهب الى أن البقر سميت لأنها تبقر الارض وليس ذلك بشيء ... ... (1)

من هذه المادة من كتاب المقاييس ، ترى ابن فارس لا يعرض لنظريته ويقف ، أو يكتفى بالأصل أو الأصلين أو الثلاثة أو غير ذلك مما يتفرع عن المادة ، وانما يدخل فيما استقر عليه فهمنا من مهمة المعجم الواسع الذى يبين معنى الكلمة وكيف جاءها هذا المعنى ، ومكانها من الافراد والجمع ، وما يلحقها من تعبير مجازى الى غير ذلك مما تلحظه وأنت تقرأ هذه المادة.

مناقشة نظرية المقاييس

نظرية ابن فارس وان اعتنقها اكثر من واحد من رجال اللغة ، وخاصة تلامذته فانها لا تجد اقتناعا سهلا الا على تعمل وتأويل ، وهى ان وجدت الطريق ذلولا سهلا أحيانا فى أبواب الثنائى والثلاثى فانها تتعثر فى بقية الأبواب ، ولا يكاد يسعفها تعمل ولا تأويل مهما أغرب — ويلحظ ابن فارس هذا — فيخرج بتبرير يقول فيه ان الكلمات التى تزيد على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد ضبطر ، من ضبط ، وضبر — وفى قولهم : صهصلق أنه من صهل ، وصلق ، وفى الصلدم أنه من الصلد ، والصدم (2) وعلى هذا فان مقاييسها تتبع أصولها قبل النحت .

(1) المقاييس 1 : 277 — 280
(2) فقه اللغة (الصاحبى) 227

ويحترز لهذا التبرير بقوله : ان ما زاد على ثلاثة أحرف لا يعدو أن يكون مشتقا على نفس القاعدة أو منحوتا بادى النحت أو موضوعا وضعا على عادة العرب فى مثله (1) ويعتمد فى اثبات النحت على ما ذكره الخليل من قولهم حيعل الرجل اذا قال : حىّ على ولفظة أخرى متفق عليها وهى قولهم عبشمية وربما وجد ابن فارس فى هذا النحت ، وهذه الأمثلة مع سعة فى التأويل معينا وسندا على اقامة نظريته .

وما طريقة النحت عند ابن فارس ؟ هذه أيضا فى نظره على وجهين ، احدها موضوع وضعا لا مجال له فى طريق القياس ـ واذا كانت موضوعة هكذا لا مجال لها فى القياس فكيف قال بأنها منحوتة ؟ ولماذا لم تكن موضوعة كأصل من أصول الرباعى او الخماسى ؟ انه هو الآخر يقف حائرا لا يصل الى معرفة القياس فيه ، ولكنه مشدود الى نظريته ويعلل توقفه بقوله : (قد يجوز أن يكون له قياس خفى علينا موضعه والله أعلم بذلك) (2) .

أما الوجه الآخر فأغلب المنحوت مأخوذ من كلمتين كقولهم بحتر وهو القصير المجتمع الخلق فهذا منحوت من كلمتين (بتر) كأنه حرم الطول فبتر خلقه ، والكلمة الثانية (حتر) من حترت وأحترت وذلك أن لا تفْضِلَ على أحد . يقال : أحتر على نفسه وعياله أى ضيق عليهم ؛ فقد صار هذا المعنى فى القصير لأنه لم يعط ما أعطيه الطويل (3) .

ومن ذلك كلمة (بلهس) فهو يردها الى أصلين : بهس وقد فسرها بقوله : (ان الأسد يسمى بيهسا ، وبله وهو صفة الأبله ومعنى الكلمة المنحوتة : اسرع) (4) والامر ـ فى نظرى ـ يحتاج الى عمق واغراب فى

---

(1) المقاييس 2 : 337
(2) المقاييس 2 : 141
(3) المقاييس 1 : 329
(4) المقاييس 1 : 331

التأويل لكى أصل الى ما رآه ابن فارس من ان صفة الأسد مع البله تعنى الاسراع .

ويتعقد الأمر وأنا أقلب نظرية ابن فارس عندما يجيز النحت من ثلاثة أصول كقوله : السحبل : الوادى الواسع ، وكذلك القربة الواسعة سحبلة . يقول : (فهذا منحوت من سحل اذا صب ، ومن سبل ، ومن سحب اذا جرى وامتد ، وهى منحوتة من ثلاث كلمات ، تكون الحاء زائدة مرة ، وتكون الباء زائدة ، وتكون اللام زائدة) واذا عدنا الى قراءة المواد متجردة من هذه الزيادات ، لم أجد رابطة اطمئن بها على نظرية ابن فارس . بل هو نفسه يدركه الملل فتراه فى أبواب الرباعى مثلا تقل مناقشته للألفاظ على طريقة المقاييس ، ويكتفى بالاتيان باللفظ والمعنى . (1)

وبالرغم مما أشرنا اليه من شكوك فى اطلاق نظرية المقاييس وتعميمها على جميع الأبنية فان الكتاب عالج بعض خصائص العربية بعمق لا يتيسر الا للعلماء الكبار .

المجمل

وكتاب المجمل ، أقل مادة من المقاييس ، ولكنه أكثر شهرة وتداولا ، ربما لسهولة الحمل ، وقرب التناول ، واختصار المادة ، ويبدو أنه اعد بهذه الصفات استجابة لطلب أحد الرؤساء ، يقول ابن فارس فى مقدمته (.... فانك لما أعلمتنى رغبتك فى الأدب ، ومحبتك لعرفان كلام العرب ، وأنك شاممت الأصول الكبار فراعك ما أبصرته من بعد تناولها ، وكثرة أبوابها ، وتشعب سبلها ، وخشيت أن يلفتك ذلك عن مرادك ، وسألتنى

---

(1) انظر مثلا الباب الثالث من الرباعى 1 : 335

جمع كتاب فيه يذلل لك صعبه ، ويسهل عليك وعره أنشأت كتابي هـذا بمختصر من الكلام قريب ، يقل لفظه ، وتكثر فوائده ••• •••

ويوضع المجمل الى جانب المعاجم الكبرى التي سبقته أو عاصـرته • ويشير السيوطي اليه بعد الصحاح بقوله : « ••• وأول من التزم الصحيح مقتصرا عليه الامام أبو نصر اسماعيل بن حمـاد الجوهري ولهـذا سمي كتابه الصحاح ••• وكان في عصر صاحب الصحاح ابن فارس فالتزم أن يذكر في مجمله الصحيح ، وردد من كلام صاحب المجمل « ••• وقد ذكرنا الواضح من كلام العرب والصحيح منـه دون الوحشي والمستنكر ••• ، كما قال في آخر المجمل : قد توخيت فيه الاختصار ، وآثرت فيه الايجاز ، واقتصرت على ما صح عندي سماعا ، ومن كتاب صحيح النسب مشهور ، ولولا توخي ما لم أشك فيه من كلام العرب لوجدت مقالا » (1) •

ترتيب الكتابين

وترتيب ابن فارس في الكتابين يختلف عن ترتيب المعاجم السابقة ، لا يلتزم بنظام التقاليب كما في العين والتهذيب ، ولا بنظام الحرف الأخير كما في الصحاح وانما جعل مواده كتبا بحسب حروف المعجم ؛
وكل كتاب جعله ثلاثة أبواب ، الثنائي ، والثلاثي ، وما جاء على أكثر من ثلاثة أصلية
وكلما أخذ حرفا وانتهى به الى الياء بدأ يأخذه مع الهمزة والباء الـى ان يصل الى حيث بدأ •

وجهة نظر في المحكم

حكم السيوطي على المحكم وهو يضعه الى جوار الصحاح مستمد

---

(1) المزهر 1 : 100

من وصف ابن فارس لكتابه ؛ وواقع الحال واستقراء الكتاب يشير — من وجهة نظرى — الى أن الكتاب أعد على عجل ، ولم يلتزم وجها واحدا من التأليف ، فهو لا يوجز ويلتزم الايجاز ، ولا يستطرد فيلتزم بالاستطراد ، ولا هو وسط بين الاثنين ، فهو فى أماكن كثيرة يستشهد بصدر بيت أو عجزه ، أو جزء منه كأن يحتج لكلمة « بداد » بقوله :

فشلوا بالرماح بداد

فلا يذكر قائله ، ولا يذكر البيت بتمامه (1)

أو يقول فى برز برز الرجل والفرس اذا سبقا ، وكتاب مبروز أى منشور قال لبيد (المبروز والمختوم) (2) ويقف عند ذلك . وقد يوجز أكثر من هذا فيحتج لكلمة (بسل) بعد أن يقول انه : الحرام وكل شىء ممتنع ، بقول زهير : (فانهم بسل) ويكتفى بهذا .

بينا هو كذلك اذ تراه قد دخل فى عنعنة واستطراد كان يستحب ايجازه ، فيقول مثلا فى (برد) البرد خلاف الحر ، والبرد النوم فى قول الله عز وجل : (لا يذوقون فيها بردا) وربما قالوا : منع البرد البرد، وبرد الشىء : دام . أنشدنا محمد بن هارون الزنجانى عن على بن عبد العزيز قال : أنشدنا الأثرم عن أبى عبيدة :

اليوم يوم بارد سمومه

من جزع اليوم فلا تلومه

الى آخر ما ذكر .

---

(1) البيت لحسان وهو : كنا ثمانية وكانوا جحفلا
لجبا فشلوا بالرماح بداد

(2) وتمامه : او مذهب جدد على الواحه
الناطق المبروز والمختوم

ولم يمنعه ايجازه أن يشير فى مرات كثيرة الى المعرب والدخيل ، او يرجح أن الكلمة من الابدال لأنه سمع : مأفول ومأفون بمعنى ناقص اللب الى غير ذلك

ولا يغير من قيمة الكتاب ، ولا من دوره فى المعاجم ان يكون بــه مثل هذه الهنات التى لا تخلو منها الكتب الكبيرة التى يعانى اصحابهــا جهدا يجب أن يقابل بالشــكر والعرفان .

ابن سيده 398 - 458 هـ
وكتابا المخصص ، والمحكم

ابن سيده ، هو أبو الحسن على بن اسماعيل الضرير ، ولد حول سنة ٣٩٨ هـ فى مدينة شرقى قرطبة ، وتلقى العلم على أبيه (1) الذى تلمذ للزبيدى ثم أخذ عن أبى العلاء صاعد بن حسن الربعى البغدادى الوافد على الأندلس كما أخذ عن أبى عمر أحمد بن محمد الطلمنكى الحافظ القارىء المحدث المفسر •

وقد عوضه الله عن فقدان البصر بنعمة البصيرة ، فكان من مشاهير الحفاظ وبلغ فى العلم مرتبة رفيعة ، قال عنها مترجموه : « لم يكن فى زمانه أعلم منه فى النحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها » (2) وقال عن نفسه : انى أجد علم اللغة أقل بضائعى وأيسر صنائعى اذا أضفته الى ما أنا به من علم حقيق النحو، وحوشى العروض وخفى القافية وتصوير الأشكال المنطقية والنظر فى سائر العلوم الجدلية التى يمنعنى من الاخبار بها نبو طباع أهل الوقت وما هم عليه من رداءة الأوضاع والمقت •

ويبدو أنه أسرف فى ذكر شأنه ، وعلو مكانته ، وأخذ يعتب على

(1) نكت الهميان فى نكت العميان 204
(2) بغيـة الوعـاة 327

معاصريه جهلهم فيقول : « وأما ما فى كتاب الاصلاح ، والألفاظ ، وكتب ابن الأعرابى ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى وغيرهم من أمثال هذا الذى وضعت فأكثر من الذى يحصى مدده أو يحصر عدده ، وهل يقوم بانتقاد هذا النوع الا مثلى من ذوى الحفظ الجليل ، والاضطلاع بعلم النحو ، وصناعة التحليل ؛ وان كنت بين حثالة جهلت فضلى وأساء الدهر فى جمعهم بمثلى » (1) .

ثم يتلمس المعاذير ان أخطأ أو هفا « واذا كان المنفردون لكتابة اللغة وتكميشها واحتطابها وتقميشها كأبى عبيدة ، والأصمعى قد غلطوا فى بعض ما دونوا فأنا أحرى بذلك اذ هم جاوروا أهل البادية ، وأطالوا احتلاب الابل النابية » (2) ويتوقع أن يكون خطؤه قليلا معدودا ويقول « ولا أنكر فى كل ذاك أن تختل قضية من خمسة آلاف ، أو حرف من حروف عديدة أضعاف » (3) .

وهكذا ترى ابن سيده فى صورة فذة تارة بأقلام عارفيه، وتارة بقلمه هو .

آثاره

من كتب ابن سيده : المخصص ، والمحكم ، وشرح اصلاح المنطق لابن السكيت ، والوافى فى علم احكام القوافى ، وشاذ اللغة وشرح كتاب الأخفش ؛ وكتاب الأنيق فى شرح الحماسة ، وشرح العالم والمتعلم على المسألة والجواب ، وكتاب فى التذكير والتأنيث ... ووصل من كتب ابن سيده : شرح مشكل شعر المتنبى ويحتوى على ١٨٩ ورقة مخطوط بدار الكتب برقم ٢ أدب م ، والمحكم والمخصص .

---

(1) المحكم 1 : 8 الحلبى بتحقيق السقا ونصار
(2) المحكم 1 : 8 ط الحلبى
(3) المحكم 1 : 16

المخصص

لم يكن فى النية أن نتحدث عن المخصص فالسلسلة التى مررت بها منذ وقت قصير تتحدث عن المعاجم التى حاولت ذكر ألفاظ العربية على جهة الاستقصاء، وعلى طريقة رتيبة موصلة الى هذا الغرض ، وكان المحكم يجرى مع هذه السلسلة ، ولكن وجدت المناسبة مواتية للحديث عن الوجهين الرئيسيين فى جمع اللغة ، أحدهما المعاجم التى حاولت استقصاء الألفاظ ، ونحن على هذا الدرب منذ فكر الخليل بن أحمد فى كتاب العين ، وتبعه ابن دريد فى الجمهرة ، والقالى فى كتاب البارع ، والأزهرى فى التهذيب ، والجوهرى فى الصحاح ، والفيروزبادى فى القاموس ، وابن سيده فى المحكم ... الى آخر هذه السلسلة .

والوجه الثانى ، نشأ حين نشأ الأول ، ولم يكن أحدهما خطوة متطورة بالنسبة للآخر كما يرى بعض العلماء ، وكما ناقشنا ذلك فى كتابنا « رواية اللغة » فى صفحة 102 و 103 منه .

فقد جمع اللغويون ما جمعوا من أساتذتهم ، ومن أفواه الأعراب فى الأمصار ، ومن أحاديث الأعراب فى البوادى ، وعادوا يضعونها أكواما ، أو مجموعات ليسهل طلبها والانتفاع بها ، والذين نظروا الى هذه الأكوام وجدوها تدخل تحت عناصر ثلاثة .

ـ أسماء لكائنات تقع تحت بصر العربى وسمعه كالجمل ، والوحوش والجبال ...

ـ وأخرى فى صيغ تتحدث فى الاشتقاق ، وفعل وأفعل ، والتأنيث والتذكير ..

ـ وثالثة وجدوها حيث هى مستقرة فى صميم الأدب العربى

كالأراجيز ، والقصائد المشهورة ، وأحاديث الأعراب الى غير ذلك ، فشرحوها .

واعتبرت هذه المجموعات أو الأكوام نوعا أو اتجاها فى جمع اللغة، ولم يكن حلقة تتبعها حلقات ، ولكن جمع اللغة اتخذ الوجهين فى وقت واحد ، هذه الكراسات التى تتحدث عن موضوع بعينه ، وبعضهم رأى أن يضم مجموعة أكوام الى بعضها فظهرت تحت اسم الصفات ، والغريب المصنف ، والألفاظ ... الى غير ذلك ــ والمعاجم الشاملة .

وتحت اسم الصفات كتب أبو خيرة الأعرابى ، والنضر بن شميل ، وقطرب محمد بن المستنير ، وعبد الملك بن قريب الأصمعى ، ولم يرد من ذلك ــ فيما أعلم ــ الا ما جاء وصفا لكتاب النضر بن شميل فى كتاب الفهرست لابن النديم فقال انه كان فى خمسة أجزاء ، تضمن الجزء الأول خلق الانسان ، والجود والكرم ، وصفات النساء . وتضمن الجزء الثانى: الأخبية والبيوت ، وصفة الجبال ، والشعاب ، والأمتعة . واقتصر الجزء الثالث على الابل ، وفى الجزء الرابع تكلم عن الغنم ، والطير والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والألبان ، والكمأة ، والآبار ، والحياض ، والأرشية ، والدلاء ، وصفة الخمر . ويحتوى الجزء الخامس على الزرع، والكرم والعنب ، وأسماء البقول ، والأشجار ، والرياح ، والسحاب والأمطار .

وجاء أبو عبيد القاسم بن سلام فعمل الغريب المصنف ، وهو معجم رتب على الموضوعات ككتب الصفات تماما، نقول فيه أبو الطيب اللغوى، أخذ كتب الأصمعى فبوب ما فيها وأضاف اليها شيئا من علم أبى زيد الأنصارى ، وروايات عن الكوفيين (1) وفى دار الكتب بالقاهرة نسخة

(1) معجم الادباء 16 : 255

منه تحتوى على عدة أبواب تختلف طولا وقصرا فـى خلـق الانسان ؛ والنساء ، واللباس ، والطعام ، والدور ، والأرضين ، والرحل ، والخيل ، والسلاح ... الى غير ذلك وعقد بابين أحدهما لنوادر الأسمـاء والآخر لنوادر الافعال .

وشارك ابن السكيت فى هذا الوجه ، وكتابه الألفاظ يعتبر خطوة متطورة فى هذا اللون فلم يكن ابـو اسحق كسابقيـه يجمـع المفردات بحسب الموضوعات ويعرف بها ويكتفى بهذا الجمع ، ولكنه توسع فـى تصنيف الأبواب ، وأحاط بدقائق لم تظهر فـى ذلك التعميم المتبع عنـد السابقين فنيفت الأبواب فى كتاب الألفاظ على مائة وخمسين بابا منها ما هو صفات للناس كالغنى والفقر ، ونعوت النساء فى الولادة ، وما يكره من خلق الانسان ... الى غير ذلك كقوله فى باب الفقر : « يقال أقفـر الرجل اقفارا اذا بات فى القفر فلم يأو الى منزل ولم يكن معه زاد . » الأصمعى : يقال بات فلان القواء يريد بات فى القفر ...

ومن هذا الوجه كتاب مبادىء اللغة الذى وضعه محمد بن عبد الله الاسكافى وجعله أبوابا منها : أسمـاء الكـواكب ، وأسمـاء البروج ، والأزمنة والأوقات ، والليل والنهار ، وصفـة الحر والبرد ، والـرياح ، وأسماء الرعد والبرق ؛ والمياه وأوصافها وأماكنها ، والجبال ، والخيل الى غير ذلك ـــ ولم يضع الاسكافى كلمة يعرف بها كلمة أخرى ، وانما وضع المفردات فى عبارات تبين معانيها وتبين أيضا الفروق الدقيقة التى تلابسها كأن يقول « جاء غسق الليل ، وغطشه ، ودمسه ، اذا لم يبق شفق ـــ وبعد هدء من الليل ، وموهن من الليل لنحو من الربع ... الى غير ذلك (1) .

وجاء ابن سيده ، وأتيح له أن يسمع أمهات كتب اللغـة ، وأعانتـه حافظته على استيعابها ، فرأى أن يجمع هذا الشتات فى حيز واحد اذ ليس

(1) مبادىء اللغـة للاسكافى ص 10

فى واحد من كتب الماضين غناء مـع مـا تحتويـه دفتيه مـن غرر العربية وفوائدها ، ويقول وصفا لهذا الدافـع .

(.... الا انى وجدت ذلك نشرا غير ملتئم ، ونثرا ليس بمنتظم اذ كان لا كتاب نعلمه الا وفيه من الفائدة ما ليس فى صاحبه ، ثم انى لم أر لهم فيها كتابا مشتملا على جلها فضلا عن كلها) (1) .

فجمع أمامه كتب الأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد ، والنضر ، مـا وجد من ذلك بمفرده ، وما وجد من رواياتهم فى ثنايا كتب الطبقة التاليـة لهم من أمثال أبى حاتم ، والرياشى ، والجرمـى ـ وكان ابـن السكيت وأبى عبيدة القاسم بن سلام قد جمعا علم البصرة الى علم الكوفـة كمـا فصلنا القول فى ذلك فى كتابنا « رواية اللغة » فكانت هذه الحصيلة ، وما أتيح لابن سيده من مصادر غيرها ، عدته فى وضع كتاب المخصص ، بـل كانت عدته فى وضع كتابه المحكم أيضا الا أنه وجه لكـل كتاب وجهتـه من التأليف ، فصدر عن هـذا الضرير تقييد أكثر العربيـة عـلى وجهيها المعروفين ، الاول بحسب الموضوعات ، والثانى على سبيل الحصر ولقـد أخذ الرجل فى عمل الكتابين فى وقت واحد يعينه فى ذلك اعتماده عـلى مصادر واحدة ، فهو يذكر المخصص فى كتاب المحكم ، ويذكر المحكم فى كتاب المخصص ، ولكن المهم أنه يمارس هذا العمل الضخم المرهق الذى يتجه وجهتين مختلفتين ، ويمارس هذا عن اقتناع بوجهة نظر أن أحـدهما ليس فيه غناء عن الآخر ، ولكل فائدته ويقول :

« ... ... لما وضعت كتابى الموسوم بالمحكم مجنسا لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوبا حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره ، والبليغ المفـوه ، والخطيب المصقـع ،

---

(1) المخصص 7

والشاعر المجيد المدقع فانـه اذا كانت للمسمى أسماء كثيرة ، وللموصوف أوصاف عديدة تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاءا ، واتسعا فيما يحتاجان اليـه .... »

ولقد كان الرجل رتيبا منطقيا أيضا ، وهو كما تعلم صاحب نظر فى المنطق فرتب كتاب المخصص بادئا بخلـق الانسان ، وبادئا بـه مـن حيث بداية تكوينه ، الحمل ، والولادة ، والرضاع الى حيث ينتهى موضوعه ، وقد استغرق « خلق الانسان » كل الجزء الأول وجزءا من الثانى ـ وكتاب المخصص كتاب ضخم يكاد يجمع كتب السابقين وفى الصفحات القادمـة نفرد تعريفا بكتاب (المحكم) .

المحكم والمحيط الأعظم

فيما يروى أن ابن سيده ، اتصل بالأمير أبى الجيش مجاهد بن عبـد الله العامرى ، وألف له كتابى المخصص والمحكم بعـد أن عاق الأمير عـن التصنيف فيها ما نيط به من علائق السياسة وأعباء الرياسة ... فالتمس من يؤهل لذلك من لباب عبيده ـ قال ابن سيده ـ « فأمرنى بالتجـرد لهـذه الارادة ... ... فأعلقت وأفلقت ، وألفت كتابى الملخص ، الـذى سميته المخصص ، وهو على التبويب فى نهاية التهذيب .... ثم أمرنـى بالتأليف على حروف المعجم فصنفت كتابى الموسوم بالمحكم » .

وهذا فيما يبدو حديث مجاملة ، صادف استعداد ابن سيده ، ورغبته فى أن يجمع اللغة فى نهريها ـ بحسب الموضوعات كما رأيت فى المخصص، وعلى سبيل الحصر كما أراد فى المحكم ، ومصدر الكتابين من يده قريب ؛ وله ملاحظ على كتب القدامى التى استقى منها مادته بعد أن أبرز تقييدات أشار اليها فى مقدمة المحكم ، وهنات لا يخلو منها كتاب وان عظم ، ولكنها طريقة ورثها عالم عن عالم حتى وصلت الى أيامنا هذه ـ فـلا يشفع لباحث

جد ولا اجتهاد ـــ ولا نصب وهبه لوجه العلم حتى ترى فئة من العلماء الذين أوكل اليهم نظر كتاب بعينه ، وقد تغضنت جباههم من الغضب ، وعلت نبراتهم من الاحتجاج ، وذهبت اشارات أيديهم يمنة ويسرة ، أو تنفجر منهم الضحكات الساخرة لان الباحث أهمل همزة ، أو أن الباء اختلطت بالياء لعدم ظهور النقطتين أو غير ذلك من سخافات تدور في مناقشة الرسائل الجامعية في عصرنا من بعض علماء أتّهمتهم بخفة الوزن ـــ كنا ننزه عن هذه الصورة أساتذة أفاضل كابن سيده ، فاذا بنا نراه وأمامه فضل غزير من معلوم القدامى ، يعدد كتبهم ليسمو بهذه الكتب ، ثم بعد ذلك يلسنهم ، ثم يقيم لهم في أول كتاب المحكم ميزان جور لا ميزان عدل سرعان ما ينسى به كل الخير اذا وجد زلة أو هفوة ، وكأن دستوره (ان السيئات يذهبن الحسنات) •

يقول مشيرا الى ابن السكيت :

(•••• وأى شيء أذهب لزين ، وأجلب لعَبَر عين من معادلته في كتابه الموسوم بالاصلاح « يقصد اصلاح المنطق » الرَّيم الذى هو القبر والفضل ، بالرِّيم الذى هو الظبى ظن التخفيف فيه وضعا ••••)

ويقول في أبى عبيد القاسم بن سلام ، ونحن نعلم أن كتبه عمد من مصادر ابن سيده :

(وأى شيء أدل على ضعف المُنّة ، وسخافة الجُنّة من قول ابى عبيد القاسم بن سلام في كتابه الموسوم بالمصنف « يقصد الغريب المصنف »: العِفْرِية مثال فِعْلِلَة فجعل الياء أصلا ، والياء لا تكون أصلا في بنات الأربعة •••)

وتناول ابن الأعرابى بعد سطر من الشتائم ، ثم ختم قضيته بقوله : (فأين علم أبى عبد الله الأعرابى بأسرار هذه الصيغ من علمى ، أو فهمه

بغوامض تأولها من فهمى الى غير ذلك مما لو تقصيته لأتعبت الخاطر وملأت القماطر ـ ويقول : لكنى آثرت طريق التقليل اذ أقل من ذلـك كاف فـى التمثيـل •)

ويشير الى كتابه وبراعته فى الاختصار مع تمام المادة بقوله :
(•••• فرب سطر من كتابى يغترف من كتب اللغة فى الخط سطورا، فاذا حصل جوهر الكلام عادت أبوابهم لأبوابى شطورا) (1) •

فاذا فرع من النقد ، وأسرف على نفسه من المحاسن ، وجـاء ببعض القضايا والامثال المؤيدة لما قال عاد يذكر من كتب هؤلاء القدامـى عدتـه ومصادره لكتاب المحكم فقال : (وأما ما ضمناه كتابنا هذا من كتب اللغـة فمصنف أبى عبيد ، والاصلاح ، والألفاظ ، والجمهرة ، وتفاسير القـرآن ، وشروح الحديث ، والكتاب الموسوم بالعين ما صح لدينـا منه وأخذنـاه بالوثيقة عنه ، وكتب الأصمعى ، والفراء ، وأبى زيد ، وابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، والشيبانى ، واللحيانى ما سقط الينا من جميع ذلـك وكتب أبـى العباس أحمد بن يحيى : المجالس ، والفصيح ، والنوادر ، وكتابا أبى حنيفة وكتب كراع الى غير ذلك من المختصرات كالزبـرج ، والمكنى ، والمبنـى ، والمثنى ، والأضداد ، والمبدل ، والمقلوب ، وجميع مـا اشتمل عليـه كتاب سيبويه من اللغة •••• وهو حلى كتابى هذا وزينه ، وجماله وعينه مع مـا أضفته اليه من الأبنية التى فاتت كتاب سيبويه معللة ، عربية كانت أو دخيلة•

وأما ما نثرت عليه من كتب النحويين المتأخرين المتضمنة لتعليل اللغـة فكتب أبى على الفارسى : الحلبيـات ، والبغداديـات ، والأهوازيـات ، والتذكرة ، والحجة ، والاغفال ، والايضاح ، وكتاب الشعر ، وكتب أبـى الحسن بن الرمانى كالجامع ، والاغراض ، وكتب أبى الفتح عثمان بن جنى

---

(1) راجع فى كل هذا مقدمة ابن سيده لكتاب المحكم

كالمغرب ، والنمام ، وشرحه لشعر المتنبـــى ، والخصائص ، وسر الصناعة ، والتعاقب ، والمحتسب الى اشياء اقتضيتها من الأشعار الفصيحة ، والخطب الغريبة الصحيحة (1) .

ترتيب المحكم

يعتبر ترتيب المحكم حلقة فى السلسلة التى بدأها الخليل وسار عـلى نهجها أبو على القالى فى كتاب البارع ، والأزهرى فى التهذيب ، والزبيدى حين حاول اختصار العين ــ وابن سيده الـذى يربطـه بالقالـى والزبيدى رابطة التلمذة ــ سار على نفس النهج بعد أن آفـاد من الزبيـدى طريقـة الاختصار ، وطرح ما تكرر من الشواهد ولا يكـاد يختلف عن هـذا فـى شىء من الجوهر ، وانما هـى وجهات نظـر فـى ترتيب الحروف بحسب المخارج ، وترتيب المواد طبقا لها .

وأفاد صاحب المحكم مما سبقه من تطورات ، واتبـع أحسنها وقسم الكتاب الـى :

ــ الثنائى المضاعف الصحيح .
ــ الثلاثى الصحيح .
ــ الثنائى المضاعف المعتل .
ــ الثلاثى المعتل .
ــ الثلاثى اللفيف .
ــ الربـاعى .
ــ الخماسـى .

وأراد بالثنائى المضاعف ما ندعوه الثلاثى المضاعف مثل شدّ .

واستمد هذا التقسيم من أستاذه الزبيدى فى مختصره للعين ، ثم زاد

---

(1) مقدمة المحكـم 15

عليه بابا بسماه السداسي أو الملحق بالسداسي ، وبعض ملاحظات هينة أفادها من الزبيدي في مختصره •

ملاحظات في المتن

وعد بالايجاز ، ومع ذلك حرص على ذكر ما يحضره مع تفاوت أهميته ومن غير ترجيح لوجهة خاصة ، يقول في : همع :

همع الدمع والماء ونحوهما يهمَع (بفتح الميم) ويهمع (بضم الميم) همعا (بسكون الميم) وهمعا (بفتح الميم) وهموعا وهمعانا ، وأهمع : سال • قال العجاج :

بـادر من ليل وطـل أهمعـا

قال اللحياني : وزعموا أن همِعَتْ لغة(1) •

ــ وينهى عن لغة ، فلا يذكر وجهته فيها كأن يقول : (ولا تلتفت للهميع بالعين فانه بالغين ، وان كان قد حكاه بالعين قوم ؛ وبالعين والغين قوم آخرون) (2) •

ــ وفي صعق ــ فسره ــ وذكر قصة رجل اسمه (الصعق الكلابي) فقال : « أحد فرسان العرب ، سمي بذلك لأنه أصابته صاعقة ، وقيل سمي بذلك لأن بني تميم ضربوه ضربة على رأسه فأمّته ، فكان اذا سمع الصوت الشديد صعق فذهب عقله •

قال أبو سعيد السيرافي : كان يطعم الناس في الجدب بتهامة ، فهبت الريح فهالت التراب في قصاعه ، فسبّ الريح ؛ فأصابته صاعقة فقتلته • واسمه خويلد ، وفيه يقول القائل :

(1) المحكم 1 : 68
(2) نفس المصدر والصفحة

بــأن خويلــدا فابكــى عليـــه
قتيل الريح فى البلد التهامى (1)

ويحرص على بيان الفروق الدقيقة

ففى خشع يقــول :

خشع بصره : انكسر ، ولا يقال أخشع . قال ذو الرمة :

تجلى السّرى عن كل خرق كأنــه
صفيحة سيف طرفه غير خاشــع

وقيل : الخشوع قريب من الخضوع ، الا أن الخضوع فى البــدن ، وهو الاقرار بالاستخذاء والخشوع فى الصوت والبصــر كقولــه تعالــى (خاشعة أبصارهم) سورة المعــارج 44 (وخشعت الأصوات للرحمــن) سورة طه 108 ، والتخشع نحو التضرع ــ ويقول : الخاشع : الراكع فــى بعض اللغات (2) .

ومن هذه الفروق الدقيقة : رجل خُدَعة (بفتح الدال) يخدع كثيرا، بفتح الياء ، وخدعة (بسكون الدال) يخدع كثيرا بضــم اليــاء أى مبنى للمجهول (3) .

ومن الفوائد

المخدع ــ بضم الميم ــ الخزانة (أى الحجرة الصغيرة) ..... قال سيبويه : لم يأت مفعل اسما الا المخدع ، وما سواه صفة (4) .

---

(1) المحكم 1 : 81
(2) المحكم 1 : 69
(3) المحكم 1 : 70
(4) المحكم 1 : 71

والعروس : نعت للرجل والمرأة ، رجـل عروس فى رجـال أعراس — وامرأة عروس فى نسوة عرائس (1) •

والعانس — للرجل والمرأة — يقول ابن سيده :

عنست المرأة ، تعنس عنوسا ، وعناسا ، وهى عانس من نسوة عنّس ، وعنّست ، وهى معنس ، وعنّسها أهلها حبسوها عن الأزواج حتى جـازت فتاء السن ولما تعجز ورجل عانس : كذلك ، قال أبو قيس بن رفاعة :

منا الذى هو مـا ان طـر شاربه

والعانسون ، ومنا المرد ، والشيب (2)

أما الهنات الخفيفة فمنها الاستطراد الذى يتنافى فى مع مـا وعد بـه صاحبه من ايجاز ، فتجد قصة لا داعى لها كمـا ورد فـى مـادة (صعق) وحرصه على ذكر كل ما يحضره من أقوال حول هذه القصة ، والتأليف فى اللغة مستغن عن كل هذه الاطالة التى لا شأن لها بالموضوع فى أساسه ؛ أما النحو والصرف فما ترك مناسبة للاطالة والتفريع الا انتهزها يعينه على ذلك ذاكرته الواعية التى وعت ما قرأت أو سمعت من كتب القدامى ، فكان يعيد الفقرة والفقرات بل الصفحة والصفحات وكأنهـا مـن عنده هو ، وينقـل بالنص والحرف من غير اشارة الى المؤلف الأول فلا أدرى أنسيان أم تناسى وهو صاحب الذاكرة الواعية •

ففى المحكم ، نقـل فصلا فى تفسير النحو ، كتبـه ابـن جنـى فى الخصائص حيث يقـول :

(باب القول على النحو — هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفـه

---

(1) المحكم 1 : 297

(2) المحكم 1 : 307

من اعراب كالتثنية والجمـع ، والتحقير والتكسير ، والاضافـة والنسب والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغـة العربيـة بأهلها فـي الفصاحة فينطق بها ــ وان لم يكن منهم ــ وان شد بعضهم عنها رد به اليها، وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحوا كقولك : قصدت قصدا ثـم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل فقهت الشيء أي عرفته ، ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم ... ...) (1) .

وفي المخصص ، عقد بحثا عن اللغة أهي الهـام أم مواضعـة فكتب يقول : (وقد لزمت التنقير والبحث مـع ذلك عـن هذا الموضع ، فوجدت الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول عـلى فكري ، وذلك لأننا اذا تأملنا حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ....)ص 6 المخصص ، وهذا الكلام في كتاب ابن جني (الخصائص ص 47) .

وتناول ابن جني في كتاب الخصائص رأي أبي علي الفارسي الـذي يقول فيه ان اللغة من عند الله لقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلهـا) فقال ابن جني (وهذا لا يتناول موضع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكـون تأويله « أقدر آدم على أن واضع عليها » وهذا المعنى من عند الله سبحانـه لا محالة ، فاذا كان ذلك محتملا سقط الاستدلال به) (2) .

فجاء ابن سيده ، وعالج النقطة في الرد على أبي علي الفارسي بعبـارة ابن جني نفسها وقال ــ أي ابن سيده ــ (وقد اختلفوا في اللغة ، أمتواطؤ عليها أم ملهم اليها وهذا موضع يحتاج الىفضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف الا أن أبا علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال : هي

---

(1) انظر الخصائص 1 : 34 ط دار الكتب ، ولسان العرب 64 : 310 ط دار صـادر بيروت

(2) الخصائص 1 : 41

من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه « وعلم آدم الاسماء كلها » وهذا ليس باحتجاج قاطع ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقـدر آدم على أن واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالـة فاذا كان ذالـك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به) (1) •

وهكذا ترى ابن سيده وقد نقل كلام ابن جنى بالحرف تقريبا من غير اشارة اليه كأنه من كلامه هو يرد به على ابى على الفارسى •

وبعـد

فهذه ليست من الهنات الكبيرة ، وحسب المرء فخرا أن تعد مآخذه . ومع هذا فكتاب المحكم الذى أفاد من جميـع الكتب التى سبقته مـادة وتبويبا يعتبر من أحسن المعاجم ، ومن أجل هذا يعده صاحب اللسان مـن أهم مراجعه ، ويقول فيه (ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغـة لأبى منصور محمد بن احمد الأزهرى ، ولا اكمل من المحكم (2) ؛ وكذلك يعتمد عليه صاحب القاموس ويشير الى ذلك فـى خطبـة كتابـه ، ويقول السيوطى : « أعظم كتاب ألف فى اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكـم والمحيط الأعظم لأبى الحسن على بن سيده الاندلسى الضرير » (3) •

---

(1) مقدمـة المخصص 4

(2) مقدمـة اللسان 7 ط دار صـادر

(3) المزهـر 1 : 10

الزمخشري ، وأساس البلاغة
467 ـ 538 هـ

الزمخشري ، ابو القاسم ـ جار الله ـ محمود بن عمر ـ ولد في زمخشر قرية من قرى خوارزم سنة سبع وستين وأربعمائة ، أخذ عن أبي مضر محمود بن الاصبهاني وابى الحسن بن المظفر النيسابوري ، وأبي منصور نصر الحارثي ، رحل الى بخارى في طلب العلم ثم الى بغداد في طريقه الى الحجاز فالتقى بأبي السعادات هبة الله بن الشجري ، ثم ذهب الى الحجاز فجاور بمكة، كان الزمخشري معتزليا يجاهر بمذهبه ويلقب نفسه بالزمخشري المعتزلي ، وكان اماما في التفسير والنحو واللغة والادب ، صنف معلمة واسعة يجدر بك أن تلم ببعضها منا :

الكشاف في تفسير القرآن ، الفائق في غريب الحديث ، نكت الأعراب في غريب الاعراب (في غريب اعراب القرآن الكريم) كتاب متشابه أسماء الرواة ، مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة ، الكلم النوابغ في المواعظ ، أطواق الذهب في المواعظ ، نصائح الكبار ، نصائح الصغار ، مقامات في المواعظ ، نزهة المستأنس ، الرسالة الناصحة ، رسالة المسامة، الرائض في الفرائض ، معجم الحدود ، المنهاج في الأصول، ضالة الناشد ، كتاب عقل الكل ، النموذج في النحو ، المفصل في النحو أيضا ، المفرد والمؤلف في النحو ، الأمالي في النحو ، أساس البلاغة ، صميم العربية ، جواهر اللغة ، كتاب الأجناس ، مقدمة الأدب ، كتاب الاسماء ، القسطاس في العروض ، حاشية على المفصل ، روح المسائل ، سوائر الامثال ، المستقصى في الامثال ، ربيع الأبرار في الأدب والمحاضرات . تسلية الضرير ، رسالة الأسرار ، أعجب العجب في شرح

لامية العرب ، شرح المفصل ، ديوان التمثيل ، شرح كتاب سيبويه ، كتاب الجبال والأمكنة ، شافى العى من كلام الشافعى ، شقائق النعمان فى حقائق النعمان فى مناقب أبى حنيفة . المحاجاة . المفرد والمركب فى العربية (1) وتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة .

وسنكتفى من مؤلفاته بكتاب أساس البلاغة لقربه من موضوع المعاجم .

أساس البلاغة

نهج الزمخشرى نهجا جديدا فى كتابه أساس البلاغة يخرج به عن هذا النطاق الذى لمحناه فى المعاجم السابقة ــ فهو لا يفسر كلمة مكان كلمة ، ولا يبتغى حصر اللغة حصرا شاملا ليعرف بمفرداتها ولكنه تنقل فى البلاد العربية وأتيح له أن يسمع (من الاعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، ومن قراضبة نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة) كما استطاع أن يستخرج من بطون الكتب ، ومتون الدفاتر روائع الألفاظ وجوامع الكلم (2) .

ومن هذه الثروة اللغوية الضخمة استطاع الزمخشرى أن يدرك أن اللفظة ومعناها ليست الطريق للتعريف بروح العربية ولا تكشف عن سرها وانما ذلك يأتى من (تخير ما وقع فى عبارات المبدعين وانطوى تحت

(1) انظر معجم الادباء 19 : 126 ، وفيات الاعيان 2 : 81

(2) مقدمة أساس البلاغة ص د ط دار الكتب

استعمالات المفلقين أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن ....) فعمل كتابه وسماه أساس البلاغة يتجاوز به هدف أصحاب المعاجم الذين اقتصروا على التعريف بالعربية فى نطاق مفرداتها .

وكما اختلفت وجهة التأليف اختلفت أيضا طريقة الترتيب ورأيناه يسلسل للكلمات بحسب أوائلها .

وكانت طريقته فى تصنيفه أن يضع أمام القارىء استعمال الكلمة فى أساليب متعددة مما تحدثت به العرب (مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية الى مراشد حر المنطق) وكان مما يهدف اليه تأسيس قوانين فصل الخطاب ، والكلام الفصيح بافراد المجاز عن الحقيقة والكتابة عن التصريح (1) .

وقد أتاح بطريقته هذه والاستكثار من استعمال الكلمة أن يدرك القارىء مفاهيمها ، ومجاز القول فيها ، ونسوق فيما يلى نموذجا من هذا الكتاب .

استفتح كتابه بباب الهمزة ـ وبدأ بالهمزة مع الباء فقال :

أ ب ـ

اطلب الأمر فى ابانه ، وخذه بربانه أى أوله وأنشد ابن الأعرابى :

قد هزمتنى قبل ابان الهرم
وهى اذا قلت كلى ، قالت نعم
صحيحة المعدة من كل سقم
لو أكلت فيلين لم تخش البشم

(1) مقدمة اساس البلاغة

وأب للمسير اذا تهيأ له وتجهز ، قال الأعشى :

صرمت ولـم أصرمكم وكصارم
أخ قد طوى كشحا وأب ليذهبا

وتقول : فلان راع له الحب ، وطاع له الأب أى زكا زرعـه واتسع مرعـاه •

ـ أبـد

لا أفعله أبد الآباد ، وأبد الأبيد ، وأبد الآبدين • وتقول رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد ، وأبـدّت الـدواب وتأبّدت : توحشت • وهى أوابد ومتأبدات ـ وفرس قيد الأوابد وهـى نفر الوحوش ـ وقد تأبد المنزل سكنته الأوابد ، وتأبد فلان توحش ، وطيـور أوابـد خلاف القواطع •

ومن المجاز فلان مولع بأوابد الكلام وهى غرائبه ؛ وبأوابـد الشعر وهى التى لا تشاكل جودة ـ قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكـم
وأوابـدى بتنحـل الاشـعار

وقال النابغـة :

نبئت زرعـة والسفاهة كاسمها
يهـدى الـىّ أوابـد الأشعار

وجئنا بآبـدة مـا نعرفهـا •

ولعلك لاحظت أن الزمخشرى قد أطلق اسم الشىء ، وصفته عليـه نفسه كأسلوب مجاز ، من جواز الاستعمال كما رأيناه فى المـادة السابقة يعنى بأوابد الشعر غريبه بينما المعنى الحقيقى لكلمة الأبد هى الدهر (1) •

(1) سميت الوحوش أيضا اوابد ، وأبِد ـ للذكـر آبـد وللانثى آبدة . سميت بذلك لبقائها على الابد اللسان 12 : 68 ط دار صادر ببيروت

الصغانى 577 - 651 هـ

هو رضى الدين ، أبو الفضائل ، الحسن بن الحسن بن حيدر العامرى الصغانى ، ولد فى لاهور بالهند سنة سبع وسبعين وخمسمائة ونشأ بها ، ودخل بغداد سنة خمس عشرة وستمائة ، شارك فى علوم الحديث والفقه على المذهب الحنفى ، كما كان اماما فى اللغة والنحو (1) .

ونحن اذ نعرف به على أنه مؤلف كتاب العباب نذكر أنه كان ممن علق على كتاب الصحاح للجوهرى ، وألف فى ذلك كتاب التكملة والذيل والصلة ، ومن كتبه التى ذكرها من ترجم له :

كتاب الشوارد فى اللغة ــ توشيح الدريدية ــ كتاب التركيب والأضداد ــ كتاب الأثر ــ كتاب العروض ــ كتاب أسماء الذئب ــ كتاب فى علم الحديث ــ كتاب فى شرح البخارى ــ كتاب در السحابة فى معرفة طبقات الصحابة ــ كتاب الفرائض ــ شرح أبيات المفصل ــ كتاب فى المناسك .

ذكره الحافظ الدمياطى بقوله : كان الصغانى شيخا صالحا صدوقا صموتا .... اماما فى اللغة والفقه والحديث (٢) توفى ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان سنة خمسين وستمائة ، ودفن بداره فى الحرم الطاهر ثم نقل الى مكة ودفن بها وكان أوصى بذلك وجعل لمن يحمله ويدفنه بمكة خمسين دينارا (2) .

التعريف بالعباب

ليس فى دار الكتب الا الجزء الأول منه تحت رقم **141** لغة ، وعلمت

---

(1) فوات الوفيات 1 : 170

(2) الجاسوس 78

وأنا فى زيارة لمجمع اللغة العربية أنهم عثروا على الجزء الرابع ويبدو انه ليس من نسخة الجزء الأول ، وان سعيا يبذل للحصول على المعجم لتحقيقه والتعريف به ، وأعتقد أن الطريق سيكون ميسورا ان شاء الله فقد كانت هناك نسخة للعباب أشار اليها ابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة فى سياق ترجمته لابن مكتوم (1) .

وقال محمد صديق خان فى كتاب البلغة فى أصول اللغة « .. العباب الزاخر واللباب الفاخر فى اللغة فى عشرين مجلدا ... وترتيبه كصحاح الجوهرى وقد جمع تاج الدين بن مكتوم بينه وبين المحكم » (2) .

ورأى الشدياق ١٨٨٧ م نسختين من العباب احداهما فى خزانة كتب أيا صوفيا، والثانية فى خزانة كتب المرحوم محمد باشا الكوبريلى (3) ولا أدرى ما صحة هذا مع ما يقوله الشدياق ، وغير الشدياق (4) أن هذا الكتاب لم يتم فان المنية اخترمت مؤلفه عند تحريره مادة ب ك م فقال فيه بعض الأدباء .

ان الصغانى الذى
حاز العلوم والحكم
كان قصارى أمره
أن انتهى الى بكم

الا أن تكون هذه النسخ ــ على هذا الحد من التأليف وتنتهى عند حرف الميم .

---

(1) الدرر الكامنة 1 : 174
(2) البلغة فى أصول اللغة ط الجوائب سنة 1296 هـ ص 136
(3) الجاسوس على القاموس 74
(4) المزهر 1 : 100 ط الحلبى

منهجه في العباب

تمرس الصغانى فى الدراسات اللغوية ، وفى الناحية المعجمية بخاصة فكانت له قبل العباب دراسات على صحاح الجوهرى كان من نتائجها كتاب التكملة والذيل والصلة ، وكتاب مجمع البحرين ، ويبدو أنه حاول فى هذا الكتاب الأخير « العباب » أن يجمع ما تفرق فى المعاجم الأخرى فقال : « هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق فى كتب اللغة المشهورة ، والتصانيف المعتبرة المذكورة ، وما بلغنى مما جمعه علماء هذا الشأن والقدماء الذين شافهوا العرب العرباء ، وساكنوها فى داراتها وسايروها ى نقلها من مورد الى مورد ، ومن منهل الى منهل ومن منتجع الى منتجع، ومن بعدهم ممن أدرك زمانهم ولحق أوانهم آتيا على عامة ما نطقت به العرب خلا ما ذهب منها بذهاب أهلها من المستعمل الحاضر والشارد والنادر مستشهدا على صحة ذلك بآى من الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبغرائب أحاديث من هو بمعزل من خطل القول وخلفه ، فكلامه هو الحجة القاطعة والبينة الساطعة ، وبغرائب أحاديث صحابته الأخيار وتابعيهم الأحبار ، وبكلام من له ذكر فى حديث أو قصة فى خبر وهو عويص — وبالفصيح من الأشعار والسائر من الأمثال .

والصغانى اذ يحتج بالأحاديث فانه يعمد الى ضبطها والتأنى لها ويقول « وقد سردت الأحاديث الغريبة المعانى المشكلة الألفاظ تامة مستوفاة ، فان كان فى حديث عدة ألفاظ أتيت به تاما وفصلت كل لفظة منها فى بابها وتركيبها ، وذكرت أن تمام الحديث مذكور فى تركيب كذا ليعلم سياق الحديث ويؤمن التكرار والاعادة » ويعلل لمسلكه هذا بقوله : « انى رأيت فى ما جمع من قبلى .... غير مبينى النبوى من الصحابى . والصحابى من التابعى ، وربما أطلقوا لفظ الحديث على المثل ولفظ المثل

على الحديث » ويسلك هذا المسلك فى الشعر أيضا حين يأتى « بالأشعار على الصحة غير مختلة ولا مغيّرة ، ولا مداخلة .... غير مقلد أحـدا من أرباب التصانيف وأصحاب التآليف ولكن مراجعا دواوينهم معتاما أصـح الروايات مختارا أقوال المتقنين الثقاة » .

ثم يقول فى صفة كتابه « .... أؤلف كتابا فى صفة العرب يكـون ان شاء الله تعالى .... جامعـا شتاتها وشاردها حاويـا مشاهير لغاتهـا وأوابدها يشتمل على أدانى التراكيب وأقاصيها ، ولا يغادر منها ـ سوى المهملة ـ ، صغيرة ولا كبيرة الا وهو يحصيها ... »

ومما جاء فى تقريظ هذا الكتاب قول السيوطى (وأعظم كتاب ألف فى اللغة بعد عصر الصحاح « كتاب المحكم والمحيط الأعظم لأبـى الحسن على بن سيده الاندلسى الضرير ثـم كتاب العباب للرضى الصغانى) (1) وقال صاحب الجاسوس : (الصغانى أدخل فى العباب أشياء كثيرة ليست من اللغة فى شىء) (2) ولم أفهم حقيقة ما يريده الشدياق .

نموذج من العباب

باب الهمزة فصل الهمزة

أجأ ـ ابن الأعرابى

وأجأ أحد جبلى طيىء ، والآخر سلمى ، وأجأ مؤنث ، قال ذلك ابن الأنبارى فى كتاب المذكر والمؤنث من تأليفه وأنشد لامرىء القيس :

أبت أجأ أن تسلم العام جارهـا

فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

---

(1) المزهر 1 : 100 ط الحلبى سنة 1958

(2) الجاسوس 521

وانما صرفها لضرورة الشعر ، ومن العرب من لا يهمزها ، فحينئذ موضع ذكرها من الحروف اللينة •

وقال ابن الكلبى : أجأ لبنى نبهان خاصة ، وسلمى لسائر طيىء ، وتزعم العرب ان أجأ فى الأصل كان اسم رجل ، وكان عاشقا سلمى، وكانت العوجاء وهى امرأة أخرى تجمع بينهما ، — وأنهم أخذوا فصلبوا على هذه الأجبل ،يعنى أجأ ، وسلمى والعوجاء ، فسميت الأجبل بأسمائهم

وقال محمد بن حبيب : أجأ هو ابن عبد الجن ، عشيق سلمى بنت حام بن حمى من بنى عمليق بن حام ، وهى أولى امرأة سميت سلمى فهرب بها أجأ ، فاتبعها اخوتها منهم الغميم ، وفدك ، وفائد ••••••• فأدركوهم بالجبلين ، فأخذوا سلمى ففقأوا عينيها ووضعوها على أحد الجبلين فسمى سلمى ، وكتفوا أجأ ، ووضعوه على الجبل الأحمر فسمى أجأ (1)

وأنت ترى أنه يستعين على مادته بما أثر عن العرب من أساطير ، وينتهى الجزء الأول عند (عجرد) ويقع فى ٢٤٧ صفحة ، والصفحات مرقمة بالقلم الرصاص •

---

(1) الجزء الاول من العباب ص 10 مخطوط رقم 141 لغة ، دار الكتب

ابن منظور 630 - 711
ولسان العرب

ابن منظور ، هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن أحمد الانصاري ولد فـي تونس ، وكان يميل الـى قراءة كتب الأدب ، فاستوعب أكثرها ، وحاول اختصارهـا ، وخاصة المطول منها كالأغانـي والعقد والذخيرة وتاريخ دمشق ونشوار المحاضرة ومفردات ابن البيطار ـ ويقول الصفدى : لا أعـرف فـي الأدب وغيره كتابا مطـولا الا وقـد اختصره (1) لذلك تضخم كتاب لسان العرب لـما دخله مـن الاستطراد والشواهد والاستعانة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية مـما استوعبه من هذه المطولات

ويقول ابن حجر : (جمع فى اللغة كتابا اسماهلسان العرب ، جمع فيـه بين التهـذيب والمحكم والصحـاح والجمهـرة (2) والنهاية ، وحاشيـة الصحاح ، جوده مـا شاء ورتبـه ترتيب الصحاح (3) ويقـول الشدياق

(1) الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة 4 : 263 ط الهند سنة 1350 هـ

(2) يقول احمد زكى باشا ان الجمهرة ليست مما جمعه

(3) مقدمة اللسان ط دار صادر

معلقا على تضخم اللسان « انـه كتاب لغـة وفقه ونحـو وصرف وشرح للحديث وتفسير للقرآن (1) .

وترتب على هذا أن نقل صاحب اللسان بعض مـا عيب بـه أصحاب المعاجم الأخرى ، واذا كان من عيوب الجوهرى مثلا أن يستشهـد فـى الصحاح باسحق بن ابراهيم الموصلى فان ابن منظور قد تابعه فى هذا (2) وكذلك استشهد بأبى تمام (3) .

ولسان العرب ، موسوعة لما حوته المعاجم السابقة ، بلـغ فـى طبعة بولاق سنة **1307** هـ عشرين مجلدا ضخما ، وأعيـد طبعـه فى بيروت فى مطبعة دار صادر سنة **1955** م فى خمسة وستين جزءا

وعلى رأس المعاجم التى اعتمد عليها ابن منظور محكم ابـن سيده ، وقد أشار الاستاذ محمد على النجار حين حقق الخصائص لابن جنى وقدم لها ، أن ابن سيده انتفع بكتاب الخصائص فنقل منـه دون أن يشير الـى ابن جنى. فنقل ابن منظور عن المحكم ونسب ما نقله الى ابن سيده (4) . ومن تلك المعاجم التى اعتمد عليها : تهذيب الأزهرى ، ويرى ابن منظور أن التهذيب والمحكم من أمهات كتب اللغة ، وما عداهما بالنسبة اليهما ثنيات للطريق .

وامتدح الجوهرى وجهوده فى كتابه الصحاح الا من سقطات يذكر بسببها فضل ابن برى فى شرحه عليه حيث « تتبع ما فيه ، وأملـى عليـه أماليه مخرجا لسقطاته مؤرخا لغلطاته » (5) .

---

(1) الجاسوس على القاموس 79
(2) اللسان 1 : 59
(3) اللسان 22 : 178 ط دار صادر
(4) انظر مقدمة محقق الخصائص ص 29 ط دار الكتب
(5) مقدمة اللسان ص 7 ط دار صادر

ورتب ابن منظور معجمه لسان العرب على طريقة الصحاح حسب أواخر الكلمات وأشار الى الاستطرادات التى ضمها كتابه من جليل الأخبار وجميل الآثار والكلام على معجزات الذكر الحكيم مما أفاده من أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى بعد أن وضعها فى اماكنها الحقيقية من لسان العرب •

وهو اذ يعتمد اعتمادا كبيرا على الأزهرى ، وابن سيده ، ويرى انهما لم يتركا مقالا « ولم يخليا لأحد مجالا ، وأنهما عينا فى كتابهما عمن رويا وبرهنا عما حويا ، ونشرا فى خطيهما ما طويا ، وأنهما جمعا فأوعيا وأتيا بالمقاصد ووفيا » لهذا فانه يتحلل أو يعتذر عن الوقوع فى الخطأ مكتفيا بمهمة النقل ولا يدعى فيه بدعوى يقولها كأن يقول (شافهت أو سمعت أو فعلت أو وضعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت) (1) •

وأشار صاحب اللسان بالاضافة الى التهذيب ، والمحكم ، والصحاح، الى كتاب الأمالى لابن برى ، والنهاية لابن الاثير الجزرى •

ويبدو أن صاحب اللسان لم يعتمد على كتاب العين فى نقوله اعتمادا مباشرا وانما عرفه عن طريق النقل والرواية عن الأزهرى فى التهذيب فيقول فى كثير من المواضع « حكاه الأزهرى عن الليث » ومعنى هذا أنه يشك فى نسبة العين للخليل ، أو اقتنع برأى الأزهرى فى ذلك •

وعقد ابن منظور قبل أن يبدأ فى معجمه فصلا فى تفسير حروف القرآن المقطعة ومقالا عن بعض خصائص العربية كما فعل أصحاب المعاجم من قبل ، وبابا عن طبائع الحروف تحدث فيها عن المجهور والمهموس الى

---

(1) مقدمة اللسان ص 8 ط دار صادر

غير ذلك • وبالجملة فلسان العرب كتاب أدب وحديث وفقه وتاريخ بالاضافة الى صفته الأصلية كمعجم جامع •

التصحيف في لسان العرب

ذكرنا ونحن نتحدث عن التصحيف والتحريف أن بعض الأخطاء الناشئة عنهما بقيت الى أيامنا هذه تمر أمام اللغويين فيتصيدها المحققون الذين يتناولون الكتاب على تؤدة وروية فيشيرون الى وجه الصحة فيها ـ أو تظل صحيحة ـ حسب تعارف الناس عليها الى أن تبعث ومعها اسانيدها الصحيحة •

من المحققين الذين كشفوا عن بعض هذه التصحيفات الاستاذ المحقق احمد تيمور ووضع كتابا فيما لاحظه من أخطاء القاموس ، وآخر لأخطاء اللسان ؛ وبالرغم من أن القائمين على طبع اللسان أشاروا فى هوامشه التى أخطاء تداركوها فقد ظهرت الطبعة الثانية فى بيروت وبها أخطاء فى المؤاد والشواهد التى شوهها التحريف أيضا ، وأشار الاستاذ عبد الستار فراج الى بعض هذه الأخطاء التى عثر عليها فى سياق تحقيقه لكتاب المحكم ـ ونذكر فيما يلى مثالا منها ونحيل القارىء الى المصدر .

(باب الهمزة ـ ذكر اللسان ان من العرب من يحقق الهمزتين فيقرأ أأنذرتهم قرأ به عاصم ، وحمزة ، والكسائى ؛ وقرأ أبو عمرو : آأنذرتهم مطولة ••• وقرأ أبو عبد الله بن أبى اسحق آأنذرتهم بألف بين الهمزتين ، وذكر صاحب اللسان لأحمد بن يحيى قوله :

خرق اذا ما القوم أجروا فكاهة
تذكر آإياه يعنون أم قردا (1)

---

(1) اللسان 1 : 18 ط دار صادر سنة 1955

وصوابها حزْقٌ كما يقتضيها القياس ، وقد وردت على التصحيح الأخير فى مادة ح ز ق فى نفس المعجم ، وورد بها الشاهد السابق مضبوطا حزق ، وجاء فى تفسيره : (الحزق الضيق القدرة والرأى الشحيح ، فاذا كان قصيرا دميما فهو حزقة أيضا وهذا يتمشى مع سياق المعنى فى الشاهد)

هذا مثال من عديد الأمثلة التى أشار اليها الأستاذ عبد الستار فراج فى أكثر من بحث نشره فى مجلة مجمع اللغة العربية (1) .

---

(1) انظر العدد 12 : 171 - 13 : 177 - 15 : 58

الفيروزبادي 729 ـ 817 هـ
والقاموس المحيط

ولد أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزبادى الشيرازى فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة بكارزين من أعمال فارس ، وأتم حفظ القرآن بها ، ثم انتقل الى شيراز ، ثم طوف فى العراق ، والشام ، ومصر ، والحجاز ، وزار الهند واليمن .

سمع من محمد بن يوسف الزيدى المدنى ، وابن القيم ، وابن الخباز ، والصلاح الصفدى ، والبهاء بن عقيل ، والكمال الأسنوى ، وابن هشام

ومن أهم ما عنى به فى دراسته ، الحديث ، واجتهد فى علم اللغة الى أن (بهر وفاق من حضر ومن غبر) ويقول عن نفسه (وانى قد نبغت فى هذا الفن قديما وصبغت به أديما ولم أزل فى خدمته مستديما) (1) .

وتلمذ عليه السيد محمد مرتضى الزبيدى ، والحافظ بن حجر العسقلانى وقال : (اجتمعت بالمجد اللغوى فى زبيد وفى وادى الخصيب وناولنى جل القاموس وأذن لى وقرأت عليه من حديثه ، وكتب لى تقريظا على بعض تخاريجى) .

وألقى عصا التسيار فى زبيد باليمن ، فتولى القضاء عشرين سنة

---

(1) مقدمة القاموس المحيط ص ٣

وبالغ فى اكرامه سلطان اليمن الأشرف اسماعيل (1) • ومـن تصانيفه التى تزيد على أربعين مؤلفا : تسهيل الوصول الـى الأحاديث الزائـدة عـلى جامع الأصول ، والاصعاد الى رتبة الاجتهاد فى أربعـة أسفـار ، وشرح مطول على البخارى بلغ عشرين سفرا، وشوارق الأسرار فى شرح الأنوار، والروض المسلوف فيما له اسمان الى الوف ، وتحبير الموشين فيمـا يقال بالسين والشين ، والصلات والبشر فى الصلاة على خير البشر •

دوافع وضع القاموس

يعتقد الفيروزبادى بالعلاقة الواشجة بين اللغة والدين فقال يؤكد هذا الوجه (وان بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب ، وكان العمـل بموجبه لا يصح الا باحكام العلم بمقدمته ، وجب عـلى رؤام العلـم ، وطلاب الأثر أن يجعلوا عظـم اجتهادهم واعتمادهم وأن يصـرفوا جـل عنايتهم فى ارتيادهم الى علم اللغة والمعرفة بوجوهها) (2) •

فقاده هذا الغرض ـ بالاضافة الى تمرسه الواسـع باللغـة الى أن يقتنى كتابا « جامعا بسيطا ، ومصنفا على الفُصَح والشوارد محيطا » •

ويبدو أنه لم يقنع بكتاب الصحاح للجوهرى الذى كان من مميزاته الايجاز وكان هذا الكتاب دائرا فى أيدى الناس •••• فلما أعياه الطلاب شرع فى وضع كتاب أسماه اللامع المعلم العجاب الجامـع بـين المحكـم والعباب ـ يقصد محكم ابن سيده ، وعباب الصغانى ، وهما فى نظره من أمثل كتب اللغة ، أو كما يقول هو (هما غرتـا الكتب المصنفة فى هـذا الباب) ولكن الفيروزبادى لم يقتصر فى مراجعه على هذين الأصلين ، بل زاد عليهما من عنده ، ومن المراجع الأخرى ما جعل الكتاب يتضخم ويتعذر

(1) الجاسوس 72 نقلا عن شارح التاج
(2) مقدمة الفيروزبادى للقاموس المحيط 3

تناوله حتى لقد خسنه فى ستين سفرا .

كان هذا هو غرض الفيروزبادى أولا ، ولم يتضح الى أى حد سار فى منهجه هذا الواسع الا ما يشير اليه الشدياق من أنه أتم خمس مجلدات ، ولكن الفيروزبادى يشير فى باب الهاء أنه بين بعض ما أورده من هذا الباب فى كتابه اللامع (1) ويقول : « سئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام ، وعمل مفرغ فى قالب الايجازوالاحكام . مع التزام اتمام المعانى ، وابرام المبانى ، فصرفت صوب هذا القصد عنانى ، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد، مطروح الزوائد ، معربا عن الفصح والشوارد، وجعلت بتوفيق الله تعالى زفرا فى زفر . ولخصت كل ثلاثين سفرا فى سفر . وضمنته خلاصة ما فى العباب والمحكم . وأضفت اليه زيادات من الله تعالى بها وأنعم ، ورزقنيها عند غوصى عليها من بطون الكتب الفاخرة الدأماء الغطمطم ، وأسميته القاموس المحيط) (2) .

منهج الفيروزبادي

بينا فى دوافع وضعه لهذا الكتاب محاولته للوصول الى معجم يجمع محاسن السلف . ويكمل ما فاتهم ، وهو وان اعتمد على الصحاح والتهذيب والمحكم والنهاية وحواشى ابن برى والجمهرة ، فانه تناول بالنقد المر كتاب الصحاح الذى كان فى ذلك الوقت من المعاجم البارزة ، ويعتبر فى ذاته تطورا فى فن المعاجم ... وكان الناس بدورهم مقبلين على كتاب الصحاح — فهل كان الفيروزبادى يبتغى عمل شىء فذ أكبر من الصحاح ؟

انه يجيب على بعض ما يساورنا بأنه اختار الصحاح لحملته هذه مع

(1) الجاسوس على القاموس 101
(2) مقدمة الفيروزبادى للقاموس 3 و 4

اعترافه بما فى الكتب الأخرى من هنات ومآخذ ـ لان الصحاح اكثر تداولا ، وقال : (اختصصت كتاب الجوهرى من بين الكتب اللغوية مع ما فى غالبها من الأوهام الواضحة والأغلاط الفاضحة لتداوله واشتهاره بخصوصه ، واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه) (1) •

وهو لا يكاد ينصف الجوهرى الا على أساس تفوقه هو عليه ، ويقول فى هذا (ولما رأيت اقبال الناس على صحاح الجوهرى ، وهو جدير بذلك ، غير أنه فاته نصف اللغة أو اكثر (2) اما باهمال المادة ، أو بترك المعانى الغريبة النادة ، أردت أن يظهر للناظر بادىء بدء فضل كتابى هذا عليه فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه ـ وفى سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه اليه ، ولم اذكر ذلك اشاعة للمفاخر ، بل اذاعة لقول الشاعر: كم ترك الأول للآخر) (3) •

الاختصار

وعد الفيروزبادى فى منهجه أن يتوخى الاختصار ، وتقريب العبارة ، وايراد المعانى الكثيرة فى الألفاظ اليسيرة ، فاستعمل لذلك بعض الاصطلاحات ـ العين للموضع ـ والدال للبلد ـ والتاء المربوطة للقرية ـ والجيم للجمع ـ والميم للمعروف ، وفى سبيل الوفاء بوعده بالايجاز حذف الشواهد وأسماء اللغويين والنحاة (4) ولكن لا يجرى مع هذا ذكره لأعلام الفقهاء ، والمحدثين ، وأسماء الأدوية • يقول الشدياق « ومع

---

(1) المصدر السابق

(2) الذى حمله على هذا الادعاء انه قرا كتاب الصغانى « التكملة والذيل والصلة » وكان فى حجم الصحاح فظن انهما تقاسما المجد الادبى فى هذا اللون من التصنيف لان صاحب التكملة استدرك فى كتابه ما فات الصحاح ـ انظر 76 من الجاسوس

(3) مقدمة القاموس المحيط ص 3

(4) الجاسوس 80

بسط عبارة هذه الكتب التى تيسر لى مطالعتها لم أجد فيها ما وجدت فى القاموس من وصف الأدوية والعقاقير وأسماء المحدثين والفقهاء ، ويقارن بين هذا الاتساع الذى لا محل له وبين ما حذفه من الصحاح فيقول : ان أول ما يقع عليه نظر الناظر الى الصحاح الأبيات التى استشهد بها فيحكم بأن مؤلفه لغوى أديب ، فاذا وقع نظره على المواد المكتوبة فى القاموس بالحمرة حكم بأن مؤلفه طبيب وذلك نحو قوله : الأشبح ، والبرنج ، والبسفانج ، والبابونج ، والبهرامج ، والجسبيرج ، والجوزاهنج ، والاسفيداج ، والشفانج ، والشهدانج) (1) •

والفيروزبادى يختم مقدمته ــ وهى غالبا ما تكتب فى آخر الكتاب ــ فى تواضع ويعترف فيها بهفوات الانسان ، ويقول ضارعا الى من ينظر الى عمله أن يستر عثاره وزلله . ويسد بسداد فضله خلله ويصلح ما طغى به القلم ، وزاغ عنه البصر ، وقصر عنه الفهم ، وعقل عنه الخاطر . والانسان محل النسيان (2) •

دراسات حول القاموس

ونشطت الدراسات حول القاموس على غرار الدراسات التى عقدت حول الصحاح فاكتفى بعض العلماء بشرح مقدمة القاموس كمحمد بن يحيى القرافى المصرى ١٠٠٨ هـ فى كتابه : القول المأنوس بشرح مغلق القاموس (3) والمناوى ١٠٣١ هـ فى شرح خطبة القاموس (4) •

ومن العلماء من علق عليه ونقده ، ومن عقد مقارنة بين القاموس

---

(1) الجاسوس 108
(2) مقدمة القاموس المحيط 7
(3) مخطوطة بدار الكتب برقم 11 لغة
(4) مخطوط بدار الكتب برقم 6

والصحاح ــ فقد عمل القرافى كتابا أسماه (بهجة النفوس فى المحاكمة بين الصحاح والقاموس) وكتب القاضى ادريس بن محمد ١٠٣٧ هـ كتابه مرج البحرين ، وعمل عبد الله بن محمد الفاسى ١١٧٠ هـ كتابه « اضاءة الراموس وافاضة الناموس على أضاة القاموس وعمل الشدياق كتاب الجاسوس ، وذكر الزبيدى لفيفا من العلماء شاركوا فى دراسات مختلفة حول القاموس سنشير اليهم فى حديثنا عن التاج •

احمد فارس الشدياق وكتاب الجاسوس

تناول الشدياق كتاب القاموس وصاحبه بالنقد الشديد . وكما قال الفيروزبادى انه تناول كتاب الصحاح لتداوله بين الناس ؛ كانت هذه أيضا حجة الشدياق فقال : (لما رأيت فى تعاريف القاموس للامام القاضى مجد الدين الفيروزبادى قصورا وابهاما . وايجازا وايهاما ، وترتيب الأفعال ومشتقاتها فيه محوج الى تعب فى المراجعة ؛ ونصب فى المطالعة والناس راوون منه وراضون عنه ؛ أحببت أن أبين فى هذا الكتاب من الأسباب ما يحض أهل العربية فى عصرنا هذا على تأليف كتاب فى اللغة ؛ واضح التعاريف شاملا للألفاظ التى استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف سهل المجتنى ، دانى الفوائد ، بين العبارة ؛ وافى المقاصد) (1) •

وعقد أربعة وعشرين نقدا لكتاب القاموس المحيط بعد مقدمة طويلة بلغت تسعين صحيفة ؛ تكلم فيها عن فروع شتى من المعارف اللغوية ؛ وتناول أكثر المعاجم بالاشارة وترجم لأصحابها كما ترجم لبعض اللغويين •

وكان النقد الأول لمقدمة القاموس ، فأورد المتن وشرحه ، وعلق عليه ، وانتصر للجوهرى ، وفند حملة الفيروزبادى عليه ، كقول صاحب

---

(1) مقدمة الجاسوس

القاموس ان الجوهرى فاته نصف اللغة أو ثلثاهـا ــ قال الشدياق (ان الجوهرى لم يقصد الجمع والاحاطة وانما التزم الصحة وجعلها شرطا فيما أورده وأراده ــ على أن لصاحب الصحاح أن يدعى أحسنية كتابه وتفوقه على القاموس لأن جمع ما صح وان قل أحسن من مطلق الجمع) (1) .

ويعزو الشدياق بعض الهنات والمآخذ فى القاموس الى اشتغال الفيروزبادى بالتأليف فى أكثر من موضوع واحد فى وقت واحد ، وقال انه كثيرا ما يكرر اللفظة فى مادتها ، أو يحيل ذكرها الى موضع ولا يذكرها فيه حتى انه ربما أثبت شيئا فى مادة ثم أنكره (2) .

تصحيح القاموس المحيط

وعلى ذكر الأخطاء فقد عدها على الفيروزبادى الاستاذ المحقق أحمد تيمور فى كتاب سماه « تصحيح القاموس المحيط » قال فى مقدمته :

« أما بعد فهذه تنبيهات على ما وقع من الأغلاط فى نسخة القاموس المحيط ...... وقد كنا قيدنا ما استطعنا تحقيقه من تلك الأغلاط بحواشى نسختنا أثناء المراجعة ؛ ثم رأينا تجريد ما قيدناه وجمعه فى هذه الرسالة رجاء تعيين نفعه ، ورتبناه ترتيب الكتاب تسهيلا للرجوع الى مواضعه فيه بعد أن أضفنا اليه ثلاثة أغلاط رأينا التنبيه عليها فى مجلتى الضياء ، ولغة العرب ستأتى فى مادة خ س س ، تين ، نسو ، معزوة الى محققيها ــ ورأينا كلاما عن غلط آخر فى مادة ح ج ل ذكره المفتى محمد سعد الله فى القول المأنوس فى صفات القاموس ظهر لنا أنه لم يصب فيه فأثرنا ايراده للتنبيه

(1) الجاسوس 105
(2) الجاسوس 73

عليه ـ ثم ذكر النسخ التى كانت فى عهده مخطوطة ومطبوعة (1) .

تقريظ القاموس

أما الزبيدى ، صاحب التاج ـ فقد وضع القاموس فى مرتبة عالية ، وقال فيه وفى صاحبه (... وكان فيها ـ يقصد العربية ـ كتاب القاموس المحيط للامام مجد الدين الشيرازى أجل ما ألف فى الفن لاشتماله على كل مستحسن من قصارى فصاحة العرب العرباء وبيضة منطقها ، وزبدة حوارها ، والركن البديع الى ذرابة اللسان وغرابة اللسن ، حيث أوجز لفظه وأشبع معناه وقصر عبارته وأطال مغزاه ، لوّح فأغرق فى التصريح وكنّى فأغنى عن الأفصاح ... ولعمرى هذا الكتاب .... قد اخترق الآفاق مشرقا ومغربا وتدارك سيره فى البلاد مصعدا ومصوبا ... وجلت منته عن أهل الفطن ... (2)

---

(1) مقدمة تصحيح القاموس المحيط

(2) مقدمة الزبيدى ص 4

الزبيدي 1145 - 1205 هـ
وتاج العروس

الزبيدى ، ابو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بالسيد مرتضى الحسينى . ولد فى قرية هندية تسمى بلكرام ، ارتحل فـى طلب العلم فذهب الى مكة ، والتقى بالسيد عبد الرحمن العيدروس وقرأ عليـه مختصر السعد ولازمه مدة ، أجازه بعدها بمروياته .

ثم زار مصر سنة ١١٦٧ هـ وجلس لألقـاء درس الحديث ، وكـان موضع ثقة شيخ العرب همام ـــ واعتنى به اسماعيل كتخدا ، وشرع فـى شرح القاموس حتى أتمه فى عدة سنين وسماه : تاج العروس ، وهو الذى سنعرف به الآن ـــ وله غير ذلك اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احيـاء علوم الدين ، وبلغة الغريب فى مصطلح آثار الحبيب ، وتلبية العارف البصير على اسرار الحزب الكبير ، وعقد الجواهر المنيفة فى ادلة مذهب الامـام أبى حنيفة ، ونشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح .

تـاج العروس

كما رأينا القاموس المحيط يقوم على سبب أو أكثر يتصـل بصحاح الجوهرى ؛ فلقد قام تاج العروس كحلقة من الدراسات التى قامت حـول القاموس ـــ لاحظ الزبيدى اتساع الدراسات حـول الصحاح ، واختلاف وجهات النظر فيها وتنوعها ، وأنها شملت المقدمة ، وشرح المتن ، والنقد ؛ والمقارنة بينه وبين القاموس فأراد الزبيدى أن يفيد من كل هذا ، فوضـع

كتابه ، وسماه تاج العروس من جواهر القاموس مع فارق واضح هـو أن الفيروزبادى عمل كتابه بعد أن انتقص مـن أمـر الجوهرى . والزبيدى يكمل القاموس ويذكر شروحه مع الاشادة به وبصاحبه ويقول :

(.... وأنا ... لا أدعى فيـه دعوى فأقول شافهت ، أو سمعت . أو رحلت ، أو أخطأ فلان أو أصاب أو غلط القائل فى الخطاب ، فكل هذه دعاوى لم يترك فيها شيخنا لقائل مقالا .... ويتحدث فى تواضع فيقول : « وليس لى فى هذا الشرح فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بها سوى اننى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب من منطوق ومفهوم ... » (1)

وكان من الدوافع أيضا ــ اعتقاده بأن العربية أصـل لكل العلوم ، وقديما ربط العلماء بين اللغة والدين ، وأبرز معظم أصحاب المعاجم هـذه الناحية فى كثير من التقديس كما أشرنـا ، وقال الزبيدى (فتدبرت فنون العلم التى أنـا كائن بصدد تكميلها ، وقائم بازاء خدمتهـا ، وتحصيلها ، فصادفت أصلها الأعظم الذى هو اللغة العربية .... ، ويقول اننى لم أقصد سوى هذه اللغة الشريفة اذ عليهـا مدار أحكـام الكتاب العزيـز والسنة النبوية ...) (2) .

وكان ايجاز القاموس مما دفع الكثير من العلماء (3) الى المشاركة فى

---

(1) مقدمة التاج ص 5

(2) مقدمة التاج

(3) ذكر الزبيدى كثيرا منهم ، وبين جهودهم فقال (فمنهم مـن اقتصر على شرح خطبته كالمحب بـن الشحنة ، والقاضى عيسى بـن عبد الرحيم الكجراتى ، وميرزا على الشيرازى ــ ومنهم مـن تقيد بسائر الكتاب كعلى بن غانم المقدسى ، وسعدى افندى والشيـخ محمد عبد الرؤوف المناوى وسماه القول المأنوس وصل فيه الـى حرف السين (ولم يعثر عليه الزبيدى) وعبد الله بن الامام شرف

←

كشف غموضه وجاء دور الزبيدى الذى رأى أن يدلى برأيه فقال (.. فلما انست من تناهى فاقة الأفاضل الى استكشاف غوامضه والغوص على مشكلاته .... قرعت ظنبوب اجتهادي واستسعيت يعبوب اعتنائى فى وضع شرح عليه ممزوج العبارة ـ جامع لمواده ـ بالتصريح فى بعض ، وفى البعض بالاشارة ، واف ببيان ما اختلف من نسخه ـ والتصويب لما صح منها من صحيح الأصول حاو لذكر نكته ونوادره ، والكشف عن معانيه والانباه عن مضاربه ومآخذه بصريح النقول والتقاط أبيات الشواهد له مستمدا ذلك من الكتب التى يسر الله تعالى بفضله وقوفى عليها ، ونقلت بالمباشرة لا بالوساطة عنها (1) ثم ذكر بعض هذه الكتب وقد بلغت أكثر من مائة كتاب .

وقد حدد الزبيدى فى مقدمته هذه منهجه فى كتاب التاج الذى تتلخص نقاطه الهامة فى :

←

الدين وسماه : كسر الناموس والبدر محمد بن يحيى القرافى وسماه : بهجة النفوس فى المحاكمة بين الصحاح والقاموس ـ والامام ابى العباس احمد بن عبد العزيز (حدثه به بعض شيوخه) وشرح ابى عبد الله محمد بن الطيب الفاسى فى مجلدين ضخمين (اثنى عليهما الزبيدى) وذكر من الذين استدركوا على الكتاب عليا بن محمد الحسينى ، وعبد الله بن المهدى الحميرى اذ استدرك عليه وعلى الجوهرى فى مجلد ـ وملا على بن سلطان الهروى وسماه : الناموس . وللشيخ الامام ابى عبد الله محمد بن احمد المناوى عليه كتابة حسنة ، وكذا الشيخ ابن حجر المكى له فى التحفة مناقشات معه ، وللشهاب الخفاجى فى العناية محاورات ومطارحات ، وقال : بلغنى ان البرهان بن همام بن محمد الحلبى قد لخص القاموس ...)

(1) مقدمة التاج ص 3

اولا ــ محاولته الاختصار ما أمكنه ذلك على أن يبقى على جوهــر الكتاب ، وسيعمل فى سبيل ذلك الى التصريح ان اقتضى المقام أو التلميح ان رأى فيه الكفاية • وقال (ولم آل جهدا فى تحرى الاختصــار وسلوك سبيل التنقية والاختيار وتجريد الألفاظ من الفضلات التى يستغنى عنها)•

ثانيا ــ محاولته جمع نسخ المحيط المتعددة ، ومقابلة أصولها بعضها ببعض لينتقى أصحهــا •

ثالثا ــ اعادة الشواهد ــ فقد قامت خطــة صاحب القاموس عــلى حذفها توخيا لما وعد به مــن الاختصــار ــ ولاحــظ الزبيدى أن هــذا الاختصار يحتاج الى نوع مــن التكملة والتوضيح ، ورأى أن ينير بهــا بعض ما غمض من المحيط ــ فجمع الشواهد والادلــة وقارن بينهــا فيما تيسر له من كتب السابقين ، ووجدها أمثل طريقة لتنقيتها وتصويبها « لأن كل واحد من العلماء انفرد بقول رواه ، أو سماع أدّاه ، فصارت الفوائد فى كتبهم مفرقة (1) قال : فجمعت منها فى هذا الشرح ما تفرق وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق فانتظم شمل تلك الأصول والمواد كلها فى هــذا المجموع ، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك بمنزلة الفروع (2) •

أما الترتيب ــ فهو نفس ترتيب القاموس فبدأ بباب الهمزة . فصــل الهمزة ، ثم فصل الباء من باب الهمزة •••• الــى آخــر التقسيم ، وتميز بالأسهاب الكبير فى المقدمة التى قسمها الى عشرة مقاصد عالج فيها بعض الدراسات اللغوية كالكلام عن اللغة هل هى توقيفية أو اصطلاحية ، وعن العرب وتقسيمهم الى عاربة ومتعربة ومستعربة ، وأنسابهم ، الى غير ذلك.

(1) مقدمة تاج العروس 4
(2) مقدمة تاج العروس 5

ويبدو بوضوح اعتماده على السيوطى ، وخاصة ما جـاء فى المزهر ، فنقل عنه جـل هـذه الأبحـاث .

وفى آخر مقدمة الزبيدى بدأ فى شرح مقدمـة القاموس ، بعـد أن وضع المتن بين أقواس ، وتوسع فى الشرح وأورد كل مـا يتصل به مـن النحو والصرف وغير ذلك .

وكمااعتمد على السيوطى فى المقدمة فيما تضمنته من أبحاث لغويـة تلمح اعتماده فيما اتسع فيه من مواد المتن على شيخه ابن الطيب بالاضافة الى مراجعه الأخرى بالرغم من أن شيخه ابن الطيب كان قـد وضع حاشية على كتاب القاموس لم يكن هواه فيها مـع الفيروزبـادى ، فنقـل عنـه الزبيدى ولم يتأثر بحملة شيخه ابن الطيب عليه ، بل كان فى أكثر من مناسبة يثنى على شرح أبى عبد الله محمد بن الطيب الفاسى الذى يقع فى مجلدين ضخمين .

ونحسب على الزبيدى احدى الهنات ، وهو الذى اطلع على هـذه المراجع التى زادت على المائة من أمهات الكتب ، واستوعب أغلب مـا جاء فى المعاجم السابقة فالذى يتصدى لعمل مثل هـذه الموسوعة لا يجب أن يقف دوره عند النقل فقط ، فهذه الزيادات التى أضافها لم تكن استنتاجا ، ولا عن اعمال فكر ، ولا صدرت عن دراسة مقارنـة متأنيـة ، ولا اقتناع يؤازره السند اللغوى ، ولا دخل فى قضية عللها وانتصـر وباهى بنتيجتها ــ ولكنه اكتفى بالنقول ــ وآثر السلامة تحرجا فيمـا يبـدو من قولـه (.... فلم أبدل شيئا فيقال : فانما اثمه على الذين يبدلونه ــ بـل أديت الأمانة فى شرح العبارة بالنص ، وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص ... فليعد من ينقل من شرحى هذا عن تلك الأصول والفروع) (1) كأنه تأثـر

(1) مقدمة التاج ص 5

فى هـذا منهج السيوطى .

وتأسيسا على هذا ـ لا نستطيع أن نعفيه من المآخذ التى وقع فيها أسلافه ونقلها هو كما هى ، كهذا الاسراف الذى لوحظ على القاموس فى ايراده اسماء الأعشاب ، والأدوية ، وأسماء المحدثين والفقهاء بالرغم من ادعاء صاحبه الاختصار ، نجدها هنا أيضا ـ وليس لها محل حتى فى التوسع والتوضيح الذى أراده الزبيدى .

ومع هذا فهو معجم جامع لا يقلل من قيمته الكبرى مثل هذه الهنات .

مراجع البحث ومصادره

ابراز المعانى من حرز الأمانى — عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابرهيم بن عثمان الدمشقى المعروف بأبى شامة . ط. مصطفى البابى الحلبى سنة 1349 هـ رقم 9185 ج .

الابل — ابو سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعى : ضمن كتاب الكنز اللغوى ابتداء من صفحة 66 نشره وعلق عليه الدكتور اوجست هفنر المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت سنة 1903 م رقم 3524 ج .

اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الاربعة عشر — احمد بن محمد الدمياطى ط مصر سنة 1285 هـ . 699 ج :

الاتقان فى علوم القرآن — جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ط القاهرة سنة 1317 هـ 543 ب .

الاخبار الطوال — ابو حنيفة احمد بن داود الدينورى ط مصر 52204 .

أخبار النحويين البصريين	ابو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى . تحقيق طه محمد الزينى ، ومحمد عبد المنعم خفاجى ط الحلبى سنة 1374 هـ 1955 م 8800 د .
أساس البلاغة	ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ط دار الكتب سنة 1923 م 3868 ب .
أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الاثير ط جمعية المعارف 1286 هـ 120 ج .
الاشتقاق	أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ط جوتنجن سنة 1854 م رقم 3981 ج ، وحققه عبد السلام هارون . مؤسسة الخانجى سنة 1958 م رقم 56098 .
الاشتقاق والتعريب	عبد القادر بن مصطفى المغربى . لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1948 م 8988 د .
الاصابة فى تمييز الصحابة	شهاب الدين احمد بن على المشهور بابن حجر العسقلانى ط كلكتا سنة 1873 وط مصر سنة 1327 هـ رقم 885 ب .
اصلاح المنطق	ابو يوسف يعقوب بن السكيت شرحه الاستاذان احمد شاكر ، وعبد السلام هارون . دار المعارف 1949 م وسنة 1951 م رقم 11044 ج
الأضداد	مجموعة تضم كتاب الاضداد عن عبد الملك بن قريب الاصمعى وكتاب أبى حاتم السجستانى ، وثالث لابى يوسف يعقوب ابن السكيت ، ومذيل بكتاب فى الاضداد للحسن بن محمد الصفانى . نشرها الدكتور اوجست هفنر ط الآباء اليسوعيين بيروت سنة 1912 م 5505 ج

الأضداد في اللغة	محمد بن القاسم بن محمد (ابـن بشـار الانباري) ط مصر سنة 1325 هـ 3313 ب
اعـلام الموقعين	ابو عبد الله محمد بن ابى بكر المعروف بابن قيم الجوزية 1099 ب ــ 925 ب .
الأغانـي	ابو الفـرج الاصفهاني نسخة ط القاهـرة وفهرست 3860 ب واخرى ط دار الكتب 3746 ب .
الاغراب في جدل الاعراب	ابو البركات عبد الرحمن كمال الدين بـن محمد الانباري نشره سعيد الافغانـي ط الجامعة السورية سنة 1957 م .
الاقتراح في أصول النحو	جلال الدين عبـد الرحمن السيوطـي ط حيدر آباد سنة 1310 هـ. 3304 ج.
الاقتضاب	ابن السيد البطليوسـي ط بيروت سـنة 1901 م 8002 ج .
الألفـاظ	ابو يوسف يعقـوب بـن السكيت بشـرح التبريزي ط بيروت 1895 م 397 د .
الألفاظ الفارسية المعربة	آدى شير ط بيروت 1908 م 5125 ج .
الألفاظ المترادفة	ابو الحسـن عـلى بـن عيسى الرمانـي ط الموسوعات سنة 1331 هـ رقم 3653 ب.
امالي الزجاجي	ابو القاسم عبـد الـرحمن بـن اسـحق الزجاجـي ط السعـادة سـنة 1324 هـ 4937 ج .
امالي القالي	ابو على اسماعيل بن القاسم البغدادي ط دار الكتب سنة 1926 م 2094 ب .
أمالي المرتضى	ابو القاسم على بن الطاهـر المرتضـى ط السعادة 1907 م رقم 2471 ج .

الامتاع والمؤانسة — ابو حيـان التوحيدى ط لجنـة التأليف والترجمة والنشر سنوات 1939 و 1942 و 1944 / 7756 د / 8116 د/ 9871 ج .

الأمثال (جزء من الكتاب) — ابو عبيد القاسم بـن سلام ط جوتنجـن 1936 رقم 3617 د

الأمثـال — ابو فيـد مؤرج بـن عمـر السدوسى ط القاهرة 1391 حققه الدكتور رمضـان عبـد التواب .

أمثـال العرب — المفضل بن محمـد بـن يعلى الضبـى ط الجوائب 1300 هـ رقم 3298 ج .

انباه الرواة على انباه النحاة — جمال الدين ابو الحسن علـى بـن يوسف القفطى حققه محمد ابو الفضل ابرهيم ط دار الكتب طبع الجزء الاول سـنة 1950 والرابع سنة 1973 وارقامهـا بالترتيب : 11017 ج ـ 4074 ب ـ 63784 ـ 80961 .

الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين — ابو البركات عبد الـرحمن بـن الانبـارى بتحقيق محمد محيى الدين عبـد الحميد ط السعادة سنة 1955 50214 .

الأيام والليالى والشهور — ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء ـ مخطوط المجموعة 13 أدب ش دار الكتب بالقاهرة .

البحـر المحيط — ابو حيان محمد بـن يوسف الاندلسى ط القاهرة رقم 1949 ب و 1950 ب .

البخـلاء — ابو عثمان عمـرو بـن بحـر بـن محبوب الجاحظ ، حقق نصه وعلق عليـه الدكتور طه الحاجرى ط دار الكتاب المصرى سـنـة 1948 رقم 10239 ج .

البرهان فى علوم القرآن	محمد بن عبد الله الزركشى ط دار احياء الكتب العربية سنة 1957 رقم 54906 .
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة	عبد الرحمن السيوطى ط السعادة سنة 1326 هـ 2096 ب
البلـدان	احمد بن ابى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى ط بريل سنة 1890 م 5400 ج
البلغـة فى اللغـة	محمد صديق حسن ط الجوائب سنة 1296 هـ 167 ج .
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	محمود شكرى الالوسى ط الرحمانية 3142 هـ 1924 م . رقم 6641 ج .
البيان والتبيين	ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ط الاستقامة 1366 هـ 1947 م رقم 10955 ج وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧ هـ 1948 . هارون 10925 ج .
تاج العروس من جواهر القاموس	السيد محمد مرتضى الزبيدى ط الخيرية 1306 هـ . رقم 25 أ و 27 أ .
تاج اللغة وصحاح العربية	اسماعيل بن حماد الجوهرى 24 ب/ 250 ب/ 528
تاريخ آداب العرب	مصطفى صادق الرافعى ط الاخبار سنة 1329 هـ 911 / 5682 ج .
تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية	كارل نالينو ط دار المعارف سنة 1954 رقم 18466 د .
تاريخ آداب اللغة العربية	جورجى زيدان مطبعة الهلال 4378 ج .

تاريخ بغـــداد	احمــد بــن عــلى الخطيب البغــدادى ط السعادة سنة 1349 هـ 1931 م 8128 ج
تاريخ التشريع الاسلامى	محمد الخضرى ط مصــر ســنة 1970 م رقم 75259 .
تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)	محمد بن جريــر الطبرى ط دار المعــارف 1960 م / 50858 – 52204 .
تاريخ الفلسفة فى الاسلام	دى بور ترجمة ابو ريدة ط لجنة التاليف والترجمة والنشر 1938 م 9030 ج .
تأويل مشكل القرآن	عبد الله بن مسلم بن قتيبة شرحه وحققه السيد احمــد صقرط الحلبــى 1954 م 12548 ج .
تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الادب فى علم مجازات العــرب	يوسف الشنتمرى مــع كتاب سيبويه ط بولاق 571 ب .
تحبير الموشين فى التعبير بالسين والشين	محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزبادى ط الجزائر سنة 1327 هـ 4599 ج .
التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية	نخبة من المستشرقين ترجمه عبد الرحمن بدوى 9272 ج .
تصحيح القاموس المحيط	احمد تيمور المطبعة السلفية سنة 1343 هـ 1929 ب .
تصحيح لسان العرب	احمد تيمور المطبعــة السلفيــة 1334 هـ 1642 ب مكرر .
التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه	الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى ط القاهــرة 1326 هـ 1901 دار الكتــب 11522 – ز .

التطور النحوى للغة العربية	ج . برجستراسر ط القاهـــرة 1929 م 8276 ج .
تفسير الطبرى	انظر جامع البيان عن تأويل آى القرآن .
تفسير القرطبى	انظر الجامع لأحكام القرآن .
التقريب (فى اصول الحديث)	للنووى فى مقدمة البخارى ط مصر 1351 هـ — 1932 م 8940 ج .
التقريب لأصول التعريب	طاهر بن صالح الجزائرى ط السلفية سنة 1919 م 5143 ج .
التنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه	لأبى عبيد عبد الله بن عبـد العزيز البكرى دار الكتـب سـنة 1344 هـ — 1926 م مذيل للأمالى 2094 ب .
تنوير المقباس من تفسير ابن عباس	اعده محمد بـن يعقـوب بـن محمـد الفيروزبادى ط الحلبى سنة 1378 هـ — 1959 رقم 49349 .
تهذيب الصحاح	محمود بن احمـد الزنجانى بتحقيق عبـد السلام هارون واحمد عبد الغفور عطـار ط دار المعارف 1952 م 11844 ج .
تهذيب اللغـة	لأبى منصور محمد بن احمـد الازهرى ط القاهرة حققه نخبة من العلماء وطبع مـن سنة 1384 هـ — 1964 م الى سنة 1387 هـ 1967 م برقم 65165 و 68138 .
الجاسوس على القاموس	احمد فارس الشدياق ط الجوائب 1299 هـ 390 ب/ 621 ب/ 718 ب .
الجامع لأحكام القرآن	ابو عبد الله محمد بـن احمـد الانصارى القرطبى ط دار الكتـب مـن 1354 هـ — 1935 وما بعدها 2659 ب

جامع البيان عن تأويل آى القرآن	ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ط مصر 4206 ب وطبع اكثر من مرة وله ارقام مختلفة بمكتبة الاسكندرية .
جمهرة الامثال	ابو هلال العسكرى ط بمباى سنة 1307 هـ 1617 ب .
جمهرة أنساب العرب	على بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسى ط دار المعارف 1962 م / 54379 .
الجمهرة فى اللغة	ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد ط حيدر آباد سنة 1344 هـ 3800 ب .
حلية الاولياء وطبقات الاصفياء	لابى نعيم احمد بن عبد الله الاصفهانى ط السعادة 1351 هـ ـ 1932 م 10490 ج
الحيوان	ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، ط الحلبى 1947 م 6957 ج .
خزانة الادب ولب لباب لسان العرب	شرح على شواهد شرح الكافية للرضى تاليف عبد القادر بن عمر البغدادى ط السلفية 1347 هـ 11973 ج .
الخصائص	عثمان بن جنى بتحقيق محمد على النجار ط دار الكتب من سنة 1952 الى 1955 م ـ 55559 / 55560 / 55561 للاجزاء الثلاثة على التوالى .
خلق الانسان	عبد الملك بن قريب الاصمعى ، نشره اوجست هفنر ط اليسوعيين سنة 1903 م رقم 3524 ج .
الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة	احمد بن على بن حجر العسقلانى ط الهند سنة 1350 هـ رقم 3868 ج

ديوان المفضليات	للمفضل الضبى ــ بشرح محمد القاسم ابن محمد الانبارى عنى بطبعه كارلوس يعقوب لايل بيروت 1960 م / 3830 ب
ديوان الهذليين	رواية ابو سعيد السكرى طدار الكتب 1364 هـ ــ 1945 م/ 3757 ب
رسالة فى تعريب الالفاظ الفارسية	لابن كمال باشا غير مبين بها سنة ومكان الطبع ــ رقمها فى مكتبة الاسكندرية 4523 ج و 14181 د
رواية اللغة	دكتور عبد الحميد الشلقانى ط دار المعارف 1971 م/ 73050
ابو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة	دكتور احمد مكى الأنصارى ط القاهرة سنة 1964 م رقم 62036
زهر الآداب وثمر الالباب	ابراهيم بن على الحصرى القيروانى شرحها دكتور زكى مبارك ط القاهرة سنة 1344 هـ ــ 1925 م 6584 ج
السيرة	لابى محمد عبد الملك بن هشام ط القاهرة سنة 1356 هـ 1937 مرقم 8884 ج
شرح طيبة النشر	احمد بن محمد بن محمد الجزرى ط الحلبى 1370 هـ 1950 م/ 11882 د
الشعر والشعراء	لابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ط دار احياء الكتب العربية سنة 1364 هـ 12060 د
شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل	لشهاب الدين احمد الخفاجى مطبعة الاتحاد الأخوى بدون تاريخ رقم 12914 ج
الصاحبى	انظر فقه اللغة

صبح الأعشى	لأبـي العبـاس احمـد القلقشنـدى ط القاهرة 4342 ب
طبقات فحول الشعراء	محمد بن سلام الجمحـى شرحه محمـود شاكر ط دار المعارف 1952 م 11860 ج
طبقات القراء	لابن الجزرى . نشره برجستراسر ـ انظر غاية النهاية
الطبقات الكبرى	محمد بـن سعد الواقـدى ط دار صادر بيروت 1376 هـ 1957 م رقم 42954
طبقات النحويين واللغويين	ابو بكر محمـد بـن الحسن الزبيـدى ط السعـادة سنة 1373 هـ 1954 م رقـم 12539 ج
طيبـة النشر	لابن الجزرى ط مصر سنة 1308 هـ برقم 290 د و ط سنة 1950 / 11869 د
العباب الزاخر واللباب الفاخر	للحسن بن محمد بـن الحسن الصغانـى الجزء الأول من المخطوط رقم 141 لغـة دار الكتب بالقاهرة .
العربية : دراسة فى اللغة واللهجـات والاساليب	يوهان فك ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ط دار الكتـاب العربـى سنة 1370 هـ 1951 م 11177 ج
العقـد الفريـد	احمد بن محمد بن عبد ربه شرحه احمـد امين /احمد الزيـن /ابراهيم الابيارى ط لجنة التأليف والترجمـة والنشر سنـة 1359 هـ 1940 م رقم 3840 ب
العمدة فى صناعة الشعر ونقده	الحسن بن رشيق القيروانـى ط هنديـة سنة 1925 م رقم 7333 ج
العـين	جزء مطبوع في 144 صفحة اعده الكرملى ونشر الجزء الاول د عبد اللـه درويش ط العراق سنة 1967 م

عيون الاخبار	ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ط دار الكتب سنة 1343 هـ 1925 م 2901 ب
عيون الانباء فى طبقات الاطباء	ابو العباس احمد بن القاسم (ابن ابى اصيبعة) ط الوهبية سنة 1299 هـ 1883 م رقم 2928 ب
غاية النهاية فى طبقات القراء	محمد بن محمد الجزرى . نشره برجستراسر ط السعادة سنة 1932 م رقم 10481 ج و 10895 ج
الفاخر	ابو طالب المفضل بن سلمة ط الحلبى سنة 1960 م/ 54892 .
الفاضل	للمبرد ، حققه عبد العزيز الميمنى ط دار الكتب 375 ـ 21829 د
الفائق فى غريب الحديث	محمود بن عمر الزمخشرى دار احياء الكتب العربية 1364 هـ 1945 م 11055 ج
فتوح البلدان	احمد بن يحى بن جابر البلاذرى ط ليدن 1865 م/ 2315 ب و ط مصر سنة 1901 م رقم 1172 ج
فعلت وأفعلت	ابراهيم بن السرى الزجاج ط السعادة سنة 1325 هـ/ 6265 د
فعلت وأفعلت	لابى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى
الفهرست	ابو الفرج محمد بن اسحق النديم ط ليبزج سنة 1871 برقم 3022 ب وطبع مصر (الرحمانية) برقم 12781 ج
فوات الوفيات	محمد بن شاكر بن احمد ط القاهرة سنة 1283 هـ برقم 11289 ج

القاموس المحيط — للفيروزبادى ط القاهـرة سنة 1303 هـ 12368 ج

القلب والابدال — يعقوب بن السكيت ضمن كتـاب الكنـز اللغوى نشره اوجسـت هفنر طاليسوعيين سنة 1903 م رقم 3524 ج

قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث — صنفه ممد جمال الدين القاسمى . حققه محمد بهجة العطار .
دار احياء الكتاب العربى 1385 — 1961 رقم 54904 .

الكامل فى اللغة والادب — محمد بن يزيد المبرد ط الخيريـة سـنة 1308 هـ 12810 ج .

كتاب الصناعتين — ابو هـلال العسكرى ط دار احيـاء الكتب العربية بتحقيق على محمد البجاوى وابو الفضل ابرهيم 11657 ج .

كتاب القريبين — احمد بن محمد الهروى بتحقيـق محمود محمد الطناحى ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

الكتاب لسيبويه — ابو بشر عمرو بن قنبر ط بـولاق سـنة 1316 هـ رقم 571 ب وبيـروت رقـم 71966 ، وحققه عبد السلام هارون فـى طبعة ثالثة 75011 .

الكشاف عن حقائق وغوامض لتنزيل وعيون الاقاويل فـى زجـوه التأويل — محمود بن عمر الزمخشرى ط الاستقامـة سنة 1953 رقم 12448 ج .

لكفاية فى علم الرواية — للخطيب البغدادى احمد بن على ط حيدر آباد 1357 هـ/ 11214 ج .

لســـان العرب — محمد بن مكرم ط دار صادر بيروت سنة 1374 هـ 1955 م 4299 ب .

اللغات فى القرآن — اسماعيل بن عمر نشره صلاح الدين المنجد ط الرسالة 1365 ــ 1946 رقم 9990 د

اللـــب واللبـــأ — سعيد بن اوس نشره اوجست هفنـــر ط اليسوعيين سنة 1908 / 2627 ج .

لمـــع الأدلـــة — عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الانبارى ط الجامعة السورية 1957 م .

المأثـــور — ابو العميثل الاعرابى نشره الدكتور كرنكوى بيروت 1925 م 10478 د .

مبادىء اللغة — ابو عبد الله محمد بن عبد الله الاسكافـــى ط مصر 1325 هـ 2319 ج .

مجاز القرآن — ابو عبيدة معمر بن المثنـــى حققـــه دكتور محمـــد فؤاد سزكين ط الخانجـــى سنـــة 1374 ــ 1955 رقم 58025 .

مجالس ثعلب — احمد بن يحيى ثعلب بشرح عبـــد السلام هارون دار المعارف 1948 م 10410 ج.

مجلة لغـــة العرب — كان يصدرها الاب انستانس مارى الكرملى 5541 ج/ 5540 ج

مجلة المجمع العلمى بدمشق — بأرقام 1924 ب/ 2924 ب .

مجلة مجمع اللغة العربية — الاعداد 6/7/9/12/13/15 رقم 56358 وما بعدها .

مجمع الامثال — احمد بن محمد بن احمد الميدانى ط مصر 1374 ــ 1955 / 18145 د .

المجمـــل — احمد بن فارس ط السعادة سنة 1332 هـ 2905 د .

المحتسب — ابو الفتح عثمان بن جنى ط القاهرة 1386 هـ رقم 66395 / 72747 .

المحكم والمحيط الاعظم — على بن اسماعيل بن سيده ط الحلبى سنة 1958 م 45450 / 49515 .

مختار الصحاح — محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى ط الخيرية 1308 هـ 13174 د .

مختارات الاغانى فى الاخبار والتهانى — ابن منظور محمد بن المكرم سلسلة تراثنا ط الحلبى 1385 هـ / 1966 م 64023 وما بعدها .

مختصر جامع بيان العلم وفضله — يوسف بن عبد البر القرطبى ط مصر 1320 هـ 1609 ج .

المخصص — على بن اسماعيل بن سيده ط بولاق سنة 1316 هـ 2941 ب .

المخصص (دراسة ودليل) — محمد الطالبى المطبعة العصرية تونس رقم 48816 .

المزهر فى علوم اللغة — عبد الرحمن جلال الدين السيوطى ط الحلبى سنة 1958 م 55352 .

المصاحف — ابو بكر عبد الله بن ابى داود السجستانى رقم 6967 د .

المطر — ابو زيد سعيد بن اوس الانصارى رقم 4087 ج .

معانى الشعر — للأشناندانى ط دمشق سنة 1922 م 10205 د .

معانى القرآن — يحيى بن زياد الفراء ، حققه احمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار ط دار الكتب سنة 1374 هـ 1955 رقم 53227 .

معجم الادبـــاء	ياقوت بن عبد الله الحموى ط دار المامون رقم 2849 ب .
معجم البلدان	ياقوت بن عبد اللـــه الحموى ط السعادة 1906 م رقم 4163 ج .
المعجم فى بقية الاشياء	للحسن بن عبد الله بن سهل ابـو هـلال العسكرى . علق عليـه ابرهيـم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ط دار الكتب 1934 / 56126 .
المعـــرب	ابو منصور موهوب بن احمد الجواليقـى ط ليبزج 1897 م/ 4244 ج .
المعمرون من العرب	ابو حاتم السجستانى ط السعادة سـنة 1905 م/ 4652 د .
مفاتيـــح العلـــوم	ابو عبد الله محمد بن احمـد بـن يوسف الخوارزمـى ط الشـرق سـنة 1342 هـ 6608 ج .
المفردات فى غريب القرآن	الحسين بن محمـد المعروف بالراغب ط مصر 1971 م رقم 76796 .
المقـــاييس	احمد بن فارس بن زكريا دار احياء الكتب العربية 1366 هـ رقم 12008 ج .
مقدمتان فى علوم القرآن	مقدمة كتاب المبانى ، ومقدمة ابـن عطيـة نشرهما آرثر جفرى ط السنة المحمديـة 1954 م 12537 ج .
مقدمة ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون ط بولاق 1320 هـ / 812 د .
المـــلاحـــن	محمد بن الحسن بن دريد ط السلفية سنة 1347 هـ/ 5253 د .

الملـــل والنحــل	لأبى الفتح محمــد بــن عبــد الكريــم الشهرستانى على هامش الفصل فــى الملل والنحل لابن حزم رقم 3081 ب 3085 ب
نزهة الألبا فى طبقات الادبا	ابو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى ط حجر/ 2590 د .
النشر فى القراءات العشر	محمد بن محمد الدمشقى (ابن الجزرى) رقم 54563 .
نشوء اللغة العربية ونموها واكتهــالهـــا	الاب انستانس مارى الكرملى ط العصريــة بمصر سنة 1938 / 8888 ج .
نكت الهميان فى نكت العميان	صلاح الديــن ايبــك الصفــدى المطبعــة الجمالية سنة 1912 / 2977 ج .
النهاية فى غريب الحديث والأثــر	ابو السعادات المبارك الجزرى (ابن الاثير) المطبعة العثمانيــة ســنة 1311 هـ رقــم 4318 ب .
النوادر فى اللغــة	ابو زيد ســعيد بــن اوس الانصــارى ط اليسوعيين سنة 1894 م رقم 3180 د / 1936 ج/ 1821 ج .
النــوادر	ابو مسـحل الاعرابى حققــه الدكتور عــزه حسن ط مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1961 .
الوساطة بين المتنبى وخصومه	على بن عبد العزيز الجرجانى ــ دار احياء الكتــب العربيــــة 1364 هـ ــ 1945 م 9845 ج .
وفيــات الاعيــان	ابن خلكان ط دار المأمون برقم 9037 ج ، و ط اليمنية سنة 1310 هـ برقم 2404 ب

الفهارس العامة



أولاً - فهرس الاعلام ورجال السند

ب

خ

د

ذ

ر

ش

ص

غ

ف

ق



ثانياً - فهرس القبائل والشعوب والجماعات

ثالثاً ـ فهرس البلدان والأماكن

رابعاً ـ فهرس الموضوعات

الباب الثانى : الحديث ، كمصدر من مصادر اللغة

الباب الثالث : الشعر



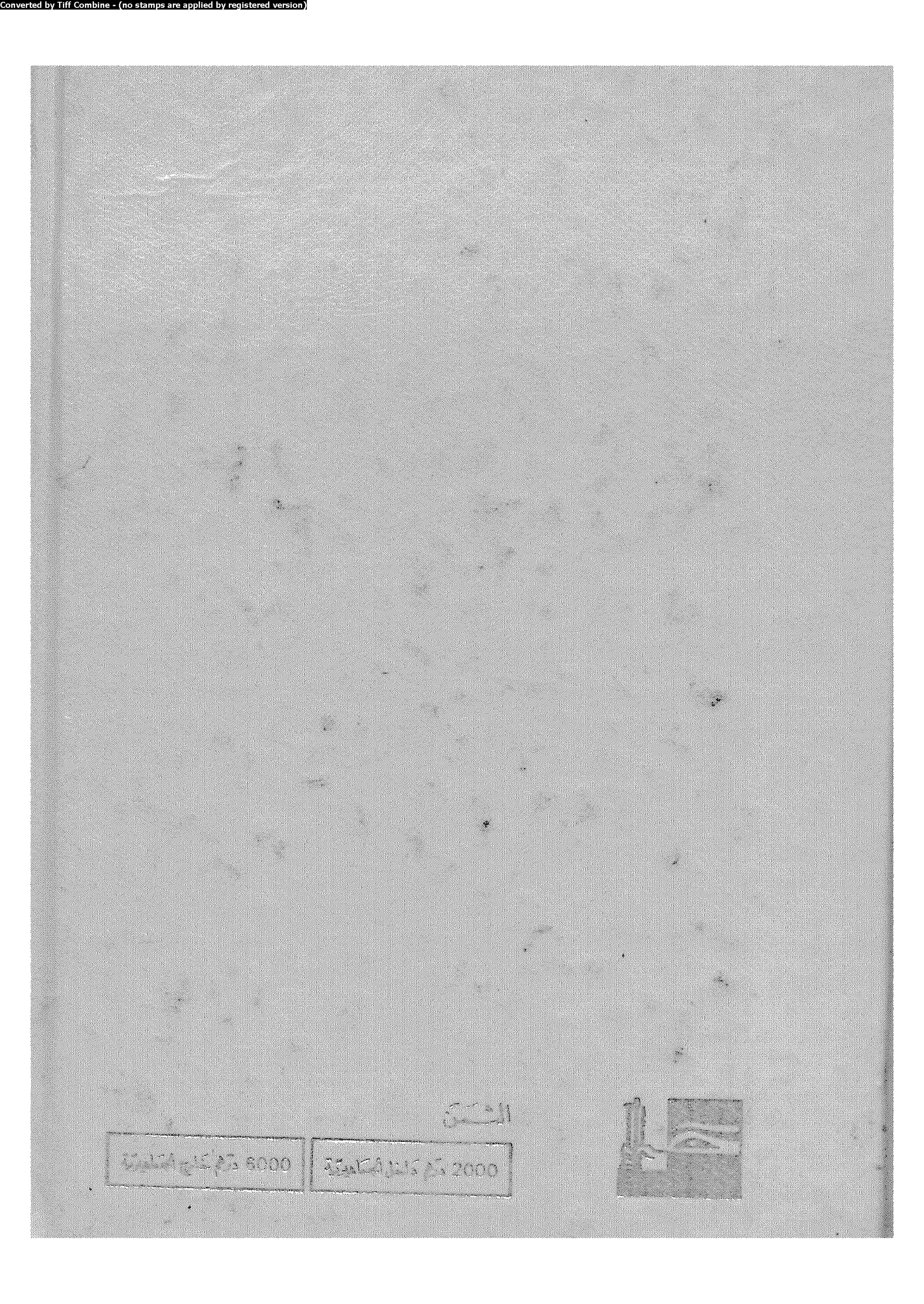











6000
2000